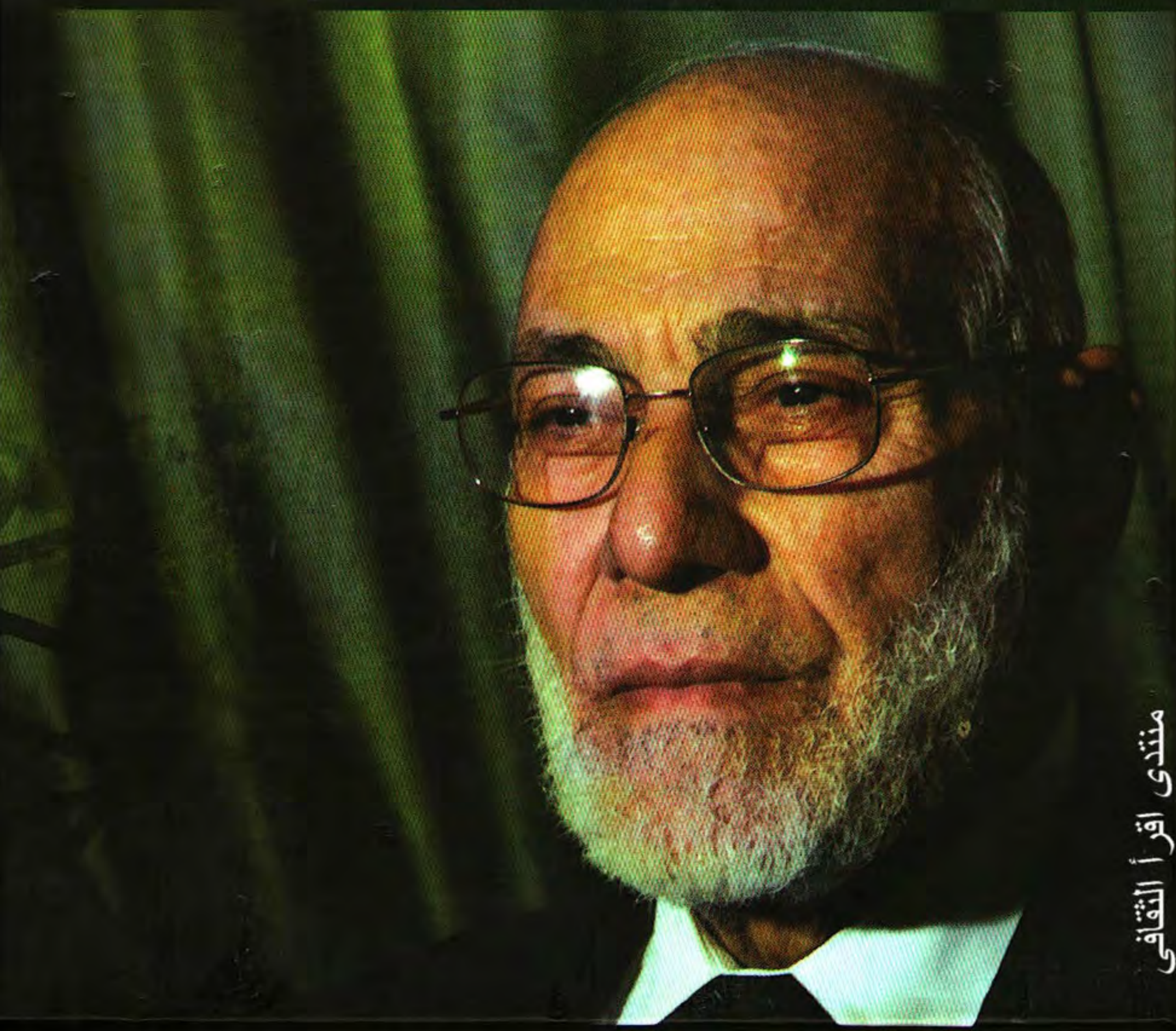
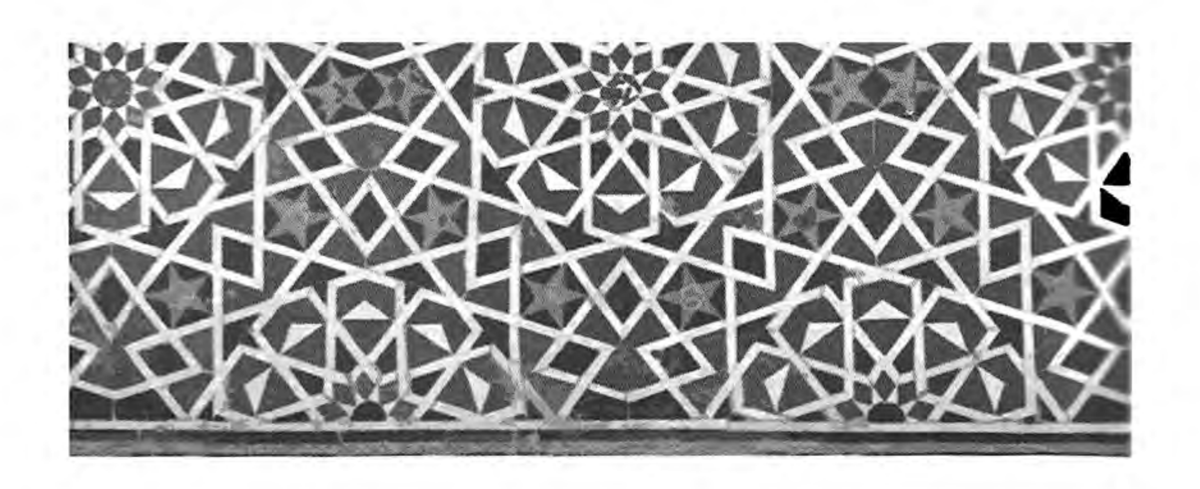
الطبعة الثانية

أ.د. زغلول النجار

رسالتي إلى الأمة





رسالتي إلى الأمة

بقلم الأستاذ الدكتور

زغلول النجار

أستاذ علوم الأرض بعدد من الجامعات العربية والأجنبية،

زميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم،

رئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة - ج. م. ع.



العنوان:

رسالتي إلى الأمة

تأليف:

الأستاذ الدكتور/ زغلول النجار

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 977-14-4246-5
رقم الإيداع: 2008/2964
الطبعة الثانية: يناير 2011



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

مقدمة

هذه هي رسالتي إلى أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، أدعوها من خلالها إلى تحقيق القضايا السبع التالية، لعل الله تعالى يكتب لها - بتحقيق تلك القضايا الأساسية - البعث من جديد؛ حتى تقوم بدورها المكلفة به في هداية غيرها من الأمم الضالة التائهة من حولها، ولا تترك زمام قيادة العالم بأيدي الكفرة والمشركين، والضالين، والمنحرفين، المغامرين الشرهين ممن ملكوا أسباب الغلبة المادية، فأغرقوا الأرض في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، والحروب الساخنة والباردة، والمؤامرات والدسائس والفتن، المعلن منها وغير المعلن، وفرض مختلف صور التحلل الأخلاقي والسلوكي على أهل الأرض بالقوة بدعوى العلمنة، أو محاربة الإرهاب أو صراع الحضارات.

وهذه القضايا السبع الأساسية يمكن إيجازها فيما يلي:

أولًا: ضرورة الإيمان بأن الإسلام دين ينبني على أساس من القناعة القلبية والعقلية الكاملة، وعلى أساس من العلم والالتزام، ولا ينبني على الإكراه، ولا على الجهل أو الميراث فقط. من هنا كانت ضرورة التأمل في النفس وفي الآفاق للتعرف على حاجة الإنسان لخالقه، وعلى شيء من صفات هذا الخالق العظيم، وعلى حتمية الإيمان بالله - تعالى - والتسليم بحاجة الإنسان الفطرية إلى الدين، وعلى حقيقة أن الدين عند الله الإسلام الذي علّمه ربنا - تبارك وتعالى - لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأنزله على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأكمله وأتمه وحفظه في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وانطلاقًا من ذلك كانت حاجة الإنسانية إلى الإسلام، وكانت حاجة الإنسان إلى مدارسة هذا الدين منذ نعومة الأظفار، والالتزام بتعاليمه حتى تتأكد وحدة رسالة السماء، والأخوة بين الأنبياء، وبين الناس أجمعين، وحتى يستبين فضل الإسلام العظيم على غيره من المعتقدات، وفضل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على غيرهما من الكتب، والسنن، وحتى تتضح حاجة المسلمين إلى التعرف على حضارتهم وعلى تاريخهم فيسعوا إلى استعادة دورهم في هداية البشرية من جديد.

ثانيًا: ضرورة إعادة قراءة التاريخ:

على المسلمين أن يعيدوا قراءة تاريخهم من جديد للتعرف على الدور الرائد للحضارة الإسلامية التي استمرت لعدة قرون، استطاعت خلالها تغيير وجه الأرض بالكامل ونقلت الناس من الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، إلى التوحيد الخالص لله الخالق (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد)، كما نقلتهم من الانحطاط بمدلول الألوهية حتى عبد الحجر والشجر والبشر، إلى تعظيم الله وتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ومن التشرذم والتفرق والضياع، إلى بناء الأمة الوسط التي أقامت أعظم حضارة في تاريخ البشرية، ومن الانحلال الأخلاقي والسلوكي والتحلل البشري إلى الارتقاء بالإنسان إلى مقامات التكريم التي رفعه إليها الله، ومن جور الحكام إلى عدل الرحمن، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن التركيز على الحياة الدنيا بمتعها المادية فقط إلى الجمع بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، مما حقق للبشرية أعظم حضارة في تاريخها الطويل، وأنجز من أسباب التقدم العلمي والتقني ما شكّل القاعدة الأساسية التي انطلقت منها الحضارة المادية المعاصرة، وحقق من عوامل الالتزام الديني ما أقام أفضل المجتمعات الإنسانية على مر التاريخ.

وفي دورة من دورات الزمن أترف المسئولون عن هذه الحضارة الراشدة، وانشغلوا بالدنيا انشغالًا صرفهم عن رسالتهم الخالدة، وأوقعهم في خطأ الصراعات الداخلية مما مكن الأعداء من الانقضاض عليهم، وإنهاء دورهم القيادي وإطفاء جذوة حضارتهم. وقد تمثل ذلك في إسقاط دولة المسلمين في الأندلس في سنة 898 هـ/1492 م بعد حكم زاهر دام لثمانية قرون كاملة، وبعد سلسلة من الحروب الصليبية/الصهيونية استمرت من القرن الحادي عشر الميلادي إلى اليوم، وبعد غارة المغول على بلاد المسلمين في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي حتى تم إسقاط بغداد وتدميرها بالكامل سنة (656 هـ/1258 م).

ثم كان إنهاك دولة الخلافة العثمانية حتى تم إسقاطها في سنة (1343 هـ/1924 م) عقب احتلال غالبية أراضي المسلمين احتلالًا عسكريًا بواسطة مختلف الدول الغربية والشرقية غير المسلمة. وفي ظل هذا الاحتلال العسكري تم تفتيت العالم الإسلامي إلى أكثر من 57 دولة ودويلة، كما تم إقصاء الإسلام في ديار المسلمين عن مقامات اتخاذ القرار، فتم إلغاء مفهوم الأمة الواحدة بتأكيد الحدود المصطنعة

التي وضعها الاستعمار، وبإثارة العصبيات العرقية، والدينية، والمذهبية المختلفة، وبإشعال الخلافات السياسية والحدودية، حتى تم تقليص أرض الخلافة العثمانية قبل إسقاطها إلى أقل مساحة ممكنة، وتم تغريب المسلمين عن دينهم الذي لم يبق لهم منه إلا العبادات وبعض تشريعات الأسرة في الأحوال الشخصية فقط.

من هنا اعتبرت كل صور مقاومة المحتل الغاصب للأرض تمردًا وإرهابًا، وكل صور التغريب والغزو الفكري تحضرًا وانفتاحًا، وكل مناداة للعودة إلى أصولنا الإسلامية ردة عن العصر وانغلاقًا، وصرفًا للطاقات البشرية عن البحث في حلول حقيقية للمشاكل المادية التي يعيشها المسلمون هذه الأيام، ومن هنا كان إصرار الأعداء في الداخل والخارج على محاربة كل حركة إسلامية صالحة، وتطويقها سياسيًا وإعلاميًا من أجل شل حركتها الإصلاحية وتدميرها بالكامل.

ثم بلغ هذا الكيد مداه بغرس الكيان الصهيوني الغريب في قلب العالم الإسلامي، ودعمه بكل وسائل الدعم المادي والعسكري والسياسي حتى أصبح المالك الوحيد لأسلحة الدمار الشامل في المنطقة العربية، وبالغ في التخطيط لإفناء الشعب الفلسطيني على مراحل متدرجة تحت سمع وبصر العالم ومؤسساته الصورية، من أمثال هيئة الأمم، ومجلس الأمن، ومنظمات حقوق الإنسان، وغيرها. وقد تجلت وحشية هذه الخلية السرطانية الصهيونية، وهمجيتها، وكراهيتها للإنسانية في هجمتها الأخيرة على قطاع غزة فدمرت القطاع بالكامل بعد حصار ظالم استمر لعدة سنوات من البر والبحر والجو، في محاولة شيطانية للقضاء على مليون ونصف المليون نفس جوعًا ومرضًا، وقتلت آلاف المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ والشبان باستخدام العديد من الأسلحة المحرمة دوليًا في قسوة لم تعهد لها ساحات القتال نظيرًا من قبل.

ولا يزال الغرب مصرًا على غفران كل جرائم الإسرائيليين مهما بلغت بدعوى أنهم شعب الله المختار وأبناؤه وأحباؤه، وفي المقابل لا يزال الغربيون مصرين على التدخل المباشر في شئون المسلمين بالقوة كما تحقق في غزو الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لكل من أفغانستان والعراق، وتدخلهم السافر في كل من الصومال والسودان، وإصرارهم على الاستمرار في سياسة إضعاف المسلمين واضطهادهم وإخضاعهم بالقوة لنمط الحياة الغربية بدعوى تحديثهم.

وإعادة قراءة التاريخ هي من ضرورات تصحيح الأمم لمسيرتها، ومن عوامل نهوضها من كبواتها، بمعرفة أسباب الضعف وعلاجها، وأسباب القوة والأخذ بها،

ومن ضرورات التعرف على الأصدقاء والتعاون معهم، واكتشاف الأعداء وتحاشيهم ومعرفة كيفيات التعامل معهم، والتسليم بحتمية الصراع بين الحق والباطل وهو من حتميات الوجود في هذه الحياة الدنيا.

ثالثًا: ضرورة التأصيل الإسلامي لجميع المعارف المكتسبة:

ويتم ذلك بالبدء بعملية إصلاح شاملة في التعليم، والبحث العلمي وتطبيقاته، والإعلام بمختلف مجالاته، والاقتصاد، والإدارة، والسياسة والحكم والعلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية، وفي كل منحى من مناحي الحياة على أساس من مبادئ الإسلام وأخلاقه وقيمه الصحيحة، حتى يعود تطبيق الإسلام نظامًا كاملًا شاملًا حاكمًا لحياة الأمة في كل أمر من أمورها، في غير تكلف ولا افتعال، وذلك لأن الإسلام كما تكامل في بعثة الرسول الخاتم ﷺ لم يكن مجرد قضايا تعبدية فقط، ولكنه كان نظامًا كاملًا شاملاً لمختلف مناشط الحياة، فكان دينًا ودولة، أمة وحكومة، قيادة وعبادة، مصحفًا وسيفًا، ولا تنطوي العودة إلى تطبيق الإسلام من جديد على رفض معطيات الحضارة المعاصرة - كما يتخيل البعض - لأن «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أولى الناس بها»، ولأن المسلم لا يمكن له أن ينفصل عن عصره حتى يتمكن من معايشة أهل زمانه، ومن ثم القيام بأمانة التبليغ عن الله - تعالى - وعن رسوله ﷺ، وكلاهما جزء من رسالة المسلم على هذه الأرض.

والأمة الإسلامية قادت الدنيا حين طبقت شرع الله - تعالى - تطبيقًا كاملًا شاملًا في حياتها، ثم ذلت وهانت وتخلفت حين تغربت عن دين الله، وتنكبت الطريق إلى العديد من النظم الوضعية التي أثبتت التجربة فشلها كالشيوعية، والاشتراكية، والديمقراطية والرأسمالية وغيرها مما صنع الذين لا يملكون صلة بوحي السماء. أما أصحاب آخر الرسالات السماوية وأتمها وأكملها، وحملة الرسالة الوحيدة التي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظها فحفظت في نفس لغة وحيها (اللغة العربية) فعار عليهم أن يتركوا الهداية الربانية إلى النظم الوضعية، مهما بدا لها من بريق، ومهما ادعت قدرتها على إصلاح أحوال الناس، وذلك لأن فعل الله - تعالى - يتسم بالكمال المطلق، وأعمال الناس - مهما أتقنت - تتسم بالنقص وعدم الكمال. وعلى ذلك فإن الرسالة التي أدونها هنا هي - في جملتها - دعوة للمسلمين في كل مكان بضرورة العودة إلى تطبيق الإسلام بشموله على مستوى الفرد، والأسرة،

والمجتمع والدولة، والدعوة إلى تطبيقه في العالم كله إن أمكن، وفي مختلف المجالات من التعليم إلى البحث العلمي والتقني، إلى الإعلام بمختلف مجالاته، إلى الإدارة والاقتصاد، إلى نظم السياسة والحكم، إلى العلاقات الاجتماعية الداخلية والخارجية وغيرها.

وهذه الدعوة تدرك تمام الإدراك أن تجديد النهضة الحضارية لأمة الإسلام لن يتحقق بمجرد إعلان المبادئ والمفاهيم والقيم الأخلاقية لهذا الدين، والتي لن يقوم بعث الأمة الإسلامية بغيرها، وإنما لا بد أن يتبع ذلك بالعمل الجاد على إقامة المؤسسات وتكوين الكوادر البشرية القادرة على تحقيق ذلك.

وهذه الدعوة تدرك تمام الإدراك صعوبة تحقيق ذلك في دول تحكمها تيارات سياسية وفكرية وإعلامية وتعليمية متغربة غربة كاملة عن دينها ومبادئه وأخلاقياته وقيمه، وهذه التيارات ادعت ولا تزال تدعي أن المسلمين المعاصرين لا يملكون النظم الحاكمة لمؤسسات التأصيل الإسلامي المطلوب، ولا الكوادر القادرة على تحقيق ذلك التأصيل. وهذا الكلام لا يمت للحقيقة بصلة، لأن الأمة تملك آلاف المتخصصين القادرين على تحقيق عملية التغيير إلى الإسلام، وعلى وضع النظم وإقامة المؤسسات المؤهلة لتحقيق عملية التغيير، ولكنهم لا يملكون القرار السياسي لتحقيق ذلك على مستوى الوطن أو الأمة، وإن نجحوا في إقامته على مستوى العديد من المؤسسات الخاصة في التعليم والتطبيب والإعلام والمال والصناعة والزراعة والتجارة وغير ذلك. والنماذج لهذه النجاحات كثيرة في معظم الدول المسلمة من مثل ماليزيا، باكستان، تركيا، ومصر على سبيل المثال، لا الحصر.

وادعاء المتغربين من أبناء الأمة بأن المناداة بشمول الإسلام – كتابًا وسنة – لا تعني أن في هذين المصدرين الرئيسين من مصادر التشريع الإسلامي تفاصيل النُّظُم اللازمة لتحقيق إعادة بعث أمة الإسلام من جديد في كل مناشط الحياة، هو ادعاء باطل؛ لأن مقاصد الشريعة لا تتحقق بمجرد العلم بها، بل لا بد أن يقترن العلم النافع بالعمل الصالح لتحويل التشريع إلى واقع عملي مقام. كذلك فإن من مصادر الشريعة الإسلامية بالإضافة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هناك: القياس،

والإجماع، والاستحسان، والاستصحاب والمصالح المرسلة. ومن هنا فإن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحًا على مصراعيه، وذلك لأن هذا الباب قامت على أساسه المذاهب الفقهية، ولم يقفل إلا بعد إطاحة التتار بالخلافة الإسلامية، فخاف أهل الحل والعقد من العلماء أن يتحول الاجتهاد إلى مطية لخدمة الأهداف غير الإسلامية، فأعلنوا الاكتفاء بما لديهم من الاجتهاد الذي استوفى مطالب الحياة.

ونسي المعارضون لتطبيق الإسلام نظامًا كاملًا شاملًا للحياة أن من مزايا الشريعة الإسلامية أنها قابلة للتجديد باستمرار، وأنها منفتحة على تطور المجتمعات الإنسانية ومستجداتها، فما وافق روح الإسلام أخذته، وما جافى مبادئه وأهدافه وقيمه رفضته، وحذرت الناس منه، تحقيقًا للعدل، وتحريًا للمصالح، ودرءًا للمفاسد، ورفعًا للحرج عن العباد، ولذلك اعتبرت المصالح المرسلة، والاستحسان، والاستصحاب من جملة أدلة الشريعة الإسلامية التي جعلت من اجتهاد العقل السوي دليلًا من أدلتها، وجعلت العدل هو الغاية من تطبيقها، لأن الشريعة الإسلامية قامت على حفظ المصالح ودرء المفاسد، ومراعاة العدل، وإباحة ما تستحسنه الفطرة السليمة من استمتاع حلال، وما يندرج في العمل على تحسين الحياة الإنسانية، ومراعاة تقدمها، وتنمية الحضارة الإنسانية، والاعتزاز بكل نافع مفيد من ثمرات العقل الإنساني، والنتائج الصحيحة لتجاربه، انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[1].

وعلى ذلك فإن أساس الشريعة الإسلامية هو مصالح العباد في الدنيا والآخرة، لأنها أي الشريعة الإسلامية عدل كلها، ورحمة كلها، وحكمة كلها، ومصالح كلها. وعلى ذلك فإن كل مسألة خرجت عن العدل إلى الظلم، وعن الرحمة إلى الجور، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث هي ليست من الشريعة الإسلامية في شيء كما أجمع فقهاء الأمة.

ومن مقاصد الشريعة الإسلامية تحقيق الضروريات، والحاجيات، والتحسينات، بهذا التدرج المنطقي. والضروريات هي المقاصد الأصلية، وتشمل حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ الدين، وحفظ النسل، وحفظ المال.

ويبقى الاجتهاد بإعمال العقل في غيبة النص، وفق ضوابط شرعية معينة، واحدًا

(1) سنن ابن ماجه – كتاب الأحكام – باب من بنى في حقه ما يضر بجاره.

من أهم آليات الشريعة الإسلامية الغراء في تفعيل أحكامها، وتطبيقها على الوجه الذي أراده الشارع، وفي تطويرها، واتساعها بقدر ما تتطور الحياة وتتسع، في التزام دقيق بمبادئ الشريعة وضوابطها الأخلاقية والسلوكية؛ ولذلك سند قوي في الحديث الذي رواه معاذ بن جبل – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ سأله عندما وجهه إلى بلاد اليمن معلمًا وقاضيًا، فقال له: «**كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟**» قال: أقضي بكتاب الله. قال: «**فإن لم تجِد في كتاب الله؟**» قال: فبسنة رسول الله. قال: «**فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟**». قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب رسولِ الله ﷺ صدرَه وقال: «**الحمد لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله**»[1].

وقد طبق الخلفاء الراشدون – رضي الله تعالى عنهم أجمعين – كما طبق التابعون ذلك الاجتهاد في الانفتاح على الحضارات المعاصرة لهم والسابقة عليهم، وغربلة معطياتها بمعايير الإسلام، فما وافق روح هذا الدين الخاتم أخذوه، وما جانبه رفضوه ونبذوه، وحققوا بذلك الكثير من النظم والقوانين والمؤسسات النافعة، وأحدثوا العديد من الأقضية الجديدة في المعاملات الاقتصادية والاجتماعية التي لم تكن موجودة على عهد رسول الله ﷺ ما دامت ملائمة لروح الشريعة الإسلامية ومحققة لمقاصدها في ضوء القواعد الكلية للإسلام، الضامنة لكل المبادئ والأخلاقيات والوسائل المشروعة لبناء نظام إسلامي حضاري متميز.

أما القول بأن النظم الحضارية هي محاولات بشرية تنطلق متحررة من كل القيود سوى القيود الأخلاقية، فهو كلام ينفيه الواقع؛ لأن كل النظم الوضعية التي جربتها البشرية أثبتت فشلها الكامل في الإصلاح من أحوال شعوبها مهما تجملت في ذلك، فيما عدا مجال التقدم العلمي والتقني الذي انطلق في أطر مادية بحتة فحقق قفزات هائلة، إلا أن تخلي تلك الشعوب عن الالتزام الديني الصحيح جعلها توظف ثمار هذا التقدم العلمي والتقني في تكديس الأسلحة المتطورة (التقليدية وغير التقليدية ومنها أسلحة الدمار الشامل)، وفي استنزاف ثروات الأرض، وتلويث مختلف بيئاتها، وفي العديد من الحروب الساخنة والباردة، والتي راح ضحيتها مئات الملايين من الضحايا، وغير ذلك من الجرائم، والفضائح، والسلوكيات الضارة بأهل الأرض

(1) سنن أبي داود – باب اجتهاد الرأي في القضاء.



جميعًا من أمثال الكارثة المالية والاقتصادية الراهنة والتي تتهدد أهل الأرض جميعًا بالدمار بسبب شراهة النظم الرأسمالية لجمع المال دون أدنى ضوابط أخلاقية أو سلوكية. وعليه فلا يمكن أن يكون السبيل إلى تحقيق نهضة معاصرة للمسلمين هو اقتفاء آثار تلك النظم الوضعية التي انكشف عوارها لكل ذي بصيرة.

بل إن البعث الحقيقي للإنسانية كما أرادها الله – تعالى – هو في عودة المسلمين إلى تطبيق الإسلام نظامًا كاملًا شاملًا للحياة، مع الأخذ بكل المشروع من أسباب التقدم العلمي والتقني، والرقي التعليمي والإعلامي، والنهوض المالي والاقتصادي، والعدل السياسي والاجتماعي، وبغير ذلك من مناشط الحياة التي يرتضيها ربنا – تبارك وتعالى – من عباده الصالحين، وذلك لأن الإسلام هو دين العقل، ودين العدل، ودين الحق، ودين الرحمة، ودين الأخذ بكل وسيلة مشروعة لكسب المعارف النافعة، وتوظيفها توظيفًا دقيقًا من أجل إعمار الأرض وإقامة شرع الله وعدله فيها، وهذا من واجبات كل مسلم، ومن وسائل عونه على القيام برسالته في هذه الحياة على الوجه الذي يرتضيه الله – سبحانه وتعالى – ومن أجل الوقوف على طريق النهضة الإسلامية الحقيقية.

أما الادعاء بأن الدعوة إلى تطبيق الإسلام كنظام كامل شامل للحياة لا توجه واقع المجتمعات المسلمة نحو غايات الإسلام ومبادئه العليا، بل تمثل عقبة حقيقية في طريق التجديد، والعمل لتغيير أوضاع المسلمين الحاليين إلى الأفضل (وأوضاعهم الحالية هي أوضاع مزرية تدعو إلى الرثاء والحسرة)، وأنها دعوة مخالفة لحركة كل من الزمان والمكان، ومعارضة لحتمية التغيير، وإدانة لكل التجارب الإنسانية الناجحة التي تمَّت خارج حدود العالم الإسلامي، فهو ادعاء بعيد كل البعد عن الحقيقة، وذلك لأن المسلمين في كل عصور نهضتهم التزموا بشرائع دينهم، واستفادوا بكل نافع ومفيد في الحضارات المزامنة لهم والسابقة عليهم ووضعوها في إطارها الإسلامي الصحيح، وحققوا بذلك أزهى العصور في تاريخ البشرية رغم التحديات الكثيرة التي جابهوها، وذلك لأن الصراع بين الحق والباطل هو سنة من سنن الحياة، والحق لا ينتصر لمجرد كونه حقًّا، بل يحتاج إلى من يؤمنون به، ويدافعون عنه ويحققونه أمرًا واقعًا في حياة الناس، ويبذلون في سبيله النفس والنفيس، وعلى ذلك فالمخرج للأمة الإسلامية من أزماتها الحالية المتراكمة عبر فترات الركود، هو **التأصيل الإسلامي**

الصحيح للحياة، بمعنى إعادة تطبيق الإسلام نظامًا كاملًا شاملًا للحياة، لا في الإطار النظري فقط، بل أمرًا واقعًا في حياة الناس.

رابعًا: ضرورة إبراز ما في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من أوجه الإعجاز المتعددة، وذلك من مثل الإعجاز اللغوي، التشريعي، العقدي، التعبدي، الأخلاقي، السلوكي، العلمي، التاريخي، التربوي، النفسي، الاقتصادي، الإداري، الإنبائي، والصوتي، بالإضافة إلى كل من الحفظ والتحدي؛ فقد حفظ القرآن الكريم على مدى يزيد على الأربعة عشر قرنًا في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) دون أن يضاف إليه أو أن ينتقص منه حرف واحد؛ لأن الله - تعالى - هو الذي تعهد بحفظه تعهدًا مطلقًا إلى ما شاء من الزمن. كذلك تحدى الله - سبحانه وتعالى - كلًّا من الإنس والجن - فرادى ومجتمعين - أن يأتوا بشيء من مثل القرآن الكريم، ولم يتمكن أحد من ذلك حتى يومنا هذا، على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلت في هذا السبيل؛ مما يؤكد لكل ذي بصيرة أن القرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله- ﷺ - وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) ولم يقطعه لرسالة سماوية سابقة أبدًا وذلك لكون الرسالة المحمدية هي آخر الرسالات السماوية، وأن الله - تعالى - من عدله المطلق لا يحاسب الناس دون إنذار.

خامسًا: ضرورة التعرف على دور الحضارة الإسلامية في وضع القواعد الأساسية لأغلب المعارف المعاصرة، وأن تلك الحضارة التي كانت أطول وأكمل الحضارات التي نعرفها جمعت بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، وشكلت المحضن الحقيقي للحضارة الراهنة التي انسلخت عن الدين وركزت على الجوانب المادية في الحياة فأصبحت حضارة عرجاء تقدمت علميًّا وتقنيًّا ولكنها انحسرت دينيًّا وإنسانيًّا وأخلاقيًّا وسلوكيًّا، وأشقت الإنسان وهددت حياته ولا تزال تهددها بالدمار.

سادسًا: ضرورة السعي لتوحيد المسلمين في أمة واحدة من جديد:

وذلك لأننا نعيش اليوم في عالم التكتلات الذي يقول عنه علماء الاجتماع إنه لم يعد فيه مجال للتجمعات البشرية الصغيرة أن يكون لأي منها بصمة على مجريات

الأحداث في العالم، بل عليها أن تعيش تابعة ذليلة للتكتلات البشرية الكبيرة التي تستغلها، تبتز ثرواتها وتفرض عليها إرادتها بالقوة.

وانطلاقًا من هذا المفهوم الذي يسود عالم اليوم سعت الدول الأوروبية إلى التوحد من أجل إيجاد مكان لها على خارطة العالم، فتوحدت ثمانٍ وعشرون دولة أوروبية في كيان واحد يعرف باسم «الوحدة الأوروبية» له علم واحد، وعملة واحدة، وبنك مركزي واحد، وبرلمان واحد، وقيادة عسكرية واحدة، وزعامة سياسية واحدة، على الرغم من اختلافات هذه الدول الثماني والعشرين في اللغة، وفي العرق، وفي المعتقد والمذهب، وفي المستويات الاقتصادية، وفي العادات الاجتماعية والسلوكيات الفردية والجماعية، وفي غير ذلك، ولكنهم اقتنعوا بأنه لا وجود لهم في عالم التكتلات الذي نعيشه بغير توحدهم فتجاوزوا كل هذه الخلافات، وتجمعوا في وحدة واحدة، حققوها على مراحل متأنية من التخطيط والتنفيذ.

ونحن معشر المسلمين إلهنا واحد، وديننا واحد، ونبينا واحد، وقرآننا واحد، وقبلتنا واحدة، وأرضنا متصلة، ومصالحنا متشابكة، وتاريخنا القديم واحد، ومشاكلنا الحالية واحدة، وآمالنا المستقبلية واحدة، فلماذا لا نتوحد؟

إنها القوى الاستعمارية التي أسقطت دولة الخلافة الإسلامية والتي فتتت أمة الإسلام إلى أكثر من 57 دولة ودويلة، بالإضافة إلى أقليات تقدر بمئات الملايين وسط غالبية كافرة أو مشركة أو مبتدعة في أمور الاعتقاد هي التي باعدت بين كل منا، وسعت، ولا تزال تسعى إلى المزيد من تفتيتنا ولذلك حذرنا القرآن الكريم من كيدهم وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: 32).

فهل آن الأوان للمسلمين أن يتحرروا من هيمنة الدول الاستعمارية التي امتصت دماءهم، ونهبت ثروات بلادهم، وأهدرت كرامتهم وذلك بفهم حتمية توحد الأمة لاستعادة كرامتها ومجدها التليد؟ ونحن أعراق مختلفة لم يجمعنا في القديم إلا الإسلام العظيم، ولن يجمعنا في الحاضر والمستقبل معتقد غيره!

وانطلاقًا من ذلك فإن على دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي المعاصر أن يسعوا لتحرير الأوطان المغتصبة من بلاد المسلمين وفي مقدمتها أرض كل من فلسطين،

وأفغانستان والعراق، وداغستان، وتتارستان، وبشكيرستان، والقوقاز، وأوسيتيا، وأبخازيا، والشيشان، وكشمير، وأراكان وجنوب الفلبين، وسبتة ومليلية وجزيرة ليلى، وغيرها من بلاد المسلمين.

وعلى دعاة الإسلام أن يعملوا على حل خلافات المسلمين وجمع كلمتهم، وتوحيد لغتهم، وثقافاتهم واقتصادياتهم، وغير ذلك من مصالحهم على مراحل مدروسة، تقود إلى الوحدة الكاملة إن شاء الله – تعالى – ولو عبر قرن من الزمن، ولنبدأ بسوق إسلامية مشتركة. تنتهي إن شاء الله – تعالى – بوحدة إسلامية كاملة لها علم واحد، وعملة واحدة، وبنك مركزي واحد، وجيش واحد، وشرطة واحدة، وقيادة سياسية واحدة، وعلاقات خارجية واحدة؛ حتى لا تبقى قيادة العالم في أيدي من لا يعرفون الله، ولا يعلمون حدوده، ولا يخشون عقابه، فيملئوا الأرض جورًا، وظلمًا، وطغيانًا، وتجبرًا، وإفسادًا وتحللًا، ويغرقوا الأرض في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار كما هو حاصل اليوم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: 46).

سابعًا: ضرورة الاهتمام بنشر الدعوة الإسلامية:

انطلاقًا من التسليم بضرورة التدافع الحضاري بين الناس، وبحتمية الصراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين عباد الرحمن وعبدة الشيطان، ومن التسليم بأن الحق لا ينتصر لمجرد كونه حقًّا، ولكنه يحتاج إلى من يؤمنون به، ويدافعون عنه، ويبذلون الجهد والمال والنفس والنفيس في سبيله، ويقينًا بأن الحق الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم في أمر الدين هو الإسلام العظيم المحفوظ بحفظ الله – تعالى – في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين، وتحقيقًا لأمر رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج** ....»[1]، وانطلاقًا كذلك من حقيقة أن الأصل في الإنسان الخير، وأن الشر من الأمور العارضة له، ومن حقيقة أن

(1) صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

الغلبة في جميع الأمور المادية قد آلت اليوم إلى أيدي من لا يعرفون الله، ولا يقفون عند حدوده، ولا يخشون عذابه، أصبح السلاح الوحيد بأيدي المسلمين اليوم – للدفاع عن دينهم، وقرآنهم، وسنة نبيهم، وعن مقدساتهم ودمائهم وأعراضهم، وممتلكاتهم وأراضيهم، وعن الحق الذي يحملونه إلى الناس أجمعين – هو الدعوة إلى دين الله بالكلمة الطيبة، والحجة البالغة، والمنطق السوي، وباللغة الوحيدة التي يعرفها أهل عصرنا وهي لغة العلم، وتوظيف كل وسائل العصر الإعلامية في حسن التبليغ عن الله – سبحانه وتعالى – وعن رسوله ﷺ لإثبات حاجة الإنسانية كلها إلى الإسلام، ومن ثم يبرهنون على عالمية الدعوة التي تؤمن بوحدانية الله – تعالى – وبتنزيهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله؛ وتؤمن بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء، وبين جميع الناس، كما يؤكدها القرآن الكريم بقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (البقرة: 285).

فالإسلام دعوة ربانية، تحقق الأخوة الإنسانية وتؤكد كرامة الإنسان، وتدعو إلى تحقيق السلام على الأرض، وتجاهد من أجل المحافظة عليه، وتحترم العهود والمواثيق، وتؤكد حتمية توفيتها بالحق، وتجاهد من أجل المحافظة على كرامة وصون حقوق كل مخلوق، وتسعى إلى تربية الإنسان الصالح الفاهم لرسالته في هذه الحياة، والقادر على تحقيقها أمرًا واقعًا في حياة الناس، الذين يعتبرهم الإسلام جميعًا إخوة وأخوات ينتهي نسبهم إلى أب واحد هو نبي الله آدم – عليه السلام – وأم واحدة هي أمنا حواء – عليها رضوان الله – ومن هنا كان التأكيد الإسلامي على حقيقة الأخوة الإنسانية، وعلى إقرار التعامل بالبر والإحسان بين الناس جميعًا، وعلى تحريم كل السلوكيات الخاطئة كالتمسك بالعصبيات العرقية أو الطبقية أو المذهبية أو الجنسية؛ لأنها من المخالفات البينة لشرع الله.

كذلك يؤكد الإسلام العظيم على مرحلية الحياة الدنيا، وعلى اعتبارها قنطرة للآخرة الأبدية الأزلية الخالدة، ومن هنا كان الاهتمام بالدنيا لا يشغل المسلم أبدًا عن المصير الحتمي في الآخرة، وذلك لأن التركيز على الدنيا وحدها قد أصبح واحدًا من أخطر الأدواء التي يعاني منها الإنسان بصفة عامة، وتعاني منها الحضارة المادية المعاصرة بصفة خاصة.

ولما كان الإيمان بالله – تعالى – أمرًا فطريًا زرعه الخالق العظيم في الجبلة الإنسانية، كان الخطاب المنطقي في أمر الدين من أساليب جلاء القلوب، والوصول إلى ما فيها من أوجه الحق، ومن وسائل تذكير الإنسان بحتمية الانتقال من الدنيا إلى الآخرة. وإذا كان الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا في عالم اليوم باعتراف كل أجهزة الاستخبارات العالمية، وإذا كان ذلك يتم دون جهد حقيقي من المسلمين فإن الاهتمام بالدعوة إلى دين الله تصبح من وسائل اقتناع قطاع أكبر من الناس بهذا الدين الحق، وكلما زاد عدد هؤلاء المهتدين إلى دين الله الحق كلما إستطعنا إيقاف تيارين جارفين ومدمرين لإنسانية الإنسان في هذه الأيام؛ **أولهما:** تيار الإفساد للإنسان حتى يتم إخراجه من إنسانيته. **وثانيهما:** تيار معاداة الإسلام والمسلمين بغير الحق، وكلا التيارين من أخطر ما يتعرض له إنسان اليوم من مؤثرات، وإذا استطعنا الحد من طغيانهما أوصلنا الإسلام إلى قيادة العالم من جديد، وفي ذلك خلاص أهل الأرض جميعًا من مخاطر الشرك، والإلحاد، والضلال والضياع والمظالم والفساد التي يتردى فيها إنسان اليوم، ولا خلاص له منها إلا بالدعوة الرصينة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿... **وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (البقرة: 251). ويؤكد الله – تعالى – نفس هذا المعنى في مقام آخر من محكم كتابه بقوله العزيز:

- ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ** ﴾ (الحج: 40 – 41).

وقال ربنا – وقوله الحق –:

- ﴿ **كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ** ﴾ (الرعد: 17).

وقال – تعالى – وهو أحسن القائلين:

- ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: 18).

وقال – عز من قائل –:

- ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (الشورى: 24).

من هنا كانت ضرورة اهتمام المسلمين – أفرادًا وجماعات، وتنظيمات ومؤسسات أهلية وحكومية – بالدعوة إلى دين الله الخالص دون إكراه، أو إجبار، أو استغلال لحاجة المحتاجين لأن من الأصول الثابتة في القرآن الكريم أنه ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ...﴾ (البقرة: 256).

وأنه ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾ (الكهف: 29).

يأمر الله – تعالى – خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يقول للكافرين من قومه: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: 6).

وعلى المسلمين حينما يتعرضون للدعوة إلى دين الله أن يكونوا راغبين بإخلاص وتجرد كاملين في إنقاذ البشرية كلها من خراب الدنيا وعذاب الآخرة، وأن يكونوا موقنين بنصر الله القائل:

- ﴿... وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج: 40).

والقائل:

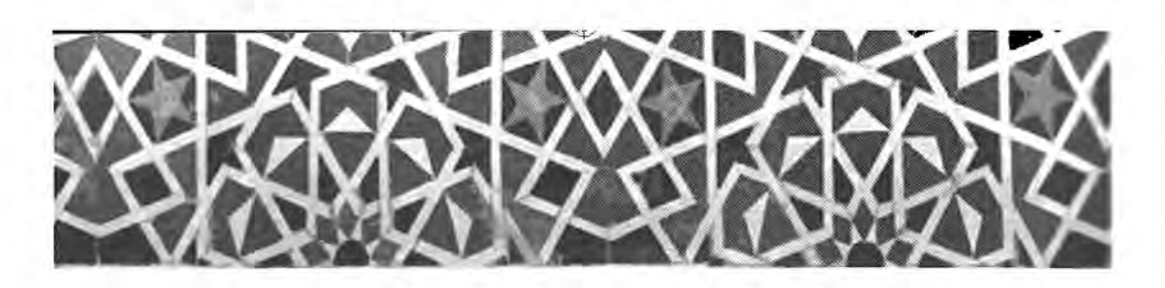
- ﴿... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: 47).

هذه النقاط السبع من الإيمان بأن الإسلام دين ينبني على أساس من القناعة القلبية والعقلية الكاملة، ثم إعادة قراءة التاريخ بشيء من الموضوعية والحيدة، والبدء في التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة، وإظهار ما في القرآن والسنة من أوجه الإعجاز، وإبراز دور الحضارة الإسلامية في النهضة العلمية والتقنية المعاصرة، والسعي الحثيث لتوحيد المسلمين، والاهتمام بنشر الدعوة الإسلامية باللغة التي يفهمها أهل عصرنا، هي علامات على طريق البعث الإسلامي الجديد، وهي فحوى

رسالتي إلى أمة الإسلام، أرجو أن يقيض الله – تعالى – لها آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، وعزائم صادقة حتى تخرج إلى حيز التنفيذ؛ لأن الإيمان الكامل يصدقه العمل الصالح، وإن مقاصد الشريعة الإسلامية لا تتحقق بمجرد العلم بها، فإن المعارف النظرية بمقاصد الشريعة الإسلامية – على أهميتها – تبقى غير كافية لتحقيقها واقعًا حيًّا في حياة الناس – لأنها كي تتحقق لا بد للسلطة الحاكمة من تحويلها إلى تشريعات تستوعبها، وتعبر سياستها الداخلية والخارجية بوضوح عنها، وتصوغ دستورها انطلاقًا منها، ثم تحولها إلى عدد من المؤسسات والمشروعات التي تجسد مقاصد الشريعة الإسلامية في ضوء احتياجات المجتمع المتغيرة مع الزمان والمكان وحسب قدراته. ويتم ذلك انطلاقًا من الدراسات العلمية المتخصصة، والبيانات الميدانية الدقيقة، والإحصاءات الاقتصادية والاجتماعية الشاملة التي تشخص حاجات المجتمع، وتضع البرامج اللازمة للإصلاح فيه، انطلاقًا من الحرص على تحقيق مقاصد الشريعة الإسلامية بتوظيف كل المتاح من آليات تنفيذها، بوعي كامل، وإرادة صادقة، في التعليم والبحث العلمي، وفي الإعلام، والاقتصاد، والإدارة، والسياسة الداخلية والخارجية، ونظم الحكم، وفي العلاقات الاجتماعية المتعددة، وفي غير ذلك من مناشط الحياة حتى تستقيم على منهج الله، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

الفقير إلى عفو ربه

زغلول راغب محمد النجار



البـــاب الأول

من الضرورات اللازمة لتحقيق إنسانية الإنسان

(1) **الفصـل الأول:** حاجة الإنسان إلى التعرف على الكون وعلى ذاته.

(2) **الفصل الثاني:** من الأدلة على حاجة الإنسان إلى الإيمان بالله (تعالى) وبما أخبر من غيوب.

(3) **الفصل الثالث:** حاجة الإنسان الفطرية إلى الدين.

(4) **الفصل الرابع:** حاجة الإنسانية إلى الإسلام.

(5) **الفصل الخامس:** حاجة الإنسانية إلى التعرف على حضارة الإسلام.

(6) **الفصل السادس:** حاجة الإنسان إلى المحافظة على بيئة الأرض.

(7) **الفصل السابع:** حاجة الإنسانية إلى التعرف على التفسير الإسلامي للتاريخ.

حاجة الإنسان إلى التعرف على الكون وعلى ذاته

إن تعرف الإنسان على الكون ضرورة من ضرورات وجوده، يرى فيه عظمة خالقه، وقدرته في إبداع خلقه، ويرى فيه ضآلة وجود الإنسان أمام هذا الكون المتناهي في اتساعه، الدائب في حركته، والمنطلق إلى نهاية لا يعلمها إلا مبدع الكون وخالق الكائنات. ويرى الإنسان في الكون حاجته إلى رعاية خالقه في كل لحظة من لحظات وجوده، وفي كل آن من آناء عمره؛ ويرى في استقراء قوانين الكون والتعرف على سننه، ما يمكنه من عمران كوكبه الأرض، وتسخير كل ما فيه في سبيل سعادته وسعادة الخلق من حوله، ولذلك نجد القرآن الكريم يحض الناس على التفكر في هذا الكون بأسلوب علمي منهجي سليم – فالتنزيل ينطق:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

(آل عمران: 190 – 191).

وفي مقام آخر يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: 57).

وفي معرض ثالث يقول – عز من قائل –: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ (الغاشية: 17 – 21).

ويؤكد ربنا – تبارك وتعالى –: أن معجزات الخلق وما جاء عنه في القرآن الكريم سوف تتضح للإنسان كلما زادت معرفته بذاته وبالمخلوقات من حوله وفي ذلك



يقول – وقوله الحق –: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: 53).

ويضرب لنا القرآن الكريم نموذجًا من نماذج التعرف على شيء من صفات الخالق – سبحانه وتعالى – من خلال التأمل في بديع صنعه في الكون، وذلك بتأمل نبي الله إبراهيم – عليه السلام – في الكون من حوله فيقول:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ (الأنعام: 75).

ويحصي علماء المسلمين أن بالقرآن من أمثال هذه الآيات المتعلقة بالعلوم الكونية أكثر من ألف آية صريحة؛ بينما الآيات المتعلقة بأمور الفقه الإسلامي لا تزيد عن مائة وخمسين آية، وبذلك يحضنا القرآن الكريم على مداومة النظر في الكون ومكوناته وظواهره، ويعتب على الغافلين عن التعرف على الكون وعلى سنن الله فيه عتبًا شديدًا، ومن ذلك قوله – تعالى –:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: 179).

ويقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: 46).

وفي ذلك المعنى يقول ابن عطاء الله السكندري: «الكائن في الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، ومحصور في هيكل ذاته..».

وفي ذلك أيضًا يقول ألبرت أينشتين: «إن أعظم خاطرة يمكن أن تجيش بها النفس البشرية وأجملها، لهي تلك التي يستشعرها الإنسان عند الوقوف في روعة أمام هذا الخفاء الكوني والإظلام.. إن الذي لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته، حي ميت.. إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه، وإظلام لا نستطيع أن نطلع

فجره.. ومع ذلك فنحن ندرك أن وراءه الحكمة؛ أحكم ما تكون.. ونحس أن وراءه الجمال؛ أجمل ما يكون.. وهو حكمة.. وهو جمال.. لا تستطيع عقولنا القاصرة أن تدركهما إلا في صور لهما بدائية أولية.. ولكن هذا الإدراك لهذه الحكمة، وهذا الإحساس بمثل هذا الجمال في أروع ما يكون الجمال، هو عندي جوهر التعبد عند الخلائق». ثم يستطرد فيقول: «إن الشعور الديني الذي يستشعره الباحث في الكون، هو أقوى حافز على البحث العلمي وأنبله». ويضيف: «إن ديني هو إعجابي في تواضع بتلك الروح السامية التي لا حد لها.. تلك التي تتراءى في التفاصيل الصغيرة القليلة التي تستطيع عقولنا الضعيفة العاجزة إدراكها، وهو إيماني العاطفي العميق بوجود قدرة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا في هذا الكون المعجز للأفهام».

والإنسان في الإسلام مخلوق مكرم، خلقه الله – تعالى – بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، وأسجد له الملائكة، وفضله على كثير من خلقه تفضيلًا لأنه هو المخلوق الذي مَيَّزه خالقه بالبيان والعقل، وبالقدرة على التفكير، وعلى اكتساب المعارف والمهارات، ومن ثم فهو المخلوق العاقل المكلف المسئول عن كل عمل يعمله.

ونحن نعلم من الكون ذلك **العالم المادي** بجملته (بجوامده، وسوائله، وغازاته)، **وعوالم الحياة** غير العاقلة وغير المكلفة (نباتية وحيوانية)، وعوالم الحياة العاقلة غير المحسوسة ومنها المسخرة (مثل الملائكة) وغير المسخرة أي المكلفة (مثل الجن).. وهناك الإنسان ذلك المخلوق العاقل المكلف المسئول.

فالإنسان كيان روحي عاقل.. يفكر ويدرك ما يفكر فيه، ويستطيع التعبير عن تفكيره ببيان واضح، كما يستطيع الإدراك في نفسه لمعان وقيم للأشياء والأفعال، تجعله قادرًا على العيش في عالم من الأفكار، والتصورات، والذكريات، والعواطف، مما يمكنه من إدراك ذاته بصورة متميزة عن كل ما سواه من الكائنات الحية الأخرى، رغم ما بينه وبينها من شبه في البناء وفي بعض الهيئة. والشبه في البناء يشير إلى وحدانية الخالق – سبحانه وتعالى – والتمايز في المستوى يشير إلى طلاقة قدرته التي لا تحدها حدود.

والإنسانية في الإنسان ليست بجسده المادي المعقد البناء، ولا بصفاته التشريحية الخاصة التي تحكمها قوانين المادة ومظاهر الحياة، وليست بنسبته إلى سلالة معينة من الكائنات هي «السلالة البشرية»، بمعنى كونه إنسيًّا من الإنس أي غير الجن.. فهذه كلها صفات مادية محضة.. ولكن الإنسانية في الإنسان هي قدرته على الارتقاء

بنفسه إلى الدرجة التي تؤهله للقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، واحتمال تبعات التكليف الإلهي الذي كلفه به الله – تعالى – وتحمل الأمانة التي وصفها القرآن الكريم بقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: 72).

فالإنسان توازن دقيق بين مادة وروح، بينهما عقل يحول دون أن تطغى إحداهما على الأخرى؛ لأنه لو حدث ذلك لخرج الإنسان عن إطاره الإنساني.

والإنسان يتصل بدوافع الحياة المادية، وقوى الغرائز الفطرية عن طريق جسده، أما روحه فهي من أمر الله – تعالى – خالقه وخالق كل شيء. ويتوسط عقل الإنسان بين قوة روحه وحاجات جسده، فهو وازع الجسد ومستلهم الهداية من الروح، وعلى ذلك فالإنسان يعلو على جسده بعقله، ويعلو على عقله بروحه، لأنه يتصل من جانب الجسد بدوافع الحياة، ويتصل من جانب الروح بخالقه وموجهه وملهمه، وحافظه من كل سوء إلى نهاية الأجل المحتوم. وواجب العقل أن يدرك ما وسعه إدراكه من جانبه المحدود، ولكنه لا يستطيع إدراك أي شيء من الغيوب المطلقة إلا بهداية خالقه عن طريق الوحي المنزل على أنبياء الله ورسله، ومن هنا كانت ضرورة الدين لاستقامة حياة الإنسان على الأرض، ولتمكينه من تحقيق رسالته فيها.

والإنسان بفضل كل من عقله وإرادته الحرة المستنيرة بالعقل، هو الكائن المتميز بالقدرة على تحصيل العلم، وبالاستعداد لكسب المعارف عن طريق التعلم والتحصيل والتفكير والإلهام. وهو المخلوق الوحيد القادر على توجيه حياته، وتوجيه قواه وملكاته المادية والروحية، وعلى تسخير الكائنات الأخرى من حوله، والتعرف على سنن الكون. ومن ثم استخدام كل ذلك في التعرف على ذاته، وفي التعرف على خالقه، وفي فهم رسالته في هذه الحياة الدنيا، وفي توفير القدرة على تحقيقها في نور هداية الله وطلبًا لمرضاته.

وجسم الإنسان يتكون أساسًا من الماء مع نسب قليلة من عناصر أخرى لا تكون أكثر من مسمار صغير من الحديد، ورأس عود ثقاب من الكبريت، وكمية قليلة من الكلس.. ولا يكمن السر في هذه المواد ذاتها؛ وإنما يكمن في الروح التي بثها فيها الخالق – سبحانه وتعالى – فتكون نفسًا إنسانية بإذن الله سبحانه وتعالى.

والإنسان كذلك كيان حي خاضع لقوانين الحياة، من ميلاد، ونمو، وتكاثر، وإدهار، وشيخوخة، وموت.. وهذا الكيان الجسدي الحي للإنسان هو كيان بالغ التعقيد، دائم التحول، يتكون من مائة تريليون (أي: مائة مليون مليون) خلية متخصصة (في المتوسط) تنتظمها أنسجة متخصصة، وينتظم كل مجموعة من هذه الأنسجة أعضاء معينة لكل منها وظيفته المحددة، في نظم متكاملة تتعاون كلها في جعل هذا الكيان الحي في نظام غاية في تعقيد البناء ودقة الأداء.

وجسم الإنسان يستهلك من خلاياه حوالي 125 مليون خلية في كل ثانية من ثواني عمره، تنهدم ويتكون غيرها في الحال.. ويبقى الإنسان على الرغم من ذلك كله كيانًا نفسيًّا عاقلًا، يفكر ويدرك، ويشعر ويحس، ويستخلص المعارف من مشاهداته وتجاربه، ويحتفظ بها على الرغم من عمليات الهدم والبناء المستمرة في جسده بمعدلات مختلفة إلى آخر عمره.

وفوق ذلك كله فالإنسان مستخلف على الأرض، ومطالب بعمارتها، وبإقامة شرع الله وعدله فيها، كما هو مطالب بعبادة الله – تعالى – بما أمر، وهي رسالته الأساسية في هذه الحياة الدنيا. والمستخلف مؤتمن على ما استخلف فيه، وانطلاقًا من ذلك فإن الإنسان مؤتمن على الأرض، وأمين على الكون الذي سخره الله – تعالى – له، وعلى ذلك فإن علاقة الإنسان بالكون هي علاقة انسجام وتكامل حسب سنن الله وقوانينه، وليست علاقة مصادمة وصراع كما يدعي الدهريون والملاحدة والمشركون من بني آدم، والذين شوهوا علاقة الإنسان بالكون من حوله، وأفسدوا مختلف بيئات الأرض إفسادًا كبيرًا.

والكون يشمل مجموع المخلوقات الكائنة، وما يرتبط بها من قوى وعمليات متعددة، في المكان والزمان، وذلك يشمل فيما يشمل كل المعارف الإنسانية عن الوجود، ولذلك خرج الناس عن هذا المفهوم الواسع إلى مدلول أكثر تحديدًا، يقتصر على ذلك النظام الشامل للأجرام السماوية (المدرك منها حسيًّا وغير المدرك): أشكالها وأحجامها، كثافاتها وكتلها المتباينة، مادتها وصفاتها، أبعادها وقوى الترابط بينها، بنيتها والهيئات المختلفة التي تنتظمها. وفوق ذلك كله يأتي التفكر في كيفية خلق الكون، ومراحل ذلك، وتقدير ما مضى من عمره، والشواهد على حتمية زواله وفنائه، والاستبدال به كونًا غيره في مستقبل الحياة الآخرة الذي لا يعلمه إلا خالق الكون ومبدع الوجود، وكل ذلك يأتي في مقدمة دراسات الكون.



ولا شك أن التفكير في الكون قد شغل بال الإنسان منذ أن تفتحت عليه عيناه ولكن لم يدون من هذا التفكير إلا النزر اليسير، ولم يصلنا من ذلك إلا أقل القليل.

والأفكار الإنسانية الأولى التي وصلتنا عن الكون مليئة بالخرافات والأساطير التي اختلطت فيها الحقيقة بالخيال، وتأثرت بمعتقدات قديمة مختلفة كانت كلها من وضع خيالات الإنسان، ودس الشيطان، ولو أنها لا تخلو أحيانًا من محاولات علمية منهجية لتفسير بعض الظواهر الكونية. فقد سجل التاريخ أن كلًّا من الحضارة المصرية القديمة (5000 ق.م – 30 ق.م) والحضارة البابلية القديمة (1760 ق.م – 539 ق.م)، قد اهتمتا برصد حركات الأجرام السماوية، واستخدمتا العمليات الرياضية لمعرفة الروابط بينها، وتوصلتا إلى بعض المعلومات الدقيقة عن الشمس ومجراها، وعن مراحل القمر المختلفة، وعن ظهور واختفاء بعض أجرام السماء بصورة دورية، وإن كانت هذه الملاحظات قد صاحبها بعض التفسيرات الموغلة في الخيال.

ودراسة الكون أثبتت أنه مذهل في اتساعه، مذهل في دقة بنائه وفي وحدة هذا البناء.. وهو يشمل أرضنا وشمسنا وقمرنا وغير ذلك من الكواكب والكويكبات والأقمار والمذنبات والشهب والنيازك في مجموعتنا الشمسية، وغير ذلك من النجوم، وتجمعاتها المختلفة الممتدة إلى نهاية السماء الدنيا، ما ندرك منها وما لا ندرك، أما باقي السماوات السبع فلولا أن الله – تعالى – قد أخبرنا عن وجودها في محكم كتابه وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ما كان أمام الإنسان من وسيلة إلى معرفة ذلك أبدًا.

وأما الأرضون السبع التي جاء ذكرها في ختام سورة الطلاق بقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: 12)، فقد ثبت وجودها في داخل الأرض التي نحيا عليها على هيئة سبعة من النطق المتمركزة حول مركز واحد، يغلف الخارج منها الداخل فيها، ومن هنا كانت أرضنا هي مدخلنا إلى دراسة الكون من حولنا.

وكوكب **الأرض** الذي نعيش عليه عبارة عن شبه كرة من الصخر معلقة في الفضاء يبلغ متوسط قطرها 12,740 كيلومتر ومتوسط محيطها 40,042 كيلومتر، ومساحة سطحها 510 ملايين كيلومتر مربع، وحجمها أكثر من مليون مليون كيلومتر مكعب، وكتلتها حوالي 5974 مليون مليون مليون طن.

ويغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض بغلالة مائية يبلغ متوسط سمكها أربعة كيلومترات تقريبًا. ويحيط بها غلاف هوائي له تركيب كيميائي محدد يقدر سمكه بحوالي 1000 كيلومتر وإن كان الإنسان لا يكاد يدركه بعد ارتفاع 40 كيلومترًا من فوق سطحها.

ويحيا على الأرض وفي مياهها وتحت هوائها من صور الحياة الحيوانية والنباتية تريليونات الأفراد من الأحياء التي ينتظمها حوالي مليون نوع من أنواع الحياة النباتية، ونحو مليون ونصف مليون نوع من أنواع الحياة الحيوانية، تنتظمها أجناس محددة، وعائلات، ورتب، وطوائف، وقبائل، وممالك محددة كذلك.

وبإضافة كل من بقايا الحياة البائدة في صخور الأرض، ومعدلات الاكتشافات السنوية للأنواع الجديدة، يقدر عدد أنواع الحياة الأرضية بأكثر من خمسة ملايين نوع، يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد.

والمادة بين الأرض ومائها وهوائها وصور الحياة عليها في حركة دائبة لا تتوقف، ولا تتخلف ولا تنقطع إلى ما شاء الله، وهي شاهدة لله الخالق - سبحانه وتعالى - بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وبطلاقة القدرة التي لا تحدها حدود.

والأرض ثالثة الكواكب السيارة قربًا من الشمس، ويبلغ متوسط بعدها عنها حوالي 150 مليون كيلومتر، وهي تجري حول الشمس في فلك حلزوني شبه دائري (إهليلجي قليل الاستطالة) بسرعة مقدارها 29.8 كم في الثانية لتتم دورتها هذه في سنة شمسية مقدارها 365.25 يوم تقريبًا:

ثانية	دقيقة	ساعة	يوم
9.6	9	6	365

.

وتدور الأرض حول محورها بسرعة مقدارها 27.8 كم في الدقيقة لتتم دورتها هذه في يوم، يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت يزيد وينقص حسب الفصول بسبب ميل محور دوران الأرض عن مستوى مدارها حول الشمس بزاوية مقدارها 30' 23°.

والأرض كوكب كروي الشكل تقريبًا، ولكن القوة الطاردة المركزية الناتجة عن دورانه حول محوره قد أدت إلى انبعاجه قليلًا عند خط الاستواء، وإلى انبساطه قليلًا عند القطبين فأصبح شبه كرة.

وسطح الأرض ليس تام الاستواء وذلك لأن الصخور المكونة للقشرة الأرضية تختلف كثافتها باختلاف أنواعها وبالتالي تختلف أماكن وجودها، ولذلك كان من الضروري وجود ارتفاعات في القشرة الأرضية حيث تتكون تلك القشرة من صخور خفيفة نسبيًا تقدر كثافتها بحوالي 2.7 جم/سم^3. وهذه البروزات في القشرة الأرضية كونت القارات التي نشأت في مقابلها انخفاضات في أماكن أخرى حيث تتكون قشرة الأرض من صخور ثقيلة نسبيًا أي: أعلى قليلًا في متوسط كثافتها (2.9 جم/سم^3) وهذه المنخفضات شكلت قيعان البحار والمحيطات.

وكوكب الأرض في حالة تعادل معجز.. فلولا الجاذبية الأرضية لما تماسكت مكونات الأرض فصارت كرة، ولولا دوران الأرض حول محورها لما تأثرت بالقوة الطاردة المركزية فأصبحت شبه كرة، ولولا اختلاف كثافة الصخور لما اختلفت مناسيب سطح شبه الكرة هذه فغارت قيعان المحيطات والبحار وارتفعت كتل القارات والجبال، ولولا حركة دائبة في داخل الأرض تعوض أي نقص في الكتلة يتعرض له سطحها في أي نقطة من نقاطه بفعل عوامل التعرية (من رياح ومياه جارية وغيرهما) حسب قانون يعرف باسم **قانون الاتزان الأرضي** لما صلحت الأرض للعمران وذلك لأن هذا القانون يستوجب أن يكون وزن العمود الصخري من مركز الأرض إلى أي نقطة على سطحها متساويًا تمامًا (سواء كانت هذه النقطة هي أعلى قمة من قمم الجبال أو أعمق غور من الأغوار) ولولا ذلك لطردت الأوزان الزائدة بفعل القوة الطاردة المركزية، ولما أمكن لكائن أن يحيا على سطح هذه الأرض، وكل ذلك يشهد بأن الأرض وباقي أجزاء الكون لا يمكن أن يكون قد أوجد ذاته بذاته، أو جاء بمحض المصادفة كما يدعي المبطلون من الملاحدة والمشركين.

والأرض بعد ذلك كله هي جزء من نظام شديد الترابط والإحكام يعرف باسم **المجموعة الشمسية**؛ فأرضنا واحدة من أحد عشر كوكبًا يدور كل منها في مدار محدد له حول نجم هو الشمس. وبذلك تتكون مجموعتنا الشمسية على هيئة حشد من الأجرام السماوية، يتوسطه نجم حار متوهج مضيء بذاته يعرف باسم **الشمس** التي تدور حولها هذه الكواكب الأحد عشر: **(عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، نطاق الكويكبات، المشتري، زحل، يورانوس، نبتون، بلوتو، وسيدنا)** بالإضافة إلى أعداد كبيرة من **الأقمار والمذنبات**.

والشمس بقوة جاذبيتها تهيمن على حركة كل الأجرام الدائرة حولها، وهي بما تشعه من طاقة تشكل مصدر الحرارة والنور على أسطح تلك الأجرام المحيطة بها.

فالشمس تضيء إضاءة ذاتية بسبب نشاطها النووي، أما الكواكب والأقمار فتنار نتيجة لانعكاس ضوء الشمس عليها. ولولا الشمس وما تشعه من طاقة لاستحالت الحياة التي نعرفها على سطح الأرض. وتتراوح المسافة بين الشمس والكواكب السيارة حولها بين 58 مليونًا من الكيلومترات إلى أقربها وهو كوكب «عطارد» و 12,000 مليون كيلومتر إلى أبعدها وهو كوكب سيدنا، وتختلف الظروف الطبيعية على الكواكب في مجموعتنا الشمسية تبعًا لبعد كل منها عن الشمس، ولحجمه، وبالتالي حجم الغلاف الغازي المحيط به.

والكواكب تدور حول الشمس في أفلاك شبه دائرية حلزونية في نفس الاتجاه غالبًا، وعلى ذلك فنحن أهل الأرض نتواجد في مكان مختلف من الكون في كل لحظة من لحظات وجودنا وكذا الشمس وباقي مكونات مجموعتها الشمسية. وأفراد المجموعة الشمسية في مساراتها هذه تختلف المسافة بين كل كوكب والشمس، كما تختلف سرعة سير الكوكب الواحد باختلاف هذه المسافة، فكل منها تصل سرعته أقصاها وهو أقرب ما يكون من الشمس، وتقل بالتدريج بابتعاده عنها. **وحركات الكواكب هذه يحكمها توازن محكم بين قوتين متضادتين هما: قوة جذب الشمس للكوكب، والقوة الطاردة المركزية الناشئة عن دوران الكوكب حول الشمس، والتي تدفعه إلى السير في خط مستقيم بعيدًا عنها. وهذا التعادل الدقيق بين هاتين القوتين هو الذي يمكن الكواكب من البقاء في أفلاكها المحددة،** ويحفظها من أن تنطلق في الفضاء الكوني مبتعدة عن الشمس إلى غير رجعة، أو أن تسقط هاوية في سعير الشمس الملتهبة. والكواكب في نفس الوقت تتجاذب فيما بينها تجاذبًا صغيرًا بالنسبة إلى جذب الشمس لكل منها، فتحتفظ بأبعادها المحددة فيما بينها، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ **وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (يس: 38 – 40).

والنهار والليل يتعاقبان على كل كوكب من هذه الكواكب في مدد متفاوتة حسب حجمها وسرعة دوران كل منها حول محوره أمام الشمس، مما يؤكد على نسبية كل

من المكان والزمان، ونسبية كل شيء في قدرات الإنسان، ومن هنا كانت حاجته إلى الهداية الربانية.

ويتسبب دوران الأرض حول محورها في الحركة الظاهرية لكل من الشمس والقمر والنجوم عبر السماء. وسنة كل من هذه الكواكب هي المدة التي يستغرقها لكي يتم دورة كاملة حول الشمس. وتتابع الفصول على أرضنا نتيجة لميل محور دورانها في مسيرتها حول الشمس.

والقمر هو أقرب أجرام السماء إلى الأرض، وقد جعله ربنا – تبارك وتعالى – ساعة كونية لأهل الأرض، وعاملًا مؤثرًا في العديد من الظواهر الحادثة على سطحها من مثل ظاهرة المد والجزر.

ويبلغ متوسط بعد القمر عن الأرض 380 ألف كيلو متر، وهو يدور حولها في فلك حلزوني شبه دائري تتراوح مسافته بين 356 ألفًا و407 آلاف كيلومتر. ويستغرق القمر نفس المدة الزمنية في دورانه حول محوره ليدور دورة كاملة حول الأرض في ($27\ ^1/_3$) يوم. ويبلغ قطر القمر 3476 كيلومترًا (أي حوالي ربع قطر الأرض تقريبًا) وتبلغ مساحة سطحه 38 مليون كيلومتر مربع، (أي أقل من عشر مساحة سطح الأرض، وأقل بكثير من مساحة القارة الآسيوية) ويبلغ متوسط كثافة القمر (3.36) جم/سم^3، بينما يبلغ متوسط كثافة الأرض (5.5) جم/سم^3.

وقد دلت الدراسات على العينات التي جمعها كل من رواد رحلتي أبوللو 11 و 12 على أن صخور وتراب بحر الهدوء وترابه تختلف في تركيبها الكيميائي والمعدني بعض الشيء عن صخور وتراب الأرض بصفة عامة، وإن كانت تشبه مادة كل من النيازك الفضائية والصخور البازلتية المندفعة من داخل الأرض بفعل ثورات البراكين.

والعينات القمرية تحتوي بوجه عام على نفس العناصر الكيميائية الموجودة في الصخور الأرضية وفي النيازك، ولكن باختلاف في نسب العناصر والمركبات، فهي مثلًا تحتوي على نسب عالية من عناصر الكروم، والتيتانيوم، واليوتريوم، والزركونيوم التي قد تصل إلى عشرة أضعاف وجودها في صخور الأرض، وهذا ينفي فرضية انفصال القمر عن الأرض التي نادى بها في القديم عدد من علماء الفلك. وتشير الصخور القمرية إلى تعرضها لعمليات انصهار إما نتيجة للارتطامات النيزكية الشديدة مع صخور سطح القمر، أو لتأثير حرارة الشمس عليها نظرًا لعدم

وجود غلاف غازي مدرك للقمر يمكن أن يحميه، ويحمي صخوره من كل من أشعة الشمس وشدة ارتطام النيازك بها، أو نتيجة لهذين السببين معًا أو لأسباب غير ذلك.

وقد أكدت دراسات الصخور القمرية أن القمر خال من كل من الماء والحياة التي نعرفها، ودلت نتائج تحليل العينات القمرية التي جيء بها من بحر الهدوء على أن عمر الصخور القمرية يبلغ حوالي (3,500) مليون سنة وعمر الغبار الذي أخذ من على سطح القمر يبلغ (4,600) مليون سنة.

ولم يثبت وجود أية مواد عضوية في العينات القمرية، ولم يظهر أي من الإنسان أو الحيوان الذي جرى حقنه بتراب القمر أية ردود فعل يمكن أن تشير إلى وجود نوع من أنواع الحياة الأرضية المعروفة لنا على سطح القمر.

وتقدر جاذبية القمر بحوالي سدس جاذبية الأرض مما يجعل القمر بدون غلاف غازي تقريبًا، وإذا كان له غلاف غازي فإن ضغطه لا يتعدى 100,000/1 من ضغط الغلاف الغازي للأرض فوق مستوى سطح البحر. ولذلك فليس من الممكن إدراكه.

ودرجة الحرارة على سطح القمر تتراوح بين (101) درجة مئوية ظهرًا إلى (−153) درجة مئوية بالليل. وأكبر قدر من سطح القمر يتضح لأهل الأرض يبلغ حوالي (59%) من مساحته بينما الجزء الظاهر دائمًا يبلغ حوالي (41%) فقط من مساحة سطحه.

ووجه القمر المواجه للشمس يصبح منيرًا بسقوط أشعة الشمس عليه، وإلا فإن سطح القمر معتم تمامًا. وكل من الأرض والقمر وباقي أفراد المجموعة الشمسية يستمد إنارته والطاقة اللازمة لوجوده من الشمس.

وشمسنا نجم متواضع من نجوم السماء يبلغ متوسط قطرها حوالي (1,393,400) كيلومتر، (أي أكثر من مائة ضعف قطر الأرض)، وتبلغ كتلتها حوالي ألفي مليون مليون مليون مليون طنٍّ (أي 335 ألف مرة قدر كتلة الأرض)، ويبلغ متوسط كثافتها حوالي (1.5) جم/سم^3 (أي ربع كثافة الأرض تقريبًا المقدرة بحوالي 5.5 جم/سم^3).

ونظرًا للجاذبية الهائلة التي تحدثها الشمس على ذاتها فإن الغازات المكونة لها (وأغلبها غازا الأيدروچين والهيليوم) تتجاذب في اتجاه مركزها تجاذبًا شديدًا تنتج

عنه ضغوط هائلة ترفع من درجة حرارتها إلى 15 مليون درجة مطلقة. وعلى ذلك فإن حجم وكتلة الشمس الهائلتين لا يمكنان مادتها إلا أن تكون في حالة شبه غازية ملتهبة متوهجة (تعرف باسم حالة البلازما) لأن الزيادة في كمية مادة الجسم تؤدي إلى تغيير تام في سلوكها.

وعلى ذلك فإن السبب في إضاءة النجوم هو مجرد تكوُّن كل منها من كتلة وحجم معينين، مما يؤدي إلى نشاط عملية الاندماج النووي في داخلها التي تنتج طاقة كهرومغناطيسية تجعل النجم يضيء لآلاف الملايين من السنين إلى شيخوخته قبل نهاية عمره.

وتبلغ درجة حرارة السطح الخارجي للشمس حوالي ستة آلاف درجة مطلقة، وتتزايد في اتجاه مركزها إلى حوالي 15 مليون درجة مطلقة. وبالتحليل الطيفي لأشعة الشمس تبين أن غاز الأيدروچين يكون معظم كتلتها ويليه في الكثرة غاز الهيليوم.

والشمس في تمدد مستمر، ولولا ذلك لانفجرت كقنبلة أيدروچينية هائلة. والشمس تفقد من كتلتها في كل ثانية من ثواني عمرها على هيئة طاقة ما يساوي (4.6) مليون طن من المادة مما يؤكد على حتمية فنائها، وإن كنا نؤمن بأنها لن تنتهي بهذه الطريقة، ولكن بالأمر الإلهي بـ (كن فيكون). والشمس – على أهميتها بالنسبة لنا – هي نجم متواضع من نجوم السماء تعرف باسم **نجوم النسق العادي**. وهناك من النجوم ما هو أعظم كتلة وكثافة وحجمًا وحرارة من الشمس وتعرف باسم **النجوم العملاقة (أو العماليق)**.

ومجموعتنا الشمسية هذه هي جزء بسيط جدًّا من الكون، فإن أقرب النجوم إلينا بعد الشمس يبعد عن الأرض مسافة لا يمكن التعبير عنها بمقاييسنا الأرضية المألوفة؛ ولذا حاول العلماء اكتشاف طريقة أخرى لقياسها فاستخدموا لذلك سرعة الضوء الذي يستغرق وقتًا لكي ينتقل إلينا، ولكننا لا ندرك ذلك لأنه يتحرك بسرعة هائلة تبلغ حوالي (300) ألف كيلومتر في الثانية؛ ولذلك اختار العلماء **السنة الضوئية** واعتبروها الوحدة الأساسية في قياس المسافات الكونية (والسنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها شعاع ضوئي بسرعة 300 ألف كيلومتر في الثانية في فترة مقدارها سنة واحدة من سنين الأرض وهي تساوي: (365.25) X 24 X 60 X 60 X 300.000 = 9.487.480.000.000 كم، أي: حوالي 9.5 مليون مليون كم). وأقرب النجوم إلينا يبعد عن الأرض مسافة تقدر بحوالي

4.4 سنة ضوئية، بينما يبعد عنا النجم القطبي مسافة تقدر بحوالي 400 سنة ضوئية. وهذا معناه أنه عندما ننظر إلى النجم القطبي فإنا نرى الضوء الذي انبعث منه من قبل (400) سنة، وفي تلك اللحظة يكون النجم القطبي قد غير مكانه إلى مكان آخر يبعد بملايين من الكيلومترات عن الموقع الذي نراه فيه، أو ربما يكون قد انفجر وصار باردًا ومظلمًا، ولكن ذلك لن يدرك إلا بعد (400) سنة أخرى من الآن، وسبحان ربنا القائل في محكم كتابه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة: 75 ، 76)، وذلك لأن الإنسان من فوق سطح الأرض لا يمكنه أن يرى النجوم أبدًا، وإنما يرى مواقع مرت بها النجوم.

وأبعد النجوم التي يمكن مشاهدتها بالعين المجردة في الجزء المدرك لنا من السماء الدنيا لا يزيد على ثلاثة آلاف نجم من أية بقعة على سطح الأرض وفي أي وقت من أوقات السنة، بينما يمكن مشاهدة أكثر من 9000 نجم على مدار السنة من فوق سطح الأرض كلها. ويمكن استعمال المناظير المقربة، وآلات التصوير، وأجهزة التحليل الطيفي، والمقربات (التلسكوبات) الراديوية للتعرف على بلايين النجوم الأخرى.

وتختلف النجوم في أحجامها، وفي ألوانها، وفي درجات حرارتها، وفي أعمارها، لأنها تمر بدورات تشبه دورة الحياة على الأرض من الميلاد إلى الطفولة، ثم الشباب ثم الكهولة، ثم الشيخوخة والاحتضار والوفاة. فهي تبدأ نجومًا زرقاء حارة ثم تصير بيضاء، فصفراء، ثم تصير في آخر الأمر نجومًا باردة حمراء تنفجر في النهاية إلى دخان السماء عبر ما يعرف باسم **المستعرات العظمى**. وكل نجم من النجوم.. يتحرك في عدد من المدارات الكونية المحددة، وتتجمع النجوم في مجموعات تعرف باسم **المجرات**.

وشمسنا نجم متواضع من مجموعة تتألف من ملايين النجوم تعرف باسم المجرة، والمجرة التي تتبعها مجموعتنا الشمسية تعرف باسم **«سكة التبانة»** أو **«درب اللبانة»**، وهي عبارة عن حشد من نجوم يزيد عددها على مائة ألف مليون نجم تتحرك كمجموعة متماسكة لها فلك محدد في الفضاء الكوني، وتتحرك على هيئة قرص مفرطح يبلغ طول قطره نحو مائة ألف سنة ضوئية وارتفاعه نحو عشر ذلك. وتقع مجموعتنا الشمسية على بعد 30 ألف سنة ضوئية من مركزه و20 سنة ضوئية من أقرب أطرافه.

ومجرتنا «سكة التبانة» أو «درب اللبانة» تدور كوحدة واحدة كما تدور المجموعة الشمسية، بمعنى أن جميع النجوم وما يدور في أفلاكها من كواكب، وكويكبات، وأقمار، ومذنبات، وشهب، ونيازك ودخان كوني، وغير ذلك يتحرك كله بانتظام مبهر في نفس الاتجاه حول المركز المحدد للمجرة، ولكن بسرعات مختلفة، وفي مدارات محددة. فمجموعتنا الشمسية تتحرك في فلك شبه دائري بسرعة 140 ميلًا في الثانية، فتستغرق 250 مليون سنة لكي تتم دورة كاملة حول **مركز مجرتنا الذي قد يتشكل من ثقب أسود أو من أكثر من ثقب أسود واحد.** وهذا الانتظام يؤكد لكل ذي بصيرة أن الكون لا يمكن أن يكون قد أوجد ذاته بذاته. أو أن يكون نتاج المصادفة؛ لأنه مبني بناءً شديد الدقة والإحكام، ويدور في حركات شديدة الانضباط والانتظام.

ومجرتنا لا تشمل الكون كله، فقد دلت الدراسات الفلكية الحديثة على أنها جزء من قرص أكبر يبلغ قطره 40 مليون سنة ضوئية، وسمكه عشر ذلك، ويعرف باسم **المجرة العظمى أو بالمجموعة المجرية أو المجموعة المحلية.** وتقع مجرتنا بالقرب من طرف هذه المجرة العظمى التي تضم عشرات الآلاف من المجرات الأخرى. وأقرب المجرات إلينا في هذه المجموعة المجرية تبعد عنا بمسافة تقدر بحوالي 750 ألف سنة ضوئية. وهناك مجرات عظمى في مجموعات مجرية أكبر، تكشف الدراسات كل يوم عن مزيد منها – ويكفي أن نعلم **أن بالسماء من أمثال مجرتنا، (درب اللبانة أو سكة التبانة) ما بين مائتي ألف مليون مجرة وثلاثمائة ألف مليون مجرة،** (بعضها أكبر من مجرتنا كثيرًا، وبعضها أصغر من مجرتنا قليلًا) في **تجمعات محلية، ثم تجمعات مجرية، وتجمعات مجرية عظمى** إلى نهاية لا يعلمها إلا خالق السماوات والأرض. وهذا كله في الجزء المشاهد من السماء الدنيا فقط. وتوجد هذه التجمعات المجرية على هيئة عناقيد ترتبط فيما بينها بالجاذبية وتجري في جزء من الفضاء الكوني يقدر قطره بحوالي 30 بليون (أي: 30 ألف مليون) سنة ضوئية.

وبالإضافة إلى المجرات وتجمعاتها المتعددة هناك **أيضًا السدم** وهي أجسام دخانية تشبه مجرتنا من حيث طبيعة تكونها، ولكنها أكبر وأوسع، وأكثر نجومًا تتفرق على هيئة جزر في الفضاء الكوني، قد يصل ضوء الواحدة منها إلى الأرض بعد مائة بليون سنة ضوئية، وهناك **أشباه النجوم**، وهناك **الدخان الكوني.**

وأشباه **النجوم (الكوازارات)** هي أجسام شبيهة بالنجوم، ولكنها قليلة الكثافة جدًّا، تصلنا منها أضواء ضعيفة باهتة، وهي تبدو وكأنها نوع من تجمع المادة لم يسبق أن عرفه أي من علم الفيزياء، أو علم الفلك، وتقدر كتلة شبيه النجم بحوالي مئة مليون ضعف كتلة نجم عادي كالشمس.

والكون بعد ذلك يتسع باستمرار، لأن المجرات فيه تتباعد عن بعضها بسرعات تكاد تصل إلى ثلاثة أرباع سرعة الضوء المقدرة بحوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في ثانية؛ وهي كلما بعدت تتزايد سرعاتها لكي تظل محتفظة بتوازنها. والكون في تمدده تزداد المسافات بين مجراته بحيث يبقى حجم المجرات ثابتًا. وتتخلق كل من المادة والطاقة لملء المسافات الناتجة عن هذا الاتساع من حيث لا يدري العلماء، وصدق الله العظيم الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات: 47).

وإذا رجعنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن بعملية معاكسة لسرعة انتشار المجرات وتشتتها، فإن المسافات بينها تتناقص باستمرار كلما تقادم بها الزمن، حتى تندمج في جرم واحد يحتوي على كل ما في الكون من كتلة وطاقة، والقرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة سنة يؤكد على هذه الحقيقة بقول الحق – تبارك وتعالى –: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: 30).

وينادي علماء الفلك بأن هذا الجرم الأولي الواحد قد انفجر بعملية يسمونها باسم عملية **«الانفجار العظيم»**، ويسميها القرآن الكريم باسم عملية **«فتق الرتق»**، فتحول إلى سحابة من الدخان الذي خلقت منه الأرض وباقي أجرام السماء، ويؤكد القرآن الكريم الخلق من الدخان بقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: 11).

وكل جرم سماوي متماسك مع بعضه بفعل جاذبيته الخاصة. وقوة الجاذبية يوازيها إجهاد، ولعل هذا الإجهاد هو الذي يقرر حالة المادة، بالإضافة إلى العوامل الأخرى، مثل تأثير دوران الجرم السماوى، والمجالات المغناطيسية والإشعاعية الناتجة عنه. ففي كتلة من الصخر في حجم القمر توجد المادة في حالة صلبة.

أما إذا تجمعت مادة القمر في كتلة وحجم تشبهان كتلة وحجم الأرض، فإن قلبًا مركزيًا صلبًا يحيطه قلب سائل يتكون لها. ونتيجة للحركة في هذا القلب السائل يتولد للأرض مجال مغناطيسي، وتتشكل قشرتها على هيئة قارات مرتفعة، وجبال شاهقة، وقيعان محيطات منخفضة غائرة. وتستطيع الأرض بفعل جاذبيتها أن تحتفظ بغلاف غازي وبغلاف مائي، وبمختلف صور الحياة على سطحها، بمعنى أن السلوك الفيزيائي للمادة، يعتمد على كميتها، والسؤال الذي يفرض نفسه هو: من الذي قدر تلك الكميات منذ الأزل غير الله الخالق؟ وهنا تتضح حاجة الكون إلى خالقه، وحاجة الكائنات إلى خالقها، وأول هؤلاء جميعًا الإنسان ذلك المخلوق العاقل المكلف ذو الإرادة الحرة.

أما إذا كانت كتلة الجرم السماوي أكبر من حد معين فلا يمكن لهذا الجرم أن يكون كوكبًا، ذلك لأنه كي تصبح مادة بهذا المقدار في حالة ثابتة، لا بد أن تكون جميعها في حالة غازية، ولا يتمكن جسم غازي من الاستمرار في توليد ضغط مركزي كبير، إلا إذا كان حارًّا جدًّا في منطقة المركز، وإذا كان المركز حارًّا جدًّا بفعل هذا الضغط المركزي الكبير الذي يشعل عملية الاندماج النووي فإن الطاقة تتسرب إلى خارجه. ولذا يكون الجسم مضيئًا بذاته وتكون نتيجته نجمًا، وبذلك يتضح أن السبب في إضاءة أي نجم من نجوم السماء، هو تكونه من كتلة وحجم معينين، تمكنانه من عملية الاندماج النووي، وتوليد الطاقة الكهرومغناطيسية؛ فمصدر الطاقة في نجوم الكون هو نواة الذرة. ويبدو لأسباب عديدة أنه لا يمكن أن يوجد أي شيء شبيه بالنجم العادي وله كتلة تزيد على حوالي مائة ضعف كتلة الشمس وإلا تحول إلى **نجم نيوتروني** أو إلى **نجم مطموس يعرف باسم «النجم الخانس الكانس» أو باسم «الثقب الأسود»**. وهذه النجوم ذات كثافة لا يكاد العقل البشري أن يتصورها لتراوحها بين بليون طن/سم^3 في النجم النيوتروني، وحوالي 250 بليون طن/سم^3 في الثقوب السود، التي تمثل مراكز الثقل في السماء الدنيا.

وبهذه السماء الدنيا ما يعرف باسم **النجوم البيضاء القزمة**، ومادتها ذات كثافة هائلة (وإن قلت كثيرًا عن كثافة كل من النجوم النيوترونية والثقوب السود) ويعتقد بأنها تمثل طور الشيخوخة في حياة النجم العادي. وفي مادة هذه النجوم القزمة، يعتقد أن الإلكترونات في حالة انحلال بمفهوم نظرية الكم، وحتى بمفهوم النظرية النسبية في بعض الحالات. وهناك حد أعلى لكتلة النجم التي تكون في وضع اتزان

ميكانيكي في مثل هذه الحالات. وبالإضافة إلى النجوم المتقزمة يوجد كذلك كل من **النجوم النيوترونية، والثقوب السود**، وكلاهما يمثل مرحلة من مراحل احتضار النجوم العملاقة، وإن لعبت دورًا هامًّا في ترابط مكونات السماء الدنيا.

وكوكبنا **الأرض** هو أكثر ما نعرف من مكونات الكون، وهو شبه كرة من الصخر ذات قلب مركزي صلب يحيط به لب سائل ثم وشاح صلب مقسم إلى ثلاثة نطق (سفلي ومتوسط وعلوي) والوشاح العلوي جزؤه الأعلى شبه منصهر، ثم غلاف صخري صلب له قشرة متغضنة، على هيئة قارات، صخورها قليلة الكثافة نسبيًّا، وقيعان لكل من البحار والمحيطات صخورها ذات كثافة أعلى نسبيًّا. وتزداد كثافة الغلاف الصخري للأرض فيما دون القشرة الأرضية باستمرار إلى مركز الأرض.

ويتراوح سمك القشرة الأرضية بين 35 كم و 45 كم في كتل القارات، وبين 5 كم و 8 كم في ألواح قيعان البحار والمحيطات. وتتكون هذه القشرة الأرضية من ثلاثة أنواع رئيسة من الصخور، أولها وأصلها كلها **الصخور النارية** المتكونة عن تجمد صهارة معدنية. وبتفتتها وترسيب الفتات تتكون **الصخور الرسوبية**. وبتحولها أو تحول فتاتها تتكون **الصخور المتحولة التي تتكون كذلك بتحول الصخور النارية**.

والصخور مهما تباينت أنواعها تتكون أساسًا من **المعادن**، ومعادن الأرض عديدة متباينة في صفاتها وخصائصها، منها **الفلزية وغير الفلزية**، ومنها النفيسة وغير النفيسة وما هو بين ذلك.

وتتكون المعادن من **عناصر** أو من **مركبات** من هذه العناصر. وعناصر الأرض فاقت المائة بقليل. وليست المعادن وحدها هي التي تتكون من عناصر، فكل شيء في مادة الأرض (باطنها وقشرتها، هوائها ومائها، حيوانها ونباتها وإنسانها) يتألف من هذه العناصر ومن مركباتها.

ومن المركبات البسيط، ومنها ما هو غاية في التعقيد. وأخف العناصر جميعًا، هو غاز الأيدروچين، يتبعه غاز الهيليوم، ثم مادة صلبة هي الليثيوم. وأثقل العناصر التي وجدت في الأرض على هيئة طبيعية هو عنصر اليورانيوم. وقد رتبت العناصر وفقًا لخواصها في جدول دوري تتدرج فيه صفاتها. كان للإيدروچين الخانة الأولى، ولليورانيوم الخانة الثانية والتسعون.

والعناصر تتركب من **جزيئات**، ويتركب الجزيء من **ذرات**، والذرة تتركب من **نواة في** الوسط، عليها شحنة كهربية موجبة، **وعدد من الإلكترونات** تدور حولها في مدارات محددة، كما تدور الكواكب السيارة حول الشمس. والإلكترونات تحمل شحنة كهربية سالبة، تعادل شحنة النواة الموجبة، لتحتفظ الذرة بحالة من التعادل.

ويوجد في نواة الذرة **بروتون** واحد أو عدد من **البروتونات** التي تحمل الشحنة الموجبة، كما قد توجد أجسام أخرى متعادلة، هي **النيوترونات**، يعتقد بأنها ناتجة عن اتحاد بروتون موجب مع إلكترون سالب، وقد يتحول النيوترون مرة أخرى إلى بروتون باتحاده بجسيم موجب يعرف باسم **البوزيترون**، (يعادل الإلكترون في كتلته، ولكن شحنته موجبة)، وتتكون هذه الجسيمات من لبنات أولية تعرف باسم **الكواركات** وقد تتكون هذه من وحدات أقل إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وتبلغ أجزاء الذرة من الدقة أنها تقاس بجزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر، وتسمى هذه الوحدة بالأنجستروم، كما تقدر أوزانها بجزء من مليون مليون مليون مليون جزء من الجرام، وعلى سبيل المثال فإن الجرام الواحد من عنصر اليورانيوم يحتوي على ألفي مليون مليون مليون ذرة.

ويبلغ قطر الإلكترون 100,000/1 من قطر الذرة، وكتلته بنحو 1838/1 من كتلة ذرة **الإيدروچين**. وقطر الذرة يكبر قطر نواتها بعشرين ألف مرة، مما يؤكد تشابه بناء الذرة مع بناء المجموعة الشمسية ومع البناء الكوني كله، مما يشير إلى وحدانية الخالق، سبحانه وتعالى.

وإذا مست نواة الذرة بشعاع من النيوترونات فإنها تنقسم، وإذا انقسمت النواة انفصمت البروتونات والنيوترونات، وبانفصامها تخرج منها الطاقة الرابطة لهذه الجسيمات والمعروفة باسم «**القوة النووية الشديدة**» وهي قوة هائلة مذهلة للغاية.

وفي الوقت الذي تُرَدُّ فيه المادة إلى لبنات ثلاث هي: البروتون والإلكترون والنيوترون، ينادي بعض الفيزيائيين النظريين، بأن هذه الجسيمات ذاتها، تتكون من جسيمات أصغر هي **اللبنات الأولية للمادة وقد سميت باسم «الكواركات»** وبأسماء غيرها عديدة، مما يرد المادة إلى أصل واحد، وإن تعددت أشكالها، وكذلك ترد الطاقة إلى أصل واحد وإن تعددت صورها.

وتأتي النظرية النسبية الخاصة لتكافئ بين المادة والطاقة، وتنادى بأنهما شيء سواء. وتصدق التجارب هذه النظرية وفي مقدمة ذلك انفلاق الذرة في القنبلة اليورانيومية. وإذا تساوت المادة والطاقة، لم يبق من خصائص هذا الكون إلا الجاذبية والمكان والزمان. وتحاول النظرية النسبية العامة أن تربط بين الزمان والمكان، فتجعل منهما شيئًا متواصلًا. كما تحاول نظرية الحقل الواحد، أن تسوي بين كل من القوتين النوويتين الضعيفة والشديدة وكل من الطاقة المغناطيسية/الكهربائية وقوة الجاذبية فيما يعرف باسم «**الجاذبية العظمى**». وفي ذلك يقول أينشتاين:

«إن روح العقل النظري لا تحتمل أن يكون في الوجود الواحد شكلان للطاقة لا يلتقيان، شكل للجاذبية القياسية وشكل للمغناطيسية/الكهربائية».

وهكذا تتحلل مركبات هذا الكون أجمع: من مادة، وطاقة، وزمان، ومكان، إلى شيء واحد لا نعرف كنهه، ولكنه يمثل الوحدة العظمى التي تجري في هذا الكون كله والتي تشهد للإله الخالق – سبحانه وتعالى – بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. وما أحوج البشرية كلها إلى الإيمان بهذه الحقيقة الكونية/الدينية التي لخصها القرآن الكريم بقول ربنا تبارك وتعالى –: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ...﴾ (محمد: 19).

من كل ما سبق، يتضح بجلاء، أن للكون الذي نعيش فيه وحدة واحدة تنتظمه، ونظامًا معجزًا لا يستطيع العقل البشري أن يحيط به، ولكن هذا النظام تفسره قوانين ثابتة وتحكمه سنن دائمة، وهذه القوانين وتلك السنن تؤكد بما لا يرقى إليه شك أن كل شيء في هذا الكون قد خلق بقدر معلوم، ودقة متناهية، وحكمة بالغة عَبَّر عنها القرآن الكريم بقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: 49).

وبقوله – تعالى –: ﴿... مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك: 3).

فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الأصل في مادة هذا الكون هو غاز الأيدروچين الذي اتحدت ذراته في درجات حرارة عالية جدًا، وتحت ضغوط كبيرة، لتكون أغلب العناصر المعروفة. وقد ثبت أن عمر الكون يقدر بحوالي 13.7 مليار سنة، وأن العناصر في مجرتنا، وربما في مادة الكون كله، قد تكونت في الفترة من سبعة آلاف مليون سنة إلى ستة آلاف وخمسمائة مليون سنة مضت، وأن الشمس قد تكثفت على هيئتها الحالية منذ ستة آلاف مليون سنة، وأن الكواكب الابتدائية قد تحولت إلى



صورتها الحالية منذ حوالي خمسة آلاف مليون سنة، وأن القشرة الخارجية للأرض قد تكونت بصورة دائمة منذ أربعة آلاف وستمائة مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة على الأرض يعود إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة مليون سنة، وقد خلقت الحياة النباتية، وتلتها الحياة الحيوانية، وكلتاهما خُلقت لأول مرة في الماء، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: 30).

والحياة بمختلف صورها تتكون من خلية واحدة، أو من مضاعفات هذه الخلية. والخلية الحية في بنائها تشبه بناء الذرة التي تكونت منها، كما تشبه بناء المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها: نواة في الوسط تحمل أسرار الحياة على شبكة من الصبغيات تشغل حيزًا أقل من واحد على نصف مليون من المليمتر، ولكنها إذا فردت يصل طولها إلى قرابة المترين، وهذان المتران بهما (18.6) بليون جزيء كيميائي، لو اختل وضع ذرة واحدة في أحد هذه الجزيئات عن مكانها المقدر لها إما أن يشوه هذا المخلوق أو لا يكون. وتتحكم نواة الخلية في مختلف الوظائف الحيوية للخلية، ويوجد حولها جسيمات عديدة وسوائل تدور في حركة دائمة لا تتوقف تشبه حركة الكواكب حول الشمس. ويعترف دارسو الخلية الحية أنها – في دقة بنائها، وكفاءة أدائها – تفوق أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان، بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من تحقيق ذلك بعد..!

وتنتظم الخلايا في أجساد الكائنات الحية على هيئة أنسجة متعددة، وتنتظم الأنسجة أجهزة متخصصة، وأعضاء مترابطة، يقوم كل منها بخدمة الجسد كله في توافق وتكامل ودقة تشهد للخالق – سبحانه وتعالى – بطلاقة القدرة وبديع الصنعة وإحكام الخلق، وبالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. فهل هناك وحدة أتم أو أعم أو أشمل من ذلك؟

وصور الحياة كلها مبنية على نفس الوتيرة، وعلى نفس النظام، وإن تباينت بساطة وتعقيدًا. ويكفي هنا أن نذكر أن بجسم الإنسان – وهو أرقى المخلوقات – أكثر من مائة تريليون (أي: مائة مليون مليون) خلية، تتجدد منها في كل ثانية 125 مليون خلية في المتوسط، ويبقى الإنسان بذاكرته، ومشاعره، وعواطفه، وقدراته ولذلك قال – تعالى –: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: 21).

من هذا كله يتضح أن الكون الفسيح الذي نعيش فيه، لم يكن أزليًا، فقد كانت له في الأصل بداية، يحددها العلم. وهو أيضًا ليس بأبدي، فلا بد أن ستكون له في يوم

من الأيام نهاية لا يعلمها إلا الله – تعالى – فالشمس تفقد من كتلتها على هيئة طاقة ما يقدر بحوالي 4.6 مليون طن من المادة في كل ثانية من ثواني عمرها مما يؤكد أن الشمس إلى فناء. وكذلك فإن قانوني الديناميكية الحرارية، والطاقة المتاحة، يؤكدان أن الحرارة تنتقل دائمًا من وجود حراري إلى وجود غير حراري. وباستمرار هذه العملية لا بد من أن يأتي وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، فتنتهي العمليات الكيميائية والطبيعية، وبانتهائها تنتهي تلقائيًا الحياة، مما يؤكد على حتمية الموت على كل مخلوق وعلى حتمية فناء الكون.

هذا الكون المعجز في بنائه، المذهل في اتساعه، الرائع في حركته واتزانه (هذا الاتزان الدقيق الذي لو اختل قيد شعرة في أمر من أموره، لانفرط عقد هذا الكون وانهار كل ما فيه ومن فيه) هذا الكون لا بد له من مرجعية في خارجه، وهذه المرجعية لا بد أن تكون مغايرة للكون مغايرة كاملة، فلا يحدها أي من المكان أو الزمان، ولا يشكلها أي من المادة أو الطاقة، وصدق الله العظيم الذي وصف ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: 11).

ولما كان هذا الكون يسير منذ بلايين السنين على نفس السنن، فإن الذي يصونه مما قد يتعرض له من كوارث، هو العناية الإلهية التي نحيا في ظل من رعايتها، والتي لو حجبت عنا طرفة عين أو أقل من ذلك لهلكنا وهلك كل ما حولنا من مخلوقات.

ويكفي أن نشير هنا إلى شيء من الحكمة البالغة في أمر كوكبنا الأرض، فلو كانت الأرض ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تصل إليها إلى ربع كميتها الحالية، ولقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، ولتضاعف تبعًا لذلك طول فصل الشتاء، فتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض، ولو اقتربت الأرض من الشمس إلى نصف المسافة التي تفصلهما الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض من الشمس أربعة أمثال ما تتلقاه منها الآن، مما يؤدي إلى تبخر غلافها المائي، وإلى تخلخل غلافها الغازي، وإلى تضاعف سرعة جري الأرض حول الشمس، وانعدام الفصول، وإلى استحالة وجود الحياة.

كذلك لو كانت الأرض في ربع حجمها الحالي، لما أمكن لها أن تحتفظ بغلافيها الهوائي والمائي، ولصارت درجة الحرارة على سطحها بالغة حد الموت؛ وإذا تضاعف حجم الأرض تضاعفت جاذبيتها للأجسام، وانكمش غلافها الهوائي وقل

سمكه، وزاد ضغطه مما يؤثر على صور الحياة ويحول دون وجود كائنات مفكرة عاقلة كالإنسان.

والغلاف الغازي المحيط بالأرض به عدد من نُطُقِ الحماية التي منها كُلٌّ من نطاق الأوزون، والنطاق المتأين، وما به من أحزمة الإشعاع ثم النطاق المغناطيسي. وكل نطاق من هذه النطق يحمي الأرض من كل من النيازك، والأشعة الكونية التي تهبط عليها. كما أن هذا الغلاف الغازي يحفظ الأرض في درجة مناسبة من الحرارة، وهو الوسط الذي يحمل بخار الماء المتصاعد من البحار والمحيطات ليتكثف منه المطر الذي يسقي الأرض ويروي النبت والحيوان والإنسان. ولولا هذه الدورة التي تعرف باسم «**دورة الماء حول الأرض**» لتحولت كل المياه الأرضية إلى ماء عفن آسن في فترة زمنية قصيرة، ولاستحالت الحياة على الأرض.

والغلاف الغازي للأرض له تركيب دقيق لو اختل قليلًا لما أمكن للحياة أن تزدهر على هذا الكوكب، فلو زادت نسبة الأكسجين قليلًا في الغلاف الغازي للأرض لأمكن لعود ثقاب واحد أن يحرق كل شيء عليها؛ ولو قلت نسبة الأكسجين قليلًا لهلكت الحياة على الأرض في غالبيتها العظمى.

والماء سائل معجز له من الصفات الطبيعية والكيميائية الخاصة ما يمكنه من إذابة أكبر قدر ممكن من عناصر ومركبات الأرض، ومن حملها إلى النبات، ليحولها بدوره إلى مادة صالحة لغذاء كل من الإنسان والحيوان، ولولا ذلك ما استقامت الحياة على الأرض. والماء هو السائل الوحيد الذي تتناقص كثافته عندما يتجمد فيطفو على سطح الماء السائل حتى لا تهلك الكائنات فوق قيعان البحار والمحيطات.

ثم إن هناك كميات كبيرة من الماء المتجمد على القطبين وفوق قمم الجبال، ولو قُدر لهذا الماء المتجمد أن يسيل، (وهذا لا يحتاج إلا لبضع درجات قليلة من الحرارة فوق مستوى درجة حرارة صيف تلك المناطق) ولو حدث ذلك لارتفع منسوب الماء في البحار والمحيطات، بما يغرق كل الجزر المحيطية وأغلب منخفضات اليابسة وما عليها من حياة (وذلك من مثل دالات الأنهار، والسهول الساحلية). وعلى ذلك فإن حياتنا الدنيا هي رحلة قصيرة مؤقتة إلى آخرة أزلية أبدية إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا. ونحن نحيا في هذا الكون هذه الحياة الدنيوية المؤقتة تحت رحمة الله، وفي ظل من عنايته ورعايته.

ولا أجد ما أختم به هذه العجالة أروع من الدعوة القرآنية لإمعان النظر في هذا الكون لإدراك هذه الحقائق وذلك بقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: 190 – 191).

وهذه الدعوة القرآنية الكريمة تؤكد حاجة الإنسان إلى التعرف على الكون كي يتعرف على شيء من طلاقة القدرة المبدعة في الخلق فيسجد لخالقه وخالق كل شيء في اطمئنان وتسليم كاملين.

جعلنا الله ممن يتفكرون في خلق السماوات والأرض فتزداد قلوبهم اطمئنانًا بذكر الله، اللهم آمين.

من الأدلة على حاجة الإنسان إلى الإيمان بالله (تعالى) وبما أخبر من غيوب

الإنسان مخلوق مكرم، خلقه الله - تعالى - بقدرته، وسواه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلَّمه من علمه، وأسجد له الملائكة، وأسكنه الجنة، ثم استخلفه في الأرض، وسخر له الكون، وفضله على كثير من خلقه تفضيلًا، وأشهد ذريته وهم في عالم الذر بحقيقة الربوبية، وقال في هذا المخلوق المكرم عشرات من الآيات القرآنية التي منها قوله - تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: 70).

وقوله - عز من قائل:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: 172).

وقوله - وهو أصدق القائلين:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: 1).

وعلى ذلك فإن الإنسان خلق عالمًا عابدًا، ولم يخلق جاهلًا كافرًا كما يدعي أغلب المتخصصين المعاصرين في دراسة علم الإنسان (Anthropology)، والإيمان بالله - تعالى - من الأمور الفطرية في الإنسان، وإن ضل عنها أحيانًا في زحام الحياة، ووسط فتن شياطين الإنس والجن ووساوسهم، ومن هنا كانت دعوتنا للناس كافة إلى الإيمان بالله إحياءً للفطرة التي أودعها ربنا - تبارك وتعالى - في الجبلة الإنسانية.

والإيمان بالله – تعالى – يقتضي الاعتقاد الجازم بأنه – سبحانه وتعالى – رب كل شيء ومليكه، وخالقه ومدبر أمره، المتصف بصفات الكمال المطلق الذي لا يمكن لأي من خلقه أن يصل إلى شيء منه، المنزه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله من مثل حدود كل من المكان والزمان، والمادة والطاقة؛ لأنه – تعالى – خالق كل ذلك ومبدعه، والخالق محيط بخلقه يحده بما يشاء من حدود المادة والطاقة والمكان والزمان، بينما المخلوق لا يحد خالقه أبدًا.

والإيمان بالله الخالق البارئ المصور يتضمن **توحيده توحيدًا كاملًا في ربوبيته** (بمعنى التسليم بأنه – تعالى – رب كل شيء ومليكه، ولا رب سواه)، **ويتضمن توحيده توحيدًا كاملًا في ألوهيته** (بمعنى التسليم بأنه – سبحانه وتعالى – وحده المستحق بالعبادة الخالصة لجلاله دون سواه)، **كما يتضمن توحيده توحيدًا كاملًا في أسمائه وصفاته** (بمعنى ألا يدعى الله – تعالى – أبدًا إلا بما أثبت لذاته العلية من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وتنزيهه – جل وعلا – عن أسماء وصفات خلقه أجمعين).

والإيمان بالله – سبحانه وتعالى – من البداهات الفطرية التي يدركها كل إنسان سَوي بفطرته التي فطره خالقه عليها، وغرسها في جبلته وهو في عالم الذر، كما علمها لأبيه آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، وأحيا بني آدم بها عشرة قرون كاملة على التوحيد الخالص، ثم جاء الشيطان للإنسان موسوسًا إليه بالشرك بالله، فأرسل ربنا – تبارك وتعالى – سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين إلى كل أمة من الأمم لتثبيت الناس على الحق، ولتصحيح إيمان من وقع في حبائل الشرك، ولتوضيح حقيقة الربوبية، والألوهية، والخالقية لجميع الناس، والتأكيد على الوحدانية المطلقة للخالق البارئ المصور الذي لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، والمنزه عن الصاحبة والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، وكان من مهمة الأنبياء توضيح رسالة الإنسان في هذه الحياة ولكن حبائل الشيطان أوقعت أغلب أهل الأرض في خطيئة الشرك بالله، والتنكر لأنبيائه ورسالاته، والكفر باليوم الآخر وبما فيه من بعث وحشر، وحساب وجزاء، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى – في محكم كتابه:

• ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ

﴿... مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ (البقرة: 213).

ويقول – وقوله الحق:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

(الحج: 3 – 4).

ويقول – عز من قائل – في الحديث القدسي:

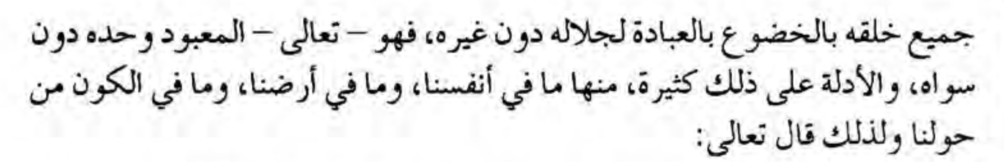
«.... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وانتابتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم؛ وحرمت عليهم ما أحللت لهم...».[1]

ومن الأدلة المنطقية على الإيمان بالله – تعالى – **حدوث الكون وحتمية فنائه، وحدوث جميع المخلوقات وحتمية فنائها**، فجميع المعارف المكتسبة تؤكد أن الكون الذي نحيا فيه – بكل مكوناته – هو كون حادث، له بداية يقدرها علماء الفلك والفيزياء الفلكية بحوالي أربعة عشر مليارًا من السنين (13,700 مليون سنة)، ونحن نرى النجوم فيه تخلق من دخان الكون، ثم تنفجر وتموت عائدة إلى دخان الكون، كما نرى جميع الأحياء المدركة تخلق من تراب الأرض، ثم تموت عائدة إليه.

وجميع صفات هذا الكون الحادث تؤكد حتمية فنائه، بمعنى أنه لا بد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية. وهذه النهاية التي لا يعلمها إلا الله – سبحانه وتعالى – لن تتحقق بسنن الدنيا البطيئة التي ندركها، والتي تؤكد حتمية فناء الكون، بل ستحدث بفجائية شديدة بالأمر الإلهي: (كن فيكون).

وبالإضافة إلى حقيقة حدوث الكون، تأتي حقيقة الإبداع في الخلق (من أدق دقائق الكون إلى أكبر وحداته، إلى الكون كله) وحقيقة رعاية الله – تعالى – لكل ما قد خلق وعنايته الفائقة به، وضبط كل حركة فيه، وهذا كله من المبررات المشاهدة الملموسة لضرورة الإيمان بالله خالق الخلق، ومبدع الوجود، الذي لولاه لما كان للمخلوقين وجود. وانطلاقًا من ذلك تفرد الخالق – سبحانه وتعالى – بحقه على

(1) المعجم الكبير للطبراني حديث رقم 992.



جميع خلقه بالخضوع بالعبادة لجلاله دون غيره، فهو – تعالى – المعبود وحده دون سواه، والأدلة على ذلك كثيرة، منها ما في أنفسنا، وما في أرضنا، وما في الكون من حولنا ولذلك قال تعالى:

- ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (العنكبوت: 44).
- ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ (الروم: 8).
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (فاطر: 41).
- ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (الزمر: 5).
- ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (غافر: 64).
- ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور: 35 – 36).
- ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: 20 – 21).

فنحن نعلم جميعًا أن الأرض التي نحيا عليها يعمرها اليوم حوالي سبعة مليارات نسمة من بني آدم، وقد عمرتها من قبل مليارات عديدة من أمثالهم، كما ستعمرها في المستقبل مليارات أخرى من هذه السلالة الإنسانية المكرمة حتى نهاية هذا الوجود. وتشير قوانين الوراثة إلى أن هذه الأعداد المذهلة من البشر قد جاءت كلها من

صلب أب واحد وأم واحدة وذلك بانقسام الشيفرة الوراثية المختلطة لهذين الأبوين الأولين. ولا يمكن لعاقل أن يتصور إمكانية إتمام هذا التسلسل العجيب للبلايين من بني الإنسان بشيء من العشوائية أو الصدفة، وذلك **لأن العشوائية والصدفة لا ينتجان نظامًا بديعًا مثل نظام تناسل الحياة.** ووصف طبيعة الأشياء بمجموع القوانين والسنن التي تحكمها لا يكفي لتفسير ذلك التسلسل البشري المعجز، أو تفسير نظائره في باقي مجموعات الحياة من النبات والحيوان، وذلك لأن تلك القوانين والسنن تحتاج إلى واضع لها ومهيمن عليها، فمن الذي وضعها ولا يزال يرعاها ويهيمن عليها غير الله الخالق، سبحانه وتعالى؟! ومن هنا كانت هذه الدعوة لأهل الأرض جميعًا بضرورة الايمان بالله، الخالق، البارئ، المصور. والأدلة على ذلك كثيرة منها ما يلي:

أولًا: الصفات الوراثية للإنسان تشهد لخالقه بالألوهية والربوبية:

أثبتت العلوم المكتسبة أن الصفات الوراثية للمخلوقات الحية – ومنها الإنسان – تحملها جسيمات بالغة الدقة في داخل نواة الخلية الحية، تعرف باسم الصبغيات (الكروموسومات)، وأن عدد هذه الصبغيات محدد لكل نوع من أنواع الحياة، وأن أي حيود عن هذا العدد المحدد للنوع إما أن يقضي على جنينه في الحال فلا يكون، أو يسبب اختلالًا في البناء الجسدي للكائن الحي، يظهر على هيئة عدد من التشوهات الخلقية التي قد تفضي إلى الموت أو إلى العيش بعدد من الإعاقات الجسدية.

فالخلية العادية في جسم الإنسان، والتي لا يتعدى طول قطرها (0,03 مم) في المتوسط، مبنية بقدر مذهل من التعقيد الذي جعل لها قدرة على الأداء تفوق قدرات أكبر المصانع التي استحدثها الإنسان، بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من تحقيق ذلك بعد. فلهذه الخلية الحية نواة هي عقلها المتحكم في جميع أنشطتها، ويوجد بداخلها شيفرة وراثية يحملها (46) صبغيًا في (23) زوجًا، أحدها مخصص للقيام بمهمة التكاثر، والباقي مخصص للقيام بمهمات النمو الجسدي. وهذه الصبغيات الجسدية والتكاثرية تشغل حيزًا في داخل نواة الخلية لا يكاد يتعدى حجمه واحدًا من خمسمائة ألف من المليمتر المكعب، ولكن هذه الصبغيات إذا بسطت، وضمت أطرافها بعضها إلى بعض، فإن طولها يصل إلى قرابة المترين. وهذان المتران يضمان



(18.6 بليون) جزيء من الجزيئات الكيميائية المعقدة، المرتبة ترتيبًا في غاية الدقة والانتظام والإحكام إلى درجة أنه إذا اختل وضع ذرة واحدة في أي من هذه الجزيئات فإما أن يشوه المخلوق صاحب هذه الخلية أو لا يكون..!!

وإذا علمنا أن جسد الإنسان البالغ يضم تريليونات الخلايا، فإذا بُسطت صبغيات جميع الخلايا في جسد فرد واحد من أفراد الجنس البشري، وتم رصها بنهاياتها الطرفية بعضها إلى بعض فإن طولها يزيد بأضعاف كثيرة على طول المسافة بين الأرض والشمس (والمقدرة بحوالي مائة وخمسين مليون كيلومتر في المتوسط).

وإذا سلمنا بحقيقة أن مخزونًا هائلًا من المعلومات (فائقة الدقة في الترتيب والنظام وإحكام الترابط) موجود في داخل كل خلية حية من خلايا جسد كل فرد منا، وأن هذه المعلومات موجودة على هيئة عشرات بل مئات التريليونات من الكيلومترات طولًا من الجزيئات الكيميائية المعقدة في البناء، والمنظمة في الترتيب بشكل شديد الإحكام؛ بحيث يعطي هذا الشكل لكل فرد من بني آدم بصمة وراثية خاصة به، تميزه عن غيره من البلايين الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والذين عاشوا وماتوا، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى نهاية هذا الوجود الدنيوي — فإن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: من الذي وضع في جسد كل فرد منا هذا الكم الهائل من المعلومات؟ ومن الذي رتبها هذا الترتيب المميز لكل إنسان، مع تشابه التركيب الكيميائي للحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين (DNA) الذي تكتب به الشيفرة الوراثية في أجساد جميع البشر إلى (99.9٪)، ويبقى الاختلاف في جزء ضئيل جدًّا من الباقي الذي هو في حدود (0,1٪) فقط؟ فأي قدرة، وأي علم، وأية حكمة يمكن أن تحقق ذلك كله غير قدرة الله الخالق؟

ثانيًا: البناء الجسدي للإنسان يشهد لخالقه بالألوهية والربوبية:

ما سبق أن ذكرناه بالنسبة إلى الخلية الحية الواحدة في جسم الإنسان يشهد للإله الخالق بطلاقة القدرة، وإحكام الصنْعة، و كمال الإتقان. ولكن إذا دخلنا في تفاصيل هذا البناء الجسدي: من تخصص كل من الأنظمة، والأجهزة، والأنسجة، والخلايا المتعددة، والتي تعمل في توافق عجيب وتكامل مذهل من أجل سلامة الجسد البشري كله، فإن قدرة الله الخالق تتجلى بصورة أوفى وأعظم...!!

ويزداد العجب إذا علمنا أن هذه التريليونات من الخلايا المتخصصة، والتي تنتظمها أنسجة متخصصة لتكون أجهزة ونظمًا متخصصة في جسد كل فرد بالغ من بني الإنسان، قد نشأت كلها من خليتين من خلايا التكاثر، إحداهما من الأب (وهي الحيمن) لا يزيد طولها على (0.005 من المليمتر)، والأخرى من الأم (وهي البييضة) التي لا يزيد قطرها على (0.200 من المليمتر)، وفي ذلك تمثيل عملي لخروج بلايين الأفراد من بني آدم من أب واحد (هو آدم عليه السلام) وأم واحدة (هي حواء عليها من الله الرضوان) على مسيرة تاريخ البشرية فوق سطح الأرض. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: من الذي قدر كل ذلك بهذه الدقة الفائقة، والإحكام الشديد؟ وهل يمكن للعشوائية أو الصدفة أن تنتج شيئًا من ذلك؟ وهل يمكن لما يسمى باسم «الطبيعة» أو «الفطرة» وحدها أن ترتب الأمور بهذه الدقة الفائقة؟ والجواب بالقطع هو: «لا»...!!

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى تأمل الجوانب النفسية للإنسان: بمشاعره، وعواطفه وأحاسيسه، وملكاته، وقدراته، وانفعالاته، وقد خلقه الله -تعالى- من طين، ومرره في عدد من المراحل الجنينية المذهلة، لدخلنا في متاهة لا نستطيع الخروج منها إلا بالخضوع الكامل لله الخالق – سبحانه وتعالى – القائل:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾

(المؤمنون: 12 – 14).

ويقول – عز من قائل – مؤكدًا ذلك:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ

وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج: 5).

ويقول –سبحانه– وهو أصدق القائلين:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام: 98).

ويقول – تعالى –: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (التين: 4).

ثالثًا: الكون يشهد لخالقه بالألوهية والربوبية والوحدانية:

إذا عدنا من تأملات الإنسان في روعة بناء جسده المادي إلى شيء من التأمل في الكون من حوله (وهو ضرورة من ضرورات وجوده كما أسلفنا في الفصل السابق) وجدنا أننا نعيش فوق كرة من الصخر تقدر كتلتها بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن، (5974 مليون مليون مليون طن)، ويحيا على سطح هذه الكرة الصخرية حوالي سبعة بلايين نسمة من بني آدم، وأكثر من مليونين ونصف المليون نوع من أنواع الكائنات الحية التي يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد (مع العلم بأنه إذا أضيفت الأنواع المندثرة من صور الحياة، وحسبت معدلات اكتشاف الأنواع الجديدة سنويًا فإن عدد أنواع الحياة الأرضية قد يصل إلى أكثر من خمسة ملايين نوع، يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد).

ويحيط بالأرض غلاف مائي، تقدر كتلته بحوالي (1.4 مليون مليون مليون طن)، وغلاف غازي له تركيب كيميائي محدد، وصفات طبيعية معينة، تقدر كتلته بحوالي (5100 مليون مليون طن). وهذا الغلاف الغازي يفصل الأرض عن السماء الدنيا، ويحميها من العديد من المخاطر الكونية المحدقة بها.

وهذه الأرض تدور بسرعة مقدارها (27.8 كم) في الدقيقة (في زماننا الراهن) حول محورها أمام الشمس لتتم دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة، وذلك من أجل تبادل الليل والنهار على سطحها بانتظام. ومع دوران الأرض حول محورها فإنها تجري في مدار محدد لها حول الشمس بسرعة مقدارها (29.8 كم) في الثانية، وبمحور مائل على هذا المدار بمقدار (23.5) درجة لكي تتبادل الفصول المناخية الأربعة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، في تتابع محكم دقيق مرة كل سنة من سني الأرض،

تقدر الآن بـ (365.25) يوم من أيامنا الحالية، منتظمة في اثني عشر شهرًا. وكانت دورة الأرض حول محورها عند بدء الخلق أسرع من معدلها الحالي بستة أضعاف، ولذلك كان طول الليل والنهار معًا أقل من أربع ساعات، وكان عدد الأيام في السنة أكثر من (2200) يوم وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى – في محكم كتابه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: 54).

هذا وغيره من أمور الأرض مقدر بدقة فائقة، لو اختلت موازينها قدر شعرة ما كان هذا الكوكب صالحًا للعمران بالحياة التي نعرفها، ومن ذلك دقة حساب كل من البناء الداخلي والخارجي للأرض، كتلتها، وحجمها، متوسط كثافتها، متوسط بعدها عن كل من القمر والشمس، مساحة كل من اليابسة والماء على سطحها، وتوزيع تضاريس هذا السطح؛ تركيب كل من أغلفتها الصخرية، والمائية، والهوائية والحياتية؛ توزيع مناطقها المناخية؛ تتابع دورات كل من صخورها، ومياهها، وحياتها؛ تصريف الرياح من حولها؛ وتعدد الظواهر المحيطة بها والجارية على سطحها، من مثل الزلازل والبراكين، والعواصف والأعاصير والسحب والأمطار، والرعد والبرق، والصواعق، وسقوط الشهب والنيازك وغيرها، وبين المد والجزر، وبين كسوف الشمس وخسوف القمر، وتقدير كل من منازله ومنازل الشمس بين البروج، والاتزان الأرضي الدقيق بين العمليات الداخلية البانية، والعمليات الهدمية الخارجية، وغير ذلك كثير مما يتم بتقدير وإحكام ينفيان العشوائية والصدفة نفيًا قاطعًا...!! ويشهدان للخالق – سبحانه وتعالى – بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق.

وأرضنا واحدة من أحد عشر كوكبًا، يدور كل منها في مدار محدد له حول شمسنا لتكون ما يعرف باسم «**المجموعة الشمسية**»؛ وشمسنا واحدة من حوالي ترليون نجم تكون مجرتنا (**سكة التبانة أو درب اللبانة**). وكما أن لشمسنا توابع من الكواكب، والكويكبات، والأقمار والمذنبات، فمن المرجح أن يكون لكل نجم من هذه النجوم توابعه، انطلاقًا من وحدة البناء في الكون. ومجرتنا عبارة عن قرص مفلطح يبلغ طول قطره مائة ألف سنة ضوئية، وسمكه عشر ذلك. وبمجرتنا من

النجوم وأشباهها، ومن السدم والدخان الكوني، ومن الثقوب السود ما يمثل تنوعًا مذهلًا في دقة توزيع كثافة المادة التي تترابط بالجاذبية في داخل المجرة. ومن هذه النجوم ما يمر بمراحل الميلاد والطفولة، ومنها ما ينعم بمراحل الصبا والشباب، أو النضج والكهولة، ومنها ما يرزح تحت وطأة الشيخوخة وأهوال الاحتضار...!!

والنجوم عبارة عن أفران نووية عملاقة تتخلق بداخلها أغلب العناصر المعروفة (من الإيدروچين إلى الحديد) وذلك بعملية تعرف باسم «**عملية الاندماج النووي**»، وتنطلق الطاقة اللازمة لاستمرار هذا الوجود الكوني، أما بقية العناصر التي يزيد وزنها الذري على الوزن الذري للحديد فتتخلق في صفحة السماء باصطياد نوى ذرات الحديد لبعض اللبنات الأولية للمادة، ويتم ذلك كله بتقدير وإحكام يشهدان للخالق العظيم بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

وإلى مشارف القرن العشرين كان الفلكيون يتصورون أن مجرتنا هي كل الكون، ومع تطور أجهزة الرصد الفلكي ثبت أن بالسماء من أمثال مجرتنا ما بين مائتي ألف مليون مجرة وثلاثمائة ألف مليون مجرة، بعضها أكبر من مجرتنا كثيرًا، والبعض الآخر في حجم مجرتنا أو أقل قليلًا. وهذه الأعداد المهولة من المجرات مرتبة في مجموعات ونسق محكمة الأبعاد، والأعداد، والكتل، والأحجام، والكثافات، ومنضبطة الحركة والعلاقات انضباطًا شديدًا، ومن ذلك أن تكوّن عشرات من المجرات المتقاربة نسبيًّا تجمعات تعرف باسم «**المجموعات المحلية**»، وتلتقي عشرات من تلك المجموعات فيما يعرف باسم «**الحشود المجرية**»، ثم «**التجمعات المحلية العظمى**»، ثم «**الحشود المجرية العظمى**» إلى نهاية غير معلومة للسماء الدنيا التي لا يدرك الفلكيون منها أكثر من شريحة يقدر قطرها بحوالي (30 بليون) سنة ضوئية، والسنة الضوئية يقدر طولها بحوالي (9.5 مليون مليون) كيلو متر.

والسماء دائمة الاتساع، بمعنى أن المجرات دائمة التباعد عن بعضها البعض بسرعات تصل إلى ثلاثة أرباع سرعة الضوء، المقدرة بحوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية (أي أن المجرات تتباعد بسرعات قد تصل إلى 225 ألف كيلومتر في الثانية) وهي سرعات لا يمكن للإنسان اللحاق بها. وهذا الاتساع الكوني لم يدرك إلا في الثلث الأول من القرن العشرين، وقد سبق القرآن الكريم بتقريره لتلك الحقيقة الكونية من قبل ألف وأربعمائة سنة وذلك بقول الحق – تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات: 47).

وهذا البناء الدقيق للسماء – وهي دائمة الاتساع – تحكمه قوانين منضبطة انضباطًا شديدًا، حيث يدور كل جرم من أجرامها حول محوره، ويجري في مدارات متعددة ومحددة له، دون توقف، أو تعطل، أو تخلف، ودون اصطدام أو ارتطام، أو خروج، أو حيود إلى آخر لحظة من لحظات وجوده. فمن الذي بنى السماء بهذا الاتساع، ودقة البناء، وضبط حركات كل جرم من أجرامها بهذا الإحكام الشديد؟ ومن الذي يرعاها ويصونها ويمسكها من الزوال وهي دائمة الاتساع؟ وهل يمكن أن يكون كل تلك نتاج العشوائية أو الصدفة؟ والجواب هو بالقطع لا...!! وذلك لأن النظر بعين العقل في الكون وما به من كائنات يؤكد على أنه لا يمكن لأي منهما أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، أو أن يكون نتاج العشوائية أو الصدفة، بل لا بد لإبداع كل ذلك من موجد عظيم، له من صفات الكمال والجلال والجمال، ومن شمول العلم والحكمة، وطلاقة القدرة ما أبدع به هذا الخلق. ويؤكد ذلك أن الاحتمالات الرياضية للصدفة معدومة انعدامًا كاملًا في تفسير نشأة الكون، فإيجاد كون بهذا الاتساع، وإحكام البناء، وانتظام الحركة بالصدفة أو بطريقة عشوائية هو من الأمور التي تردها كل العمليات الإحصائية، ويرفضها كل عقل سليم. وعلماء الفلك يجمعون اليوم على أن كوننا الشاسع الاتساع، الدقيق البناء، المحكم الحركة، والمنضبط في كل أمر من أموره، لا بد له من مرجعية في خارجه، وهذه المرجعية لا بد أن تكون مغايرة للخلق مغايرة كاملة؛ لكونها فوق كل من المكان والزمان، والمادة والطاقة. وصدق الله العظيم الذي يقول عن ذاته العلية: ﴿... لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11).

ويقول علماء الفلك كذلك إننا لو عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء من الزمن فلا بد أن يلتقي كل شيء: المادة والطاقة، والمكان والزمان في نقطة واحدة متناهية الضخامة في كم المادة والطاقة ومتناهية الضآلة في الحجم (إلى الحد الذي تتوقف عنده كل قوانين الفيزياء النظرية والكمية). وأن هذا الجرم الابتدائي انفجر فتحول إلى سحابة من الدخان الذي خلقت منه الأرض وباقي أجرام ومكونات السماء.

وقد سبق القرآن الكريم بألف وأربعمائة سنة هذا التصور المكتسب، والذي لم يتبلور إلا في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وذلك بقول ربنا – تبارك وتعالى – في محكم كتابه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (الأنبياء: 30).

وبقوله – سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: 11).

رابعًا: الاحتمالات الرياضية للصدفة في خلق الحياة منعدمة انعدامًا كاملًا مما يشهد لله - تعالى - بأنه خالق كل شيء:

إن إيجاد خلية حية واحدة بمجرد تفاعل أشعة الشمس مع طين الأرض كما يدعي الدهريون من أصحاب «نظرية التطور العضوي» هو أمر أبعد من الخيال؛ لأن التجارب العملية قد أثبتت استحالة الصدفة في تكون لبنات بناء الخلية الحية، وهي «الجزيئات البروتينية»، **بل استحالة تكون جزيء واحد من «جزيئات الأحماض الأمينية» وهي لبنات بناء «الجزيئات البروتينية» بمحض الصدفة**، فالجزيء الواحد من جزيئات الأحماض الأمينية يتكون أساسًا من خمسة عناصر هي الكربون والإيدروچين والأكسچين والنيتروچين والكبريت. وقد يضاف إليها الفسفور. واختيار هذه العناصر بمحض الصدفة (من بين أكثر من مائة عنصر يعرفها الإنسان) يحتاج إلى مادة تبلغ أضعاف أضعاف مادة الكون المنظور، في زمن يساوي عمر الكون المقدر بحوالي أربعة عشر مليار سنة (13.7 مليار سنة) مضروبًا في رقم فلكي، مما يجعله إحصائيًّا من المستحيلات. ثم إن الذرات في جزيء الحمض الأميني تترتب في أجساد جميع الكائنات الحية ترتيبًا يساريًّا حول ذرة الكربون، فإذا ما مات الكائن أعادت هذه الجزيئات ترتيب ذراتها ترتيبًا يمينيًّا بمعدلات ثابتة، تعين على تحديد لحظة الوفاة بحساب نسبة الترتيب اليميني إلى الترتيب اليساري في الأحماض الأمينية المحفوظة في أية فضلة عضوية من فضلات جسد هذا الكائن. وهذا الأمر هو مما يحير اليوم كلًّا من علماء الخلية الحية والكيمياء العضوية، حيث لا يستطيعون له تفسيرًا، وتسمى هذه الظاهرة باسم «ظاهرة تغيير الاتجاهات في الأحماض الأمينية» (Racemization of the amino acids).

والأحماض الأمينية هي مواد جامدة، غير حية بذاتها، متبلورة، سهلة الذوبان في الماء في أغلب الأحوال، فلو فرضنا تكونها ذاتيًّا – وهذا محال – لذابت في الوسط المائي الذي تكونت فيه وضاعت إذا لم يتم عزلها عنه فور تكونها.

كذلك فإن الأحماض الأمينية المناسبة لبناء الجزيء البروتيني لا بد أن تكون من نوع خاص يعرف باسم «النوع ألفا»، **ويشترط أن تكون ذراته مرتبة حول ذرة الكربون ترتيبًا يساريًا، وأن تترتب هذه الجزيئات الأمينية نفسها ترتيبًا يساريًا كذلك في داخل الجزيء البروتيني**، وأن ترتبط مع بعضها البعض برباط خاص يعرف باسم **«الرابط الببتيدي» (Peptide Bond)**. هذا بالإضافة إلى أن الأحماض الأمينية القادرة على بناء الجزيئات البروتينية هي **عشرون حمضًا أمينيًا فقط من بين مليون من الأحماض الأمينية المعروفة. وهذه القيود مجتمعة أو منفردة تجعل من تكون جزيء بروتيني واحد بمحض الصدفة أمرًا مستحيلًا..!! وإذا استحال ذلك الأمر استحال تكون خلية حية واحدة بمحض الصدفة**، خاصة إذا علمنا أن هذه الخلية الحية في جسم الإنسان لا يتجاوز طول قطرها - في المتوسط - (0.03)، وهي على قدر من تعقيد البناء الذي يفوق كل ما أنشأته المعارف العلمية والتقنية من مصانع، بل الذي تخيلته ولم تتمكن بعد من تنفيذه. وتكفي في ذلك الإشارة إلى قدرة هذه الخلية الحية على إنتاج مائتي ألف نوع من البروتينات المعقدة التركيب، والمحكمة البناء والتي يعرف الإنسان منها أكثر من مليون نوع، كل نوع منها عبارة عن سلاسل محكمة البناء والترتيب والترابط من الأحماض الأمينية، وليست كلها صالحة لبناء أجساد الكائنات الحية...!!

خامسًا: وحدة البناء في الخلق تشير إلى وحدانية الخالق - سبحانه وتعالى:

وإذا انتقلنا من الأحياء إلى الجمادات وجدنا أن الكون المادي الذي نعيش فيه - على عظم اتساعه وتعدد أجرامه، وشدة ترابطه، وانتظام حركاته، واتساق ظواهره - يمكن رده إلى مكونات أربعة هي: **المادة، والطاقة، والمكان، والزمان**. والمادة - على اختلاف صورها - ترد إلى أصل واحد هو غاز الأيدروچين، والطاقة - على تعدد أشكالها - ترد إلى الجاذبية العظمى؛ وبتفجير الذرة ثبت أن المادة والطاقة شيء سواء، كما ثبت أن المكان والزمان أمران متواصلان، فلا يوجد مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان. وبذلك تتحلل مكونات الكون المنظور إلى شيء واحد، لا نعرف كنهه، ولكنه يمثل الوحدة العظمى في الوجود كله، وهذه الوحدة في بناء الكون ناطقة بوحدانية خالقه، وشاهدة له بالألوهية، والربوبية، والخالقية، وبالتنزه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله. كذلك فإن وجود

جميع المخلوقات (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) في زوجية واضحة يشهد للخالق - سبحانه وتعالى - بالتفرد بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

سادسا: حدوث الكون وما فيه من كائنات يؤكد حتمية الآخرة:

تشير كل المعارف المكتسبة إلى أن الكون وجميع مكوناته لا يمكن وصفهما بالأزلية، أو بالأبدية، فنحن نرى الموت يحصد كل شيء في حياتنا: الإنسان، والحيوان، والنبات، ومختلف أشكال الجمادات، فكل موجود له أجل - طال أم قصر - والكون كانت له في الأصل بداية - يحاول العلماء تقديرها بحدود (13.7 مليار) سنة، وكل ما له بداية مخلوق له أجله المحدد، فينتهي وجوده عند نهاية ذلك الأجل، وعلى ذلك فإن كوننا لا بد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية، وهذا مما يؤكد حتمية الآخرة، وضرورتها. والأدلة على ذلك كثيرة، منها موت كل من الأحياء والجمادات. وموت الأحياء معروف مشهور، وهو من الحقائق الكبرى للوجود. ومن الأدلة على موت الجمادات ما نراه في صفحة السماء من تولد النجوم وتكورها، ثم انكدارها، ثم طمسها ثم فنائها، وما نراه من تخلق الكواكب وانتثارها، وكثرة الشهب والنيازك، وتناقص كل شيء في الكون من الموجودات حتى تبلى. فشمسنا تفقد من كتلتها على هيئة طاقة في كل ثانية من ثواني وجودها ما يعادل (4.6 مليون) طن من المادة، مما يشير إلى حتمية فنائها وفناء كل النجوم من حولها، وإن كان فناؤها سوف يتم بالأمر الإلهي بـ: «كن فيكون»؛ لأن الساعة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا البطيئة الرتيبة، أما الساعة فتتم بالأمر الإلهي في فجائية مباغتة مذهلة، يصفها القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: 187).

كذلك فإن الدراسات الفلكية أثبتت تباعد القمر عن الأرض بمعدل (3-4 سم) في كل سنة مما يشير إلى حتمية ابتلاع الشمس له، وإن كان ذلك لن يتم بهذه السنة البطيئة، بل بالأمر الإلهي؛ بـ (كن فيكون)، دون انتظار لعمل هذه السنة الكونية البطيئة التي أبقاها الخالق - سبحانه وتعالى - شاهدة على حتمية تهدم النظام الكوني

بدءًا بابتلاع الشمس للقمر، كما أخبرنا ربنا - تبارك وتعالى - من قبل ألف وأربعمائة سنة بقوله العزيز: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ (القيامة:9).

ومن الشواهد القاطعة على مرحلية الكون وحتمية فنائه - وإن طال عمره - انتقال الحرارة من الأجرام الحارة كالنجوم إلى الأجرام الباردة مثل الكواكب والكويكبات والأقمار والمذنبات، والمنطق العلمي يقول إن عملية الانتقال الحراري تلك لا بد أن تنتهي بفناء الكون.

سابعًا: محدودية قدرات الإنسان الحسية والعقلية تؤكد حقيقة الغيب، وحاجته إلى الدين:

مع التسليم بأن العقل من أجَلِّ نعم الله - تعالى - على الإنسان، وأن من قبيل الشكر على هذه النعمة استخدامها إلى أقصى درجات إمكاناتها، فإنه لا بد من الاعتراف بمحدودية قدرات الإنسان بحدود كل من مكانه، وزمانه، وقدرات حواسه وعقله. وانطلاقًا من ذلك فلا بد من الاعتراف بأن جميع المعارف المكتسبة لا تعدو أن تكون محاولات بشرية لتفسير الكون وظواهره، من أجل الكشف عن عدد من سنن الله الحاكمة له، والاستفادة بها في عمارة الأرض وفي القيام بواجبات الاستخلاف فيها، أما ما وراء المادة فغيب لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه بقدرات عقله المحدودة وحواسه القاصرة، مع محدودية مكانه من الكون (بوجوده على بقعة محدودة من الأرض) ومحدودية زمانه (أي أجله)، وعلى ذلك فالإنسان محتاج في معرفة بعض الغيوب إلى علم أكبر من علمه، وهذا العلم لا يمكن أن يصل الإنسان إليه إلا ببيان من خالقه، **وهذا مما يؤكد حاجة الإنسان دومًا إلى الدين الذي هو بيان من الله - تعالى - إلى الإنسان في القضايا التي يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط عجز الإنسان عجزًا كاملًا عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها.** ومن حقائق الدين ما يجيب عن العديد من الأسئلة الكلية التي تتردد في ذهن الإنسان - زادت ثقافته أو قلت، وطال عمره أو قصر، وعلا قدره في المجتمع أو انحط - وذلك من مثل: من أنا؟ من الذي أوجدني في هذه الحياة؟ ما هي رسالتي فيها؟ كيف يمكن لي تحقيق هذه الرسالة؟ ثم ما هو مصيري بعد هذه الحياة؟ والإنسان إذا لم يوفق في الحصول على إجابات صحيحة على هذه الأسئلة الكلية فإنه لا يمكن له أن يحيا على هذه الأرض حياة مستقرة، أو أن يحقق الهدف من وجوده على سطحها، أو أن يكون راضيًا عن حاله...!! وإنسان هذا شأنه لا بد له من أن يعيش قلقًا، مضطربًا، بلا هدف ولا غاية

سوى المتع المادية الفانية، التي تدفعه - في أغلب الأحوال - إلى الوقوع في العديد من المخالفات السلوكية، والتجاوزات الأخلاقية، والمظالم الجائرة للنفس وللغير (أفرادًا وجماعات) خاصة في فورة الشباب، وعنفوان الفتوة، وفي طغيان الجاه والسلطان، وطغيان غيرهما من أسباب القوة المادية، وإن كان ذلك غالبًا ما ينتهي بانتقام القدرة الإلهية المهيمنة على كل شيء، أو ينتهي إلى ضعف الإنسان في مراحل الكهولة والشيخوخة، وما يتراكم فيها من مشاعر الحسرة والندم، والقلق والخوف، والحيرة والضياع في انتظار الأجل المحتوم، والغيب المخبوء، دون أمل في مستقبل بعد الموت، لم يعمل من أجله شيئًا في حياته الدنيا التي أهدر فيها عمره بلا هدف محدد، أو غاية مقصودة، وهنا تتجلى مرة ثانية حاجة الإنسان إلى الدين.

ثامنًا: حاجة الإنسان إلى الدين تؤكد ضرورة الإيمان بالله:

يؤكد لنا التاريخ المدون أن الإنسان لا يمكنه أن يحيا على هذه الأرض حياة سوية بغير دين، وأن الدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية. وذلك لأن الدين هو بيان من الخالق - سبحانه وتعالى - للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط عجز الإنسان عجزًا كاملًا عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها، وذلك من مثل قضايا **العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات**، وذلك لكون هذه القضايا إما من الغيوب المطلقة كقضية العقيدة، أو من الأوامر الإلهية الخالصة كقضية العبادة، وإما هي من ضوابط السلوك كدساتير الأخلاق، وفقه المعاملات. والعقيدة الصحيحة تطالب الناس جميعًا بالإيمان بالله - تعالى - ربًّا واحدًا أحدًا، فردًا صمدًا (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد) كما تطالبهم بالإيمان بأن هذا الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، هو خالق كل شيء، وأن كل شيء سواه مخلوق بقدرة هذا الخالق العظيم، التي لا تحدها حدود، ولا يعوقها عائق.

وهذا الخالق العظيم مغاير في ذاته وأسمائه وصفاته لجميع خلقه، فلا يحده أي من حدود المكان أو الزمان؛ لأنه - سبحانه وتعالى - هو خالقهما؛ ولا يتشكل من المادة أو الطاقة لأنه - تعالى - هو مبدعهما، والمخلوق لا يحد خالقه أبدًا.

والإنسان - بحكم تكوينه - لا يستطيع سوى إدراك الأشياء المحسوسة، أي: المحددة بكل من المكان والزمان، والمُشَكّلة بشكل من أشكال المادة أو الطاقة أو من كليهما معًا. ولما كان الخالق العظيم منزهًا عن حدود كل من المكان والزمان، والمادة والطاقة، أي: منزهًا عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله،

صعب على الإنسان معرفة خالقه دون وحي من هذا الخالق العظيم، وإن أدرك كل إنسان عاقل في نفسه بديع صنع الله، وكما يدركه في الآفاق من حوله. ولذلك عَرَّف ربنا – تبارك وتعالى – كلًا من أبوينا آدم وحواء – عليهما السلام – لحظة خلقهما أنه – تعالى – خالقهما وخالق كل شيء، كما عرَّفهما حقيقة رسالة كلٍ منهما في الحياة الدنيا ومصيره من بعدها، وبذلك كان آدم – عليه السلام – أول الأنبياء، بل كان نبيًا مكلمًا كما وصفه خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في حديثه الصحيح[1].

وعلم آدم – عليه السلام – ذريته هذا العلم الموهوب له من الله – تعالى – وكلما عاشت البشرية بنور الهداية الربانية سعدت وأسعدت، ولكن الشيطان كان دومًا بالمرصاد للإنسان، والإنسان – إلا من رحم الله – فيه ميل للنسيان ورغبة في الخروج على الحدود التي حددها له الله فَيَضلُ ويُضِلُ، ويَشقى ويُشقي حتى تغرق البشرية في ظلام دامس من الضلالات، والمظالم والضياع التام، فيرسل الله – تعالى – نبيًا يصطفيه من الناس ليردهم إلى الدين الصحيح، إن كان الدين لا يزال موجودًا بين أيديهم، وإن انحرفوا عنه. ولكن إذا كان الدين قد ضاع أو حُرِّف وبُدِّل فإن الله – تعالى – يرسل رسولًا مصطفى من بين الناس، ينزل عليه رسالة جديدة من نفس المصدر، بنفس العقيدة، مؤكدًا وحدانية الخالق – سبحانه وتعالى – آمرًا أمته بقوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ (المؤمنون: 32)، ومؤكدًا على وحدة رسالة السماء، وعلى الإيمان بجميع الأنبياء، وعلى الأخوة بين الناس جميعًا.

وظلت البشرية – عبر تاريخها الطويل – تتأرجح بين الإيمان والكفر، وبين التوحيد والشرك، وظلت الهداية الإلهية تتنزل إلى الناس في كل أمة من أمم الأرض لقول ربنا – تبارك تعالى –: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ (فاطر: 24)، حتى بلغ عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، اصطفى الله – تعالى – من بينهم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولا[2]. وكان لا بد أن يكون لتنزل الوحي من خاتمة وكان ختامها بعثة النبي والرسول الخاتم، سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد بن عبد الله، النبي العربي الأمي ﷺ، فختمت ببعثته النبوات، وبرسالته كل الرسالات السماوية التي نسخها القرآن الكريم بعد أن ضيع أتباعها أصول تلك الرسالات، وأشبعوا ما بقي منها من ذكريات كثيرًا من التحريف والتبديل والتغيير، الذي أخرجها عن إطارها

(1) مسند أحمد – حديث رقم 21438.

(2) مسند أحمد – حديث رقم 22189.

الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها، خاصة أن هذه الرسالات السابقة كلها كانت قد أنزلت من السماء على عدد من الألواح، وبعد ضياع تلك الألواح نقلت مشافهة من الآباء للأبناء، ومن الأجداد للأحفاد، وحين جاء وقت تدوينها تم ذلك بعد عدة قرون من موت أو رفع الرسل الذين تلقوها. وتم تدوين كل منها بلغات غير لغة الوحي بها، وبأيدي أناس مجهولين، ليسوا بالأنبياء ولا المرسلين، وليس لأي منهم أدنى قدر من العصمة اللازمة في التبليغ عن الله – تعالى – ومن هنا كانت الرسالة الخاتمة ناسخة لكل ما أُنزل قبلها من رسالات ومهيمنة عليها هيمنة كاملة، لأن الله – تعالى – تعهد بحفظها في نفس لغة وحيها (اللغة العربية) فحفظت على مدى يزيد على أربعة عشر قرنًا دون أن يضاف إليها أو أن ينزع منها حرف واحد. وقد تعهد الله – سبحانه وتعالى – بهذا الحفظ تعهدًا مطلقًا، ولذلك سوف تبقى إلى ما شاء الله شاهدة على الخلق أجمعين بأنها كلام رب العالمين، وشاهدة للرسول الخاتم الذي تلقاها بالنبوة و بالرسالة، ومؤكدة حاجة الإنسان دومًا إلى الدين.

تاسعًا: إن الدين عند الله الإسلام:

الإسلام هو دين الفطرة، فمن هُدي إلى الفطرة هُدي إلى الإسلام، ومن هُدي إلى الإسلام توافق مع الفطرة التي فطره خالقه عليها، فمن أمور الفطرة **الإيمان بالله – تعالى** – ومن ركائز العقيدة الإسلامية: **الإيمان بالله – تعالى – وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.** والإنسان – المحبوسة روحه في هذا الجسد الطيني حتى صارت نفسًا – لا تستطيع حواسه المحدودة إدراك **الذات الإلهية**، وإن كان الإيمان بالله – تعالى – مطبوعًا في جبلته، ولكن هذا الإنسان المفطور على الإيمان بالله – تعالى – إن لم يهتد إلى العقيدة الصحيحة، فإنه إما أن يصطنع لنفسه عقيدة فاسدة، يملأ بها الحاجة الداخلية في ذاته إلى العبادة، وإما أن يعيش في هذه الدنيا هائمًا على وجهه بغير عقيدة، وكلا الحالين لن يفيده بشيء في الدنيا ولا في الآخرة، بل سوف تُلْقَى كل من أعماله وكفره، أو عقيدته الفاسدة، في وجهه يوم القيامة كالخرقة البالية، مهما أخلص لها ومهما تفانى في خدمتها...!!

أما **الملائكة** فهم عالم غيبي عنا – نحن معشر البشر – فلا توجد لدينا وسيلة مادية لإثبات وجودهم، ولولا أن الله – تعالى – قد أخبرنا عنهم ما كان أمامنا من وسيلة لمعرفة ذلك الخلق الغيبي.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى **الرسل السابقين وكتبهم**، فالتاريخ لم يدون لنا شيئًا عنهم، ولا عن كتبهم، ولولا إخبار الله - تعالى - لنا عن بعضهم ما كان أمامنا من وسيلة للتعرف عليهم ولا على أممهم.

وأما عن **اليوم الآخر**، وما فيه من بعث، وحشر، وحساب وجزاء، وميزان وصراط، وجنة ونار، فلولا أن الله - تعالى - قد أخبرنا عن ذلك ما كان أمامنا من وسيلة للتعرف عليه، على الرغم من توافر العديد من الشواهد المادية على حتمية فناء الكون وفناء كل ما فيه من أحياء وجمادات.

من هنا كانت ضرورة أن تكون **العقيدة** -وهي الركيزة الأولى للدين- بيانًا ربانيًا خالصًا، لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية، وإلا كانت عقيدة فاسدة، تقود أتباعها حتمًا إلى النار مهما أخلصوا لها وتفانوا في خدمتها...!!

والركيزة الثانية للدين هي **العبادة**، وهي بمفهومها اللغوي قمة الخضوع لله بالطاعة، ولا توجد طاعة بغير أوامر، فإذا لم يتلق الإنسان بيانًا من الله - تعالى - يوضح تفاصيل العبادة التي يرتضيها من عباده، فإما أن يبتدع الإنسان من عنده أنماطًا من العبادة لم يفرضها عليه خالقه، أو لا يعبد هذا الخالق العظيم، علمًا بأن عبادته - تعالى - هي من أول أسباب وجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا. كذلك لا يمكن لعاقل أن يتخيل إمكانية ابتداع الإنسان لنمط من العبادة، ثم افتراض قبولها من الله - تعالى - لما في ذلك من منافاة لحقيقة العبودية لله الخالق، ومن تألُّهٍ على جلاله، وهو رب هذا الكون ومليكه، وهذا موقف يرفضه العقل السليم، والمنطق السوي رفضًا كاملًا، وعلى الرغم من ذلك فإن جميع عبادات غير المسلمين هي عبادات مبتدعة جملةً وتفصيلًا.

أما **الأخلاق والمعاملات** فهما من ركائز الدين، ومن ضوابط السلوك البشري، والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان عجزًا كاملًا عن وضع ضوابط صحيحة لسلوكه، وما تعج به الأرض اليوم من قهر واستبداد، وجور ومظالم، ومن كثرة لبحار الدماء، وأكوام الأشلاء، وساحات الحروب وما تخلفه من الخراب والدمار، وغير ذلك من مختلف صور ضياع الإنسان وتحلله، وانحرافه ومفاسده، وانفلاته من جميع الضوابط الربانية لأخلاقه وسلوكه، لهو خير دليل على عجز الإنسان عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه في دائرة الأخلاق والسلوك.

وإذا سلمنا بهذه المقدمات التي تقضي بأن الإنسان لا يمكنه أن يحيا على هذه الأرض حياة سوية بغير دين، وأن الدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، ظهرت لنا العلامة الفارقة بين دين صحيح ودين غير صحيح، وهذه العلامة هي دقة حفظ الأصول السماوية للدين. ولما كان الوحي السماوي الوحيد المحفوظ بين أيدي الناس اليوم في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، والمحفوظ على مدى يزيد على أربعة عشر قرنًا هو القرآن الكريم الذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - تعهدًا مطلقًا بحفظه، حتى يبقى شاهدًا على الخلق أجمعين إلى يوم الدين بأنه هداية رب العالمين، وشاهدًا للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة فإن حاجة الإنسانية كلها إلى الإسلام العظيم تتضح لكل ذي عقل سليم. فكما أن إلهنا واحد، فلا بد أن تكون هدايته للبشرية واحدة، وهذه الهداية علمها الله - تعالى - لأبينا آدم - عليه السلام - لحظة خلقه، وأنزلها على عدد كبير من أنبيائه ورسله، ثم أكملها وأتمها، وحفظها في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - ولذلك قال - تعالى -:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (آل عمران: 19).

ومن معاني هذه الآية القرآنية الكريمة أن الدين الوحيد الذي يرتضيه ربنا - تبارك وتعالى - من عباده هو الإسلام، بمعنى الطاعة لأوامر الله - تعالى - واجتناب نواهيه، وتحكيم شرعه الذي أنزله في محكم كتابه، ودعا فيه الناس جميعًا إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإلى توحيد الله - تعالى - توحيدًا كاملًا (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد) وإلى تنزيهه - جل شأنه - عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، كما دعاهم إلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله في ربوعها.

ومن معاني هذه الآية الكريمة أيضًا أن كل نبي من أنبياء الله، وكل رسول من رسله، قد بعث بالإسلام، وإن اختلفت تفاصيل بعض التشريعات باختلاف الأزمنة والبيئات. وتؤكد الآية الكريمة أن اختلاف أهل الكتاب في قضية التوحيد جاء من قبيل البغي والاعتداء والتظالم بينهم حينما تخلّوا عن دين الله، وحرفوا كتبه، واشتروا

بها ثمنًا قليلًا، افتراء على الله، واستهانة بعقابه، ولذلك ختمت الآية الكريمة بتهديد شديد من الله – تعالى – لهم، يقول فيه: ﴿... وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (آل عمران: 19).

ولما كانت بعثة سيدنا محمد ﷺ تمثل ختام النبوة، وختم رسالات السماء، فقد تعهد ربنا – تبارك وتعالى – بحفظ هذه الرسالة الخاتمة في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فقال – عز من قائل –: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (الحجر: 9).

ومجرد حفظ القرآن الكريم على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) دون أن يضاف إليه أو ينقص منه حرف واحد، هو من معجزات هذا الكتاب الخالد، ومن الشهادات الدالة على صدقه، وعلى صدق هذا الوعد الإلهي المطلق الذي قطعه ربنا – تبارك وتعالى – على ذاته العلية بحفظه، وعلى صدق الرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ. وهذا الوعد الإلهي القاطع يؤكد أن القرآن الكريم سيبقى محفوظًا بحفظ الله – تعالى – إلى ما شاء الله رب العالمين، وسيبقى شاهدًا على الخلق أجمعين إلى يوم الدين بأنه كلام رب العالمين، وشاهدًا للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. كما يؤكد أن الإسلام كان دين كل نبي وكل رسول من لدن أبينا آدم – عليه السلام – إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين – ولكنه اكتمل، وتم، وحفظ في القرآن الكريم وفي سنة خاتم النبيين، ولذلك خاطبه الله – تعالى – بقوله العزيز: ﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ (المائدة: 3).

عاشرًا: إعجاز القرآن الكريم للخلق أجمعين (بمعنى عجزهم جميعًا عن الإتيان بشيء من مثله) يشهد بأنه كلام رب العالمين:

سبق أن أشرنا إلى أن القرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين المحفوظ بين أيدي الناس اليوم بنفس لغة وحيه (اللغة العربية) ولذلك تتعدد جوانب الإعجاز فيه بتعدد زوايا النظر المحايد إليه (بمعنى عجز الإنس والجن فرادى ومجتمعين عن الإتيان بشيءٍ من مثله)، ومن ذلك ما يمكن إيجازه فيما يلي:

1 – **الإعجاز اللغوي (الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي والدلالي):** جاء القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا بتحدٍّ صريح للإنس والجن – فرادى ومجتمعين – أن يأتوا بشيء من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائمًا دون أن يتقدم عاقل ليقول إنه استطاع نظم سورة من مثل سور القرآن الكريم. وقد كان العرب في زمن الوحي هم أرباب البلاغة والفصاحة وحسن البيان، واعترف الكفار منهم – قبل المسلمين – بتفوق القرآن الكريم على كل إبداعاتهم اللغوية من شعر ونثر (انظر كتاب «التعبير القرآني» للأستاذ الدكتور فاضل صالح السامرائي).

2 – **الإعجاز الاعتقادي: بمعنى أن توحيد الله – تعالى – توحيدًا مطلقًا فوق** جميع خلقه هو أصح من الشرك بالله، وأن تنزيه الله – سبحانه وتعالى – عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله أفضل من الانحطاط بمدلول الألوهية إلى مستوى الإنسان أو الحيوان أو الجماد.

وهذا التنزيه للذات الإلهية يتطابق مع كل منطق سوي، ومع كل معطيات العلم الذي ينادي اليوم بأن الكون الذي نحيا فيه لا بد له من مرجعية في خارجه، تكون مغايرة له مغايرة كاملة، لا يحدها أي من المكان أو الزمان، ولا يشكلها أي من المادة أو الطاقة. وخلق الكون في زوجية واضحة (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) وبناؤه على نظام واحد من الذرة إلى المجموعة الشمسية إلى المجرة يؤكد وحدانية الخالق – سبحانه وتعالى – وتفرده فوق جميع خلقه بصفات الألوهية، والربوبية، والخالقية، والوحدانية المطلقة.

كذلك فإن **الإيمان بوحدة رسالة السماء** (المنطلقة من حقيقة الإيمان بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى) **وبالأخوة بين الأنبياء** (انطلاقًا من الإيمان برسالتهم الواحدة)، **وبالأخوة بين الناس جميعًا** (باعتبارهم إخوة وأخوات، ينتهي نسبهم إلى أب واحد وأم واحدة هما آدم وحواء، عليهما السلام)، هو أفضل من التحلق حول نبي واحد، والمبالغة في تعظيم شأنه حتى الارتقاء به وهمًا خاطئًا إلى مقام الألوهية، ونسيان بقية الأنبياء والمرسلين أو إنكارهم. كذلك فإن المؤاخاة بين الناس جميعًا – على اختلاف أعراقهم، وألوانهم، ولهجاتهم – يؤكدها علم الوراثة، كما تؤكد علوم الاجتماع والتاريخ والأخلاق على أنها أفضل من التمييز العرقي، أو الطبقي، أو الديني، أو المذهبي، أو على أي أساس آخر.

والإيمان بعوالم الغيب التي أخبر عنها القرآن الكريم من مثل عوالم الملائكة والجن أفضل من إنكارها بغير علم، والمعطيات الكلية للعلوم تؤكد أن الغيوب تحيط بنا من كل جانب، وتكفي في ذلك الإشارة إلى معطيات علوم الفلك التي تعترف بأن ما يراه الفلكيون في الجزء المدرك من السماء الدنيا لا يكاد يتعدى (5%) من حقيقة ما هو موجود فيها من مختلف صور المادة والطاقة المحسوبة رياضيًا حسب قوانين الفيزياء الفلكية.

والإيمان برسل الله جميعًا ينطلق من الإيمان بوحدانية الخالق - سبحانه وتعالى - ومن الإيمان كذلك بأن العدل الإلهي يقتضي ألا يحاسب الناس بدون إنذار، وأنه ما من بقعة مأهولة من بقاع هذه الأرض إلا وأرسل إلى أهلها نبي أو رسول، والإيمان بهم جميعًا وبما أرسلوا به، أفضل من التحلق حول نبي واحد منهم، والمبالغة في تعظيمه إلى حد عبادته من دون الله أو الشرك به في عبادة الله، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن خمسة وعشرين من الأنبياء والمرسلين، لم يدون التاريخ شيئًا عنهم، وإن كانت آثار أعداد من أممهم لا تزال موجودة في الأرض، والدراسات الأثرية الحديثة بدأت في الكشف عن عدد منها.

والإيمان بالآخرة وبما فيها من بعث، وحشر، وحساب، وجزاء، أفضل من إنكارها، والإشارات العلمية كلها تشير إلى حتمية فناء الكون والكائنات. كذلك فإن الكثيرين من جيوش المعتدين، ومن عتاة المجرمين، ومن الحكام المتجبرين على شعوبهم يفلتون من سيف العدالة في الدنيا، ولا بد من الاقتصاص منهم في الآخرة، وهذا الأمر وحده كاف لإثبات حتمية الآخرة وضرورتها.

والإيمان بالقضاء والقدر - خيره وشره - هو تسليم لله - تعالى - انطلاقًا من الإيمان بأنه هو رب هذا الكون ومليكه، وسيده ومدبر أمره، فلا يُحْدِثُ فيه أمرًا إلا لحكمة بالغة، ومن هنا وجب على المؤمن أن يرتضي ذلك بكل القبول والتسليم. وهنا تتجلى قيمة الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأن الحرمان من ذلك هو مبعث للشقاء بلا طائل؛ فقدر الله نافذ - رضي الإنسان أو أبى - وفي الرضا إيمان بالله تعالى وتسليم بقضائه وطاعة له، وراحة للضمير الإنساني، بينما في الاعتراض كفر بقضاء الله وقدره، ورفض لحكمه، وإرهاق للنفس دون طائل، وقدر الله تعالى نافذ لا محالة.

3 - **الإعجاز التعبدي:** فما من فريضة فرضها الله - تعالى - على عباده في محكم كتابه أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله إلا ومردودها الإيجابي على المتعبد نفسه ظاهر للعيان؛ وذلك من الشهادتين بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، إلى إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلًا. وكل عبادة من هذه العبادات أفضل من كل الوثنيات الموضوعة عند المتعبدين من أهل الأصنام والأوثان وأهل الكتاب وغيرهم.

وتكفي في ذلك الإشارة إلى ما ثبت من توسط مكة المكرمة لليابسة، مما يؤكد على أنها أقدم بقاع الأرض، وبها أول بيت وضع للناس؛ كما تكفي الإشارة إلى إثبات أن خط الطول المار بمكة المكرمة هو خط الطول الوحيد المتجه إلى الشمال الحقيقي للأرض، بينما خط طول جرينتش - الذي فرض على العالم بحد السيف - يميل (7.5) درجة إلى الغرب، ولذلك يجب اتخاذ خط طول مكة المكرمة خط طول الأساس لجميع الأرض بمعنى أن ما يقع إلى الشرق منه يعتبر شرقًا، وما يقع إلى الغرب منه يعتبر غربًا، حتى ينتظم شكل خرائط الأرض.

4 - **إعجاز الدستور الأخلاقي:** بمعنى كماله ومواءمته للطبيعة البشرية مواءمة كاملة بغير غلو ولا إقلال (انظر: دستور الأخلاق في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله).

5 - **الإعجاز التشريعي:** ويتضح من عدم المماثلة بين الشريعة الإلهية والقانون الوضعي؛ فالشريعة تتسم بالكمال والسمو والدوام في كل أمر شرعه الله - تعالى - وذلك بدءًا من الأمر بالشورى إلى تشريعات الحلال والحرام في داخل الأسرة الواحدة وفي خارجها، وفي المطعومات والمشروبات، والمعاملات، والسلوكيات، إلى تشريعات الإثبات والتعاقد، إلى تشريعات كل من الحدود والتعازير، والكفارات المختلفة، وغيرها. وكل واحد من هذه التشريعات الإلهية له حكمته ومردوده الإيجابي على كل من الفرد والمجتمع، بينما جميع القوانين الوضعية تتسم بالنقص، وعدم الكمال، وفقدان القدرة على الاستمرارية (انظر كتاب التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي للشهيد عبد القادر عودة رحمه الله رحمة واسعة).

6 - **الإعجاز التاريخي:** ذكر القرآن الكريم قصة خلق أبوينا آدم وحواء - عليهما السلام - بشيء من التفصيل، والمعطيات الكلية للمعارف المكتسبة تؤكد ذلك

وتدعمه. كذلك ذكر هذا الكتاب العزيز قصة أربعة وعشرين نبيًّا آخرين، وكيف تفاعلت أمة كل نبي منهم معه؛ وماذا كان جزاؤها، وما تم من الاكتشافات الأثرية يؤكد دقة كل ما جاء في كتاب الله عن كل أمة من هذه الأمم، وعما جاء عن أعداد من الصالحين والطالحين من الرجال والنساء الذين عايشوا تلك الأمم، خاصة إذا قورن ذلك بما جاء عن هؤلاء الأنبياء وأممهم عند أهل الكتاب، مما يجعل هذا القصص القرآني شهادة صدق لكتاب الله، ومن ذلك الكشف عن كل من بقايا سفينة نبي الله نوح - عليه السلام - فوق جبل الجودي، والكشف عن إرم ذات العماد في الجنوب الشرقي من صحراء الربع الخالي. وعن آثار كل من قوم صالح، وقوم لوط، وآثار كل من ملكة سبأ، وفرعون موسى، وأصحاب الكهف، وغيرهم. (انظر كتاب الإعجاز التاريخي في القرآن الكريم لكاتب هذه السطور).

7- **الإعجاز العلمي:** يحوي القرآن الكريم أكثر من ألف آية كونية، بكل منها إشارة أو أكثر من إشارة علمية إلى حقيقة من حقائق الكون، وجاء ذلك بين ثنايا آيات القرآن الحاملة لركائز الدين. وهذه الحقائق العلمية - في مجملها - لم تصل المعارف المكتسبة إلى شيء منها إلا في القرنين الماضيين، وأغلبها لم يكتمل تبلور مفاهيمه إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين. وهذا السبق العلمي للقرآن الكريم (في زمن لم يتوافر للإنسان أية وسيلة من وسائل الكشف العلمي) لا يمكن تفسيره إلا بكون هذا الكتاب العزيز كلام الله الخالق في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وأنه حفظ حفظًا كاملًا بوعد من الله - تعالى -. وهذا السبق بإيراد العديد من حقائق الكون، والإنسان والحياة، هو ما يجمع تحت مسمى «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» (انظر كتب السماء، والأرض، والنبات، والحيوان، وخلق الإنسان، والإنسان من الميلاد إلى البعث لكاتب هذه السطور).

8- **الإعجاز النفسي:** يخاطب القرآن الكريم النفس الإنسانية خطاب الخبير العليم بدخائلها، ويرتقي بها في معارج الله كما لا يقوى أي خطاب آخر على الارتقاء بها، ويفصل دقائقها، ومزاياها، وأمراضها وعللها تفصيل العليم بخباياها، الخبير بمزاياها ونقائصها. (انظر كتاب «القرآن وعلم النفس» للأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتي - رحمه الله).

9- **الإعجاز الإنبائي:** أخبر القرآن الكريم بعدد من الأحداث قبل وقوعها، وقد تم تحقق جزء منها، وما زالت الإنسانية في انتظار تحقق الباقي من هذه الأحداث، ومن ذلك قوله – تعالى – ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (الروم: 1 – 4).

10- **الإعجاز الاقتصادي:** ويكفي في ذلك الإشارة إلى تحريم الربا بمختلف صوره وأشكاله، وضبط التعاملات المالية، والتشديد في إجراءات الإثبات والتعاقد عند كتابة العقود والحقوق، ومنها الديون، والعدل المطلق في أحكام المواريث، والتحذير من الغش في الصنعة، ومن تطفيف الكيل والميزان في التجارة، وكلها من أشكال الربا.

11- **الإعجاز الإداري:** ويتلخص في الحرص على تولية الكفاءات العالية، وفي المحافظة على إنسانية الإنسان، والعمل على تطوير قدراته باستمرار (وذلك بتشجيعه على كسب المعارف، وتنمية المهارات، ومكافأته على كل إنجاز ناجح يحققه)، والعدل بين المرؤوسين، والمساواة بينهم في الحقوق والواجبات، والعمل على الارتقاء بقدرات كل فرد منهم باستمرار.

12- **الإعجاز التربوي:** ويتلخص في توصيات القرآن الكريم العديدة بالحرص على اكتساب المعارف النافعة، وعلى تحليلها وغربلتها بمعايير الإسلام، وعلى تطبيقها أمرًا واقعًا في حياة الناس؛ والدعوة إلى اكتساب العلم، وإلى توقير العلماء، والتركيز على شمولية المعرفة الإنسانية مع احترام التخصص، والإقرار بمحدودية المعارف المكتسبة، وشمول العلم الإلهي. ومن ذلك التشريع للأسرة في الزواج، والطلاق والعدة، والميراث، والأمر بالمساواة بين الأبناء، والحض على صلات الرحم، ورعاية الأيتام، والأرامل، والعجزة، وتوقير كبار السن، ورحمة الصغار، وحسن التواصل بين الناس جميعًا.

13- **إعجاز الشمول:** بمعنى قدرة القرآن الكريم على تناول العديد من قضايا الوجود وردِّه لحكم الله خالق الوجود، وقدرته على تقديم الإجابات الشافية لكل ما يعن للفكر الإنساني من تساؤلات، وعلى التشريع لكل من الفرد، والأسرة،

والمجتمع، والدولة، وللناس أجمعين في كل مكان وفي كل زمان بعدل منقطع النظير، وعلى تناول كليات الأشياء تاركًا التفاصيل لاجتهاد الإنسان، وذلك بما يعجز عنه كل أهل الأرض، من الإنس والجن، فرادى ومجتمعين.

14- **الإعجاز الصوتي:** يتميز القرآن الكريم بسلاسة أسلوبه، وبالدقة البالغة في موافقة ألفاظه للمعاني المقصودة منها، مع السهولة في تركيب جمله، والانسياب في النطق بآياته، مع روعة الجرس الذي ييسر حفظه، ويطرب السمع والعقل والقلب معًا، جذبًا لانتباه كل من القارئ والسامع، وتأثيرًا في أعماق كل منهما. والجرس الجميل هو ميزة صوتية للقرآن الكريم كله يعجز عنها أي أسلوب آخر، لأنه ينقل إلى عقل وقلب كل من القارئ والسامع له سلسلة من المعاني المتصلة بالكلمة التي تتداعى مع غيرها من كلمات الآية الواحدة، ومع كلمات ما يسبقها وما يلحق بها من آيات، بين تكامل في المعنى، وانسجام في الصوت، ويسر في الانتقال، وجمال في الإيقاع لا تستطيعه أساليب المخلوقين فرادى ومجتمعين.

15- **إعجاز رسم الحروف:** يتميز الحرف العربي بالجمال والتناسق والطواعية للتشكيل، وقد وضعت لكتابة المصحف العثماني قواعد لخطه ولرسم حروف كلماته، ومن هذه القواعد التي وضعت من أجل فهم النص القرآني: **قواعد الحذف، والزيادة، والهمزة، والبدل، والفصل، والوصل**، وذلك من أجل استيعاب كل اللهجات العربية، وفي مقدمتها لهجة قريش، وتحقيق إمكانية حمل الآية الواحدة لأكثر من معنى واحد، (كلها يتحملها النص القرآني) في تكامل لا يعرف التنافر أو التضاد، وليس هذا لغير القرآن الكريم.

16- **إعجاز الحفظ:** حفظ كتاب الله على مدى يزيد على أربعة عشر قرنًا، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) دون إضافة أو حذف حرف واحد منه ودون خطأ واحد في اللغة، أو في ركائز العقيدة، أو في أوامر العبادة، أو في دستوري الأخلاق والمعاملات، أو في الإشارات العلمية، أو في سرد الأحداث التاريخية، أو في توجيه الخطاب إلى النفس الإنسانية، أو في التركيز على عدد من القواعد الاقتصادية والإدارية، أو في غير ذلك من الأمور التي جاء بها هذا الكتاب العزيز، ويعرف ذلك باسم «إعجاز الحفظ». ويتجلى إعجاز الحفظ للقرآن الكريم بصورة أوقع في تعهد الله - تعالى - تعهدًا مطلقًا بحفظه إلى ما شاء

الله، وفي ضياع جميع أصول الرسالات السابقة بلا استثناء، وتعرض ما بقي من بعضها من ذكريات للتحريف تلو التحريف، وللتأليف والتزييف، خاصة أن هذه الذكريات قد دونت بلغات غير لغة الوحي بكل منها، وقد كتبت بعد قرون من موت أو رفع الرسل الذين أرسلوا بها، وجمعت من أفواه الناس اعتمادًا على ما يمكن أن تكون قد وعته الذاكرة وفهمه العقل؛ ثم صيغت بأقلام من هم ليسوا بأنبياء ولا بمرسلين، وظلت تتعرض للتحرير تلو التحرير، وللتبديل والتغيير، وللحذف والإضافة، وللتحريف والتزوير إلى يومنا الراهن، وسوف تبقى كذلك إلى قيام الساعة.

17- **إعجاز التحدي:** جاء بالقرآن الكريم العديد من الآيات التي تتحدى كلًّا من الإنس والجن على أن يأتوا بشيء من مثله: في أسلوبه ومحتواه، ومضمونه ودعواه، دون خطأ واحد على كثرة الموضوعات التي تناولها هذا الكتاب العزيز. وإلى اليوم لم يتقدم عاقل فيقول إنه استطاع الإتيان بشيء من مثل سورة واحدة من قصار سور القرآن الكريم - على كثرة محاولات أعداد من الشياطين والمجانين من المجادلين بالباطل - الذين فشلوا في ذلك التحدي فشلًا ذريعًا.

كل هذه الجوانب (وغيرها كثير) يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وتعهد بهذا الحفظ تعهدًا مطلقًا حتى يبقى القرآن الكريم نبراس الهداية الربانية للخلق أجمعين إلى يوم الدين، وحجة الله - تعالى - البالغة على عباده قاطبة، وشهادة صدق للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

حادي عشر: من مميزات الإسلام كما تكامل في رسالته الخاتمة:

1 - يتميز الإسلام كما أكمله الله - تعالى - وأتمه في رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بأنه يمثل الرسالة السماوية الوحيدة التي تعهد الله - تعالى - بحفظها فحفظت في نفس لغة الوحي (اللغة العربية) على مدى يزيد على أربعة عشر قرنًا، وستظل محفوظة إلى ما شاء الله، وذلك لطلاقة الوعد الإلهي بحفظها، بينما وُكِلَ حفظ الرسالات السابقة (وكلها كانت إسلامًا) لأتباعها فضيعوها ضياعًا تامًّا، ما عدا بضع الذكريات التي حُرِّفت تحريفًا شديدًا عن

آحاد منها، وبناءً على ذلك فإن الإسلام - كما تكامل في رسالته الخاتمة: القرآن الكريم وسنة خاتم النبيين - هو الدين الوحيد الذي يرتضيه ربنا - تبارك وتعالى - من عباده؛ لأنه دين الله في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية، دون أدنى ابتداع، بينما كل ما عداه من معتقدات معاصرة هو صناعة بشرية خالصة وإن ادعت بأن لها صلة بوحي السماء. والدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل لا بد من كونه هداية ربانية خالصة لا يداخلها أدنى قدر من التصورات البشرية.

2 - إن الإسلام - كما تكامل في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يجسد دعوة كل أنبياء الله ورسله من زمن أبينا آدم - عليه السلام - إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، وقد بلغ عددهم مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، اصطفى الله - سبحانه وتعالى - منهم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولًا[1]. وقد بعث الله - تعالى - كل نبي وكل رسول إلى أمته، حتى شملت دعوة الإسلام جميع أمم الأرض، ثم بعث خاتم الأنبياء والمرسلين للخلق أجمعين إلى يوم الدين. وكل الرسائل الثلاثمائة وبضع عشرة التي تنزلت قبل بعثة الرسول الخاتم ﷺ قد ضاعت ضياعًا كاملًا، وبقي القرآن الكريم محفوظًا بحفظ الله - تعالى - في نفس لغة وحيه، تحقيقًا لعهد الله الذي قطعه على ذاته العلية؛ وذلك لأن الرسول الخاتم قد ختمت بنبوته النبوات، كما ختمت برسالته كل الرسالات السماوية، فليس من بعده ﷺ نبي ولا رسول، ولذلك كان لا بد من حفظ رسالته الخاتمة حفظًا مطلقًا حتى تبقى هداية الله لخلقه أجمعين وحجته - تعالى - عليهم إلى يوم الدين.

3 - بناء على ذلك فإن الإسلام - كما تكامل في كل من القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ - هو الدين الوحيد الذي يرتضيه ربنا - تبارك وتعالى - من عباده، ولا يرضى منهم دينًا سواه، وذلك لأنه هو دين الله في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية، دون أدنى ابتداع، بينما كل ما عداه من معتقدات معاصرة هو صناعة بشرية خالصة وإن ادعت بأن لها صلة بالهداية الربانية، والدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

(1) مسند أحمد - حديث رقم 22189.

4 – إنه الدين الوحيد الذي ينزه الله – تعالى – عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله، والذي يوحد الله توحيدًا كاملًا (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد) والمنطق السوي يأمر بذلك ويؤكده؛ لأن الإيمان بالله وتنزيهه فوق جميع صفات خلقه أمر منطقي في العقول، وفطري في النفوس انطلاقًا من وحدة البناء في كون قائم على الزوجية الكاملة في كل شيء (من اللبنات الأولية للمادة والطاقة إلى الإنسان)، ولضرورة تمايز الخالق – سبحانه وتعالى – في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله عن جميع خلقه.

5 – وبما أن الإسلام هو الدين الوحيد القائم على التوحيد الكامل لله – تعالى – فهو يقوم على الإيمان بوحدة كل رسالات السماء، وبالأخوة بين جميع الأنبياء، وبين الناس جميعًا، دون أدنى قدر من التمييز العرقي أو الطبقي، بينما تقوم كل المعتقدات المعاصرة – والتي هي صناعة بشرية كاملة – على التمييز بين الناس على أساس من العرق، أو الدين، أو المذهب، أو اللغة، أو اللون، أو الطبقة الاجتماعية.

6 – يقوم الإسلام على الاعتقاد الجازم بأن الله – تعالى – هو خالق كل شيء بالحق وإلى أجل مسمى، وأن من خلق الله – تعالى – الإنسان الذي خلقه ربه من طين، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، وأمر الملائكة بالسجود له، وكرَّمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا، واستخلفه في الأرض لأجل محدد، حدده الخالق – سبحانه وتعالى – لكل فرد من بني آدم، ولكل شيء في هذا الوجود، ولا تستطيع قوة على وجه الأرض تغييره بالتقديم أو التأخير لحظة واحدة. كما يقوم الإسلام العظيم على الإيمان بأن الكون – بكل ما فيه ومن فيه – خاضع للقدرة الإلهية التي أبدعته؛ فالله – تعالى – وحده هو الذي يمسك بكل أجزاء الكون، ويصونه ويبقيه، ولا يملك أحد غير الله أن يبدل من نظام الكون وقوانينه شيئًا، بمعنى أن قوانين الكون المطردة ليست واجبة ولا مطلقة إلا على المخلوقين؛ لأنها خاضعة لقدرة الله – تعالى – الذي خلقها، وأوجدها، وجعلها منظمة للكون ولجميع ما فيه من الكائنات والموجودات، وهو – تعالى – قادر على إيقافها وتغييرها وتحويلها كيف يشاء.

والإنسان جزء من هذا الكون المادي الذي خلقه الله – تعالى – بعلمه وحكمته وقدرته، ولكن الإنسان بالإضافة إلى جسده المادي هو كيان عاقل، له قدرة

على التفكير، وعلى التعبير عن أفكاره ومشاعره بطريقة منطقية؛ لأنه كائن حي، عاقل، قادر، مختار ومكلف.

ويقوم الإسلام العظيم على الايمان بأن الإنسان يولد على الفطرة، وأن الخير أصيل فيه، والشر طارئ عليه، وأن الله - تعالى - قد وهبه القدرة على التمييز بينهما بالعقل، ولكن أبويه يهودانه، أو يمجسانه، أو يُنَصِّرانِه كما ذكر المصطفى ﷺ[1]. وإن كانت قمة الخير في الإنسان، ووسيلته إلى إنمائه، تتمثل في خضوعه بالعبودية الخالصة لله - تعالى - وحده لأنه - سبحانه - هو رب هذا الكون ومليكه، ولا سلطان في هذا الوجود لغيره. والإنسان إذا لم يؤمن إيمانًا جازمًا بذلك، ولم يعمل به، كان جبارًا في الأرض، عاتيًا على الخلق، ومفسدًا مدمرًا في كل شيء، يستخدم كل نعمة عنده في الكفر بالله، والإفساد في الحياة، وفي الاستعلاء على الخلق، والتجبر والتسلط عليهم، أو في أن يكون عبدًا لغير الله - تعالى - فيشرك به، أو لا يعبده كفرًا وإلحادًا وجحودًا، وهذه صورة من صور الإذلال الذي يتنافى مع كرامة الإنسان.

ومن الخير الفطري الذي أودعه الله - تعالى - في طبيعة الإنسان تلك القيم الخيرة من مثل حب الحق وحب الخير، وتذوق الجمال الحسي والمعنوي في كل شيء، وهذه القيم يحرص الإسلام العظيم على رعايتها وتنميتها في كل فرد منذ لحظة الإدراك الأولى في حياته. ومن ذلك الإيمان بالأخوة الإنسانية التي له عندها حقوق وعليه تجاهها واجبات لا بد من أدائها. ولا تستقيم الحياة الدنيوية إلا بقيام الاتزان الدقيق بين حقوق الفرد وواجباته تجاه كل من أسرته، وأهله، ومجتمعه، وأمته، وتجاه الإنسانية جمعاء. ومن ذلك حب العلم النافع، غير المعزول عن الحكمة، وإتباعه بالعمل الصالح الذي ينفع الناس جميعًا، وذلك لأن العلم النافع يصدقه العمل الناجح، كما أن الإيمان الصادق لا بد أن يكون مقرونًا بالعمل الصالح وبالأخلاق الكريمة وبالأخذ بعزائم الأمور.

وقد جاء القرآن الكريم مؤكدًا أن لكل شيء في الوجود فطرته السوية التي فطره الله - سبحانه وتعالى - عليها، والتي تخصه وتميزه عن غيره، وعلى أن الكون - بكل ما فيه ومن فيه - خاضع لقوانين الخالق - سبحانه وتعالى - وهي قوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف ولا تتعطل إلا بإرادته. ومعرفة هذه القوانين هي من أسباب

(1) انظر لفظ الحديث في سنن الترمذي - كتاب القدر - باب ما جاء في كل مولود يولد على الفطرة.

الاستمرار في عملية التقدم العلمي والتقني، وهما وسيلة حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وتيسير الحياة على سطحها.

7 – إن الإسلام يكرم الإنسان، ويجعله أفضل مخلوقات الله إذا استقام على شرع خالقه، بينما تنحط به الحضارة المادية المعاصرة إلى مستوى دون الحيوانية فتجعله حيوانًا ناطقًا، أو حيوانًا اجتماعيًا. والإسلام يجعل لدم الإنسان حرمة تفوق حرمة أقدس أماكن العبادة، بينما تحصده الحضارة المادية بالملايين من أجل شيء تافه من حطام الدنيا الفانية. وانطلاقًا من الكرامة التي كرم الله – تعالى – بها الإنسان يدعو الإسلام العظيم إلى الحرية الكاملة للإنسان في اختيار الدين الذي يود أن يدين نفسه به لله تعالى، وذلك انطلاقًا من حقيقة أن الإنسان في الإسلام هو مخلوق مكرم، عاقل، حر، ذو إرادة، ومن هنا كان حقه الكامل في حرية التدين بما يشاء، ويكفي في ذلك قول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 256).

وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ ...﴾ (الكهف: 29).

وقوله – سبحانه –: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 1 – 6).

هذا في الوقت الذي تقوم فيه المعتقدات المعاصرة كلها إما بالانغلاق التام على ذاتها استعلاءً وأنانيةً كما هو الحال عند اليهود، وإما بالاستغلال والابتزاز لفقر الناس وحاجاتهم في ساعات الاضطرار والعوز، وذلك بمساومتهم على دينهم بلقمة العيش أو قطرة الدواء، أو خيمة الإيواء كما يفعل المنصرون.

8 – إن الإسلام دين متوازن في كل شيء، فهو يدعو إلى الأخذ بمكارم الأخلاق، وإلى احترام العقل السوي، وإلى تعظيم طلب العلم، وتوقير العلماء واعتبارهم ورثة الأنبياء. كما يوصي الإسلام العظيم الإنسان المؤمن بالحرص على الفوز

بالحكمة، وبقبول كل ما يقره المنطق السوي، ويقوم عليه الدليل القاطع، ويدعمه البرهان الناصع. ويدعو الإسلام الإنسان إلى الاجتهاد من أجل النجاح في الدنيا بالحق، وبالعمل للآخرة دون توانٍ أو توقف حتى يلقى أجله المحدد. ويكفي لتأكيد ذلك الإشارة إلى أن أولى آيات القرآن الكريم نزلت أمرًا بالقراءة والكتابة، وتعظيمًا لأدواتهما، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: 1 – 5).

وفي مقام آخر أقسم ربنا تبارك وتعالى بالقلم تعظيمًا لشأنه – وهو الغني عن القسم لعباده – فقال – عز من قائل: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (القلم: 1).

9 – إن الإسلام دين يكلف الإنسان حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله فيها. ويجعل من ذلك عبادة لا تقل في قدرها عن عبادة الخالق – سبحانه وتعالى – بما أمر، وهما وجهان لعبادة واحدة، تتحقق بهما رسالة الإنسان في هذه الحياة.

10 – إنه دين يأمر بالبحث في المعلوم المنظور من أمور الكون، أو ما يعرف باسم «**عالم الشهادة**»، كما يدعو إلى الإيمان «**بعالم الغيب**». ومن الغيوب التي يطالبنا الإسلام بها الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والتسليم بعوالم الجن دون محاولة التعرض لهم، ودون إفراط في ذلك أو تفريط.

11 – إنه دين يدعو إلى تحرير الإنسان من عبادة الذات أو المخلوقات إلى عبادة الخالق وحده، ويلغي جميع الوسائط بين المخلوقين وخالقهم، **فلا صكوك غفران، ولا كراسي اعتراف، ولا تقديس لغير الله – تعالى – ولا لغير ما قدس هو** – سبحانه وتعالى – من أزمنة وأماكن بعلمه وحكمته وإرادته.

12 – إنه دين يدعو إلى التوسط والاعتدال في كل أمر من أمور الحياة، ويأمر بصلاح الدنيا دون نسيان الآخرة، كما يأمر بمخالطة الناس في حدود تمنع الانعزال عنهم، وتحول دون الانفتاح الكامل عليهم. وعلى ذلك **فإنه لا رهبانية في الإسلام، ولا كهانة ولا عرافة، ولا رجال دين، ولكن علماء ومتخصصون في مختلف المجالات الدينية والدنيوية** بلا أدنى سلطان ديني، لأنه لا سلطان في هذا الوجود لغير الله – سبحانه وتعالى.



13 – إنه دين يحفظ الضرورات الخمس لكل فرد من بني آدم: **الدين، والعقل، والنفس، والمال، والعرض (النسل)**، على أسس من العدالة، والمساواة بين الناس جميعًا، والتيسير لهم، والحرص على مصالحهم، والمحافظة على كرامة كل فرد من أفرادهم وحقوقه.

14 – إنه دين يرفض الغفلة عن الحق في أي مجال من مجالات المعرفة، ويحارب التقليد الأعمى بلا دليل، كما يحارب الجمود على الآراء الخاطئة الموروثة، ويحرم القضاء بالظن والهوى، ويطالب بتأسيس كل حكم على الدليل العقلي المقبول، وعلى البرهان الجلي الواضح، ويحض على طلب العلم النافع الصحيح، القائم على أساس من مسئولية الإنسان عن حواسه وعقله. وينهى الإسلام عن كل ما يمكن أن يحول دون معرفة الحق وقبوله من مثل الكبر والغرور، والمجادلة على غير أساس أو منطق، أو على غير توافر لأصول المعرفة اللازمة.

15 – إن الإسلام العظيم يدعو إلى اكتساب المعارف النافعة بالتجرد للحق والصدق فيه، والمجاهدة في سبيله، والاستمساك به، والتعاون عليه، وكلها من أسس المنهج العلمي الاستقرائي الصحيح الذي وضع أسسه المسلمون الأوائل.

من هذا العرض الموجز فإننا ندعو الناس جميعًا إلى قراءة القرآن الكريم – ولو في إحدى التراجم العديدة لمعانيه لمن لا يجيدون العربية، وإن كانت كل التراجم لا تستطيع نقل جلال الربوبية الذي يتراءى لكل ذي بصيرة بين آياته العربية – كما ندعوهم إلى الاطلاع على شيء من سيرة الرسول الخاتم – صلوات الله وسلامه عليه – وعلى بعض أقواله الشريفة، وذلك من أجل التعرف على هذا الدين من مصادره الصحيحة؛ لأنه الدين الوحيد الذي يرتضيه ربنا – تبارك وتعالى – من عباده، ولا يرتضي منهم دينًا سواه، ولأنه لا خلاص للبشرية كلها من الكوارث التي تنتظرها إلا بالرجوع إلى الله عن طريق دينه وهو دين الإسلام. ومن المبشرات أن الإسلام هو أكثر الأديان انتشارًا في عالم اليوم على الرغم من الجهود المضنية التي تبذلها كل أبواق الشر في العالم من أجل تشويه صورته، والإساءة إليه. والتحذير من إمكانية إعادة تطبيقه نظامًا شاملًا كاملًا للحياة كما كان في الحضارة الإسلامية التي جسدت واحدة من أعظم الحضارات وأكملها في تاريخ البشرية؛ لأنها كانت الحضارة الوحيدة التي جمعت بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، فازدهرت في ظلها الدنيا، واستخدم ازدهارها طريقًا صحيحًا للآخرة بإقامة شرع الله وعدله على الأرض.

وعالم اليوم أصبح مليئًا بالمفاسد والمظالم، والمشاكل، والخلافات، والمآسي، والصراعات، وذلك بسبب جهل الناس بالدين الصحيح، فغرقت الأرض في بحار من الدماء والأشلاء، والخراب والدمار!!، ولجهل أغلب الناس بالإسلام حرموا من فهم الذات، ومن المعرفة الحقة لرسالة الإنسان في هذه الحياة، كما حرموا من معرفة مصيره من بعدها، وانطلاقًا من ذلك حاول إنسان اليوم – في غالبيته – العيش بتصوراته البحتة، وهي تصورات محدودة قاصرة، واندفع بمطامعه الدنيوية الحقيرة جريًا وراء مكاسبه المادية الآنية فيها بأي ثمن، فعانى من غلبة القوي الذي لا ضمير له على الضعيف الذي لا حول ولا قوة له، كما عانى من انتشار الحروب الساخنة والباردة، ومن كثرة المؤامرات الدولية والمحلية، وتكدس الأسلحة التقليدية وغير التقليدية المتطورة، ومنها أسلحة الدمار الشامل (الذرية والنووية والنيوترونية، والأسلحة الكيميائية والحيوية القذرة)، وعانى من تطور أجهزة التجسس والتنصت على الناس، ومن استنزاف ثروات الأرض، وتلوث مختلف بيئاتها، حتى أصبحت مهددة لمختلف صور الحياة بالأمراض والفناء، كما عانى أهل الأرض من انتشار الكوارث الطبيعية والمجاعات الجماعية، والأزمات النفسية والمادية، ومن مختلف العقوبات والابتلاءات من مثل انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة، ومن ارتفاع كل من الأسعار ومعدلات الجريمة، وتزايد نسب الإدمان والانتحار، وانهيار مؤسسة الأسرة، وتسيب المرأة، وزعامة الأحداث، ومن شيوع الزنا والخنا والشذوذ، ومن ضياع الأخلاق الفاضلة وانتشار الرذائل، ومن كثرة أبناء وبنات الحرام، ومن اختلاط الأنساب بصورة مروعة.

وفوق ذلك كله يعاني أهل الأرض اليوم من سوء توزيع الثروة إلى الحد الذي تملك فيه عشرون دولة من دول العالم أكثر من (87%) من ثروات الأرض جميعها، بينما لا يتعدى مجموع سكانها (18%) من مجموع تعداد سكان هذا الكوكب، ويعيش أكثر من (82%) من سكان الأرض على أقل من (13%) من مجموع ثروتها في مستوى من الفقر، أو ما دون حد الفقر، وتحت قدر من المظالم والاستبداد والاستغلال التي تستوجب غضب الله – تعالى – وتستعجل نزول عقابه.

وعالم اليوم مهدد بالعديد من الكوارث الإنسانية: العسكرية منها والبيئية والصحية والاقتصادية والدينية والأخلاقية والاجتماعية التي لا يعلم مدى خطورتها إلا الله – تعالى – ولن يستطيع الإنسان تجنب وقوع تلك الكوارث إلا بالرجوع



إلى الله – سبحانه وتعالى، إيمانًا به وتصديقًا بكتابه، وبخاتم أنبيائه ورسله ﷺ، ويقينًا في حتمية الآخرة وضرورتها، وما فيها من بعث وحشر، وحساب وجزاء، وخلود إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا، ومعرفة صحيحة بحقيقة وضع الإنسان في هذه الحياة: عبدًا لله، خلقه ربنا – تبارك وتعالى – لرسالة محددة، وهي رسالة ذات وجهين: أولهما عبادة الله – تعالى – بما أمر، وثانيهما حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله فيها. ولن يستطيع الإنسان الوصول إلى ذلك إلا عن طريق الإسلام العظيم الذي تعهد ربنا – تبارك وتعالى – بحفظ وحيه به، فحفظه في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين، فأصبح هذان المصدران من مصادر الوحي الإلهي هما طوق النجاة الوحيد لكل إنسان على وجه الأرض، ولا نجاة له بغيرهما، فيا أيها الناس: عليكم بكتاب الله (القرآن الكريم)، وعليكم بسنة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله النبي العربي القرشي ﷺ؛ فهما الصورة الوحيدة للهداية الربانية الموجودة بأيدي الناس اليوم، ولا نجاة للإنسان في هذه الحياة الدنيا ولا من أهوال الآخرة إلا بالتعرف على تلك الهداية الربانية، والالتزام بها قدر الاستطاعة.

الفصل الثالث

حاجة الإنسان الفطرية إلى الدين

في الفصلين السابقين أوضحنا أن الإنسان مخلوق عاقل، مكلف، ذو إرادة حرة، وأن الإنسانية فيه ليست بقامته المنتصبة، ولا ببناء جسده المعقد، ولا بحجم جمجمته المميز، ولا بأبعاد أطرافه، ولا بطلاقة لسانه، ولا بغير ذلك من صفاته الجسدية والتشريحية، ولكن الإنسانية فيه هي قدرته على فهم رسالته في هذه الحياة الدنيا: عبدًا لله - تعالى - الذي خلقه لعبادته بما أمر، ولحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها، وإقامة شرع الله وعدله فيها، وحمل أمانة التكليف التي عرضها الله - سبحانه وتعالى - عليه وهو في عالم الذر فقبل حملها حسب قول الحق - تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب: 72 - 73).

والمتأمل في آيات القرآن الكريم يدرك أن أحد الأهداف الرئيسة لخلق الإنسان هو ابتلاؤه واختباره حتى يقيم الحجة على نفسه بنفسه، فالله - تعالى - أعلم بكل منا علمًا يفوق علم كل منا بنفسه بأضعاف عديدة، ولذلك قال - عز من قائل:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف: 7)

وقال - تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: 35).

وقال - وقوله الحق: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (محمد: 31).

وقال – سبحانه وتعالى:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ (الملك: 1 – 2).

وقال ربنا – تبارك اسمه:

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: 2).

ومن مبررات الابتلاء **أن الإنسان مخلوق عاقل، مُعَلَّمٌ، مُبَلَّغٌ، مكلف، ومن ثَمَّ فهو مسئول عن أعماله وأقواله، ومحاسب عليها،** ومطالب بالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، ومطالب كذلك بالاجتهاد في إنجاز الأعمال الصالحة، والنطق بالكلمة الطيبة، وبالسعي قدر الطاقة في إعمار الأرض، وإقامة شرع الله وعدله فيها، وبالمبادرة إلى مساعدة غيره من الخلق. **والإنسان لا يمكنه القيام بذلك كله من غير هداية ربَّانية، ومن هنا كانت حاجة الإنسان إلى الدين** الذي يمثل بيانًا من الله – تعالى – للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا – تبارك وتعالى – بعلمه المحيط عجز الإنسان عجزًا كاملًا عن الوصول فيها إلى أي تصور صحيح بجهده منفردًا، (أي بغير هداية ربانية) وذلك من مثل قضايا **العقيدة، والعبادة، ودستور الأخلاق، وتشريعات المعاملات** التي تمثل ركائز الدين الصحيح، وإن اختلف الناس في تعريف الدين نظرًا لانتشار العديد من العقائد المصطنعة البعيدة كل البعد عن الوحي السماوي الذي هو المصدر الوحيد بالدين.

وقد عاشت البشرية عشرة أجيال كاملة بعد أبينا آدم – عليه السلام – على التوحيد الخالص لله – تعالى – ثم اجتالتهم الشياطين بالشرك، ومن هنا أرسل الله – سبحانه وتعالى – عددًا كبيرًا من الأنبياء والمرسلين لهداية عباده فمنهم من آمن ومنهم من أشرك بالله أو كفر به. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الاعتقاد الديني ملازمًا للإنسان عبر تاريخه الطويل على الأرض – سواء كان الدين صحيحًا أو محرفًا – **مما يؤكد على حاجة الإنسان الفطرية إلى الدين؛** وذلك لأن الإنسان له غرائز، وشهوات، وميول وأهواء نفسية، وهذه لا يضبطها ويهذبها إلا الدين الصحيح الذي ينظمها بما يحفظ لكل من الفرد والمجتمع حقوقه كاملة غير منقوصة، ويرقى بالإنسان إلى مقامات التكريم التي رفعه إليها رب العالمين إذا التزم الإنسان بهداية خالقه – سبحانه وتعالى – فيتجه إلى

حب الحق والعدل والخير والجمال وغيرها من فضائل الأعمال، وبذلك يزداد مع الناس رحمة، وشفقة وبرًّا، وتواضعًا، ومع الله خضوعًا وطاعة وورعًا وتقوى فيزداد بذلك قبولًا وتوفيقًا وارتقاءً في معراج الله إلى الدرجات العلا.

كذلك سبق أن أشرنا إلى أن الإنسان يعيش في كون شاسع الاتساع، دقيق البناء، منضبط الحركة، محكم في كل أمر من أموره إحكامًا شديدًا يشهد بأن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض الصدفة، بل لا بد له من موجد عظيم له من صفات الكمال، والجمال، والجلال، ومن طلاقة القدرة، وإحاطة العلم، وتمام الحكمة، ومن صفات الألوهية، والربوبية، والخالقية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه ما مكنه من إبداع هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه على هذا المستوى من الإحسان ودقة التقدير والإتقان.

وهذا الكون بكل من فيه وما فيه ليس أزليًّا كما أسلفنا، بل كانت له في الأصل بداية يقدرها العلماء بحوالي (13.7 مليار) سنة، ولن يكون أبديًّا، فكل ما له بداية لا بد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية (قربت أو بعدت). ونحن نرى كل المخلوقات من النجوم والكواكب وبقية أجرام السماء، إلى مختلف صور المادة والطاقة من الغازات والسوائل والجمادات والأحياء يتخلق، ويعيش لأجل محدد ثم يموت، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن الشمس – مصدر الدفء والطاقة بالنسبة للمجموعة الشمسية كلها – تفقد من كتلتها على هيئة طاقة في كل ثانية من ثواني عمرها ما يساوي (4.6 مليون) طنٍّ من المادة، وهذه الملاحظة وحدها تكفي للتأكيد على حتمية فنائها، وإن كان فناؤها لن يتم بهذه السُّنَّة ولكن بأمر من الله – تعالى – بـ (كن فيكون) الذي وصف حتمية الساعة وفجائيتها بقوله العزيز:

- ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام: 31).

وبقوله – تعالى – مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: 187).



وبقوله – سبحانه وتعالى –:

- ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النحل: 77).

وفي تلك «الساعة» سوف يدمر الكون كله، ثم يعاد خلق أرض غير أرضنا، وسماوات غير السماوات المحيطة بنا، وسوف تحتوى الأرض الجديدة جميع ذرات الأرض القديمة بما في ذلك من بقايا الأموات فيها، ثم ينزل الله – تعالى – ماءً من السماء فينبت كل مخلوق من «عَجْب ذَنَبه» كما ينبت البقل (حسب حديث رسول الله ﷺ)[1]، ومن ثم يتم البعث، ثم يكون الحشر، والحساب، والجزاء بالخلود إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا.

وانطلاقًا من هذه الحقائق التي جاءت كل رسالات السماء بها، ثم أُنزِلَ القرآن الكريم مؤكدًا حتمية وقوعها، وجاء الرسول الخاتم ﷺ مبشرًا بمصير الصالحين فيها، ومنذرًا من أهوالها، يتأكد لنا أن الإنسان – ذلك المخلوق العاقل، المكلف، ذو الإرادة الحرة – خلق لرسالة محددة، وهي رسالة ذات وجهين: أولهما عبادة الله – تعالى – بما أمر، وثانيهما حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها، وإقامة شرع الله العادل فيها، وخُلِقَ الابتلاء حتى يثبت كل إنسان لنفسه بنفسه استحقاقه للجنَّة أو استحقاقه للنار. ومن هنا كانت ضرورة الدين الذي علمه ربنا – تبارك وتعالى – لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، ثم أنزله على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأكمله، وأتمه، وحفظه في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين – ولذلك قال – تعالى:

- ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ... ﴾ (البقرة: 31).

وقال – عز من قائل – مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله – ﷺ:

- ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: 24).

ويؤكد لنا التاريخ أن الإنسان لا يمكنه أن يحيا على هذه الأرض حياة سوية بغير دين، وأن الدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، ومن هنا كانت حاجة الإنسان الفطرية إلى الهداية الربانية.

---

(1) انظر لفظ الحديث في صحيح البخاري – كتاب التفسير – سورة عم يتساءلون.

والسبب في عجز الإنسان عن تحقيق الحياة السوية على هذه الأرض بغير دين هو أن الدنيا مليئة بالغيوب المطلقة التي لا يمكن للإنسان أن يشق حجبها بجهده منفردًا مهما أوتي من أسباب الذكاء والفطنة. ومن هذه الغيوب المطلقة التي لا يمكن أن يجيب عنها إلا الدين، والتي يتردد عنها في عقل وقلب كل إنسان عدد من الأسئلة الملحّة التي منها: من أنا؟ من الذي خلقني وأرسلني إلى هذه الحياة الدنيا؟ ما هي رسالتي فيها؟ وكيف يمكن لي تحقيق تلك الرسالة على الوجه الأمثل؟ ثم ما هو مصيري بعد هذه الحياة؟

وهذه الأسئلة الكلية تتردد في عقل وقلب كل فرد من بني آدم: قلّت ثقافته أم زادت، وعلا قدره في المجتمع أم نزل، وطال عمره أم قصر. وإذا لم يجد الإنسان الإجابات الشافية عن هذه الأسئلة الكلية عاش على هذه الأرض حياة قلقة، مضطربة، لا هدف له فيها، ولا غاية له من ورائها إلا الحصول على المتع الدنيوية المادية الفانية التي ينتهي تمتعه بها عند سن معينة، والتي قد يضطره الحصول عليها إلى ارتكاب العديد من المخالفات السلوكية، والمظالم الفردية والجماعية، والجرائم الاجتماعية مما قد يعرضه للعقاب المذل في الدنيا، وللعذاب المهين في الآخرة حين يلقى الله - تعالى - بصفحة خالية من الحسنات، مليئة بالذنوب والجرائم والتبعات في حق نفسه وأهله وولده، وفي حق المجتمع الذي عاش فيه، فيخرج من الدنيا بالمذلة واللعنات، ويلقى في الآخرة من صنوف العذاب ما قد يخلده في النار أبدًا ﴿... خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحج: 11)، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (الحج: 6 - 10).

والسبب في أن الدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية هو قيامه على ركائز من الغيب المطلق، والأوامر الإلهية المطلقة، وضوابط السلوك. والتاريخ يؤكد لنا عجز

الإنسان عجزًا كاملًا عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه في أي من هذه الركائز الدينية الأساسية.

فالعقيدة الصحيحة توجب الإيمان بالله – تعالى – خالق الخلق، وموجد الوجود، وحواس الإنسان القاصرة وقدرات عقله المحدودة لا تمكنانه (في أكثر الأحوال) من التعرف على خالقه تعرفًا ينزهه عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ومن هنا تأتي ضرورة الدين.

كما توجب العقيدة الصحيحة الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. وعالم الملائكة من أمور الغيب التي لو لم يخبرنا ربنا – تبارك وتعالى – عنها ما كان أمام الناس جميعًا من سبيل يوصل إلى معرفتها.

أما الكتب السماوية التي سبق نزولها قبل بعثة الرسول الخاتم ﷺ فعلى الرغم من أن أتباعها قد ضيعوها ضياعًا كاملًا، فإننا نؤمن بأصولها، ولكن ما بقي من ذكريات عن آحاد منها ظلت تنقل مشافهة لعقود عديدة في بعض الحالات ولقرون طويلة في حالات أخرى، ثم دونت بأيدي أناس عاديين، ليسوا بأنبياء ولا بمرسلين، وليسوا معصومين في أمر التبليغ عن الدين، فدونوا تلك الذكريات في لغات غير لغة الوحي، ولم يدونوها كاملة، فكل ما راق لأفهامهم القاصرة سجلوه بما فهموه، وكل ما لم يرق لأذهانهم حذفوه أو حَرَّفوه حسب أهوائهم، فاختلط فيها الحق بالباطل، والواقع بالخيال، مما أخرج تلك الكتب عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها.

وانطلاقًا من ضياع جميع كتب الوحي السابقة على بعثة الرسول الخاتم ﷺ أخذ ربنا – تبارك وتعالى – على ذاته العلية العهد بحفظ رسالته الخاتمة إلى ما شاء من عمر هذه الدنيا الفانية، وذلك بقوله العزيز:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

وذلك تحقيقًا للعدل الإلهي الذي قرره ربنا – سبحانه وتعالى – بقوله العزيز:

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: 15).

والإيمان بجميع رسل الله – تعالى – إيمان بحقيقة الوحي، وتأكيد على وحدة

رسالة السماء – المنطلقة من الوحدانية المطلقة للخالق سبحانه وتعالى – وعلى الأخوة بين الأنبياء وبين الناس جميعًا، وما أحوج البشرية المضطربة المتصارعة اليوم إلى الإيمان بهذه القيم الدينية السامية!!

وفي الإيمان باليوم الآخر تأكيد على حتمية البعث، والحشر، والحساب، والجزاء بالخلود إما في الجنة أبدًا، أو في النار أبدًا، وهذه الحقائق من قضايا الغيب المطلق التي يحتاج الإنسان فيها إلى بيان من الله – تعالى – بيانًا ربانيًا خالصًا، لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية؛ لأنه لا سبيل للإنسان في الوصول إلى شيء من ذلك إلا عن طريق وحي السماء.

والإيمان بالقضاء والقدر تسليم لحكمة الله وإرادته، انطلاقًا من حقيقة أنه لا سلطان في هذا الوجود كله لغير الله – سبحانه وتعالى – فكل شيء يجري بتقديره، وحسب مشيئته النافذة في كل أمر، ولا مشيئة للعبد إلا ما شاء له الله – تعالى – فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والله – تعالى – لا راد لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، ولا غالب لأمره، وذلك لقوله – سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الإنسان: 30).

ولقوله – عز من قائل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: 29).

وقوله – سبحانه – مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص: 56).

ويؤكد – سبحانه وتعالى – على ذلك بقوله العزيز:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: 61).

ولا يتعارض الإيمان بالقضاء والقدر مع حقيقة أن الإنسان مخلوق ذو عقل يستطيع أن يميز بين كل من الخير والشر، والصلاح والفساد، وهو أيضًا ذو إرادة حرة يستطيع أن يعمل بها الخير أو أن يعمل الشر، وعلى ذلك فإنه سوف يحاسب على كل

قرار يتخذه بإرادته الحرة، علمًا بأن دائرة الإرادة الإنسانية داخلة في دائرة قدر الله وقضائه، ووفق المشيئة الإلهية. وعلم الله - تعالى - بكل شيء لا ينتقص من صلاح الصالحين، ولن يكون مبررًا لفساد المفسدين لأن كلًا من هذين الصنفين من الخلق المكلف قد اختار الصلاح أو الفساد بإرادته، ومن هنا يكون الاستحقاق بالثواب أو العقاب؛ لأن من طبيعة الحياة الدنيا أنها دار تكليف وابتلاء، ولا يتم تحقيق ذلك إلا بالإرادة الحرة للخلق المكلف. وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ (الكهف: 29).

ويقول - عز من قائل - على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (يونس: 108).

وعلم الله - تعالى - شامل لكل صغيرة وكبيرة، وهذا العلم الإلهي الشامل لا ينتقص من فضل الصالحين، ولا يكون عذرًا لفساد المفسدين كما سبق أن أشرنا. وشمول العلم الإلهي وإحاطته بكل شيء يصفه القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: 5 - 6).

ويقول - عز من قائل - مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: 68 - 70).

وعلى ذلك فإن الإنسان حرٌّ مُخَيَّرٌ في دائرة اختياره، وفي حدود طاقته البشرية، وهو مكافأ أو معاقب على أساس من اختياره الحر، وهو مجبر مسير في دائرة قدر الله الغالب. وفي ضوء ذلك فإن كل فعل يتم باختيار الإنسان، فإن نسبته إلى الإنسان (على أنه السبب فيه)، لا يخرجه عن كونه من خلق الله - سبحانه وتعالى - الذي

أحاط علمه الأزلي بكل شيء. **فالقضاء** هو إيجاد الله – تعالى – الأشياء حسب علمه وإرادته، **والقدر** هو علم الله – تعالى – بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل، أو هو النظام المحكم الدقيق الذي وضعه الله – تعالى – لهذا الوجود، والقوانين العامة التي تحكمه، والسنن الجارية عليه والتي ربط بها الخالق – سبحانه وتعالى – الأسباب بمسبباتها.

ويجب على كل مؤمن بالله – تعالى – أن يؤمن بالقضاء والقدر (خيره وشره) وفي ذلك تسليم لله الخالق بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، وإيمان بعلمه – تعالى – القديم والمحيط بكل شيء، وبمشيئته النافذة في كل شيء، وبقدرته الشاملة على كل شيء.

وعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر مبنية على أساس من الإيمان بصفات الله العليا، وأسمائه الحسنى، ومن صفاته – سبحانه وتعالى – العلم الشامل، والقدرة المطلقة، والإرادة النافذة انطلاقًا من قوله – تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 29).

وقوله – سبحانه:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: 1 – 3).

وقوله – عز من قائل:

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج: 12 – 16).

والإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب التي أُمِرْنَا بالأخذ بها، مع التوكل على الله – عز وجل – حق التوكل، والإيمان بأن بيده وحده ملكوت كل شيء، وهذا الإيمان يُرَسِّخُ في قلب المؤمن أن الأخذ بالأسباب لا يعطي النتائج

المرجوة إلا بإذن الله – تعالى – وذلك لأن خالق الأسباب هو مقدر النتائج وخالقها، وعلى الرغم من ذلك فإن ترك السعي في طلب الرزق اتكالًا على حقيقة أن الرزق مقدر سلفًا قبل خروج الإنسان من بطن أمه، وأن سعته وضيقه بيد الله – تعالى – وحده، هو – مع التسليم بحقيقة ذلك كله – هو موقف خاطئ ومخالف لأوامر الله – تعالى – ولأوامر خاتم أنبيائه ورسله ﷺ الذي بَيَّن لنا أن الأسباب المشروعة هي من قدر الله – سبحانه وتعالى – حين قيل له – صلوات الله وسلامه عليه –: **أرأيت رقى نسترقي بها، وتُقًى نتقي بها، وأدوية نتداوى بها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال: «هي من قدر الله»**[1].

والإنسان الذي يؤمن بقضاء الله وقدره يتحرر من العبودية لغير الله – تعالى – فلا يحني جبينه لغير الله – سبحانه وتعالى – لأنه يعلم أنه لا سلطان في الكون لغير الله الخالق البارئ المصور، مُقَدِّر الأقدار، ومصرف الأمور، صاحب المشيئة المطلقة، والإرادة النافذة، والتدبير المحكم، وإنسان هذا يقينه لا تبطره النعمة، ولا تهده المصيبة، ولذلك يصفه المصطفى ﷺ بقوله الشريف: **«عجبًا لأمر المؤمن!! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»**[2].

وانطلاقًا من ذلك كله فإن الرضا بقضاء الله وقدره يهدئ النفس، ويطمئن القلب، ويطلق الطاقات الإنسانية لحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض برضا وسكينة، وراحة وطمأنينة إلى رحمة الله – تعالى – وعدله، وعلمه وحكمته، ويطلق اللسان بحمد الله على قضائه وقدره، وبالدعاء والاستغفار، ويطلق اليد بالصدقات، لأن الله – سبحانه وتعالى – من رحمته بعباده جعل من هذه الأعمال الصالحة سببًا في رفع بعض ما كان من قضاء الله، فهو – تعالى – الذي قضاه، وهو الذي يرفعه إذا شاء وحده، وكل ذلك سابق في علمه الأزلي. فلو كان المكتوب أزلًا لا يبدل ولا يعدل، ما كانت هناك فائدة للدعاء وهو مخ العبادة ومن أحب الطاعات إلى الله.

ولما كان الإنْسان مفطورًا على الإيمان بالله، فإنه إن لم يهتد إلى الدين الصحيح اصطنع لنفسه دينًا من تصوراته الشخصية أو من تصورات غيره يملأ به حاجته

(1) سنن الترمذي – كتاب الطب – باب ما جاء في الرقى والأدوية.
(2) صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق – باب المؤمن أمره كله خير.

الداخلية إلى التدين، أو يعيش بلا دين، وإنسان هذا شأنه يخسر دنياه وأخراه، ولا يستطيع تحقيق شيء من رسالته في هذه الحياة، ومن هنا كانت حاجة الإنسان الفطرية إلى دين الله الذي علمه لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، وأنزله على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله ثم أتمه وأكمله وحفظه في القرآن الكريم، وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين – وذلك لأن التدين أمر فطري في النفوس، ولكنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

والخالق –سبحانه وتعالى– يسبحه جميع خلقه من الهواء، والماء، والجمادات، والنباتات، والحيوانات، وجميع الملائكة، وكثير من عقلاء الإنس والجن، ولا يغفل عن ذلك التسبيح إلا الغافلون من أصحاب الإرادة الحرة من الإنس والجن الذين أغوتهم الشياطين عن عبادة رب العالمين، فلا يرون أنوار العبادة الخالصة لله الخالق –سبحانه وتعالى–، ولا يدركون فضلها، ولا يفقهون لها حكمة، فقد عميت قلوبهم، وطمست أبصارهم عن الحق الذي فطر عليه الكون كله، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الإسراء: 44).

من هنا كانت حاجة الإنسان إلى الدين أمرًا فطريًا، فإن لم يعبد ربه بما أمر فإن ذرات وجزيئات وخلايا جسده تعبد خالقها عبادة فطرية تسخيرية رغم أنفه، وهنا تكون المفاصلة بين العبد وجسده، وبينه وبين جميع الخلق الطائعين من حوله. وعلى النقيض من ذلك فإن الإنسان الفاقه لدينه، العابد لربه بما أنزل، يصبح متوائمًا مع نفسه وجسده، ومع الكون العابد المسبح من حوله، وشتان ما بين موقف الإنسان المؤمن المتوائم مع ذاته ومع الكون من حوله، وموقف الإنسان الكافر أو المشرك الذي يشعر بالعزلة عن ذاته وعن الكون من حوله.

الفصل الرابع

حاجة الإنسانية إلى الإسلام

الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله – تعالى – خلقه جميعًا عليها، ومنهم الخلق غير المكلف الذي ينصاع انصياعًا تسخيريًّا لطاعة الله وعبادته وتسبيحه وحمده، ومنهم المكلفون من خلق الله – سبحانه وتعالى – والذين أعلموا بالإسلام، وترك لهم اختياره بإرادتهم حتى يؤجروا على ذلك، أو تركه باختيارهم كي يعاقبوا على تركه وعصيان أوامر خالقهم.

ومن رحمة الله – تعالى – بعباده أنه لم يتركهم للفطرة التي غرسها في جبلة كل فرد منهم، وأشهدهم على أنفسهم وهم في عالم الذر في صلب أبيهم آدم عليه السلام بذلك فقال – وقوله الحق –: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: 172).

ثم عرض عليهم الأمانة وخيرهم في حملها فاختاروا ذلك بإرادتهم حيث يقول – عز من قائل –: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: 72).

ومن رحمة الله – تعالى – بعباده المكلفين أنه – سبحانه – لم يتركهم لفطرتهم، ولا لاختيارهم حمل الأمانة بإرادتهم، وإنما علَّم، أباهم آدم – عليه السلام – دين الإسلام فيما علمه من أسماء.

و(**الإسلام**) لفظة عربية مستمدة من السلام والتسليم، ومعناه الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والوفاء بالفعل لكل ما أنزل الله – تعالى – من الحق، والإذعان الكامل والاستسلام الاختياري له – سبحانه وتعالى – في جميع ما قضى وقدَّر، طلبًا لرضاه، ولذلك قال ربنا – تبارك اسمه –: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ... ﴾ (آل عمران: 19).



وبالقطع فإن نبي الله آدم – عليه السلام – علم كلًّا من زوجه وبنيه وأحفاده ما تعلمه من علم الله، وورثت ذريته ذلك العلم الوهبي جيلًا بعد جيل، وأمة بعد أمة. ويروي لنا ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: **«كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة الحق»**.[1]

ويروي ابن عباس كذلك **«أن رجالًا صالحين من قوم نوح هلكوا فوسوس الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتَنَسَّخ العلم عُبدت»**[2]، وكانت هذه أول وثنية في تاريخ البشرية.

وتفشت الوثنية في قوم نبي الله نوح فبعثه الله – تعالى – ليردهم إلى الإسلام القائم على التوحيد الخالص لله الخالق فلم يستجب لدعوته إلا القليل، فعاقب الله – تعالى – المشركين منهم بالطوفان الذي أبادهم، ونجى الله – سبحانه – نوحًا والذين آمنوا معه وفي ذلك يقول – وقوله الحق –: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (العنكبوت: 14 – 15).

ويؤكد القرآن الكريم شرك المشركين من قوم نوح – عليه السلام – الذين كانوا أول من عبد الأصنام، مسجلًا شكوى نبي الله نوح منهم إلى ربه – تعالى – فيقول:

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾ (نوح: 21 – 25).

وعاش الناجون مع نبي الله نوح على الإسلام حتى جاء من نسلهم قوم **«عاد»** الذين سكنوا جنوب الجزيرة العربية، ثم جاءهم الشيطان موسوسًا بالشرك فأطاعوه، وجددوا عبادة الأصنام فبعث الله – تعالى – لهم نبيًّا من بينهم هو نبيه **«هود»** – عليه السلام – لردهم إلى الإسلام القائم على التوحيد الخالص لله، ودعوتهم إلى الالتزام

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك.

(2) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن – باب ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق.

بمكارم الأخلاق، فما آمن معه إلا قليل، ونتيجة لشركهم، ومعاداتهم لنبيهم، وخروجهم على منهج الله - تعالى - أرسل عليهم الريح فأهلكتهم، ونجى الله نبيه هودًا والذين آمنوا معه، فرحلوا إلى مكة المكرمة.

وكان من نسل الناجين من قوم «عاد» قوم **«ثمود»** الذين سكنوا منطقة **«الحجر»** في الركن الشمالي الغربي من أرض الحجاز، فاجتالتهم الشياطين حتى عادوا إلى عبادة الأصنام، فبعث الله - تعالى- إليهم من بينهم نبيه **«صالحًا»** عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام القائم على التوحيد الخالص لله وإلى مكارم الأخلاق، فعارضوه، ورفضوا دعوته، وأصروا على ما كانوا عليه من شرك في العبادة وفساد في الأخلاق والمعاملات، فأنزل الله - تعالى - بهم عذابه بصيحة صاعقة طاغية فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ونجى الله بقدرته نبيه صالحًا والذين آمنوا معه، فلجأوا إلى مكة المكرمة، وكان من نسلهم قبيلة **«ثقيف»** الذين سكنوا مدينة **«الطائف»**، وأغوتهم شياطين الجن والإنس بالشرك فعادوا إلى عبادة الأصنام.

وبعد ذلك شاع الكفر بين غالبية أهل الأرض، وانتشرت الوثنيات بمختلف أشكالها، وهيمنت الخرافات والأساطير والهواجس الظنية على مختلف التجمعات البشرية حتى فسدت العقائد، وحرفت العبادات، وساءت الأخلاق، وتدنت المعاملات إلى مستويات منحطة جدًّا أدت إلى امتلاء الأرض ظلمًا وجورًا وفسادًا، فأرسل الله - تعالى - النبي تلو النبي، والرسول بعد الرسول إلى مختلف بقاع الأرض من أجل إنقاذ الناس من هذه الضلالات، وهدايتهم إلى عبادة الله الخالق وحده، والارتقاء بأخلاقهم وسلوكياتهم إلى مقام التكريم الذي كرمهم به الله؛ ونعلم من هؤلاء كلًّا من أنبياء الله **إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، موسى وهارون، ذو الكفل «حزقيال»، داود، سليمان، أيوب، إلياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، المسيح عيسى ابن مريم، ومحمد** - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين -. وعلى الرغم من ذلك بقيت البشرية يتعاورها الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والاستقامة على منهج الله، والخروج الجزئي أو الكلي عنه، وسوف تظل كذلك إلى قيام الساعة.

وفي ذلك يروي الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - أنه قال: **أتيت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال ﷺ:**



«آدم»، قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: «نعم نبي مكلَّم» قال: قلت: يارسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر جَمًّا غفيرًا»[1].

وفي رواية أبي أمامة - رضي الله عنه - قال أبو ذر: «.... **قلت يا رسول الله، كم وفَّى عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا»**[2].

وقد أخبرنا القرآن الكريم عن عدد محدود من هؤلاء الأنبياء والذين كانوا جميعًا مسلمين، وبعثوا بالإسلام العظيم، ودعا كل منهم قومه إلى دين الله الواحد الأحد، وإلى الالتزام بمنهج الله في العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات. فكما أن إلهنا واحد فلا بد أن تكون هدايته للبشرية واحدة، ولذلك قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران: 19).

وقال -عز من قائل-: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: 85).

وقال - وقوله الحق -: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: 213).

وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: 34 - 36).

---

(1) مسند أحمد - حديث رقم 21438، 21444.

(2) مسند أحمد - حديث رقم 22189.

وقال ربنا – جل جلاله – مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (فاطر: 24 – 26).

هذه الرحمة الإلهية التي لم تَكِل بني آدم إلى ما غُرِسَ في جبلة كل فرد منهم من إيمان بالله – تعالى – ولا إلى ما توارثوه من علم أبيهم آدم – عليه السلام – بل أُرسلت إلى الناس عشرات الآلاف من الأنبياء، وعشرات المئات من الرسل الذين دعوا إلى دين الله (**الإسلام**) دون إكراه أو إجبار لأن من أصول هذا الدين التي أنزلها ربنا – تبارك وتعالى – في محكم كتابه قوله العزيز: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 256).

وقوله – تعالى –: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ... ﴾ (الكهف: 29).

وقوله – سبحانه وتعالى – على لسان خاتم أنبيائه ورسله مخاطبًا الكفار والمشركين من قومه قائلًا لهم: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون: 6).

وظلت الهداية الربانية تتنزل على أهل الأرض لعدة آلاف من السنين، وكان لا بد من ختام لوحي السماء، وقد تجسد ذلك في بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله النبي العربي – صلوات ربي وسلامه عليه – والتي وصفها الحق – تبارك وتعالى – مخاطبًا خلقه أجمعين بقوله العزيز: ﴿ ...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ... ﴾ (المائدة: 3).

ولما كانت هذه هي الرسالة السماوية الخاتمة فقد تعهد ربنا – تبارك وتعالى – بحفظها فحفظت على مدى القرون الأربعة عشر الماضية، في نفس لغة وحيها (اللغة العربية) تحقيقًا لهذا الوعد الإلهي الذي قال فيه ربنا – وقوله الحق –: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

وهذا الوعد الإلهي القاطع يؤكد أن كلًّا من القرآن الكريم، وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ سيظلان محفوظين بحفظ الله – تعالى – إلى ما شاء الله القائل: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: 15).

فبقاء كل من القرآن الكريم وسنة خاتم المرسلين ﷺ محفوظين بحفظ الله – تعالى – في نفس لغة الوحي بهما (اللغة العربية) يجسد بقاء هداية هذا النبي والرسول الخاتم قائمة بين أهل الأرض، وكأنه لا يزال يدعو الناس جميعًا إلى دين الله حتى لا تبقى حجة لعبد من عباد الله أنه لم يتلق هداية ولا إنذارًا من رب العالمين، ومن هنا كانت حاجة الخلق أجمعين إلى دين الله **(الإسلام العظيم)**. وتتضح هذه الحاجة إلى الإسلام بصورة أوضح إذا استعرضنا واقع العالم قبل بعثة المصطفى ﷺ.

واقع العالم قبل بعثة خاتم المرسلين ﷺ

باستعراض تاريخ البشرية على الأرض نجد فترات النبوة والالتزام بدين الله **(الإسلام)** كانت ومضات بارقة من النور وسط ظلمات الجاهلية الدامسة، وكأن الإنسان لم يتعلم من هذه التجربة الطويلة التي استمرت لعدة عشرات الألوف من السنين أن الحياة الدنيا لا تستقيم بغير دين، وأن الدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، وبالتالي فلا يمكن للإنسان أن يحيا على هذه الأرض حياة سوية بغير هداية ربانية في شكل الدين الذي يعلِّم الناس جميعًا الاستقامة على منهج الله، والنجاة في الدنيا والآخرة وهو الإسلام العظيم.

فبعد جهود مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، ونزول ثلاثمائة وبضع عشرة رسالة سماوية فقد أهل الأرض اتصالهم بهداية خالقهم فيما عدا آحادًا متناثرة من البشر، وضاعت كل رسالات السماء من أيدي الناس، ولم يبق من بعضها سوى عدد من الذكريات الباهتة التي ظل أتباعها يتناقلونها مشافهة من الأجداد للأحفاد، ومن الآباء للأبناء في صورة شيء من القصص الشعبي الذي أضيف إليه من خيالات رواته ما أضيف، وحذف ما حذف، ونسي ما نسي، وحُرِّف ما حُرِّف، وعندما جاء وقت التدوين بعد أعداد متطاولة من القرون في بعض الحالات، والعقود في حالات أخرى، تم ذلك بأيدي من هم ليسوا برسل ولا بأنبياء؛ ومن ثم فلم يكونوا معصومين في التبليغ عن رب العالمين، فأضافوا الأمر سوءًا وبلبلة بإضافة العديد من الخرافات

والأساطير والانحرافات الشديدة عما أنزل الله – تعالى – لهداية خلقه، فضلوا وأضلوا، وملأوا الأرض فسادًا وانحرافًا عن منهج الله، وبالغوا في ظلم أنفسهم وفي ظلم الناس بجور فائق الحد في تعاملاتهم مع بعضهم البعض أفرادًا وجماعات، وأصبح الناس في أمس الحاجة إلى هداية خالقهم من جديد، فَمنَّ الله – تعالى – على المخلوقين جميعًا ببعثة الرسول الخاتم ﷺ الذي ليس من بعده نبي ولا رسول؛ وبذلك تعهد ربنا – تبارك اسمه – بحفظ رسالته الخاتمة حتى يتحقق وعده وعدله الذي قال فيه: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: 15).

وجاء النبي المرتجى والرسول المجتبى إلى الدنيا وهي غارقة في بحار الكفر والشرك والضلال، وهائمة في ظلمات من الهواجس الظنية والخرافات والأساطير التي أفسدت المعتقدات، وحرفت العبادات، وتدنت بالأخلاق والمعاملات إلى ما دون كل المستويات المقبولة، وكان عليه ﷺ أن ينقذ البشرية مما تردت فيه من ضلال، وأن يعيد إليها نور الهداية الربانية من جديد.

وكانت **دولتا الفرس والروم** آنذاك تتصدران دول العالم، وكانت كل دولة منهما تحاول فرض معتقداتها الفاسدة، وقيمها الهابطة على جيرانها.

وكان من وراء فارس **دولتا الهند والصين**، ومن وراء الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) نظيرتها **الإمبراطورية الرومانية الغربية**.

وكانت **الإمبراطورية الفارسية** مرتعًا للوثنيات المتصارعة من مثل «**الزرادشتية**» وما كان فيها من انحرافات أخلاقية وسلوكية عديدة، و«**المزدكية**» التي نادت بِحِلِّ النساء والأموال على المشاع، وجعلت الناس شركاء فيهما كشراكتهم في الهواء، والماء، والنار، والكلأ، و«**المانوية**» التي كانت خليطًا من النصرانية والزرادشتية، و«**المجوسية**» التي دعت إلى عبادة النار، و«**الصابئة**» الذين كانوا من سلالات المنحرفين عن دعوة كل من إدريس ونوح – عليهما السلام – فعبدوا الكواكب من دون الله، وكان هنالك غير ذلك من الانحرافات البشرية العديدة في أمر الدين.

وكانت دولة الفرس تحكمها ملكية وراثية، الملوك فيها مؤلهون فوق مستوى البشر. أما دولة الرومان (أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية) فقد حكمت كلًّا من اليونان، والبلقان، وتركيا، وبلاد الشام، ومصر، وعددًا آخر من دول شمال إفريقيا، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت هذه الإمبراطورية دولة

متوسعة تسيطر عليها الروح العسكرية الاستعمارية البغيضة، فانهمكت في خلافات دينية واسعة مع نصارى كل من مصر والشام، وانخرطت في سلسلة من التحلل الأخلاقي والسلوكي الذي وصل إلى حد الابتذال المعلن، وإلى فرض الإتاوات والضرائب الجائرة على الشعوب المستعمرة من أجل بذخ حكام هذه الإمبراطورية العسكرية المتجبرة والتي كانت غارقة في كم هائل من الخرافات والأساطير والمعتقدات الفاسدة.

وأما **الهند** فكانت قد سادتها الديانات **الهندوكية، والبوذية، والچينية وبعض الوثنيات الأخرى. والهندوكية (الهندوسية)** ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند إلى اليوم، وقد تشكلت عبر مسيرة طويلة بدءًا من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، واتخذت العديد من الآلهة المعبودة من دون الله – تعالى– وذلك حسب المناطق، والأعمال المنوطة بكل واحد منهم، وحسب الظواهر الكونية المختلفة، وحسب أجزاء هذا الكون، وتؤمن هذه الديانة الوثنية المبتدعة بالطبقية الصارخة.

أما (**البوذية**) فقد ظهرت في الهند بعد الديانة الهندوسية (البراهمية) في القرن الخامس قبل الميلاد، وهي كذلك ديانة وثنية وإن اهتمت بالجوانب السلوكية. وقد غالى أتباع بوذا في تعظيمه حتى ألَّهوه، معتبرين إياه ابنًا لله (تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا)، ومن هنا انتقلت الفكرة إلى دعاة النصرانية المعاصرة.

و(**الچينية**) انشقت عن الهندوسية في القرن السادس قبل الميلاد وهي ديانة وثنية كذلك، تكاد تكون مندثرة اليوم.

وفي **الصين** سادت كل من **الكونفوشيوسية والطاوية** منذ القرن السادس قبل الميلاد، وكلتاهما ديانة وثنية مشركة تؤمن بتعدد الآلهة، وبتقديس الملائكة، وبالحلولية، وعبادة أرواح الآباء والأجداد، ولا تؤمن بالبعث ولا بالحساب ولا بالجزاء، ولا بالجنة والنار.

وكان السبب في انحرافات هذه الأمم هو التطور المادي غير المصاحب بالتزام ديني صحيح يشمل العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، تمامًا كالأدواء التي تنخر في عظام الحضارة المادية المعاصرة، وتتهددها بالزوال كما زالت تلك الحضارات البائدة، وخلفت من ورائها ركامًا من المعتقدات الفاسدة.

والجزيرة العربية – أرض الكعبة المشرفة، ومهبط أبوينا آدم وحواء عليهما السلام ومحج ومعتمر وملجأ كل أنبياء الله ورسله – لم تسلم من تلك الأدواء، فبعد أن ساد التوحيد الخالص الذي دعا إليه كل من إبراهيم وولده إسماعيل – على نبينا وعليهما من الله السلام – لعدة قرون، أصبحت الجزيرة العربية ممزقة بين أشكال لا تعد ولا تحصى من الوثنية، فعُبدت الأصنام والأوثان والأنصاب، والأزلام، كما عبدت النار، والأشجار، والكهوف، والآبار، والحيوانات، والشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب والتوابع. وكان لكل قبيلة من القبائل العربية أكثر من صنم، حتى بلغ عدد الأصنام المعروفة **أكثر من ثلاثمائة وستين صنمًا**، وكان عباد تلك الأصنام – من خيلهم – يعتقدون أن الله – تعالى – قد فوضها في بعض التصرفات على الأرض، وفي قضاء عدد من حاجات الناس من مثل إقصاء الوباء، وتحقيق الرجاء، وطرد الشرور، وإبعاد المجاعات، وشفاء الأمراض، ووهب الذريات، وإنزال المطر، وإنبات الأرض، وتوسيع الرزق، وملء ضروع الأنعام بالحليب، وغير ذلك. **وكان لأهل كل دار صنم يعبدونه**، بل كان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا وجعل الثلاثة الباقية أثافيَ لِقِدْرِه، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلًا آخر فعل مثل ذلك[1].

ويعتقد أن عبادة الأصنام قد بدأت بوسوسة من الشيطان؛ لتعظيم بعض الموتى من الصالحين، ويستدل على ذلك بحديث لابن عباس – رضي الله عنهما – قال فيه: «**صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، أما (ود) فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما (سواع) فكانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبأ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسر) فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم عُبِدت**»[2].

وكانت هذه أول وثنية في تاريخ البشرية؛ لأن ابن عباس – رضي الله عنهما – قد أشار في حديثه هذا إلى أنه «**كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على شريعة الحق**»[3].

(1) (ابن الكلبي في كتابه المعنون باسم «الأصنام» ص 22).

(2) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن – باب ودًّا ولا سواعًا، ولا يغوثَ ويعوق.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك.

وانتقلت عبادة الأوثان إلى جزيرة العرب بتأثير من وثنيات الأمم المجاورة من البابليين، والفرس، والرومان، واليونان، ويعتقد أنها جاءت من تحريف للرسالات السماوية القديمة؛ ولذلك ظلت مختلطة بشيء من الإيمان بالله - تعالى - فلم يكن العربي يعبد الوثن معتقدًا أنه خالقه وخالق الكون من حوله، ولكن يعبده ليقربه إلى الله زلفى. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (الزمر: 3).

ولذلك كان الجاهلي تارة يستقسم عند الوثن، وتارة أخرى يسبه ويلعنه، وثالثة يأكله وقت المجاعة إذا كان قد صنعه مما يؤكل كالعجوة مثلًا.

وكان أول من أدخل عبادة الأوثان والأصنام إلى جزيرة العرب هو عمرو بن لحي (جد قبيلة خزاعة) وذلك لقول أبي هريرة - رضي الله عنه -: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن جون الخزاعي: «**يا أكثم، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلًا أشبه برجل منك به ولا بك منه**». فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصَّب الأوثان، وبَحَّر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي**»[1].

وبجوار عبادة الأوثان انتشرت **المجوسية** التي كان الفرس قد اشتهروا بها، والتي كانت تعني إشراك مظاهر الطبيعة في عبادة الله، فعبدوا النار وأشعلوها في معابدهم، وكان لدى الفرس من الانحرافات القديمة: **الزرادشتية، والمانوية، والمزدكية، والصابئة، والدهرية.**

والمذهب الأول ابتدعه «زرادشت» المولود في سنة 628 ق.م. بشمال إيران، وقد هلك في سنة 551 ق.م عن عمر يناهز السابعة والسبعين، ويبدو أن مذهبه كان تحريفًا لدين سماوي قديم كان يدعو للتوحيد الخالص لله تعالى.

وأُتْبعت الزرادشتية **بالمانوية** التي أسسها «ماني» في العراق سنة 216 م بعد سبعمائة وسبعة وستين عامًا من هلاك زرادشت. وكان «ماني» قد نشأ في أسرة نصرانية،

(1) رواه الشيخان.

على الرغم من أن غالبية قومه كانوا يؤمنون «بالزرادشتية»، فكانت دعوته خليطًا بين النصرانية والزرادشتية، **وادعى هذا المفسد كذبًا أنه هو النبي الذي بشر بمقدمه عيسى بن مريم – عليهما السلام** – ومات «ماني» مقتولًا بأمر من الملك «بهرام»، ورغم قتله انتشرت دعوته، حتى وصلت إلى الصين شرقًا وإلى إسبانيا غربًا، وبلغت أوجها في القرن الرابع الميلادي، ثم اندثرت بحدود سنة 600 م شأنها في ذلك شأن كل الدعوات المنحرفة الباطلة.

وبعد هلاك «ماني» ظهرت «**المزدكية**» في بلاد فارس حوالي سنة 487 م كدعوة إباحية أحلت النساء والأموال، فاغتنم سفلة القوم ذلك والتفوا حول «مزدك» وأتباعه، مؤيدين ومشايعين، حتى عم الفساد وساد. وبلغ من وقاحة «مزدك» أنه حاول إقناع الملك الفارسي «قباذ» ببذل زوجته لمن يشتهيها من الرجال؛ ليعلم الناس صدق إيمانه بالمزدكية، ولكن ابنه وولي عهده «كسرى» دخل على أبيه باكيًا متضرعًا يتوسل إليه ألا يذله بابتذال أمه، وأن يحفظ كرامته وكرامتها، فقبل الملك شفاعته. ثم أمر ولي العهد «كسرى» أتباعه بقتل «مزدك» فقتلوه شر قتلة، وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد، حتى تم القضاء على مذهبه الفاسد بالكامل.

كذلك انتشرت في كل من فارس وشمالي العراق ملة «**الصابئة**» وقيل عنهم إنهم خلطوا بين المسيحية والمجوسية، ليس لهم دين محدد كما قال مجاهد، أو أنهم خلطوا بين اليهودية والمجوسية، وقال سعيد بن جبير إنهم خلطوا بين اليهودية والمسيحية، أو إنهم كالمجوس، وقال قتادة إنهم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرأون الزبور، وقيل إنهم كانوا قد انحرفوا عن دين كل من نوح وإدريس – على نبينا وعليهما من الله السلام – فعبدوا الكواكب، وانتقلت عدوى هذا المعتقد الفاسد إلى جزيرة العرب، فدانت به أعداد من القبائل العربية من مثل «كنانة» التي عبدت القمر، و«حِمْيَر» التي عبدت الشمس، وكل من «لخم» و«جذام» اللتين عبدتا المشترى، و«طيئ» التي عبدت سهيلًا، و«قيس» التي عبدت الشِّعْرَى، و«أسد» التي عبدت عطارد، وكان من غير هؤلاء من قبائل العرب من عَظَّمَ «زحل» أو «الجوزاء» أو «الجبار» أو «الثريا»، وكانت كلها انحرافات عن منهج الله دعا إليها الشيطان واستجاب له الناس عَدْوًا بغير علم.

أما «**الدهريون**» فقد كانوا قلة من الكفار الذين لم يؤمنوا بالله، ولم يتبعوا دينًا معينًا، بل قامت عقيدتهم على عدد من الدعاوى الباطلة التي قوامها أنه لا عقل،

ولا روح، ولا دين ولا إله، وأنه لا يجيء بالخلق إلا الدهر، ولا يهلكهم إلا الدهر. وهذا التنكر للحق جاء من غمزات الشياطين الذين يكرهون استقامة الناس على دين الله الخالص.

ولم يُجْدِ العرب في مقاومة ذلك المد الوثني **وُجُودُ بعض الجيوب من اليهود والنصارى** في أجزاء من الجزيرة العربية، بعد أن لجأ اليهود إلى كل من شمال الحجاز وشمال اليمن خاصة في القرنين الميلاديين الأول والثاني، نتيجة لاضطهادهم بسبب قيامهم بتمرد ضد حكم الرومان لأرض فلسطين في سنة 66 م، فأرسل الإمبراطور الروماني «نيرون» جيشًا من الشمال عن طريق سوريا، بقيادة «فسباسيان» في ربيع سنة 67 م لإخماد هذا التمرد، وانضم إلى هذا الجيش الروماني جيش آخر قادم من الغَرْب عن طريق الإسكندرية، بقيادة «تيتوس أو تايتوس» ابن «فسباسيان» فقضوا على تمرد اليهود ودمروهم، ودمروا بيت المقدس سنة 70 م. وبعد اثنتين وستين سنة قام قيصر الروم «هدريان» بتدمير القدس مرة ثانية سنة 132 م، وشرد من بقي فيها من اليهود العرب فتشتتوا في بقاع الأرض بسبب استمرار مطاردة الرومان لهم، واضطهادهم إياهم في كل مكان وجدوهم فيه، فلم يجدوا أمامهم من ملجأ يلجأون إليه، ويأمنون فيه إلا جزيرة العرب، فانتشروا في كل من اليمن وشمال الحجاز؛ حيث أقاموا تجمعات لهم في كل من يثرب، وخيبر، وتيماء، وفدك، ووادي القرى. وكان من يهود يثرب قبائل **بني قريظة، وبني قينقاع، وبني النضير.**

وكان **اليهود** قد فقدوا التوراة أثناء السبي البابلي، فحرفوا دينهم وابتدعوا فيه، وتاجروا به، وألَّهوا عُزَيْرًا، وأشركوه مع الله في العبادة وادعوا بالباطل أنه ابن الله، كما ادعى النصارى بنوة عيسى لله – تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا – وانغمس اليهود إلى آذانهم في ماديات الحياة الدنيا وملذاتها، فضلوا وأضلوا، وابتدعوا التلمود.

ومن هذا الضلال أنهم اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار، وأبناءه، وأحباءه، واعتبروا غيرهم من الأمم حيوانات خلقت في هيئة آدمية حتى يكونوا لائقين لخدمة اليهود. وانطلاقًا من هذه العقيدة الفاسدة فإن اليهود قد ضنوا على أهل الجزيرة العربية بمجرد إشراكهم معهم فيما بقي لديهم من بقايا علم؛ لأن العرب – كما يعتقد اليهود – لا يستحقون أن تكون لهم صلة بالدين كغيرهم من الأغيار. وحتى في ظل هذه العقيدة المحرفة انقسم اليهود إلى العديد من الفرق التي منها **اليهودية**

الأرثوذوكسية، واليهودية المحافظة، واليهودية المعاد هيكلتها، واليهودية المتحررة، إلى غير ذلك من الفرق التي كفّر بعضها بعضًا.

ونظرًا لانحراف اليهود عن منهج الله؛ فقد بعث الله – تعالى – إليهم عددًا كبيرًا من الأنبياء فقاتلوهم وقتلوهم، وكان منهم كل من موسى وهارون، ذي الكفل (حزقيال)، داود، سليمان، إلياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، وعيسى ابن مريم –على نبينا وعليهم السلام– وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (آل عمران: 181).

وكان آخر أنبياء الله – تعالى – إلى اليهود المسيح عيسى ابن مريم – على نبينا وعليه من الله السلام – جاء يدعوهم إلى عبادة الله – تعالى – وحده (بغير شريك، ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد)، ولكن اليهود رفضوه وحاربوه وحاولوا إغراء الرومان به لصلبه وقتله، ولكن الله – تعالى – رفعه إليه.

وبعد مقاومة عنيفة من الرومان الوثنيين، انتشرت رسالة المسيح – على نبينا وعليه من الله السلام– وزاد عدد أتباعه، فكاد لهم اليهود ودسوا عليهم «بولس» ، وهو يهودي كان يسمى باسم: (شاؤول الطرطوسي أو الطرسوسي) وهو لم يلتق بالمسيح – عليه السلام – ولم يستمع إليه أبدًا، ولكنه ادعى رؤيته في المنام، وابتدع أسطورة تأليه المسيح، وأسطورة بنوته لله (تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا)، ولكي يُبَرِّر ذلك أخذ من الوثنيات القديمة أسطورة الخطيئة والكفارة، ودعوى الصلب والفداء، وأسطورة التثليث، وغيرها من المعتقدات التي دُسَّت على رسالة المسيح – على نبينا وعليه من الله السلام – وكانت كل هذه الانحرافات في الوثنيات القديمة التي سبق أن اجتاحت العالم من قبل بفعل شياطين الجن والإنس.

وفي ظل الحكم الروماني الوثني عانى أتباع السيد المسيح الاضطهاد والنفي والتشريد، حتى اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية في بدايات القرن الرابع الميلادي إرضاءً لوالدته التي كانت قد سبقته إلى المسيحية ودانت بها، فأصبحت المسيحية بذاتها أداة للاضطهاد والقتل والتشريد بعد أن كانت مطاردة ومضطهدة.

وكانت المسيحية قد انقسمت إلى العديد من الملل والنِّحَل التي منها:

1 – المسيحية الأرثوذكسية (أو اليعقوبية) (Orthodoxism or Jacobism): واليعاقبة (Jacobites) هم أتباع يعقوب البرادعي الذي كان راهبًا في كنيسة القسطنطينية، ونادى بالطبيعة المزدوجة للسيد المسيح، وانتشر فكره في كل من مصر والنوبة والحبشة، وشكل المذهب اليعقوبي أو الأرثوذكسي.

2 – المسيحية النسطورية (Nasturism): والنساطرة (Nasturians) هم أتباع «نسطور» بطريرك القسطنطينية، الذي انتشر فكره في كل من العراق وفارس.

3 – المسيحية الكاثوليكية (Catholicism) أو الملكية (Royalism) أو الملكيونية (Malakanism): هم أتباع ملكيون مؤسس مدرسة أنطاكية، وقد انتشر فكره في بلاد الشام وشمال إفريقيا، وصقلية، وبلاد الأندلس.

4 – المسيحية الموحدة (Unitarianism): وأتباعها الموحدون (Unitarians): وهذه الفرقة تقول بوحدانية الله – تعالى – وبأن المسيح عيسى ابن مريم، هو عبده ورسوله، ولا يمكن له أن يكون غير ذلك، وهذه الطائفة ترفض القول بالتثليث، وتنكر الادعاء بألوهية المسيح وبالتالي ترفض فكرة الخطيئة والكفارة، وتختلف مع بقية الطوائف المسيحية في ذلك، وفي بقية معتقداتهم. ومع فضل هذه الطائفة إلا أنه قد تراكم عليها شيء من التخبط والخلط في المفاهيم نظرًا لضياع أصول الإنجيل، وتكدس الخرافات والأساطير، وتعدد المداخلات البشرية فيما بقي من ذكراه.

وقد بدأت طائفة المسيحية الموحدة في بولندة في القرن السادس عشر الميلادي على يد فوستس سوسينس (Faustus Socinus) الذي عاش في الفترة من 1539 م – 1604 م ووصلت إلى كل من بلاد المجر ورومانيا. **وفي القرن السابع عشر الميلادي تبنى عدد من الكتاب الإنجليز ومنهم جون بيدل (John Biddle) (1615 م – 1662 م) الاعتقاد ببشرية المسيح عليه السلام.**
وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أقيمت أول كنيسة للمسيحية الموحدة بمدينة لندن سنة 1774 م، وانتقلت الحركة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان من أشهر دعاتها وليام تشاننج (William Ellery Channing) الذي عاش في الفترة من 1780 – 1842م، وواضح أن هذه الحركة هي محاولة إحياء لكل من الأريسية (**Ariusism**)، أو الآريانية (Arianism) والسوسينية

(Socinianism)؛ ولكنها تحولت في القرن العشرين إلى شيء من السياسة الحرة، والدعوة إلى الإنسانية والسلام أكثر منها دعوة إلى المسيحية.

5 – باقي الفرق المسيحية التي يصل عددها إلى 72 فرقة يتشعب كل منها إلى عدد من المذاهب المتعارضة التي لا حصر لها، ومنها:

The Adventistism, Arianism (Ariusism), Biblicism, Christadelphianism[1], Congruism, Didascalianism, Donarism, Evangilism, Gnosticism, Hutterianism[2], Homoiousianism, Jehovanism[3] Jonnesism, Lutherianism, Macedonism, Mandaeanism, Maronism, Mennonism, Molonism, Mormonism, Pietism, Relagianism, Presbytarianism, Protestantism, Quietism, Sabellianism, Sophroniusism, etc.

و«الأريسيون» (Ariusians=Arians): سُموا بذلك نسبة إلى (Arius 256-336) القس الإسكندري الليبي المولد الذي دعا إلى توحيد الله – سبحانه وتعالى – وقاوم الادعاء الباطل بألوهية المسيح، وآمن به عبدًا لله، ورسولًا مرسلًا بأمر من الله – تعالى، وقد انتشر مذهبه في كل من مصر وفلسطين وفي بقية بلاد الشام إلى أن أُدينت الأريسية في كل من مؤتمر نيقيا سنة 325 م، الذي عقد خصيصًا لذلك، ومؤتمر القسطنطينية في سنة 381 م، وأعدم أريوس في سنة 336 م بسبب مقاومته لدعوى ألوهية المسيح.

واشتد التطاحن بين أتباع هذه الطوائف، التي اتهم بعضها بعضًا بالكفر والضلال، وحاول بعضها القضاء على البعض الآخر عبر سلاسل من الحروب الطاحنة التي استمرت لعدة قرون متتالية ومازالت بقاياها مشتعلة في كل من شمال أيرلندا وشمال إسبانيا وفي البلقان، وفي غير ذلك من بلاد العالم.

وعلى الرغم من ذلك فقد انتشرت النصرانية بمذاهبها المختلفة في عدد من الجيوب المتناثرة حول الجزيرة العربية، مثل كل من نجران، والحيرة، والأنبار،

---

(1) Founded in USA by Dr Thomas in 1833 who rejected the wrong doctrine of the Trinity.

(2) Founded in Zurich in 1523 A.C. and named after Menno Simons (1496-1559) and rejected infant bapitism.

(3) Jehovahs witness: originated in U.S.A. in 1872 by Charles Taze Russel who predicted the second coming of Christ in 1914.

وتَدْمُر، وأرض الغساسنة والمناذرة، خاصة في أيام الاضطهادات الدينية التي تعرض لها النصارى على عهد الوثنيين من القياصرة الرومان، أو من المتشيعين منهم لطائفة ضد الأخرى بعد دخول روما في النصرانية بقبول إمبراطورها قسطنطين لهذا الدين، وفي ظل هذا الاضطهاد لم يجد العديد من كهنة النصرانية ورهبانها ملجأً لهم إلا في الجزيرة العربية، ففروا بدينهم إليها حيث كان يصعب على الرومان اللحاق بهم في تلك الصحارى الشاسعة.

ولم يكن في وجود بقايا من كل من اليهودية والنصرانية في بعض الجيوب العربية، أي أثر في مقاومة مد الوثنية وعبادة الأصنام بأشكالهما المختلفة، ولا في مقاومة الانحرافات العقدية الكثيرة التي سادت جزيرة العرب، كما سادت غيرها من دول العالم، وذلك لأن كلًّا من اليهودية والنصرانية كان قد فقد الصلة تمامًا بأصوله السماوية؛ ولذلك تعرض ما بقي من ذكريات عن كل منهما لقَدْرٍ من التزييف والتبديل والتحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها، وتكفي في ذلك الإشارة إلى حقيقة أن الله – تعالى – الذي أنزل كلًّا من صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن الكريم فيما أنزل من مئات الرسائل لهداية عباده إلى دينه الحق، هذا الإله الخالق لم ينزل كتابًا اسمه «العهد القديم» أو «العهد الجديد» مما يؤكد أن هذه الكتب صناعة بشرية كاملة لا علاقة لها بأي من التوراة أو الزبور أو الإنجيل. كما تكفي الإشارة إلى اختلاط كل من العهدين القديم والجديد بالوثنيات القديمة، وبالفلسفات والأساطير اليونانية والفارسية والهندية، وامتلائهما بالطعن في أنبياء الله، تارة باتهام بعضهم بأنه سليل زنا المحارم، أو أنه وقع في هذه الجريمة النكراء وبغير ذلك من الاتهامات التي لا تليق بأسوأ العوام من الناس وقد شرف الله تعالى أنبياءه عن هذا الانحطاط. وفي العدد الهائل من المجامع التي عقدت لمناقشة كل من جوهر النصرانية، وطبيعة السيد المسيح – على نبينا وعليه من الله السلام – وللتقريب بين المسيحية وبين الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، التي وُضِعَت للتوفيق بين العقيدة المسيحية والعقل يتضح ما أصاب المسيحيين من اضطراب.

ويضاف إلى ذلك أن الجيوب اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية – بحكم وضعها كأقلية – اهتمت بتوظيف اللعبة السياسية «فَرِّق تَسُدْ»، مستعينة بالقوتين

كبيرتين في ذلك الوقت: الإمبراطورية الفارسية في الشرق، والإمبراطورية الرومانية في الغرب، وقد كانتا في صراع من أجل الاستيلاء على جزيرة العرب فارتمى اليهود في أحضان الدولة الساسانية الفارسية (226 م – 651 م)، وظلوا صنائع لها في قلب شبه الجزيرة العربية. وكانت السياسة الفارسية تقوم على تشجيع ملوك حِمْيَر من أجل اعتناق اليهودية ليكونوا سدًّا منيعًا أمام الزحف الصليبي الروماني القادم من الحبشة.

أما الصليبيون فكانوا قد ارتموا في أحضان الدولة الرومانية، بعد أن كانوا قد فروا من جورها وظلمها، وبدأت هذه الإمبراطورية بعملية التنصير في جنوب الجزيرة العربية تمهيدًا للاستيلاء عليها، بعد أن جعلت من بلاد الحبشة المقابلة لأرض اليمن ولاية رومانية نصرانية، وبالفعل نجح الرومان في إقامة جالية نصرانية في نجران، كما نجح صنائعهم من الأحباش في احتلال أجزاء من مملكة حمير، وأرسل النجاشي ولاته المسيحيين ليحكموا باسمه أرض اليمن، واشتدت وطأتهم على أهل البلاد، وعم أذاهم الناس في شبه الجزيرة العربية حتى حاول أبرهة الأشرم هدم الكعبة المشرفة في عام الفيل سنة 570 م، فأذله الله ودمره، ودمر جيشه تدميرًا.

وكان الصراع بين الجاليتين اليهودية والنصرانية في شبه الجزيرة العربية، واجهة من واجهات الصراع بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية على كل من الأطراف الشمالية والشرقية والغربية والجنوبية من الجزيرة العربية.

وإذا أضفنا إلى هذا الصراع الدامي على أطراف شبه الجزيرة العربية عددًا آخر من الصراعات الداخلية، التي مزقت القبائل العربية، وأضعفت من مواقفها أمام تحديات الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية – اتضح لنا جانب من جوانب التمزق والتشرذم والتعصب والصراع والبؤس الذي عاشه العرب قبل البعثة المحمدية المباركة. ومن أمثلة الحروب العربية: **حرب «البسوس» وحرب «داحس والغبراء»، ويوم «كلاب» الأول والثاني، ويوم «أوارة» الأول والثاني، ويوم «ذي قار»**، وغيرها من الحروب التي أنهكت قوة العرب، وحالت دون تمكنهم من إقامة دولة موحدة لهم، ودفعت بقبائلهم المتطاحنة إلى الاستنصار بأعدائهم من الفرس أو الروم أو الأحباش بعضهم ضد بعض، مما أضاع هيبة العرب، وحرمهم من الأمن والاستقرار، فضلًا عن تمكينهم من إقامة أية نهضة علمية أو تقنية أو فكرية، فسادت الأمية شبه الجزيرة العربية (ببعديها: أمية القراءة والكتابة وأمية العقيدة) ، وخيم عليها الجهل بأبعاده

المختلفة إلا من فصاحة اللسان وحسن البيان، وبعض المعارف الساذجة كالتنجيم، والعِرافة، والأنساب والشعر، والقصص، وعدد من الفضائل كالسدانة، والسقاية، ورعاية حجاج بيت الله الحرام. وإن كان قد أقيم في جنوب شبه الجزيرة بعض القصور الفارهة، والمعابد الفاخرة، والمدن المحصنة، والسدود المشيدة. وقد خلط أهل الجاهلية في جزيرة العرب بين بقايا ما تذكروه من الحنيفية الإبراهيمية السمحة القائمة على التوحيد الخالص لله – تعالى– وبين عدد من الافتراءات المبتدعة من مثل عبادة الأصنام والأوثان، والكواكب والنجوم التي أوهمهم عدد من شياطين الجن والإنس بأنها تقربهم إلى الله زلفى.

ومن الإنصاف أن نشير إلى أنه وسط هذا الركام من الوثنيات، والجهل، والانحراف، كانت هناك بقايا من النزعات الإنسانية الحميدة، كالوفاء، والكرم، والنجدة، والإباء، والحمية، إلا أنه لافتقارهم إلى العقيدة الصحيحة، والقدوة الحسنة، كانوا يئدون بناتهم بدافع الشرف، ويتلفون أموالهم بدافع الإسراف في الكرم، ويثيرون المعارك التي لا علاقة لهم بها بدافع الإباء والنجدة.

كذلك كانت هناك قلة من العرب الذين – بفطرتهم السوية – نبذوا الشرك واتجهوا إلى التوحيد، الذي توارثوه عن ملة إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام)، وعاشوا على ما بقي من تعاليمهما، وكان من ذلك تعظيم كل من حرمة البيت الحرام، واحترام شعائره، والقيام على سدانته وخدمته، والذود عنه، وإكرام قاصديه، وإجارة المستجير بجواره (على الرغم من أن المشركين كانوا قد أحاطوه بالأصنام والأوثان، والأنصاب، والأزلام) وتعظيم شعيرة الحج (على الرغم مما كان قد أدخل عليها من الطواف حول الكعبة في عري كامل، وتصدية، وتصفير لم يشرعها الله – سبحانه وتعالى – ولم يقم بها أي من أنبيائه).

وقد عُرِف الذين استقاموا على ملة إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – باسم **«الحنفاء»**، أو **«الأحناف»**، وكان منهم **زيد بن عمرو بن نفيل العدوي** من بني عدي، (ابن عم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –) **وأمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة الإيادي**، المتوفى قبل بعثة المصطفى ﷺ بعشر سنوات، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«رحم الله قسًا، إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده»**[1].

---

(1) دلائل النبوة للبيهقي – باب ذكر حديث قس بن ساعدة الإيادي ج2، ص101.

وكان منهم **أبو قيس صرمة بن أبي أس** (وهو من بني النجار أخوال النبي ﷺ) وكان قد فارق الأوثان، وهَمَّ بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ثم دخل بيتًا له، فاتخذه مسجدًا، لا يدخل إليه طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم، فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أسلم، وحسن إسلامه. وكان منهم **عامر بن الظرب العدواني** الذي كان من حكماء العرب وخطبائهم، وآمن بالله وبالبعث، وكان منهم **ورقة بن نوفل (على الرغم من ادعاء البعض زورًا بأنه كان قد تنصر)**، **وعثمان بن الحويرث**، **وعبد الله بن جحش**، **وقيس بن عاصم التميمي**، **وعبد المطلب بن هاشم** (جد رسول الله ﷺ). وقد نوه كل من ابن إسحاق، وابن هشام في استعراضهما للسيرة النبوية العطرة بهؤلاء الأحناف، وذكرا طرفًا من تاريخ وأقوال ومواقف كل منهم.

وهذه القلة القليلة من حنفاء العرب الذين رفضوا عبادة الأوثان، ودانوا بالتوحيد الخالص لله – تعالى – كانوا قد استعلوا بأنفسهم على شرك قبائلهم العربية، وعلى انحراف كل من اليهود والنصارى عن دين الله، فكان اليهود قد أشركوا عزيرًا في عبادة الله، كما أشرك النصارى المسيح عيسى ابن مريم – عليه السلام – في عبادته ظلمًا بغير علم. وكان حنفاء العرب يعلنون إيمانهم بالتوحيد الخالص لله – تعالى – وكانوا يؤمنون بالبعث وبالحساب، وبالجنة والنار، فاعتزلوا أقوامهم، وحرَّموا على أنفسهم كثيرًا من المفاسد الاجتماعية، والعادات السيئة، والأخلاق الذميمة التي كانت شائعة بينهم، مثل: شرب الخمر، ووأد البنات، والزنى، والسلب والنهب والبغي على الآخرين.

ومن الأمثلة على الإيمان الفطري للأحناف: يروى عن عامر بن الظرب العدواني أنه قال في إحدى خطبه: **«إني ما رأيت شيئًا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعًا إلا مصنوعًا، ولا جائيًا إلا ذاهبًا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء»**، ثم قال: **«إني أرى أمورًا شتى وحتى»**. فقيل له: وما حتى؟ قال: **«حتى يرجع الميت حيًا، ويعود اللاشيء شيئًا، ولذلك خلقت السماوات والأرض»**.

ويُؤْثر عن **ابن نفيل** أنه كان شديد الانتقاد لعبادة الأوثان، وشديد المعاداة لقومه على ذلك، وأنه امتنع في الجاهلية عن أكل ما ذُبح لغير الله – عز وجل – قائلًا: **«يا معشر قريش، أرسل الله قطر السماء، وأنبت بقل الأرض، وخلق السائمة، ورعت فيه، وتذبحونها لغير الله؟!»**. ويذكر عنه أنه كان يناجي ربه قائلًا: **«يارب.. لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به.. ولكني لا أعلم..!»** وقد شاء الله – تعالى – له أن يموت قبل البعثة المحمدية المشرفة بخمس سنين.



أما **أمية بن أبي الصلت** فقد أدرك بعثة رسول الله ﷺ ولكنه انحاز إلى موالاة قومه من المشركين ورثى قتلى بدر منهم بمرثاة بليغة، فكان ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه، فلم يشرح الله صدره للإسلام على الرغم من أشعاره وحِكَمِه البليغة.

وعلى الرغم من وجودهم، فإن هؤلاء الأحناف كانوا قلة قليلة، منغلقة على ذاتها في أغلب الأحوال، ومتناثرة، لا يكاد يُدْرَك لهم أثر في مجتمعاتهم الوثنية، أو أن يُسْمَع لصوتهم صدى...!

هكذا كان حال الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول الخاتم ﷺ ولم تكن أحوال بقية العالم أقل سوءًا من ذلك إن لم تَفُقْهُ بكثير، فدول الفرس، والهند، والصين، وغيرها من دول القارة الآسيوية، كانت غارقة إلى آذانها في أنماط متعددة من الوثنيات المختلفة، كما سبق أن أشرنا، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه البلاد كانت قد تمكنت من تأسيس عدد من الحضارات المادية، واشتمل فكرها على قدر من المبادئ الاجتماعية، والقواعد الأخلاقية التي تمثل بقايا لتعاليم سماوية سابقة، كما قد يكون الحال في كل من البوذية والهندوكية.

وبالمثل كانت الإمبراطورية الرومانية قد ورثت الحضارة الهيلينية بأساطيرها وخرافاتها ووثنياتها، كما كان الهيلينيون قد ورثوا كلًّا من الحضارة الفرعونية القديمة، وحضارة ما بين النهرين بوثنياتهما؛ ولذلك قامت الحضارتان الهيلينية والرومانية على الاعتقاد الخاطئ بتعدد الآلهة، وعبادة الأوثان، وعلى التوهم بوجود قوى خفية معينة في أشياء هذا الكون الظاهرة والباطنة، وفي ظواهره المتعددة.

وفي ذلك ذكر أرنولد في كتابه المعنون بـ«**الدعوة إلى الإسلام**» [Arnold, T.W. (1965): "The Preaching of Islam"] ما ترجمته: «ولقد أفلح جستنيان قبل الفتح الإسلامي بمائة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهرًا من مظاهر الوحدة، ولكن سرعان ما تصدعت بعد موته، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة. أما هرقل فقد بذل جهودًا لم تصادف نجاحًا كاملًا في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية. ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى – لسوء الحظ – إلى زيادة الانقسام بدلًا من القضاء عليه. ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية، فحاول بتفسيره العقيدة تفسيرًا يستعين به على تهدئة النفوس أن يوقف ما يمكن أن يشعل من خصومات بين الطوائف المتناحرة؛ وأن يوحد بين الخارجين

عمى الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية.. وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن في سنة 451 ميلادية أنه ينبغي أن يُعتَرفَ بأن المسيح يتمثل في طبيعتين لا اختلاط بينهما، ولا تغير، ولا تجزؤ، ولا انفصال. ولا يمكن أن ينتفي خلافهما بسبب اتحادهما، بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها، وتجتمع في أقنوم واحد، وجسد واحد، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين بل متجمعة في أقنوم واحد هو ذلك الابن والله والكلمة.. وقد رفض اليعاقبة هذ المجمع، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة. وقالوا: إنه مركب الأقانيم. له كل الصفات الإلهية والبشرية، ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية. بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم.. وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة. ففي الوقت الذي نجد فيه هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين، إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية. وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد. فالمسيح الواحد، الذي هو ابن الله، يحقق الجانب الإنساني والجانب الإلهي بقوة إلهية إنسانية واحدة. ومعنى هذا أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة.. لكن هرقل قد لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جدًا ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام. ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون فحسب، بل إن هرقل نفسه قد وُصِم بالإلحاد، وجرَّ على نفسه سخط الطائفتين على السواء».

كذلك يقول باحث مسيحي آخر هو **«إسحاق تايلور» (Isaac Taylor) في كتابه المعنون "Canon of York"** والمنشور سنة 1885 عن الحالة بين نصارى الشرق عند البعثة المحمدية ما ترجمته: **«وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة»**.

وظل الحال كذلك حتى سنة 306 م حين اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية الملك قسطنطين، فاعتنق المسيحية سنة 312 م بناءً على أسطورة قوامها ظهور الصليب في السماء، وكلمات ترجمتها: **«بهذه الإشارة إنك لن تغزو بعد ذلك أبدًا»** (By this sign thou shalt conquer)، وباعتناق قسطنطين الديانة المسيحية حوَّل الإمبراطورية كلها إلى اعتناقها بالإكراه: عقيدة اختلطت فيها سيرة المسيح عيسى

ابن مريم – على نبينا وعليه من الله السلام – بكثير من الوثنيات القديمة. وتكفي في ذلك الإشارة **إلى التشابه الكبير في العقائد والعبادات بين كل من المسيحية المعاصرة والوثنيات الآسيوية والفرعونية والهيلينية؛ مثل التعميد، والقرابين، وتناول الطعام المقدس من الخبز والنبيذ، ودق النواقيس، وبناء التماثيل، والاشتراك في فلسفة أسطورية واحدة تقوم على فكرة غير منطقية تدعي بأن الإله يتعذب كما يتعذب الإنسان، ليمحو خطيئة ارتكبها «آدم» أبو الإنسانية في أول عهد له بالوجود، ثم يموت الإله كما يموت الإنسان، ولكنه لا يلبث أن يتغلب على هذا العذاب، وكذلك على الموت فيُبْعَث من جديد ليتمتع بحياة السعادة في دار الخلود الأبدية**، وتُسَمى هذه الفكرة الموضوعة باسم: «**عقيدة الخطيئة والكفارة أو الفداء**» ويصفها كاتب غربي مثل الفيلسوف الأمريكي الشهير «ويليام چيمس ديورانت» (Durant, William James) في كتابه «قصة الحضارة» (The Story of Civilization, 1935 et seq) بما ترجمته: «**والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربي آسيا من بلاد فارس أو من بابل، فالتاريخ كله والحياة كلها قد صورتها الديانة الزرادشتية في صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية، ثم يأتي في آخر الأمر منقذ هو «متراس» ليحكم بين الناس، ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين، وكما يبدو لكثير من اليهود أن حكم روما كان جزءًا من انتشار الشر القصير الأجل...**».

ومن وراء الإمبراطورية الرومانية كانت بقية دول العالم تحيا حياة همجية، بدائية، لا نعرف لها فكرًا محددًا، ولا فلسفة حياتية معينة، ولا عقيدة واضحة، ولا أثرًا حضاريًا يُذْكَر، وذلك باستثناء مصر التي سبق لها أن كانت منبعًا لكل من الفكر الفرعوني واليوناني الهيليني، والروماني الغربي والشرقي، وقد تربى كل من الفكر اليوناني والروماني على موائد الحضارة الفرعونية الوثنية المشركة، ثم اكتوت مصر الفرعونية بنيران الاحتلال الهيليني ثم الروماني من بعد ذلك، وكلاهما قد عاث في أرض مصر فسادًا واستعبادًا، ولم ينقذها من جور الرومان إلا جيش من جيوش خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقيادة عمرو بن العاص – رضي الله عنه – في سنة 18 هـ (639 م).

ولا ينفي ذلك أن مصر – كغيرها من دول العالم – قد تمتعت بفترات من الإيمان بالله الخالق وحده (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد) وبالهداية الربانية الصحيحة على يد رسول من رسل الله أو نبي من أنبيائه الذين زاروا

هذا البلد العامر أو أقاموا فيه من أمثال أنبياء الله إبراهيم ويعقوب، ويوسف وموسى وهارون، على نبينا وعليهم من الله السلام. ونحن نؤمن بذلك، وإن لم يدون التاريخ لنا أثرًا لهؤلاء الأنبياء، وذلك لأن التاريخ عادة ما تدونه أيدي المنتصرين من الظَّلَمَةِ المتجبرين في الأرض.

من هذا الاستعراض السريع تتضح لنا صورة العالم قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وقد كان عالمًا في غالبيته الساحقة فاقدًا لنور الرسالات السماوية، تائهًا في دياجير من الظلم والظلام، التي ظل يغوص فيها حتى فسدت العقائد، وضاعت العبادات، وانحطت الأخلاق، وتدنت المعاملات عند أغلب الناس، فصار العالم أحوج ما يكون إلى الهداية الربانية، والرحمة الإلهية متمثلة في وحي السماء الذي يحتاجه الإنسان في القضايا التي لا يستطيع أن يضع لنفسه - بنفسه - فيها إجابات صحيحة من مثل قضايا العقيدة، والعبادة، والأخلاق والمعاملات التي تشكل صلب الدين، وهي إما أن تقع في مجال الغيب المطلق الذي لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا عن طريق وحي السماء كقضايا العقيدة، أو أن تقع في حدود الأوامر الإلهية المطلقة كقضايا العبادة، أو أن تقع في ضوابط للسلوك كقضايا الأخلاق والمعاملات، والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان عن وضع ضوابط صحيحة للسلوك من عنده، والمنطق يرفض إمكانية أن يضع الإنسان لنفسه أنماطًا من العبادة، ثم يتصور قبول الله - تعالى - لها؛ لأن في ذلك تألهًا على الله الذي لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه؛ ولأن العبادة بمفهومها اللغوي هي قمة الخضوع لله بالطاعة، ولا طاعة بغير أوامر إلهية خالصة، لا يداخلها أدنى قدر من التصورات البشرية.

من هنا تتضح حاجة العالم في القديم والحديث إلى الرسالة السماوية الخاتمة التي تمثلت في بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ الذي وصفه ربه - تبارك وتعالى - بقوله عز من قائل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107).

وبقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ (الأحزاب: 45 - 48).

ولسنا نعني بهذا الاستعراض إلغاء ما كان للحضارات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ من إيجابيات، فلم توجد أمة على وجه الأرض دون أن يأتيها نذير من الله – تعالى – ولكن التاريخ قد أهمل ذكرهم. وعلى ذلك فإن جميع الحضارات الإنسانية قد أسهمت في عمارة الأرض، واكتسبت قدرًا من المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره، مما يُعْتَبَر من ضرورات الوجود البشري من الناحية المادية على الأقل، وهذه المعارف توارثتها أجيال الإنسان المتعاقبة من ذلك العلم الوَهْبِي الذي اختص الله – تعالى – به أبانا آدم (على نبينا وعليه من الله السلام) والذي لخصه الحق – تبارك وتعالى – بقوله العزيز:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: 31).

وبإضافة أقدار من العلم المكتسب؛ أي الذي يكسبه الإنسان باجتهاده إلى ما ورثه من هذا العلم الوهبي جيلًا بعد جيل، وأمة بعد أمة؛ تطورت المعارف الإنسانية، وتتابعت الحضارات البشرية، في صعود وهبوط، وازدهار وأفول، وإيمان وكفر، وبقي لنا من تاريخ البشرية على الأرض، وحضاراتها المتعاقبة آلاف من الأصنام والأوثان والأنصاب، والأزلام، وأكداس من المعارف التي غلبت عليها لهفة المنفعة المادية العاجلة، وأرتال من الخرافات والأوهام والأساطير؛ ولذلك فقد دارت أغلب الحضارات المدونة تاريخيًّا في مدار الماديات الملموسة المدركة، والمهارات اليدوية المتعددة، ونزعت إلى خلط الحقائق الدينية بكثير من الخيال والوهم والخرافة، ووظفت ذلك في محاولة لتفسير العديد من ظواهر الكون وأحداثه المتكررة؛ وذلك انطلاقًا من أعداد من الفلسفات الوضعية، والرؤى الفردية والجماعية المحدودة، كاعتماد العقل الإنساني وحده مصدرًا للحقائق مستغنيًا بذاته عن المشاهدة؛ لأن منهم مَنْ كان يرى أن المشاهدة تضل العقل، بدعوى أن الحواس البشرية محدودة القدرة وغير مأمونة على حسن الإدراك، وهو أسلوب تميز به الفكر اليوناني القديم الذي يعتبره الغرب – زورًا – أصلًا للمعارف العلمية، ومنبعًا للحضارات الإنسانية، وقد كان فلاسفة اليونان القدامى في الحضارة الهيلينية يكتفون في طلب العلم والتعرف على أسرار الكون بمجرد التفكير النظري في خلوة؛ ولذلك برعوا في قضايا مثل الرياضيات والهندسة النظرية، ولكنهم ضلوا في كثير من القضايا

العلمية التي تحتاج إلى المشاهدة والاستنتاج أو إلى التجربة والملاحظة والاستنتاج، وفشلوا فيها فشلًا ذريعًا، كما ضلوا في النواحي العقدية ضلالًا بعيدًا، وتركوا سيلًا من الأساطير والخرافات والأوهام، وصلوا فيها إلى العديد من الاستنتاجات الظنية التي لا تقوم على دليل مادي ملموس، واعتبروها من الحقائق المُسَلَّمَة دون برهان، سوى ما قد افترضوه ابتداءً بطريقة نظرية بحتة، ثم يزعمون أن ذلك من الحق الذي يركنون إليه في إثبات ما يتوصلون إليه من استنتاجات خيالية، غير مرتكزة على أدنى قدر من الحق الملموس أو المشاهدة المدركة، وقد كان ذلك هو الأسلوب الغالب في الحضارة اليونانية القديمة التي يحاول مؤرخو الغرب أن يجعلوا منها أم الحضارات؛ لمجرد كونها حضارة غربية.

وأمثال هذا الخلط المبني على أساس من العصبيات الإقليمية الضيقة كثير في تاريخ الحضارات بصفة عامة، وفي تاريخ الحضارات الكافرة أو المشركة بصفة خاصة. وعلى الرغم من ذلك كله، فإننا نؤمن بالحقيقة الإسلامية الثابتة القائمة على أساس من وحدة السلالة البشرية، التي يصفها الحق - تبارك وتعالى - بقوله العزيز:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ (النساء: 1).

ويصفها خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله الشريف: «**كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب**»[1].

ونحن معشر المسلمين نؤمن بأن الإنسان بدأ عالمًا عابدًا، انطلاقًا من قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة: 31).

وقوله - عز من قائل -: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: 37).

كذلك نؤمن - نحن معشر المسلمين - بأن تاريخ البشرية على الأرض قد عرف أجيالًا عاشت بنور الهداية الربانية، وأن هذه الأجيال عرفت قيمة تلك الهداية الربانية

(1) رواه البزار في مسنده.

فالتزمت بها، وعرفت قيمة العقل والحواس في التعرف على سنن الله في الكون فعظمته ووظفته في عمارة الحياة على الأرض، وإقامة عدل الله فيها، ووصلت عن طريق الاستقراء المنطقي للكون ومكوناته وظواهره - إلى قدر من المعارف التي توارثتها الأجيال اللاحقة، وكانت الأساس الذي انطلقت منه غالبية الحضارات الإنسانية التي نؤمن بوحدة تراثها وتكامله من جيل إلى جيل، وأن الإنسانية كلما عاشت بنور الهداية الربانية سعدت وأسعدت، وكلما بعدت عن هذه الهداية الربانية شقيت وأشقت.

ولكننا -نحن معشر المسلمين- نؤمن أيضًا بأن الإنسان في صراع دائم مع الشيطان، وأن في طبعه الإنسي ميلًا إلى النسيان، وميل كذلك للخروج على منهج الله، ويظل النسيان والابتعاد عن منهج الله يقذفان بالمجتمعات الإنسانية في دياجير من الظلم والظلمات، حتى تصبح الحاجة ملحة إلى نور الهداية الربانية من جديد، فإن كانت الرسالة السماوية التي أُنْزِلَت لهؤلاء القوم لاتزال محفوظة بأيدي الناس ولكنهم انصرفوا عنها، بعث الله - تعالى - نبيًّا من أنبيائه يردهم إليها بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي وبالمعجزات الشاهدة له بالنبوة. وإن كانت الرسالة السماوية قد ضاعت أو حرفت وشوهت فإن الله - تعالى - بعث رسولًا من رسله بنفس ركائز الرسالة التي ضيعها أو حرفها الناس، وهي - في أصولها - رسالة واحدة تدعو الناس إلى عبادة الله الواحد القهار (سبحانه وتعالى) الذي ليس لهم من إله غيره، فعليهم أن يعبدوه وحده بالطريقة التي يرتضيها، وتدعوهم كل رسالات السماء إلى الالتزام بمكارم الأخلاق، وبضوابط السلوك بين الناس وإلى الاجتهاد في عمارة الحياة على الأرض، وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها، وإقامة عدل الله عليها، والاستعداد للحساب في الآخرة التي هي خلود بلا موت، إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا.

وتبقى رسالة السماء واحدة من لدن أبينا آدم - عليه السلام - إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وحتى قيام الساعة، واسمها «**الإسلام**» وإن تباينت تفاصيل التشريعات في المعاملات من زمن إلى آخر؛ لتوافق ظروف ذلك الزمن.

وبقيت البشرية يتعاورها الإيمان والكفر، والتوحيد الخالص لله - تعالى - والشرك به، والاستقامة على منهج الله، والخروج الجزئي أو الكامل عنه، حتى وصلت إلى

حالة من الضياع قبل بعثة المصطفى ﷺ الذي بعثه الله – تعالى – لهداية البشرية جميعًا وإصلاح عقائدها وعباداتها وأخلاقها ومعاملاتها، فكملت رسالات السماء كلها في بعثته الشريفة، ولما كان – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم – خاتم الأنبياء والمرسلين فقد تعهد ربنا – تبارك وتعالى – بحفظ رسالته فَحُفِظَت على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد، وتعهد ربنا – تبارك وتعالى – بحفظ رسالته هذه الخاتمة تعهدًا مطلقًا إلى أن يشاء الله؛ تحقيقًا للوعد الإلهي الذي قطعه – سبحانه وتعالى – على ذاته العلية فقال عز من قائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

وتخير ربنا – تبارك وتعالى – لتبليغ تلك الرسالة الخاتمة أكمل البشر خَلْقًا، وأكرمهم خُلُقًا، وأشرفهم نسبًا، وأقدرهم على القيام بواجبات الرسالة الخاتمة، ولذلك أعده الله – تعالى – إعدادًا لم ينله مخلوق من قبل ولا من بعد، وكرمه تكريمًا لم ينله مخلوق من قبل، ولن يناله أحد من بعده، وجعله ﷺ إمامًا للمتقين، وقائدًا للموحدين وزعيمًا للغر المحجلين، ومثلًا أعلى للأنبياء والمرسلين، وأصلح به وبالمؤمنين أحوال الناس التي كانت قد فسدت فسادًا عظيمًا.

روى الإمام مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**[1].

وأخرج كذلك عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»**.[2]

وروى الإمام البخاري وغيره من علماء الحديث أن رسول الله ﷺ قال: **«لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»**[3].

وقال ﷺ: **«أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما السلام»**[4].

---

(1) صحيح مسلم – كتاب الفضائل – باب فضل النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة.
(2) صحيح مسلم – كتاب الفضائل – باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق.
(3) صحيح البخاري – كتاب المناقب – باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ.
(4) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني – حديث رقم 1545.

وذلك كله مما يؤكد حاجة الإنسانية إلى دين الله الذي لا يرتضي من عباده دينًا سواه، ألا وهو الإسلام العظيم الذي بعث به كل نبي وأرسل به كل رسول، وإن اختلفت تفاصيل التشريع باختلاف الأزمنة، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران: 18 – 19).

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: 125).

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر: 22).

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: 161 – 163).

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴾ (المائدة: 3).

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران: 67).

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: 84 – 85).

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 64).

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 52).

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (المائدة: 111).

وهذا نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل – عليهما السلام – يعلنان إسلامهما وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: 127 – 129).

والقرآن الكريم يؤكد إسلام نبي الله إبراهيم وأبنائه وأحفاده فيقول:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: 130 – 133).

وهؤلاء أتباع الرسول الخاتم ﷺ يعلنون وحدة دين الإسلام قائلين:

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: 135 – 136).

ويؤكد القرآن الكريم أن الإسلام العظيم هو دين الله من الأزل إلى الأبد فيقول في حق رسوله الخاتم ﷺ:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: 285).

وهذا نبي الله يوسف – عليه السلام – يعلن إسلامه قائلًا:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: 101).

وهذا نوح – عليه السلام – يقر بإسلامه قائلًا لقومه:

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس: 72).

وهؤلاء صالحو الجن يقرون بإسلامهم قائلين:

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (الجن: 14 – 15).

وانطلاقًا من ذلك فإن الإسلام العظيم كما يدعو إلى الإيمان بالله الخالق – سبحانه وتعالى – وبالخضوع لجلاله بالعبادة والطاعة (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد) فإنه يدعو إلى تنزيهه – سبحانه – عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ويدعو إلى الإيمان بوحدة رسالة السماء وبالأخوة بين الأنبياء وبين الناس جميعًا.

وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: 30).

ومن هنا كان حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «**كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»[1]

والفطرة هنا هي **الإسلام** الذي علمه ربنا – تبارك وتعالى لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، ثم أنزله على سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين، وأكمله، وأتمه، وحفظه في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ولذلك فإن الله – تعالى – لا يرتضي من عباده دينًا سواه، ومن هنا كانت حاجة الإنسانية دومًا إلى الإسلام الذي به تستقيم الحياة، وبدونه يضل الناس ويتيهون، وتكثر المظالم والفواجع والكوارث والابتلاءات، ثم تنتهي الآجال دون أن يتمكن الواحد منهم من تحقيق شيء من رسالته في هذه الحياة، فخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

(1) صحيح الجامع الصغير حديث رقم 4425.

أسماء الرسل والأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم

- محمد ﷺ
- عيسى عليه السلام
- يحيى عليه السلام
- زكريا عليه السلام
- يونس عليه السلام
- اليسع عليه السلام
- إلياس عليه السلام
- سليمان عليه السلام
- داود عليه السلام
- هارون عليه السلام
- موسى عليه السلام
- ذو الكفل عليه السلام
- أيوب عليه السلام
- شعيب عليه السلام
- يوسف عليه السلام
- يعقوب عليه السلام
- إسحاق عليه السلام
- إسماعيل عليه السلام
- لوط عليه السلام
- إبراهيم عليه السلام
- صالح عليه السلام
- هود عليه السلام
- نوح عليه السلام
- إدريس عليه السلام
- آدم عليه السلام

حاجة الإنسانية إلى التعرف على حضارة الإسلام

انطلاقًا من الإيمان بالإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، آمنت الحضارة الإسلامية بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء وبين الناس جميعًا، ومن ثم آمنت بوحدة التراث الإنساني فجمعته من مختلف مصادره، وغربلته بمعيار الإسلام، ثم أضافت إليه إضافات أصيلة. وظلت تلك الحضارة الفريدة في تاريخ الإنسان تحمل مشاعل المعرفة في كل منحى من مناحي الحياة لأكثر من أحد عشر قرنًا من الزمان، وكانت المنبع الذي انطلقت منه النهضة العلمية والتقنية المعاصرة، ولكن هذه النهضة المعاصرة انتكست في جوانبها الدينية والأخلاقية والسلوكية؛ لأنها رفضت الإسلام دينًا، وحصرت نفسها في الأطر المادية وحدها فوصلت إلى ما وصلت إليه من تقدم علمي وتقني مذهل، رافقه انحسار ديني وأخلاقي وسلوكي مذهل كذلك. وقد تسبب هذ الانحسار الديني والأخلاقي المعاصر في إفساد بيئة الأرض، وفي تكدس الأسلحة التقليدية، وغير التقليدية، ومنها أسلحة الدمار الشامل، كما تسبب في استنفاد ثروات الأرض الطبيعية، وفي إشعال حربين عالميتين حصدتا أكثر من خمسة وسبعين مليونًا من النفوس البشرية، بالإضافة إلى ملايين المقعدين والأيتام والأرامل، وأدتا إلى كمٍّ من الخراب والدمار الذي استغرق عشرات من السنين لإصلاحه. ثم أغرق الأرض في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار بالحروب التي شنتها ولا تزال تشنها الدول الصناعية الكبرى من أجل الاستحواذ على مصادر النفط والغاز والثروات المعدنية والمائية. وفي ظل هذا الضياع تنكرت الحضارة المادية المعاصرة للدور البنَّاء الذي قامت به الحضارة الإسلامية على مدى أحد عشر قرنًا أو يزيد، والذي لولاه ما كانت هذه النهضة العلمية والتقنية المعاصرة على الإطلاق.

وبالإضافة إلى الدور البارز للحضارة الإسلامية في مجال العلوم الإنسانية كعلوم الاجتماع، والتاريخ، والاقتصاد، والتشريع، والقانون، والتربية، وعلم النفس، والإدارة والسياسة، والآداب، والفنون، وغيرها، وفي العلوم الدينية من مثل القرآن الكريم وعلومه، وعلم الحديث وفنونه، والفقه وأصوله، والسيرة النبوية الشريفة وغيرها، فقد برع المسلمون براعة ملحوظة في مجال العلوم البحتة والتطبيقية مؤكدين بذلك على شمول المعرفة الإنسانية – مع احترام التخصص – وعلى أن الإنسان مادة وروح، وكما يحتاج جسده إلى الغذاء المادي فهو نفسه أكثر حاجة إلى الغذاء الروحي، وإلا عاش في هذه الحياة أعرجَ تعيسًا، تائهًا ضائعًا مُدَمَّرًا، وغادرها صفر اليدين من الأعمال الصالحة، فخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وللمعرفة الإنسانية عند المسلمين مصدران رئيسان: هما **الوحي السماويُّ** المنزَّل من الخالق – سبحانه وتعالى – **والعلوم المكتسبة** في مختلف مجالات المعرفة والتي تجمعت عبر الأجيال المتعاقبة من السلالة البشرية إلى اليوم. والوحي السماويُّ نزل بيانًا للناس من خالقهم، في القضايا التي يعلم هذا الخالق العظيم بعلمه المحيط عجز الإنسان عجزًا كاملًا عن الوصول فيها بجهده منفردًا إلى أية تصورات صحيحة وذلك من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وهي تشكل صلب الدين. وعلى ذلك فإن الوحي السماويَّ في هدايته للبشرية يتعرض لعلاقة الأفراد بخالقهم، ولعلاقة كل فرد منهم بذاته وأهله وذوي قرباه، وبمجتمعه، وأمته، وبالأسرة الإنسانية كلها على اختلاف ألوانها – ومواطنها وألسنتها.. أما ما عدا ذلك من أمور الكون المادية، وصور الحياة فيه، وما يحكم ذلك من قوانين.وظواهر وسنن لا تتبدل ولا تتغير، ولا تتوقف ولا تتخلف، فقد ترك لاجتهاد الإنسان وتحصيله، ووسيلته في ذلك عقله وحواسه، وهما على روعتهما محدودان بحدود قدرات الإنسان، وبحدود مكانه (على الأرض) وزمانه (أي عمره)، وكلها حدود جعلت منجزات الإنسان في حقل المعارف المادية المكتسبة تأتي حثيثة بطيئة، لها طبيعة تراكمية، فتتضاعف مع الزمن، ومع نمو الحاجة إلى المعرفة، والرغبة في الوصول إليها إشباعًا لتلك الفطرة الطيبة التي غرسها الله في الجبلة الإنسانية، ألا وهي **حب الحق، وحب التعرف عليه، والتي يعبر عنها أحيانًا بحب الاستطلاع والجري وراء كسب المعرفة.**

وهنا تجدر الإشارة إلى أن للمسلمين في قضية المعرفة الإنسانية موقفًا خاصًا ينطلق من الإيمان بأن الإنسان بدأ عالمًا عابدًا، بينما يؤمن غير المسلمين – خاصة المهتمين منهم بما يسمى اليوم باسم الدراسات الإنسية (Anthropology) – بأن الإنسان بدأ جاهلًا كافرًا، ثم أخذ في التعرف على الكون وظواهره التي أرعبته في بادئ الأمر فعبدها، وتدرج في تلك العبادة الوثنية؛ حتى وصل إلى القناعة بعبادة خالق تلك الأكوان.. فعبد الله بمناهج مختلفة من تصوراته القاصرة، وتدرج في التعرف على الظواهر والسنن الكونية وأخذ في توظيفها في عمارة الحياة على الأرض فتعلم العلم وتطبيقاته في الحياة العملية أي: وتعلم التقنية.

من هنا كان من أسس المعرفة الإنسانية عند المسلمين ذلك العلم الوهبي، الذي وهبه الله – تعالى – لأبي البشرية سيدنا آدم – على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام – والذي يتلخص في قوله – تعالى –: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ... ﴾ (البقرة: 31).

وعلى أساس من ذلك العلم الوهبي، يمكن تفسير تلك الحضارات الموغلة في التاريخ من مثل الحضارة المصرية القديمة (5000 ق.م – 30 ق.م)، الحضارات العراقية القديمة أو حضارات ما بين النهرين دجلة والفرات (4000 ق.م – 550 ق.م)، وتشمل الحضارة السومارية (4000 ق.م – 1600 ق.م)، والحضارة البابلية (1760 ق.م – 829 ق.م)، والحضارة الآشورية (750 ق.م – 605 ق.م)، والحضارة الكلدانية (605 ق.م – 550 ق.م). ومن مثل ذلك كل من الحضارة الفارسية القديمة (525 ق.م – 635 م)، والحضارة الهندية القديمة (2500 ق.م – 1800 ق.م)، والحضارة الصينية القديمة (4500 ق.م – 700 م)، والحضارة الإغريقية القديمة (1500 ق.م – 100 ق.م)، والحضارة الرومانية القديمة (500 ق.م – 476 م). وحضارات كل من جنوب الجزيرة العربية (2000 ق.م – 300 م)، وشمال الجزيرة العربية (من حوالي 1000 ق.م – 236 م)، وإن كان أغلب هذه الحضارات قد انحرف إلى وثنيات متباينة، وإلى أنماط من الشرك مختلفة، أدت إلى اندثارها.

ومع تسليمنا بأن **العلوم المكتسبة** لها طبيعة تراكمية؛ بمعنى أنه يتجمع منها للمتأخرين ما لم يتجمع للسابقين، وأن المعارف عند تجمعها تؤدي بالفكر البشري إلى قفزات تتناسب مع كَمِّها وكيفها، يمكن تفسير ذلك التقدم العلمي والتقني المذهل الذي حققه الجنس البشري في القرن الميلادي العشرين – بصفة عامة –

وفي العقدين المتأخرين منه بصفة خاصة، كما يمكن إدراك قيمة الجهود البشرية التي بذلت عبر التاريخ من أجل وضع لبنات **الفكر المكتسب في** مختلف مجالات المعرفة.. خاصة إذا وضعنا في الحسبان احتمالات فقدان كثير من تلك المعارف عبر عصور الانحطاط التي مرت بها البشرية، واحتمالات عدم الكشف عنها في عصور ما قبل استخدام الكتابة أو انتشار استخدامها؛ حيث كانت غالبية المعارف تنقل مشافهة، وغالبية المهارات تكتسب بالمحاكاة والتقليد والتوريث.

ومع تسليمنا كذلك بأنه في عملية تجمع المعارف البشرية المكتسبة عبر الأجيال المتعاقبة، يضيف الأفراد كما تضيف الجماعات بقدر ما يستطيعون، وتشترك المجتمعات المستنيرة في تهيئة الظروف الملائمة للنابهين من أبنائها في السعي وراء الحقيقة واكتشاف غوامضها، وتسجيل حصاد جيلهم وتراث الأجيال السابقة عليهم للأجيال اللاحقة بهم، فإنه لا يمكن – بأي حال من الأحوال – قصر المحصلات المعاصرة لعملية تجمع المعارف البشرية عبر الأجيال المتعاقبة على أمة من الأمم أو سلالة من السلالات دون غيرها. بل لا بد من إدراك وحدة الأصول الإنسانية، ووحدة المعرفة العلمية بين الشعوب في سلالة بشرية واحدة، وصفها خاتم الأنبياء والمرسلين – صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين – بقوله الشريف: «.... **كلكم لآدم، وآدم من تراب** .....»[1] أو: «**الناس بنو آدم، وآدم من تراب**»[2].

من هنا كانت ضرورة التسليم بأن **المعارف المكتسبة هي تراث الإنسانية جمعاء،** ولكن في الوقت نفسه لا بد من تحري الدقة في استعراض تدرج تلك المعارف مع الزمن؛ حتى نتمكن من فهم مسيرة الحركة الفكرية، والعلمية، والتقنية عبر تاريخ البشرية الطويل، ومن تسجيل الحق لأصحابه، ونسبة الفضل لأهله؛ حتى لا يُغْفَلَ دور من الأدوار لفرد من الأفراد أو لجماعة من الجماعات، أو لأمة من الأمم، وحتى يكون في استقراء التاريخ شحذ للهمم، وإحياء للنفوس، وتحريك للقلوب من أجل مواصلة مسيرة الركب الإنساني في جهاده؛ والوصول إلى الحقيقة عبر الزمن حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

(1) سنن أبو داود – كتاب الأدب – باب في التفاخر بالأحساب حديث رقم 5116.
(2) مسند أحمد (حديث رقم 8721).

وقد أصبح ذلك المجال فنًّا قائمًا بذاته، يعرف باسم «**تاريخ المعارف الإنسانية**»، ومن أبرز تلك المعارف، وألصقها بدنيا الناس، وأكثرها تأثيرًا في مجرى حياتهم وفي تطور حضاراتهم: هي المعرفة في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وتاريخها يعرف باسم «**تاريخ العلوم**» لأن الاتجاه السائد يقصر لفظة «العلم» على الدراسات الكونية المشاهدة منها والتجريبية لكل ما هو محسوس أو مدرك في هذا الكون (المادة على تعدد صورها، والطاقة على اختلاف هيئاتها، والأحياء بكافة أنواعها، والظواهر الكونية على تباين أشكالها وتعدد القوانين التي تحكمها) بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج في محاولة لمعرفة خصائص المادة والطاقة وصور الأحياء وتصنيف ذلك كله وتبويبه، والتعرف على الظواهر الكونية التي تصاحبه، والسنن الإلهية التي تحكمه، ووضع الفروض والنظريات اللازمة لتفسير ذلك، واستنتاج الحقائق والقوانين منها.

ومما يؤسف له حقًّا أن كتابة«تاريخ العلوم» قد تركت – في معظمها – لأقلام غير المسلمين الذين أهملوا دور المسلمين في نهضة البشرية، وأنكروا أثر حضارتهم في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية بصفة عامة، وفي مجال العلوم البحتة والتطبيقية بصفة خاصة، ذلك الدور الذي استمر بغير انقطاع – منذ مطلع القرن السابع الميلادي (مع بدء تنزل الوحي السماوي على خاتم الأنبياء والمرسلين سنة 13 قبل الهجرة الموافق 610 م) إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي؛ حين تنازل الباب العالي التركي عن شبه جزيرة القرم نهائيًا لروسيا (في سنة 1207 هـ/الموافق 1792 م)، ودخل نابليون بونابرت مصر بجيوشه غازيًا (في سنة 1213 هـ/الموافق 1798 م)، وختم ذلك بإسقاط دولة الخلافة الإسلامية (في سنة 1314 هـ/1924 م).

وانطلاقًا من ذلك كله فإن الغالبية العظمى من كتب تاريخ العلوم، والكتابات الأخرى التي تتعرض لتلك القضية في مقدمات تاريخية للتخصصات المختلفة عادة ما تبدأ بالحضارة اليونانية القديمة، (وبخاصة في الفترة من القرن السادس قبل الميلاد إلى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد)، ثم تنتقل منها إلى الحضارة الرومانية (والتي بدأت في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد وانتهت في حدود سنة 476 م) ومنها تقفز بوثبة طويلة عبر ستة من القرون، كانت عند الغرب قرونًا مظلمة (من 476 م – 1100 م) إلى العصور الوسطى (من 1100 م – 1543 م)، ومنها إلى عصر

النهضة الحديثة (من 1543 إلى اليوم)، متناسين تمامًا أكثر من أحد عشر قرنًا من الزمن (من 610 م إلى 1798 م/الموافق 13 ق.هـ – 1213 هـ) ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية أيما ازدهار، فجمعت تراث الإنسانية عبر الحضارات السابقة (وفي كل اللغات المتوافرة من السنسكريتية إلى الفارسية إلى السريانية إلى اليونانية واللاتينية وغيرها) وكان هذا الجمع جمعًا أمينًا موثقًا، نسبت فيه كل إضافة لصاحبها، وقامت الحضارة الإسلامية بنقد ذلك التراث نقدًا علميًا دقيقًا، بعد أن قامت بترجمته إلى اللغة العربية، وأضافت إليه إضافات أصيلة عديدة في مختلف مجالات المعرفة... وكان **تراث الحضارة الإسلامية** – بجدارة هو القاعدة الراسخة التي انطلقت منها النهضة العلمية والتقنية المعاصرة.

هذا التراث الإسلامي العظيم كثيرًا ما يغفل، وإذا ذكر فإنما يذكر لكي يتعمد تحقيره والاستهانة به، بتأكيد أنه كان مجرد دور ناقل لآثار الحضارات السابقة من مثل الحضارات اليونانية والرومانية والهندية والفارسية والمصرية وحضارات ما بين النهرين. وحتى في ذلك عادة ما يركز الكتاب الغربيون على النقل من الحضارة الإغريقية أكثر من النقل عن غيرها إمعانًا في التعصب العرقي المقيت باعتبار اليونان جزءًا من أوروبا.

وليس هذا فحسب بل إنه – في كثير من الأحيان – قد تمت ترجمة بعض كتب التراث الإسلامي، وتمت نسبتها إلى عدد من فلاسفة الإغريق وإلى غيرهم من الأوروبيين، كما حدث في عدد من آثار كل من ابن النفيس والفارابي وابن سينا، ومن أمثلة ذلك ما حدث مع كتاب «الربوبية» ومقالتي «المعادن، والآثار العلوية» لابن سينا اللتين ترجمتا إلى اللغة اللاتينية ونسبتا ظلمًا إلى أرسطو حتى تم اكتشاف الحقيقة في سنة 1927 م بواسطة المؤرخَيْن هولميارد وماندفيل (Holmyard E.J. and Mandeville, D.C.).

وليس هذا فقط، بل تم في كثير من الأحيان – تحريف أسماء مشاهير علماء المسلمين وتحريف أسماء معطياتهم العلمية وصياغتها صياغة لاتينية؛ لتفقد جذورها العربية وصلتها بالعالمين العربي والإسلامي. وذلك من مثل التحريفات التالية التي تمثل قليلًا من كثير:



	الاسم العربي	الاسم المحرف
1	«أبو إسحق نور الدين البطروجي»	(Albetragius)
2	«ابن رشد»	(Averroes)
3	«موسى بن ميمون» وأبناؤه	(Maimonides)
4	«ابن باجه»	(Avempace)
5	«ابن زهر»	(Avenzoar)
6	«الفارابي»	(Alpharabius)
7	«جابر بن حيان»	(Geber)
8	«الرازي»	(Rhazes)
9	«ابن سينا»	(Avicenna)
10	«أبو إسحق إبراهيم بن يحيى الزرقالي»	(Arzachel)
11	«أبو معشر»	(Albumasar)
12	«الخوارزمي»	(Algorithm)
13	«الفرغاني»	(Alfraganus)
14	«البتاني»	(Alpetegnius)
15	«المأمون»	(Almanon)
16	«ابن الهيثم»	(Alhazen)
17	«حنين بن إسحاق العبادي»	(Johannitus)
18	«الصوفي»	(Azophi)
19	«الغزالي»	(Algazel)
20	ما شاء الله	(Messala)
21	«الإدريسي»	(Dreses)
22	«الكندي»	(Alkindus)
23	«المسعودي»	(Alboacen)
24	«الزهراوي»	(Albucasis)
25	«المستعرب»	(The Mozarabs)
26	«المرابطون»	(Al-Moravids)
27	«نجم آخر النهر»	(Acherner)
28	«نجم العناق»	(Alanak)
29	«الفرسخ الفلكي»	(Parsec)
30	النظير (نظير السمت في الفلك، الحضيض أو الدرك الأسفل)	(Nadir)
31	«السمت»	(Azimuth)
32	«سمت الرأس»	(Zenith)

وعلى الرغم من ذلك كله، فقد اعترف عدد من علماء الغرب المنصفين بدور الحضارة الإسلامية المشرِّف في الحفاظ على تراث الإنسانية ونقده وتطويره وإثرائه، وذلك من مثل «**برنال**» **(Bernal)** الذي كتب ما ترجمته: «إن الفضل، أعظم الفضل، للعلماء العرب في الحفاظ على التراث وتدوينه ونقله والتأليف فيه، وإن العلماء العرب قد برعوا في ذلك، وإنهم تفوقوا على الإغريق، بأن جعلوا العلم سهلًا مستساغًا، فأقبل الناس على النهل منه وكانت ميزة انفرد بها العلم العربي».

ومن مثل قول «**كاربنسكي**» **(L.C.Karpinski)** مما ترجمته: «إن الخدمات التي أداها العرب للعلوم غير مقدرة حق تقديرها من المؤرخين، وإن البحوث الحديثة قد دلت على عظم دَيْنِنَا (نحن أبناء الحضارة المعاصرة) للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم، حين كانت أوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى، وإن العرب لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق، بل زادوا عليها، وقاموا بإضافات مهمة فيها».

ومن مثل ما أورده **فرانتز روزنتال** **(Franz Rosenthal)** في كتابه: «منهاج العلماء المسلمين في البحث العلمي» نقلًا عن **فون كريمر** **(Von Kramer)** وهو يصف النشاط العلمي عند علماء المسلمين الأوائل مما ترجمته: «إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جليًا في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم فإنهم كانوا يبدون نشاطًا واجتهادًا عجيبين حين يلاحظون ويمحصون، حين يجمعون ويرقبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد، وكذلك فإن أسلوبهم في البحث هو أكبر ما يكون تأثيرًا عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف. وبصفتهم مفكرين ومبدعين، فقد أتوا بأعمال رائعة في حقلي الرياضيات والفلك، وللسبب ذاته نجح العرب في بقية العلوم».

ومن مثل قول «**ليبري**» **(Libri, C.)** مما ترجمته: «لولا العرب لتأخر عصر النهضة في أوروبا لعدة قرون، فلقد لمع العرب في كل الميادين العلمية، وفي الوقت الذي كان فيه الشعراء والأدباء والفقهاء يقومون بأدوارهم في نهضة العرب الروحية والنفسية والخلقية، كان العلماء في كل الميادين يقومون بقسطهم من البحث والنقل والتجويد، ولم يدعوا بابًا إلا طرقوه، إن لم يكونوا قد فتحوا في العلم أبوابًا جديدة».

ومن مثل قول «**وليم أوسلر**» **(W. Osler)** مما ترجمته: «لئن أشعل العرب سراجهم من القناديل اليونانية، فإنهم ما لبثوا أن أصبحوا جميعًا شعلة وهَّاجة استفاد بنورها أهل الأرض».

ومن قول مؤرخ العلم **چورج سارتون (G. Sarton)** مما ترجمته: «إن بعض الغربيين الذين تعمدوا أن يستخفوا بما أسداه الشرق إلى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئًا ما. هذا الرأي خطأ؛ لأنه لو لم تنقل إلينا كنوز اليونان لتوقف سير المدنية بضعة قرون. إن العرب لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخًا، ولكنهم جمعوا بين المصدرين ثم لقّحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية، وإذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكارًا فليس في العلم إذًا ابتكار على الإطلاق، فالابتكار العلمي في الحقيقة إنما هو حياكة خيط المعرفة في نسيج واحد».

وأضاف ما ترجمته: «.. لقد حقق المسلمون – عباقرة الشرق – أعظم المآثر في القرون الوسطى فكُتبت أعظم المؤلفات قيمة، وأكثرها أصالة، وأغزرها مادة باللغة العربية، وكانت هي لغة العلم الارتقائية للجنس البشري من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلاديين، حتى لقد كان ينبغي لأي إنسان يريد أن يلم بثقافة عصره، وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها...».

وذلك من مثل قول المستشرق اليهودي البريطاني المتأمرك **«برنارد لويس» (Bernard Lewis)** الذي كتب ما ترجمته: «إن أوروبا تحمل دَيْنًا مزدوجًا للعرب، فقد حافظ العرب على التراث الفكري العلمي الذي خلّفه اليونان وتوسعوا فيه ونقلوه إلى أوروبا، ومن العرب نقلت أوروبا طريقة جديدة في البحث وهي طريقة تضع العقل أولًا، وتنادي بوجوب البحث المستقل والتجربة».

وهذا من مثل قول **«ديلاس أولبري» (D. Olberi)** الذي ترجمته: «لو أزيل العرب من التاريخ لتأخرت النهضة في أوروبا بضعة قرون، فقد علّمت الأمة العربية الغرب بعد أن أيقظته خمسة قرون أو ستة، وحتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا – لا تزال – تناقش في جامعة مونبليه بفرنسا».

وقد أكد هذا التقدير الغربي للحضارة الإسلامية قول المستشرقة الألمانية **«سيجريد هونكه» (Sigrid Hunke)** في كتابها المعنون (شمس الله تشرق على الغرب) مما ترجمته «لقد شاء الله أن يظهر من الأوروبيين من ينادي بالحقيقة، ولا يغمط العرب حقهم في أنهم حملوا رسالة عالمية، وأدوا خدمة إنسانية للثقافة البشرية قديمًا وحديثًا. إن هذا النفر من الأوروبيين المنصفين لا يأبه بتحدي

المتعصبين الذين حاولوا جهد طاقتهم طمس معالم هذه الحضارة العربية والتقليل من شأنها. إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية، وإن الدَّيْن الذي في عنق أوروبا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدًّا، وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة حتى إننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابًا من مائة، فلا نجد فيها إشارة إلى فضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة، اللهم إلا هذه الإشارة العابرة إلى أن دور العرب لا يتعدى دور ساعي البريد الذي نقل إليهم التراث اليوناني». وتضيف: «إنها سُبّة أن يعلم أهل العلم من الأوروبيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيرًا ما تركه اليونان أو الرومان، ولا يقرون بذلك. إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يُشِعُّون على العالم علمًا وفنًّا وأدبًا وحضارة، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور، ونشروا لواء المدنية أنَّى ذهبوا في قاصي البلاد ودانيها، سواء في آسيا أو إفريقيا أو أوروبا، ثم تنكر أوروبا على العرب الاعتراف بهذا الفضل. إن هذه النظرة الأوروبية دليل على ضيق أفق الغربيين، وخشيتهم قول الحق والاعتراف للعرب بفضلهم وبخاصة أنهم غيروا وجه العالم الذي نعيش فيه».

وتختم الدكتورة «سيجريد هونكه» مقدمتها الرائعة لكتابها بقولها: «إن هذا الكتاب يهدف أيضًا إلى تقديم شكر، كان يجب أن يقدم إلى العرب منذ عصور قديمة» وتضيف: «لَشَدَّ ما يغبن حق العرب حتى يكتفى بالقول إنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم الغربي بعدما حفظوه من الدمار، وذلك يعني التقليل من قيمتهم، والسكوت عن الأمور الجوهرية في عملهم الحضاري، وجعلهم مجرد وسطاء لا غير، والحقيقة أن سائر مناحي الحياة الاقتصادية والعلمية والاجتماعية في الغرب مدموغة بآثارهم».

وجاء في كتابات **«جوستاف لوبون» (Gustave Le Bon)** ما ترجمته: «كلما تعمق المرء في دراسة المدنية العربية تجلَّت له أمور جديدة واتسعت أمامه الآفاق، وثبت له أن أقوام القرون الوسطى لم تعرف علوم الأمم القديمة إلا بواسطة العرب، وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة تكتب عن العرب خاصة وأن العرب هم الذين مدَّنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق.. وتأثيرهم في الغرب عظيم، وهو في الشرق أشد وأقوى».

ومن ذلك قول **دربير (J. W. Draper)** الذي ترجمته: «لقد كان تفوق علماء العرب في العلوم ناشئًا عن الأسلوب الذي توخَّوه في بحوثهم، لقد تحققوا أن الأسلوب العقلي وحده لا يكفي، ولا بد من أسلوب علمي تجريبي. وهذا هو الذي رفعهم لهذا الترقي العظيم في علوم الهندسة، وحساب المثلثات، والجبر، والفلك، والطب، وغيرها من العلوم». وأضاف قائلًا: «... ينبغي عليَّ أن أنعى على الطريقة الرتيبة التي تحايل بها الأدب الأوروبي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا؛ أما هذه المآثر فإنها – على اليقين – لن تظل بعد اليوم مخفية عن الأنظار؛ لأن الجور المبني على الحقد الديني والاستعلاء العرقي لا يمكن أن يستمر إلى الأبد...».

وعلى الرغم من ذلك كله فإنه كثيرًا ما تضيع أصوات المنصفين من الكتاب الغربيين – وهم قلة – وسط ضوضاء الكثرة الجاهلة أو الحاقدة منهم، ووسط تقصير المسلمين في حق تراثهم بعدم القيام بواجب إحيائه وتحقيقه بالقدر الكافي. وعلى ذلك فإن هذه القرون الطويلة التي كان فيها المسلمون هم حملة مشاعل المعرفة في جميع فروعها، يتم إسقاطها من حساب التاريخ في العالم الغربي عن جهل فاضح أو عمد واضح، أو عن كليهما.

وتكفي هنا الإشارة إلى أنه في القرن الحادي عشر الميلادي أفاق الغرب من جهالة العصور المظلمة؛ ليجد نفسه أمام حضارة إسلامية شامخة البناء فاندفع طلاب العلم والمعرفة الغربيون إلى ترجمة كل ما استطاعوا ترجمته من مؤلفات المسلمين، وإلى محاكاة كل ما أمكنهم محاكاته من فنونهم، وصناعاتهم، ونظمهم، وأدواتهم؛ مما أدى إلى قيام الصحوة التي يطلق عليها المؤرخون اسم **«النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر الميلادي»** أو **«النهضة الوسيطة»**.

وعلى الرغم من أن هذه **«النهضة الوسيطة»** كانت في أساسها، وفكرها، ومادتها العلمية مستمدة من الحضارة الإسلامية إلا أن أوروبا وقفت من الإسلام موقفًا معاديًا، لم يمكنها من قبوله دينًا، فضلًا عن قبوله نظامًا شاملًا للحياة؛ وذلك لأن سرعة انتشار الإسلام انتشارًا آمنًا، تلقائيًا، في مساحات واسعة من العالم، وبين كثير من الشعوب والأعراق التي كان بعضها قد اعتنق النصرانية دينًا قد أفزع الكنيسة

لدرجة أنها رفضت مجرد النظر في دعوة خاتم أنبياء الله ورسله سيدنا محمد ﷺ إلى دين الله القويم، أو حتى في دعواه أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، على الرغم من بقاء العديد من الإشارات إلى بعثته الشريفة في الكتب التي بين أيديهم – رغم تحريفها – وانطلاقًا من ذلك وقفت أوروبا من الدعوة الإسلامية موقف المعاداة والرفض والمقاومة والتشويه، ولا تزال على هذا الموقف الخاطئ حتى اليوم.

ولقد أفزع الغربيين أنه لم يكد ينقضي على وفاة رسول الله ﷺ سبعون سنة حتى كانت الدولة الإسلامية قد امتدت من المحيط الأطلسي غربًا حتى المحيط الهندي شرقًا، شاملة كثيرًا من الأراضي التي كانت تحت سيطرة الكنيسة وهيمنتها، وفي ذلك يروي **الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور** في كتابه «**المدنية الإسلامية**» نقلًا عن المؤرخ الإنجليزي **بيكر (Becker)** ما ترجمته: «إن أوروبا العصور الوسطى نظرت إلى انتشار الإسلام من وجهة النظر الكنسية الضيقة وكأن الكنيسة قد أفزعها وآلمها انتشار الإسلام في بلاد ترتبط بأول المسيحية ونشأتها – مثل الشام ومصر وشمال العراق – فراحت تدَّعي أن الإسلام لم يأخذ سبيله إلى هذه البلاد إلا بحد السيف» ولكن (بيكر) نفسه يؤكد «... أن هذه النظرة – التي ما زال بعض المتعلمين في أوروبا حتى اليوم يعتقدون في صحتها – هي بعيدة عن الواقع؛ لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب قد تسامحوا مع أهالي البلاد المفتوحة، ولم يفرضوا عليهم ديانة معينة، وإنما فرضوا فقط سيطرتهم السياسية؛ فسيطرة العرب السياسية هي التي انتشرت بقوة السلاح، أما الديانة الإسلامية نفسها.. فقد وجدت سبيلها إلى قلوب الغالبية العظمى من أهالي البلاد المفتوحة، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق المعاصرة من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود على حدٍّ سواء، وهو تسامح لم يحظوا به في ظل حكَّامهم السابقين».

وكانت نهضة أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي (**أو النهضة الوسيطة**) هي الشعلة التي أضاءت الطريق أمام النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر الميلادي حين زاد الاتصال الحضاري بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الإسلامية في كل من إسبانيا وصقلية، وعبر الحروب الصليبية، وفوق ذلك كله عبر حركة الترجمة للمؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية – وقد كانت لغة العلم عندهم آنذاك – وفي ذلك يقول **جوستاف جروينباوم** في كتابه «**حضارة الإسلام**» ما ترجمته: «إن الغرب

الأوروبي لم يكتفِ في كثير من الحالات بالوقوف على المادة اليونانية التي قدمها له المسلمون في ترجمتها العربية، بل كان الغرب أكثر تلهفًا على الشروح التي وضعها العلماء المسلمون لتلك المادة؛ فمنذ القرن الثالث عشر – مثلًا – حرصت جامعة باريس على الربط بين فلسفة أرسطو وشروح ابن رشد لهذه الفلسفة، وكان ينظر لكبار علماء المسلمين بعين الرهبة، وكانوا ربما قد أوتوا ثقة لا سبيل إلى تحديها».

وكانت أهم مراكز الترجمة من العربية إلى اللاتينية في كل من الأندلس وصقلية، وكان من الغربيين الذين قصدوا إسبانيا في القرن الثاني عشر للنهل من مصادر الحضارة الإسلامية: كل من **«أديلارد» (Adelard)** الإنجليزي، **وهيرمان (Herman)** الألماني، **وجيرارد** الإيطالي **(Gerard of Cremona)** ، وكلٌّ منهم كان قد تعلَّم العربية، وقام بدور في ترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية. ويذكر أن جيرارد وحده ترجم أكثر من سبعين مؤلفًا عربيًّا. هذا بالإضافة إلى المستعربين من أهل إسبانيا من المسيحيين واليهود الذين قاموا أيضًا بترجمة كثير من المؤلفات العربية من أمثال **«دومنيكوس جنديسلافي» (Dominicus Gondislavi)** و**«بطرس ألفونسي» (Petrus Alphonsi)** و**«حنَّا الأشبيلي» (John of Seville)** و**«إبراهام ابن عزرا» (Abraham Ben Ezra)** و**«روبرت الشستري» (Robert of Chester)** الذي قام بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية لأول مرة في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي، و**«ريموند» (Raymond)** رئيس أساقفة طليطلة الذي أنشأ مكتبًا كبيرًا للترجمة في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي قام بترجمة كثير من أمهات المراجع العربية إلى اللغة اللاتينية، وكان من أعلام الترجمة من العربية في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي **«ألفريد» (Alfered)** الإنجليزي، و**«مايكل سكوت» (Michael Scott)** الأسكتلندي.

أما جزيرة صقلية فقد سعدت بحكم إسلامي دام قرابة القرنين من الزمان (من 290 – 484 هـ الموافق 903 – 1091 م تقريبًا)، ثم احتفظت بثقافتها العربية الإسلامية، وبنسبة كبيرة من المسلمين بعد سيطرة النورمان عليها، فكان لها – بحكم ذلك، وبحكم توسطها بين أوروبا النصرانية وشمال إفريقيا المسلم – دور رائد في حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وكان من أشهر الذين قاموا بذلك **«إيوجينيوس البالرمي» (Eugenius of Palermo)** وفرج بن سالم اليهودي الصقلي.

وكان هذا التسامح العظيم من جانب الحضارة الإسلامية في السماح بنقل تراثها إلى اللغات الأجنبية منطلقًا من إيمان المسلمين بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء وبحقيقة الأخوة الإنسانية، وبضرورة نشر المعرفة بين الناس.. كل الناس.. على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم ولهجاتهم، ومعتقداتهم، وقد أتاح ذلك للأوروبيين فرص ارتشاف المعرفة الإسلامية، وترجمة تراثها إلى اللاتينية وإلى غيرها من اللغات الأوروبية؛ ولكن كل ذلك قوبل بنكران للجميل لم تعرف له البشرية مثيلًا.. فبعد نقل التراث العربي إلى اللغة اللاتينية، وبعد استيعابه، وهضمه، واستخدامه كأساس للنهضة المعاصرة تم تدميره في جريمة بشعة، وقعت بمدينة غرناطة الأندلسية سنة 905 هـ/1499 م. ويصف **الأستاذ محمد عبد الله عنان** تلك الجريمة في كتابه (**مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام**، الطبعة الرابعة صفحة 326–329) بما نصه: «... لم تمضِ أعوام قلائل على سقوط غرناطة (1492 م) حتى ارتكبت إسبانيا النصرانية جريمتها الشائنة بتدمير تراث التفكير الإسلامي. ففي سنة 1499 م أمر الكاردينال خمنيس، مطران طليطلة، بجمع جميع الكتب والآثار العربية من سكان غرناطة وأرباضها، وتنظيمها أكداسًا في ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف، وآلاف مؤلفة من كتب الآداب والعلوم، واحتفل بإحراقها في عمل وصف خطأ بأنه من أعمال الإيمان، ولم يستثنِ منها إلا ثلاثمائة من كتب الطب وهبت لجامعة الكالا (القلعة). وهلك في تلك المحنة معظم تراث الأندلس الفكري. وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة، فقدّرها بعضهم بأكثر من مليون، ولكن كوندي قدّرها بثمانين ألفًا، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول؛ لأن محتويات المكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة لم تزد – طبقًا لأصح الروايات – على ستمائة ألف مجلد، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر. ولم يجتمع في غرناطة مجموعة بهذه الضخامة، ولكنها كانت – وهي عاصمة الإسلام في الأندلس – تحتوي أنفس الآثار العربية الأندلسية».

ويمضي **الأستاذ محمد عبد الله عنان** بالقول: «بأن المجموعة العربية في الأسكوريال – قريبًا من مدريد – بلغت في أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد، ولبثت هذه الآلاف من المخطوطات الأندلسية والمغربية في قصر الأسكوريال زهاء

نصف قرن، وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها في إسبانيا، ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكري. ففي سنة 1083 هـ/1671 م شبَّت النار في الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ولم ينقذ منه أكثر من ألفين هي التي توجد اليوم في أقبية الأسكوريال».

ثم تعرَّض التراث الإسلامي لمحن أخرى كثيرة **على أيدي الغزاة من التتار والصليبيين**، وبأيدي كثير من اللصوص، وبأيدينا نحن في كثير من فترات الانحلال التي عاشتها أمتنا، وفي ذلك يذكر **الأستاذ جلال كشك** في كتابه **(طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية** صفحة 6–8) ما نصه: «إن تاريخنا قد دُمِّر على يد الغزاة، وبفعل عناصر التخلف والانهيار.. إن ذلك التراث الذي ألقاه التتار في دجلة لاشك أن مداده الأسود قد حمل معه إلى الخليج جانبًا من المعرفة وجانبًا من تراثنا ضاع وإلى الأبد.. وتلك المكتبات التي أحرقها الغزو الصليبي لمدن الشام في طرابلس، والمعرة، والقدس، وغزة، وعسقلان، حتى قدّر بعض المؤرخين أن الصليبيين قد أحرقوا في مدينة طرابلس وحدها ثلاثة ملايين مجلد.. لا شك أن نسبة خطيرة منها تضمنت حقائق من تراثنا؛ مما يمكننا القول بأنه قد ضاع وإلى الأبد. وفي الأندلس أحرق في يوم واحد في ميدان غرناطة ما يقدره بعض المؤرخين بمليون كتاب...».

ويمضي **الأستاذ جلال كشك** إلى القول: «... ثم كانت المرحلة الثانية: مرحلة نهب التراث الإسلامي ونقله إلى مكتبات أوروبا. إن النسخة الأصلية للعديد من كتب تراثنا الإسلامي توجد الآن في مكتبات الفاتيكان، وفي الأديرة والمتاحف والمكتبات العامة في أوروبا وأمريكا.. وفي ليل الانهيار والتخلف انقطعت الصلة بين الأسلاف العظام والحفدة العجزة؛ فجهل هؤلاء قيمة ما تركه أسلافهم ونظروا إلى مخطوطات ابن سينا وابن رشد ككتب للسحر والهرطقة، أو أنهم عجزوا عن الانتفاع بها، فتركت نهبًا مشاعًا لرسل الغرب.. وليس إلا أخيرًا وعندما استقر الأمر للحضارة الغربية وتأكد انتصارها على العالم الإسلامي، عندئذ بدأ المستشرقون يعيدون نشر كتب تراثنا ويقومون بتحقيقها، وأصبحنا نتعرف تاريخ أسلافنا من كتابات هؤلاء المستشرقين، على تعصبهم وعجزهم عن فهم روح حضارتنا».

بعد هذه المقدمة المحزنة أرى لزامًا عَليَّ أن أستعرض عددًا من إسهامات العلماء المسلمين الأوائل في مجال العلوم البحتة والتطبيقية في عجالة قد لا تعطيها حقها.

من إسهامات المسلمين الأوائل في مجال العلوم البحتة والتطبيقية

انطلاقًا من الإيمان بوحدة الجنس البشري، وبحقيقة الأخوة الإنسانية، وبوحدة التراث الإنساني، وبضرورة المحافظة عليه وإثرائه باستمرار، قام العلماء – في ظل الحضارة الإسلامية – بجمع هذا التراث من مختلف مصادره ولغاته، ثم قاموا بغربلته بمعايير الإسلام، فقبلوا ما توافق منه مع تعاليم رب العالمين، وتركوا كل ما خالف ذلك، ثم اجتهدوا في إثراء ما جمعوه بعدد من الإضافات الأصيلة التي استمرت في إضاءة مشاعل المعرفة على مدى أحد عشر قرنًا أو يزيد، لتمثل معين الحضارة العلمية والتقنية المعاصرة، وتتميز عنها في الجمع بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، تجمع إلى جسد الإنسان كلًا من نفسه وعقله وفهمه لحقيقة رسالته في هذه الحياة الدنيا ولمصيره من بعدها. وذلك لأن الحضارة المعاصرة – على الرغم من تقدمها العلمي والتقني المذهل – قد انحطت بالإنسان من مقامات التكريم التي رفعه إليها رب العالمين إلى ما دون الحيوان، وحبسته في حدود المادة والطاقة فقط، وفي حدود متطلبات العيش على هذه الأرض، وأغرته بالتسابق في الهيمنة على مقدرات الحياة المادية فيها بالقوة الغاشمة وبالباطل المدعوم بتلك القوة الغاشمة، وأنسته حقيقة رسالته في هذه الحياة الدنيا ومصيره من بعدها، وجعلته عامل تهديد وتدمير للإنسانية كلها على سطح كوكبنا الأرض!! وفي ظل هذا الانحطاط البشري تنكر الغرب للدور الرائد الذي لعبته الحضارة الإسلامية في تشكيل النهضة العلمية والتقنية المعاصرة والذي يمكن إعطاء لمحة موجزة عنه في العجالة التالية:

أولًا: في مجال العلوم الرياضية (الرياضيات): أضاف المسلمون الأوائل إلى الرياضيات إضافات أصيلة عديدة من أبرزها ما يلي:

(1) في مجال علم الحساب:

اهتم المسلمون بعلم الحساب من أجل تنفيذ حسابات كل من الزكاة، وتقسيم الإرث، والخراج، والجزية وغيرها مما نص عليه القرآن الكريم وفصلته السنة النبوية المطهرة، وانطلاقًا من ذلك ابتدع المسلمون الأوائل **نظام الترقيم العشري** والذي يسَّر جميع عمليات الحساب، كذلك أخذوا **الصفر** عما كان يعرف في الحضارة

الهندية القديمة باسم (سونيا) أو الفراغ. وكان لاستحداث الصفر مزايا عديدة في حل المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات، وفي علم الحساب بمختلف أشكاله من الجمع والطرح، والضرب والقسمة، وفي عمليات استخراج الجذور (التجذير) بطرق عديدة، وفي عمليات النسبة والتناسب، واستخراج المجهول الرياضي. كذلك عرف المسلمون في القرن الهجري الأول كلًّا من **المتواليات الحسابية والهندسية،** ووضعوا القوانين اللازمة لها واختاروا لحلها «**الأرقام العربية**» التي لا تزال مستعملة في دول الشمال الإفريقي، وانتقلت منها إلى بلاد الأندلس ثم إلى أوروبا وبقية دول العالم. وهذه الأرقام مرتبة على أسس من عدد الزوايا في كل رقم، كما اختاروا **الأرقام المستخدمة في المشرق العربي،** وابتكروا **علامة الكسر العشري،** وحسبوا **النسبة بين قطر الدائرة ومحيطها (ط)** إلى الكسر العشري السادس عشر. وكان من أبرز علماء الرياضيات المسلمين كل من **جمشيد الكاشي** صاحب نظرية ذات الحدين في الرياضيات التي تنسب اليوم خطأ إلى إسحاق نيوتن، **وأبي الحسن علي بن أحمد النسوي** الذي عاش في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي وله مؤلفات عدة شرح فيها الكسور المركبة وغير المركبة، وطرق استخراج الجذور.

(2) في مجال علمي الجبر والخوارزميات (اللوغاريتمات):

من الثابت أن العالم المسلم «**الخوارزمي**» (ت 850 م) هو الذي وضع **أسس كل من علمي الجبر وحساب اللوغاريتمات** الذي سمي باسمه «الخوارزميات» (Algorithm) وبقي كتابه المعنون «**كتاب الجبر والمقابلة**» مرجعًا أساسيًّا في علم الجبر إلى اليوم. كذلك كان المسلمون هم أول من **قام بحل المعادلات الرياضية من الدرجات الثانية والثالثة والرابعة، ذات المجهول الواحد، وذات المجهولين،** واكتشفوا العديد من الطرق الهندسية لحلها، وعرفوا الحالة التي يكون فيها الجذر كمية تخيلية، وكانوا أول من استخدم الجبر في حل المسائل الهندسية، ووضعوا **أسس الهندسة التحليلية، ومهدوا الطريق لعلم التفاضل والتكامل،** وبحثوا في **نظرية ذات الحدين،** وتعاملوا مع **الجذور الصماء،** وعرفوا كلًّا من **المتواليات العددية والهندسية** لأول مرة. وكان من أبرز علماء المسلمين الأوائل في مجال علمي الجبر واللوغاريتمات كل من «**(الخوارزمي)**»، «**(سنان بن أبي الفتح)**»، «**(ابن البناء)**»، «**(القلصادي)**»، «**(بهاء الدين العاملي)**»، «**(قسطا بن لوقا)**»، «**(ابن يونس)**»، «**(ابن حمزة)**»، و«**البتاني**» (ت 929 م) والذي

أدخل النسبة في **علم المثلثات**، وتبعه في ذلك **أبو الوفا (ت 997 م)** الذي اكتشف **معادلة جمع زوايا المثلث، وقدر قيمة الخط الذي يقطع القوس، وثابت بن قرة الذي كان له السبق في وضع أسس علم التفاضل والتكامل، والكرخي الذي ابتكر مثلث معاملات نظرية ذات الحدين.**

(3) في مجال العلوم الهندسية:

برع المسلمون في علوم الهندسة النظرية وفي تطبيقاتها العملية، وأضافوا إليها إضافات أصيلة، ووضعوا العديد من المؤلفات في **طرائق حساب كل من المساحات، والحجوم، والأوزان، وفي حل العديد من المسائل الهندسية بالتحليل الرياضي، والمسائل الحسابية بالتحليل الهندسي**، كما برعوا في **التقدير العددي**، وفي ربط ذلك كله **بالمعادلات الجبرية. وقسموا العلوم الهندسية إلى عقلية وحسية**، وقالوا بأن النظر في الهندسة الحسية يؤدي إلى الحذق في الصنائع العملية (أي في العلوم التطبيقية أو التقنيات المختلفة) وخاصة في **العمليات المساحية**، وفي **إنشاء طواحين الماء والهواء**، وأن النظر في الهندسة العقلية يؤدي إلى الحذق في الصنائع العلمية (أي في العلوم البحتة). وقد استعملوا **الهندسة بنوعيها المستوية والمجسمة** في العديد من البحوث والتقنيات كما فعل كل من **الخازني (ت 550 هـ/1155 م)** في بحوث **علم الحيل (الميكانيكا) وعلم حركات الماء (الهيدروستاتيكا)، والهواء (ديناميكية الهواء)، وابن الهيثم** (ت 431 هـ/1039 م) **في بحوث البصريات.** ويجمع المنصفون من أهل العلم على أن أوروبا لم تعرف العلوم الهندسية إلا عن طريق الحضارة الإسلامية. وبرز من علماء المسلمين الأوائل في العلوم الهندسية كثيرون كان منهم كل من **«ابن الهيثم»، «البغدادي»، «البيروني»، «الخازني»، «التبريزي»، «جابر بن الأفلح»، «الإسفزاري»**. **وقد برز ابن الهيثم في علم البصريات وقام باختراع آلة التصوير مما جعله مؤسس علم الفيزياء بمعناه الحديث، وقاس البيروني** (ت 1051 م) **الثقل النوعي، وقاس الخازني الكثافة النوعية للعديد من المعادن.** كذلك طور العلماء والفنيون المسلمون **نظم الري وأجهزته**، وحسنوا **صناعة الورق، وتكرير السكر، واخترعوا مادة البارود وغيره من المواد الكيميائية، كما سبق عمر الخيام بوضع اللبنات الأولية لعلم الهندسة التحليلية، وسبق ابن سينا بوضع القانون الأول والثاني للحركة، والذي وضع قانونها الثالث هبة الله بن ملكا البغدادي (ت 619 هـ).**

(4) في مجال علم حساب المثلثات:

يرجع إلى المسلمين الفضل في **فصل حساب المثلثات عن علم الفلك**، والتعامل معه كفرع مستقل من أفرع الرياضيات، وبذلك تم لهم الكشف عن العلاقات المتعددة في حساب المثلثات، وفي معرفة القواعد الأساسية لعمل كل من الجداول الرياضية والمثلثات الكروية وتطبيقاتها العملية، وكان من أبرز علماء المسلمين في هذا المجال كلٌّ من «**البيروني**»، «**الخازني**»، «**التبريزي**» و«**جابر بن الأفلح**».

ثانيًا: في مجال علوم الفلك:

بدأ المسلمون في رصد الكواكب والنجوم في القرن الهجري الأول، وتابعوا حركات عدد من الأجرام السماوية وعرفوا العديد من الظواهر المصاحبة لحركاتها مثل **ظاهرتي كسوف الشمس وخسوف القمر، واحتراق الشهب، ونزول النيازك، وحركة المذنبات، وميل محور دوران الأرض على مدارها حول الشمس، وتبادل الفصول** على الأرض، **ووضع الأرض في الاعتدالين** وغيرها. وبنوا من أجل ذلك **المراصد**، وابتكروا العديد من **أجهزة الرصد الفلكي**، وألفوا **الجداول الفلكية** التي عرفت باسم **الأزياج (جمع الزيج)**، وتحدثوا عن **وحدة بناء الكون** الذي يتحرك بجميع مكوناته في دائرة من القوانين والنظم الثابتة التي وضعها خالقه – سبحانه وتعالى –.

وكان من أبرز الفلكيين المسلمين كل من: **البتاني، التجيبي، أبو الحسن الصوفي، أبو الوفاء، ابن يونس الصدفي المصري، كمال الدين بن يونس، ابن أبي الصلت، أبو القاسم المجريطي، أبو سهل الكوهي، البيروني، الأسفوني، المغربي، ابن الشاطر، ابن المجدي، أولج بك، سبط المارديني، الروداني، صلاح الدين قاضي زادة، الفزاري، الجوهري، سند بن علي، الفرغاني، المروزي، السرخسي، البلنسي، والتّبريزي، قسطا بن لوقا، ابن الآدمي، الحراني، المراكشي، البلخي، القبيصي، الجيلي، ابن الأعلم الشريف، البوزجاني، الغرناطي، ابن الصفار، ابن عراق، الزرقالي، جابر بن الأفلح، الخرقي، الأسطرلابي، البطروجي، ابن اللبودي، الكاشي، أبو معشر، وعمر الخيام**.

فكان الفزاري (ت 777 م) أول من طوّر **الأسطرلاب**، وكان للبتاني (ت 929 م) العديد من القياسات الفلكية الهامة وكان البيروني (ت 1051 م) **أول من اكتشف**



ميل محور دوران الأرض على مستوى مدارها حول الشمس (والذي ينسب زورًا إلى كوبرنيكوس). كذلك سبق عدد من علماء المسلمين من أمثال **كل من البيروني، الخازني، والهمداني، بتحديد العلاقة بين كتلة الجرم السماوي والمسافة التي تحكم وضعه في السماء، والسرعة التي يجرى بها.**

كذلك كان أبو الوفا البوزجاني (388 هـ/998 م) أول من طور **الآلات لحساب ميل الأجرام السماوية**، وكان أول من اكتشف **دالة ظل الزاوية (ظا)** وأدخل العديد من الوسائل الجديدة **لحساب المثلثات.**

أما ابن يونس المصري (أبو سعد عبد الرحمن بن يونس الصدفي المصري) المتوفى سنة 400 هـ/1009 م فقد **اخترع بندول الساعة**، واستخدمه لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد الفلكي، وأشرف على مرصد جبل المقطم، **وعمل جداول فلكية** تحمل اسم الحاكم بن عبد العزيز الفاطمي سماه باسم «الزيج الحاكمي». والذي ترجم إلى عدد من اللغات الأجنبية، وقد رصد كلًا من كسوف الشمس وخسوف القمر عام (978 م) في مدينة القاهرة، وأثبت منها **تزايد سرعة حركة القمر كلما اقترب من الأرض، وحسب ميل دائرة البروج.**

كذلك كان **ابن الهيثم** (ت 431 هـ/1040 م) الذي استخرج مقدار ارتفاع النجم القطبي، ونجح في تحديد خطوط عرض الأماكن المختلفة، ودرس أنوار كل من القمر وعدد من الكواكب، وأثبت أن نور القمر مصدره انعكاس ضوء الشمس على سطحه.

أما عمر الخيام (ت 1123 م) فكان **أول من اخترع طريقة حساب المثلثات والمعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة** ووضع تقويمًا دقيقًا لها، ونادى بتطبيق ذلك في الحسابات الفلكية، وصمم الزيج الجلالي بخطأ يوم واحد في كل خمسة آلاف سنة.

كذلك كان كل من **أبي عبد الله البتاني (ت 317 هـ/929 م) وغياث الدين بن مسعود ابن محمد الكاشي (ت 840 هـ/ 1436 م) أول من اكتشف أن مدارات القمر وعطارد بيضاوية (إهليلجية)، وكان الكاشي أول من اكتشف الكسر العشري، واهتم أبو معشر (ت 886 م) بظاهرة المد والجزر وعلاقتها بدورة القمر حول الأرض.**

ويرجع للفلكيين المسلمين الفضل في **إنشاء المراصد الفلكية** لأول مرة في تاريخ الإنسان، فعلى الرغم من محاولة دراسة الفلك في كل من الحضارة المصرية القديمة، والحضارة البابلية القديمة، والحضارة الإغريقية القديمة، وعلى الرغم من أن كل حضارة من هذه الحضارات القديمة قد اخترعت عددًا من أجهزة القياس الفلكية من مثل الأسطرلاب الذي صممه قدماء الإغريق، إلا أن المراصد الفلكية بأشكالها الخاصة والمميزة لم تعرف إلا منذ العصر العباسي الأول، وقد استخدمت فيها أجهزة عديدة من مثل **الأسطرلاب، ذات الربع، المحلق، الكرات الهندسية** وغيرها.

ثالثا: في مجال علوم الكيمياء والصيدلة:

كان للعلماء في عصر النهضة الإسلامية ولع شديد بعلوم الكيمياء والصيدلة، وأضافوا الكثير إلى أسس المعرفة في هذين المجالين، واخترعوا العديد من الأجهزة والأدوات اللازمة لإجراء البحوث فيهما، وذلك من مثل **أجهزة التقطير، التبخير، الترشيح، التكليس، التشميع، الصهر، التبلور**، كما قاموا بتركيب **الموازين النوعية**، وبتحضير العديد من المركبات الكيميائية من مثل **الأحماض، والقلويات، ووضعوا الجداول لتصنيفها**؛ مما شكل الأسس العلمية التي أدت إلى تطور علم الكيمياء بشكله المعاصر.

وتميزت الصيدلة في الحضارة الإسلامية بإدخال **العديد من النباتات الطبية ومستخلصاتها، واقتراح الكثير من الأدوية المفردة والمركبة** من كل من المستحضرات النباتية والحيوانية والمعدنية، ووصف العلاج المناسب بكل منها، وتحديد الأمراض التي يعالجها، ووضع النظم العلمية الدقيقة **لتصنيف كل من المعادن والنباتات والحيوانات.**

وكان من أبرز علماء المسلمين في هذين المجالين كلٌّ من: **الإمام جعفر الصادق، جابر بن حيان، أبو بكر الرازي، البيروني، ابن سينا، ابن البيطار، التميمي، السمرقندي، سابق بن سهل، ابن التلميذ، الإدريسي، الكندي، المجريطي، أبو منصور موفق، الطغرائي، أبو القاسم العراقي، الجلدكي، ابن ربن الطبري، الأهوازي، ابن الجزار، ابن باجة الغافقي، ابن ميمون، العطار، والأنطاكي.**

وقد أجرى جابر بن حيان (ت 815 م) تجارب على عدد من المواد العضوية النباتية والحيوانية، **وقام بتحضير كل من حمض الخل وحمض النيتريك لأول مرة في**

التاريخ، وقدم وصفًا كاملًا لحماية الحديد من الصدأ ولتصنيع الفولاذ، ولتصفية المعادن، ولدباغة الجلود، ولصباغة الأقمشة ولصنع الملابس الواقية من البلل بالسوائل، كما ميز أبو منصور موفق بين عدد من كربونات العناصر، وحضَّر أكسيد الكالسيوم (الجص) واستخدمه في تضميد كسور العظام.

رابعًا: في مجال علوم الأحياء النباتية والحيوانية:

اهتم المسلمون بعلوم الأحياء النباتية والحيوانية، منذ مطلع عصر النهضة الإسلامية وذلك لوثوق الصلة بينها وبين كل من علوم الصيدلة وتطبيقاتها في العلاج الطبي، وولع العديد من العلماء المسلمين برسم النباتات والحيوانات في بيئاتها المختلفة، واهتموا بدراسة كل من الشكل الخارجي والتشريح الداخلي والسلوك لكل كائن حي درسوه.

وكان من أبرز **علماء النبات المسلمين كل من ابن الصوري، أبو حنيفة الدينوري، الرازي، ابن سينا، ابن جلجل، ابن واقد، الإدريسي، ابن البيطار، الغافقي، البغدادي، ابن الرومية، أبو زكريا بن العوام، والقزويني**. وكان من أبرز الذين تخصصوا في دراسة **علم الحيوان** كلٍّ من **الجاحظ** (الذي وضع موسوعة علمية/أدبية باسم كتاب «**الحيوان**»، حدد فيه أسس التشريح المقارن)، **والدميري** (الذي جمع تحت عنوان «**حياة الحيوان الكبرى**» واحدة من أوائل الموسوعات في علم الحيوان)، بالإضافة إلى كل من **ابن مسكويه، القزويني، ابن سينا، الأصمعي، ابن البيطار، المجريطي، ابن شميل، البصري، السجستاني، الدينوري، التميمي، الأندلسي، البغدادي، الكرماني، حمد الله القزويني، الكلابي، ابن بشر، أبو علي الكرماني، الباهلي، الكوفي، ابن السكيت، الشيباني، الأزدي، ابن الأشعث، ابن خالويه، والمقريزي**.

وقد اهتم **الغافقي (ت 1165 م)** بجمع مجموعات من النباتات المنتشرة في كل من بلاد الأندلس، وشمالي إفريقيا مدونًا أسماءها بكل من العربية والبربرية (الأمازيغية) واللاتينية وضمنها كتابه المعنون باسم **(الأدوية المفردة)**، وتبعه في ذلك **ابن البيطار (ت 1248 م)** الذي كتب كتابي **(المغني في الأدوية المفردة)**، و**(الجامع في الأدوية المفردة)**.

خامسًا: في مجال علوم الأرض:

في ظل الحضارة الإسلامية اهتم العلماء **بعلوم الأرض. وجمعوا ثروة لغوية كبيرة لوصفها** بيابسها ومائها، وهوائها، ومختلف الظواهر المصاحبة لها. كما **درسوا الجواهر والأحجار الكريمة**، ووضعوا الضوابط العلمية اللازمة لدراستها والتمييز بينها، **والصفات الطبيعية المحددة لكل نوع من أنواعها من مثل اللون، ودرجة الشفافية، البريق، القدرة على تشتيت الضوء، الصلادة، الوزن النوعي، التشعر، درجة التبلور، الشكل البلوري، المخدش (أو الحكاكة)، القابلية للانصهار، الشوائب، والقابلية للانسحاق.**

وقد وضع البيروني مقياسًا للصلادة [ينسب اليوم زورًا إلى العالم الألماني فريدريك موهز (Friedrich Mohs)]، ووصف العديد من الفلزات والمعادن والصخور، وحدد الصفات المميزة لكل منها، وصمم الأجهزة العلمية اللازمة لتحقيق ذلك.

كما كان البيروني أول من اكتشف ميل محور دوران الأرض حول نفسها على مستوى دورانها حول الشمس (والذي ينسب اليوم زورًا إلى كوبر نيكوس).

كذلك استغل المسلمون **مناجم الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، والقصدير، والزئبق، وحجر الفتيلة (الأسبستوس)، والفحم الحجري، وطفوح النفط.** كما استغلوا العديد من الأملاح مثل ملح الطعام، والبورق(Borax)، وملح النشادر، واستخرجوا العديد من **الأحجار الكريمة وشبه الكريمة** من مثل الألماس، والياقوت، الزمرد، الزبرجد، اللؤلؤ، المرجان، العقيق، البجاذي، والفيروزج.

وقد وصف البيروني - (في كتابه المُعَنْوَن «الجماهر في معرفة الجواهر» والذي كتب في القرن الرابع الهجري) - سبعة وثلاثين معدنًا وحجرًا كريمًا وشبه كريم، وعددًا من الفلزات؛ كذلك **وصف التيفاشي (في كتابه المُعَنْوَن «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار»** الذي كتب في القرن السابع الهجري) قرابة الثلاثين من الجواهر والأحجار الكريمة وشبه الكريمة.

وقد عرَّف العلماء المسلمون **الصخور وطرائق تصنيفها، وطبقات الأرض وكيفيات ترسبها**، كما عرَّفوا **النيازك**، ووضعوا أول تقسيمات لها، وكان من أبرز من كتب في ذلك **جابر بن حيان** الذي عاش في القرن الهجري الثاني (الثامن الميلادي) ومن

بعده كلٌّ من **البيروني وابن سينا، والجاحظ، وإخوان الصفا.** [بينما ينسب الفضل في ذلك خطأً إلى كل من العالم الألماني ليهمان (J.G. Lehmann) الذي عاش في القرن الثامن عشر الميلادي، أي بعد عشرة قرون كاملة من جابر بن حيان، والعالم الإيطالي جيوفاني أردوينو (Giovanni Arduino)، والعالميْن الألمانيين فوخسل (G. C. Fuchsel) وڤيرنر (A .G. Werner) في أغلب المراجع العلمية المتداولة بين أيدي الناس اليوم].

كذلك كان المسلمون **أول من تحدثوا عن قدم الأرض مع الإيمان بخلقها،** وذلك عن منهجية علمية صحيحة، كما كتبوا في **شكل الأرض، وتضاريس سطحها، والعوامل الداخلية والخارجية المؤثرة فيها، وغلافها الجوي، والظواهر الجارية على سطحها ومن حولها** من مثل **الزلازل والبراكين، والعواصف والأعاصير، والصواعق، والرعد والبرق، والسحاب والمطر، والأنهار والبحار، والمد والجزر، والعيون والينابيع، وارتفاع الجبال من أواسط البحار والمحيطات** والحركات المسببة لارتفاعها، **وتبادل الأماكن بين اليابسة والماء** (وهي من أحدث الاستنتاجات في علوم الأرض)، **كما كتبوا عن الأحافير** (بقايا الحياة في طبقات الأرض)، وتدرج عمارة الأرض بصور **الحياة المتعاقبة،** وكتبوا عن احتراق الشهب وسقوط النيازك ودورات مرور المذنبات وغيرها..

وقد اخترع علماء المسلمين العديد من الأجهزة اللازمة لدراسات علوم الأرض، ومن أهمها **البوصلة.** وكان من أبرز علماء المسلمين الأوائل في مجال علوم الأرض كل من **الكندي، الرازي، الدينوري، جابر بن حيان، البيروني، ابن سينا، الكرخي، إخوان الصفا، البكري، التيفاشي، اليعقوبي، الإصطخري، ابن حوقل، ابن خرداذبة، المقدسي، الهمداني، الأصفهاني، ابن الإصبع، الحاسب، ابن مسكويه، القبجكي، الطوسي، الخازن، ابن الجزار، المسعودي، الخزرجي، الجرجاني، الدمشقي، القزويني، الطغرائي، العراقي، ابن العوام المصري، عبد الرحمن المصري، السويدي، الكاملي، الكاشاني، الجلدكي، ابن الأكفاني، التلمساني المقري، عمر العالم، البلخي، والجاحظ.**

كذلك قام المسلمون بتصحيح العديد من أخطاء الجغرافيين الإغريق، وذلك عبر رحلاتهم التي جابوا بها العديد من أقطار الأرض، وبواسطة العديد من المؤلفات والخرائط التي وضعوها من مثل كتاب **(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي**

(ت 1000 م)، وكتاب (**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**) **للإدريسي** (ت 1166 م) **الذي تحدث عن كروية الأرض بوضوح تام.**

سادسًا: في مجال علوم البحار:

نالت علوم البحار اهتمام نفر غير قليل من علماء المسلمين في عصر النهضة الإسلامية، وذلك من أمثال **الكندي، الخوارزمي، ابن خرداذبة، ابن الطيب، المسعودي، والبيروني، وابن سينا، والإدريسي. ووصفوا التيارات البحرية** في المحيط الهندي خاصة في أجزائه الشمالية المعروفة باسم «بحر العرب» وعلاقتها بالرياح الموسمية.

كما **قاموا بتطوير آلات رصد النجوم من أجل الاهتداء بها في ظلمات البحر، وذلك من مثل «الأسطرلاب» والبوصلة البحرية** المعروفة باسم (بيت الإبرة)، ووضعوا الجداول اللازمة للسير في البحر من مثل جداول كل من **إبراهيم الفزاري، وابن يونس المصري، والزرقاني، والبيروني**... وقد اشتهر من الملاحين العرب كلٌ من **سليمان التاجر وسلمان المهدي وابن ماجد** الذي يعتبر مخترع الإبرة المغناطيسية.

سابعًا: في مجال العلوم الطبية:

شغل كلٌ من الطب والعلوم الطبية الاهتمام الأكبر للعلماء في عصر النهضة الإسلامية، **فأنشأوا المستشفيات** (البيمارستانات) ووضعوا لها شروطها، وأقاموا **المحاجر الصحية، وعرفوا العديد من الأمراض المُعْدِيَة وغير المعدية ومسبباتها، ووصفوا العلاجات الملائمة لكل منها.** وكان من أبرز إضافاتهم **وصف الدورة الدموية الصغرى (الرئوية) والتي اكتشفها ابن النفيس،** [وتنسب اليوم خطأً إلى الطبيب الإسباني «ميخائيل سرڤيتس» (Michael Servetus) أو إلى البريطاني «وليام هارڤي» (William Harvey). كذلك يعتبر ابن النفيس **واضع أسس علم التشريح المقارن، وكان الزهراوي** (ت 1013 م) **أستاذ الجراحة في زمانه بلا منازع،** وظل كتابه المعنون باسم (**التصريف لمن عجز عن التأليف**) مرجعًا في علم الجراحة طيلة القرون الوسطى، **وابتكر محمد بن زكريا الرازي** (ت 925 م) **خيوط الجروح المسماة بالقصاب،** وكان أول من **صنع المراهم من الزئبق،** وأول من كتب **في طب الأطفال، وميز بين مرضى الجدري والحصبة،** وألف العديد من الكتب التي كان من أبرزها **كتاب (الحاوي) الذي يعتبر** موسوعة طبية فريدة في نوعها **وكذلك كتابه المعنون (الحصبة والجدري).**

وفي طب العيون برز كل من **علي بن عيسى وعمار الموصلي**، وكلاهما عاش في القرن الحادي عشر الميلادي. وإلى الأطباء المسلمين يعود الفضل في **اختراع العديد من الأدوات الجراحية، ونظام الفحص الكامل للمريض، ووصف العديد من الحالات المَرَضِيَّة**، وإنشاء المستشفيات وحسن إدارتها كما أنهم صححوا كثيرًا من أخطاء السابقين، وتعاملوا مع العلاج **بالتحليل النفسي**، ووضعوا الأسس اللازمة لعلم التشريح.

وكان من الأطباء البارزين في الحضارة الإسلامية من يعدون بالآلاف، نختار من بينهم: **الرازي، الزهراوي، ابن سينا، ابن النفيس، ابن البيطار، زينب (طبيبة بني أود)، آل بختيشوع، ابن البطريق، ابن ماسويه، قسطا بن لوقا البعلبكي، حنين بن إسحاق وابنه، عيسى بن يحيى، وثابت بن قرة الحراني، بنو زهر، عبد اللطيف البغدادي، هبة الله البغدادي، والأهوازي**.

الخلاصة: نخلص من هذا العرض السريع للدور الرائد الذي قامت به الحضارة الإسلامية في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية إلى أن من قواعد الإسلام العظيم **الإيمان بإله واحد**، لا يشبهه أحد من خلقه، ولا ينازعه أحد في سلطانه، ولا يشاركه أحد في ملكه، وهو منزه عن الصاحبة والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله. وهذا الإله العظيم تَعَبَّد خلقه بدين واحد هو **الإسلام** الذي ألهمه جميع مخلوقاته، وعلمه أبانا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، ثم أنزله على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأتمه وحفظه في القرآن الكريم وفي سنن خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين –. وانطلاقًا من هذا الدين العظيم **يؤمن المسلمون بوحدة رسالة السماء وبالأخوة بين الأنبياء وبين الناس جميعًا**.

وانطلاقًا من ذلك كله **يؤمن المسلمون بوحدة التراث الإنساني**، وبضرورة المحافظة عليه وإثرائه باستمرار، ولذلك فإنهم في عصر نهضتهم انطلقوا لجمعه من جميع مصادره، ومن مختلف لغاته وأماكنه، وغربلوا ذلك بمعيار الإسلام فما وافقه حفظوه واجتهدوا في إثرائه، وما خالفه نبذوه وراء ظهورهم وتركوه. ولإعطاء النموذج الحي على ذلك السلوك الإنساني النبيل **يمكن إيجاز أبرز إضافات الحضارة الإسلامية في مجالات العلوم البحتة والتطبيقية** في النقاط الأساسية التالية:

1 – **وضع أسس المنهج العلمي** بأيدي كوكبة من العلماء المسلمين أمثال جابر ابن حيان، البيروني، ابن سينا، وابن الهيثم، وغيرهم ابتداءً من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي). والمنهج العلمي ينسب اليوم زورًا إلى روجر بيكون (Roger Bacon: 1214-1294) الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي أو إلى سميه فرانسيس بيكون (Francis Bacon 1561-1626) الذي عاش بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

2 – **تبني نظام الترقيم الهندي**، واختيار أفضل سلسلتين فيه، وهما «**الأرقام الهندية**» المستخدمة في دول المشرق العربي اليوم، و«الأرقام الغبارية» المستخدمة في دول المغرب العربي والتي انتقلت منها إلى بلاد الأندلس ثم إلى بقية الدول الغربية التي تسميها باسم «**الأرقام العربية**».

3 – **أخذ «الصفر»** كأحد الأرقام الحسابية تعويضًا عما كان يعرف في الحضارة الهندية القديمة باسم الفراغ أو «سونيا» وقد ثبت لذلك من الفوائد العديدة ما أمكن تطبيقه في كلٍ من عالم الحساب، واستخراج الجذور، وعمليات النسبة والتناسب، وفي حل المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات، وفي استخراج المجاهيل الرياضية.

4 – **ابتداع طريقة الإحصاء العشري**، وتعريف الكسر العشري، وابتكار وضع علامة الفاصلة للكسر العشري.

5 – سبق العالم المسلم **جمشيد الكاشي** (ت **840** هـ/**1436** م) بوضع **نظرية ذات الحدين في الرياضيات**، والتي تنسب اليوم خطأً إلى إسحاق نيوتن (Isac Newton: 1622-1727).

6 – سبق العالم المسلم **أبو الحسن علي بن محمد القرشي المعروف بالقلصادي (ت 891 هـ/1486 م)** في **كشف الرموز الجبرية** والتي تنسب زورًا إلى العالم الفرنسي «ڤيت».

7 – سبق العالم المسلم **ثابت بن قرة (ت 288 هـ/901 م)** بوضع **أسس علم التفاضل والتكامل** والذي ينسب زورًا إلى إسحاق نيوتن (Isac Newton: 1622-1727).

8 – سبق العالم المسلم **الخوارزمي (ت 226 هـ/840 م) بوضع قواعد عِلْمَي الجبر واللوغاريتمات** (الخوارزميات) واللذين ينسبان خطأً إلى نابير (Napier, J. 1550-1617).

9 – سبق العالم المسلم **أبو محمد بن الحاسب الكرخي (ت 421 هـ/1020 م)** بابتكار مثلث معاملات نظرية ذات الحدين والذي ينسب زورًا إلى العالم الفرنسي باسكال (Pascal, B., 1632-1662).

10 – سبق العالم المسلم **عمر الخيام (440–525 هـ/1048–1131 م)** بوضع اللبنات الأولية لعلم الهندسة التحليلية الذي ينسب خطأً إلى العالم الفرنسي ديكارت (Descartes, Réné, 1596 - 1650).

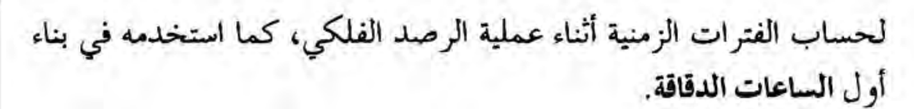
11 – سبق العالم المسلم ابن سينا (371–428 هـ/980–1036 م) بوضع القانونين الأول والثاني للحركة اللذين ينسبان اليوم زورًا إلى إسحاق نيوتن.

12 – سبق العالم المسلم عبد اللطيف البغدادي (577–619 هـ) باكتشاف القانون الثالث للحركة الذي ينسب اليوم ظلمًا إلى إسحاق نيوتن، كما قام بتصحيح أخطاء جالينوس في وصف الفك الأسفل للإنسان وأكَّد كشفه بدراسة أكثر من ألفي جمجمة.

13 – سبق عدد من العلماء المسلمين من أمثال **الخازني** و**البيروني** والهمداني بتحديد العلاقة بين كل من الكتلة (الثقل) للكوكب والمسافة التي تحكم وضعه في السماء والسرعة التي يجري بها وهي **ركائز قانون الجاذبية** الذي ينسب زورًا إلى إسحاق نيوتن.

14 – سبق الفلكيين المسلمين من أمثال **البتاني** (240–317 هـ/854–929 م)، **والكاشي** (ت 840 هـ/1436 م) بوصف مسارات الكواكب في مدارات إهليلجية وليست دائرية وينسب ذلك زورًا إلى الفلكي الألماني كبلر (Kepler Johannes: 1571–1630) الذي عاش بين القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وسبق المسلمون كذلك بكشف العديد من الحقائق الفلكية التي تنسب زورًا إلى الفلكي البولندي كوبرنيكوس (Copernicus: 1473-1543) وإلى غيره من الفلكيين الغربيين.

15 – سبق العالم المسلم **ابن يونس المصري** (ت 399 هـ/1009 م) **بتصميم البندول** فهو المخترع الحقيقي له وليس جاليليو جاليلي (Galileo Galilei: 1546-1642) الذي ينسب ذلك الاختراع زورًا إليه. وقد استخدم ابن يونس البندول



لحساب الفترات الزمنية أثناء عملية الرصد الفلكي، كما استخدمه في بناء أول **الساعات الدقاقة**.

16 – سبق العالم المسلم أبو الفتح عبد الرحمن المنصور **الخازني** (المعروف باسم **الخازن**) الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري (ت 550 هـ) **بوضع القواعد الأساسية لعلم الحيل (الميكانيكا وحركات الماء أو الهيدروستاتيكا)** والتي تنسب زورًا إلى العالم الإيطالي توريشيللي (Torricelli 1608-1647) وقد سبق الخازني كلًّا من توريشيللي وباسكال وبويل بالإشارة إلى أن للهواء وزنًا وقوة رافعة كالسوائل وأن وزن الجسم المغمور في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي، وأن مقدار ما ينقص من هذا الوزن الحقيقي يتوقف على كثافة الهواء، وهذه الحقائق هي التي **مهدت لاختراع كلٍّ من البارومتر، ومفرغات الهواء، والمضخات**، وغيرها من الأجهزة المعتمدة على ضغط الهواء.

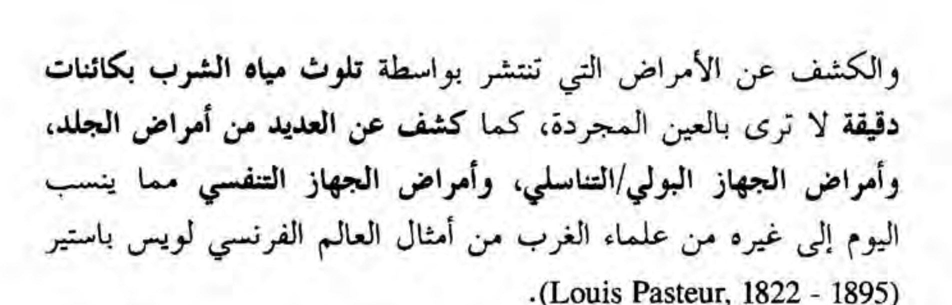
17 – سبق العالم المسلم **ابن النفيس** (607 – 696 هـ) **بوصف الدورة الدموية الصغرى (الدورة الدموية الرئوية)** والتي ينسب اكتشافها زورًا إلى الطبيب الإسباني ميخائيل سرفيتس (Michael Servetus) أو إلى الطبيب البريطاني وليم هارفي (William Harvey 1578–1657).

18 – سبق العالم المسلم أبو عثمان **الجاحظ** (150–255 هـ) في **وضع أسس علم التشريح المقارن** كما كان الطبيب المسلم العملاق **الزهراوي** (936–1013 م الموافق 404/324 هـ) أستاذ الجراحة في زمانه بلا منازع.

19 – سبق العالم المسلم أبو بكر محمد بن زكريا **الرازي** (240–320 هـ/ 854–932 م) في **ابتكار خيوط ضم الجروح المسماة بالقصاب**، كما كان أول من صنع **المراهم من الزئبق**، وأول من كتب في **طب الأطفال**.

20 – سبق العالم المسلم علي بن العباس **المجوسي** بوضع الأسس اللازمة لعلم التشريح.

21 – سبق العالم المسلم **ابن سينا** (361–428 هـ/980–1036 م) **بوصف العضلات الداخلية للعين**، وبالتفرقة بين العديد من الأمراض من مثل **اليرقان** الناشئ عن انحلال كريات الدم الحمراء، والناشئ عن انسداد قنوات الغدد الصفراوية،



والكشف عن الأمراض التي تنتشر بواسطة **تلوث مياه الشرب بكائنات دقيقة** لا ترى بالعين المجردة، كما **كشف عن العديد من أمراض الجلد، وأمراض الجهاز البولي/التناسلي، وأمراض الجهاز التنفسي** مما ينسب اليوم إلى غيره من علماء الغرب من أمثال العالم الفرنسي لويس باستير (Louis Pasteur, 1822 - 1895).

22 – سبق العالم المسلم **ابن خاتمة** في إثبات حصول العدوى بعدد من الأمراض بمجرد المخالطة ويعتبر بذلك **مكتشف العديد من الأمراض المعدية والتفريق بينها وبين الأمراض غير المعدية**. وينسب ذلك اليوم لعدد من العلماء الغربيين.

23 – سبق عدد من العلماء المسلمين في التعرف على **مبادئ علم التحليل النفسي** واستخدام ذلك في علاج العديد من الأمراض النفسية والعصبية.

هذا غيض من فيض الحضارة الإسلامية التي حملت مشاعل الهداية للبشرية في مختلف مناحي معارفها الموهوبة والمكتسبة لفترة زادت عن أحد عشر قرنًا، والتي اعترف بأفضالها عدد من منصفي الغرب ومنهم الطبيب البريطاني الشهير والأديب المعروف روبرت ستيفن بريفولت **(Robert Stephen Briffault: 1876-1948)** الذي كتب كتابه المُعَنْوَن **«صناعة الإنسانية» (The Making of Humanity)** وجاء فيه ما ترجمته: «فعلى الرغم من أنه لا توجد ناحية واحدة من نواحي النمو الأوروبي تخلو من أثر فعال للحضارة الإسلامية، فإن ذلك هو أوضح ما يمكن ظهورًا وفاعلية في تطور العلوم الطبيعية، والروح العلمية التي تمثل القوة المميزة للعالم الحديث، والمصدر الأول لانتصاره».

ويضيف هذا العالم البريطاني المنصف بريفولت ما ترجمته: «إن دَيْنَ علمنا للعلم العربي لا يتمثل فقط في المبادرة باكتشاف نظريات أدت إلى قلب موازين المعرفة؛ لأن العلم مدين للحضارة العربية بأكثر من ذلك؛ لأنه مدين بوجوده كلية لتلك الحضارة، فلقد كان العالم القديم – كما رأينا – عالم ما قبل المعرفة العلمية. فعلم الفلك، وعلم الرياضيات عند الإغريق كانا بضاعة غريبة مستوردة لم تتأقلم أبدًا في الحضارة الإغريقية...».

ويزيد بريفولت في صفحة 202 من كتابه المنصف هذا ما ترجمته: «تعلم روجر بيكون اللغة العربية والعلم العربي بتوجيه من تابعي العرب في مدرسة أكسفورد، ولم يكن لأي من روجر بيكون (Roger Bacon: 1214-1294)، ولا لمن تسمى باسمه فيما بعد فرانسيس بيكون (Francis Bacon: 1561-1626) أي فضل في اكتشاف الطريقة التجريبية، فلم يكن روجر بيكون سوى سفير من سفراء العالم العربي ومنهجه إلى أوروبا المسيحية، ولم يتردد هو لحظة واحدة في الاعتراف بأن تعلم اللغة العربية كان السبيل أمام معاصريه للوصول إلى العلم الحقيقي. وإن المناقشات حول من مخترع المنهج التجريبي ليست إلا جزءًا من سوء الاستنباط عن أصول الحضارة الأوروبية؛ لأن المنهج التجريبي العربي كان – على عهد بيكون – منتشرًا انتشارًا هائلًا، ومنغرسًا بشغف شديد في كل أوروبا».

«وقد كان العلم هو أهم إضافات الحضارة العربية للعالم الحديث، ولو أن ثماره كانت بطيئة في نضجها، فلم يتمكن العملاق الذي ولدته الحضارة العربية من النهوض في قوة إلا بعد زمن طويل من تخلف العرب وترديهم في الظلمات، ولم يكن العالم العربي وحده هو الذي أعاد أوروبا إلى الحياة، بل إن تأثيرات أخرى عديدة من الحضارة الإسلامية قد أضاءت الحياة الأوروبية بأولى ومضات وهجها».

بهذه الشهادة المنصفة من أحد أبرز الأطباء والأدباء البريطانيين في القرن العشرين أختتم هذا الفصل شاكرًا الله – تعالى– الذي أنار بصيرة هذا الطبيب والأديب البريطاني حتى يشهد شهادة حق في وسط عالم ضل الطريق، وزوّر التاريخ، وانتقص من أفضال الحضارة الإسلامية، مما يؤكد على حاجة الإنسانية إلى التعرف على الحضارة الإسلامية من جديد حتى يستفيد الناس جميعًا من ضرورة تكامل المعارف المكتسبة مع وحي السماء، وتعاليمه الدينية الصحيحة، والذي لم يتحقق إلا في ظل الحضارة الإسلامية.

حاجة الإنسان إلى المحافظة على بيئة الأرض

إن انطلاق الثورة الصناعية من منطلقات مادية بحتة، بغير ضوابط أخلاقية، وبغير فهم صحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة أصبح يتهدد أهل الأرض جميعًا بالدمار الكامل، ومن ثم أصبح يؤكد على حاجة الإنسان إلى الهداية الربانية في كل سلوك يسلكه على هذه الأرض.

ويؤكد القرآن الكريم في عشرات من آياته أن الإنسان مستخلف في الأرض لفترة محددة هي أجل كل فرد من بني آدم، وأنه مطالب في تلك الفترة بحسن القيام بواجبات الاستخلاف، وذلك بعمارة الأرض وإقامة العدل فيها، وحسن عبادة الله - تعالى - بما أمر، كما يؤكد القرآن الكريم أنه على أساس من ذلك سيكون استحقاق كل فرد منا للجنة أو مجازاته بالنار...!

وعمارة الأرض كما تكون بحسن استثمار ثرواتها بالعلم والتقنية تكون بالمحافظة على صفاتها الفطرية التي فطرها الله - سبحانه وتعالى - عليها؛ لأنه هو الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه، وخلق كل شيء بقدر، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وقدره تقديرًا محكمًا دقيقًا يجعل من الخروج عليه إفسادًا في الأرض (**والله لا يحب الفساد**)، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك - وتعالى - في محكم كتابه:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: 30).

وفي هذا النص القرآنيّ الكريم تأكيد على أن الله - تعالى - قد استخلف الإنسان على الأرض، وذللها له في كل أمر، وأطلق يده فيها بالضوابط التي وضعها له، وكلفه باكتشاف ما أودع فيها من خيرات، وجعلها في متناول يده كي يستفيد بها، ومن واجبات هذا الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض أن يحسن رعايتها بالمحافظة على فطرتها وذلك من أجل تيسير حياته عليها، وقد وهبه خالقه من الملكات العقلية والحسية والبدنية ما يعينه على تحقيق ذلك، وجعل الدنيا له دار اختبار وابتلاء، وجعل الآخرة دار جزاء، وبقاء بلا فناء.



و(الخلافة) في اللغة هي النيابة عن الغير، وهي هنا من الله – تعالى – للإنسان تشريف وتكريم انطلاقًا من قول ربنا – تبارك – وتعالى – ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: 70).

ومناط هذا التكريم هو حسن الفهم لرسالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا: عبدًا لله يعبده – سبحانه وتعالى – بما أمر، ويراقبه في السر والعلن، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها، والمحافظة على كل من ثرواتها وفطرتها، وبالسعي جاهدًا من أجل إقامة عدل الله فيها، وهو في ذلك يستعد للرحيل الحتمي عنها بالموت، ثم حياة البرزخ في القبر، ثم البعث والحشر والحساب والجزاء، ثم الخلود في الحياة الآخرة إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا، وفي ذلك يقول ربنا – وقوله الحق–:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام: 165).

وقال – تعالى – ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (فاطر: 38 – 39).

و(**الخلائف**) جمع (خليفة)، و(**خلفاء**) جمع (خليف وخليفة). وكل (خليفة) أو (خليف) مستأمن على ما استخلف فيه ومسئول عنه، وعلى ذلك؛ فالإنسان مستأمن على الأرض، ومسئول عن سلامتها، ومؤاخذ على أي قدر من الإفساد فيها.

والقرآن الكريم يؤكد علم الله الأزلي بأن غالبية بني الإنسان سوف يخونون الأمانة ويفسدون في الأرض إفسادًا كبيرًا، وأن الله – تعالى – سوف يذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون إليه، ويتوبون عن إفسادهم المادي والمعنوي على ظهر هذا الكوكب قبل فوات الأوان، وفي ذلك يقول: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: 41).

ومسئولية الإنسان عن الأرض هي مسئولية كاملة عن جميع نطقها الصخرية، والمائية، والهوائية، والحياتية، والتي يطلق عليها في مجموعها تعبير **(البيئة) وهي كل ما يحيط بالإنسان من مختلف صور المادة والطاقة والحياة، ومن نظم اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية ودينية**. والإنسان المستخلف على الأرض مؤتمن على بيئتها، ومسئول أمام الله وأمام الناس عن المحافظة عليها؛ **وبذلك تصبح المحافظة على البيئة من مقاصد الشريعة الإسلامية**. وانطلاقًا من ذلك فإن الاعتداء على أي من مكونات البيئة المادية أو المعنوية هو مخالفة شرعية يؤاخذ الله – تعالى – الواقع فيها من خلقه المكلفين في الدنيا قبل الآخرة، **وعلى ذلك فإن من الواجب أن يكون الإفساد في البيئة بمختلف أبعادها المادية والمعنوية مخالفة قانونية في دستور كل أمة من الأمم وجزء لا يتجزأ من تشريعاتها، يعاقب أولياء الأمور كل واقع فيها حماية للإنسانية كلها.**

ويستوي في إفساد البيئة الاعتداء على اليابسة أو على الماء أو الهواء أو الأحياء وعلى رأسها الإنسان، مع الاعتداء على الدين، ومن أسسه العقيدة الصحيحة والعبادات المفروضة، ومكارم الأخلاق، والسلوكيات النبيلة الفاضلة، القائمة على أساس من المحافظة على حقوق العباد المادية والمعنوية، وفي مقدمتها الحريات الخاصة والعامة، والإيمان بالأخوة الإنسانية. ويستوي ذلك أيضًا مع المحافظة على النظم الاجتماعية والثقافية القائمة في بلد من البلدان، والاعتزاز بالتراث الإنساني والمحافظة عليه من الضياع، وإن كان السائد بين الناس قصر لفظة **(البيئة)** على الجوانب المادية فقط من الوسط الذي يعيش فيه الإنسان، انعكاسًا للطبيعة المادية البحتة للحضارة المعاصرة، وانطلاقًا من المنهجية المادية السائدة في (الفصل بين المعارف) بدعوى الحرص على التخصصات الدقيقة التي قد يدفن الباحث فيها نفسه طيلة عمره، فيعيش لها ويموت فيها دون أن يتمكن من تحقيق شيء من رسالته في هذه الحياة الدنيا فيغادرها صفر اليدين من الحسنات، مثقلًا بالديون والتبعات، فخسر الدنيا والآخرة.

وانطلاقًا من هذا المفهوم الضيق لمعنى **(البيئة)** أهملت قضايا تلوث المعتقدات، وانحراف العبادات، وفساد الأخلاق والمعاملات، ونتاج ذلك من سوء السلوك، والتلوث الفكري، وإشاعة الفواحش بين الناس بدعوى إطلاق الحريات بلا حدود، والتقنين لتلك الفواحش في دساتير الأمم التي تدعي لنفسها شيئًا من التمدن



والتحضر، وهي بعيدة كل البعد عنه، ويشهد لذلك السماح في الإعلان عن تلك الفواحش في غير حياء ولا خجل، وأخطار ذلك على المجتمعات الإنسانية أشد وأنكى من تلوث التربة أو الماء أو الهواء أو الأحياء، فآثار الإفساد المادي قد تفضي إلى المرض أو الموت، أما آثار الإفساد المعنوي فتفضي إلى الشقاء في الدنيا، ثم إلى الخلود في الجحيم في الآخرة...!! لذلك فإن الإسلام العظيم كما يهتم بالإنسان بكل أبعاده، فإنه يهتم ببيئة الإنسان بكل جوانبها المادية والمعنوية حتى يتربى الإنسان الصالح الذي يحافظ على صلاح بيئته بمجموعها، وبمختلف جوانبها المادية والمعنوية؛ لأن الإنسان إذا صلح، صلح أمره كله وصلحت بيئته، وإذا فسد فسد كل أمره، وفسدت بيئته.

مـن مبررات المحـافظـة على البيئـة

أولاً: التسليم بأن الله - تعالى - خلق كل شيء بحكمة وتقدير بالغين:

يتضح للمتأمل في النفس الإنسانية وفي الأحياء والجمادات من حولها وفي الأرض وما يحيط بها من أجرام سماوية أن الله – تعالى – خلق كل شيء بدقة بالغة، وحسب قوانين محكمة، وسنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل حتى يأتي أمر الله وتنفصم عرى هذا الكون فيزال من الوجود بكل ما فيه ومن فيه، ثم يستبدل ربنا – تبارك وتعالى – بأرضنا أرضًا غيرها، وبالسماوات المحيطة بنا سماوات جديدة، ثم يكون البعث، والحشر، والحساب، والجزاء، ثم الخلود إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا.

وهذه السنن والقوانين الكونية لا بد للإنسان من فهمها، وتوظيفها في عمارة الأرض، والتوافق معها حتى تستقيم له الحياة على هذا الكوكب حسب منهج الله – تعالى – وحتى يتمكن من تحقيق رسالته في هذه الحياة على الوجه الذي يرتضيه ربه – سبحانه وتعالى – وذلك لأن قوانين الخالق – جل شأنه – تحكم كل شيء في الوجود (من اللبنات الأولية للمادة إلى جسد الإنسان) في توافق وانسجام تامين كاملين، وإحكام بديع، وانضباط باهر.

ويتضح انضباط الكون في ضخامة أبعاده، وعظم اتساعه، ودقة بنائه، وانتظام الحركة بين بلايين البلايين من أجرامه (مع ضبط الكتل، والأحجام، والمسافات،

والمدارات، والسرعات) في حركة دائبة لا تتوقف ولا تتعطل إلى أن يشاء الله تعالى.

ويتضح ذلك أيضًا في ملاءمة كل أمر من أمور الأرض للحياة على سطحها من الكتلة إلى الحجم، إلى الشكل، وميل محور الدوران، إلى سرعة دورانها حول محورها أمام الشمس، وتبادل كل من الليل والنهار على سطحها، إلى ثبات بعد الأرض عن الشمس، وسرعة جريها في المدار الخاص بها حول ذلك النجم، إلى تركيبها الكيميائي والمعدني والصخري، إلى نطق الحماية المتعددة المحيطة بها، ويتضح في تركيب كل من غلافيها المائي والهوائي، وفي غير ذلك من الصفات والظواهر والسنن. ونفهم طلاقة القدرة الإلهية المبدعة من التدرج في عمارة الأرض بأنماط من الخلق المتتابعة والخادمة لبعضها البعض، وفيما أعطى الله – سبحانه وتعالى – لكل مخلوق من الهداية للقيام بدوره في هذه الحياة على الوجه الذي سخره له الله – تعالى – وفي الاتزان الدقيق بين بيئات الأرض المتعددة وبين ما يحيا فيها من أنماط الحياة، حتى يكون كل منها صالحًا لأنواع خاصة من صور الحياة.

ولم يكل الله – سبحانه وتعالى – الناس في التعرف على خالقهم إلى ما فطرهم عليه من الإيمان بربهم، ووضعه في جبلة كل فرد منهم، وأشهدهم على ذلك وهم في عالم الذر، ولا إلى ما علم آدم – عليه السلام – من علم، ولا إلى إبداعه في خلقه حتى يكون الخلق شاهدًا لخالقه بالألوهية والربوبية والخالقية والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، بل أرسل الرسل (ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا) اصطفاهم من بين مائة وعشرين ألف نبي كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ، ثم أكده القرآن الكريم مخاطبًا إياه – صلوات الله وسلامه عليه – بقول ربنا – تبارك وتعالى – له: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: 24).

وعلى ذلك فإن الإنسان – ذلك المخلوق العاقل المكلف صاحب الإرادة الحرة – يحمل المسئولية الكاملة عن أي اضطراب أو خلل في بيئته ببعديها المعنوي والمادي، وذلك لأن الله – تعالى – قد أتقن كل شيء خلقه، وقدره تقديرًا محكمًا دقيقًا، وهداه بالفطرة والإلهام وبالوحي والرسالة السماوية إلى الحق الذي أكمله وأتمه في الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم ﷺ، وفيها يقول – سبحانه وتعالى –:



- ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف: 10).

- ﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: 8).

- ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (الحجر: 19 – 21).

- ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه: 50).

- ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (المؤمنون: 18).

- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: 1 – 2).

- ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (الزخرف: 10 – 11).

- ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: 49).

- ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: 123 – 124)

- ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك: 15).

وهذه الآيات القرآنية الكريمة (وأمثالها كثير في كتاب الله) تؤكد أن الله – تعالى – خلق كل شيء بحكمة وتقدير بالغين، وعلى كل إنسان عاقل أن يحافظ على خلق الله بالصورة الكاملة التي أودعها الله – سبحانه وتعالى – فيها، وإلا كان من المفسدين في الأرض.

ثانيًا: تحريم الله - تعالى - لمختلف صور الإفساد في الأرض:

وذلك لأن (**الفساد**) لغة هو خروج الشيء عن حد الاعتدال والصلاح. و(**الإفساد**) هو فعل ما به يحصل (**الفساد**) بمعنى إذهاب ما في الشيء الصالح من نفع وصلاحية حتى يخرج به (**المفسد**) عن حد الاعتدال والصلاح، سواء كان ذلك الخروج قليلًا أم كثيرًا، وعلى ذلك فإن (**الإفساد**) هو ضد الإصلاح، و(**المفسد**) هو ضد المصلح. والإفساد في الأرض يشمل البعدين المعنوي والمادي وتفصيلهما فيما يلي:

(أ) الإفساد المعنوي في الأرض:

يتجسد الإفساد المعنوي في فقد الإنسان لقدرته على تحقيق رسالته في هذه الحياة: وتتلخص هذه الرسالة في كون الإنسان عبدًا لخالقه – سبحانه وتعالى – الذي خلقه كي يعبد هذا الخالق العظيم بما أمر، ولكي يكون الإنسان مُستخلَفًا ناجحًا في الأرض من قِبَل هذا الخالق العظيم فإن عليه أن يحسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها بعمارتها، وإقامة شرع الله – تعالى – وعدله فيها. فإذا انحرف الإنسان عن حدود هذه الرسالة أفسد في الأرض إفسادًا كبيرًا، وكان عنصرًا مدمرًا فيها، فخسر الدنيا والآخرة، وذلك لأنه بانعدام فهم الإنسان لهذه الرسالة تفسد عنده المعتقدات، وتنحرف العبادات، وتنحط الأخلاق والسلوكيات والمعاملات، وتضيع القيم والحقوق والواجبات، وتفسد الأنظمة والمجتمعات، ويفشل الإنسان في القيام بواجباته في هذه الحياة، فيظل تائهًا حائرًا فيها حتى يخرج منها صفر اليدين من الحسنات، مثقلًا بالذنوب والتبعات، قد ضيع كلًّا من دنياه وأخراه سدى...! وليس هنالك من إفساد أخطر من هذا الإفساد؛ لأن الإنسان مخلوق عاقل مكرم مكلف ذو إرادة حرة، فإذا صلحت إرادته صلحت حياته وصلح مجتمعه، وإذا فسدت إرادته فسدت حياته ومجتمعه، وملأ الأرض من حوله فسادًا وظلمًا وجورًا. ومن صور هذ الفساد ما يلي:

(1) فساد الاعتقاد:

ويظهر فساد الاعتقاد في العديد من صور الكفر أو الشرك بالله - تعالى - التي عمَّت مختلف جنبات الأرض ولا تزال تعمُّها إلى اليوم، والله - تعالى - هو قيوم السماوات والأرض، وخلقه يدل على حقيقة ربوبيته وألوهيته ووحدانيته؛ لأنه - سبحانه وتعالى - خلق كل شيء في ثنائية واضحة (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) حتى يبقى ربنا الخالق البارئ المصور متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. كذلك فإن الله سبحانه وتعالى - خلق كل خلقه على نمط واحد حتى يشهد خلقه له بالألوهية، والربوبية، والخالقية، والوحدانية، وبالمغايرة لخلقه مغايرة كاملة في كل شيء من أسمائه العليا وصفاته الحسنى وأفعاله العظمى ولذلك وصف ربنا - جلت قدرته - ذاته العليا بقوله العزيز: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11)

ومن هنا كان الكفر بالله - تعالى - أو الشرك به غمطًا لأول حقوق الله على عباده، وإنكارًا لأعظم حقائق هذا الوجود، ومفسدة للإنسان أي مفسدة؛ لأن المخلوق إذا غفل عن حقيقة عبوديته لخالقه فسدت عقيدته، وبفسادها يفسد فكره وإرادته وسلوكه وعلاقاته بغيره، ويفسد مجتمعه؛ وبفساد المجتمعات تفسد الأمم وتتلوث معتقداتها وأخلاقها ومعاملاتها بمختلف صور الفساد لخروجها عن منهج الله وأوامره ولفقدانها لكل من الصلة الحقيقية بالله - تعالى - وللاستهداء بهدايته الربانية في الأمور التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة وفي مقدمتها أمور العقيدة التي إن صلحت صلح أمر الإنسان كله، وإذا فسدت فسد أمره كله. والمتأمل في أهل الأرض - منذ خلق الإنسان إلى اليوم - يرى خليطًا عجيبًا من المعتقدات الفاسدة التي ملأت الأرض فسادًا، وظلمًا وجورًا، وأغرقت الضعفاء من أهل الأرض في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، بعد أن عاشت الإنسانية عشرة قرون كاملة على التوحيد الخالص لله - تعالى - حتى اجتالتهم شياطين الإنس والجن فأخذ الإنسان يتقلب بين الإيمان والكفر، وبين التوحيد والشرك، وبين الاستقامة على منهج الله والخروج عليه حتى يومنا الراهن، وسوف تبقى الحياة الدنيا كذلك حتى يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها..!

وليس أدل على ذلك من امتلاء جنبات الأرض اليوم بالعديد من المعتقدات الفاسدة كعبدة الشيطان، اللادينية، البهائية والبابية، الدهرية، الماسونية، القاديانية، النصيرية، القرامطة، حركة أبناء العهد (بناي برث B'nai B'rith)، البوذية، الجينية، السيخية، الهندوكية، حركات التعذيب (Westernization)، حركة الحشاشين، الدرزية، الوجودية والروحية الحديثة، النازية أو الفاشية الجديدة، شهود يهوه، الصهيونية، الصابئية، المندائية، الطاوية، الكونفوشيوسية، الشنتووية، المهاريشية، المورمونية، المونية (Moonism) وغيرها.

(2) فساد العبادات:

ويظهر ذلك جليًا في العديد من العبادات الموضوعة التي انتشرت عبر تاريخ البشرية والتي لا تزال تنتشر في مختلف جنبات الأرض اليوم، والله – تعالى – يحب أن يعبد بما أمر. والمفهوم اللغوي للعبادة هو الخضوع الكامل لله – تعالى – بالطاعة لأوامره واجتناب نواهيه. والإنسان إذا لم يهتد إلى العبادة الصحيحة لله سَوَّل له الشيطان أنماطًا من العبادة المصطنعة يملأ بها الحاجة الداخلية في نفسه إلى الدين وإلى العبادة. ولا يمكن لعاقل أن يتصور إمكانية أن يصطنع الإنسان لنفسه نمطًا من العبادة أو أن يصنعها له إنسان مثله ثم يتخيل إمكانية قبول الله – سبحانه وتعالى – لتلك العبادة الموضوعة. وغالبية أهل الأرض واقعون اليوم في هذا الشَّرَك من شِراك الشيطان التي إذا وقع الإنسان فيها فقد صلته بالله، وبفقدها يفقد الإنسان إنسانيته ويتحول إلى كيان فاسد مفسد مدمر لذاته ولأهله ولمجتمعه؛ لأنه إما أن يعبد ذاته أو أهواءه وشهواته ورغائبه، أو يعبد غيره من البشر، أو من الحيوانات أو النباتات أو الأصنام والأوثان، أو يعبد الشيطان، وفي كل هذه الحالات لا يمكن له أن يحيا حياة سوية على الأرض، أو أن يكون مستخلفًا صالحًا فيها.

(3) فساد كل من الأخلاق والمعاملات:

يشير تاريخ الإنسان على الأرض إلى أنه إذا فسدت العقائد والعبادات فسدت الأخلاق والمعاملات، وانتشر بين الناس حب استغلال القوة والسلطة، وحب التعدي على المال العام، وصاحب ذلك **فساد الذمم وخرابها**. وإذا فسدت الذمم ساد الخداع والكذب، وانتشر بين الناس نقض العهود والعقود والمواثيق، واستساغة أكل أموال الناس بالباطل، وتطفيف الموازين والمكاييل، والغش في الصنعة والعمل، وانتشار السرقات، والنهب والسلب، وتفشي الرشوة والمحسوبية، وغبن المسترسل، واستطالة المرء في عرض أخيه، وكلها تدخل في باب (الربا) بمعناه



الواسع، وهو أحد السبع الموبقات المهلكات التي أخبر عنها المصطفى ﷺ، وحذر من أخطار الوقوع فيها.

ويقود فساد الأخلاق والمعاملات إلى إشاعة كل من الاستبداد والظلم، وانتشار الفواحش والفتن، وكثرة الاعتداء على الأعراض والأموال والممتلكات، واختلاط الأنساب، ونصرة الباطل وأهله، ومحاربة الحق وجنده، وفساد كل من الأحكام والتصورات والقيم والنظم، وصدأ كل من العقول، والقلوب، وضياع القدوة الحسنة، وغياب الشفافية والنزاهة وفقدان احترام الذات، **وغير ذلك من صور الفساد الأخلاقي والسلوكي، وهو من أبشع صور الإفساد في الأرض.** وكل ذلك من معاصي الإنسان لله وهي تستجلب غضبه – سبحانه وتعالى – وتستوجب نزول عقابه في صور عديدة منها: جدب الأرض، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وتفشي الأوبئة والأمراض والأوجاع، والاجتياح بمختلف الكوارث ومنها كثرة كل من الزلازل، وثورات البراكين، والعواصف والأعاصير، والحرائق، والغرق، والحروب وما يصاحبها من قتل ودمار وخراب، ونوبات من الشح والغلاء، وانتزاع البركة من كل شيء، والهبوط بالإنسانية إلى ما دون مستويات الحيوان الأعجم، وذلك لأن الحيوان لا يخرج بسلوكه عن الفطرة التي فطره الله – تعالى – عليها والتي يتعبد خالقه بها، بينما الإنسان يستطيع بإرادته الحرة أن يكفر بخالقه أو يشرك به فينحط عن مقامات التكريم التي كرمه بها الله – سبحانه وتعالى – إلى ما هو دون مستوى الحيوان.

وليس أدل على ذلك من أن واقع عالم اليوم أصبح مليئًا بمختلف صور الفساد الذي انتشر بشكل مرعب كانتشار النار في الهشيم في جميع الأنشطة الإنسانية، وأصبح يهدد أمن وحقوق الناس أفرادًا، وأسرًا، وجماعات، كما يهدد أمن الدول والحكومات ويهدد استقرارها ويؤدي إلى نزيف لا ينقطع للموارد وللأخلاق، ولكل من السلوكيات والمعاملات، ويقف عائقًا أمام أية نهضة تنموية، أو أية دعوة أخلاقية أو تربوية أو سلوكية. وليس أدل على ذلك أيضًا من أن الفساد قد طال كلًّا من التعليم والإعلام، والتعاملات المالية والاقتصادية، والصناعة والزراعة، وأنماط الحكم وحتى طال القضاء، وقواعد السلوك؛ وليس أدل على ذلك أيضًا من إباحة أعداد من الحكومات الغربية لكل من الشذوذ الجنسي، والزواج بالمثل، والسماح لهؤلاء الشواذ بالتبني، فينشأ الأطفال في هذه البيئات العفنة (التي تدعمها الدولة في الحضارة المادية المعاصرة وتسمح لها بكل الحقوق الدستورية، والاجتماعية

والمالية والإعلامية) مما يؤدي بالنشء إلى إلف الفساد والانحراف الذي لا يرون فيه شيئًا يشين أو يعيب وهو من أخطر صور الإفساد المعنوي في الأرض، والذي يؤكد على حاجة الإنسان إلى الهداية الربانية، كما يؤكد عجزه عن فهم حقيقة رسالته في هذه الحياة الدنيا بغير دين الله.

(ب) الإفساد المادي في الأرض:

بالإضافة إلى الفساد المعنوي الذي قد عمَّ الأرض في زمن الفتن الذي نعيشه فإن القرآن الكريم وفي نفس الآية القرآنية الكريمة التي تنهى عن الفساد بصفة عامة يشير إلى الفساد المادي في بيئات الأرض الثلاث: التربة والماء والهواء وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: 41)، وذلك لأن لفظة (البر) تشمل كلًّا من اليابسة وما يحيط بها من غلاف غازي، وكذلك لفظة (البحر) تشمل كلًّا من القاع المنخفض والماء الذي يمتلئ به وما يحيط بهما من غلاف غازي. وهذه البيئات الثلاث وما بكل منها من مختلف صور الأحياء والجمادات تشكل حلقات مترابطة يتأثر بعضها ببعض، وأي إخلال بنظام إحداها يؤثر سلبًا على النظم الأخرى، ومن الواجب على الإنسان المحافظة على البيئة بنظمها جميعًا، وإن لم يلتزم بذلك يكون قد خرج على أوامر ربه.

وقد بدأت **مشكلة تلوث البيئة** في التفاقم مع بداية الثورة الصناعية في أوروبا الغربية والتي كانت أولى خطواتها مع اختراع الآلة البخارية، فقد أدى **سوء استخدام الوقود الأحفوري** (من أمثال الفحم الحجري والنفط والغازات الطبيعية) في كل من آلات الاحتراق الداخلي، ومحركات الدفع، والمصانع المختلفة، إلى زيادة نسبة عدد من الغازات السامة والأشعات المهلكة التي تطلق إلى الغلاف الغازي للأرض. وقد زادت نسب هذه الملوثات اليوم زيادة ملحوظة بدأت في التأثير الواضح على ظروف الأرض المناخية وعلى الأحياء المائية والأرضية وعلى رأسها الإنسان.

والاعتداء على البيئة وعلى ما فيها من أحياء هو من أبرز صور الإفساد في الأرض؛ لأنه إفساد مادي ملموس يحدثه الإنسان بسوء سلوكياته وجشعه وعدم انضباط تصرفاته مع مختلف بيئات الأرض التي أحكم الله خلقها، وضبط علاقاتها ببعضها،

كمًّا وكيفًا بإحكام واتزان بالغين، لا يخله إلا إفساد الإنسان؛ وذلك لأن الله – تعالى – خلق كل شيء بقدر (أي بمكونات ومقادير محددة ومتوازنة، وبصفات وخصائص معينة)، وهذا التقدير الإلهي الدقيق يكفل لكل كائن حي الملاءمة الكاملة مع البيئة التي خُلِقَ لها في توافق واعتدال تامين لا يفسدهما إلا تدخل الإنسان بطمعه وجشعه وإسرافه، أو بجهله وتخلفه وتسيبه، أو بسوء نواياه وخبث مقاصده، مما يفسد مكونات النظم البيئية الدقيقة كمًّا وكيفًا، ويخرجها عن سويتها التي خلقها الله – تعالى – بها، ويجعلها غير موائمة للأحياء التي تعيش فيها، ويصيبها بشيء من الخلل أو الشلل الذي يعطلها عن أداء وظيفتها ويفقدها صلاحيتها ونفعها. ومن صور هذا الإفساد المادي ما يلي:

(1) الإفساد في الأرض بالتلوث الكيميائي للبيئة:

ويتم ذلك بتزايد **إطلاق كميات هائلة من الملوثات الغازية والسائلة والصلبة إلى مختلف بيئات الأرض من التربة والماء والهواء، وذلك من مثل نواتج حرق الوقود الأحفوري** (من مثل الفحم الحجري، والنفط، والغازات الطبيعية) بمعدلات مبالغ فيها وصلت إلى أكثر من عشرة مليارات من براميل النفط، وأكثر من ثمانية مليارات من أطنان الفحم، وتريليونات الأقدام المكعبة من الغازات الطبيعية سنويًّا. هذا بالإضافة إلى **النفايات المنزلية، ونفايات كل من المستشفيات والمصانع**، وإطلاق العديد من الغازات من مثل **غازات أول وثاني أكسيد الكربون، وأكاسيد كل من النيتروجين والكبريت والرصاص والزئبق، وغاز الميثان، وغازات فلوريد وكلوريد الكربون، والهيدروكربونات غير كاملة الاحتراق** وغيرها من الملوثات السامة الناتجة عن النشاط الصناعي أو الباقية من مخلفات الحروب وأغلبها غازات كثيفة تبقى قريبة من سطح الأرض.

ومن أخطار تنفس غازات مثل أول وثاني أكسيد الكربون أو أكسيد الرصاص هو: ميل هذه الغازات إلى التفاعل السريع مع مادة الهيموجلوبين في خلايا الدم الحمراء أثناء مرور الدم بشعيرات الرئتين فينتج عن هذه التفاعلات أعداد من المركبات الكيميائية المعقدة التي تعيق الدم عن القيام بدوره في الاتحاد مع الأكسجين القادم مع عملية الشهيق ثم نقله إلى بقية أجزاء الجسم، ومن أعراض ذلك حدوث ضيق في التنفس إلى حد الشعور بالاختناق، وما يستتبعه من تأثيرات سلبية على كل من المخ

وبقية الجهاز العصبي، تصحبها آلام الصداع الحاد، وقد يؤدي ذلك في النهاية إلى الإصابة بجلطة في المخ أو بذبحة صدرية، وقد تنتهي بالوفاة.

كذلك فإن غاز ثاني أكسيد الكربون له قدرة هائلة على امتصاص الأشعة تحت الحمراء القادمة مع أشعة الشمس مما يؤدي إلى رفع درجة حرارة الغلاف الغازي للأرض بالتدريج، خاصة أن ثاني أكسيد الكربون يتجمع بالقرب من سطح الأرض نظرًا للكثافة النسبية العالية له فيعمل كحاجز حراري يحيط بالأرض إحاطة كاملة مما يؤدي إلى **ظاهرة الاحتباس الحراري (Thermal Occlusion)** وما يصاحبها من الآثار السلبية التي منها خلخلة واضطراب المناخ وتحرك العواصف والأعاصير المدمرة.

وتدل القياسات العلمية المختلفة على أن **نسبة ثاني أكسيد الكربون** في جو الأرض وهي في الأصل في حدود 0.003% تقدر اليوم بحوالي 0.0318% بمعنى **أنها قد تضاعفت أكثر من عشر مرات منذ بداية الثورة الصناعية إلى اليوم**، وأخطار ذلك لا تخفى على عاقل.

أما **أكاسيد النيتروچين** فينتج بعضها عن تعفن النفايات التي ينتجها الإنسان وينتج البعض الآخر عن أكسدة نيتروچين الغلاف الغازي للأرض بواسطة درجات الحرارة العالية الناتجة عن أجهزة الاحتراق الداخلي المختلفة في كل من المصانع ووسائل النقل المتعددة من (السيارات والطائرات والصواريخ والبواخر والبوارج وغيرها). **وأكاسيد النيتروچين هي غازات سامة وضارة خاصة بالأجهزة التنفسية للأحياء وفي مقدمتها الإنسان إذا زادت نسبتها في الهواء عن 0,05 جرام/م^3 بينما تركيزها السائد في أغلب المدن الصناعية اليوم يتعدى 1 جرام/م^3، أي يتعدى بعشرين ضعف لحد الخطر.**

وبالمثل فإن **أكاسيد الكبريت** (أول وثاني أكسيد الكبريت) الناتجة عن عمليات حرق مختلف أنواع الوقود الأحفوري هي غازات مهيجة لأنسجة كل من الإنسان والحيوان، خاصة لأنسجة الأجهزة التنفسية، وهي ضارة كذلك بكل من النباتات والجمادات وذلك لأن ثاني أكسيد الكبريت له قابلية عالية للذوبان في الماء مكونًا حمض الكبريتيك وهو واحد من أقوى الأحماض المعروفة لنا، وله قدرة فائقة على إذابة العديد من المواد العضوية وغير العضوية مما يؤدي إلى إتلاف الأنسجة الحية وإلى تآكل كل من المواد الفلزية (من مثل الحديد والنحاس والرصاص وغيرها) وغير الفلزية (ومنها أحجار البناء والمواد الخرسانية والخشبية). وبالإضافة إلى ذلك



فإن هباءات من **المركبات الكبريتية الضارة** (من مثل كبريتات وكبريتيدات العناصر المختلفة) قد تنتج عن هذه التفاعلات الكيميائية وتنتشر في الجو فتلوثه، وسرعان ما تنتقل من الهواء إلى كل من التربة والماء فتلوثهما كذلك، ثم تجد طريقها إلى الأحياء وعلى رأسها الإنسان فتصيب الجميع بأضرار بالغة وذلك عن طريق ما يعرف باسم **الأمطار الحمضية (Acid Rains)** التي تدمر الثروات المائية والنباتية والحيوانية والعمرانية، وتضر بصحة جميع الأحياء، وعلى رأسها الإنسان.

ومن الثابت علميًا أن مثل هذه الملوثات للبيئة لها علاقة مباشرة بانتشار العديد من الأمراض الخطيرة في كل من الإنسان والحيوان والنبات من أمثال الأورام السرطانية ونقص المناعة والتحسس (أو أمراض الحساسية) وغيرها من أمراض الجهاز التنفسي، والإنفلونزا بمختلف أشكالها، وتسمم العديد من النباتات والحيوانات.

ولا يتوقف دور مختلف المصانع والأنشطة الصناعية الأخرى ووسائل المواصلات المتعددة (من السيارات والشاحنات والطائرات والبواخر والغواصات وحاملات الطائرات والصواريخ وغيرها) عند حدود ما تطلقه من الغازات والسوائل والجوامد السامة، وعلاقة ذلك بالعديد من الأمراض من أمثال أمراض القلب والصدر بل تتعدى ذلك إلى ما تثيره أجهزة المصانع ووسائل الاتصال والنقل المختلفة من **الضجيج ومختلف الإشعاعات** التي لها تأثيراتها السلبية على مختلف صور الحياة، **خاصة ما تسببه وسائل النقل الأرضية من غبار، وما تنتجه من عوادم تآكل كل من الإطارات وصفائح الكوابح وأسطح الطرق المرصوفة وغيرها.**

ولا تقتصر مخاطر التلوث الكيميائي على ما تطلقه مداخن كل من المصانع ومختلف وسائل المواصلات من أدخنة وأبخرة إلى الجو، ومن نفايات متعددة إلى كل من اليابسة والماء، بل يمتد ذلك إلى **تسربات كل من النفط والغاز إلى مختلف بيئات الأرض خاصة في زمن الحروب التي قد تستهلك الملايين من براميل النفط وتطلق من جانبها ملايين الأطنان من الملوثات الكيميائية الإشعاعية المميتة** (من مثل قذائف اليورانيوم المنضب، وقنابل الفوسفور الأبيض، وطلقات الدايم (Dime)، وغيرها من الأسلحة المحرمة دوليًا، بالإضافة إلي أسلحة الدمار الشامل الكيميائية والإشعاعية والحيوية) وما ينتج عن ذلك من ضوضاء، وآثار عديدة ملوثة لمختلف بيئات الأرض.

(2) الإفساد في الأرض بالتلوث الصوتي:

للتلوث الصوتي (أو الضوضائي) آثاره السلبية على جميع الأحياء وعلى رأسها الإنسان بدءًا من النوم، والاتصال بين الناس، والأداء الدراسي، والحالة النفسية للأفراد، كما أن له تأثيره السلبي على الصحة العامة من قبل تسببه في العديد من الأمراض من مثل ضعف السمع، وأمراض القلب (كارتفاع ضغط الدم والذبحة الصدرية).

(3) من أنواع الإفساد الأخرى للبيئة:

لم يهتم الدارسون بقياس معدلات تلوث البيئة خاصة في أجواء المدن الصناعية المكتظة بالسكان حتى شتاء 1952 م؛ حيث سادت حالة من الركود الجوي في الغلاف الغازي لمدينة لندن (العاصمة البريطانية) لعدة أيام متتالية تجمعت خلالها أدخنة المصانع في جو المدينة على هيئة كتل من **الضباب الأسود** الراكد القريب من سطح الأرض والشديد التلوث بعوادم أدخنة المصانع، وتسبب هذا الضباب الأسود في وفاة أكثر من أربعة آلاف شخص، واستمر التلوث في جو المدينة بعد زوال هذا السحاب الراكد لمدة زادت على خمسة عشر يومًا، وقد تكرر حدوث هذه الكارثة في تاريخ مدينة لندن عدة مرات (كان من أشدها ما حدث في شتاء سنة 1962 م) كما تكرر في تاريخ غيرها من المدن الصناعية الأوروبية والأمريكية.

ومن أخطر كيماويات التلوث **غازات كلوروفلوريد الكربون (.C.F.C)** أو ما يعرف باسم (**غاز الفريون**) الذي يستخدم في وسائل التبريد والتكييف المختلفة وفي مختلف حاويات وعلب الرش كدافع لكل من رذاذ السوائل والغازات المضغوطة. **ومن مخاطر هذا الغاز أنه يعمل على اختزال الأوزون (O_3)** في طبقته الخاصة المحيطة بالأرض وتحويلها إلى الأكسجين (O_2) مما يعرض الحياة على سطح الأرض للدمار بفعل وصول جرعات عالية من الأشعة فوق البنفسجية إليه.

وطبقة الأوزون جعلها الخالق – سبحانه وتعالى – حماية للحياة على الأرض من أخطار الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس وهي أشعات لها قدرات كبيرة على اختراق الأجسام الصلبة والحية (ومنها جسم الإنسان) فتصيبها بعدد من الأمراض التي منها سرطانات الجلد، وأمراض العيون. ومن رحمة الله – تعالى –

بخلقه أن حركة الرياح تحمل معظم الملوثات المنطلقة إلى الجو من نواتج الصناعة (ومنها غاز الفريون) إلى المنطقتين القطبيتين الشمالية والجنوبية، وقد أدى ذلك إلى تفكك طبقة الأوزون فوق قطبي الأرض محدثًا ما يعرف اليوم مجازًا باسم **(ثقبي طبقة الأوزون)**، ومن هذين الثقبين تنفذ حزم الأشعة فوق البنفسجية بجرعات أدت إلى إحداث العديد من الإصابات المرضية لكل من الإنسان والحيوان، وإلى عدد من حرائق الغابات في الدول القريبة من القطب الجنوبي أمثال أمريكا الجنوبية، وجنوب إفريقيا، وكل من أستراليا ونيوزيلنده، ولا تزال تلك المناطق وأشباهها تعاني من أخطار التلوث بالأشعة فوق البنفسجية القادمة بجرعات عالية عبر ثقبي الأوزون.

ولم يكتشف ثقب الأوزون The Ozone Hole في القطب الجنوبي إلا في سنة 1982 م، ولم يتم الإنذار بمخاطره بالنسبة للأحياء الأرضية إلا في سنة 1984 م. وفي قمة الأرض التي عقدت في (ريودي جانيرو) في سنة 1992 م تعهد المؤتمرون بالعمل على خفض إنتاج الفريون إلى النصف قبل سنة 1999 م ولم يتم ذلك بعد؛ لأن كلًا من الولايات المتحدة الأمريكية ومعها عدد من الدول الصناعية رفضت التوقيع على هذا الاتفاق كما رفضت التوقيع على اتفاق كيوتو سنة 1997 م.

وإذا أضفنا إلى تلك الصور العديدة لتلوث البيئة كلًا من **إمكانية تسرب المواد الكيميائية ذاتها من المصانع** (كما حدث في **كارثة بوبال في الهند** والتي راح ضحيتها آلاف من البشر ومن الحيوانات)، **وتزايد معدلات تراكم العديد من المركبات الكيميائية الضارة في أجساد الكائنات الحية نتيجة للإفراط في استخدام كل من المخصبات الزراعية، والمبيدات الحشرية والمنظفات الصناعية، وتزايد معدلات تلوث مختلف أنواع الأطعمة المحفوظة نتيجة لاستخدام المواد الحافظة والملونات والمطعمات للأغذية وغيرها، وغير المحفوظة نتيجة للإفراط في استخدام مياه الصرف الصحي المعالجة كيميائيًا في ري النباتات، أو نتيجة لقذف فضلات المصانع والمستشفيات والبيوت وغيرها من النفايات إلى مياه الأنهار والبحيرات والبحار** مما يؤدي إلى تلوث كل من الماء وما يزخر به من الأحياء خاصة في ظل تزايد ما ينتجه الإنسان المعاصر من نفايات منزلية (تقدر للفرد الأمريكي الواحد بحوالي ألف كيلو جرام من القمامة في المتوسط سنويًا) إذا أضفنا ذلك كله إلى ما سبق أن ذكرناه من عوامل التلوث اتضحت لنا جوانب من أخطار تلوث البيئة تهدد الحياة على الأرض بمختلف أشكالها تهديدًا حقيقيًا يستوجب من كل إنسان عاقل التوقف لدراسة كيفية التقليل

من إنتاج تلك الملوثات، وكيفية التخلص مما تكدس منها في بيئات الأرض لإعادة الحياة الأرضية إلى فطرتها السوية التي خلقها الله – تعالى – عليها، وإلا فإن أهل الأرض جميعًا سوف يعانون من أخطار التصحر في أجزاء واسعة من الأرض، ومن أخطار العواصف والأعاصير والسيول في مناطق أخرى مما سوف يؤدي إلى نقص كل من المساحات الأرضية الصالحة للزراعة، والمحاصيل الزراعية والحيوانية، والمياه الصالحة للشرب وما سوف يؤدي إليه ذلك النقص في ظل التزايد المطرد في مجموع تعداد سكان الأرض. كذلك قد يؤدي التزايد في ظاهرة الاحتباس الحراري إلى انصهار الجليد من فوق قمم الجبال ومن القطبين مما سوف يؤدي إلى إغراق كل من الجزر المحيطية، ودالات الأنهار، والسهول الساحلية، وغيرها من منخفضات الأرض، كما يتسبب في تقلص مساحات اليابسة بارتفاع منسوب المياه في البحار والمحيطات، ويؤدي إلى العديد من الكوارث المناخية المتسارعة، وإلى تفشي العديد من الأوبئة وغيرها من مسببات الأمراض في مختلف بيئات الأرض.

ويحتم ذلك ضرورة التوعية لجميع أهل الأرض بأخطار التلوث الكيميائي لمختلف بيئات الأرض، ووضع التشريعات والقوانين الرادعة لمنع ذلك الإفساد وأمثاله، **والبحث عن المصادر النظيفة للطاقة من مثل الطاقة الشمسية، وطاقة كل من المياه والرياح، وطاقة الحرارة الأرضية، وغيرها، وتطوير تقنيات استخدامها بتكلفة اقتصادية، وترشيد مختلف استخداماتها بواسطة كل من الأفراد والجماعات الأهلية والمنظمات والحكومات.**

(4) الإفساد في الأرض بالتلوث الحراري:

لا تقتصر أخطار حرق ملايين الأطنان من الفحم والنفط والأخشاب والغازات الطبيعية يوميًا في مختلف دول العالم على ما تطلقه من غازات وأبخرة سامة وملوثات صلبة وسائلة، بل يمتد ذلك إلى **رفع درجة حرارة الهواء الملاصق لسطح الأرض؛** لأن ثاني أكسيد الكربون الناتج عن عملية الاحتراق تلك هو غاز كثيف نسبيًا فيبقى معلقًا في الغلاف الغازي للأرض بالقرب من سطحها، ويؤدي ذلك إلى تكوين نطاق من هذا الغاز الكثيف حول الأرض يعمل على تحقيق ظاهرة الاحتباس الحراري حولها، وذلك بمنع تسرب جزء من حرارة الأرض إلى خارج نطاق الغلاف الغازي لها، ويعين على ذلك قدرة هذا الغاز على مزيد من امتصاص الأشعة تحت الحمراء القادمة من الشمس، وعلى منع تشتت جزء من هذه الحرارة إلى طبقات الجو العليا ليلًا،



وذلك بسبب ما تكونه هذه الغازات السامة من غلالة تشبه الصوبة النباتية تؤدي إلى تكون ظاهرة (الاحتباس الحراري) وأثرها على اختلال الميزان المناخي الدقيق للأرض هو أثر بالغ الخطورة لما يصاحب هذا الاختلال من العواصف والأعاصير المدمرة، وموجات الجفاف والتصحر المهلكة، وانصهار الجليد من كل من المناطق القطبية وقمم الجبال، وما يمكن أن يسببه ذلك من ارتفاع لمنسوب الماء في البحار والمحيطات فيؤدي إلى إغراق كل من الجزر البحرية ودالات الأنهار وغيرها من المناطق الساحلية والسهول المنبسطة. وقد بدأت المناطق الجليدية فعلًا في التقلص، وبدأت الأمطار الغزيرة في خطوط العرض العليا والمتوسطة في الهطول بمعدلات متزايدة وبدأت تغيرات ملحوظة في المناخ وفي النظم البيئية المختلفة للأرض، ومنها زحف التصحر، وإغراق العديد من المناطق بالأعاصير المدمرة أو بالسيول المغرقة وتدمير مساحات هائلة من الأراضي الخضراء.

وتكفي هنا الإشارة إلى تصحر أكثر من ستة ملايين هكتار من الأراضي الزراعية وأراضي الرعي سنويًا في مختلف أجزاء الأرض منذ بدء الثورة الصناعية في أوروبا الغربية، وإلى تدمير أكثر من عشرة ملايين هكتار من أراضي الغابات وتحويلها إلى أراض زراعية فقيرة خاصة في أمريكا الجنوبية، وأخطار هذا الإفساد في الأرض لا يمكن أن تخفى على عاقل، ولا بد من التفكير الجاد لمعالجة ذلك وإلا هلكنا وهلكت الحياة من حولنا. فقد نقصت الثروة الحيوانية في العقود الثلاثة الماضية نقصًا ملحوظًا، وكذلك الثروة النباتية، وتم استنزاف العديد من الثروات الأرضية كالنفط والفحم والغاز الطبيعي، وباتت كل بيئات الأرض ملوثة.

وإذا أردنا المحافظة على حياة الإنسان فلا بد من تطهير بيئته من التلوث الذي يتسبب في خسائر سنوية تقدر بمليارات الدولارات، وإلى خسائر بشرية تقدر بحوالي 150 ألف نفس سنويًا في المتوسط. ومن الثابت علميًا أن معدلات التلوث في مختلف بيئات الأرض في تصاعد مستمر، وأن ما حدث من تلوث في القرن العشرين وحده يفوق كل ما حدث للأرض منذ بدء خلقها.

(5) الإفساد في الأرض بالتلوث الإشعاعي:

يعتبر التلوث الإشعاعي أشد منتجات التقنيات الحديثة إفسادًا لمختلف بيئات الأرض، وفتكًا بالإنسان والحيوان والنبات، وينتج هذا النوع من التلوث عن

تحلل العناصر المشعة التي أخذت دوائر استخدامها في الاتساع **بانتشار كل من المفاعلات والأجهزة والأسلحة النووية بمختلف صورها وأشكالها، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية بواسطة المواد النووية، والأجهزة الطبية والبحثية المستخدمة لتلك المواد، وتوظيف اليورانيوم المنضب (المستنفد) وغير المنضب في العديد من الصناعات الحربية والمدنية، وصعوبة التخلص من النفايات النووية** والتي لا تجد الدول المنتجة مثوى لها سوى قيعان البحار والمحيطات أو أراضي دول العالم الثالث. وضمان عدم وصول هذه النفايات إلى مختلف بيئات الأرض بعد دفنها يعتبر من المستحيلات، كذلك فإنه **لا توجد ضمانات كافية ضد عدم تسرب الإشعاع من محطات توليد الطاقة النووية، وذلك من مثل ما حدث في كل من مفاعل تشرنوبيل (Chernobyl) بالاتحاد السوفيتي السابق في 1986/4/26 م، ومن قبل في مفاعل جزيرة الأميال الثلاثة (The Three Miles Island) في ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية، ومفاعل اسكتلنده بالمملكة المتحدة** وما أحدثته هذه التسربات الإشعاعية من كوارث بيئية وبشرية كبيرة أُعْلِنَ عن بعضها، وتم التستر على البعض الآخر.

وقد أخذت نسب الإشعاعات النووية بالتزايد في مختلف بيئات الأرض بصورة تنذر بالخطر وذلك مع **التوسع في استخدام النظائر المشعة في العديد من الأنشطة الصناعية والطبية طوال العقود القليلة الماضية.**

هذا وقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية في إنشاء محطة في ألاسكا سنة 1990 م تعمل بالموجات اللاسلكية عالية التردد عبر مجمع من الهوائيات العملاقة التي تبث 3.6 ميجا واط من الطاقة الإشعاعية عالية التردد إلى النطاق المتأين في الغلاف الغازي للأرض بدعوى دراسات مناخية، وإن كانت أغراضه العسكرية غير خافية؛ مما دفع بالاتحاد الأوروبي إلى الاحتجاج على ذلك المشروع لآثاره الخطيرة على الجهاز العصبي في كل من الإنسان والحيوان على مستوى كل الأرض.

والأشعة النووية لها قدرات تدميرية مهلكة للخلايا والأنسجة الحية إذا تعرضت لها بجرعات تتجاوز احتمالها، ويعتقد بأن لذلك علاقة بزيادة الإصابة بالأورام السرطانية في السنوات الأخيرة خاصة أن أهل الأرض لم يكادوا يخرجون من آثار الثورة الصناعية حتى دخلوا في حربين عالميتين كان ضحاياهما أكثر من 65 مليون قتيل غير ملايين المقعدين والمشردين والأيتام والأرامل وعشرات البلايين من الدولارات على هيئة

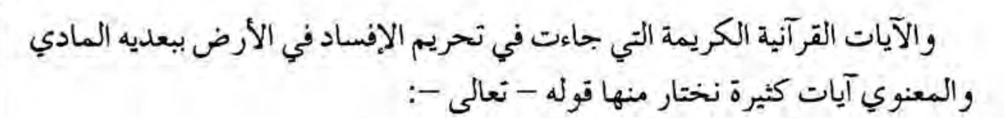


خسائر مادية متنوعة. وانتهت الحرب العالمية الثانية **بكارثتي كل من فلسطين واليابان حين سلمت المؤامرة البريطانية أرض فلسطين لغلاة الحركة الصهيونية العالمية دون أدنى حق فأغرقوها في بحر من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، وضربت الطائرات الأمريكية مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين بالقنابل الذرية فأبادتهما إبادة كاملة، وأهلكت سكانهما وتركت حفنة من الناجين في حالات من التشوه والإعاقة المرعبين، ولوثت مختلف البيئات بآثار الإشعاع التي لا تزال باقية إلى يومنا الراهن.**

وإذا أضفنا إلى ذلك مخزون الدول الصناعية الكبرى (وأذنابها من مثل الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين) من آلاف **الرءوس النووية ولغيرها من أسلحة الدمار الشامل بكميات كبيرة هي في تنام مستمر**، رأينا مصدرًا من أكبر مصادر تلوث البيئة. وقد جسدت الحرب الصهيونيةُ الأخيرة على قطاع غزة جانبًا من جوانب خطر استخدام أسلحة الدمار الشامل، فقد استخدم جيش الصهاينة المحتل لأرض فلسطين قنابل الفوسفور الأبيض، والناپالم، والطلقات المشعة (طلقات الدايم/ Dime Bullets) وقذائف اليورانيوم المنضب، وغير ذلك من الأسلحة المحرمة دوليًا على مدى ثلاثة أسابيع متصلة ضد مليون ونصف مليون مدني أعزل، محاصرين برًا وبحرًا وجوًا، في وحشية وهمجية لم يسبق لها مثيل في تاريخ كل حروب العالم. وآثار ذلك على كل بيئات المنطقة العربية لا يمكن إغفاله وإن لم تظهر نتائج ذلك كاملة بعد.

ولا تزال الأرض تعصف بها أعاصير الحروب الباردة والساخنة، ويزداد بها مخزون أسلحة الدمار الشامل عند الدول الصناعية وأذنابها، ولا يقتصر خطر تلك الأسلحة على استعمالها ولكن يكمن الخطر في إمكانية وقوع ثورة بركانية عارمة، أو هزة أرضية عنيفة، أو سلسلة من العواصف والأعاصير المدمرة التي يمكن أن تصل إلى ذلك المخزون وتفجره...!!

ومن دوافع تكديس أسلحة الدمار الشامل ذلك الصراع المتنامي على استنزاف ثروات الأرض وأغلبها ثروات غير قابلة للتجدد بنفس سرعات الاستنزاف. والإسراف المخل في التعامل مع العديد من هذه الثروات وهدرها في غير أوجهها الصحيحة أو تعطيلها بالكامل يعرض الأرض اليوم لسلاسل من الكوارث البيئية المادية، وإلى عواقبها المعنوية.



والآيات القرآنية الكريمة التي جاءت في تحريم الإفساد في الأرض ببعديه المادي والمعنوي آيات كثيرة نختار منها قوله – تعالى –:

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (البقرة: 27).
- ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ (البقرة: 205).
- ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف: 56 – 58).
- ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (الشعراء: 151 – 152).
- ﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: 77).
- ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص: 83).
- ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: 41)..
- ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (محمد: 22).

وهذه الآيات الكريمة وأمثالها هي من آيات الإعجاز العلمي والغيبي في كتاب الله لأنه لم يكن لأحد من الخلق إمكانية تصور الواقع البئيس للأرض في هذه الأيام من قبل ألف وأربعمائة من السنين، وهي تؤكد في نفس الوقت على مسئولية الإنسان مسئولية كاملة عن البيئة – ببعديها المادي والمعنوي – من أجل المحافظة على التوازن الذي أودعه الخالق – سبحانه وتعالى – في كل شيء، ومن أجل سلامة كل من الكون والإنسان في آن واحد، وقد جار الإنسان على الأرض في القرون القليلة الماضية جورًا يتهدد وجوده على سطحها بالأضرار الصحية والنفسية الشديدة وبالتشوهات الخلقية والعجز الجزئي أو الكلي إن لم يكن بالفناء، كما تهدد الحياة الفطرية من حوله بالتشوه والانقراض. ووصايا القرآن الكريم بالإصلاح في الأرض ومحاربة الإفساد فيها قبل إنشاء الاتحاد العالمي للمحافظة على البيئة (IUCN) بأكثر من ألف وأربعمائة سنة مما يشهد للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظه حفظًا كاملًا على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وتعهد بهذا الحفظ تعهدًا مطلقًا إلى ما شاء الله – تعالى – حتى يبقى القرآن الكريم شاهدًا على الخلق أجمعين بأنه كلام الله الخالق، وشاهدًا للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

الفصل السابع

حاجة الإنسانية إلى التعرف على التفسير الإسلامي للتاريخ

يقرر الإسلام العظيم أن الله – تعالى – **خلق أبانا آدم – عليه السلام** – من الطين، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، وأسجد الملائكة له، واستخلفه في الأرض وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا. وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: 30 – 34).

ومن الأصل الذي خلق الله – تعالى – منه أبانا آدم – عليه السلام – **خلق زوجه: أمنا حواء** – عليها رضوان الله – وأدخلهما الجنة وأمرهما بأوامر، ونهاهما عن نواهٍ، ولكنهما – بغواية من الشيطان خالفا أوامر الله – تعالى – فأخرجهما من الجنة الأرضية التي كانا فيها رغم توبتهما وقبول التوبة منهما، وفي ذلك تقول الآيات:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ

مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: 35 – 39).

وهكذا **أهبط كل من آدم وحواء وإبليس من الجنة**، وبدأت قصة الإنسان على الأرض، وقصة صراعه مع الشيطان، والتزامه بمنهج الرحمن، أو خروجه عليه، وحيوده عنه، في ملحمة متصلة تستغرق عمره، ومحصلتها الموت، وحساب القبر، ثم البعث، والحشر، والحساب، والجزاء بالخلود إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا.

وشاءت إرادة الله – تعالى – أن تُعْمَرَ الأرضُ بنسل أبوينا آدم وحواء – عليهما السلام – حسب مخطط وراثي دقيق، يُعْتَبَرُ الخروج عليه كبيرة من الكبائر، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ (النساء: 1).

وهذه الآية الكريمة التي جاءت في مطلع سورة «النساء» تؤكد على وحدانية الخالق – سبحانه وتعالى – وعلى وحدة الجنس البشري كله الذي ينتهي نسبه إلى أصل واحد هو نبي الله آدم – عليه السلام – وتؤكد على الأخوة الإنسانية بين الناس جميعًا مع اختلاف أعراقهم، وألوانهم، ولغاتهم، ولهجاتهم، وملامحهم، وتأكيدًا على ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات: 13).

وانطلاقًا من ذلك يؤكد القرآن الكريم أن الإنسان بدأ وجوده على الأرض عالمًا عابدًا، يعرف خالقه ومرسله إلى هذه الحياة الدنيا، ويعرف حقيقة رسالته فيها، وكيف يمكن له تحقيق هذه الرسالة على الوجه الذي يرتضيه رب العالمين، ثم ما مصيره بعد هذه الحياة، ولذلك عاش بنو آدم لعشرة قرون كاملة على التوحيد الخالص لله، ثم اجتالتهم الشياطين وأغوتهم بعبادة الأصنام، وبعث الله – سبحانه

وتعالى – سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين لرد بني آدم إلى توحيد خالقهم، ولكن الإنسان ينسى أحيانًا، ويتعرض لوساوس الشيطان، ونفثه، وغواياته، فإذا تذكر عهده مع الله – تعالى – يوم أن كان في عالم الذر أو استمع إلى وحي الله من أحد أنبيائه أو رسله فسارع بالاستغفار والتوبة، ثبته الله على الحق؛ وإذا نسي عهده مع الله، وانساق مع غواية الشيطان ضل وأضل. وظلت هذه هي مسيرة البشرية عبر تاريخ الإنسان على الأرض، يتعاوره الإيمان والكفر، فكلما عاشت المجتمعات الإنسانية وفق الهداية الربانية سعدت وأسعدت، وكلما ضلت عن دين الله شقيت وأشقت.

ولقد شاءت رحمة الله بعباده ألا يكلهم إلى ما طبعه في الجبلة الإنسانية من إيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وإلى ما أشهدهم على أنفسهم به وهم في عالم الذر والذي وصفه ربنا –تبارك وتعالى– بقوله العزيز:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ (الأعراف: 172).

كذلك شاء الله – تعالى – ألا يكل الناس إلى العلم الذي علمه لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، وقد كان نبيًّا مكلمًا، ولا إلى ما قام به آدم – سلام الله عليه – من تعليم كل من زوجه وأبنائه ومن شاهد من أحفاده، في زمن كان الفرد يعيش لمئات من السنين، وكانت قاماتهم تفوق متوسط أطوال إنسان اليوم من (10) إلى (15) ضعفًا، ولذلك أرسل ربنا – تبارك وتعالى – الأنبياء والمرسلين إلى كل ركن من أركان الأرض، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

وفي الإسلام العظيم كل رسول نبي وليس كل نبي برسول، بمعنى أنه إذا انحرف الناس عن الهداية الربانية، وأصول تلك الهداية لا تزال موجودة بين أيديهم، أرسل الله – تعالى – إليهم نبيًّا يردهم إلى دين الله (وهو الإسلام)، ولكن إذا كانت الهداية الربانية قد ضاعت أصولها، وأخذ الناس في تحريفها وتغييرها وتزويرها بعث الله – تعالى – إليهم رسولًا برسالة من الله – تعالى – تدعوهم إلى دين الله من جديد (وهو الإسلام). ودين الله هو بيان من الله – تعالى – للإنسان، في القضايا التي



يعلم ربنا – تبارك اسمه – بعلمه المحيط أن الإنسان يعجز عجزًا كاملًا عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها، وذلك من مثل قضايا **العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات**، والعقيدة قائمة على الإيمان بالكثير من الأمور الغيبية التي لا تخضع لحس الإنسان ولا لقدرات عقله، فإذا لم يتلق الإنسان فيها بيانًا من الله، يكون بيانًا ربانيًا خالصًا لا يداخله شيء من التصورات البشرية، لا يمكن أن يكون الإنسان على عقيدة صحيحة مهما أخلص لها، ومهما تفانى في خدمتها، وسوف تلقى في وجهه كالخرقة البالية يوم القيامة. وكذلك العبادة لأن من المفهوم اللغوي للعبادة هو قمة الخضوع لله بالطاعة، ولا توجد طاعة بغير أوامر، وعلى ذلك فالعبادة لا بد أن تكون قائمة على أساس من الأوامر الربانية الخالصة التي لا يداخلها أدنى قدر من التصورات البشرية.

أما الأخلاق والمعاملات فكلاهما ضوابط للسلوك، والتاريخ يؤكد على عجز الإنسان دومًا عن وضع ضوابط صحيحة لسلوكه، فإذا بنيت دساتير الأخلاق، وقواعد المعاملات على أساس من التصورات البشرية ضاعت مكارم الأخلاق، وحدثت المظالم والتجاوزات في السلوك بصورة غير محدودة.

من هنا كان من رحمة الله – تعالى – بعباده أن أرسل لهدايتهم في أمر الدين مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، وأنه اصطفى من هذا العدد الكبير من الأنبياء ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا، بعثوا جميعًا بالإسلام الذي علمه ربنا – تبارك وتعالى – لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، وأنزله على هذه السلسلة الطويلة من أنبياء الله ورسله، وأتمه وأكمله وحفظه في الرسالة الخاتمة التي بعث بها الرسول الخاتم ﷺ.

ولكونها الرسالة الخاتمة، تعهد ربنا – تبارك وتعالى – بحفظها تعهدًا مطلقًا فحفظت في نفس لغة وحيها (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وسوف تظل محفوظة بحفظ الله إلى ما شاء، سبحانه وتعالى.

وباستعراض تاريخ البشرية نجد أن فترات النبوة كانت ومضات بارقة وسط ظلام الجاهلية الدامس، وكأن الإنسان لم يتعلم من هذه التجربة الطويلة على الأرض – والتي استمرت لعدة عشرات الآلاف من السنين – **أن الحياة الدنيا لا تستقيم بغير دين، وأن الدين لا يمكن أن يكون صناعة بشرية**، وبالتالي فلا يمكن للإنسان أن يحيا على هذه الأرض حياة سوية بدون الاستقامة على أساس من الهداية الربانية التي وضعت له المنهج الصحيح للحياة على الأرض.

فبعد جهود مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، وبعد نزول ثلاثمائة وبضع عشرة رسالة سماوية ضاعت كلها من أيدي الناس، وما بقي من ذكريات عن الآحاد القليلة منها ظل أتباعها يتناقلونها شفاهًا من الآباء للأبناء، ومن الأجداد للأحفاد على هيئة قصص شعبي، أضيف إليه من خيالات رواته ما أضيف، وحُذف ما حُذف، ونُسي ما نُسي، وبُدِّل ما بُدِّل، وغُيِّر ما غُيِّر، ثم جاء وقت تدوينه بعد أكثر من ثمانية قرون كاملة من موت نبي الله موسى - عليه السلام- وبعد أكثر من مائة سنة من رفع نبي الله عيسى - عليه السلام - وقام بتدوينها العديد من الأقلام في أماكن متفرقة، وفي أزمنة متباعدة، وكان أصحاب هذه الأقلام من النفر العاديين الذين لم يكونوا بالأنبياء ولا بالمرسلين، فلم يكونوا من المعصومين وبذلك ملئوا هذا القصص بالخرافات والأساطير، وبالانحرافات الشديدة عن حقيقة ما أنزل الله - تعالى - لهداية عباده، فضلوا وأضلوا، وأشبعوا الإنسانية ظلمًا وجورًا وملئوا الأرض فسادًا وطغيانًا إلى أن مَنَّ الله - تعالى - على البشرية كلها ببعثة الرسول الخاتم ﷺ الذي ليس من بعده نبي ولا رسول؛ ولذلك تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ رسالته الخاتمة حتى يتحقق وعده الإلهي الذي قطعه على ذاته العلية بقوله العزيز:

﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: 15).

وقد بعث الله - تعالى - خاتم أنبيائه ورسله في مكة المكرمة، وجعل بعثته رحمة للعالمين فقال - عز من قائل - مخاطبًا سيدنا محمدًا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107).

وقال في حقه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: 45- 46).

وقال ربنا - وقوله الحق - مخاطبًا هذا الرسول الخاتم وأمته:

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ... ﴾ (المائدة: 3).

وقال - تعالى - محذرًا خاتم رسله ﷺ من حتمية الصراع بين الحق والباطل:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ... ﴾ (البقرة: 120).



وأكد – سبحانه – أن النصر للإسلام فقال – وقوله الحق –: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (الصف: 8).

وذلك على الرغم من إعلانه ﷺ عن الأخوة بين الأنبياء وبين الناس جميعًا قائلًا: **«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**[1].

وقائلًا: **«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟»**[2].

وبعد بعثته الشريفة مباشرة انتشر الإسلام من مكة المكرمة إلى أواسط آسيا شرقًا، وإلى الأندلس غربًا انتشارًا مذهلًا في سرعته؛ حيث تم ذلك في أقل من قرن واحد من الزمان.

وحمل المسلمون لواء المعرفة في شتى مناحي الحياة، وأقاموا واحدة من أطول الحضارات عمرًا، وأكثرها تكاملًا في تاريخ البشرية؛ لأنها كانت الحضارة الوحيدة التي جمعت بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، وكانت الحضارة الوحيدة التي استمرت لأكثر من ثلاثة عشر قرنًا متصلة (من أوائل القرن السابع الميلادي إلى الربع الأول من القرن الميلادي العشرين) على الرغم من سلاسل المؤامرات والحروب والغزوات التي تعرضت لها.

وخلال العصور الذهبية للحضارة الإسلامية كان الغَرْب يعيش في عصور يسميها مؤرخوه باسم عصور الظلام (Dark Ages)، التي لم يتمكن من الخروج منها حتى تعلم المنهج العلمي من المسلمين عن طريق احتكاكه بالحضارة الإسلامية عبر الوجود الإسلامي في الأندلس لأكثر من ثمانية قرون متصلة، وعبر النهضة العلمية الإسلامية في كل من شمالي إفريقيا، وصقلية، وجنوب إيطاليا، وفي مصر وبلاد الشام والعراق، وعبر الحروب الصليبية التي استمرت لأكثر من قرنين من الزمان. ومع تطبيق المنهج العلمي بدأ الغربيون في التوصل إلى نتائج مخالفةٍ مخالفةً تامة للمفاهيم البدائية عن خلق كل من الكون والحياة والإنسان الواردة في «سفر التكوين»

(1) صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب قول الله ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾.
(2) مسند أحمد – حديث رقم 23381.

وهو السفر الأول من أسفار ما يسمى بـ «العهد القديم»، الذي يدعي واضعوه أن الأسفار الخمسة الأولى منه تمثل توراة نبي الله موسى، علمًا بأن من الثابت تاريخًا أنها كتبت بعد موت موسى – عليه السلام – بأكثر من ثمانية قرون كاملة، وكتبت بلغات غير لغة الوحي، وبأيدي أناس عديدين، ليسوا بأنبياء ولا بمرسلين؛ ومن ثم لم يكونوا معصومين في أمر الدين، فملئوا هذه الأسفار بالأخطاء اللغوية، والعقدية، والتعبدية، والأخلاقية، والسلوكية، والعلمية، والتاريخية، ويكفي في ذلك اتهامهم لأنبياء الله جميعًا بأنهم من أبناء زنى المحارم، وأنهم زنوا بمحارمهم – شرفهم الله عن ذلك تشريفًا كبيرًا – كما يكفي في ذلك أن نسجل عليهم أن الله – تعالى – الذي أنزل كلًّا من صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل وأنزل القرآن الكريم فيما أنزل من رسالات سماوية، لم ينزل كتابًا اسمه «العهد القديم» ولا كتابًا اسمه «العهد الجديد»، فهذان الكتابان من الصناعة البشرية التي بنيت على أساس من عدد من الروايات الشفهية عن كل من توراة موسى، ومزامير داود، وإنجيل عيسى التي ضاعت أصولها بالكامل، ولم يعد لها وجود.

والأخطاء العلمية في «سفر التكوين» اصطدمت بنتائج البحوث العلمية القائمة على تطبيق المنهج العلمي التجريبي فأشعلت حربًا بين الكنيسة من جهة ورجال العلم من جهة أخرى في وقت كانت الكنيسة مهيمنة على مقدرات الحياة الأوروبية فتعرض العلماء الغربيون في بدايات عصر النهضة للسجن والتعذيب والحرق والقتل، ثم انتهت المعركة بانتصار العلم التجريبي الذي قدم للإنسانية خدمات جليلة في مجالات التطبيب، والصناعة والزراعة وغيرها، وبانتصاره أخذت العلوم المكتسبة كلها منحى معاديًا للإيمان بالغيب؛ ومن ثم للإيمان بالدين بصفة عامة. والكون كله محتاج إلى دين الله (أي: إلى الإسلام) خاصة وأن الغرب قد حقق قفزات هائلة في التقدم العلمي والتقني بخطى متسارعة، وساعده تفوقه التقني على احتلال معظم أراضي العالم الإسلامي احتلالًا عسكريًّا كان همه الأكبر استنفاد الثروات الطبيعية في البلاد المحتلة، والعمل الدءوب على تغريب أهلها تغريبًا كاملًا وذلك بإقصاء الإسلام عن مقامات اتخاذ القرار، وتنصيب نفر من أبناء المسلمين المتغربين في معظم أجهزة السلطة، فأفسدوا التعليم، والإعلام، والاقتصاد، والسياسة، والحكم، وأصبح على كل من يريد العيش بأمان أن يساير هذا التيار الدنيوي، الدهري، الفاسد، الذي باع نفسه للشيطان، وإلا اتهم بالإرهاب، والرجعية، والتخلف، وفرضت عليه كل صنوف الحظر والتشديد، والحصار والمحاربة في الرزق، وانتزعت كل حقوقه الشرعية والوطنية إن لم يتعرض لمصادرة الأموال، والسجن، أو القتل.

وبذلك انقسم عالم اليوم إلى الدول الصناعية الكبرى والمتوسطة، والتي حققت تقدمًا علميًّا وتقنيًا مذهلًا، رافقه انحسار ديني وأخلاقي وسلوكي مخل، أدى إلى إغراق الأرض في بحور من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، كما أدى إلى تلوث مختلف بيئات الأرض بما يهدد مصائر أهلها جميعًا بالأمراض والمخاطر، كما أدى إلى تكدس الأسلحة التقليدية، وغير التقليدية بأكثر مما يحتاج إليه لتدمير الحياة على الأرض بالكامل، وأدى إلى أخطر من ذلك وهو أن من يملكون أسباب هذا التقدم العلمي والتقني والعسكري قد تحللوا بالكامل من القيم الدينية والإنسانية، وحاولوا فرض قيمهم الهابطة على باقي أهل الأرض بالقوة من مثل إسقاط مؤسسة الأسرة واستبدال ما يعرف عندهم باسم «المساكنة» (Cohabitation)– أي المعاشرة بين الجنسين دون أدنى ارتباط – والحرية المطلقة للمرأة تفعل بجسدها ما تشاء، والسماح بالشذوذ الجنسي، والتشجيع عليه، وحمايته، والتشريع بتقنينه، والسماح لهؤلاء الشواذ جنسيًّا بالتبني وتنشئة الأطفال الأبرياء في مثل هذه البؤر الشيطانية العفنة، واختلاق الأعذار الكاذبة والواهية المبررة لاجتياح الدول الكبرى لأراضي المسلمين: دولة بعد دولة، لتدميرها وإثارة الفتن بين أبنائها من أجل تحقيق المزيد من تفتيتها ليسهل ابتزاز ثرواتها من النفط والغاز الطبيعي وغيره، ومحاولة فرض المزيد من تغريب أهلها عن الإسلام العظيم كما حدث ولا يزال يحدث في كل من أفغانستان، والعراق، والسودان، والصومال، وفي غيرها من دول العالم الإسلامي، وهنا يقرأ المسلم أمر ربنا – تبارك وتعالى – في محكم كتابه مخاطبًا أمة الإسلام بقوله العزيز: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ (البقرة: 143).

فيعلم أن هذه الشهادة ليست في الآخرة فقط كما يرى أغلب المفسرين، ولكنها شهادة في الدنيا قبل الآخرة، شهادة يقف فيها المسلم الفاقه لدينه، موقف الصمود والتصدي لكل محاولات تغريب الأمة الإسلامية، ومحاولات إخراجها عن دينها، وفرض القيم الهابطة على أبنائها. وفي هذا الموقف يجب صمود المسلمين دفاعًا عن الإسلام العظيم في مواجهة إفساد التيارات المادية الدهرية في الأرض التي تحاول جعل أهلها بغير دين، أو أن تفرض عليهم معتقداتهم الفاسدة، التي تحرض على ظلم الآخرين كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها اليوم على أراضي كل من العراق وأفغانستان والصومال والسودان وغيرها، وقد

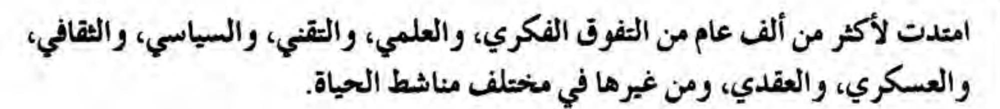
أفزعهم انتشار الإسلام بين كبار المفكرين عندهم، في الوقت الذي يتخيلون فيه أنهم قد أحكموا قبضتهم على ديار المسلمين، وعلى كل من حكامهم، وأهل المال فيهم.

وعلى ذلك فإن الرسالة الأولى التي نستمدها من هذه الآية القرآنية الكريمة (البقرة: 143) هي أنه على كل مسلم فاقه لدينه أن يقف موقف المؤمن بربه، المتوكل عليه حق التوكل، مقاومةً لهذه الحملة الشيطانية الشرسة التي تقودها اليوم الولايات المتحدة الأمريكية وأذنابها، حتى يتمكن من ردهم إلى دين الله بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي وذلك باتضاح الحق من الباطل؛ لأن الأصل في الإنسان هو الخير، والشر أمر عارض له، ولأن الإسلام هو دين الله الذي لا يرتضي من عباده دينًا سواه، وأن القرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من هداية رب العالمين المحفوظة بين أيدي الناس منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا حتى اليوم، محفوظة في نفس لغة الوحي بها (اللغة العربية)، وقد تعهد ربنا – تبارك وتعالى – بهذا الحفظ لكتابه الخاتم تعهدًا مطلقًا حتى يبقى القرآن الكريم شاهدًا على الخلق أجمعين إلى يوم الدين.

ونتيجة للتآمر الدولي على العالم الإسلامي، انفرط عقده في الوقت الذي أصابت المسلمين الغفلة عن أوامر ربهم، والانصراف عن أصول دينهم، والانشغال بالدنيا حتى وقع العالم الإسلامي كله في قبضة أهل الباطل بعد أن كان المسلمون قد أقاموا أطول وأكمل حضارة في تاريخ البشرية كلها، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من ذلك قائلًا: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[1].

ويشعر المسلمون المعاصرون بأنهم يعيشون منذ فترة طويلة تحت حصار مفروض عليهم من الغرب وهيمنته الاستعمارية، وأنهم ينطلقون حاليًا من موقع الضعف والهوان، والتعرض الدائم للخطر الغربي المترصد لكل صحوة إسلامية، والمتآمر في السر والعلن على كل مصلحة إسلامية، دون وجه حق؛ ويحرص الغرب على إبقاء المسلمين دومًا في هذا الوضع من التفرق والتشرذم، والتخلف بعد أن تآمر على حضارتهم، وعمل جاهدًا على إسقاط دولة خلافتهم، وعلى تمزيق وحدتهم، واستعمار غالبية بلادهم، بعد حضارة

(1) سنن أبي داود – كتاب الملاحم – باب في تداعي الأمم على الإسلام.



امتدت لأكثر من ألف عام من التفوق الفكري، والعلمي، والتقني، والسياسي، والثقافي، والعسكري، والعقدي، ومن غيرها في مختلف مناشط الحياة.

وشعور المسلمين بصدمة الضياع أمام مسلسل التآمر الغربي قد صاحبه شعور بالانهيار الداخلي نتيجة لتمزق أمة المسلمين إلى أكثر من 57 دولة ودويلة أشعل المستعمر بينها من الخلافات الفكرية والسياسية والمذهبية والحدودية ما زادها تمزقًا وفرقة. وليس هذا فقط فعلى الرغم من أن العالم الإسلامي له ثقافته الراسخة، وشريعته الخالدة، ومعاييره المنضبطة، وقيمه السامية، فإن الثقافة الغربية قد بدأت ومنذ قرنين من الزمان – في التسلل إلى مجتمعاته والتغلغل فيها مما أدى إلى إفسادها، وإلى تخليها عن العديد من القيم والممارسات الإسلامية. فقد عمل المحتل المعادي بكل طاقته على إرغام المجتمعات المسلمة على التلاؤم بوسائل عديدة مع الهيمنة الغربية ومحاولات فرض سلطان الغرب وقيمه الهابطة على بلاد المسلمين، حتى أصبحت مشاعر القلق والإحساس بفقدان الأمن تكمن عميقة داخل كل نفس مسلمة في المجتمعات الراهنة وإن لم تعبر عن ذلك صراحة. وهنا يتجسد التمزق في داخل كل نفس مسلمة معاصرة فكيف يمكن لها أن توفق بين وضعها الضعيف والثانوي في العالم المعاصر وبين كونها تجسيدًا لاصطفاء الله للأمة الإسلامية كالأمة الوسط الشاهدة على غيرها من الأمم، والتي تحقق دورها هذا في زمن ازدهارها القوي المجيد على مدى أكثر من عشرة قرون منذ القرن السابع الميلادي إلى مشارف القرن التاسع عشر الميلادي؟

وبينما يمثل الإسلام كمال الرسالات السماوية إلى أهل الأرض جميعًا، يرى المسلمون أن المسيحيين الذين انطلقوا من الشرك بالله – تعالى – خالق الخلق ومبدع الوجود، وإلى الخلط بينه وبين عبد من عباده هو يسوع أو المسيح عيسى ابن مريم – عليهما السلام – وبين ملك من ملائكته هو جبريل – عليه السلام – أو ما يسمونه باسم الروح القدس، فإن المسيحيين يريدون أن يفرضوا عقائدهم الباطلة على أمة التوحيد بالقوة. ومن ثم فبدلًا من القول بأن عيسى نبي كريم، (وقد كان كذلك حقًّا)، اعتبره المسيحيون ابنًا لله بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وفي الإسلام الله واحد أحد (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد) وهو – تعالى – منزه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ومحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين الذين أوحى الله – تعالى – إليهم جميعًا بعقيدة التوحيد (أي

وحدانية الله)، والإسلام كما تكامل في بعثة الرسول الخاتم ﷺ هو خاتم الرسالات السماوية وأكملها وأتمها، وهو الرسالة السماوية الوحيدة التي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظها، فحفظت حفظًا كاملًا في نفس لغة وحيها على مدى يزيد على أربعة عشر قرنًا، وهكذا كان الإسلام عالميًّا، وجاءت رسالة محمد ﷺ كأوضح رسالة دينية في التاريخ، وجرى تسجيلها على نحو دقيق بحيث لا يأتيها الشك أبدًا في أي جزء منها، فكيف يمكن للباطل أن يعلو على الحق؟ وكيف يمكن للشرك أن يعلو على التوحيد الخالص لله؟

والانتشار المذهل للإسلام من مكة المكرمة إلى جبل طارق غربًا، وإلى آسيا الوسطى والتركستان شرقًا على مدى قرن واحد من الزمان هو شهادة على صدق هذا الدين القائم على الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وعلى الالتزام بإقامة مجتمعات تعمل بحدود الله كما جاءت في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول الخاتم ﷺ. وعلى الرغم من ذلك يرى فيه كل من اليهود والنصارى خطرًا داهمًا عليهم فعملوا ولا يزالون يعملون على محاربة دين الله بكل وسيلة ممكنة من أجل الحيلولة دون أية وحدة أو صحوة أو نهضة للمسلمين.

ويعترف كل من اليهود والنصارى بأن واحدة من أعظم الإمبراطوريات الإسلامية - وهي الإمبراطورية العثمانية - استمرت إلى مطلع القرن العشرين، ولم تسقط إلا بمؤامرات غربية عليها استمرت لأكثر من ثلاثة قرون.

ومنذ إسقاط دولة الخلافة العثمانية والعالم الإسلامي يناضل من أجل استعادة عظمة الماضي، ولكن المؤامرات الغربية كانت له - ولا تزال - بالمرصاد. وفي مواجهة تلك المؤامرات والدسائس الغربية ظهر ما يعرف اليوم باسم «**الإسلام السياسي**» كرد فعل للمؤامرة الصهيونية/المسيحية التي عملت على إسقاط دولة الخلافة الإسلامية وعملت - ولا تزال تعمل - على حرمان المسلمين من القيادة السياسية التي تمكنهم من توحيد صفوفهم في وحدة واحدة قادرة على الصمود في وجه كل التحديات والمؤامرات الدولية التي لم تتوقف أبدًا منذ أربعة عشر قرنًا.

وإذا كان المسلمون يتألمون لفقدان أمجادهم القديمة فإن تألمهم من استمرار الهيمنة الغربية عليهم هو ألم أشد، وذلك لأن كلًّا من اليهود والنصارى لا - ولن - يرضى أبدًا عن المسلمين، ولا يوافقهم في رؤيتهم للتاريخ، ولا في تفسيرهم لأحداثه، على الرغم من أن الرؤية الإسلامية للتاريخ هي واقع حقيقي يرتكز



على كل من وحي السماء والأحداث التاريخية المهمة في حياتهم وتجاربهم مع الغرب، وأن القراءة الإسلامية للتاريخ لا تغفل الخلفية النفسية والثقافية للعلاقات المتبادلة بين الجانبين الإسلامي والغربي، وصدق الله العظيم إذ يقول – وقوله الحق – ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: 120).

رؤيــة المسلمـين للتـاريـخ

أولًا: الصدام الحضاري على أساس من العقيدة:

يعلم كل من اليهود والنصارى أن المسلمين يؤمنون بانحراف أصحاب هاتين الديانتين عن المنهج الرباني الذي أنزل إلى كل من موسى وعيسى – عليهما السلام –. فنظرة الإسلام إلى اليهودية الحالية أنها انحراف جائر عن رسالة موسى عليه السلام؛ لأن اليهود فقدوا التوراة وابتدعوا في الدين، وانحرفوا عن منهج رب العالمين.

ونظرة المسلمين إلى المسيحية المعاصرة لا تختلف عن ذلك، فبعد أن قدم يسوع المسيح إلى العالم بتعاليم من الله – تعالى – انحرف المسيحيون عن رسالته، واتخذوا الرسول المرسل إليهم إلهًا يعبدونه من دون الله. ومن قبل زعم اليهود بأن عزيرًا ابن الله (تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا)، بينما يؤمن المسلمون بأن كلًّا من موسى وعيسى نبي من أنبياء الله مثل عدد كبير من الأنبياء السابقين على بعثة كل منهما؛ ومع وجود هذا الخلاف الاعتقادي الكبير فإن هناك من الأدلة الكافية ما يشهد بأن هذه الديانات الثلاث أصلها واحد، وعلى ذلك فإن من الصعب فهم مبررات أن يؤدي هذا الخلاف إلى صدام حضاري على أساس من العقيدة الدينية وحدها، وإن كان هذا الصدام قد دفع بغلاة اليهود والنصارى إلى الادعاء الباطل بأن القصص القرآني منقول عن العهد القديم.

وينسى كل من اليهود والنصارى أن التشابه في القصص الديني بين القرآن والعهدين القديم والجديد يرد إلى أن أصل كل الكتب السماوية واحد، ومصدرها واحد وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي أرسل الأنبياء والمرسلين، وأنزل الدين على فترة طويلة من الزمن، وعلى عدد كبير من الأنبياء.

وبدلًا من الإيمان بهذه الحقيقة المنطقية الموثقة توثيقًا دقيقًا، لجأ الغرب إلى إنكار بعثة المصطفى ﷺ، وإلى نشر الادعاء الباطل بأن هذا النبي والرسول الخاتم ﷺ قد نقل أفكاره الدينية عن كل من العهدين القديم والجديد، وكلاهما كتاب موضوع لا علاقة له بالرسالة التي أنزلت إلى كل من موسى وعيسى - عليهما السلام-.

كذلك ينسى كل من اليهود والنصارى أنه في الوقت الذي يؤمن فيه المسلمون ببعثة كل من موسى وعيسى (على نبينا وعليهما وعلى رسل الله وأنبيائه أجمعين من الله السلام) فإنهم جميعًا ينكرون بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وأن اليهود ينكرون أيضًا بعثة السيد المسيح (عليه من الله السلام)، ويتمحور اليوم كل من اليهود والنصارى حول نبي واحد من أنبياء الله يبالغون في تعظيمه إلى حد التأليه، وينسون الإله الخالق (سبحانه وتعالى). وهذه النظرة الضيقة للدين، وهذا الانحراف عن منهج رب العالمين هما سبب التعصب الديني الأعمى في الغرب - على الرغم من انصراف غالبية الغربيين عن الدين بصفة عامة - وهو السبب الحقيقي، والدافع الرئيسي من وراء كل المظالم والمآسي والحروب التي فرضها الغربيون على المسلمين؛ انتقامًا من محاولة المسلمين حمل هذا الدين الخاتم إليهم دون إجبار أو إكراه في دعوة سلمية اتسمت بالضوابط القرآنية الأصيلة التي يأمرنا بها ربنا - تبارك وتعالى - بقوله الكريم:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: 125).

وانطلاقًا من سوء فهم الغربيين للدوافع الحقيقية وراء كل الفتوحات الإسلامية التي لم يكن من أهدافها إكراه الناس على دين الإسلام، ولكن كان هدفها الحكام الذين حالوا بين شعوبهم وبين الاستماع إلى دين الله،اندفع أغلب الساسة والكتاب الغربيين لتفسير عدد من الصدامات التي وقعت بين المسلمين والغرب بالمنظار الغربي الأناني الضيق النظرة على النحو التالي:

(1) الصدام بين المسلمين والإمبراطورية البيزنطية:

ولدت «دولة الروم» أو «الدولة الهرقلية» من دول الإمبراطورية البيزنطية (1453 - 396م) في سنة البعثة المحمدية الشريفة (سنة 610 م) كدولة عسكرية إغريقية الطابع، أرثوذكسية المذهب - ثم أعلنت الحرب على الفرس الساسانيين، بعد أن كان الفرس



قد هزموا الإمبراطورية البيزنطية، واستولت دولة الروم منهم على كل من بلاد الشام ومصر وجزء كبير من أرض الجزيرة العربية، وحاولت صبغ هذه البلاد بالصبغة الهيلينية بالقوة. وهذه الأحداث ذكرها القرآن الكريم في مطلع سورة الروم، وأخبر بها – قبل وقوعها بحوالي عشر سنوات – بآيات تشير إلى تعاطف المسلمين مع نصارى الروم ضد الوثنيات الفارسية، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الروم: 1 – 5).

وعلى الرغم من ذلك فإن الروم ظلموا العرب الخاضعين لحكمهم ظلمًا جائرًا. وفي هذا الوقت (أوائل القرن السابع الميلادي) كان كل من مصر وبلاد الشام ومعظم ممالك الغرب الأوروبي – فيما عدا الفرنجة والكلت الإيرلنديين – تدين بالمسيحية على مذهب آريوس القائم على توحيد الله والإيمان بنبوة المسيح – عليه السلام – والمخالف تمامًا لكل من المذهبين الأرثوذكسي والكاثوليكي القائمين على دعوى التثليث.

وفي سنة 590 م تولى البابوية في روما القس (هلدبراند) الذي أخذ الاسم الكنسي (جريجوري السابع)، وبدأ صراع البابوية الديني الطويل مع كل المذاهب المسيحية، غير الكاثوليكية في أوروبا، ومع الدول الجرمانية حتى أدخلتها قهرًا في المذهب الكاثوليكي، وبخاصة مملكة القوط الغربيين في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث كان الصراع الكاثوليكي بعد ذلك مع كل من المسلمين واليهود.

وجدير بالذكر أن القوط الغربيين كانوا قد دخلوا إلى إسبانيا واجتاحوا من كان قد دخلها قبلهم من الجرمان، واستعبدوا أهلها من الأيبيريين الرومان ابتداءً من سنة 410 م (أي قبل دخول المسلمين إليها بثلاثة قرون) ولم يتحول ملوك القوط إلى الكاثوليكية إلا في سنة 587 م تحت ضغوط رهيبة من كرسي البابوية وجنوده.

وفي بداية القرن التاسع الميلادي قام «شارلمان» أقوى ملوك أوروبا الكاثوليكية بشن حرب إبادة حقيقية على الجرمان فيما يلي نهر الراين شرقًا؛ لإرغامهم على قبول

الكاثوليكية دينًا، وبعد قرن على وفاة شارلمان قام أباطرة الجرمان بنفس الدور ضد الصقالبة في شرقي أوروبا لينتزعوا منهم أراضيهم حتى نهر الدنيبر.

وكانت مجابهة المسلمين مع الإمبراطورية البيزنطية لها دافعان:

أولهما: إبلاغ الناس المقهورين تحت حكم تلك الإمبراطورية الجائرة بالرسالة السماوية الخاتمة التي حال حكامهم دون إبلاغهم بها.

وثانيهما: تحرير الشعوب العربية وغير العربية من استعمار الإمبراطورية البيزنطية وقد كان استعمارًا جائرًا ظالمًا متجاوزًا حدود أبسط حقوق الإنسان.

وعلى الرغم من وضوح تلك الدوافع الإسلامية الإنسانية النبيلة فإن غالبية الساسة والكتاب والمنظرين من اليهود والنصارى يعتبرون أن المسيحية قد واجهت الإسلام لأول مرة مواجهة جادة وخطيرة على الصعيد السياسي عندما اصطدمت الجيوش الإسلامية وجيوش الإمبراطورية البيزنطية الممثلة للمسيحية الشرقية والمحتلة مساحات كبيرة من الأراضي العربية، وسرعان ما نظر البيزنطيون إلى الإسلام على أنه خروج على المسيحية، بدلًا من الإقرار بأن المسيحية الرومانية كانت - ولا تزال - خروجًا على الإسلام الذي دعا إليه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام - كما دعا إليه كل أنبياء الله من آدم إلى محمد (عليهم جميعًا من الله السلام). واستمرت المواجهة بين القوتين الإسلامية والبيزنطية نحو 800 عام لتمثل بداية لصراع طويل جرى التعبير عنه بعبارات مختلفة بين الدول الإسلامية والمسيحية. وقد انتقل مركز ثقل هذا الصراع إلى أوروبا الغربية بعد فتح المسلمين للقسطنطينية في سنة 857 هـ (الموافق 1453 م) على يد الخليفة المسلم محمد الفاتح (رحمه الله رحمة واسعة) بعد أن قتل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين في ساحة القتال. وأعطى المسلمون لسكان القسطنطينية الأمن والطمأنينة على حياتهم وأموالهم وتجارتهم ماداموا يؤدون الضرائب لبيت مال المسلمين.. وعلى الرغم من أن الخليفة محمدًا الفاتح كان قد أبقى على استقلال الكنيسة في كل من بلغاريا واليونان تطبيقًا للشريعة الإسلامية السمحاء فإنه صلى الظهر في كنيسة آياصوفيا إيذانًا بتحويلها إلى مسجد تعبيرًا عن استياء المسلمين الشديد من جرائم الصليبيين في كل من بيت المقدس وباقي مدن فلسطين، وهي من أفظع الجرائم التي اقترفت في حق الإنسانية عبر تاريخها الطويل.

وقد أثار ذلك حفيظة المسيحيين ولا يزال إلى يومنا هذا، على الرغم من أن هذا المسجد قد حوِّل مؤخرًا إلى متحف من متاحف المدينة.

(2) الحروب الصليبية:

تختلف نظرة كل من المسلمين والمسيحيين إلى الحروب الصليبية التي استمرت لأكثر من قرنين من الزمان، (من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري/الموافق القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلادي) وعلى الرغم من ذلك فإن تلك الحروب لا تزال مستمرة إلى اليوم الراهن تحت العديد من الأقنعة المستترة والمكشوفة. وقد راح ضحية تلك الحروب ملايين من البشر، ودمرت آلاف من قرى ومدن المسلمين، وضاع الكثير من تراثهم، واستخدمت فيها أقذر الأساليب، وأحقر الممارسات من جانب كل من الصليبيين واليهود الغزاة المعتدين. وبالرغم من ذلك كله يحاول كتاب الغرب التبرير للحروب الصليبية رغم اعترافهم ببعض ما اقترف فيها من الجرائم البشعة حتى من وجهة النظر المسيحية، فيذكر كاتبان من كتابهما هما **جراهام فوللر وإيان ليسر** في كتابهما المعنون «**شعور بالحصار**» ما ترجمته: «ربما كان مقضيًا من البداية أن تكون المسيحية والإسلام غريمين متنافسين مادام الدين هو القوة المحركة للعلاقات الدولية». وأضافا ما ترجمته: «لم يكن وصول الجيوش المسيحية من أوروبا إلى الأرض المقدسة في رحلة للحج ولخوض حرب صليبية سوى بداية لحملة أوروبية عامة طويلة المدى لاستعادة الأراضي الخاضعة لسيطرة المسلمين في إسبانيا وصقلية والمشرق وفي غيرها، واستطاعت الحملات الصليبية على مدى مائة عام أن تحتل كل الأراضي المطلة على شرق البحر الأبيض المتوسط تقريبًا ابتداء من الحدود التركية إلى الحدود المصرية. وبحلول سنة 1187 م استطاعت الجيوش الإسلامية – التي جاء رد فعلها بطيئًا – أن تقضي في نهاية المطاف على المملكة المسيحية في بيت المقدس، وأن تستعيد المنطقة بأكملها إلى السيطرة الإسلامية».

«ولكن الحروب الصليبية أضحت منذ ذلك الحين حدثًا له آثاره الوجدانية العميقة عند المسلمين، ولم يعد يمثل فقط الغزو المادي للجيوش الغربية، بل يمثل أيضًا قيام دولة مسيحية فوق الأراضي الإسلامية، وما اقترفته هذه الدولة من جرائم بشعة وتجاوزات عديدة».

«وباتت هذه الأحداث – عندما يُسْتَرْجَع التاريخ – تبدو بمثابة المقدمات الأولى للاستعمار والإمبريالية الغربية التي جاءت فيما بعد، كما ترتبط في أنظار المسلمين بتأسيس دولة يهودية – ظلمًا واغتصابًا – على أرض فلسطين في سنة 1948 م، وهي الدولة التي خطط لها مهاجرون يهود من الغرب.. ولقد كان المسلمون والمسيحيون في القرنين العاشر والحادي عشر يعيشون في ألفة مشتركة، كما كانت طوائف المسلمين والمسيحيين تعيش معًا حياة مشتركة في غالبية أرجاء الشرق الأدنى، ولكن مع هذا فإن الحروب الصليبية كانت – ولا تزال – ترمز إلى وصول الجيوش الغازية باسم الدين المسيحي...».

وقد استمرت الحروب الصليبية عبر عدة حملات على النحو التالي:

- **الحملة الصليبية الأولى** (من 490 إلى 493 هـ/الموافق 1096 إلى 1099 م).
- **الحملة الصليبية الثانية** (من 540 إلى 545 هـ/الموافق 1147 إلى 1149 م).
- **الحملة الصليبية الثالثة** (من 585 إلى 588 هـ/الموافق 1189 إلى 1192 م).
- **الحملة الصليبية الرابعة** (من 600 إلى 602 هـ/الموافق 1202 إلى 1204 م).
- **الحملات الصليبية الخامسة إلى الثامنة** وابتدأت في سنة 609 هـ (الموافق 1212 م) واستمرت لأربع سنوات من (669 إلى 671 هـ/الموافق 1270 إلى 1272 م).

ولم تتوقف الحروب الصليبية ضد بلاد المسلمين لحظة واحدة، فقد كان كل من يهود ومسيحيي الغرب من وراء **غارة المغول** على بلاد المسلمين التي اجتاحت كلًّا من بلاد خوارزم وبخارى وسمرقند وكلًّا من إيران والعراق وبلاد الشام حتى تم سقوط بغداد وتدميرها بالكامل سنة 656 هـ (الموافق 1258 م)، ولم يوقف زحف المغول على العالم الإسلامي إلا هزيمتهم في **معركة عين جالوت** أمام جيوش المسلمين، ثم دخولهم في الإسلام جميعًا بعد ذلك.

وقد أشعل قلوب الغربيين حقدًا على الإسلام والمسلمين وصول هذا الدين الخاتم إلى رومانيا في سنة 661 هـ (الموافق 1262 م) على أيدي القوات التركية، والانتصارات المتتالية لدولة الخلافة العثمانية على مدى سبعة قرون تقريبًا (في الفترة من 657 إلى 1343 هـ/الموافق 1258 إلى1924 م).

ونتيجة لذلك أعلن البابا (**أوجانيوس الرابع**) **قيام حرب صليبية جديدة ضد المسلمين في سنة 847 هـ (الموافقة 1443 م)**. واستؤنفت مرة أخرى في السنة التالية (848 هـ الموافقة 1444 م) ولكن السلطان (مراد الثاني) ألحق بهم هزيمة منكرة ساحقة في **موقعة (ڤارنا)**، ثم بعد ذلك بأربع سنوات في **موقعة سهل قوصوه بالمجر**. وقد توج السلطان محمد الفاتح انتصاراته على الصليبيين بفتح كل من القسطنطينية (سنة 857 هـ/الموافقة 1453 م) وفتح بلاد الصرب (في سنة 863 هـ/الموافقة 1458 م)، وضم كلٍّ من ألبانيا وبلاد البوسنة إلى دولة الخلافة العثمانية بعد ذلك بخمس سنوات (868 هـ/1463 م)، وضم بلاد التتار (سنة 875 هـ/الموافقة 1470 م)، وإخضاع البنادقة وإجبارهم على دفع الجزية لدولة الخلافة الإسلامية ليسمح لهم بالتجارة مع الشرق (وذلك في سنة 884 هـ/الموافقة 1479 م)، وإعطاء أثينا استقلالًا داخليًّا (في سنة 886 هـ/الموافقة 1481 م) وهي سنة وفاة السلطان محمد الفاتح (رحمه الله رحمة واسعة).

ونسي الكُتَّاب الغربيون ومنهم الكاتبان «**جراهام فوللر**» و«**إيان ليسر**» كل هذه الانتصارات الإسلامية وتذكرا فقط هزائم المسلمين، كما نسيا أو تناسيا **أن البابا (ليو العاشر) شرع في إعداد حرب صليبية جديدة في سنة 933 هـ (الموافقة 1517 م)**. ونسيا أو تناسيا فتح جيوش دولة الخلافة العثمانية لكل من بلجراد (928 هـ/1521 م)، وجزيرة رودس (929 هـ/1522 م)، والبدء في فتح بلاد المجر (933 هـ/1526 م)، وحصار ڤيينا عاصمة النمسا مرتين (936 هـ/1529 م)، (1095 هـ/1683 م)، وفتح جزر بحر إيجة (950 هـ/1543 م)، وإتمام فتح بلاد المجر بالكامل وحصار شواطئ إيطاليا في نفس السنة، وفتح قبرص (978 هـ/1570 م).

ونسي هذان الكاتبان أن يذكرا في كتابهما المعنون «**خلف الحصار**» **أن الحروب الصليبية تجددت على يدي السفاح إيڤان الرهيب قيصر روسيا الذي استولى على مدينة «قازان» في سنة 970 هـ (الموافقة 1552 م)**، كما نسيا استيلاء تتار القرم المسلمين على مدينة موسكو (سنة 979 هـ/1571 م)، وفتح كل من بلاد القوقاز (985 هـ/1577 م)، وبلاد الأبخاز «چورچيا» (في سنة 1044هـ/الموافقة 1635 م) وإسلام أهلها بالكامل، وفتح جزيرة كريت (1080 هـ/1669 م).

ونسي الكاتبان «**جراهام فوللر**» و«**إيان ليسر**» **تجدد الحروب الصليبية بإعلان نداء «الواجب المشترك» في كل أوروبا (سنة 1073 هـ/الموافقة 1662 م)** والذي يلزم جميع

المسيحيين بالعمل ضد عدو الكنيسة الذي عبروا عنه بالمسلمين ودولة الخلافة الإسلامية، والذي انبثق عنه تحالف صليبي يضم كلًّا من إمبراطوري ألمانيا وألبانيا، وعصبة أوسبرج (اتحاد الراين)، والبنادقة، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا، وكان همُّ هذا التحالف الرئيسي مقاومة دولة الخلافة والسعي من أجل إسقاطها.

ونسي هذان الكاتبان أو تناسيا **مسلسل التآمر الغربي الخبيث ضد الإسلام والمسلمين الذي أخذ في التصاعد المستمر مع تزايد الإمكانات العلمية والتقنية في العالم الغربي ابتداءً من سنة 1092 هـ (الموافقة 1681 م)** وقد كانت بداية العد التنازلي في **إسقاط دولة الخلافة الإسلامية والذي تحقق للأسف الشديد في سنة 1343 هـ (الموافقة 1924م)** بعد سلسلة من الانتصارات والهزائم العسكرية المتبادلة على الجبهة الشرقية أمام القوات الروسية والصينية، وعلى الجبهات الشمالية والشرقية والجنوبية أمام القوات الأوروبية المختلفة (البولندية – الألمانية – المجرية – الصربية – اليونانية – النمساوية – البنادقة – وغيرها).

وبعد إنهاك دولة الخلافة العثمانية في العديد من المعارك على كل الجبهات، بدأت جولات الاستعمار الروسي والصيني والأوروبي الشرقي والغربي لأرض هذه الخلافة العظيمة بتنازلات في كل من التركستان الشرقية والغربية لكل من الصين والروس، وتنازلات في كل من أوروبا الشرقية والغربية امتدت من رومانيا والمجر إلى اليونان وبلاد البلقان.

ثم أتبعت تلك التنازلات **بالحملة الفرنسية على مصر (1213هـ/1798م)، وبتوقيع الحلف الثلاثي بين كل من فرنسا، وإنجلترا، وروسيا ضد دولة الخلافة العثمانية (1243هـ/1827م)** وما لبثت بروسيا أن انضمت للحلف بهدف إرغام الأتراك على الخروج من أرض اليونان.

ثم تلا ذلك **احتلال فرنسا لأرض الجزائر (1246هـ/1830م)، ثم احتلال الإنجليز كلًّا من كابل وقندهار (1255هـ/1839 م)** ثم اندحارهم منهما بعد ثلاث سنوات، **ثم احتلالهم عدن (1255هـ/1839 م)، واحتلال الإيطاليين أراضي ليبيا (1259هـ/1843 م)، وإشعال الروس حرب القرم ضد دولة الخلافة العثمانية (1269هـ/1852 م)**، وإعلان الجهاد الإسلامي بقيادة البطل **الحاج عمر تال** ضد المحتلين الفرنسيين لأرض السنغال وغربي إفريقيا (1270 – 1277 هـ/الموافق 1853 – 1860م)، الذين كانوا قد احتلوها منذ سنة 1070 هـ/الموافقة 1659 م، وتأسيس دولة إسلامية مترامية الأطراف



في غربي إفريقيا بعد ذلك بثلاث سنوات (1280هـ/1863م)، وفي نفس الوقت كان **الزعيم المسلم شامل** يقود الثورة ضد المحتلين الروس (1272هـ/1855م)، وكان **المجاهدون التركستان** يطردون الصينيين المانشو من تركستان الشرقية بعد احتلال دام أكثر من قرن من الزمان (1281هـ/1864م) ثم إعادة احتلالها مرة أخرى بعد اثنتي عشرة سنة، **ثم احتلال الإنجليز جزر الملايو (1284هـ/1867م)، واحتلال الفرنسيين أرض تونس، واحتلال البريطانيين أرض مصر في سنة واحدة (1299هـ/1881م)، ومن بعد ذلك احتلال الفرنسيين كلًا من تمبكتو وتشاد (1312هـ/1894 م)**، ثم **احتلالهم أرض المغرب (1312 هـ - 1325 هـ/الموافق 1894 م - 1907 م)** ثم **احتلال الجيش الإيطالي أراضيَ ليبية (1331هـ/1912 م)**، ثم **احتلال الإنجليز كلًا من العراق وفلسطين (1336هـ/1917م)**، ثم **فرض الانتداب الفرنسي على كل من سوريا ولبنان بعد احتلال أراضيهما بالقوة (1339هـ/1920 م)**، ثم **إلغاء دولة الخلافة الإسلامية بمؤامرة غربية (1343 هـ/1924 م)**. اشتركت فيها كل الدول الأوروبية بلا استثناء.

وينسى الكتاب الغربيون أو يتناسون **المؤامرة الصهيونية/الصليبية لاغتصاب أرض فلسطين** والتي حاكها الغرب بدهاء وخبث شديدين، ونفذتها القوى الاستعمارية وفي مقدمتها كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا انتقامًا من هزيمتهم في الحروب الصليبية، ثم تولى إثم الدفاع عن تلك الخلية السرطانية الغربية التي غرست في قلب العالمين العربي والإسلامي بالقوة كل دول حلف الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وكل الكتلة الشرقية بزعامة روسيا الشيوعية/الأرثوذوكسية.

وينسى الكتاب الغربيون أو يتناسون أن دوافع الحروب الصليبية هي التي أشعلت **حربي الخليج العربي الأولى والثانية** بتخطيط وتنسيق من قوى الشر في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وباقي دول الغرب التي جاءت إلى منطقة الخليج العربي بأكثر من نصف مليون جندي مزودين بأحدث ما أنتجت مصانع السلاح من أدوات الدمار في حملة تشبه تمامًا الحملات الصليبية الأولى، وفي هيئة احتلال عسكري جديد للأراضي العربية يخطط للبقاء فيها لآماد بعيدة، كما خططت الحملات الصليبية الأولى. ثم خرجت مذمومة مدحورة ذليلة كما ستخرج القوى المحتلة لأراضي المسلمين اليوم إن شاء الله (تعالى) الذي تعهد بنصر عباده المؤمنين، فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: 47).

وليست أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م إلا حلقة في مخطط الشر الغربي ضد الإسلام والمسلمين والذي ترسمه بدهاء وخبث شديدين كل من أجهزة الاستخبارات الصليبية الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية والموساد جهاز استخبارات ذنبها المسموم الذي غرسته ظلمًا وعدوانًا وزورًا وبهتانًا في قلب المنطقة العربية تحت اسم نبي من أنبياء الله هو يعقوب (إسرائيل) – عليه السلام – وجميع أنبياء الله ورسله منهم ومن مخططاتهم الشريرة وجرائمهم الوحشية براء.....!

وكل ذلك تم حتى تستغل أحداث سبتمبر الأسود في تحقيق تلك الاستباحة لأراضي فلسطين بمجازر ودمار وخراب وأعمال تتجاوز كل حقوق الإنسان كالتي حدثت في محرقة غزة الأخيرة (ديسمبر 2008/يناير 2009م). والعالم الغربي الذي يدعي لنفسه التحضر والمحافظة على حقوق الحيوان قبل الإنسان يرى ويسمع بتجاوزات جيش الاحتلال الإسرائيلي ومليشياته التي فاقت جرائمهما كل الحدود دون أن يحرك ساكنًا، بل يدعم ويؤيد سحق شعب مدني آمِنٍ بإغراقه في بحر من الدماء والأشلاء والدمار والخراب، ونسف مساكنه وتجريف أراضيه الزراعية بأحدث آلة عسكرية معاصرة، وبدعم مادي ومعنوي وعسكري صهيوني/صليبي غربي ليست له حدود.

وقد استُغِلَّت أحداث سبتمبر الأسود كذلك للتبرير الظالم والزائف لاستباحة قوات التحالف الغربي أراضي كل من أفغانستان والعراق، والصومال، والسودان، وأراضي إسلامية أخرى عديدة بطرق مباشرة وغير مباشرة، في احتلال عسكري سافر أو مستتر من أجل تحقيق الوجود الغربي بالقرب من منابع نفط كل من الخليج العربي وبحر قزوين، ويمكن من الهيمنة على مصادره، ووسائل نقله وتكريره، ومن أجل إنشاء قواعد عسكرية غربية من جديد في قلب العالم الإسلامي من أجل إثارة القلاقل والفتن التي يأملون في الوصول بها إلى مزيد من تفتيته. كذلك اتجهوا إلى قلب القارة الآسيوية على حدود كل من أعدائها التقليديين روسيا والصين، وأعدائها الجدد إيران وباكستان، كما اتجهوا إلى القارة الإفريقية من أجل خلق الذرائع المختلفة لحصار دول إسلامية مثل ليبيا، والسودان وإثارة القلاقل في كل منهما، وتحت دعاوى محاربة الإرهاب خططوا بدهاء شديد لإيقاف المد الإسلامي في الغرب وسنوا القوانين التعسفية لتحقيق ذلك في مجتمعات تتباهى بالديموقراطية والدفاع عن حريات وحقوق الإنسان.

ولذلك لم يكن غريبًا أن ينطلق **«البابا الجديد» للمسيحية/الصهيونية العالمية المدعو «چورچ بوش الابن»** وزبانيته من عصابة **«المسيحيين الجدد»** الذين يحكمون الولايات المتحدة الأمريكية كما يحكمون العديد من الدول الغربية منذ مطلع القرن الحادي والعشرين بنفس التسمية التي انطلقت في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي فسمى حملته الجديدة على العالمين العربي والإسلامي بأنها **«حرب صليبية»**..!!

ويفاخر «چورچ بوش الابن» بأن حربه الجديدة هي حرب صليبية دون حياء أو خجل مما فعله الصليبيون في القديم والحديث.

ومن الغريب أن كلًّا من «بابا روما الحالي» وحوارييه، و«بابا واشنطن الجديد» «چورچ بوش الابن» وزبانيته لم يفكروا في الاعتذار عن جرائم الصليبيين الغزاة المحتلين الذين عاثوا فسادًا في الأراضي الإسلامية لعدة قرون متطاولة ولا يزالون.. ولكنهم أصدروا مئات البيانات والاعتذارات لليهود عن معاداة السامية، وقاموا بتبرئتهم من دم السيد المسيح (على نبينا وعليه من الله السلام) الذي تصر كتبهم على أن اليهود قد صلبوه، ويجزم القرآن الكريم أنهم لم يتمكنوا من المساس به، وصدق الله العظيم إذا يقول:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾. (النساء: 157).

(3) التآمر الصليبي على دولة الإسلام في الأندلس:

يعتبر العديد من الكتاب اليهود والمسيحيين أن الحروب الصليبية كانت استجابة عسكرية من جانب العالم المسيحي كرد فعل للفتوحات الإسلامية على مدى قرون خمسة سابقة، وذلك على الرغم من أن معظم أراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية كانت قد اجتاحتها جماعات «الجرمان» المهاجرة من شمال وشرق أوروبا منذ أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الميلادي، كما كانت قبائل «الأنجلو ساكسون» قد اجتاحت الجزر البريطانية واستقرت فيها، وكانت قبائل «الفرنجة» قد غلبت قبائل «الكلت» واستقرت في بلاد «جالة»، في حين انتقلت قبائل «القوط الغربيين» إلى شبه الجزيرة الأيبيرية واختلطت بمن سبقوهم إليها وأقاموا دولة لهم

فيها وعاصمتها طليطلة، واستقرت قبائل «القوط الشرقيين» في إيطاليا، وأقامت كل من هذه القبائل مملكة لها وكانت تلك الممالك جرمانية الشكل لاتينية الحضارة.

ومعظم هذه الممالك - فيما عدا «الكلت الإيرلنديين» و«الفرنجة» - كانت مسيحية على مذهب آريوس الموحد لله والمؤمن بعيسى (عليه السلام) نبيًّا ورسولًا، والمعارض للمذهب الكاثوليكي الذي ابتدع التثليث، وادعى ألوهية المسيح - عليه السلام - حتى فرض البابا جريجوري السابع عليهم هذا المذهب بنهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي.

وجدير بالذكر أن «القوط الغربيين» كانوا قد اجتاحوا بلاد الأندلس واستولوا عليها من أيدي من كان قد دخلها قبلهم من «الجرمان»، وسادوا أهلها من «الأيبيريين» الرومان ابتداء من 410 م، أي أنهم سبقوا المسلمين بالدخول إلى تلك الأراضي بثلاثة قرون، ولم يتحول ملوكهم إلى الكاثوليكية إلا في سنة 587 م أي قبل دخول المسلمين بحوالي 124 سنة فقط.

ويرى أغلب الكتاب اليهود والمسيحيين في إخراج المسلمين من الأندلس (والذي استمر لمدة ثلاثة قرون من القرن الحادي عشر الميلادي إلى القرن الرابع عشر) عملية فتح مسيحي جديد للأندلس على الرغم من اعترافهم بأن الحكم الإسلامي للأندلس استمر ثمانية قرون كاملة، وكان واحدًا من أعظم مراحل الحضارة الإنسانية إشراقًا في كل أنحاء أوروبا لجمعها بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة جعلت الحياة زاخرة بالثراء الثقافي والفكري والاقتصادي، وعاش المسلمون جنبًا إلى جنب مع التجمعات المسيحية واليهودية في تسامح لم تعرف أوروبا له مثيلًا من قبل ولا من بعد.

ويذكر الكتاب الغربيون أن إسبانيا المسلمة كانت بمثابة السير الناقل العظيم لتراث الحضارة الإسلامية والحضارات السابقة إلى كل الدول الأوروبية، ولولاه لضاع كل من الأدب والفلسفة اليونانيان القديمان واللذان تمت ترجمتهما إلى العربية، واحتفظت بهما الحضارة الإسلامية الإنسانية في الأندلس حتى تمت ترجمتهما من العربية إلى اللاتينية ومن ثم نقلهما مع غيرهما من التراث الإسلامي إلى باقي الدول الأوروبية ثم إلى باقي دول العالم.

ويعترف الكثيرون من المعارضين للإسلام والمسلمين أن البحر الأبيض المتوسط ظل لزمن طويل بحرًا إسلاميًّا دون منازع، تتحرك فيه التجارة الإسلامية بين بلاد الأندلس وبقية دول العالم الإسلامي في شمال إفريقيا وبلاد الشام والجزيرة العربية والعراق وإيران إلى بلاد الصين مما أدى إلى ربط هذه المساحة الهائلة من الأرض بالثقافة الإسلامية واللغتين العربية والإسبانية.

وعلى الرغم من الحكم الإسلامي العادل الذي استمر على مدى ثمانية قرون في شبه القارة الأيبيرية، وعلى الرغم من الحضارة المشرقة التي أسسها المسلمون في بلاد الأندلس والتي وصل نورها إلى جميع أرجاء القارة الأوروبية، إلا أن الأوروبيين تآمروا - باسم المسيحية - على هذه الحضارة الزاهرة التي مدَّنتهم، وتسامحت معهم، واحترمت حرية الإنسان في الاعتقاد، وبنت قاعدة راسخة للعلوم والتقنية والفنون والآداب، ولمختلف مجالات الفكر الإنساني وإبداعاته!!

تآمر الغرب - وعلى مدى ثلاثة قرون كاملة - من أجل إخراج المسلمين من الأندلس، وبدءوا بالتوغل التدريجي، وبالتجسس، وإثارة القلاقل والفتن حتى انتهى الأمر بانهيار السلطة الإسلامية في تلك البلاد في سنة 1492 م، وتم إخراج آخر المسلمين من الأندلس عام 1609 م، بعد أن تعرض المسلمون في تلك البلاد لمظالم يعجز البيان عن وصفها، ويخجل كل أوروبي لديه ذرة من إنسانية أن ينسب إليه شيء منها، خاصة إذا كانت تلك المظالم قد اقترفت باسم المسيح - عليه السلام - وهو من أولي العزم من الرسل الذين أرسلوا بدعوة التراحم بين الناس..!

ففي سنة 1601م واجه المسلمون الإسبان حتمية الاختيار من ثلاثة خيارات لا رابع لها: إما التنصر، وإما الرحيل عن إسبانيا، أو القتل في موجة من التعصب الأعمى جَسَّدته محاكم التفتيش الإسبانية باسم الجهاد المسيحي بمعناه الأصيل، وقد كانت صورة مناقضة كل التناقض للتسامح الإسلامي على مدى ثمانية قرون مع كل من اليهود والنصارى في شبه القارة الأيبيرية.

وتم بالفعل إخراج أعداد كبيرة من المسلمين من إسبانيا في ظروف عاجلة ودون استعداد كافٍ، خرج معظمهم في زوارق صيد صغيرة لم تمكنهم من الوصول إلى الشواطئ المغربية في أغلب الأحوال، وراح ضحية عملية التهجير تلك عشرات الآلاف من المدنيين العُزَّل من الأطفال والنساء والشيوخ والشبان.

وهذه المأساة التي راح ضحيتها أكثر من أربعة ملايين مسلم في مجموعها العام تمثل صورة بشعة للعقلية المسيحية المتحجرة، والمتعصبة تعصبًا أعمى دون أدنى بصيرة، والتي لم تقدر للمسلمين حكمًا عادلًا منصفًا عاش كل من اليهود والنصارى في ظله بأمان كامل على مدى ثمانية قرون متواصلة.

وهذا الظلم البشع الذي تعرض له المسلمون في الأندلس لا يكاد يغادر ذاكرة أحد من مثقفي المسلمين. خاصة وأن الصورة نفسها قد تكررت في الهند بعد إقامة حضارة إسلامية زاهرة على مدى قرنين من الزمان أو يزيد، وقد محيت هذه الدولة من الوجود في ظل الاحتلال البريطاني لشبه القارة الهندية الذي عمل على تنحية الطبقة المسلمة الفاقهة لدينها عن سدة الحكم تنحية كاملة، كما عمل على إثارة الفتن بين المسلمين وغيرهم من الهندوس والبوذيين والمسيحيين، مما اضطر المسلمين إلى المطالبة بتقسيم البلاد. وعندما تم ذلك التقسيم فرَّت أعداد كبيرة من المسلمين الهنود إلى كل من باكستان وبنجلادش بعد جلاء القوات البريطانية عن الهند (سنة 1948م) وبقي بالهند قرابة المائة مليون مسلم يعاملون معاملة مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة أو دون ذلك. ومذابح المسلمين في كل من كشمير وحيدر آباد وفي غيرهما من مراكز تجمع المسلمين ناطقة بمدى الظلم الذي يتعرض له المسلمون في ظل حكم هندوسي بغيض يعبد فيه مختلف صنوف الحيوان ويحرق فيه المسلمون أحياءً.

وتتكرر نفس المآسي في كل من البلقان، وبلاد اليونان، والصين، وروسيا، وبلاد الشيشان، وأراكان، وجنوب الفلبين، وفي فلسطين، وجنوب السودان، وفي غير ذلك من البلاد التي حكمها المسلمون فأقاموا فيها عدل الله، وضربوا أروع النماذج للأخوة الإنسانية وللتسامح الديني ثم كان جزاؤهم فيها بعد أن فقدوا السلطان والحكم «جزاء سنمار» ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحرب الوحشية الشرسة التي شنتها القوات الصهيونية مؤخرًا على المدنيين في قطاع غزة على مدى ثلاثة أسابيع متواصلة من القصف الجوي والأرضي والبحري مستخدمين كل أنواع الأسلحة التقليدية وغير التقليدية المحرمة دوليًا بعد حصار دام ثلاث سنوات لأهل غزة من أجل قتلهم جوعًا أو مرضًا، ولما لم يفلح الحصار في تحطيم عزائم الثوار المجاهدين قام الإسرائيليون المحتلون بمحرقة للبشر، لا يعرف التاريخ لها نظيرًا فقتلوا وجرحوا وشردوا آلاف الأطفال والنساء والشيوخ

والشبان ودمروا القطاع تدميرًا كاملًا في قسوة بالغة وحقد دفين، وتجاوزات مروعة لكل حقوق الإنسان، دون أدنى استنكار من دول العالم التي تدعي لنفسها التحضر والمحافظة على حقوق الإنسان!!

ومذابح المسلمين في حروب البلقان الأخيرة، وبحار الدم التي يغرق فيها مسلمو فلسطين والشيشان وكشمير وأراكان والمقابر الجماعية لعشرات الآلاف من المسلمين الذين دفنوا أحياء بأيدي مجرمي كل من الصرب والكروات، والتي تكتشف في كل يوم، خير شاهد على التعصب الصهيوني/الصليبي الأعمى باسم الدين، والدين بريء مما يفعلون..!!

ومن هنا فإن غالبية الكتاب اليهود والمسيحيين يقررون بأن ظاهرة ما يسمونه بـ «**الإسلام السياسي**» جاءت كرد فعل لهزيمة الأمة الإسلامية، وكمحاولة للعودة بها مرة أخرى إلى أسس وجذور العقيدة الإسلامية التي يمكن للأمة أن تستعيد بها عظمة الماضي التليد، على النحو الذي تتعلق به وتعكسه قوة الحضارة الإسلامية وتكافل مجتمعاتها، **ومن هنا فإن الرؤية الإسلامية للتاريخ تختلف اختلافًا جذريًا عن الرؤية الغربية.**

فعلى الرغم من جرائم الغرب في حق المسلمين، والتي لا تعد ولا تحصى فإن المسلمين كانوا – ولا يزالون – يؤمنون بعدم وجود ضرورة لصدام حضاري على أساس من الدين لأن من أصول الإسلام أنه ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: 256)، ومن أصوله ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: 29)، ومن أصوله ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون: 6).

ولكن على النقيض من ذلك يرى الغرب في الإسلام خروجًا على مسيحيته بدلًا من أن يرى في مسيحيته خروجًا على الإسلام، ومن ثم فإن الغرب يرى أن هذا الخروج لا بد أن يؤدي إلى شيء من الصدام الحضاري؛ ففي الوقت الذي تقرر فيه سماحة الإسلام أن يترك لكل إنسان حرية التدين بعد البلاغ المناسب له، يحاول الغرب تنصير مسلمي العالم بالإكراه، أو بالمساومة على الدين في حالات الفقر، والبطالة، والخلافات العائلية، والأمراض النفسية وفي غير ذلك من مواقف الأزمات والحاجة، فيساومون كلًا من لاجئي الحروب، واللاجئين السياسيين، والناس في حالات الكوارث والأزمات على دينهم بلقمة العيش أو قطرة الدواء أو خيمة الإيواء.

وكثيرًا ما يباهي الكتاب من اليهود والمسيحيين بضرب نماذج من التاريخ لهذا الصراع الحضاري على أساس من العقيدة كما أسلفنا بالصدام بين المسلمين والإمبراطورية البيزنطية، وبالحروب الصليبية، وبالتآمر على دولة الإسلام في الأندلس حتى تم إخراج المسلمين منها بعد حضارة دامت أكثر من ثمانية قرون كاملة، لم تعرف البشرية لها نظيرًا من قبل، كما يضربون مثلًا بمحنة المسلمين في الهند بعد حضارة إسلامية رفيعة دامت أكثر من قرنين من الزمان حكم طوالها المسلمون كافة مقاطعات الهند، ثم أسقط الاستعمار البريطاني دولتهم في شبه القارة الهندية بمؤامراته الخسيسة.

كذلك خطط الغرب لقرون عديدة من أجل إسقاط دولة الخلافة العثمانية، ومن ثم تشتيت المسلمين في عدد كبير من الكيانات الهزيلة المتناثرة مما مكن الغرب من استعمار غالبيتها، واستعباد شعوبها، وحبك العديد من المؤامرات من أجل الحيلولة دون إعادة توحدها، وخلق الكثير من المشاكل التي عاشها ولا يزال يعيشها المسلمون انطلاقًا من مظالم الغرب وكيدهم واضطهادهم المسلمين في كل مكان، ويعتبر الغربيون ذلك انتصارًا لهم على المسلمين.

(4) السعي الصهيوني/الصليبي الحثيث من أجل إسقاط مفهوم أمة الإسلام:

تحت هذا العنوان يذكر كثير من الكتاب اليهود والنصارى **أن رسول الله ﷺ حين وضع قواعد لدولة الإسلام في المدينة المنورة لم يؤسس تلك القواعد على أساس من أنها مجرد ثورة دينية، بل على أساس من أنها ثورة اجتماعية وسياسية أيضًا**. وحين ظهر النبي محمد ﷺ في شبه الجزيرة العربية كان يسودها ولاء قبلي هو مناط الالتزام السياسي النهائي، ولكنه ﷺ دعا إلى بناء أمة إسلامية جديدة، أي بناء مجتمع يسمو بدينه على جميع الخلافات القبلية والإقليمية والعرقية، وتكون له هويته الجديدة وهي **الهوية الإسلامية**، ولقد كان العالم أجمع – ولا يزال – مدعوًّا للدخول في الإسلام.

ولا يزال **الإحساس بالأمة الإسلامية الواحدة** يمثل – وإلى يومنا هذا – جزءًا من التكوين النفسي للمسلم، بينما اختفى هذا الإحساس عند المسيحيين تمامًا على المستوى الشعبي، اللهم إلا إذا لجأت إليه دولة من الدول كذريعة سياسية تبرر بها موقفًا ما كما حدث من كل من أرثوذكس الصرب، وكاثوليك الكروات في حروب البلقان الأخيرة، أو لجأت إليه كنيسة من الكنائس من مثل الكنيسة الأرثوذكسية



الشرقية التي – لأسباب تاريخية محضة – أنشأت لها فروعًا قومية في كل من اليونان وأرمينيا والصرب مما يوحي بشيء من التواجد على مستوى أمة دينية مسيحية في مواجهة غيرها من الأمم المسيحية وغير المسيحية.

وقد خططت المؤامرات الصهيونية/الصليبية من أجل إحلال القومية محل الدين في أغلب المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وذلك من مثل القوميات العربية، الكردية الأمازيغية، الفرعونية، النوبية، التركية، التركمانية، الفارسية، الأشورية وغيرها، حتى أصبحت هذه العرقيات بديلًا عن الدين كقوة سياسية عاطفية محركة ولو ظاهريًا. وفي المجتمعات المتدينة استخدمت القوى الاستعمارية الغربية الخلافات المذهبية كوسيلة لتمزيق الأمة الإسلامية كما فعلت الولايات المتحدة وأذنابها في كل من العراق وأفغانستان، وينسى هؤلاء الشياطين أن الأمر مغاير تمامًا عند المسلمين الذين لا يزال الإسلام يؤدي دوره بينهم كقوة دينية وسياسية واجتماعية تربط بين كل أفراد ومجتمعات المسلمين على الرغم من تباعد المسافات، وتعدد الأعراق واللهجات، وعلى الرغم من محاولات التفتيت والتفريق المستمرة للحيلولة دون تحقيق ذلك، وقد كانت المظاهرات الغاضبة في جميع أنحاء العالم الإسلامي احتجاجًا على الوحشية الإسرائيلية البشعة في الاعتداء الأخير على قطاع غزة تجسيدًا لوحدة الأمة رغم تمزق قياداتها السياسية، وتناحرها فيما بينها.

من هنا يدرك المسلمون أن الغرب الصهيوني/الصليبي قد تآمر ولا يزال يتآمر للحيلولة دون توحد الدول الإسلامية في كيان واحد يناظر التكتلات البشرية الكبيرة المعاصرة، ويرى الغرب أنه في الوقت الذي حلت فيه القومية محل الدين، فإن الإسلام لا يزال يؤدي دوره كقوة دينية وسياسية عاطفية تجمع أمة الإسلام – على تباين أعراقها – في نسيج واحد يسمو على كل صور الخلافات العرقية والقبلية والإقليمية والمذهبية. **ويقرر غالبية الكتاب الصهاينة والصليبيين أن إحساس المسلمين بانتمائهم إلى أمة واحدة لا يزال يمثل إلى يومنا هذا صورة مميزة للتكوين النفسي عند غالبية المسلمين، وأن هذا الإحساس بالانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة يشكل أعظم مخاوف غير المسلمين من الإسلام؛ ولذلك يعملون باستمرار على تفتيت الأمة المسلمة، وعلى الحيلولة دون توحدها، كما فعلت كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وهولندة وروسيا من قبل، وتفعل الولايات المتحدة وأذنابها اليوم. وهذه واحدة**

من أخطر القضايا بين المسلمين والغرب خاصة في هذه الأيام التي يحاول فيها الغرب بزعامة الولايات المتحدة تحقيق المزيد من التوحد بين مختلف كياناته، وتحقيق المزيد من التفتت في العالم الإسلامي كله كما ينفذه الغربيون اليوم على أراضي كل من العراق، ولبنان، والسودان، والصومال، وأفغانستان وباكستان، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف: 21).

(5) السعي الصهيوني/الصليبي من أجل إسقاط دولة الخلافة الإسلامية:

يذكر غالبية الكتاب من الصهاينة والصليبيين أن الحروب الصليبية لم تحقق أهدافها؛ وذلك لأن نزوح المسلمين عن بيت المقدس وعن الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط أثناء تلك الحروب كان ظاهرة وقتية، استمرت حوالي قرن من الزمن، ثم عاد المسلمون إلى ديارهم بعد اندحار الصليبيين، وسوف يعودون قريبًا إن شاء الله - تعالى - بعد اندحار الصهاينة المحتلين لأرض فلسطين. أما التآمر على إخراج المسلمين من كل من بلاد الأندلس، وصقلية بعد حكم إسلامي دام في كل منهما عدة قرون فيعتبره أعداء الإسلام بداية التقليص الحقيقي لأرض دولة الخلافة الإسلامية.

ولكن شاءت إرادة الله - تعالى - أن يزامن هذا التقلص امتدادٌ للفتوحات الإسلامية على أيدي جند دولة الخلافة العثمانية التي امتد سلطانها على مدى يقرب من سبعة قرون من (657 إلى 1343 هـ/الموافق 1258 إلى 1924م). وفي خلال هذا المد الإسلامي العظيم حملت تلك الخلافة الإسلامية لواء المواجهة الحقيقية بين الإسلام وتحديات غير المسلمين في كل من الشرق والغرب، وتوسع سلطان دولة الخلافة العثمانية ليمتد من اليمن جنوبًا إلى أبواب ڤيينا شمالًا، ومن جبل طارق غربًا إلى آسيا الوسطى شرقًا، وواجهت قوات الغرب في كل من إسبانيا والبندقية، وجنوة، وفرنسا، والنمسا، وإنجلترا غربًا، كما واجهت أوروبا الشرقية وكلًا من روسيا والصين شرقًا، وكونت صورة عظمى لتجمع المسلمين في خلافة واحدة استمرت لقرابة سبعة قرون، ولكن مؤامرات الغرب ومواجهاته العسكرية على مدى هذه القرون السبعة قد أوهنت من قدرات دولة الخلافة العثمانية التي بدأ سلطانها في التقلص التدريجي بانتزاع دول البلقان منها الدولة تلو الأخرى تاركة جيوبًا إسلامية فيها من مثل مسلمي كل من ألبانيا، والبوسنة والهرسك، وكوسوڤا، ومقدونيا. وقد عانى هؤلاء المسلمون في البلقان من ويلات الاضطهاد الديني ما لا يمكن وصفه

بكلمات وذلك بمجرد خروج القوات العثمانية منها، ولا يزالون يعانون إلى اليوم. ويجسد تلك المعاناة ما واجهه المسلمون في حروب البلقان الأخيرة من إبادة كانت مذبحة سربرنتسيا أبشعها على الإطلاق حيث تم دفن عشرة آلاف من الأطفال والنساء والشيوخ والشبان أحياءً بعد نزع سلاحهم بواسطة قوات الأمم المتحدة التي ادعت المجيء لنجدتهم واشترطت لتلك النجدة نزع سلاحهم، ثم تركتهم لوحوش الصرب يدفنونهم أحياءً وهم ينظرون بدم بارد!!

ثم انتزعت من دولة الخلافة العثمانية دول أوروبا الشرقية دولة بعد الأخرى ومنها المجر، رومانيا، بلغاريا، اليونان، ودول وسط آسيا دولة بعد الأخرى بمؤامرات غربية، وشرقية متعددة.

ومن الغريب أن القدر الهائل من التسامح الديني الذي مارسته إدارات دولة الخلافة العثمانية مع كل من المسيحيين واليهود في البلاد التي حكموها قد قوبل دومًا بالنقيض في التعامل مع الأقليات المسلمة من قبل كل من اليهود والصليبيين خاصة بعد خروج القوات التركية من تلك البلاد مباشرة، فقد اعتمدت دولة الخلافة على كل من المسيحيين واليهود في البلقان، وقلدتهم أعلى المناصب، وكانت الدولة العثمانية كدولة إسلامية تؤمن بحرية العقيدة، وحرية التدين، وكان كل تجمع ديني فيها له حقوقه الخاصة به، وهيكل الحكم الخاص به، على الرغم من تبعيتها لدولة الخلافة الإسلامية، وكان هذا على النقيض تمامًا مع أوضاع المسلمين في المجتمعات غير المسلمة،كما حدث في كل من الأندلس، والبلقان، واليونان وفي كل من التركستان الشرقية والغربية ودول آسيا الوسطى، وفي غيرها من الدول التي حكمها المسلمون وتركوا من ورائهم أقليات مسلمة تعرضت لمظالم يشيب لها الولدان.

كذلك تعاونت تركيا مع عدد من الدول الغربية لصد مظالم المعتدين على هؤلاء الغربيين من غيرهم من الغربيين والشرقيين وذلك في أخوة إنسانية معلنة بعيدة عن معاني التعصب الديني الضيق، فقد تعاونت مع فرنسا في مرحلة من المراحل ضد طغيان أسرة (هابسبرج)، كما تعاونت مع بريطانيا ضد التحديات الروسية. وعلى الرغم من ذلك فقد تعرض كل مَنْ قَبِلَ الإسلام دينًا من العرقيات المختلفة التي حكمتها دولة الخلافة الإسلامية إلى اضطهاد أبناء جلدتهم من المسيحيين واليهود اضطهادًا يفوق حدود الوصف لا بسبب واضح سوى التعصب الأعمى لدين لم يفهموه على حقيقته، ولم يستوعبوا إلى اليوم حقيقة رسالته..!

وانطلاقًا من هذا التاريخ الطويل المليء بالدماء والأشلاء والمظالم والاضطهاد؛ **يدرك المسلمون تمام الإدراك أن مؤامرات غير المسلمين من الشرق والغرب كانت من وراء تقليص أرض دولة الخلافة الإسلامية، وإنهاك تلك الخلافة في حروب مستمرة حتى تم إسقاطها في نهاية الربع الأول من القرن العشرين (1924م)**، بعد أن سادت تلك الخلافة كدولة عظمى قرابة سبعة قرون (من أوائل القرن الثالث عشر إلى بدايات القرن العشرين)، وأقامت واحدة من الحضارات المميزة في تاريخ البشرية، فقد كانت دولة الخلافة العثمانية متعددة الأعراق والأديان، وكان كل مجتمع ديني فيها يتمتع بكافة حقوقه وبهيكل الحكم الذي يرتضيه. وعلى الرغم من تبعية تلك التجمعات غير المسلمة للمسلمين من حيث الوضع السياسي، فإنها لم تكن تعاني من أدنى قدر من الظلم أو الإذلال أو القهر، وذلك على النقيض تمامًا من تجربة المسلمين مع كل من الشرق والغرب (من مثل ما حدث للمسلمين في إسبانيا بعد سقوطها في أيدي النصارى، وفي فلسطين المحتلة بعد اغتصابها من قبل الصهاينة، وفي البوسنة والهرسك وكوسوفا ومقدونيا واليونان وباقي دول البلقان، وفي كل من الشيشان وداغستان، تتارستان، بشكيرستان، القوقاز، أوسيتيا، أبخازيا وأذربيجان وباقي دول الاتحاد السوفيتي المنهار، وفي عديد غيرها من دول العالم).

ثانيًا: مقاومة الاستعمار:

بعد إسقاط دولة الخلافة الإسلامية العثمانية بدأ العالم الإسلامي في مجموعه يقع فريسة سهلة للاستعمار الغربي والشرقي على حد سواء، وذلك من إندونيسيا شرقًا إلى جبل طارق غربًا، ومن آسيا الوسطى شمالًا إلى إفريقيا شبه الصحراوية جنوبًا.

وتحولت الدول الإسلامية في هذا الحزام الهائل من الأرض إلى ساحة استعمارية لمجموعة من الدول التي كان منها: كل من الصين، روسيا، إنجلترا، فرنسا، هولندة، إسبانيا، البرتغال، إيطاليا وبلجيكا.

ولم ينج من دنس الاستعمار إلا كل من أفغانستان والمملكة العربية السعودية فقط. كما أن أراضي تركيا الحالية بقيت بعد تقطيع أوصال دولة الخلافة العثمانية تحت الاحتلال العسكري الغربي الذي لم يدم إلا فترة قصيرة امتدت بضع سنوات عقب الحرب العالمية الأولى، ولم تخضع تركيا للاستعمار الغربي المباشر بعد ذلك، ولكنها تعرضت لحملة تغريبية قاسية لإخراجها عن التزامها الإسلامي. وقد قاد هذه الحملة «يهود الدونمة» أو اليهود المتحولون إلى الإسلام الذين تظاهروا بالدخول



في هذا الدين للتآمر عليه، وقد عقدوا مؤتمرًا لهم في باريس سنة 1902م تحت اسم **«الجمعيات المناهضة لحكم السلطان عبد الحميد الثاني» حضره «جاويد باشا» اليهودي المتظاهر بالإسلام، والذي كان يرأس «حزب الاتحاد والترقي» المناوئ لحكم الخلافة الإسلامية**، والذي قام بعد ذلك بانقلاب عسكري معتمدًا على الجيش الذي كان مرابطًا في مدينة سالونيك والذي كانت غالبية أفراده من يهود الدونمة وذلك في سنة 1908م.

وكان **حزب «الاتحاد والترقي»** قد تغلغل في وسط ضباط الجيش التركي المرابط في مدينة «سالونيك» وأغروهم بالزحف على استنبول واحتلالها، مما تسبب في إحداث فوضى بالبلاد أدت إلى **إجبار السلطان عبد الحميد الثاني على التنازل عن الخلافة سنة 1909م**. وكانت تلك الفوضى التي أحدثها **حزب «الاتحاد والترقي»** في تركيا من أبرز أسباب هزيمة جيوش دولة الخلافة العثمانية أمام جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في سنة 1914م، **وكان من نتائج ذلك احتلال كل من فلسطين وسوريا والعراق في سنة 1917م، وإسقاط دولة الخلافة العثمانية في سنة 1924م.**

وكان الذي سلم قرار العزل للسلطان عبد الحميد الثاني اثنان من اليهود أحدهما **«جاويد باشا»** رئيس حزب «الاتحاد والترقي»، والثاني **«عمانويل»** أحد قادة الحركة الماسونية في مدينة (سالونيك)، وكان الذي قاد القوات المتمردة الزاحفة على استنبول هو **الجنرال حسين حسني**، وأركان حربه **مصطفى كمال** الذي عرف بعد ذلك باسم «أتاتورك» وكلاهما من يهود الدونمة.

وكان من أخطر وسائل التغريب التي استخدمت في تركيا **إلغاء كل من الحرف العربي والأذان بالعربية**، مما عزل الشعب التركي المسلم عن تراثه الإسلامي عزلة ظلت تزداد جيلًا بعد جيل.

كذلك عانت جميع الدول الإسلامية من المستعمر الغربي الذي أقصى كل الرموز الإسلامية عن ساحة الحكم، وجعل من مواصفات الحكام ومتخذي القرار ألا يكون لهم أدنى قدر من الالتزام بالإسلام، وكان للهيمنة الأجنبية (الصليبية/اليهودية) على الكثير من جوانب الحياة في المجتمعات المسلمة آثارها السلبية على المسلمين من مثل إباحة الرِّبا في المعاملات الاقتصادية، وإباحة الخمور، والقمار في المحال التجارية والعامة، والسماح بكل من الزنى، والخَنَا، الفنادق والمراقص،

ونوادي العراة، والنوادي الليلية، وغير ذلك من السلوكيات الساقطة في كافة الأنشطة الاجتماعية، وغض الطرف عن «تربية الخنازير» وسط التجمعات السكانية المسلمة، ونشر نوادي الروتاري والليونز والإنرهويل وخيوطها النهائية بأيدي المنظمة الصهيونية العالمية، وتمكين العديد من اليهود والنصارى من اقتصاديات الدول المسلمة من مثل لبنان ومصر والمغرب، مما جعل من الاحتلال الأجنبي أمرًا مرهقًا جدًّا للمسلمين من النواحي الاقتصادية والنفسية والدينية.

هذا بالإضافة إلى إهمال التصنيع، والتعليم، والتربية، ونشر المبادئ المعادية للدين بصفة عامة، وللإسلام بصفة خاصة، وذلك من مثل الدهرية أو العلمانية، الشيوعية، الاشتراكية، الحركات التغريبية، الدرزية، القاديانية أو الأحمدية، الماسونية، النصيرية أو العلوية، الروحانية الجديدة، الوجودية، البهائية والبابية، وعبدة الشيطان وغيرها، وتدمير الوعي الثقافي في المجتمعات المسلمة، ونشر التسابق على جمع المال بنهم شديد دون إيجاد نظم مالية سليمة، والإغراق في الترف عند الحاكمين والمبالغة في إفقار المحكومين.

وعلى الرغم من أن الاستعمار الأجنبي لم يدم في عدد من تلك البلاد المسلمة من مثل فلسطين والأردن والعراق إلا بضعة عقود قليلة إلا أنه ترك آثارًا مدمرة ومشاكل معقدة عديدة في كل بلد من تلك البلاد التي احتلها بالقوة.

وهناك بلاد طال فيها أمد الاستعمار الأجنبي مثل مصر وباقي دول شمال ووسط إفريقيا، ودول جنوب ووسط آسيا، ففي مصر التي ظلت تحت الاستعمار البريطاني أكثر من سبعين عامًا، حاولت خلالها بريطانيا طمس الهوية الإسلامية لهذا البلد المسلم، وفي الجزائر التي ظلت تحت الاستبداد الفرنسي 132 عامًا، بذلت فيها الحكومات الفرنسية المتتالية كل الوسائل لدمج الجزائر في فرنسا بالكامل، ومحو هويتها الإسلامية والعربية، إلا أن هذه الجهود قد باءت كلها بالفشل مع اقترانها بتأثيرات سلبية واسعة النطاق على المجتمعات المسلمة. وكذلك كان الحال في كل من الهند التي حكمها الاستعمار البريطاني مئات من السنين، وآسيا الوسطى المسلمة التي هيمنت عليها روسيا القيصرية ثم البلشفية مددًا تراوحت بين 150 و 300 سنة حاولت خلالها نزع جذور الإسلام من قلوب المسلمين دون طائل..!!



ولذلك فإن جميع المسلمين في العالم لا يزالون ينظرون إلى قضية الاستعمار الأجنبي المسيحي/اليهودي بحساسية شديدة، خاصة أن الاستعمار العسكري الغربي قد سبقه تغلغل اقتصادي مبكر وَرَّطَ المسلمين في تبعات مالية متنامية (بالربا المركب)، وانتهى بالهيمنة الكاملة على غالبية بلاد المسلمين حيث استولى فيها المستعمرون على المساحات الزراعية التي خصصوها بالتدريج لمحاصيل التصدير، وأنشئوا الطرق البرية والسكك الحديدية والموانئ لتيسير استنزاف المستعمرين للثروات الزراعية والتعدينية والنفطية وغيرها من الثروات الطبيعية لتلك البلاد.

وصاحب هذا التخريب الاقتصادي لبلاد المسلمين تخريب أخطر ألا وهو التخريب الاجتماعي الذي أدى إلى تدمير الأسس الإسلامية للمجتمع، ولنظام الإنتاج فيه، وبعد تدمير الهياكل الاقتصادية والاجتماعية لبلاد المسلمين تمكن المستعمر من التحكم في المجالات الثقافية والفكرية ودمرها كذلك. فأصبحت تلك المجتمعات عاجزة عن المقاومة الجادة للاستعمار.

وكان من وسائل التدمير الثقافي المحاولات المتكررة من أجل تشويه صورة الإسلام، وطمس حقائقه، ومحاصرة التعليم الديني والعمل على إضعافه أو إغلاقه، ونشر الأفكار المعادية للدين، والسلوكيات المنافية لأخلاقياته.

من هنا لم تكن المرحلة الاستعمارية للبلاد الإسلامية مرحلة هيمنة أجنبية فحسب، بل كانت مرحلة محاربة منهجية للإسلام، وإذلال متواصل للمسلمين، وإفساد لثقافاتهم ولأفكارهم، ولمعتقداتهم، ولأذواقهم، ولسلوكياتهم..، ولا تزال نتائج ذلك الكيد كله ماثلة حتى اليوم في جميع البلاد التي تعرضت لويلات الاستعمار الأجنبي، حيث عانت كل النخب الإسلامية الصادقة من عزلة حادة – ولا تزال – وظهرت على السطح جماعات مُغَرَّبة انفصمت انفصامًا جزئيًا أو كليًا عن ثقافتها الإسلامية، وعن ماضيها التليد، وحاولت هذه الشراذم المتغربة فرض قيمها وتصوراتها الغربية على مجتمعاتها المسلمة، فبدأت سلسلة من الصراعات الفكرية بين أبناء المسلمين أدت إلى مزيد من التخلف والضياع، وحرمت المجتمعات المسلمة من إمكانية الاستمرار في النماء الطبيعي لها أفرادًا ومجتمعات، **مما أدى إلى حالات عديدة من التشرذم الاجتماعي، والثقافي، والفكري، وإلى وصول تلك الشراذم الغريبة عن المجتمع إلى مقامات السلطة والحكم، والإعلام، والتعليم، والاقتصاد،**

والبحث العلمي وإلى غير ذلك من مقامات اتخاذ القرار مما أسقط التراث الديني والثقافي للأمة من على قمة النظام السياسي ففسد فسادًا وصل به إلى حد العفن، ولا يزال هذا العفن الغريب ينخر في أمة الإسلام إلى اليوم، ويؤدي إلى صراع حقيقي مع النخبة المسلمة المتمسكة بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ التي تجاهد من أجل مقاومة فساد كل من التعليم، والإعلام، والإدارة، والاقتصاد، ونظم الحكم، والعلاقات الاجتماعية، والسلوكيات العامة في الشارع المسلم.

ويضرب الكتاب الصهاينة والصليبيون نماذج للفساد السياسي الذي غرسوه في كل من الدول العربية والإسلامية، حتى بعد خروج تلك الدول من هيمنة الاستعمار الغربي، متمثلين بعدد من النظم العربية والمسلمة التي تميزت باللون الاستبدادي، القهري، الدهري، المعادي للإسلام في علانية وقحة، كما يستشهدون بعدد من الفلسفات التي أثبتت فشلها من مثل دعاوى القوميات العربية، والكردية، والفرعونية، والنوبية، والأمازيغية والإفريقية وغيرها، ومن مثل تجربة البعث الفاشلة في كل من سوريا والعراق، وكارثة حكم الشاه في إيران، وغيرهم من الحكام المسلمين الذين لم يكن لهم هم إلا التطاول في البنيان والإغراق في متع الحياة المادية الفانية إلى الآذان، وهم يعلمون أن ذلك كله من علامات الساعة!!

ويضيف كاتبان غربيان من أمثال صاحبي كتاب «شعور بالحصار» قولهما: «ولا يتهم الإسلاميون هذه النظم اليوم بالفشل فحسب، بل يتهمونها أيضًا بافتقادها الشرعية، وبابتعادها عن النظام الاجتماعي والثقافي الأصيل للأمة الذي يسعى الإسلاميون اليوم إلى بعثه من جديد».

ويضرب الكاتبان نموذجًا على بقاء الهيمنة الغربية بعد زوال الاستعمار **من أن التقويم الغربي المسيحي تم فرضه على المجتمعات المسلمة بدلًا من التقويم الإسلامي القمري** على نحو ما وصفت عالمة الاجتماع المغربية الدكتورة فاطمة مرنيسي في كتابها المعنون «**الإسلام والديمقراطية: خوف من العالم الجديد**»، والذي ذكرت فيه ما يلي: «نحن نعيش اليوم في زمن حدده لنا الغرب، فنحن منفيون في الزمن الغربي، وإن أشد عمليات الاستعمار كراهية ورهبة هي تلك التي تقحم نفسها في زمانك، ذلك لأن الجراح هنا تصيب كبرياءك. إن مأساتنا هي أن تقويمنا بات يقتصر أكثر فأكثر على تحديد طقوسنا وأيام العطلات الدينية.. .ولكن غالبية المجتمع من ملايين البشر الذين لم يجدوا سبيلهم إلى الحداثة – والذين تم إبعادهم على نحو غير رسمي



في وظائف لا تكفل لهم الحد الأدنى من الأجور أو المنافع الاجتماعية - يجهلون كلهم التقويم الرسمي، ويتشبثون بالتقويم الديني.. وأن أحد مظاهر الصراع الطبقي في المغرب هو الاختيار بين أحد التقويمين علمًا بأن علم الفلك يثبت دقة التقويم القمري، وعشوائية التقويم الجريجوري».

ويرد الكاتبان الأمريكيان على كلام الدكتورة فاطمة المرنيسي بقولهما «إنه بإمكان المراقبين الغربيين الاعتراض على هذا الخط الاستدلالي في التفكير، فالمعروف **أولًا**: أن كل أشكال النمو التقني والاجتماعي تتسبب في قدر من الاضطراب كالذي حدث في أوروبا الغربية آنذاك. **وثانيًا**: أنه ليس ثمة ضمان بأن النظام الإسلامي للتقويم يمكنه أن يكون أكثر فاعلية في حل المشكلات المتأصلة في المجتمع أو في الدولة، ولكن هناك فارقًا كبيرًا بين أن يكون التغيير الاجتماعي والثقافي الشامل مفروضًا من قبل ثقافة وقوة غربيتين، وبين أن يكون نابعًا من تراث وحضارة الأمة».

«وهناك فرق كذلك بين نظرة المجتمع إلى النخبة صاحبة السلطان والمرتبطة بالقوى الاستعمارية السابقة (من حيث التعليم والثقافة على أقل تقدير) **باعتبارها مصدرًا لنظم الحكم الفاشلة التي جاءت عقب نهاية الاستعمار، وبين وصول هذه الزمر إلى كراسي السلطة بانتخابات مزورة على عيون الأشهاد في أغلب الأحوال، وبين وصولها بانتخابات حرة نزيهة، وتعلو هنا حدة النبرات الطبقية بالاستنكار والسخط، والشعور بالإحباط، واليأس، والتصورات السلبية التي لها دورها الفاعل في السياسة، ويتلمس الإسلاميون هذه المبررات لمزيد من السخط الاجتماعي والانهيار الثقافي والتخلف الفكري والذي يجدون جذوره عميقة في فترات الاستعمار الغربي**».

«**وانطلاقًا من ذلك يتذكر المسلمون بمرارة شديدة حقبة الاستعمار الغربي لغالبية بلادهم فترات تراوحت بين عدة عقود وعدة قرون ومدى الظلم، والقهر، والاستبداد، والفساد، والتعتيم، والتجهيل، والتخلف الذي فرضه الاستعمار الغربي على الشعوب المسلمة**، مما جعل الاحتلال الغربي أمرًا مرهقًا لهم من النواحي النفسية، والدينية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والعلمية، والتقنية، وأدى إلى تخلف المجتمعات المسلمة في كل مجال، وإلى ضياع تراثها الثقافي، وإلى تشرذمها الاجتماعي والسياسي والفكري الذي لا تزال الأمة تعاني آثاره حتى اليوم». وهذا

اعتراف صريح من كاتبين غربيين لهما صلة وثيقة بواحد من أكبر مراكز المعلومات والاستخبارات في العالم.

ثالثًا: الغزو الفكري:

تحت عنوان «**تصدير القيم الغربية**» كتب كل من «**جراهام فوللر**» و«**إيان ليسر**» في كتابهما المعنون «**شعور بالحصار**» أن المتغربين من أبناء المسلمين يجدون أنفسهم في حرج شديد، وعجز عن الدفاع عن مواقفهم لسبب ازدواجية المعايير في العالم الغربي، ويضيفان ما ترجمته:

«فبعد الحرب العالمية الأولى دعا الغرب من خلال مؤتمر ڤرساي الذي عقد في باريس سنة 1919م وباسم عصبة الأمم إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها، في الوقت الذي احتلت فيه فرنسا أراضي كل من سوريا ولبنان بالإضافة إلى ما كانت تحتله من أراض إسلامية في كل من تونس والجزائر والمغرب، وغرب إفريقيا، واحتلت فيه بريطانيا كلًّا من أرض العراق وفلسطين بالإضافة إلى ما كانت تحتله من أرض مصر والسودان وعدن والهند، وغير ذلك من الدول الغربية مثل إيطاليا وإسبانيا والبرتغال وهولندا وبلچيكا، وكلها كانت تحتل أراضي إسلامية دون أدنى وجه حق».

«وفي الوقت الذي نادى فيه الغرب بحق الشعوب في تقرير مصيرها زادت قبضة المستعمرين على الشعوب المسلمة وغيرها من شعوب العالم الثالث».

وبعد الحرب العالمية الثانية التي أشعلتها أحقاد الغربيين على بعضهم البعض، وراح ضحيتها أكثر من 55 مليون قتيل، بالإضافة إلى ما خلفت من ملايين المقعدين والأرامل والأيتام والثكالى، والدمار الشامل في كثير من بلدان العالم، والخسائر المادية الباهظة في الإنفاق على حرب عالمية استمرت لأكثر من ست سنوات كاملة، **دعا الغرب المكلوم دول العالم للانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة، وللتوقيع على الوثيقة العالمية لإعلان حقوق الإنسان، ولكن سرعان ما تجاهلت غالبية الدول الغربية تلك الحقوق وتباطأت في إعطائها لشعوب العالم الثالث (وفي زمرته الشعوب الإسلامية)**، ولم تخرج قوات الاحتلال من مستعمرات الدول العربية والإسلامية إلا على كره منها وبعد قتل أكثر من المليون ونصف المليون جزائري على سبيل المثال؛ ولم تتحرر الجزائر إلا في سنة 1962م، أي بعد التوقيع على الإعلان العالمي الأول بحق الشعوب في تقرير مصيرها بثلاث وأربعين سنة، وبعد الإعلان الثاني بأربعة عشر



عامًا. كذلك لم تتحرر المستعمرات البرتغالية إلا في أواخر سبعينيات القرن العشرين أي بعد حوالي ستين عامًا من الإعلان الأول، وثلاثين عامًا من الإعلان العالمي الثاني لحقوق الإنسان، وكذلك الحال بالنسبة لشعوب آسيا الوسطى من المسلمين الذين لم يسمح لبعضهم بحق تقرير المصير إلا في سنة 1991م (وذلك من أمثال كل من شعوب طاجيكستان، أذربيجان، أوزبكستان، كازاخستان، قرغيزستان، وتركمانستان)، بينما لا يزال الملايين منهم يرزحون تحت وطأة الاستعمار الروسي (وذلك من أمثال كل من شعوب الشيشان، داغستان، تتارستان، بشكيرستان، القوقاز، أوسيتيا، وأبخازيا)، ولا يزال الملايين من أبناء المسلمين يعيشون تحت ظلم بيِّن في كل من فلسطين المحتلة وبلاد الشيشان وفي كشمير، والهند، وأراكان، وجنوب الفلبين، ولا يزال كل من العراق وأفغانستان في أتون الاستعمار الأنجلو/ أمريكي الجديد، ولا تزال شعوب كثيرة في كل من إفريقيا وآسيا والبلقان مستعمرة مستذلة مهانة وهي تكافح ضد قوى الاستعمار.

ولا تزال أراض إسلامية عزيزة محتلة من قوى غربية جائرة دون أدنى وجه حق وذلك من مثل الأراضي الفلسطينية، وأراضي كل من شرق تيمور، كشمير، أراكان، جنوب الفلبين، جنوب تايلاند وسبتة ومليلية وجزر ليلى.. وغيرها..

هذه الازدواجية في السلوك والمعايير للقوى الاستعمارية الكبرى في عالم اليوم والتي تتضح بشكل معيب في موقفها من قضية فلسطين بصفة عامة، ومن الهجوم الإسرائيلي الوحشي الأخير على قطاع غزة بصفة خاصة، أفقدت تلك الدول مصداقيتها عند المسلمين، وأفرغت كل عهودها ومواثيقها من دلالاتها، وأظهرتها بمظهرها المتجرد من كل القيم الأخلاقية، والضوابط السلوكية الصحيحة، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى أو أن تعد.

ولذلك يشكو المسلمون من إصرار قوى الاستعمار الأجنبي على تصدير قيمها المتهالكة، وأخلاقياتها الهابطة، وسلوكياتها المتسيبة إلى المجتمعات الإسلامية تحت عدد من الدعاوى الزائفة مثل التمدين، والحرية، والعالمية، والليبرالية السياسية، وحقوق الإنسان. ويخشى المسلمون من آثار عملية التغريب تلك بناء على تجاربهم السابقة مع الغرب منذ بدايات القرن الثامن عشر الميلادي حين بدأت حملات التغريب، ومحاولات التنصير، من أجل إخراج المسلمين من دينهم ومن ضوابطهم

الأخلاقية والسلوكية تحت دعاوى التحضر، والتي لا تزال المجتمعات الإسلامية تعاني منها إلى اليوم.

ويذكر الكاتبان «جراهام فوللر» و«إيان ليسر» أن عملية تغريب المسلمين قد تكررت في القرن العشرين تحت دعاوى حقوق الإنسان، والتطبيق الديمقراطي، ومطالب كل من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وهي مطالب ظاهرها باسم القيم العالمية، وباطنها أنها قيود للمحافظة على المصالح الغربية، ولابتزاز العالمين العربي والإسلامي ضمن باقي دول العالم الثالث. ولذلك يذكر الكاتبان ما ترجمته: «والمسلمون اليوم مواجهون مرة أخرى بحملة غربية جديدة، وهي هذه المرة تحمل لافتات عن القيم العالمية وحقوق الإنسان، وتطبيق الليبرالية السياسية، وبناء المجتمعات المدنية. وإن كثيرين من المسلمين ينظرون – ولأسباب مفهومة –بعين الشك إلى هذه العملية التي تعيد إليهم ذكريات خاصة عن شيء سبق أن ألفوه، فالغرب في نظرهم سعى لكي يفرض قيمه في القرن الثامن عشر بالحديث عن نشر المسيحية، وفي القرن التاسع عشر بالحديث عن الرسالة التحضرية وما أسماه باسم – مسئولية الرجل الأبيض – واليوم يرى مسلمون كثيرون مسألة حقوق الإنسان، والتطبيق الديمقراطي، وقواعد صندوق النقد الدولي بمثابة أحدث المخططات التي يلتمس بها الغرب فرض هيمنته على العالمين الإسلامي والثالث – ومرة أخرى – باسم القيم العالمية، والأجدر أن تُقرأ باسم المصالح الغربية».

رابعًا: إصرار الغرب على تدمير كل قيادة صالحة للمسلمين:

إن غالبية المسلمين يحملون مشاعر الكراهية لمصطفى كمال أتاتورك الذي وضع تركيا المسلمة على طريق التغريب الذي كان يخطط له سلفًا هو وعصابته من يهود الدونمة. حقًّا إن أتاتورك استغل في مطلع القرن العشرين **حركة قامت على أساس من النبذ الصريح للماضي التليد للشعب التركي، ونبذ غالبية القيم التي تربى عليها، وجاهد في سبيلها، وعاش معتزًّا ومتمسكًا بها.** فأتاتورك أسقط دولة الخلافة الإسلامية العثمانية التي كانت – وعلى مدى سبعة قرون – تمثل القيادة الروحية للعالم الإسلامي، الذي افتقد – منذ سنة 1924م – قيادة واحدة له يعترف بها الجميع. وقد كانت هذه ضربة موجعة للمسلمين، أعاقت نهضتهم وإمكانية نمو مجتمعاتهم وتطورها... وعلى الرغم من أن هذا العمل لم تقم به سلطة غربية مباشرة، فإن كثيرًا من المسلمين يفسرونه على أنه عمل يهودي/صليبي استهدف تغريب تركيا وأنه

تم بمباركة غربية إن لم يكن بتخطيط غربي صرف على مدى عدة قرون سابقة، وأن هدفه المباشر كان - ولا يزال - هو تدمير المسلمين وتقويض دينهم بطريقة شيطانية، وإضعاف كل المؤسسات الإسلامية، المؤثرة إجمالًا، والنيل من تراثها بإفقاد المسلمين قيادتهم الدينية ورمز وحدتهم.

وبمجرد إسقاط دولة الخلافة العثمانية التف مسلمو العالم حول الأزهر الشريف وجامعته الإسلامية العريقة في القاهرة على أنه مركز الفتوى والتشريع الإسلامي للمسلمين في مصر وفي خارج مصر، فاتجه التآمر الصهيوني/الصليبي تجاه هذه المؤسسة العريقة في محاولة لتدميرها من الداخل، حتى يفقد المسلمون كل صورة من صور المرجعية الدينية وحتى يسهل على اليهود والنصارى تفتيت وحدة المسلمين، وبلبلة أفكارهم وإضعاف صفهم.

وإذا ما قدر لدولة من الدول الإسلامية أن تعيد إنشاء مرجعية إسلامية مركزية فإنها سوف تكون أداة قوية في خدمة الحركات الإسلامية، ولكن هذه المرجعية الدينية أصبحت غائبة اليوم - إلى حد كبير - عند المسلمين، اللهم باستثناء عدد من الشخصيات الدينية المؤثرة والآسرة لاهتمام الجماهير في عدد من البلدان الإسلامية. وانطلاقًا من ذلك **يشكو المسلمون من إصرار الغرب على إلغاء كل قيادة فاعلة للعالم الإسلامي**، فالغرب كان من وراء كل الانقلابات العسكرية التي عملت على نبذ الماضي الإسلامي، والقيم الإسلامية، وعملت على تأميم أوقاف المسلمين التي كانت ترعى فقراء المسلمين من الأيتام والأرامل، وتبني المساجد والمستشفيات، وتعطي استقلالًا كاملًا لكل من الأزهر الشريف (بجميع مؤسساته ومعاهده)، ودار الإفتاء وأنشطتها المختلفة، وهيئة كبار العلماء، وكانت تنفق على طلاب العلم من مختلف دول العالم، وعلى طباعة المصحف الشريف والكتب الإسلامية بالعربية وبغيرها من اللغات، وعلى إرسال البعوث الإسلامية إلى جميع دول العالم، وغير ذلك من أنشطة الدعوة الإسلامية المتعددة. كذلك عملت المخططات الاستعمارية الغربية على تدمير مؤسسات المسلمين التعليمية مثل ما حدث للأزهر الشريف.

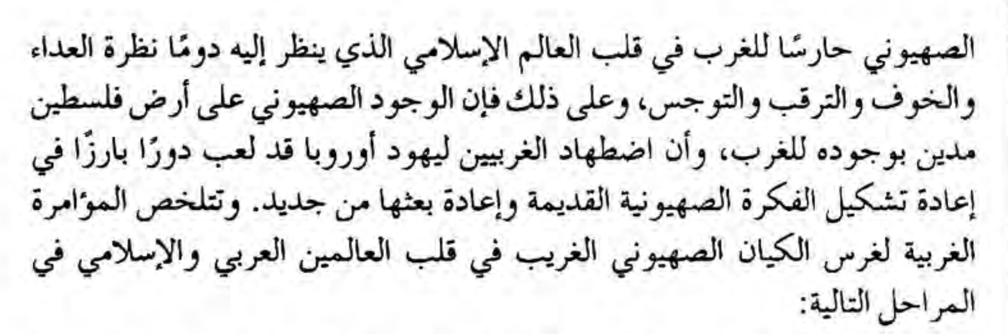
وقد تكررت مؤامرات الغرب بسفور فج عندما ألغيت أول انتخابات حرة في الجزائر أعطت الإسلاميين غالبية ساحقة، وعندما أسقطت أول حكومة إسلامية تحكم تركيا منذ انقلاب مصطفى كمال، وعندما فرض الحصار على السودان لمجرد وضعه دستورًا إسلاميًا، وعمل على إثارة العديد من القلاقل فيه، وحاول

تقديم رئيسه المسلم إلى محكمة الجنايات الدولية بعدد من القضايا المصطنعة. وليس بعيدًا عن ذلك افتعال المبررات الكاذبة من أجل حصار ثم غزو واحتلال كل من العراق وأفغانستان دون مبرر منطقي واحد، ولا تزال تلك المؤامرات تعيث فسادًا في مختلف دول العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وذلك بواسطة تخطيط قوى الاستخبارات الكبرى في العالم.

خامسًا: التحدي الغربي للإرادتين العربية والإسلامية بإقامة كيان صهيوني غريب على أرض فلسطين بدون أدنى حق:

إن قيام الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين تحت مسمى «إسرائيل» لم يقبله المسلمون أبدًا باعتباره أمرًا فرضه الاستعمار الأجنبي عليهم بالقوة، وأن هذا الكيان الصهيوني المغتصب لأرض فلسطين زرع في المنطقة العربية بمؤامرة دولية حقيرة في إطار سلسلة الحروب الصليبية التي لم تنته بعد، وهي جريمة فرضها الاستعمار الأجنبي فرضًا في نفس الساحة، وأسسها مرة ثانية (أحفاد الصليبيين) من الأوروبيين وغيرهم من قوى الغرب اليميني، والشرق اليساري، وأنهم فرضوها على العالم الإسلامي فرضًا بجبروت القوة العسكرية، ولا يزالون يدافعون عن هذا الوجود السرطاني الغريب عن المنطقة بكل وسيلة غير مشروعة (ووسائل السياسة الغربية كلها غير مشروعة). وعلى ذلك فإن المسلمين ينظرون إلى الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين نظرة مغايرة لنظرتهم إلى الاستعمار الأجنبي الذي لا بد وأن ينقضي أمره مع الزمن ليعود كل منهم إلى بلده، أما الكيان الصهيوني باعتباره حالة من حالات الاستعمار الأجنبي الاستيطاني كما حدث في جنوب إفريقيا، فله وضع مغاير لأن الغربيين في الحالتين احتلوا دولة من دول العالم الثالث وأقاموا فيها إقامة (يظنونها) دائمة وسط حضارة وثقافة مغايِرَةٍ مغايَرَةً تامة، ومعادية عداءً تامًّا، وفي حالة الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين فإن الغرب لا يزال متعنتًا في دعمه لهذا الكيان الغاصب، ومازالت الهجرة مستمرة إلى الأرض المغصوبة على حساب أهلها الأصليين، أما في جنوب إفريقيا فإن هيمنة الرجل الأبيض التي طال زمانها توشك أن تكون من ذكريات الماضي البعيد.

وإذا كان الاستعمار مآله عمليًّا إلى الزوال، فإن الغرب أقام الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين في قلب العالمين العربي والإسلامي انتقامًا من هزيمة الصليبيين في معركة حطين، وغرورًا بقدرة الغرب العسكرية على إبقاء هذا الكيان



الصهيوني حارسًا للغرب في قلب العالم الإسلامي الذي ينظر إليه دومًا نظرة العداء والخوف والترقب والتوجس، وعلى ذلك فإن الوجود الصهيوني على أرض فلسطين مدين بوجوده للغرب، وأن اضطهاد الغربيين ليهود أوروبا قد لعب دورًا بارزًا في إعادة تشكيل الفكرة الصهيونية القديمة وإعادة بعثها من جديد. وتتلخص المؤامرة الغربية لغرس الكيان الصهيوني الغريب في قلب العالمين العربي والإسلامي في المراحل التالية:

- في سنة 1902 م اقترح **المؤرخ الأمريكي اليهودي أ.ت. موهان** تعبير «الشرق الأوسط» لتبرير وجود مكان لليهود في المنطقة التي كانت تعرف عبر التاريخ باسم «المشرق العربي».
- وفي سنة 1907 م شكل الحلفاء الغربيون لجنة باسم **«لجنة كامبل باترمان»** اليهودي الصهيوني لإعداد تقرير عن الأوضاع في الوطن العربي، وخلص التقرير إلى أن هناك خطرًا في منطقة البحر الأبيض المتوسط الذي يعيش على شواطئه شعب واحد يتميز بكل مقومات الوحدة والترابط، ويجب العمل على مناوأته وتفكيكه، وإقامة حاجز بشري قوي من مجموعة غريبة عنه يمكن أن تساعد على تحقيق ذلك.
- في سنة 1916 م بدأت كل من بريطانيا وفرنسا في وضع اللمسات النهائية لاتفاقية «سايكس – بيكو» التي نصت على اقتسام المنطقة العربية المعروفة باسم «الهلال الخصيب» بين كل من بريطانيا وفرنسا، وذلك بتقسيمها إلى ثلاث مناطق: إحداها تحتلها فرنسا وتشمل كلًا من سوريا ولبنان، والثانية تحتلها بريطانيا وتشمل كلًا من العراق وشرق الأردن، والثالثة تخضع لإشراف دولي تمهيدًا لتسليمها لليهود وهي فلسطين.
- في سنة 1917 م اندلعت الثورة الشيوعية في روسيا بتخطيط من اليهود، وأصدرت الحكومة البريطانية وعد بلفور المشئوم مكافأة لهم على دورهم في تخريب روسيا من الداخل.
- في 1922/7/24 م أقر مجلس عصبة الأمم مشروع صك **الانتداب البريطاني على أرض فلسطين** التي كانت القوات البريطانية قد احتلتها فعلًا احتلالًا عسكريًّا بالقوة بهدف إنشاء وطن قومي لليهود على أرضها، على الرغم من اعتراف المجتمع الدولي بحق شعب فلسطين في الاستقلال.

- بتاريخ 1947/11/29 م أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها الجائر الظالم رقم (181) والقاضي بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية وكان من وراء القرار الولايات المتحدة بقيادة رئيسها المتهود «ترومان».
- في 1948/5/15م أعلنت الحكومة البريطانية رسميًا انتهاء انتدابها على فلسطين بعد أن سلمت كل مقدرات هذا البلد العسكرية والمالية والإدارية لليهود الذين أعلنوا قيام دولتهم اللعينة فور مغادرة المندوب السامي البريطاني لميناء حيفا.

ومنذ ذلك التاريخ والدولة اليهودية تَلْقَى مختلف صور الدعم المباشر وغير المباشر باستمرار من مختلف الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وكل من بريطانيا وفرنسا، بما في ذلك المال والسلاح والدعم السياسي والإعلامي في جميع المحافل الدولية، وتزويد هذا الكيان اللقيط بأسلحة الدمار الشامل وفي مقدمتها المفاعلات النووية التي قدمتها فرنسا والتي أنتجت حتى اليوم أكثر من أربعمائة رأس نووي تهدد المنطقة بالكامل.

وبدأت الدويلة اللقيطة تعيث في المنطقة فسادًا على الرغم من أن اليهود الذين اضطُهِدوا عبر التاريخ في كل المجتمعات المسيحية لم يجدوا لهم صدرًا حانيًا إلا في ديار المسلمين، وأن اليهود الذين طردوا من إسبانيا عقب انتهاء دولة المسلمين فيها سنة 1492م لم يجدوا دولة تؤويهم في العالم كله إلا دولة الخلافة الإسلامية.

وبدأت سلسلة الحروب التي أخذت إسرائيل في شنها على الدول المحيطة بها بمعدل حرب كل عشر سنوات تقريبًا (1948، 1956، 1967، 1968، 1982/1973، 2006، 2009/2008 م) وفي كل هذه الحروب لقي الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين كل صور الدعم من الدول الغربية خاصة من حكومات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا التي لم يقتصر دعمها على الأسلحة المتطورة، والأموال والمعلومات المتدفقة، والدعم بالباطل في المحافل الدولية، بل تعدى ذلك كله إلى تزويد هذا الكيان اللقيط بأسلحة الدمار الشامل وفي مقدمتها الأسلحة النووية، وإلى الوجود بالفعل في ساحات القتال إلى جانب المعتدي الإسرائيلي



الذي لا حق له على الإطلاق في الوجود على أرض المنطقة؛ حتى ساد الاعتقاد عند المسلمين بأن التفوق العسكري الإسرائيلي على جميع جيرانها العرب هو هدف صريح ودائم للسياسة الغربية في ظل جميع إداراتها دون أدنى اعتبار لتجاوزات وجرائم واعتداءات الإسرائيليين ومخالفاتهم لحقوق الإنسان وللقوانين والأعراف الدولية في حالتي السلم والحرب، خاصة في حربهم الإجرامية الأخيرة على قطاع غزة في أواخر 2008 م وأوائل 2009 م والتي كشفت عن حقيقة الوجه الإسرائيلي القبيح، الكاره للإنسانية والمتنكر لكل القيم والحقوق الإنسانية.

ومن ثم فإن غرس الكيان الصهيوني الغريب في قلب المنطقة العربية/الإسلامية، وفوق قدس من أقداس المسلمين بمؤامرة غربية، وحجم الدمار والخراب والمآسي التي خلفها هذا الكيان الغريب في المنطقة ولايزال، وقد أغرقها في بحر من الدماء والأشلاء وقتل الأطفال والنساء والشيوخ والشبان، ومن لم يقتلهم اعتقلهم بالآلاف وعرضهم لأبشع وسائل التعذيب، أو طردهم خارج حدود بلادهم بالملايين، وهدم المساكن والمساجد والكنائس والمدارس والمستشفيات والكليات والجامعات، ودمر البنى الأساسية للمناطق الفلسطينية بالكامل، وذلك بتجريف الأراضي الزراعية، وحرق الحيوانات والمحاصيل واستخدام أكثر الأسلحة الغربية تطورًا في محاربة شعب أعزل (ومعظم هذه الأسلحة محرم دوليًا). ويسقط من هذا الشعب عشرات الشهداء ومئات الجرحى في كل يوم بمباركة الغرب وتأييده وتبريره لكل جرائم الإسرائيليين المغتصبين بدعوى كاذبة باهتة هي الدفاع عن النفس.

وهذا كله محسوب عند المسلمين كجرائم غربية محضة لا مبرر لهم فيها، ولا عذر لهم على اقترافها إلا كراهيتهم للإسلام الذي لم يعرفوه بعد، وحقدهم على المسلمين دون مبرر واحد، وذلك بدليل أن كل محايد في الغرب أو الشرق عرف الإسلام قَبِلَهُ على الفور دينًا مهما كانت عقيدته السابقة، ومهما كانت درجة تمسكه بها.

وسوف يظل الوجود الصهيوني على أرض فلسطين بدعم من الغرب جرحًا تاريخيًا ووجدانيًا كبيرًا يتجاوز حدود المنطقة إلى العالم الإسلامي بأسره الذي يرى في هذا الوجود جريمة غربية صليبية/يهودية محضة، لن يمحوها إلا زوال هذا الكيان الغريب عن المنطقة بموافقة الغرب أو رغم أنفه، فالأيام دول، ولن يظل الغرب القوة الوحيدة المهيمنة على العالم، تملؤه ظلمًا وجورًا وتجبرًا على خلق الله، والظلم لا

يرضاه رب العالمين، وهو القادر على تدمير الظالم وإبادته في طرفة عين أو في أقل من ذلك، وما ذلك على الله بعزيز..!!

ويستنكر كثير من الغربيين موقف المسلمين من الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين لأن المسلمين ينظرون إلى هذا الكيان على أنه صورة جديدة من صور عدوان الدول الغربية التي شاركت قديمًا في الحروب الصليبية، واغتصبت تلك الأرض المقدسة من بين أيدي المسلمين، وأغرقتها في بحار من الأشلاء والدماء والخراب والدمار، ثم عادت من جديد لتفرض اغتصابها في نفس الساحة، ويؤكد ذلك أن الغاصب الجديد قد شيد دولته المزيفة بأيدي الغربيين الذين فرضوها فرضًا على العالم الإسلامي، ومنذ غرسه الشيطاني ظل ذلك الكيان الغاصب يتلقى كل صور الدعم المباشر وغير المباشر باستمرار من جانب الغرب بما في ذلك الكميات الهائلة من المال والسلاح التقليدي وغير التقليدي (بما في ذلك من أسلحة الدمار الشامل بمختلف أنواعه)، وتبادل المعلومات، والدخول في الأحلاف الاستراتيجية، والدفاع عن جرائمه البشعة في مختلف المحافل الدولية، والتدخل المباشر إلى جانبه في كل معاركه مع الدول العربية. وفي ظل ذلك الدعم الغربي غير المحدود توسع الكيان الصهيوني الغاصب مرات ومرات على حساب كل من الضفة الغربية وقطاع غزة وعلى أراضي الدول المجاورة لأرض فلسطين، مثل لبنان وسوريا وشرق الأردن ومصر، وأثار هذا التوسع المدعوم من الغرب المخاوف العربية والإسلامية من نزعة صهيونية/صليبية توسعية كامنة على حساب كافة دول المنطقة، وعلى حساب المقدسات الإسلامية العديدة، خاصة بعد أن ثبت عمليًا نقض اليهود لجميع عهودهم ومواثيقهم وتعهداتهم، وإغفال الغرب قرارات الأمم المتحدة التي تدين مثل هذه الأعمال الإجرامية والمنافية لأبسط قواعد القانون الدولي، والتي تكررت آلاف المرات في الستين سنة الماضية، وتجسدت في العدوان الإسرائيلي الهمجي الغاشم الأخير على قطاع غزة، والذي تجاوز كل الحدود والأعراف والمعايير في حروب العالم مع صمت تام على تلك الجرائم في كل المحافل الدولية.

سادسًا: الإصرار الغربي على التدخل السافر في شئون المسلمين:

في ضوء هذه الخلفية من الصراعات طويلة الأمد بين المسلمين وغيرهم، والتراث الاستعماري البغيض الذي تركه الغرب في نفوس المسلمين والذي لا تزال تؤكده



عمليات التدخل السياسية والعسكرية المستمرة من قِبَل الغرب في بلاد المسلمين وفي مختلف شئونهم، ترسخت مشاعر الاضطهاد الغربي في فكر المسلمين.

وطبيعي أن اكتشاف النفط في المنطقة العربية قد أثار العديد من المحاذير السياسية في المنطقة خاصة أن إدارة الشركات الغربية لحقول النفط كانت إدارة غربية مباشرة حتى عهد قريب في صورة أقرب ما تكون إلى الأمور المفروضة بالقوة السياسية والاقتصادية والعسكرية، وهذا يشكل أمرًا غير مقبول عربيًّا وإسلاميًّا؛ لأن ملكية الغرب لشركات النفط المحلية وسيطرته عليها تنتقص من استقلالية الدول المالكة ومن كرامتها، وحينما بدأت تلك الدول تطالب بحقها في إدارة ثرواتها النفطية فاجأها الغرب بقراره الصريح أن هذا الأمر لا يقبل التفاوض، ومن هنا قامت المخابرات البريطانية في سنة 1953م وبدعم أمريكي صريح بتدبير مؤامرة الإطاحة برئيس وزراء إيران آنذاك **محمد مصدق**، وإعادة شاه إيران إلى السلطة بالقوة العسكرية ضد رغبة الشعب الإيراني، وكانت هذه العملية واحدة من أخطر وأقذر عمليات التدخل السياسي الغربي السافر في العالم الإسلامي المعاصر.

وهناك صور أخرى لتدخل الغرب في الدول العربية والإسلامية تركت جراحًا نفسية غائرة عند المسلمين من أهمها ما يلي:

- العدوان الثلاثي على مصر من قِبَل كل من بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين 10/29 – 11/4 سنة 1956م عقب تأميم مصر لقناة السويس.
- التدخل البحري الأمريكي في لبنان سنة 1958 م حماية لحكومته الموالية للغرب آنذاك ضد مصالح الأمتين العربية والإسلامية.
- التدخل الأمريكي في العدوان الإسرائيلي الغاشم على الدول العربية في 5–6/10 سنة 1967 م، بدعمها العسكري، والاستخباراتي، والمعلوماتي والمالي السافر والمباشر.
- التدخل الأمريكي في حرب تحرير سيناء 6–10/24 سنة 1973م من أجل إفشال النصر العربي في هذه العملية العسكرية الناجحة.
- الدعم الأمريكي المباشر لاجتياح جيش الصهاينة لأرض لبنان سنة 1974 م.

- التدخل الأمريكي السافر لصالح أكراد العراق ضد نظام صدام حسين طيلة مدة حكمه؛ وذلك لعلاقاته الوثيقة مع الاتحاد السوفيتي آنذاك.
- دعم أمريكا للكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين، ولعدوانه الغاشم في قصف المفاعل النووي العراقي بتاريخ 1981/6/6 م.
- الدعـــم الأمريكي السـافـر للجيش الصهيوني الغادر في حربه على لبنان (1978 – 1986).
- التدخل الأمريكي السافر ضد القوات السورية الموجودة في لبنان بعد الغزو الإسرائيلي لبيروت بهدف إبادة منظمة التحرير الفلسطينية، والمجازر والجرائم التي اقترفها كل من اليهود وأعوانهم من الخونة اللبنانيين وذلك في سنة 1982 م.
- قصف الطائرات الأمريكية لمدينة طرابلس الليبية بوحشية غير مبررة وذلك في سنة 1985 م.
- إسقاط البحرية الأمريكية لطائرة مدنية إيرانية فوق الخليج العربي سنة 1986 م، وقتل جميع من كانوا فيها دون أدنى مبرر لذلك.
- إشعال الحرب العراقية – الإيرانية في الفترة من 1980 إلى 1988 بتخطيط من المخابرات الأمريكية وذلك لتبديد قوة الجانبين البشرية والتسليحية، وهي الحرب التي راح ضحيتها أكثر من مليون شهيد من المسلمين بالإضافة إلى ملايين من المقعدين والأيتام والأرامل، وتم خلالها تدمير القوة العسكرية والبنيات الأساسية للبلدين المسلمين.
- إشعال الحرب بين العراق والكويت، بتدبير من المخابرات الأمريكية، واستخدام تلك الحرب ذريعة لإعادة الاحتلال الغربي للمنطقة العربية من جديد. وكان من نتائج هذه الحرب غير المبررة القضاء على الجيش العراقي وكان واحدًا من أجود الجيوش العربية، وفرض الحصار على شعب العراق في الفترة من 1990 إلى 2003 م وهو الحصار الذي هلك بسببه مئات الآلاف من الأطفال والنساء والشيوخ لندرة الغذاء والدواء وقد أدى هذا الحصار غير المبرر إلى انتشار العديد من الأمراض المستعصية لاستخدام قنابل اليورانيوم المنضب من قبل كل من القوات الأمريكية وحلفائها الغربيين.



- التدخل الأمريكي السافر في الصومال دعمًا للديكتاتور الشيوعي المستبد **سياد بري**، ثم في صراع عسكري واسع النطاق ضد قادة سياسيين محددين من بين القوى الصومالية المتقاتلة في الفترة من 1992 م إلى 1993 م، وحتى اليوم.
- الاستمرار في حصار وقصف العراق منذ سنة 1990 م، ومن بعده ليبيا والسودان، والتدخل السافر في الحرب الدائرة في جنوب وغرب السودان، ومحاولة فرض حلول أمريكية مجحفة في حق المسلمين.
- من بعد ذلك جاء التدخل الأمريكي السافر والفاجر في كل من أفغانستان والعراق، وباكستان، واليمن، وفي كل دول شبه الجزيرة العربية، وفي أعداد أخرى من الدول الإسلامية، وقد نتج عن هذا التدخل غير المبرر غزو وتدمير دولتين عضوين في الأمم المتحدة هما العراق وأفغانستان بمخالفة صارخة لكل القوانين والأعراف الدولية. وقد تم في هذا الغزو قتل وجرح وتشريد ملايين المسلمين من أبناء هاتين الدولتين، كما تمت محاولات وقحة لتنصير أعداد منهم بمخالفات وتجاوزات وسلوكيات يندى لها جبين كل حر. وتم كذلك محاصرة المد الإسلامي في الغرب بإصدار قوانين الطوارئ التي تطبق فقط على المسلمين. كذلك تم اعتقال الآلاف من المسلمين الأمريكيين والمقيمين دون تحقيق، كما تمت مصادرة أموال المئات من الجمعيات الخيرية والبنوك الإسلامية، وتم إيقاف كافة أنشطتها دون مبرر. واتسعت دائرة اعتقالات أبناء المسلمين في جوانتانامو ومعاملتهم معاملة غير إنسانية، كما تمت عمليات التعذيب غير الإنساني فيها وفي غيرها من آلاف السجون الأمريكية والبريطانية، وسيبقى ما حدث منها في سجن «أبو غريب» وصمة عار أبدية في جبين الحضارة الغربية.

وهناك العديد من المواقف العدائية للإسلام والمسلمين والتصريحات غير المسئولة من القيادات الأمريكية والأوروبية المختلفة، والتي كان منها وصف هذا الأبله المخبول «جورج دبليو بوش الابن» بعض الدول المسلمة بوصف «محور الشر» وهو لا يدري **أن محور الشر الحقيقي على وجه الأرض ينطلق من البيت الأبيض إلى رئاسة مجلس الوزراء البريطاني في (10 Downing Street) إلى الكيان الصهيوني الغاصب**

لأرض فلسطين، فهذا هو محور الشر الحقيقي على وجه الأرض والذي عانى العالم كله ولا يزال يعاني من شروره ما لا يمكن وصفه بأي كلام..!! ومن قبل أن توجد الولايات المتحدة الأمريكية على خريطة العالم لعبت الدول الأوروبية هذا الدور، ثم سرعان ما تزعمته الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها امتدادًا للشر الخبيث الذي كفر بالله - تعالى - أو أشرك به والذي عانت منه البشرية منذ عهد نبي الله نوح - عليه السلام -، ولا تزال تعاني إلى اليوم وستظل تعاني حتى قيام الساعة..!!

وعلاوة على التدخل العسكري المباشر وغير المباشر في شئون المسلمين من قبل قوى الغرب المعتدية، فإن الحكومات الغربية المختلفة، خاصة حكومات كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية المتعاقبة، آثرت دعم بعض نظم الحكم المنتقاة في العالمين العربي والإسلامي ضد رغبة شعوبها، وهي التي تنادي زورًا وبهتانًا بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، كذلك سعت حكومات الغرب دومًا إلى التخطيط من أجل ضرب الحكومات العربية والإسلامية بعضها ببعض بتطبيق السياسة الشيطانية: «**فرّق تَسُدْ**»، وحرصت على دعم الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين ضد جميع دول المنطقة، وعلى إبقاء ميزان التسلح دائمًا في صالح هذا الكيان الغاصب والمعربد عربدة شيطانية مفسدة ومدمرة في المنطقة بأسرها..!!

ويعتقد الغرب أن هدفه من هذا النوع من الدعم الانتقائي هو المحافظة على الأنظمة الخانعة للإرادة الأوروبية/الأمريكية في مواقعها من السلطة، ونتيجة لذلك كان للغرب (بصفة عامة) وللولايات المتحدة الأمريكية (بصفة خاصة) تدخلات سياسية مذلة في تعاملاتها مع كل من الدول العربية والمسلمة وفي علاقات تلك الدول فيما بينها على نحو سافر وخفي في آن واحد.

وفي ذلك يكتب صاحبا كتاب «**شعور بالحصار**» ما ترجمته:

«.. وقد طرحنا جانبًا الأعمال (الإجرامية) التي أقدم عليها الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين والمسمى «إسرائيل» خلال هذه الفترة نفسها، ومهما بدت هذه السياسات مبررة في نظر المراقبين الغربيين فإنه لا مناص من الاعتراف بأثرها البالغ على العالم الإسلامي كله، وإشعاره بالاضطهاد الغربي إلى أبعد الحدود، وبأن شعوبه عاجزة عن تقرير مصائرها أمام هذا الاضطهاد الغربي الذي يتدخل بزعامة الولايات المتحدة دائمًا للحيلولة دون تحقيق أحلام وتطلعات وآمال الأمتين العربية والإسلامية في التوحد وفي



بناء قوة عسكرية قادرة على الدفاع عن مصالحها. ويرى أبناء الأمتين العربية والإسلامية أن بلادهم هي الوحيدة في العالم التي لا تزال تئن تحت وطأة الاستعمار الجديد، وويلاته، ومؤامراته التي عاشوا طويلًا ضحية لها، وفي أتون لظاها».

وانطلاقًا من ذلك كله فإن المسلمين يشكون مر الشكوى من تجرؤ الغرب على التدخل السافر في الشئون الداخلية لدول العالم الإسلامي تدخلًا عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا بصورة غير مشروعة، مما يثبت مشاعر الإحساس بالاضطهاد الغربي في فكر المسلمين، **وذلك مثل إصرار الغرب على الهيمنة الكاملة على كل مصادر النفط في ديار المسلمين، وعلى كل وسائل نقله وتكريره وتصنيعه، والتآمر السافر للإطاحة بكل حكومة إسلامية تحاول الخروج عن تلك الهيمنة كما حدث لحكومة الرئيس محمد مصدق في إيران سنة 1953م**، ومحاولة قوى العدوان الثلاثي غزو مصر سنة 1956م عقب تأميم قناة السويس، وتدخل القوات الغربية (بصفة عامة) والأمريكية بصفة خاصة بانحياز واضح ضد المصالح العربية والإسلامية في لبنان في عامي 1958م و1982م، وفي كل الحروب بين الدول العربية والكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين (في السنوات 1948م، 1956م، 1967م، 1973م، 2009/2008م) وذلك بدعم الغاصب الصهيوني استخباريًّا وعسكريًّا وماليًّا وإعلاميًّا بلا حدود، وتعويضه بالإمدادات العسكرية خلال المعارك الحربية وطوال فترات الصراع. وإذا أضفنا إلى كل هذه الانتهاكات دعم الأكراد في تمردهم ضد العراق سنة 1974م، وقصف الطائرات الأمريكية لأهداف ليبية سنة 1985م، وإسقاط طائرة مدنية إيرانية وقتل ركابها وطاقمها سنة 1986م، وشن حرب مدمرة ضد العراق منذ أوائل سنة 1990م وفرض الحصار عليه حتى تم غزوه وتدميره، واحتلاله بالقوة (سنة 2003)، وقتل وجرح وتعذيب وتشريد وإذلال الملايين من أبنائه، وإثارة الفتن بين مختلف طوائفه الدينية والمذهبية والعرقية؛ ثم فرض الحصار على كل من ليبيا والسودان والمطالبة ظلمًا بتقديم الرئيس السوداني إلى محكمة الجنايات الدولية، وإغفال الطرف عن مجرمي الحرب الإسرائيليين والأمريكان والإنجليز، وتدخل القوات الأمريكية والأوروبية في الصومال (1993/1992م) وحتى اليوم. هذا بالإضافة إلى محاولات الولايات المتحدة الأمريكية (بصفة خاصة)، والغرب (بصفة عامة)، تمزيق الكيانات العربية والإسلامية إلى كانتونات صغيرة؛ وذلك بإثارة الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية بين أبنائها، وإشعال الحروب ضد بعضها البعض، وخلق المشكلات فيما بينها، ومن أبرزها مشكلات الحدود المصطنعة التي رسمتها القوى الاستعمارية

الغربيـة، والعمل الدءوب على دعـم الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين ضد جميـع الدول العربية والإسلامية ليبقى هذا الكيان الغريب متفوقًا عسكريًّا واقتصاديًّا وتقنيًّـا على جميع دول المنطقة مما يرسخ مفهـوم المؤامرة الغربية ضد كل مصالح المنطقة في أذهان المسلمين.

سابعًا: الإصرار الغربي على الاستمرار في إضعاف واضطهاد المسلمين:

يرى المسلمون أنهم مستهدفون بالحرب المعلنة عليهم من كل قوى الشر في العالم؛ فمن معاناتهم في جنوب كل من تايلاند والفلبين إلى فلسطين، مرورًا بكل من كشمير والهند وأراكان، والبلقان، والسودان، والصومال، وآسيا الوسطى، والصين، كل ذلك يبدو حلقات في سلسلة واحدة دوافعها حقد الكفار والمشركين على الإسلام والمسلمين.

ونظرًا إلى أننا نعيش في عالم اشتدت فيه حدة التفاوت في علاقات القوى بين الشمال والجنوب، فإن المسلمين يعتقدون أنهم في حالة حصار من جميع القوى الكافرة والمشركة في العالم خاصة في العالم الغربي الذي يملك الغلبة المادية في الوقت الراهن، كما يعتقد المسلمون، وأنهم قد أصبحوا موضع سخرية وقهر باعتبارهم «أعداء» يصورهم الغربيون في صورة إرهابيين؛ لأن الثقافة الإسلامية أصبحت تتساوى في نظر الغربيين مع الإرهاب.. مما أفضى إلى تطبيق سياسة التميز ضد المسلمين في الغرب، ومعاملتهم معاملة مذلة في المطارات الدولية، والنظر إليهم دومًا نظرة شك وريبة من جانب الأمريكيين والأوروبيين، واعتبارهم فئة دينية مستهجنة في كل المجتمعات الغربية، خاصة أن جميع وسائل الإعلام الغربي تستخدم لغة واحدة تصف الإرهاب الدولي زورًا بأنه موجه عمدًا من الإسلام إلى الغرب، والغرب هو أكثر دول العالم إرهابًا لغيره من الأمم والجماعات والأفراد.

ويرى المواطنون في العالم الإسلامي أنفسهم وكأنهم قد أصبحوا هدفًا للإرهاب الغربي، وهو إرهاب أداته القوة العسكرية الباطشة، والسياسات الدولية الملتوية التي يستخدمها الغرب بأسلوب «تكتيكي» منظم ضد المنطقة الإسلامية بأسرها، موظفًا فـي ذلك كل المنظمات الدولية التـي يتحكم في إدارتها حتى يعطي لجرائمه شرعية مزيفة.



والحقيقة أن أعداد المسلمين الذين لقوا مصرعهم على أيدي جيوش الغرب خلال القرن الماضي وحده يفوق بآلاف المرات أعداد الغربيين الذين ماتوا بأيدي نفر من أبناء المسلمين. وبناءً على ذلك فإن غالبية المسلمين مقتنعون بأن سياسات الغرب تستهدف عامدة إضعاف سلطتهم باستمرار، وحيثما ظهرت قوة للمسلمين سارع الغرب إلى ضربها في الحال كما حدث في كل من الجزائر وفلسطين. وعلى ذلك فإن مشاعر الاضطهاد المتولدة عن هذه المعاناة التاريخية تدعم التصور السائد بين أوساط المتعلمين والمفكرين المسلمين بأن الحرب القديمة التي خاضها الغرب ضد الإسلام باسم الصليب هي ذاتها التي لا تزال يشتعل أوارها دون أن يوقفها شيء منذ ألف سنة مضت، حتى وإن تغيرت الوسائل والطرق التي أصبحت الآن أكثر مكرًا ودهاءً، وتخريبًا وتدميرًا وعنفًا...!

والغرب في رأي غالبية المثقفين المسلمين لن يقبل بإيقاف هذه الحرب الاستنزافية ولن يهدأ له بال حتى يرى العالم الإسلامي مستسلمًا لمخططاته خائر القوى أمامه، وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة إخباره الحق مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله قائلًا له: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ...﴾ (البقرة: 120).

ثامنًا: محاولات الغرب إخضاع العالم الإسلامي لنمط الحياة الغربية بدعوى تحديثه:

منذ عدة قرون وجد المسلمون أنفسهم في مواجهة هجوم ضارٍ من الغرب في جميع المجالات، من أجل فرض القيم الغربية الهابطة على المجتمعات المسلمة بكل وسيلة ممكنة، والمسلمون يناضلون للحفاظ على هويتهم الإسلامية قدر استطاعتهم وعلى حدودهم التي رسمتها القوى الاستعمارية لكل دولة من دولهم بدهاء شديد لخلق مشكلات حدودية بين الإخوة المتجاورين، وقد بات لزامًا على كل دولة من الدول المسلمة حماية دينها وقيمها كما تحمي حدودها الجغرافية وسيادتها على مجالها الجوي ضد أي انتهاك من جانب القوى الغربية. وقد استخدم الغرب تلك المشكلات الحدودية بين الأشقاء بخبث شديد كلما أراد أن يتدخل في المنطقة، كما حدث بين السعودية وعمان، وبين قطر وكل من البحرين والسعودية، وبين السعودية وكل من العراق والكويت، وعمان، واليمن، والأردن، وبين العراق

والكويت، وبين كل من الجزائر والمغرب من جهة،وكل من مصر والسودان، من جهة أخرى، وبين شمال وجنوب، وشرق وغرب السودان؛ وغير ذلك من المشاكل الحدودية العديدة بين الدول المسلمة. هذا بالإضافة إلى مشكلات فلسطين وقبرص وكشمير، والصحراء الغربية وغيرها.

وليزيد الطين بلة فَرَضَ الغرب قيمًا جديدة لحقوق الإنسان تتنافى مع القواعد الإسلامية الراسخة، وحاول فرضها بالقوة على العالمين العربي والإسلامي، كما فرض نظمًا اقتصادية جديدة مغايرة لأصول الدين الإسلامي، وفرض إعلامًا يتنافى مع أبسط الآداب الإسلامية، وأصبح على المسلمين أن يجاهدوا مجاهدة كبيرة من أجل المحافظة على هويتهم الإسلامية، وذاتيتهم الثقافية في مواجهة وسائل الإعلام الغربية الطاغية والمنتشرة في كل أرجاء الأرض.

ومن ذلك أيضًا محاولة الغرب التأثير في سلوكيات المسلمين، وفرض أخلاقياته وقيمه الهابطة عليهم، والتحقير من الالتزام بالسلوكيات والآداب الإسلامية، ووضعها كذلك تحت الحصار الغربي. وجهود الغرب المتنامية من أجل تهيئة مختلف دول العالم لقبول السلوكيات الجنسية المتفلتة والمنحرفة التي شاعت في الغرب، وقبول المضامين الانقلابية لتغيير دور المرأة في المجتمع، في مخالفة صريحة لكل الشرائع السماوية، ومحاولة فرض ذلك كله على المسلمين **باسم النظام العالمي الجديد، وباسم التحديث**، ومحاولة فرض ذلك كله من خلال قرارات الأمم المتحدة حتى يكون الرافض لها خارجًا على الشرعية الدولية.

وتختلط الأمور في العالم الإسلامي، ويتبادر الناس بالسؤال: هل معنى التحديث هو التغريب؟ وهل معنى قبول جوانب التقدم المادي هو التضحية بالأسس الدينية والثقافية، وبالضوابط الأخلاقية والسلوكية للإسلام كدين وللحضارة الإسلامية كتراث يعتز بهما كل مسلم؟

وهل يمكن استيراد التقنيات الغربية دون الأسس الفلسفية للثقافة المنتجة لتلك الإنجازات المادية؟ وهل التحديث يعني خضوعًا ثقافيًا كاملًا للغرب؟ وهل يستلزم التحديث فقدان الأسس الأخلاقية والتي بفقدها تدهورت المجتمعات الغربية وانحلت وشقيت شقاءً نفسيًا شديدًا بالرغم من الوفرة المادية التي حققتها؟ ويتجسد شقاء الغرب في الارتفاع المطرد لمعدلات كل من الشذوذ الجنسي، والجريمة، والإدمان، والعنف، والتفكك الأسري، وانفلات المرأة، وزعامة الأحداث، وغيرها.

وهل يمكن أن يتحقق للإنسان أي نجاح مع ضياع القيم العامة؟ وهل في إمكان المسلمين أخذ التقدم المادي مع المحافظة على ذاتيتهم الدينية والثقافية وهما المرتكز الأساسي لأي مجتمع؟

أضف إلى ذلك التحديات التقنية والعلمية المتسارعة في العالم الغربي، وحرصه الدائم على عدم تمكين المسلمين من الوصول إليها، وإبقائهم مجرد مستهلكين لأبسط صورها، تحت هذا الحصار الغربي الشديد.

إن المسلمين يواجهون اليوم هذه المعضلة وهم يتطلعون إلى الغرب، ويواجهون هجمة التحديث الشرسة، ويبدو الإسلام في نظر المؤمنين به هو الملاذ الوحيد الذي يهيئ لهم سبل النجاة، وأنه أكثر رسوخًا اجتماعيًّا من النزعة القومية الدنيوية الحديثة.

وانطلاقًا من ذلك يشير العديد من الكتاب الغربيين إلى شكوى المسلمين من محاولات التغريب المستمرة في العالم الإسلامي بمعنى محاولات الغرب الدءوبة لإخضاع العالم الإسلامي إخضاعًا كاملًا لثقافته عن طريق مختلف وسائل الإعلام، وفرض قيم جديدة لكل من المرأة والأسرة والمجتمع، ولحقوق الإنسان، والإكراه على نظم اقتصادية متشددة ثبت فشلها لأنها نظم مستغلة هدفها الرئيسي حماية مصالح الغرب والإضرار بمصالح المسلمين، ووضع قيود عسكرية وتقنية وعلمية صارمة ضد المسلمين فقط، وفرض سلوكيات اجتماعية هابطة وساقطة تحت عدد من الشعارات الزائفة المنادية بالتحديث والتي هدفها الحقيقي هو هدم كل الأسس الثقافية والأخلاقية والسلوكية للحضارة الإسلامية تحت وطأة هجمة التحديث الشرسة التي انبهر بها عدد من أبناء المسلمين، فهل وعى هؤلاء المتغربون من أبناء الأمة أخطار ذلك؟ أرجو أن يكونوا قد وعوه! وأن يدرك كل مسلم أن أيسر وسائل الخروج من هذا الحصار الغربي هو الدعوة إلى الإسلام باللغة الوحيدة التي يفهمها الغربيون وهي لغة العلم.



الباب الثاني

كيف يمكن للمسلمين الخروج من محنتهم الراهنة؟

مقدمة: دعوة المسلمين إلى ضرورة المبادرة بالخروج من محنتهم الراهنة.

(1) الفصل الأول: ضرورة إصلاح التعليم في العالم الإسلامي المعاصر.

(2) الفصل الثاني: ضرورة المبادرة بمعالجة أسباب التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر.

(3) الفصل الثالث: ضرورة المبادرة بإصلاح الإعلام في العالم الإسلامي المعاصر.

(4) الفصل الرابع: ضرورة المبادرة بالإصلاح الاقتصادي في المجتمعات المسلمة المعاصرة.

(5) الفصل الخامس: ضرورة المبادرة بالإصلاح الإداري في العالم الإسلامي المعاصر.

(6) الفصل السادس: ضرورة المبادرة بالإصلاح السياسي في العالم الإسلامي المعاصر.

(7) الفصل السابع: ضرورة المبادرة بالإصلاح الاجتماعي في العالم الإسلامي المعاصر.



مُقَدِّمَة

دعوة المسلمين إلى ضرورة المبادرة بالخروج من محنتهم الراهنة

إن الاستعراض السريع للتاريخ يوضح أنه منذ بدايات القرن الحادي عشر الميلادي تعرضت الأمة المسلمة - ولا تزال - لسلسلة من الهجمات الشيطانية المدمرة بواسطة أفواج من الأمم المشركة أو الكافرة مما أدى في النهاية إلى تمزيق وحدة المسلمين، وبعثرة إمكاناتهم البشرية والاقتصادية الهائلة، وإلى سلب دورهم الحضاري الرائد بالتدريج، وإلى إفقارهم، ومن ثم إلى تخلفهم العلمي والتقني، وتراجعهم الحضاري، وهزائمهم العسكرية، واحتلال غالبية أراضيهم من قبل قوى أجنبية عملت على تغريب المسلمين عن دينهم، وحاولت فرض القيم الغربية عليهم. وختم هذا المسلسل الحزين بإسقاط دولة الخلافة الإسلامية في ختام الربع الأول من القرن العشرين (1924 م) ثم باحتلال الصهاينة الغرباء عن المنطقة لأرض فلسطين (1948 م)، ثم بمعاودة الاحتلال العسكري لأراضي كل من أفغانستان والعراق مع بداية التسعينيات من القرن العشرين، والعمل على مزيد من تفتيت المسلمين بإثارة الخلافات العرقية، والمذهبية، والدينية بينهم حتى يسهل فرض الاحتلال العسكري المقيت عليهم من جديد بعد أن بذلوا الجهد والدم في سبيل التحرر من ربقته.

وكان من أسباب هذا التراجع الحضاري في ديار المسلمين بُعد الغالبية من القيادات الحاكمة عن الالتزام بأوامر رب العالمين، وانغماسها في الترف الزائد، والإسراف المخل في كل شيء، والتفاخر بمتع الدنيا الفانية، والاستبداد في الحكم من أجل التغطية على فساده، وإهدار حقوق الشعوب: أفرادًا وجماعات في التعبير عن آرائها، وإثارة العصبيات العرقية والمذهبية والطائفية الضيقة، وإهمال لغة القرآن الكريم، وتدهور التعليم، وانحطاط الثقافة، وتفشي الأمية بشقيها: أمية القراءة والكتابة وأمية العقيدة، مما أدى إلى انتشار الفساد، ومعه انتشرت المظالم، واختفى

الإبداع، وزادت الفجوات في المجتمع الواحد، وضاعت حرية التفكير، واختفت الرغبة في الإنجاز، وفي البحث وحب الاستقصاء، وفي الاجتهاد، وغابت المثل العليا والقيادة الراشدة، وانهارت الأخلاق والقيم، وضعفت العزائم والهمم، فانهار كل شيء في المجتمع: التعليم والبحث العلمي، الإعلام والإبداع الفني، الاقتصاد والإدارة، والسياسة، والعلاقات الاجتماعية والدولية، وغير ذلك من أمور الأمة.

وكان ابتعاد القيادات الحاكمة في العالم الإسلامي عن الالتزام بأوامر رب العالمين سببًا في سلسلة من الهزائم العسكرية التي أوصلتنا إلى حالة الضياع وفقدان الذات الحالية، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - في حديثه القدسي: «**إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني**»[1].

وهذا الحديث القدسي يجسد واقع المسلمين من مطلع القرن الحادي عشر الميلادي حين شنت علينا الحروب الصليبية حتى غزو الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لأراضي كل من أفغانستان والعراق في ختام القرن العشرين، مرورًا بحصار بغداد وتدميرها في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي (1258 م).

وقال رسول الله ﷺ: «**ألا إن رحى الإيمان دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث يدور، ألا إن السلطان والكتاب سيفترقان، ألا فلا تفارقوا الكتاب...**»[2].

وإذا أردنا الخروج من محنتنا التي طالت فعلينا بالعودة مرة أخرى إلى كتاب الله - سبحانه وتعالى - وإلى سنة رسوله ﷺ وتطبيقهما أمرًا واقعًا في حياة المسلمين؛ لأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

ومن أجل تحقيق ذلك لا بد من إصلاح كل من التعليم، والبحث العلمي، والإعلام، والاقتصاد، والإدارة، والسياسة، والعلاقات الاجتماعية، ثم العمل على جمع شتات هذه الأمة في وحدة كاملة ولو على مراحل متدرجة؛ لأننا نعيش اليوم في عالم التكتلات الذي لم يعد فيه مجال للتجمعات البشرية الصغيرة (أقل من 300 مليون نسمة) أن تكون لها بصمة على مجريات الأحداث الدولية، بل عليها أن تعيش تابعة ذليلة للقوى الكبرى. وانطلاقًا من ذلك كانت الوحدة الأوروبية التي تجمع اليوم ثمانيَ وعشرين (28) دولة مختلفة الأعراق، واللغات، واللهجات، والمعتقدات، والمستويات الاقتصادية

(1) البداية والنهاية لابن كثير ج13، ص81.

(2) ابن حجر العسقلاني حديث رقم (4408)، ورواه أبو نعيم في معرفة الصحابة رقم (6369).

والاجتماعية. ونحن – معشر المسلمين – بيننا من عوامل التوحد ما لا يتوافر لغيرنا من أهل الأرض، فإلهنا واحد، ورسولنا واحد، وقرآننا واحد، وقبلتنا واحدة، ولغتنا الدينية واحدة، وتاريخنا واحد، ومشاكلنا الحالية واحدة، وآمالنا المستقبلية واحدة. ونحن الأمة الوحيدة التي تنطلق من إيمانها بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد إلى الإيمان بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين جميع الأنبياء وبين الناس جميعًا، ولذلك قال فينا رب العالمين:

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: 143)

وقال – عز من قائل –:

- ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴾ (آل عمران: 110)
- وقال – وقوله الحق: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 92)
- وقال – تعالى –: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج: 41)
- وقال – سبحانه وتعالى – مخاطبًا أمة الإسلام: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (المؤمنون: 52)
- وحذرنا ربنا من الركون إلى التخلف والضعف فقال – تعالى –: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: 139)، وقال عز من قائل: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ (الرعد: 11)

فهل آن الأوان لنا أن نغير ما بأنفسنا، وأن نعود إلى الله – تعالى – بصدق حتى يغير ما نحن فيه من ضياع؟ وهو – تعالى – يقول:

- ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: 55)

ويتم هذا التغيير أساسًا بإصلاح التعليم حتى نتمكن من تربية جيل صالح قادر على القيام بعملية التغيير، ومن أوائل خطوات تلك العملية المبادرة بمعالجة أسباب التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر حتى نتمكن من مواكبة العصر الذي نعيش فيه، وإصلاح الإعلام، والمبادرة بإصلاح كل من الاقتصاد والإدارة، والسياسة ونظم الحكم، والإصلاح الاجتماعي والعمل على جمع شتات أمة الإسلام في وحدة واحدة على مراحل مدروسة حسب البرنامج الذي بسطناه في الصفحات التالية، والاستعداد لتحرير جميع الأراضي الإسلامية المحتلة وللمعركة الفاصلة مع الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين، والتي أنبأنا بحتمية وقوعها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الأول

ضرورة إصلاح التعليم في العالم الإسلامي المعاصر

إن عملية التغريب – التي ابتلي بها المسلمون في ظل الاحتلال العسكري لبلادهم، أو من خلال الغزو الثقافي الذي تسرب إلى عقول فئة كبيرة من أبنائهم – وجهت سهامها أول ما وجهت إلى التعليم، فوصلت من قلبه إلى الصميم، وذلك عن طريق سلاسل المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية، وبواسطة برامج الابتعاث إلى الخارج، وعن طريق تبنِّي البرامج الغربية في جميع مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا الوطنية.

وبهذه الأساليب الشيطانية تم عزل التعليم في غالبية ديار المسلمين عن روح التربية الإسلامية الصحيحة؛ **فحوربت اللغة العربية** بتهميشها في مختلف مناشط الحياة، **وحورب الإسلام بتحجيمه في هيئة نتف متناثرة من علوم الدين، وبعض الشعائر التعبدية المجردة عن السلوك، والمعزولة عن المفهوم الشامل للعبادة في الإسلام والتي تهدف إلى بناء الإنسان الصالح، الفاهم لرسالته في هذه الحياة: عبدًا لله، يعبده – تعالى – بما أمر، ومستخلفًا ناجحًا في الأرض مكلفًا بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله في ربوعها،** ومجاهدًا من أجل تحقيق النصرة للإسلام والمسلمين، وذلك باستجماع عناصر القوة المادية والروحية في المجال الذي هيأه له الله، والتعاون مع غيره من المسلمين من أجل تحقيق ذلك.

وكان من أخطر السهام التي وجهت إلى التعليم في ديار المسلمين هو سهم **المفاصلة الكاملة بين علوم الدين وعلوم الدنيا**، في ازدواجية معيبة عزلت جميع العلوم المكتسبة عن الدين، كما عزلت علوم الدين عن المعطيات الكلية للعلوم المكتسبة، فعزلت الدين عن حياة الناس، كما عزلت حياة الناس عن الدين. وإن كان لهذه الازدواجية في التعليم ما يبررها في الغرب، فليست لها أية مبررات في عالمنا الإسلامي الذي قامت حضارته على أساس من شمولية المعرفة مع احترام التخصص.

وتتجسد أزمة التعليم في العالم الإسلامي المعاصر في النقاط الأساسية التالية:



1 – إلغاء الكتاتيب وقد كانت مدارس تحفيظ القرآن الكريم.

2 – تصفية نظم التعليم الإسلامي، وإحلالها بنظم تعليمية مادية بحتة، تدور بالعملية التعليمية في أطرها المادية فقط، وبذلك أصبحت جزئية، منقوصة،قاصرة، تعلم الفرد ولا تربيه.

3 – نتيجة لقصر التعليم في أطره المادية البحتة، فإن جميع المعارف المكتسبة دارت في هذا الإطار، وأنكرت شمول الدين (بركائزه الأساسية: من العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات) لمختلف أنشطة الحياة ففقدت معاهد التعليم دورها التربوي بالكامل.

4 – الازدواجية بين تعليم ديني لا يعرف المعطيات الكلية للمعارف المكتسبة، وتعليم مدني ينكر أو يتجاهل المعارف الدينية مما أضعفت النظامين، وباعد بينهما.

5 – التضييق على جميع مؤسسات التربية الإسلامية من مثل المعاهد الدينية، والكليات والجامعات الإسلامية حتى تم حصر نشاطها في المحافظة على التراث، ونقله من جيل إلى جيل مما أزهد الناس فيها وفيه.

6 – تقصير غالبية التربويين المسلمين في تقديم البديل الإسلامي للنظم التعليمية المادية السائدة، والدفاع عنه، والعمل على تحقيقه أمرًا واقعًا في حياة المسلمين.

7 – فرض التعليم المختلط بين الذكور والإناث في مختلف مراحل التعليم انصياعًا لأوامر الغرب، ومحاربة المدارس والمعاهد الإسلامية بالسيطرة عليها أو إلغائها.

8 – السماح للعديد من المنظمات الأجنبية والمحلية غير الإسلامية بالهيمنة على عملية التعليم الخاص في مختلف مراحلها.

9 – الإكثار من البعثات العلمية للطلاب إلى الخارج وهم في أعمار قد تكون أحيانًا عاجزة عن حماية أصحابها من الغزو الفكري التغريبي.

10 – اعتماد غالبية مدارس ومعاهد التعليم في العالم الإسلامي على نظم بالية قديمة في كل من التدريس والاختبار تعتمد أساسًا على الحفظ دون إعمال العقل مما أفقد الطلاب الرغبة في الابتكار والقدرة على الإبداع والتجديد.

11 – عدم الاهتمام بالمعلمين: تكوينًا، وتعليمًا، واحترامًا، وتقديرًا في غالبية المجتمعات المسلمة المعاصرة، مما أفقد المعلم كثيرًا من دوره في العملية التربوية للأجيال الناشئة.

12 – انتشار فوضى الدروس الخصوصية مما أفقد جميع مدارس ومعاهد التعليم دورها التعليمي والتربوي في آن واحد.

ووسط هذا الركام من المشاكل التعليمية تبقى جميع الشعوب المسلمة متعلقة بالإسلام، ومتشوفة إلى تربية أبنائها على أساس من فلسفته وأهدافه ومقاصده، وأسسه، ومحتواه وأساليبه.

وتقوم فلسفة التربية الإسلامية على الإسلام ذاته: (عقيدة، وعبادة، وأخلاقًا، ومعاملات)، وتتركز أهدافها في بناء الإنسان الصالح، وتقوم أسسها على الإيمان الصادق والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة، ويتميز محتواها بتكامل المعرفة وشموليتها مع احترام التخصص، وتتعدد أساليبها ووسائلها ومنهجيتها بتعدد مجالاتها، مع الانفتاح التام على كل أمر نافع في هذا المجال التربوي الهام.

وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة حاليًّا، والتي بذلت من قبل في مواجهة عملية التغريب التي اجتاحت عالم المسلمين المعاصرين، والتي بُذِل فيها من الجهود والأموال والأفكار، وقُدِّم من أساليب التطوير والتنظيم وأنواع التقنيات الشيء الكثير، **فإنه لا يوجد في أي من الدول المسلمة المعاصرة سياسة تربوية إسلامية واضحة، ولا استراتيجية محددة، ولا تخطيط مرسوم من أجل قيام العملية التربوية بمختلف مستوياتها، وتعدد أنشطتها، وتنوع أفرادها ومستلزماتها على أساس من الإسلام بشموله** وإحاطته بمفاهيم الإنسان والكون والحياة، وتنزيهه لمعنى ألوهية الله (فوق الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وفوق جميع صفات خلقه، وفوق كل وصف لا يليق بجلاله) واستيعابه لرسالة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، حتى يخرج المتعلم مسلمًا صالحًا قادرًا على حمل رسالته فيها، ومستوعبًا لمصيره من بعدها، ومحققًا لدوره على سطحها قبل أن يواريه ترابها.



وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن تقديم عدد من الخطوط العريضة لإصلاح عملية التعليم في العالم الإسلامي المعاصر على النحو التالي:

أولًا: في نطاق النظم التربوية:

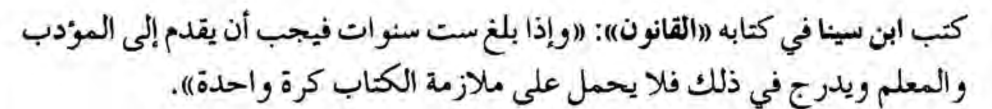
1- **وجوب المبادرة إلى التربية في سن مبكرة** والمسارعة إلى العناية بإيصال الخير إلى قلوب النشء، وتحبيب الفضيلة إلى نفوسهم حتى يتمسكوا بها، وذلك بتعليمهم قواعد الدين وعقائده، وأحكام الشريعة وتعاليمها، بأسلوب مبسط يصل إلى مداركهم، وتوضيح أصول مكارم الأخلاق، وتربيتهم عليها حتى تتشربها عقولهم وقلوبهم وحتى يُروَّضوا على الالتزام بها منذ تفتح إدراكهم.

هذه العناية المبكرة تجعل المربين يسبقون بالخير إلى قلوب وعقول الناشئة قبل أن تتسرب المفاسد إلى تلك القلوب والنفوس الغضة، ولا يتركون لها سبيلًا؛ وذلك لأن قلوب الناشئة يمكنها أن تذكو بقدر ما تعي من الفضائل، وما تتعود عليه من مكارم الأخلاق، **وفي ذلك يقول عبد الله بن أبي زيد القيرواني في رسالة له: «واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب ما لم يسبق الشر إليه»**.

وفي ذلك أيضًا كتب **أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا (المتوفى سنة 438هـ الموافق 1037م) ما نصه: «ابدأ بتأديبه – أي الصبي – ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة، فإن الصبي تبادر إليه مساوئ الأخلاق، وتنهال عليه الضرائب الخبيثة، فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة، ولا عنه نزوعًا، فينبغي لغنم الصبي أن يجنب مقابح الأخلاق»**.

ونصح **الإمام أبو حامد الغزالي الآباء بأن تربية الطفل ليست مقصورة على تعليمه؛ ولذلك فمن الواجب على ولي الأمر أن يراقب الطفل من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال، وينبغي عليه أن يحسن مراقبته فتيًا، وأن يقوي فيه خلق الحياء عند ظهوره، وأن يعلمه الطريق المستقيم في تناول الطعام والمشاركة فيه، إلى غير ذلك من ضروب السلوك البشري**.

وقديمًا قدر المربون المسلمون أن السن المناسبة لبدء التعليم هي السادسة من العمر، وإن تميز بعض النابهين من الأطفال بقدرة على التعلم قبل ذلك، وفي ذلك



كتب **ابن سينا** في كتابه «**القانون**»: «وإذا بلغ ست سنوات فيجب أن يقدم إلى المؤدب والمعلم ويدرج في ذلك فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرة واحدة».

2 - **الاهتمام بمراكز تحفيظ القرآن الكريم** والعمل على نشرها في مختلف المجتمعات الإسلامية مهما صغرت، ويمكن إلحاقها بالمسجد وربطها به بشكل من الأشكال، كما يمكن إعادة التخطيط لها لتجمع بين ما يعرف اليوم بمرحلتي رياض الأطفال والمدرسة الابتدائية.

ومراكـز تحفيظ القـرآن الكريم على اختـلاف مسمياتها – الكتـاب، المكتب، المدرسـة، إلـخ – مـع قلة كلفتهـا استطاعت تخريج أجيـال رائدة مـن أبناء وبنات المسلميـن في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، جمعوا إلى حفظ القرآن الكريم ثقافة العصـر وعلومـه، فجمعـوا بين ما يضيفه القـرآن الكريم إلى حافظه مـن فهم لرسالة الإنسـان فـي الحياة الدنيـا، وفقه في الديـن، وتمكن من اللغة، وسعـة في الإدراك، والتـزام أخلاقـي وسلوكي نبيـل، إلى ما تضيفه الثقافة الحديثة مـن فهم لسنن الله في الخلق، وقدرة على معايشة العصر وعدم التخلف عنه.

وليس تدني مستوى الخريجين في عالمنا المعاصر إلا نتيجة مباشرة لحرمانهم من الثقافة القرآنية في الصغر، بعد أن تم تقليص مراكز تحفيظ القرآن في الأحياء والقرى والنجوع والمدن، واستبدل دورها بآيات متناثرة على مدى مراحل التعليم قبل الجامعي تحفظ لتنسى، دون نطق سليم أو فهم رشيد...!!

وإذا أريد لأجيال المسلمين القادمة أن تُحْفَظَ من الانصهار في بوتقة الحضارة المادية المعاصرة تحت وطأة التحديات الحالية المتعددة، فعلينا أن نعيد لمراكز تحفيظ القرآن الكريم مجدها القديم، وانتشارها في كافة التجمعات السكانية وإن استلزم ذلك بالقطع شيئًا من التطوير لتلائم أسلوب العصر وطبيعة الجيل ومقتضيات الحال.

3 - **الاهتمام بتعويد الطلاب على التفكير الإبداعي** بدلًا من مجرد الحفظ، وعلى **التطبيق العملي** بدلًا من الأفكار النظرية المجردة، وعلى التعليم الفني والحرفي منذ السنوات الأولى للدراسة.

4 - **تعويد الطلاب على الأخذ بأفضل أساليب الأمن** في داخل المدرسة وخارجها، وتدريبهم عليه بطريقة مستمرة حتى يصبح ذلك جزءًا من تكوينهم الشخصي حفاظًا على حياتهم وعلى حياة الآخرين من حولهم.



5- **الاهتمام بالممارسات الرياضية وبكل من التربية البدنية** والترفيه البريء، والعناية باللياقة الصحية والأخذ بأسباب الطهارة المادية والمعنوية وبالوقاية من مسببات الأمراض والتوصية بالعمل على صحة كل من الفرد والأسرة والمجتمع والعناية بالبيئة والمحافظة على سلامتها.

6- **الاهتمام بقضيتي الإعجاز العلمي في القرآن والسنة** وبإبراز دور المسلمين في الحضارة المادية المعاصرة، وتوضيح ذلك في كل قضية من قضايا المعرفة الإنسانية، وإثبات سبق كل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون التي لم تكن معروفة في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده ولم يكن ممكنًا لأحد من الخلق إدراك ذلك قبل القرنين الماضيين، أو حتى قبل العقود المتأخرة من القرن الماضي.

7- **الاهتمام برجال التربية والدعوة إلى احترام أهل العلم:**

تشترط التربية الإسلامية فيمن يقوم بدور المربي شروطًا خاصة أهمها **الصلاح والعلم والكفاءة**؛ أي الفهم لأساليب التربية وطرائقها وواجباتها، ولنفسية المتعلمين واستعداداتهم وملكاتهم، ولغير ذلك **من مؤهلات المربي الصالح**.

فالصلاح وحده لا يصنع معلمًا، **والعلم** وحده لا يصنع مربيًا، وكذلك فقدان **الكفاءة التربوية**، وعلى ذلك فلابد من توافر هذه الشروط الثلاثة مجتمعة لتكوين المربي الصالح، ولا يمكن التنازل عن أي منها؛ وذلك لأن المربي هو الذي يعد أجيال المستقبل، وأي صلاح عنده أو نقص ظاهر فيه أو في سلوكه لا بد أن ينعكس على تلك الأجيال صلاحًا مضاعفًا أو فسادًا متفاقمًا.

ومن هنا كان من الواجب **التدقيق في اختيار المعلمين وحسن إعدادهم**؛ خاصة أولئك الذين يقومون بمهمة التربية في مراحلها الأولى؛ حيث تشكل شخصيات الصغار بالكامل. فلا يكفي أن يكون المربي متمكنًا من مادته، ملمًا بأحدث النظريات التربوية، محبًا للعمل، بل يجب أن يكون قبل كل شيء **إنسانًا مؤمنًا ورعًا، صالحًا، مدركًا لحقيقة رسالته ولجسامة مسئوليته أمام الله وأمام الناس، متميزًا بحسن رعايته لطلابه وقدرته على اكتساب محبتهم وتقديرهم، وبالتالي سهولة الوصول إلى قلوبهم وعقولهم، وحينئذ فقط يتمكن من حسن تربيتهم.**

فالجهد التربوي في الإسلام هو في أساسه جهد في مجال الدعوة الإسلامية، والإعداد لإقامة المجتمع الإسلامي الأمثل والمحافظة عليه وتطويره، فإذا لم يكن المربي مؤمنًا بذلك، ملمًّا بتفاصيله، ملتزمًا بتعاليمه، فأنَّى له أن يربي جيلًا مؤمنًا عالمًا ملتزمًا؟

وبما **أن عملية إعداد المعلم تعتبر جزءًا لا يتجزأ من العملية التربوية**، فيجب أن تكون فلسفتها وأهدافها وأسسها ومحتواها وأساليبها ووسائلها ومنهجيتها هي هي تلك التي تميز التربية الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتجارب الإنسانية الصالحة في هذا المجال الحيوي.

ويحضرني في ذلك أن معاهد المعلمين والمعلمات كانت إلى الماضي القريب تشترط حفظ القرآن الكريم في المتقدم للدراسة بها، وتهتم بكل من الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وبدراسات كل من الأخلاق وعلوم النفس والاجتماع بهدف إعداد القدوة الحسنة، وتهتم بالصلاح الإنساني، والنضج الفكري قبل اهتمامها بالنظريات التربوية وتاريخها وتطورها، ولذا خرَّجت في الماضي غير البعيد أجيالًا من المربين الذين استطاعوا القيام بدورهم خير قيام.

ويوم أن فتحت معاهد المعلمين وكليات التربية أبوابها للطلاب دون شرط حفظ القرآن الكريم، ويوم أن أهملت التركيز على الثقافة الإسلامية، وأهدرت الاهتمام باللغة العربية وانشغلت بدراسة النظريات التربوية الغربية وتواريخ نشأتها فقط، دون نقدها وإظهار معايبها، فقدت تلك المعاهد والكليات القدرة على تخريج المربين المسلمين الذين يصلحون للقيام بمهام العملية التربوية وحمل مسئولياتها على أسس إسلامية صحيحة، وأصبح خريجوها مجرد وسائل لتوصيل معلومات بعضها رديء وبعضها جيد، وفقد هؤلاء المعلمون دور القدوة الحسنة، وحماس المربي لرسالته، وشعوره بالمسئولية تجاه طلابه، وأصبح التعليم وظيفة كأية وظيفة في الدولة، ومجرد وسيلة من وسائل الاسترزاق، ففقد رسالته التربوية أو كاد أن يفقدها بالكامل.

ولقد زاد الطين بلة تدني رواتب المدرسين في أغلب دول العالم الثالث مما اضطرهم إلى النزول عن كبريائهم ودورهم القيادي الكبير **إلى استجداء الدروس الخصوصية من طلابهم أو فرضها عليهم** مما دفعهم إلى إهمال دورهم الأساسي في المدرسة وأفقدهم احترام طلابهم وتقدير أولياء أمور هؤلاء الطلاب لهم.



كذلك أدى تدني رواتب المعلمين إلى عزوف الطلاب النابهين الحاصلين على الدرجات العليا في شهادة الثانوية العامة عن الالتحاق بكليات التربية، وترك هذه الكليات - والتي من المفترض فيها أنها من كليات القمة - ساحة لأصحاب الدرجات المتدنية بصفة عامة.

ولما كانت التربية في الإسلام تشترط في المربين: **سلامة العقيدة، والتزام العبادة والتحلي بمكارم الأخلاق**، والقدرة على التعامل مع الناس بصفة عامة ومع الفتية والشباب المربَّى بصفة خاصة، مع الكفاءة والإحاطة بمادته في فهم واستيعاب كاملين، والقدرة على توصيل هذه المعلومات لطلابه في جو من الود والتعاطف والتفاهم فإنها تفرض للمربين من التكريم والتبجيل والتعظيم - بمعانيه المادية والمعنوية - ما يعينهم على القيام برسالتهم على الوجه الأكمل والأمثل. ويكفي في ذلك الإشارة إلى أن التربية هي رسالة الأنبياء والمرسلين، وأن خاتمهم أجمعين - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم - يصف نفسه بقوله: **«إنما بعثت معلمًا»**[1]، ويصفه القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الجمعة: 2).

وإلى أن تعي مجتمعاتنا المعاصرة قيمة المعلم، فتهتم بإعداده، وتحرص على تكريمه، ستظل مجتمعاتنا متدنية منهارة إلى أن تتداركها رحمة الله.

8- **الاهتمام بمعاهد التربية الإسلامية والعمل على نشرها:** فالتربية الإسلامية تولي المدرسة والمعهد التعليمي عناية بالغة بكل من المعلم والإمكانات والبناء والإدارة، فهي تشترط **حسن اختيار المعلم دينًا وخلقًا وعلمًا**؛ لأنه هو المثل الأعلى للطالب، خاصة في المراحل الأولى من التعليم؛ فإذا صلح المعلم صلحت العملية التربوية، وإذا فسد فسدت كلها، والمعلم الضعيف في مادته، أو الرث في هيئته، أو المتنازل عن كرامته بإعطاء الدروس الخاصة، لا يصلح أن يكون قدوة لطلابه.

وتشترط التربية الإسلامية **الإدارة الحكيمة المدركة، وتوفير الإمكانيات اللازمة، والمبنى المناسب**، بغير إسراف ولا تقتير، ولا بذخ ولا تقصير؛ لأن كل قرش يزيد عن

(1) سنن ابن ماجه.

الحاجة الضرورية يمكن الاستفادة به في إنشاء مدرسة أخرى أو معهد آخر، من أجل تعليم أفراد آخرين. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن التعليم في الإسلام بدأ في المسجد وارتبط به، وهكذا يجب أن يكون أي نظام تربوي نؤسسه، بمعنى أن يكون المسجد هو المركز الذي يدور عليه بناء أية مدرسة إسلامية أو معهد تربوي إسلامي أو كلية أو جامعة، ليكون هو مكان الصلاة، وقاعة الاجتماعات والمحاضرات والندوات، ومنطلق الأنشطة المختلفة، وتكون المكتبة مرتبطة به، والمبنى كله يدور حواليه. ونحن في ذلك محتاجون إلى مهندسين مسلمين يبرعون في إعادة تخطيط مراكزنا التربوية بما يوفي كل احتياجات العصر على هذا النهج الإسلامي الصحيح.

كذلك تجدر الإشارة إلى أن المبالغة في البنيان وفخامته سواء في المسجد أو المعهد التربوي هو أمر مخالف لتعاليم الإسلام وأصوله، فيجب أن يكون المبنى جميلًا، رحبًا بسيطًا، نظيفًا، وافيًا بالاحتياجات الضرورية في غير إسراف أو مبالغة؛ وذلك **لأن التربية حق من حقوق كل مولود، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**، وعليه فمن الواجب أن تتاح فرص التعليم والتربية لكل فرد في المجتمع، لا في فترة محددة من عمره فحسب، بل طوال حياته، وبالتالي فلا بد من زيادة عدد المؤسسات التربوية، وتسهيل عملية الانخراط فيها، وتمكين كل فرد من اختيار ما يلائمه منها، وهنا لا يجوز الإسراف ولا المبالغة في تشييد مراكز التعليم والإنفاق بالملايين عليها من أجل نخبة قادرة في المجتمع من أبناء وبنات الأثرياء، وحرمان الغالبية من بنات وأبناء ذلك المجتمع والتي قد تحوي من يفوقون أبناء الأثرياء ذكاءً وفطنة ونباهة، ومن أجل ذلك لا بد من تخفيض تكاليف إنشاء وإدارة كل المؤسسات التعليمية والتربوية الإسلامية حتى يمكن مضاعفتها أضعافًا كثيرة تستوعب كل أبناء وبنات الأمة، خاصة في المراحل التربوية الأولى. ويتم توفير التعليم الابتدائي لجميع الأطفال في السن المناسبة ما أمكن عن طريق المدارس الابتدائية، وبطرائق أخرى متعددة إذا لزم الأمر، وبذلك يمكن تقليص أسباب الهدر التعليمي والعمل على إعادة تأهيل الفاشلين دراسيًا كلما تيسر ذلك.

وترجع أهمية المدرسة – بصفة عامة – إلى أن الطفل يتعامل فيها مع أفراد لا ينتمون لأسرته، فمنهم رفقاؤه ومعلموه، الذين يؤثرون فيه وفي سلوكه وأفكاره التي كونها في داخل مجتمع أسرته قبل مجيئه إلى المدرسة. ولذلك يصبح من أخص مهام المدرسة العمل على تكوين العلاقات والمفاهيم الإنسانية السليمة بين المربين

والمتربين، وبين القرناء المتربين في الفصل الواحد وفي المدرسة الواحدة، ولا بدَّ أن يأتي ذلك في المقام الأول قبل تعليم القراءة والكتابة والحساب، **فإن التعليم عن طريق القدوة والمثل الذي يحتذى أسرع وأجدى من التعليم النظري المسموع أو المقروء،** فالطفل يتعلم في المدرسة أول ما يتعلم كيف يتعامل مع الآخرين، وهو يقلد في ذلك أساتذته ورفقاءه وكل من يلقاه في دائرة المدرسة، **وعلى ذلك فإن للمدرسة أهمية كبرى في تكوين العلاقات الإنسانية للصغار، وهذا التكوين ينمو مع الصغير ويترسخ في أعماق ذاته، ويشكل شخصيته المستقبلية تشكيلًا قد لا يستطيع الخروج عليه مستقبلًا حتى لو اقتنع بخطئه.**

وإذا كانت التربية الإسلامية تهتم بتوفير المؤسسة التعليمية الصالحة؛ معلمًا، ومبنى، وإدارة، وإمكانيات، **فهي تهتم أيضًا بطهارة المجتمع المدرسي وتأسيسه على الأخلاق القرآنية الكريمة،** وتهتم بالمجتمع الكبير خارج حدود المدرسة أو المعهد التربوي، وبقيمه التي تنطبع في ذهن الصغير من البداية حتى تكاد تصبح جزءًا من نفسه خاصة في ظل ثورة الإعلام والمعلومات الحالية التي تدخل إلى الأفراد في مخادعهم. ومن هنا **فنظام التربية الإسلامية يقوم على الربط الوثيق بين البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع بإعلامه وسلوكياته** لقَبول الصالح وتقويم المعوج منها، ربطًا لا ينفصل ولا يتجزأ، ويدعو باستمرار إلى تصحيح سلوك المجتمعات؛ لأن المجتمع هو المؤسسة التربوية الكبرى، وكل فصل بين المدرسة والحياة، وبين الطلاب ومجتمعهم، يضر بالعملية التربوية ويشوهها، ومن هنا يتضح دور وسائل الإعلام من تليفزيون وإذاعة وسينما وصحافة وشبكات معلومات وغيرها في تشكيل عقلية أفراد المجتمع.

9- **بناء النظم التربوية على أساس من الشمول والاستمرارية،** ويقصد بالشمول هنا كل ما يهتم بتنشئة الإنسان الصالح وذلك بإنماء جسده على أسس علمية صحيحة حتى ينشأ قويًّا سليمًا معافًى، وتزكية نفسه تزكية قرآنية نورانية حتى ترتبط بالله، وتأديبه على الالتزام بمكارم الأخلاق حتى يصبح ذلك جزءًا لا يتجزأ من كيانه، وتنمية عقله بتزويده بما يتناسب وقدراته من المعارف النافعة، وبتدريبه على حسن التفكير ودقة الاستنتاج، وعمق النقد الهادف البناء، حتى يتسم بالحكمة في كل ما يصدر عنه من قول أو عمل. ويتم ذلك بالتعرف على مختلف ملكاته ومهاراته وحسن توجيهها، وعلى نواحي القصور فيه وعلاجها

حتى تتم تنمية قدرات الدارس إلى أقصى طاقاتها مما يعينه على القيام برسالته في هذه الحياة، وعمرانها على الوجه الذي يرضاه الله - سبحانه وتعالى - وبذلك يتم **التنسيق بين كافة عناصر العملية التربوية: المعرفة، حسن الفهم، الاتجاهات العقلية، الحوافز، الاستعدادات العلمية والنفسية وغيرها**، ويتحقق بذلك زيادة الاهتمام بالفرد وتربيته حسب قدراته.

ويقصد بالاستمرارية هنا إتاحة الفرصة لكل فرد من أفراد المجتمع في التزود من المعرفة باستمرار، وبغير قيود مسبقة، وتكامل المؤسسات التربوية مع مؤسسات المجتمع الأخرى، وتحديد التزامات قطاعات العمل والإنتاج تجاه تدريب العمال والفنيين والموظفين وتثقيفهم باستمرار، وتوثيق الروابط بين المجتمع ومؤسسات التعليم، وبين الصناعة والجامعات ومراكز البحوث فكلها من العناصر الأساسية في نظام التربية الشاملة المستمرة التي يدعو إليها الإسلام العظيم والتي لخصها رسولنا الكريم ﷺ بقوله الشريف: **«فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة»**[1].

وفي ذلك لا بد من تشجيع الطلاب - حتى في المراحل التعليمية الأولى - على الاشتراك بأعمال والديهم في الحقول والمصانع والمتاجر كما كان الحال في غالبية البلاد الإسلامية حتى عهد قريب، ولا بد من السماح للطلاب في المراحل التعليمية المتقدمة بالخروج للحياة العملية متى شاءوا سواء كان ذلك في الليل أو في النهار، على أن تفتح لهم أبواب المعاهد إذا عادوا لمتابعة الدراسة بعد فترة تطول أو تقصر، وإذا لم يتيسر لهم ذلك فلتذلل لهم وسائل الاستزادة من المعرفة وكسب المهارات حيث هم بوسائل التدريب والتثقيف الدورية المختلفة. وهكذا كان حال المعاهد الدراسية في عهد الدولة الإسلامية. وكثير من دول العالم اليوم - مثل كل من اليابان والصين - تلجأ إلى نظام مماثل وذلك بعدم السماح لمن يتمون الدراسة الثانوية بدخول الجامعة قبل مرور عامين من ممارستهم للحياة العملية، وقبل الحصول على شهادة من المسئولين الذين خالطوهم في حياتهم العملية بأنهم مواطنون يستحقون مواصلة الدراسة العليا، وبذلك تكسر القيود وترفع الحواجز، وترتبط العملية التعليمية بالحياة العملية ارتباطًا مباشرًا. وفي بعض الدول الأخرى - مثل ألمانيا الغربية، فرنسا، إنجلترا، السويد، الولايات المتحدة - يشجع طلاب الجامعات على

(1) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله - باب تفضيل العلم على العبادة.

الخروج إلى الحياة العملية لفترات متفاوتة قبل تخرجهم، كما تشترط الجامعات الروسية على المتقدمين لشهادات الكانديدات – الدكتوراه – أن تكون لهم خدمة اجتماعية سابقة ودراسات منشورة في هذا المجال.

هذا كله مستمد أصلًا من التجارب الناجحة للمسلمين السابقين، ومن كتاباتهم المفصلة، بينما المتعلمون في العالم الإسلامي اليوم يكادون أن يكونوا معزولين عن الحياة العملية عزلًا كاملًا بعد أن انتقلت إليهم عدوى المجتمعات الثرية في الدول الغربية إبان العصور الوسطى حيث كان ينظر إلى العمل اليدوي بشيء من الازدراء والاحتقار، بينما يعلمنا رسولنا الكريم ﷺ أن العمل اليدوي مكرم في الإسلام وفي ذلك يقول: **«ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود – عليه السلام – كان يأكل من عمل يده»**[1].

ومن وسائل ربط الحياة التعليمية بالحياة العملية مشاركة أولياء أمور التلاميذ من الآباء والأمهات في إدارة المدرسة أو المعهد التعليمي وفي توجيه نشاطاته، وإسهام رجال الأعمال إسهامًا فعليًا في إدارة العملية التربوية، من أجل إخراج المدارس والمعاهد والجامعات من عزلتها، وإشراكها في عمليات التنمية الاجتماعية بمختلف مجالاتها. وبذلك تتحقق المواءمة بين المؤسسات التعليمية وحاجات المجتمع الذي تقوم فيه بحيث لا يتخرج متعلمون لا يستطيعون المساهمة في نهضة مجتمعاتهم فيصبحون عالة على تلك المجتمعات بدلًا من أن يكونوا قادرين على الأخذ بأيديها. هذا مع العلم بأنه يجب أن يتم ذلك بالمواءمة التامة مع الملكات الشخصية، والميول الذاتية، وهي من أهم ما يجب أن تحرص العملية التربوية على تنميته واستثماره في التلاميذ إلى أقصى درجة ممكنة لأن الله – تعالى – قد وهب كل فرد من خلقه قدرات خاصة وملكات محددة لو أحسن استثمارها خلال العملية التربوية لآتت ثمارها طيبة رضية بإذن الله.

10 - **عدم الفصل بين المعارف الدينية والدنيوية:** فهذا الفصل انتقلت عدواه إلى بلاد المسلمين من النظم التربوية الغربية التي نشأت في مقدمات عصر النهضة بعد معركة طويلة مع الكنيسة انتهت بهزيمة الكهنوت وانحساره، وبانطلاق المعارف المكتسبة كلها من منطلقات مادية بحتة، منكرة أو متجاهلة كل ما

(1) صحيح البخاري – كتاب البيوع – باب كسب الرجل عمله بيده.

وراء المادة من غيبيات، ومتحللة من كل المعتقدات والأخلاق والقيم الروحية والمعنوية والدينية. وأدى ذلك في كل من الغرب والشرق غير المسلمين إلى تقدم علمي وتقني مذهل صاحبه انحسار ديني وأخلاقي وسلوكي مفزع يتهدد البشرية كلها بالدمار. وكان هذا الانفصال بين العلم والدين بسبب هيمنة الكنيسة على مقدرات الحياة لقرون عديدة ومحاولتها فرض عدد من المفاهيم الخاطئة على مناهج التعليم وتفكير العلماء، وحين تعلم علماء الغرب المنهج العلمي من الحضارة الإسلامية وبدأوا في تطبيقه ثبت لهم خطأ الكنيسة في جميع ما ورد عنها من تفسير للخلق بأبعاده الثلاثة (خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان) فطلقوا الكنيسة طلاقًا بائنًا ومن هنا جاءت المفاصلة بين التعليم المدني والتعليم الديني في ديار المسلمين.

فالإسلام على الرغم من اهتمامه بالتخصص في الدراسات الإسلامية فإنه لا يعرف كهنوتًا كما هو موجود في المعتقدات الأخرى، ولا يهمل أي جانب من جوانب المعرفة الإنسانية، وهو يهتم بتنمية كل المعارف المكتسبة، وجميع المهارات الذهنية واليدوية والمهنية، فهؤلاء أنبياء الله ورسله كانوا من أصحاب الحرف، وكل منهم كان يأكل من عمل يده، وهكذا كانت الحضارة الإسلامية التي استمرت لأكثر من عشرة قرون كاملة وهي تجمع الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، وتجمع المعارف المكتسبة من مختلف الحضارات بعد غربلتها بمعايير الإسلام وتأخذ بها يدًا بيد.

والفصل بين المعارف إلى دينية ودنيوية قد عزل العلوم الدينية عن ركب الحياة ومشاكلها وتطورها؛ مما دفع بالناس إلى الزهد فيها، ودعاهم إلى هجرها، كما عزل العلوم الدنيوية عن الحكمة، وجعلها تدور في الأطر المادية للأشياء فقط، مما أدى إلى رفض المتدينين لها، وفقدان حماسهم للاهتمام بها. والحل لا يمكن أن يكون في رفض هذه المعارف المكتسبة فهي تراث الإنسانية، ووسيلتها إلى عمران الحياة على الأرض، ولا يمكن فرضها على المسلمين في صياغاتها الغربية المنكرة للدين دون إعادة صياغتها من المنظور الإسلامي الصحيح؛ لأن ذلك يعني تغريب التربية بدلًا من أسلمتها، وهذا هو الأمر السائد في غالبية دول العالم الإسلامي اليوم. فإذا كان أعداء الإسلام قد خططوا للقضاء على مراكز التربية الإسلامية العريقة التي عملت على حفظ كل من الإسلام ولغة القرآن قرونًا طويلة، فليعمل المسلمون اليوم



لأسلمة المعارف المكتسبة كلها انتصارًا لكل من الإسلام والعلم، وتوحيدًا للفكر التربوي في جميع مؤسساته في كل العالم الإسلامي إن لم يكن في العالم بأسره إن استطاعوا.

فإن تقسيم المعارف الإنسانية إلى معارف دينية ومدنية منفصلة عن بعضها البعض انفصالًا بَيِّنًا، وتقسيم المعارف المدنية إلى معارف عملية تقنية ليس لها ارتباط بالنواحي الإنسانية، ومعارف إنسانية ليس لها صلة بالتقدم العلمي والتقني الراهن قد أضر بالعملية التربوية ضررًا بليغًا. وعلى ذلك فلا بد للمثقف في هذا العصر من الإلمام بالقضايا الرئيسية للمعرفة ولو إلمامًا عامًّا، بالإضافة إلى تخصصه الدقيق؛ فالمعارف المكتسبة في هذا العصر تتجدد بمعدلات مذهلة في سرعتها، وعليه فلا بد للإنسان من مجاراة تيار التقدم العلمي والتقني، وإلا وجد نفسه متخلفًا عن الركب.

والمعارف الإنسانية يمكن ترتيبها في شكل هرمي قاعدته **المعارف البحتة والتطبيقية** ليس استهانة بها ولا تقليلًا من شأنها ولكن لكونها وسيلة إعمار الأرض والقيام بواجبات الاستخلاف فيها. ويأتي فوق العلوم البحتة والتطبيقية **فلسفة العلوم**؛ بمعنى استخلاص الحكمة من كل معرفة كونية، ويأتي فوق ذلك **الدراسات الإنسانية** لتعلقها بالإنسان والإنسان مخلوق مكرم، وكل ما يتعلق بهذا المخلوق المكرم لا بد أن يكون مكرمًا، ومن هنا كان وضع الدراسات الإنسانية فوق دراسات العلوم البحتة والتطبيقية وفلسفاتها. ويأتي فوق الدراسات الإنسانية **دراسات الفلسفة** على إطلاقها بمعنى حب الحكمة أو توظيف كل معرفة إنسانية أو مهارة مكتسبة في معرفة الحق، ويأتي في قمة الهرم **وحي السماء** الذي هو بيان من الله – تعالى – للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا – تبارك وتعالى – بعلمه المحيط عجز الإنسان عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها من مثل قضايا العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات وهي ركائز الدين. والتاريخ يؤكد على عجز الإنسان عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه بنفسه في أي منها. وكل مثقف عليه أن يتخصص في شريحة من هذه الشرائح على ألا يعزل نفسه عن بقيتها.

كذلك فإنه لا يجوز تفضيل مهنة عن مهنة، ولا حرفة عن حرفة، فالإنسانية في حاجة إلى كل مهنة وكل حرفة، والحرفة أو المهنة (قل دورها أو كبر) هي عمل شريف مادام الفرد يؤدي دوره فيها بأمانة وإخلاص واحترام لمهنته، والتزام بآدابها.

ومن آفات مجتمعاتنا الحاضرة أنها مازالت تفضل التعليم النظري على التعليم التقني، وتميل إلى الوظائف العامة والمهن الكتابية أكثر من ميلها إلى الحرف اليدوية والتعليم المهني المدرب للأيدي الماهرة، وذلك على الرغم من كثرة الآلات والأجهزة التي أغرقت مختلف المجتمعات بإغراء من طبيعة المدنية المعاصرة.

11 - **جعل الإنسان المحور الحقيقي للعملية التربوية:** بوصفه المستخلف في الأرض، والكائن الحي العاقل المختار المكلف، صاحب الملكات والمواهب، الذي كرمه الله – تعالى – وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا، وسخر له الكون كله. والإنسان هنا مقصود بطرفيه في العملية التربوية: **المربي والمتربى، وبنوعيه الذكر والأنثى** دون أدنى تمييز بين عرق وعرق، أو لون ولون، أو لغة ولغة؛ لأن الإنسان الصالح هو أساس كل مشروع تنموي ناجح.

فكما يشترط في المربين كمال الدين، واستقامة الخلق، وغزارة العلم، وحسن التدريب على القيام برسالتهم التي هي في صميمها استمرار لرسالة الأنبياء، فيجب الاهتمام بهم اهتمامًا يعكس الشعور بخطورة رسالتهم، وذلك بحسن إعدادهم، ثم بمنحهم ما يستحقون من **التقدير المعنوي (الاحترام والثقة)، والمادي (المرتبات والتسهيلات في الحياة)** حتى يتفرغوا لمهماتهم التربوية تفرغًا كاملًا، ويشعروا بثقة المجتمعات فيهم؛ لأن الثقة تولد الرغبة في الوصول إلى الكمال البشري، فيرقوا بأنفسهم إلى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقهم ارتقاء اختياريًّا واعيًا. كذلك لا بد من إعطائهم الحرية الكاملة لتربية أبنائهم الطلاب بالطريقة التي يجيدونها، والتي قد تتباين بتباين الأساتذة، وبتباين الطلاب أنفسهم قدرة ومهارة وملكات وميولًا، وأخذ عامل التباين الفردي هذا في الحسبان لأن كل فرد من بني آدم كيان قائم بذاته، فالطلاب يختلفون في طبائعهم، وقدراتهم، وإمكاناتهم للتعليم، ورغبتهم فيه، واستعداداتهم النفسية له، ومستوى إدراك كل واحد منهم، وحتى في الطالب الواحد يتباين ذلك كله بتباين مراحل النمو، وزيادة النضج واكتساب الخبرة ومن هنا كانت ضرورة **المواءمة بين مرحلة النمو والقدرة على كسب التربية والعلم.**

وهنا أيضًا يجدر التنبيه إلى **أهمية التعليم باللغة الأم مع عدم إهمال تعليم لغات أخرى، خاصة اللغة العربية إذا لم تكن هي اللغة الأم للمسلم والمسلمة،** كما يجدر التنبيه على ضرورة العمل على إكساب الطالب المعرفة – أيًّا كانت مجالاتها – على هيئة خبرة شخصية تكتسب بالممارسة، وليست تلقينًا لفظيًّا مجردًا.. فالتلقين اللفظي لا



يجوز إلا في حفظ كتاب الله وذلك أملًا في الاستفادة من الذاكرة الصافية التي يتمتع بها الإنسان في مراحل حياته الأولى، وحتى في ذلك لا يجوز الحفظ دون فهم، فلقد كان صحابة رسول الله ﷺ لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن الكريم حتى يكونوا قد فهموا ما فيها من أوامر وعملوا بها، وما فيها من نواهٍ فاجتنبوها. وكانوا يقولون: «وهكذا تعلمنا العلم والعمل معًا».

فتدبر معاني الآيات مقدم على مجرد التلاوة وإن كانت تلاوة القرآن الكريم – في حد ذاتها – تمثل صورة من أجلّ العبادات؛ فمن الثابت عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: **«من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها»**[1] ثم يضيف – صلوات الله وسلامه عليه – قوله الشريف: **«لا أقول الم حرف، بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف»** وفي حديث آخر يقول – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم –: **«من قرأ القرآن فلم يعربه وكّل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وكّل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة، فإن أعربه وكّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة»**[2]. والمقصود بالإعراب هنا هو حسن الفهم؛ ومن هنا كان من الواجب اختيار الآيات التي يحفظها الطفل بما يتلاءم مع عمره وقدرات فهمه، وإن كان ذلك مجال خلاف أيضًا بين المربين، فمن قائل إن الطفل يكفيه الحفظ في المراحل الأولى من حياته، ثم يتدرج في الفهم كلما زاد نضجًا، ومنهم من يرى حظر الإثقال على الذهن بالحفظ حتى لا يَكِدَّ خاصة في مراحل الطفولة الأولى، وإن كنت أميل إلى الرأي الأول.

والمساواة في التربية ضرورة من ضرورات قيامها برسالتها على الوجه الأمثل، وهي صورة من صور العدل الاجتماعي، وبالتالي فلا بد من نزع الأطر الإدارية المتزمتة الجامدة عن المؤسسات التربوية، وإلغاء الشروط التعسفية الجائرة في قبولها للطلاب، وجعل المقياس في ذلك هو القابليات والمؤهلات الشخصية دون ترجيح مطلق للتقدير في امتحان ما؛ وذلك لأن الامتحان بصورته الراهنة لا يمكن أن يكون مقياسًا عادلًا لقدرات الطلاب، أو تعبيرًا صادقًا عن استعداداتهم الشخصية، وأن الخبرة المكتسبة عن طريق التحصيل الشخصي أو في نطاق الممارسة الفعلية في مهنة ما قد ترجح كثيرًا ما يلقن في المدرسة أو المعهد التعليمي. **فالنظام التربوي**

---

(1) القرطبي – الإسراء/82.

(2) القرطبي – المقدمة – باب ما جاء في إعراب القرآن وتعليمه.

الناجح يركز نشاطه كله على المتربي، ويمنحه مزيدًا من الحركة كلما ازداد نضجًا لكي يقرر بنفسه ما يريد أن يتعلمه، وكيف وأين يمكن أن يتعلمه، حسب ميوله الشخصية، وقابلياته ودوافعه، ولا بد أن يتم ذلك في إطار من المشاركة الفعالة؛ حيث يسهم المتعلمون أنفسهم في النهوض ببعض المسئوليات التربوية؛ فالتربية الناجحة تجعل من أهدافها الأولى إيجاد الإنسان القادر على التفكير الحر الناضج، فكل تربية تعتمد على الحفظ دون الفهم، وعلى التلقي والقبول دون التأمل والتقصي والإبداع، ولا تغرس الرغبة المستمرة في التعلم والسمو بالتفكير هي تربية ناقصة وضارة، ولا يمكن للعملية التربوية أن تنجح إلا إذا جعلت هدفها الرئيسي ومحورها الحقيقي الإنسان بكل أبعاده.

والمساواة في التربية تشمل المجتمع بجنسيه - الذكور والإناث - مع الأخذ في الاعتبار الصفات الفطرية لكل جنس وما يلائمه من دراسة، وما يتناسب مع فطرته من وسائل تربوية دون تفضيل لأي من الجنسين على الآخر.

هذه العناية بالإنسان مربيًا ومتربيًا تحتم الاهتمام بكل من معاهد التربية ومراكز إعداد المعلمين اهتمامًا يعكس خطورة الرسالة التي يضطلع بها المربون، وهنا تبدو الحاجة ملحة إلى **إنشاء معاهد إسلامية للتربية** تعد المربين الإعداد الصالح اللائق بدورهم في الحياة، ثم متابعة ذلك بالدورات التدريبية والندوات الفكرية اللازمة لهم من أجل تطوير قدراتهم باستمرار.

12 - **العمل على تبسيط العملية التربوية وتيسير إجراءاتها:** فمن المميزات التي تجمعت للتربية الإسلامية كانت البساطة، والتيسير، والخلو من التعقيدات التي تعاني منها غالبية نظم التعليم المعاصر، فلم تكن التربية الإسلامية تشترط أكثر من أستاذ مؤمن، عالم، عامل، ذي خلق، وطلاب لديهم الرغبة في التعلم، تحكمهم علاقة من التفاهم، والود، والثقة، والاحترام والعطف في جو من خشية الله وتقواه، والشعور بقدسية العملية التربوية، واحتسابها في عداد الأعمال التعبدية، واعتبار ذلك أكبر عون على تذليل أية صعاب تواجهها، وعلى تحقيق الغاية المرجوة منها بأقل جهد وأيسر تكلفة.

فلم تكن هناك أسوار بين العلم والمجتمع في تاريخ التربية الإسلامية، بل كانت فرص التزود من العلم متاحة لكل راغب فيه، دون أية شروط كالسن، أو الحصول

على مؤهلات سابقة، أو الظروف الاجتماعية والاقتصادية، ما دام الأستاذ قد وافق على قبول الطالب لتحصيل العلم على يديه. ولكي نعيد للعملية التربوية روحها الإسلامية فلا بد من مضاعفة أعداد مؤسساتها، وتسهيل إجراءات الانخراط فيها، وتمكين الفرد من اختيار ما يلائمه منها بحرية كاملة حسب قدراته وإمكاناته وميوله، وأن يتم ذلك بوسائل متعددة في مرونة ويسر تمكن كل راغب في المعرفة أن ينهل منها، وأن يترك ذلك كلية للأستاذ والطالب دون تدخل أية سلطة أخرى؛ اللهم إلا إذا كانت أعمالًا إدارية تنظيمية تتم بإرشاد الأستاذ وتوجيهه.

13 - **إزالة الحواجز التقليدية بين مراحل التربية المختلفة:** فلم تكن هناك أية حواجز في النظام الإسلامي بين مراحل التربية المختلفة؛ فالمتعلم كان له أن ينتقل رأسيًا من مستوى إلى غيره، وأفقيًا من تخصص إلى آخر حسب رغبته واستعداداته، وبتوجيه من أستاذه الذي يختاره الطالب بمحض إرادته. وهذه المرونة كانت تزيد من مجالات الاختيار أمام الطلاب، ولا تضطر أيًا منهم إلى الانخراط في تخصص لا يتناسب وميوله، أو إجباره على الدراسة على يد أستاذ لا يستسيغ طريقته، مما قد يضطره إلى الفشل وترك التعليم كلية.

وعلى ذلك فلا بد من إزالة الحواجز المصطنعة التي تفصل بين مختلف أنواع التعليم ومراحله ومستوياته، وبين التعليم النظامي وغير النظامي، وتيسير عمليات التربية المرحلية، والتعليم عن بعد حتى يستفيد منها كل من تضطره ظروفه إلى العمل مبكرًا، ولاتزال لديه رغبة في مواصلة تعليمه من الذكور، أو من تضطرها ظروفها من الإناث إلى عدم مواصلة التعليم.

كذلك لا بد من توسيع مفهوم التعليم العام بحيث يتيح للطفل فرص التربية الفكرية النظرية، والتقنية التطبيقية، واليدوية الفنية، حتى يتم التوفيق بين تكوينه العقلي والتطبيقي واليدوي، مما يمكن من اكتشاف مواهبه وتنميتها، والتعرف على نواحي القصور عنده وعلاجها وتوجيهها التوجيه الصحيح. كذلك لا بد من تنويع التعليم الخاص وتعديد مجالاته ومؤسساته ليتمكن من تلبية احتياجات الأفراد والمجتمعات على تباين قدراتهم وميولهم ورغباتهم.

وهذا الانفتاح على مختلف مجالات المعرفة في التربية الإسلامية كان من وسائل تيسيره في الماضي أن العلم كان يقصد لذاته حبًا في المعرفة وتعبدًا لله وتقربًا إليه، لا لمجرد طلب الوظيفة أو المهنة، ولا للكسب المادي المجرد، ولا للافتخار والتباهي

به، ولا للتسابق على مراكز الصدارة في المجتمع، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول: «**لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيَّروا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار**»[1].

وعلى ذلك كان العلم في الحضارة الإسلامية يقصد رغبة في المعرفة والحكمة، وحبًا في الاستزادة منهما، وأملًا في القدرة على تعليمهما للناس، وعلى استعمالهما في عمران الحياة على الأرض، وإقامة شرع الله فيها. وفوق ذلك كله كان العلم وسيلة للتعرف على الله، ولم يكن يحول دون ذلك أن يكون الإنسان صاحب مهنة، فأنبياء الله – صلوات الله وسلامه عليهم – كانوا من أصحاب المهن، وكان كل منهم يأكل من عمل يده، وكذلك كان صحابة رسول الله ﷺ، رضي الله عنهم أجمعين؛ فهذا عمر بن الخطاب – رضوان الله تعالى عليه – يقول: «**إني لأرى الرجل فيعجبني، فأسأل هل له مهنة؟ فإذا قيل «لا» سقط من عيني**».

هذا، ولقد كان العديد من المسلمين البالغين يفضلون الترحال لطلب العلم والبعد عن الوطن والأهل، تأكيدًا لتفرغهم في تحصيله، وتقليلًا لما يمكن أن يصرفهم عن الاشتغال به.

14 - **العمل على جعل التربية عملية ذاتية حرة غير مقيدة بمناهج جامدة محددة،** ولقد كان ذلك من أبرز سمات التربية الإسلامية التي رفضت تكبيل الإنسان – مربيًا كان أو متربيًا – بأية قيود جامدة من مثل ما يعرف اليوم باسم المناهج المحددة، فلقد كانت تكتفي بتحديد فلسفتها المستمدة من عقيدتها، وأهدافها العامة التي تتلخص في تربية الإنسان الصالح، وأطر ذلك من سلوك وأخلاق ومعاملات وحقوق وواجبات، وتترك العملية التربوية بعد ذلك علاقة مقدسة بين المربي والمتربي تحكمها خشية الله وتقواه، والإحساس بحجم المسئولية الملقاة على كاهل كل منهم، والإيمان العميق بأنها رسالة تؤدى، وصورة من صور القربى إلى الله، ويكفي أنها نبعت من المسجد وارتبطت دومًا به.

وعلى ذلك فقد ظلت العملية التربوية طوال فترات ازدهار الحضارة الإسلامية تربية فردية حرة بكل ما في الكلمة من معنى، لم تتبع المناهج المحددة، خاصة في المراحل

(1) سنن ابن ماجه – المقدمة – باب الانتفاع بالعلم والعمل به.

المتقدمة منها، بل كان لكل مرب في النظام الإسلامي منهجيته الخاصة، وطرائقه في تنفيذها، وأسلوبه ووسائله التي تتباين بتباين كل طالب وقدراته وملكاته وميوله، وكامل ظروفه، وبتباين مراحل نموه؛ مما يؤكد إنسانية كل فرد، ويعمل المربي على صيانتها مهما كانت قدرات الطالب. وعلى النقيض من ذلك فإننا نجد مناهج التربية اليوم تتباين في أسسها بين تركيز على الطفل وما يتنازعه من عوامل داخلية من مثل عوامل الوراثة، أو خارجية من مثل مؤثرات البيئة، أو من كليهما معًا، أو تركيز على المعلومات وحدها - بين شاملة واختيارية - أو على المجتمع بذاته - بين تحليل واقعي أو رؤية مثالية - أو على العمل وحده كقيمة اجتماعية، وكلها مفاهيم جزئية، لا تتناسب مع تكامل الطبيعة الإنسانية وشمولها، فضلًا عن تباين الأفراد، واختلاف قدراتهم وملكاتهم مربين ومتربين.

ومن الغريب أن التربويين في كل من العالمين الرأسمالي والاشتراكي - على تباين معتقداتهم - قد بدأوا يفيقون إلى أهمية هذه المبادئ في التربية بعد دراسات مستفيضة: ألا وهي **الإنسانية والحرية** في نظام وطاعة لا يتسمان بالتعقيد ولا بالخنوع، وفي بساطة منضبطة لا تكبلها أثقال القيود المفروضة والمعممة على كل الأفراد رغمًا عن تباينهم، وفي عدل اجتماعي يتيح لكل فرد - مهما كانت ظروفه، وعلى مدى حياته - فرص التعلم والترقي فيه إذا كانت له رغبة صادقة في ذلك. وعلى ذلك فإن الصرخة اليوم تتعالى في العالم كله طلبًا لنظام تربوي متكامل، يتيح فرص التربية المستديمة على كافة المستويات بدءًا برياض الأطفال (التي يجب التوسع فيها لتستوعب كل وليد) إلى **المرحلة الثانوية** (التي يجب أن يعاد تنظيمها لتتسم بقدر من المرونة يتلاءم مع كل الطاقات، وبالتنوع الذي يمكن أن يجعل منها تأهيلًا للجامعة وللمهنة وللحياة، وذلك بجعل التعليم فيها تعليمًا شاملًا) وإلى **التعليم العالي** (الذي يجب أن تتعدد آفاقه ومؤسساته من المعاهد التقنية والفنية العامة والمتخصصة، إلى الجامعات ومراكز البحوث ومعاهده وأن يفتح أبوابه على مصاريعها لكل راغب فيه وقادر عليه) إلى **التعليم عن بعد، إلى التعليم غير النظامي** (الذي يهتم بإعداد البرامج الخاصة للشباب وتوجيههم عبر وسائل النشاط الاجتماعي والإعلامي المختلفة ويوفر البرامج التعليمية والتدريبية والتربوية المتعددة في شتى مجالات المعرفة لكل من الموظفين والمهنيين أثناء قيامهم بالعمل) أو إقرار نظم من أجل تفريغهم بعض أو كل الوقت للدراسة بالتناوب مع احتفاظهم بوظائفهم وبمرتباتهم كاملة. وبذلك

يمكن تحقيق **التربية الشاملة المستمرة** لكل فرد في المجتمع، وامتصاص القوى البشرية العاطلة عن العمل، وتعليم أفرادها مهارات أو مهنًا جديدة يطلبها المجتمع؛ مما يساعد الخريجين على إيجاد فرص عمل مناسبة. وربما كانت هذه المبررات من الحوافز على إنشاء **الجامعات المفتوحة** التي تستخدم وسائل الإعلام الحديثة في التعليم عن بعد (من مثل التلفاز والإذاعة، والحاسوب، وشبكات المعلومات الدولية – العنكبوتية – والبرامج المطبوعة المصاحبة لذلك، والتي تقبل كل من يثبت الرغبة والقدرة على مواصلة السير في الدراسة دون تقيد بالسن أو الوجود في مكان الدراسة، وتمنحه كل الدرجات الجامعية التي يمكن أن يتقدم لها).

وليست الجامعة المفتوحة إلا صورة عصرية لحلقات العلم التي كانت تعقد في المساجد منذ بعثة المصطفى ﷺ (في المسجد النبوي منذ السنة الأولى من الهجرة، وبالحرم المكي منذ عام الفتح في سنة 8 هـ، وبمسجدي الكوفة والبصرة منذ سنة 14 هـ، وبالمسجد الأموي بدمشق منذ سنة 41 هـ، وبجامعة الزيتونة في تونس منذ سنة 79 هـ، وبجامع المنصور في بغداد منذ سنة 157 هـ، وبجامع القرويين في المغرب منذ سنة 245 هـ، وبالجامع الأزهر بالقاهرة منذ سنة 361 هـ) وكان يجلس إلى مجالس العلم تلك من يشاء من الناس دون أية شروط مسبقة إلا الالتزام بآداب الحلقة وإذن أستاذها وشيخها. وما أشبه الجلسة أمام التلفاز أو شاشة الحاسوب اليوم لتلقي العلم بالجلسة أمام الشيخ للتلقي عنه، مع فارق الوجود الفعلي للمربي، وتأثيره النفسي على طلابه ومريديه، وما أكبره من فارق!!

وانطلاقًا من ذلك كله فقد قمت في ندوة عقدت بجامعة الكويت لتطوير تدريس العلوم بالمرحلة الجامعية الأولى بتاريخ 1975/5/3 م **بالتحذير من خطر المناهج المحددة المبنية على العديد من المقررات المتنوعة المسترجعة، وغير المنسجمة، التي يقوم الطالب بحفظها من أجل الاختبار فقط،** وقد أصبح الاختبار بالنسبة لطلاب اليوم شيئًا يأتي في المقام الأول قبل التعلم، مما جعل دور التعليم الجامعي يتحول من التربية الحقيقية والتكوين العقلي للطلاب وتدريبهم على التفكير المنهجي السليم، إلى مجرد ملء ذاكرتهم بأكداس من المعلومات التي قد لا يفهمونها، بل يستظهرونها دون استيعاب حقيقي من أجل مجرد الاختبار فيها، وقد أصبح ذلك الاختبار هو الوسيلة الرئيسية لتقويمهم، وبذلك انحطت عملية التقويم ذاتها إلى مجرد قياس قدرة الطلاب على أداء الاختبار، وقدرة ذاكرتهم على الحفظ.



وللتغلب على ذلك قمت بتقديم اقتراح بالعودة بالعملية التربوية إلى أساسها الإسلامي الإنساني البسيط؛ وذلك بتقسيم الطلاب المتقدمين لأي قسم علمي - مثل قسم علوم الأرض على سبيل المثال - إلى مجموعات صغيرة بعدد أعضاء هيئة التدريس الموجودين بالقسم، وحسب اختيار كل طالب ورغبته، وفي كل من هذه المجموعات يعمل الطالب من أربعة إلى سبعة أسابيع على الأقل تحت إشراف الأستاذ الذي اختاره، وبالطريقة التي يراها الأستاذ مناسبة له، مستخدمًا في ذلك كل البدائل المتاحة من المحاضرات، إلى عقد الندوات، إلى القراءات الموجهة والدراسات المختارة إلى العمل في المختبرات، أو في الحقل، أو في الصناعة. وفي خلال ذلك تتم عملية تقويم الطالب بصورة مستمرة كجزء من العملية التربوية ذاتها، وعلى أساس من ذلك التقويم المستمر قد يسمح للطالب في الاستمرار مع نفس الأستاذ إلى دورة أو دورات أخرى، أو التحول إلى أستاذ آخر حسب رغبته وتجربته السابقة.

وبهذه الطريقة يعمل الطالب لمدة تتراوح بين التسعين والمائة والعشرين أسبوعًا في المتوسط تحت إشراف أستاذ واحد أو عدد من الأساتذة، وفي تخصص واحد أو أكثر من تخصص حسب اختياره، علمًا بأن شرط المدة هذا غير جازم، ومتروك كلية لتقدير الأستاذ، وعلى الطالب بعد ذلك تقديم رسالة مطبوعة في أحد مجالات التخصص الذي اختاره، وأن يجلس لاختبار شفهي شامل قبل منحه الدرجة الجامعية.

هذا النظام يتيح للطالب التخصص العميق إذا أراده، والدراسة العامة على تباين درجات اتساعها حسب ميوله، كما يمكنه من اكتشاف مواهبه ومهاراته، ويعينه على تنميتها وتطويرها، وعلى توجيهها إلى تقنية معينة بذاتها، أو إلى إتقان منهجية خاصة، وهذا في حقيقته هو الهدف الرئيسي من التربية الجامعية.

والنظام المقترح يعطي الحرية لكل من الأستاذ والطالب، ويعين على تقدير الفروق الفردية بين الطلاب وأخذها في الحسبان، وعلى التعمق في الدراسة أو تعميمها حسب استعداد كل فرد وميوله وقدراته، كما يشجع على المبادرة، والإبداع، ويساعد على اكتشاف المواهب الدفينة، ويغني عن نظام الاختبار بصورته الراهنة المضيعة للوقت والجهد والمحطمة للأعصاب، وغير المنصفة في كثير من

الأحيان. وهذا النظام المقترح يشجع على تقدم البحث العلمي، ويصون الأخلاقيات الأساسية للتربية، ويحافظ على طبيعتها الإنسانية النبيلة، ويعمل على تحقيق رسالتها السامية، ويعيد إلى الذهن صورة التقاليد الإسلامية الجميلة التي قامت منذ أمد بعيد، وأثبتت فاعليتها على مدى من الزمن طويل، ثم أقصيت عن معاهدنا رغمًا عنا تحت توجيهات المستعمرين وأذنابهم، وضحينا بها في محاولات لاهثة لتبني نظم مستوردة غريبة عنا ثبت فشلها بتخلفنا الحالي في كل منحى من مناحي الحياة.

وهذا النظام المقترح ليس بدعة مستحدثة، إنما هو مستقى من أصول نظام التعليم في الأزهر الشريف، والذي كان إلى عهد قريب يتبع نظمًا إسلامية كاملة، فلقد كان الطالب فيه هو الذي يختار بنفسه الأستاذ الذي يتلقى العلم على يديه، وكان له أن ينتقل من أستاذ إلى آخر حسب رغبته، وأن يتقدم للاختبار بمحض اختياره وإرادته متى رأى نفسه مؤهلًا لذلك، ولم يكن الاختبار هو الوسيلة الوحيدة لتقييم الطالب، بل كان رأي أستاذه – الناتج عن معرفة حقة به، واحتكاك وثيق معه – هو الفيصل في ذلك. وكانت الإجازة التي يمنحها الطالب تحمل اسم الأستاذ أو الأساتذة الذين تلقى عليهم العلم، كما تحمل تقويم كل منهم له بدقة وأمانة بالغتين.

ومما لا شك فيه أن نظامًا هذا شأنه هو من أمثل النظم التربوية وأكثرها إنسانية، بدليل أن تجارب العالم التربوية قد وصلت بعد بحوث عديدة طويلة إلى التوصية به والعودة إليه، وإن لم يسموه بتسميته الحقيقية، ولم يصفوه بأنه النظام الإسلامي في التربية (انظر إدجار فور ومن معه، 1974 ص 305 – ص 306).

أضف إلى ذلك أن طالب العلم آنذاك كان يطلبه حثيثًا لذاته، ويقطع المسافات الشاسعة من أجله، ولا يبالي بالاغتراب والحرمان من متع الحياة في سبيله، ولم يكن يلهيه عنه أي شاغل من شواغل الدنيا، وكان يعتبره ضربًا من عبادة الله والجهاد في سبيله، وهذا لا يمكن أن يكون في غير الإطار الإسلامي.

وليس معنى ذلك أننا نريد العودة بالعملية التربوية إلى ما كانت عليه في الماضي تمامًا، فذلك مخالف لطبيعة العصر، وسنن الأيام، **ولكننا نريد التأكيد على عدد من المعاني والقيم التي لازمت العملية التربوية الإسلامية في ماضينا المجيد، وأثبتت نجاحها وتفوقها**، ونحن في دعوتنا هذه لا يفوتنا التأكيد على ضرورة الاستفادة بالتجارب الإنسانية في ميدان التربية خلال القرن الماضي بصفة خاصة، لأن «**الكلمة الحكمة**

ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[1]، كما علمنا رسولنا ﷺ. والمعرفة تراث البشرية كلها، ساهمت كل الأمم والشعوب في جمعها وتنميتها على مدار السنين، وتتابع الحضارات. ونحن نعلم أن العملية التربوية أصبحت خاضعة في كثير من جوانبها للمنهج التجريبي، ولا نجد سببًا واحدًا يمكن أن يحول دون الاستفادة بكل ما تجمع لدى الإنسان من نتائج في هذا المجال، ما دام لا يتعارض مع الإسلام ونصوصه، ولا يختلف مع فلسفة التربية الإسلامية وأهدافها، فسواء اشترط في معلم المرحلة الابتدائية أن يكون مدرس فصل أو مدرس مادة (بمعنى أن يعد المعلم إعدادًا عامًّا يجعله قادرًا على تدريس كل المواد المناسبة لمرحلة الطفولة المبكرة، بحيث يختص كل فصل بمدرس واحد يقوم بتدريس جميع المواد، أم يعد المعلم إعدادًا متخصصًا في مادة أساسية أو في مجموعة من المواد المتجانسة التي يقوم بتدريسها لعدد من الفصول؛ وسواء نظم التدريس في تلك المرحلة بمزج هذين الاتجاهين، حيث يعد المعلم للصفوف الأولى إعدادًا عامًّا، وللصفوف المتأخرة إعدادًا متخصصًا) أو بتجميع المدرسين في فرق متعاونة تعمل على التخطيط للعملية التربوية وتنفيذها سواء كانوا متساوين في المسئوليات، أو متدرجين فيها، أو متناوبين عليها. كل هذه تفاصيل مرهونة بنتائج تجريبها، فإذا ثبت نجاحها كنا – نحن المسلمين – أولى الناس بها. ولكننا نحذر من خطورة تعريض الصغار للعديد من التجارب التربوية غير المدروسة بعناية كافية.

15 - **العمل على الفصل بين الجنسين في مراحل التربية المختلفة**، وذلك لأن الإسلام العظيم، انطلاقًا من احترامه لخصوصية الإناث، أمرهن بالحجاب؛ كما حال بينهن وبين الاختلاط بالأجانب صونًا لطبيعتهن الأنثوية الرقيقة، ولتكوينهن العاطفي بالفطرة. وعلى ذلك فإن حضارة الإسلام – في إنسانيتها ونبلها وسموها – قامت على الفصل بين الجنسين إكرامًا للأنثى وصونًا لها، واعترافًا بحقوقها التي تقتضيها طبيعتها. ولكن الاختلاط فرض علينا – نحن معشر المسلمين – وعلى نظمنا التربوية المعاصرة بواسطة الاستعمار وأعوانه من أبناء أمتنا الدائرين في فلكه، المفتونين بحضارته، ومن واجب التربية الإسلامية التنبه إلى خطر ذلك والعمل على درئه وذلك بإقامة مؤسسات تربوية

---

(1) سنن الترمذي – كتاب العلم – باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة.

لكلٍ من الجنسين منفصلة تمام الانفصال، والدعوة إلى ذلك ما استطاعت إليه سبيلًا. وفي ذلك كتب **الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين (1967) في كتابه «حصوننا مهددة من داخلها في أوكار الهدامين، ص 258»** ما نصه: «.... فإذا هذا الاختلاط يصبح حقيقة واقعة بطريق ملتو خفي لم يكد يتنبه إليه أحد، وبعد أن طالت المدرسة الابتدائية إلى ست سنوات يتجاور فيها الذكور والإناث. ومن المعروف أن الإناث في بلدنا يدخلن سن المراهقة في وقت مبكر لا يتجاوز السنة الحادية عشرة في كثير من الأحيان، بل لقد أصبحنا أمام بعض المدارس المختلطة في مرحلة التعليم الإعدادي، بعد أن تكشفت تجربة الاختلاط في جامعاتنا عن مآسٍ لا يستطيع تجاهلها إلا مكابر أو مدلس، وأصبح هذا النظام ضربًا من ضروب الإلزام لا يستطيع والد أن يفر منه أو يتفاداه؛ لأن عليه أن يختار بين أن يبعث بابنه وبابنته إلى هذا الوسط وبين أن يحرمهم من التعليم ويحجبهم في ظلمات الجهل، بل إنه لا يستطيع اختيار الطريق الثاني على ظلمه وظلامه؛ لأن قوانين الدولة تجبره على أن يعلم أولاده حتى نهاية هذه المرحلة الأولى على الأقل».

ومع الاختلاط في الجامعات المصرية انتشرت بدعة كل من الزواج العرفي، وزواج المتعة وما يصاحب ذلك من مآسٍ إنسانية تدمى لها القلوب، وانتشرت بدع المصاحبة والمخادنة **والزنى المستتر والمعلن، وغير ذلك من المفاسد** السلوكية **والأخلاقية المنافية لأصول الإسلام العظيم، بل انتشرت** عمليات **التنصير بين الشبان والشابات المسلمين والمسلمات** بدعوى العشق **والغرام المخطط له من قِبل شياطين** كل من الإنس والجن، والذي ينتهي عادة بمآسٍ يندى لها الجبين وتتمزق القلوب والأكباد ولكن بعد فوات الأوان.

16 - **العمل على إقامة مؤسسات تربوية إسلامية شاملة:** من المراحل الابتدائية حتى الجامعة بجهود شعبية، حيث إن الأمل في استجابة الحكومات الراهنة لذلك النداء الخيِّر ضعيف جدًّا؛ تحت وطأة الضغوط الأمريكية والأوروبية، خاصة وأن التعقيدات المحيطة بحكوماتنا الحالية قد لا يمكنها من الخروج مما تورطت فيه من اتفاقات.

وأول ما يجب الاهتمام به من بين تلك المؤسسات التربوية الخاصة هو معاهد المعلمين والمعلمات، فهذه إذا ما أقيمت على أسس إسلامية صحيحة خرَّجت

المعلم المسلم والمعلمة المسلمة، وبهما يمكن إحداث الكثير من التغيير، وإحياء موات هذه الأمة التي أريد لها أن تقبر وهي حية بأيدي أعدائها وأيدي نفر من أبنائها الذين جهلوا دينها وتراثها بما فيه من عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات، فضلوا طريقهم في تلك الحياة ووقفوا من دينهم موقف العداء والمحاربة بدعوى التحديث والمعاصرة، وأعانوا الأعداء في حربهم على الإسلام العظيم.

17 - **العمل على وقف جميع أنشطة المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية والهيئات التنصيرية في العالم الإسلامي؛** وذلك لأن كثيرًا من المصائب التي جرت في العالم الإسلامي سببها المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية، فبينما أتباع محمد ﷺ يؤمنون ببعثة السيد المسيح عليه السلام، وبما أنزل إليه من وحي كما يؤمنون بجميع أنبياء الله وملائكته وكتبه ورسله، فإن ما يسمون أنفسهم بالمسيحيين لا يعترفون ببعثة سيدنا محمد ﷺ، بل قد انحرفوا عن تعاليم السيد المسيح نفسه، وبينما المسلمون يدعون الناس كلهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده، فإن مهمة المسيحيين في العالم الإسلامي هي صرف الناس عن طريق الله، ودفعهم إلى الشرك بهذا الخالق العظيم لأنهم يطمعون في كسبهم إلى داخل أديرتهم وكنائسهم عدوًا بغير علم، وطمعًا في بعض الأمور الدنيوية الزائلة. وتكفي في ذلك الإشارة إلى ما حدث ولا يزال يحدث في كل من إندونيسيا، والفلبين، والباكستان، وأفغانستان، وإيران، والعراق، وسوريا، والأردن، ولبنان، ودول الخليج، وفي اليمن، ومصر، وباقي دول شمال إفريقيا، وفي كل من السودان، والصومال والحبشة من هجمة تنصيرية شرسة يدعمها الغرب بالمال والتأييد السياسي تحت دعوى حرية الاعتقاد التي يريدونها لهم وحدهم ويحرمون غيرهم منها.

وتكفي أيضًا الإشارة إلى أن بالأردن أكثر من مائة وأربعين مدرسة تنصيرية؛ الغالبية العظمى من طلابها (أكثر من 85%) من أبناء المسلمين، ويتكرر ذلك في غالبية ديار المسلمين.

وواجب المسلمين الغيورين على دينهم، والحريصين على تنشئة أبنائهم على أسس من الإسلام العظيم وفي هداه ألا يكتفوا فقط بإقامة البديل - وهو نظام تربوي إسلامي شامل - بل لا بد من وقف جميع المدارس والمعاهد والكليات والجامعات

الأجنبية والتصدي لكل صور النشاط التنصيري في العالم الإسلامي. خاصة أن عمية التنصير بدأت اليوم تأخذ أبعادًا خطيرة يفترس فيها المنصِّرون صغار الشبان والشابات من أبناء وبنات المسلمين بما تفيض عليهم به الكنائس والحكومات الغربية من أموال ودعم مادي ومعنوي وتسهيلات خيالية للتعليم في الخارج والهجرة إليه، تحت مظلة حماية الأقليات.

وفي ظل ضغوط دولية عديدة لإخلاء كل من مراحل التعليم ووسائل الإعلام من أية توعية أو تربية إسلامية حقيقية، مع انبطاح غالبية الحكام أمام هذه الضغوط وتسابقهم على إرضاء السادة من حكام الغرب والشرق، وذلك بمغالاتهم في محاربة حملة لواء الدعوة الإسلامية، وملء السجون والمعتقلات بقياداتهم وأتباعهم ظلمًا وعدوانًا، وبغير مبرر منطقي مقبول. ويتم ذلك في الوقت الذي تعترف فيه كل أجهزة الاستخبارات الدولية بأن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا في عالم اليوم، وأن الذين يقبلون على اعتناقه طواعية واختيارًا هم من كبار أصحاب الفكر والرأي عندهم، من الرجال والنساء. وشتان بين عقيدة يُشْتَرَى لها أتباعٌ من صغار السن وقليلي التجربة بإغراء الأموال والمراكز والشهوات، وباستغلال احتياجات الناس ومساومتهم على دينهم بلقمة الطعام أو قطرة الدواء أو خيمة الإيواء، أو باستغلال الأزمات النفسية التي يمر بها بعض الشبان والشابات، أو باستخدام السحر الأسود والشعوذة والادعاء بمعالجة حالات مرافقة الجن أو الصرع أو الإصابة ببعض الأمراض المستعصية، شتان بين مثل هذه المعتقدات الفاسدة وبين دين يقبل عليه كبار رجال ونساء العلم والفكر والرأي طواعية واختيارًا بمجرد اطلاعهم على شيء من أصوله.

وأصل من أصول الإسلام العظيم قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ** ﴾ (البقرة: 256). وأصل من أصول الإسلام العظيم يسجله القرآن الكريم على لسان خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بقوله للكافرين: ﴿ **لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ** ﴾ (الكافرون: 6).

ولولا هذه السماحة في الإسلام العظيم ما بقي بين ظهراني المسلمين نصراني ولا يهودي واحد. ولكن المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - يوصينا بأهل الكتاب خيرًا فيقول: «**من آذى ذِمِّيًّا فأنا خصمه**»[1].

---

(1) كشف الخفا - حديث رقم 2341.

وفي مقابل هذه السماحة تطاول اليهود والنصارى على الإسلام العظيم وعلى القرآن الكريم تطاولًا غير مسبوق، فاليهود احتلوا أرض فلسطين بمؤامرة دولية حقيرة قادتها الدول الصليبية، وفي مقدمتها كل من بريطانيا، وفرنسا، ثم تبنتها الولايات المتحدة الأمريكية. وبعد عشرات الحروب التي دمرت المنطقة وقتلت الآلاف من أبنائها، ودمرت العديد من منشآتها واستهلكت المليارات من أموالها يقف شيطان حقير على إحدى فضائيات الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين يتطاول على كل من نبي الله عيسى ابن مريم وأمه بإسفاف لا يليق، ثم يتبع ذلك بتطاول أكثر إسفافًا وحقارة وبذاءة في حق أشرف الخلق أجمعين. وعلى الرغم من ذلك تظل بعض الدول العربية والمسلمة تتبادل مع هذا الكيان السرطاني المعتدي الغريب كل صور العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والسياحية!!

والنصارى من جانبهم أشعلوها حربًا على الإسلام والمسلمين في جميع وسائل الإعلام، ويأتي شيطان من شياطين الإنس اسمه «زكريا بطرس» باع نفسه ودينه وعرضه لشياطين الجن والإنس وأنشأ قناة فضائية للموت، وسماها – خطأ – باسم «الحياة» يتطاول فيها على القرآن الكريم – وهو لا يؤمن به – ويتطاول كذلك على خاتم الأنبياء والمرسلين وأشرف الخلق أجمعين – وهو لا يؤمن ببعثته – وأعجب من تعرض هذا الشيطان وتعرض العديد من صبيانه للإسلام بسوء كبير وهم لا يؤمنون به. بينما نحن معشر المسلمين نؤمن بجميع أنبياء الله ورسله وكتبه، ولا نتعرض بسوء لديانة من تلك الديانات على الرغم من يقيننا بأن أتباعها قد انحرفوا بها عن جادة الطريق، وقد حرفوا كلام الله وبدلوه وغيروه آلاف المرات ولا يزالون حتى أصبحوا أهل شرك واضح وضلال بيِّن.

من هنا كان لا يمكن أن يؤتمن على تربية أبناء المسلمين غير أساتذة وإداريين مؤمنين بالله ربًا واحدًا أحدًا، فردًا صمدًا (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد) وينزهونه – تعالى – عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله، ويؤمنون بملائكة الله وكتبه ورسله دون أدنى تفريق، كما يؤمنون بالآخرة وبما فيها من بعث وحشر وحساب وجزاء وجنة ونار وبأنها إما جنة أبدًا أو نار أبدًا.

18 - العمل على أن يكون التعليم بمختلف مراحله بلغة القرآن الكريم، على أن يُسْبَق ذلك بحركة ترجمة واسعة لأمهات الكتب في مختلف مجالات

المعرفة، وأن يصاحب الترجمة تعليق هامشي مبسط من المترجم على كل فكر يرى فيه انحرافًا عن النهج الإسلامي الصحيح في الاعتقاد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات. أما في الدول الإسلامية غير العربية فلا بأس من أن تكون الدراسة باللغة الأم، لأن الدارس لا يمكن له أن يبدع بغير لغته الأم، على أن يبقى الاهتمام بدراسة اللغة العربية في مختلف مراحل التربية أمرًا واجبًا. ولنا في هذا الأمر سبق محمود، ففي عصر النهضة الإسلامية انفتحت الأمة على جميع الثقافات الأخرى دون أن تفقد شخصيتها الأصيلة، كما اهتم العرب بتعلم اللغات الأجنبية، ولكنهم أصروا على أن يكون التعليم والبحث والكتابة بلغة القرآن الكريم، اعتزازًا بإسلامهم وحرصًا على أن تكون المعرفة ملكًا لكل فرد من أفراد الأمة، لا وقفًا على حفنة ممن يعرفون اللغات الأجنبية. كذلك حرص العلماء المسلمون من غير العرب على الكتابة بالعربية، فهذا هو البيروني العالم المسلم الذي تتنافس عشرات من دول العالم على نسبته عرقيًا إلى كل منها، والذي يجمع علماء عصرنا على أنه كان أبرز عقلية علمية في زمانه، وقد كان يجيد أكثر من لغة غير اللغة العربية، ولكنه أصر ألا يكتب بغيرها، وحينما سئل عن ذلك أجاب بأنه أحلى على سمعه أن يسب باللغة العربية من أن يُطْرى بغيرها من اللغات.!! وبالفعل كانت اللغة العربية أوثق رباط بين المسلمين من الأعراق المختلفة، ويوم أن ضيعناها ضاع هذا الرباط، وضاع منا كل شيء.

19 - **الاستفادة من مختلف التجارب البشرية في مجال التربية، ومن أحدث وسائل التقنية** وذلك من مثل الحرص على استخدام أحدث الحاسبات الإلكترونية (الحواسيب)، والعمل على تطوير كل من مراكز المعلومات، والتصوير، والتسجيل الإذاعي والتلفازي والسينمائي، والحرص على توفير كل من شبكات المعلومات المحلية والدولية وأجهزة الاستنساخ، وأنسب وسائل الإيضاح، مع القيام بجميع الدراسات الميدانية والحقلية المختلفة، دون مبالغة أو إسراف.

20 - **العمل على الاهتمام بالتدريب العسكري في تربية الذكور**، وبالتمريض والتدبير المنزلي والعمارة الداخلية والدراسات النفسية والفنية في تربية الإناث من بداية تمكنهن من ذلك.



21 - **العمل على تغيير أسماء الشهادات في العالم الإسلامي إلى أسماء إسلامية** - فكل أسماء الشهادات المستخدمة في الدول المسلمة اليوم هي أسماء أجنبية فقدت حقيقة دلالاتها مع الزمن. فما هي الدلالة الحقيقية لشهادات مثل «بكالوريوس» (وهو في الأصل لقب للأعزب)، أو الليسانس (الرخصة)، أو الماجستير (وهي في الأصل لقب للسيد)، أو الدكتوراه (وهي في الأصل لقب كنسي)؟

أليست **«الإجازة العامة»**، و**«إجازة التخصص» (إجازة الفقيه)**، و**«إجازة التدريس»** - وهي مراتب استخدمت من قبل في المعاهد الإسلامية واستمر استخدامها إلى عهد قريب - بأدق دلالة وأجمل معنى؟ وإن كانت قد أهدرت قيمتها في الأزمنة الأخيرة واستخدمت في غير دلالاتها الحقيقية!!! علمًا بأن كلمة (بكالوريوس) ثبت بالدراسة أنها تحريف للتعبير الذي كان يكتب على الشهادات الإسلامية بالنص التالي: «منحت هذه الشهادة بحق الرواية» وحرف تعبير (بحق الرواية) حتى أصبح بعد مراحل من التحريف لفظة «بكالوريوس».

22 - **التربية على أساس من الإيمان بأن الوقت هو الحياة**، وبالتالي الإحساس العميق بقيمة الوقت الذي لا يجوز أن يهدر أبدًا، فتجب الاستفادة به في عبادة الله، وفي كسب المعارف والمهارات، وفي الرياضات البدنية، وفي السعي من أجل الكسب الحلال والتنمية الذاتية والاجتماعية والإنسانية بكل أبعادها المادية والمعنوية. والتربية في الإسلام تهدف إلى المحافظة على البيئة بأبعادها المادية والمعنوية، فيسعى المسلم للمحافظة على البيئة من الملوثات المادية كما يحفظها من الملوثات السلوكية والعقدية.

23 - **العمل على التأصيل الإسلامي لمختلف المعارف المكتسبة**، لأنه في ظل الحضارة المادية المعاصرة أصبحت هذه المعارف تكتب في غالبيتها من منطلق مادي بحت، منكر للدين ومعاد لقضية الإيمان برب العالمين، تقليدًا لما يكتب في الغرب الملحد وذلك بسبب تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الإنسانية بعد أن حملوا لواءها لقرون عديدة، وانتقال ذلك اللواء إلى أمم ذات مذاهب دهرية مختلفة تمتد من الرأسمالية إلى الاشتراكية تركت آثارها على المعارف الإنسانية بصفة عامة وفي كتابات العلوم الكونية - البحتة منها والتطبيقية - بصفة خاصة، في عصر تميز بأنه عصر العلوم والتقنية. وقد زاد الأمر تعقيدًا أنه في

غمرة المحاولات للحاق بالركب تم لأبناء المسلمين نقل هذه الكتابات بخيرها وشرها، وبما تحمله في طياتها من خلفية إلحادية منكرة لا تؤمن بغير المادة – مما أدى إلى إثارة الكثير من البلبلات الفكرية في العالم الإسلامي في وقت فتن الناس فيه بمنجزات العلوم والتقنية فتنة كبيرة، وحوصرت معاهد التربية الإسلامية حتى تم خنقها، أو كادت أن تكون قد خنقت، وفرضت على الأمة الإسلامية نظم تعليمية مادية في جوهرها وفلسفتها ومحتواها ومناهجها.. وإن نطقت الأمة بالشهادتين وأدت من العبادات ما استطاعت أن تؤديه، وهذا التناقض أدى إلى شيء من التمزق الفكري والنفسي بين الشباب إلا من رحم ربي.

وبقيت المعارف – في غالبيتها – تكتب وتدرس عندنا من نفس المنطلق، وفي كثير من الأحيان بنفس اللغات الأجنبية، وحتى ما ينشر منها باللغة العربية أو باللغات المحلية في بقية الدول الإسلامية **لا يكاد يخرج في معظمه عن كونه ترجمة مباشرة للأفكار الوافدة بما فيها من تعارض واضح أحيانًا مع نصوص الدين، مما يمثل أحد الأسباب الرئيسية لأزمة التعليم في العالم الإسلامي المعاصر**، ويشكل واجهة من واجهات التحدي الحضاري أمام المسلمين. وهذا يستلزم إعادة كتابة المعارف الإنسانية، كتابة تضعها في إطارها الصحيح على أنها محاولات بشرية محدودة بحدود قدرات الإنسان العقلية والحسية، وحدود مكانه من الكون وزمانه (أي عمره). كما يستلزم ذلك **إعادة كتابة جميع المعارف المكتسبة على ضوء من وحي السماء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، في غير تكلف أو تعسف أو افتعال**.. فالإنسان محتاج إلى المعارف المكتسبة حاجته إلى وحي السماء فكلها من مصادر المعرفة التي على الإنسان أن ينهل منها ويستوضح طريقه على هديها.

ويمكن أن يتم ذلك بتطهير الكتابات في العلوم المكتسبة جميعها مما خالطها من التعبيرات الخاطئة، والاستنتاجات المغلوطة، إحقاقًا للحق، وانتصارًا للعلم والإيمان معًا، ودفعًا للخلط بين المعارف المكتسبة بالقدرات البشرية المحدودة من جهة وبين علم الله المحيط وقدرته التي لا حدود لها من جهة أخرى، دون أدنى مساس بالمنهج العلمي أو حجر على العقل البشري. وإذا استطاع المسلمون أن يقوموا بهذه المهمة التي أسميها باسم «**التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة**» فإن بإمكانهم أن يقدموا للإنسانية الحائرة اليوم هدايتها الحقة، ولنظم التعليم المريضة علاجها الناجع.



فالحرص على استخلاص العبرة من كل حقيقة علمية ودلالاتها على وجود الخالق – سبحانه وتعالى – وعلى حقيقة الخلق، وعلى شيء من صفات طلاقة القدرة لهذا الخالق الحكيم العليم، والاستدلال من ذلك على حتمية الآخرة ووجوبها، وعلى إمكانية البعث وضرورة تحققه حتى لا ندور بالمعارف المكتسبة في أطرها المادية وحدها، وبذلك يتم التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة، وهو من المطالب الملحة لإصلاح التعليم، خاصة في زمن الفتن الذي يعيشه إنسان العصر الحاضر.

24 - **الحرص على إبراز دور العلماء المسلمين** من القدامى والمعاصرين في تقدم عجلة المعرفة الإنسانية، وعلى إبراز قضية الإعجاز في كل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ بأبعادها المتعددة وذلك في كل تخصص من التخصصات دون أدنى تكلف أو افتعال.

ثانيًا: في نطاق المجتمع:

لم تكن التربية الإسلامية في يوم من الأيام وقفًا على النخبة المتميزة بالجاه والسلطان والمال في أي مجتمع من المجتمعات المسلمة، ولم تكن جماعية قسرية، تلغي الوجود الفردي أو تهمله، كما لم تكن فردية تلغي وجود المجتمع وحقه على كل فرد فيه. وذلك لأن الإسلام دين اجتماعي، نزل للناس كافة، وطالب الجميع بالإيمان الصادق المبني على العلم النافع والالتزام المبرهن عليه بالعمل الصالح، وهذا لا يمكن أن يتأتى بدون تربية اجتماعية إسلامية صحيحة. ومن هنا كانت التربية الإسلامية حقًّا مشروعًا لكل مولود، وفريضة على كل مسلم ومسلمة، ومسئولية في عنق كل صاحب علم أن يعمل بما علم، وأن يؤدي زكاة علمه لكل محتاج إليه، حتى تصبح العملية التربوية مسئولية الأمة بأكملها، لا مسئولية وزارة بعينها، ولا أفراد بذواتهم، إنما هي مسئولية كل فرد بالغ عاقل متعلم في الأمة، وكل جماعة وكل مؤسسة يتحقق لها ذلك. **ومفهوم الأمة في الإسلام هو أقوى مفهوم عرفته البشرية من حيث قوة الترابط والشعور بالمسئولية**، وانطلاقًا من ذلك يصبح القضاء على الأمية في المجتمع الإسلامي – بل في المجتمع الإنساني الكبير – أمرًا واجبًا في الشريعة الإسلامية. **والأمية صنفان: أولهما جهل بالقراءة والكتابة**، وهذه تبلغ نسبتها بين البالغين (أكثر من 15 سنة) في دول العالم الإسلامي اليوم حوالي 58% في المتوسط. **وثانيهما جهل برسالة الإنسان في هذه الحياة**، وبمصيره من بعدها، وهذه

أخطر من أمية القراءة والكتابة. أخطر قدرًا لأن الذي يقع فيها يفقد الجزء الأعظم من إنسانيته، وأخطر نسبة لأن الغالبية العظمى من الناس اليوم واقعون في براثنها، ومن واجب التربية الإسلامية محاربة الأميتين معًا بأسلوب علمي منهجي صحيح. تتضافر جهود المسلمين في التخطيط له وفي تنفيذه على المستويين الرسمي والشعبي، الجماعي والفردي، وباستراتيجية مبدئية مقترحة على النحو التالي:

1 - **تكوين هيئات متخصصة لمكافحة الأمية بنوعيها:** (**أمية القراءة والكتابة، وأمية العقيدة**): وذلك بأسلوب عصري منهجي سليم، ودعم تلك الهيئات بالقوى البشرية اللازمة، وبكل احتياجاتها المادية والمعنوية، وبالوسائل التي تمكنها من تحقيق غاياتها، ودعوة القادرين من أبناء المسلمين على التطوع لذلك، وإفهامهم أنه واجب إسلامي عليهم، فمما يروى عن رسول الله ﷺ أنه خطب ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم ولا ينهونهم.!! وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون، ولا يتعظون.!!!، والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم، وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، أو لأعاجلنهم العقوبة.**»، ثم نزل فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قالوا: الأشعريين، هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب؛ فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: «يا رسول الله ذكرت قومًا بخير وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال: «**ليعلمن قوم جيرانهم، وليفقّهنّهم وليفطننهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتعظون، ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا**» فقالوا: «يا رسول الله أنفطن غيرنا؟» فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: «أنفطن غيرنا؟» فقال ذلك أيضًا ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية الكريمة: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ (المائدة: 78 – 79). فقال القوم لرسول الله ﷺ أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة يفقهونهم، ويفطنونهم[1].

(1) رواه ابن الهيثمي في مجمع الزوائد – كتاب العلم – باب في تعليم من لا يعلم.

ومن هذا الحديث الشريف يتضح أن رسول الله ﷺ استنكر بقاء الجهلة على جهلهم، وامتناع المتعلمين عن تعليمهم، واعتبر ذلك عصيانًا لأوامر الله تعالى ولشريعته، ومنكرًا يوجب الحرب في الدنيا واللعنة والعذاب في الآخرة، وأنذر رسول الله ﷺ الفريقين: العالم والجاهل بالحرب حتى يبادروا بالتعليم والتعلم وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد، **وبذلك يكون رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - قد أسس حق الجاهل في التعلم، وواجب المتعلم تجاه الأميين وغير المتعلمين، ودور الحاكم في فرض ذلك، وهذا أول إعلان من نوعه لمحو الأمية بنوعيها، أطلقه رسول الله ﷺ قبل أن تعقله المدنية الحديثة بخمسة عشر قرنًا.**

وفي تقديري أنه لو كان المسلمون قد وعوا مضمون هذا الحديث حق الوعي لما بقي في العالم الإسلامي اليوم جاهل واحد.

ولو أن في كل حي من أحياء المدينة، وفي كل قرية من قرى الريف، وفي كل نجع من نجوعه مسلمًا متعلمًا واحدًا يعي مسئوليته التي لخصها رسول الله ﷺ حق الوعي لشمر عن ساعد الجد، وبدأ في محو أمية الناس من حوله، بدءًا بمن يليه. أهلًا، وإخوانًا وأبناءً ورفاقًا، ومأجورين، دون انتظار لدعم حكومي، أو قرار وزاري، أو مكافأة مادية، أو مبنى مخصص، فالمساجد مفتوحة، والزكاة مفروضة، وأبواب الصدقات متعددة، وأهل الخير لا ينقطعون. وأحاديث المصطفى ﷺ في ذلك أكثر من أن تحصى ومنها قوله ﷺ:

- **«علماء هذه الأمة رجلان: رجل آتاه الله علمًا فبذله للناس ولم يأخذ عليه طُعمًا، ولم يشتر به ثمنًا، فذلك تستغفر له حيتان البحر ودواب البر، والطيرُ في جو السماء، ويقدم على الله سيدًا شريفًا حتى يرافق المرسلين. ورجل آتاه الله علمًا فبخل به عن عباد الله وأخذ عليه طُعمًا، واشترى به ثمنًا، فذاك يُلجَم يوم القيامة بلجام من نار، وينادي منادٍ هذا الذي آتاه الله علمًا فبخل به عن عباد الله وأخذ عليه طعمًا واشترى به ثمنًا، وكذلك حتى يفرغ من الحساب»**[1].
- **«إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»**[2].

---

(1) رواه ابن الهيثمي في مجمع الزوائد - كتاب العلم - حديث رقم **511**.
(2) سنن الترمذي - كتاب العلم عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة.



- «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم»[1].
- «مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يُحَدِّث به، كمثل الذي يكنز الكنز فلا ينفق منه»[2].
- «أفضل الصدقة أن يتعلم المرءُ المسلمُ علمًا ثم يعلمه أخاه المسلم»[3].
- «... الله الأجود الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل علم علمًا فنشر علمه، يبعث يوم القيامة أمة واحدة، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله حتى يقتل»[4].
- «من علَّم علمًا فله أجر ذلك ما عمل به عامل لا ينقص من أجر العامل شيء»[5].

2- **دعوة الأميين للتعلم**، وإيجاد الحوافز الفردية والجماعية اللازمة لذلك، خاصة أن الأمية منافية للإسلام، ولكرامة الإنسان، فلا يجوز لمسلم أن يجهل أصول دينه، وإذا أراد تحقيق ذلك فلا يجوز له أن يبقى أميًا؛ لأن ذلك يحول بينه وبين نعم كثيرة أولها القدرة على تلاوة كتاب الله الكريم، وعلى قراءة سنة رسوله المطهرة، وليس آخرها الاطلاع على تراث الإنسانية الهائل في مختلف جوانب المعرفة مما يمكنه من القيام بدوره الحقيقي كمخلوق عاقل، مكرم، حر، ذي إرادة، مستخلف في الأرض، ومطالب بعبادة الله – تعالى – فيها بما أمر، وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها. ومن ذلك قيامه بمسئولياته تجاه كل من نفسه ومن يعول، وتجاه مجتمعه وأمته، بل وتجاه الإنسانية كلها. والإنسان لا يمكنه القيام بهذه الواجبات كلها دون علم.

كذلك من الواجب على المسلمين دعوة الناس جميعًا إلى الإسلام بوصفه آخر الرسالات السماوية وأكملها وأتمها، خاصة أن الناس اليوم على **اختلاف ألوانهم** يتطلعون إلى هذا النور الحق بعد أن تاهوا عنه بتحريف أسلافهم لأديانهم وعبثهم بها. والدعوة إلى الإسلام يجب أن تكون بأسلوب عصري سمح، وحجة منطقية

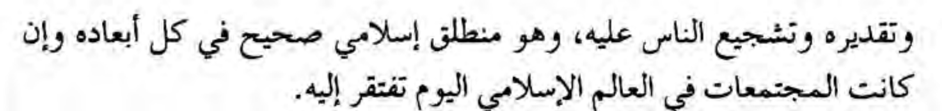
---

(1) صحيح البخاري – كتاب الجهاد والسير – فضل من أسلم على يديه رجل.
(2) المعجم الكبير للطبراني – حديث رقم 304.
(3) سنن ابن ماجه – باب ثواب معلم الناس الخير – حديث رقم 239.
(4) مسند أبي يعلى الموصلي – باب ألا أخبركم عن الأجود – حديث ر قم 2727.
(5) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» – باب جامع لنشر العلم.

واضحة لأن الغالبية العظمى من أهل الأرض اليوم لا تعرف شيئًا عن الإسلام، وربما لم تسمع به على الإطلاق أو سمعت عنه كلامًا محرفًا عبر مختلف وسائل الإعلام، ومن واجب المسلمين نقل صورة واضحة عن هذا الدين القيم إلى أهل الأرض جميعًا إعذارًا إلى الله، وتأكيدًا على معنى الأخوة الإنسانية، وأملًا في أن تتوقف تلك الحروب الظاهرة والمستترة، والتي تتبناها حكومات ومنظمات عديدة ضد دين الله (الإسلام) وهو الدين الوحيد الذي يرتضيه ربنا – تبارك وتعالى – من عباده، ولا يرتضي دينًا سواه.

3 - **دعوة المتعلمين على مختلف مستوياتهم إلى التطوع لمحو الأمية بنوعيها، (أمية العقيدة وأمية القراءة والكتابة)**: وليبدأ كل منهم بأقرب الناس إليه. أهلًا له، أو خدمًا في بيته، أو عمالًا يعملون تحت إشرافه. ويمكن الاستفادة في ذلك بأئمة المساجد ووعاظها، وبموظفي الدولة في أوقات فراغهم، وبالمحالين إلى التقاعد ممن تعينهم ظروفهم الصحية على ذلك، وبالطلاب خلال العطلات الفصلية والصيفية، وبوسائل الإعلام المتطورة من مثل التليفزيون والإذاعة والتسجيلات المختلفة. ويمكن الاستفادة في تحقيق ذلك أيضًا بمباني المدارس والمعاهد التعليمية المختلفة في غير أوقات الدراسة. ويجب التأكيد على أن هذه المهمة هي من أنبل المهمات التي يمكن أن يقوم بها المسلم ومن أجمل ما يمكن أن يتقرب به المرء إلى الله.

4 - **إعانة الراشدين الذين لم تتح لهم فرصة إتمام تعليمهم**، وذلك بتصميم برامج تدريب مختلفة لهم أثناء عملهم، أو بعد فراغهم من العمل، أو بمنحهم إجازات تفرغ دورية لمدد قصيرة أو طويلة. وهذا يمكن أن يفيد العملية التربوية ذاتها حيث إن كثيرًا من عناصرها قد يوجد خارج إطار المدرسة، في زحمة الجهاد من أجل اكتساب لقمة العيش. وكثيرًا ما يكسب المرء من تجربته الاجتماعية ما لا يمكن تحصيله داخل أسوار المعهد التعليمي، فإذا عاد للدراسة مرة أخرى كان له من النضج الاجتماعي والرؤية الكافية ما لا يمكن أن يتوافر للدارس الذي لم يخرج للحياة ولم تكن له تجربة فيها. وأمثال هؤلاء الذين يجمعون بين الرؤية النظرية والتطبيق العملي هم الذين أثروا التراث الإنساني وأضافوا إلى الفكر البشري، وساعدوا على تطور المجتمعات تطورًا ملحوظًا. وفي إطار ذلك يمكن التأكيد باستمرار على قيمة العمل اليدوي والفني واحترامه



وتقديره وتشجيع الناس عليه، وهو منطلق إسلامي صحيح في كل أبعاده وإن كانت المجتمعات في العالم الإسلامي اليوم تفتقر إليه.

5 - **العمل على إحياء رسالة المسجد من جديد:** ليعود كما كان على عهد رسول الله ﷺ وحتى الماضي القريب: مكانًا للعبادة، ومدرسة لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم كتاب الله، وجامعة شعبية مفتوحة تعقد فيها حلقات العلم التي يحضرها الناس بدون أية شروط، وتدار فيها المحاضرات والمناقشات العلمية على مختلف المستويات، ومجلسًا للشورى، ومنتدى إسلاميًّا، ودارًا للقضاء، وللإصلاح بين الناس، ومركزًا تنطلق منه قوافل الجهاد، ودارًا لضيافة الوفود ومقرًّا إعلاميًّا للإسلام، وملجأ لمن لا ملجأ له.

والمسجد بهذه الصورة يربط أفراد المجتمع الواحد برباط وثيق، ويؤكد على معنى الأخوة بين الناس، وعلى ضرورة التعاون والتكافل والتكامل بينهم. ولو أن كل مسجد في الأرض قام بمسئولياته تلك لانقشعت غيوم الأمية بشقيها (أمية العقيدة، وأمية القراءة والكتابة) عن العالم الإسلامي المعاصر في زمن قصير جدًّا.

وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى ضرورة إعادة النظر في تخطيط بناء مثل هذا المسجد الجامع تخطيطًا هندسيًّا بسيطًا في غير إسراف، ولكنه وافٍ يُمكّنه من القيام برسالته الشاملة، فيحوي قاعة للصلاة ومركزًا لتحفيظ القرآن الكريم، ومكتبة عامرة بأمهات الكتب الإسلامية، وقاعة للمحاضرات العلمية والفكرية وللاحتفالات الدينية والاجتماعية. كما يمكن أن يحتوي على مركز للإسعاف ومستوصف وصيدلية، وسكنًا لطلاب العلم، ودار ضيافة لعابري السبيل وكل ما يمكن أن يعين على تحقيق رسالة المسجد الكلية في صورة مبسطة ومتكاملة وجميلة، تأسيًا بسيدنا رسول الله ﷺ وما اتبعه في بناء مسجده من البساطة والبعد عن البذخ والترف والإسراف، وغير ذلك من الأمور التي تلاحظ في كثير من المساجد التي أنشئت ولا تزال تنشأ في العالم الإسلامي اليوم بكثير من المبالغات التي يرفضها الإسلام. فلو أن الملايين التي تنفق على زخرفة المساجد والمبالغة في فخامة مبانيها وجهت إلى استكمال رسالة المسجد على النحو الذي أسلفناه لكانت كافية لإنشاء عشرات من المساجد في مناطق تفتقر إلى مسجد واحد. ولو تم ذلك ما بقيت أمية في العالم الإسلامي، فنظام «الكتاتيب» الذي أدى دورًا رئيسيًّا في القضاء على الأمية ونشر العلم في مختلف ربوع العالم الإسلامي قد بدأ أساسًا من المسجد، ثم انتقل إلى غرفة مجاورة



له توقيرًا لمكان العبادة وحتى لا يكون في عملية التعليم والتعلم إزعاج للمصلين. ثم تطور الأمر بعد ذلك ليشمل بناء المسجد العديد من المنشآت في مراحل متتالية حتى إن **مسجد سليمان القانوني** في تركيا كان يضم إلى ساحته عشر مؤسسات منها كليات أربع، ومدارس، ومستشفى، ووحدات سكنية لطلاب العلم، وكان المسجد يتحول في فترات ما بين الصلاة إلى قاعة حقيقية للدرس والمحاضرات، وكذلك كان **مسجد محمد الفاتح** الذي ضم على جانبيه كليات للدراسات الإسلامية، وعددًا من المكتبات العامرة، ومضيفة، ومستشفى، ومركزًا لتوزيع الطعام. وبالمثل كانت ولا تزال **مدينة البعوث الإسلامية** إلى جانب الجامع الأزهر، ولو أنها حورت أخيرًا لتصبح مجرد سكن للطلاب المبتعثين للدراسة في الأزهر الشريف.

6- **الدعوة إلى تخصيص جزء من زكاة الأموال للإنفاق على مراكز التربية الإسلامية (من مدارس ومعاهد وجامعات)**: فهذا هو أحد فقهاء المسلمين المرموقين في زماننا (**القرضاوي** 1389 هـ/1969 م ص 668) يكتب في كتابه «**فقه الزكاة**» كلامًا رائعًا في تفصيل المصرف السادس من مصارف الزكاة، والمعبر عنه بالنص القرآني (**وفي سبيل الله**) ما يدعم ذلك ويؤيده ونقتطف من ذلك قوله: «... لهذا نرى أن توجيه هذا المصرف إلى الجهاد الثقافي والتربوي والإعلامي أولى في عصرنا بشرط أن يكون جهدًا إسلاميًّا خالصًا، وإسلاميًّا صحيحًا، فلا يكون مشوبًا بلوثات القومية والوطنية، ولا يكون إسلامًا مطعمًا بعناصر غربية أو شرقية يقصد بها خدمة مذهب أو نظام أو بلد أو طبقة أو شخص، فلا بد إذن أن يكون الإسلام هو الأساس والمصدر، وهو الغاية والوجهة، وهو القائد والموجه، حتى تستحق تلك المؤسسات شرف الانتساب إلى الله، ويعد العمل فيها ولها جهادًا في سبيل الله».

7- **العمل على إحياء سنة الوقف الإسلامي من جديد:** والوقف على التربية الإسلامية ومعاهدها بصفة خاصة، ومطالبة الحكومات التي حلت هذا النظام واستولت على أمواله بالتعويض عنها، ومطالبة كل قادر بدعمه، ثم التخطيط لحسن إدارة هذه الأموال، واستخدامها لتحقيق الأغراض التي وُقِفَتْ من أجلها. واعتبر الفقهاء عدم تنمية الوقف من تضييع المال الذي أمر الله – تعالى – بحفظه.

8- **العمل على إقامة المجتمع الإسلامي بكل سماته:** لأنه مجتمع بطبيعته يحارب الأمية بنوعيها، ويعمل على نشر العلم، وعلى الترقي بالإنسان في مدارج الكمال

البشري؛ فإن مجتمعًا يحكمه القرآن الكريم لا يمكن أن تبقى فيه أمية، فضلًا عن جهالة، فمن واجبات المسلم قراءة القرآن وتفهم آياته، والتعرف على أحكامه وتشريعاته، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بقدر من المعرفة يمكنه من ذلك، وعليه لم يكن مستغربًا – كما سبق أن أشرنا – أن ينتشر كل من مراكز التعليم الابتدائي (الكتاتيب) والمتوسط والعالي (المدارس والمعاهد والجامعات) في مختلف أرجاء العالم الإسلامي على هيئة نظام تعليمي حر يعتمد على تكافل أفراد المجتمع الواحد، وعلى كل من التطوع والأوقاف، وعلى الهبات و غير ذلك من صور العون المادي والمعنوي، ولم يكن من المستغرب أن يقوم العديد من ميسوري المسلمين باقتطاع أجزاء من ممتلكاتهم ووقفها على التعليم والتربية – بصفة خاصة – وعلى الدعوة الإسلامية – بصفة عامة – وفي إقامة المجتمع الإسلامي للنموذج الذي يحتاج الناس إلى رؤيته واقعًا حيًّا بينهم. يمكن أن يقتدوا به، ويقتفوا أثره.

والخلاصة: أنه وإن كانت أعداد من التربويين المعاصرين ترى أن أزمة التعليم المعاصر تتلخص في **تزايد عدد الأميين البالغين** باستمرار (خاصة في دول العالم الثالث التي لا تستطيع ميزانياتها مواجهة التزايد المستمر في تعداد السكان وإقامة المؤسسات التعليمية اللازمة لمواجهة هذا التزايد المطرد) فإن الحقيقة هي أن الأزمة تتجسد في **تزايد الأمية** بنوعيها: أمية الجهل بالقراءة والكتابة، وأمية الجهل برسالة الإنسان في هذه الحياة. وكل من هاتين الأميتين آخذ في الازدياد بين الناس وسط عصر تميز بانفجار حقيقي في المعرفة..، **فالأولى** يتزايد فيها مجموع عدد الأميين البالغين – أكثر من 15 سنة – في العالم، وذلك نظرًا للانفجار السكاني وللأزمات الاقتصادية التي تحول دون مسايرة التوسع في التعليم للزيادة السكانية – خاصة في الدول النامية – **والثانية** تكاد تجرف العالم كله نظرًا لتصفية نظم التعليم الديني، وإبدالها بنظم تعليمية دنيوية تدور بالعملية التربوية وبالمعارف الإنسانية كلها في إطار مادي صرف، وبذلك تأتي جزئية، قاصرة، منقوصة، لا يمكنها أن تقوم بدورها التربوي أو التعليمي على الوجه الأكمل. وقد زاد هذه النظم فسادًا عملية الفصل المتعمد بين تعليم ديني لا علاقة له بالتطور العلمي والتقني المعاصر، وتعليم مدني لا علاقة له بالدين. وقد تم التضييق على المعاهد الإسلامية حتى حُصِرَ نشاطها في دور تقليدي يتلخص في المحافظة على التراث، ونقله من جيل إلى جيل، وذلك



درءًا لتيار الفكر الإلحادي الوافد من الشرق ومن الغرب، والذي تغلغل في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية المكتسبة، وأدى إلى صياغتها صياغة مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، حتى في المجتمعات التي يؤمن أفرادها بذلك، ثم وقوف المسلمين، وفي مقدمتهم رجال التربية، موقف المستسلم لتلك النظم التعليمية المادية السائدة. وباختصار شديد فإن أزمة التعليم المعاصر تتجسد في غياب المنهج الإسلامي للتربية، وفي غيابه من الدول الإسلامية بصفة خاصة، والتي كان في إمكانها أن تقدم للعالم النموذج التطبيقي في: كيف تكون التربية للإنسان الصالح؟

وتتلخص العيوب الرئيسية لنظم التربية المعاصرة فيما يلي:

أولًا: أنها تعتمد على فلسفات وضعية انحرفت بالإنسان عن حقيقة رسالته في هذه الحياة: عبدًا لله، يعبده - سبحانه وتعالى - بما أمر، ويحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها وإقامة عدل الله فيها.

ثانيًا: أنها تقوم على أساس من نظم تقليدية جامدة، تفرض على الطلاب فرضًا في أطر زمانية ومكانية محددة، تحرم العملية التربوية من الاستمرارية والشمول.

ثالثًا: اقتصار هذه النظم - بحكم طبيعة الفلسفات الوضعية التي تقوم عليها - على الجوانب المادية فقط في الإنسان والكون والحياة، مما ساعد على نمو هذه الجوانب المادية نموًّا مذهلًا على حساب الجوانب الدينية والنفسية والأخلاقية مما أدى إلى ضمور تلك الجوانب إلى حد الاختفاء، أو فسادها إلى حد تهديد البشرية كلها بالفناء. وكان من نتائج ذلك خروج الإنسان عن إطار إنسانيته، وفقدانه لحقيقة رسالته في الحياة.

رابعًا: كذلك فإن سيطرة المنهج المادي على الفكر التربوي المعاصر جعل المعرفة معزولة عن الحكمة، وأدى إلى ضياع الجانب الأخلاقي والديني، وبضياعه انحسر دور التربية في التعليم فقط بمعنى نقل قدر من المعلومات أو التدريب على عدد من المهارات، وقد أفرز ذلك النوع من التعليم إنسانًا ماهرًا غير ملتزم بالدين ولا بالأخلاق، وكان هذا النوع من البشر واحدًا من أبرز أسباب الأزمات العالمية الراهنة كلها وبخاصة الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية.

خامسًا: افتقار الغالبية العظمى من المعلمين الحاليين للنظرة السوية إلى الإنسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله، مما أدى إلى فقدهم لدورهم كقدوة حسنة يقتدي بها الطلاب ويتمثلون سلوكها، وبذلك افتقرت العملية التربوية إلى أحد عناصرها الأساسية وهي القدوة الحسنة.

سادسًا: فقدان الرغبة الحقيقية في التعلم نظرًا لضياع الحافز الديني والأخلاقي، وإلى غيبة القدوة الحسنة مما حدد هدف الطلاب في الحصول على المؤهل من أجل استخدامه كوسيلة للوصول إلى وضع اجتماعي ومالي أفضل، بينما الأصل في التعليم أنه ضرورة من ضرورات الوجود الإنساني وليس وسيلة للتوظف أو للاستعلاء الاجتماعي.

سابعًا: افتقار نظم التعليم المعاصر إلى الجوانب الإنسانية كالعلاقة النبيلة بين كل من المتعلم والمعلم، وبينه وبين زملائه مما أدى إلى تدهور الحياة التعليمية تدهورًا ملحوظًا. ومن مظاهر ذلك التدهور: انصراف الطلاب عن التعليم، وانشغالهم بالعديد من حركات الرفض السلبية التي أخذت تجتاح المجتمعات المعاصرة كلها. ومن مظاهره أيضًا تدهور النظام التربوي ذاته، فالقبول مبني على التمييز بين الطلاب، ومناهج التعليم محددة جامدة تقتل روح البحث والاستقصاء والإبداع، وتشل من حرية كل من الطالب والأستاذ، ونظام الامتحانات نظام موروث من القرون الوسطى وقد ثبت قصوره في قياس قدرات الطلاب وتقييم مستوياتهم، وأدى إلى فشل الكثيرين منهم.

ثامنًا: هذه النظم التربوية قامت على الفصل بين المعارف، وعلى تضييق الاختصاصات إلى درجة مبالغ فيها جدًّا، وإلى الحد الذي أعجزها عن الرؤية الكلية الشاملة لأية قضية من القضايا العلمية أو الاجتماعية أو السياسية الهامة من مثل قضايا خلق كل من الكون والحياة والإنسان وإفنائه، وإعادة خلقه (أي بعثه)، ومن مثل قضايا الحرب الباردة والساخنة، والتي تشنها الدول الكبيرة بغير حق على الدول الصغيرة، وقضايا الظلم السائد في عالم اليوم، وقضايا التجسس والاستخبارات والغزو والاستعمار، والاضطهاد العنصري، ومشاكل الجهل والجوع والحرمان، والقلق، والآلام، وأخطار التلوث البيئي التي تهدد جميع سكان الأرض، وقضايا التصحر، وتناقص كل من المواد الغذائية والموارد الطبيعية، واستعباد الآلة للإنسان، والتحلل الأخلاقي والسلوكي والبعد عن الدين، وقضايا الشذوذ الجنسي، وزواج

الأمثال والسماح لهؤلاء الشواذ بالتبني والتوارث تحت حماية من دساتير الدول الكبرى لهم. وهذه قضايا لا يمكن للمجتمع أن يعيش دون أن يهتم بها ويصل إلى وسائل لحلها، وإقصاء التربية المعاصرة عن مثل هذه القضايا الكلية - مهما كانت الأعذار - سيجعلها دائمًا في معزل عن مشاكل المجتمع وقضاياه، وهذا في حد ذاته إهدار لقيمة العلم ولدور المتعلمين، كما أنه يهدد وحدة الجنس البشري بأكمله، ويتهدد مستقبله بالخراب والدمار.

تاسعًا: إن المناهج الوضعية القاصرة السائدة في هذه الأيام - سواء كانت مستوردة من العالم الغربي أو الشرقي - قد سيطرت على الفكر التربوي في العالم، وانتقلت عدوى ذلك إلى البلاد الإسلامية، وغيرها من دول العالم الثالث مما أفسد مناهج التربية فيها لأنها نظم تتنافى مع الفطرة، ومع عقيدة الأمة، وعباداتها، وأخلاقها، ومعاملاتها، وتاريخها الحضاري، وتتناقض مع احتياجاتها وإمكاناتها المادية، مما يؤدي غالبًا إلى انفصام في شخصية متعلميها، وإلى ضعف لمردودها الذي تصحبه بطالة بين المتعلمين وما لذلك من عواقب نفسية واجتماعية واقتصادية وخيمة تهدد المجتمعات الإنسانية اليوم بالانهيار.

هذه بعض نقائص النظم التربوية المعاصرة التي لن تحلها الإصلاحات الجزئية من قبيل الدعوة مثلًا إلى جعلها تربية مستمرة، حرة، مفتوحة للجميع، ونزع الطابع الجامد عنها، أو القضاء على التمييز بين مراحلها - الابتدائي، المتوسط، الثانوي والعالي - وعقد الصلات بين التعليم والمجتمع، أو الاهتمام بالتربية قبل المدرسة، أو جعل التعليم شاملًا لا يفصل بين تعليم عام وتقني، أو ربطه بالعمل، أو استخدام التقنيات الحديثة بين وسائله.. فهذه كلها أمور جزئية لا تستطيع حل مشاكل التربية التي تعتبر من أعقد العمليات الإنسانية وأخطرها، ولذلك **فالعلاج لا بد أن يكون حلًّا شاملًا كليًّا عاجلًا**. وهذا العلاج الكلي الشامل لا يمكن أن يكون من وضع بشر؛ لأن البشر محكومون بحدود قدراتهم، وبقصور إمكاناتهم، ومن ثم فالعلاج لا يمكن أن يكون موجودًا إلا في رسالة السماء، والرسالة السماوية الوحيدة المحفوظة بين أيدي الناس اليوم، وعلى مدى يزيد على ألف وأربعمائة سنة، هي رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين - وهي الرسالة السماوية الوحيدة التي حفظت بعهد قطعه الله تعالى على ذاته العلية، ولم يقطعه لرسالة سابقة أبدًا، فحفظ به رسالته السماوية الخاتمة بنفس اللغة التي نزلت بها اللغة العربية)؛

فحفظها من الضياع، وصانها من التحريف والتبديل والتغيير الذي تعرضت له الرسالات السابقة جميعًا. ومن ثم كان لزامًا على المسلمين أن يجعلوا التربية لأبنائهم نابعة من القرآن الكريم ومن سنة خاتم النبيين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين. والتربية القرآنية هي قمة النظم التربوية قاطبة؛ لأنها تربية الله الذي خلق، والذي هو أدرى بطبيعة خلائقه وبأفضل الوسائل لتربيتهم. وهي وكذلك تربية خاتم الأنبياء والمرسلين – صلوات الله وسلامه عليه – الذي قال: **«إنما بعثت معلمًا»** لأنه هو النموذج الحي للكمال البشري في أعلى صوره، والاقتداء به هداية إلى شيء من ذلك الكمال البشري الذي تتوق كل نفس سوية إلى الوصول إليه.

وتتلخص **فلسفة التربية الإسلامية** في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والالتزام بالعمل الصالح، والتعاون عليه، والتعرف على الحق والتواصي به، وبناء الإنسان بناءً متكاملًا يقوم على تأديب النفس، وتطهير القلب، وتثقيف العقل، وتقوية الجسد، حتى يصل إلى الكمال الإنساني المتسامي باستمرار، وصولًا اختياريًّا واعيًا، في إطار من القيم الربانية، والأخلاق القرآنية التي ينشأ من الصغر عليها، ويُعَوَّدُ على التعامل بها حتى تصبح جزءًا لا يتجزأ من كيانه، وبذلك يتحقق له فهم رسالته في هذه الحياة: عبدًا لله تعالى، يعبده بما أمر، ومستخلفًا في الأرض، يعمرها قدر استطاعته، ويجاهد من أجل إقامة عدل الله فيها، وبهذا الفهم يتمكن كل من المربي والمتربي من النجاح في أداء رسالته، ومن ثم النجاح في الدنيا والآخرة، وهو الهدف من وجوده في هذه الحياة.

والتربية الإسلامية تعتبر العلم النافع مكملًا لإنسانية الإنسان، ومعينًا له على القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، ومن ثم **تجعل لكل مولود حقًّا طبيعيًّا في التربية والتعليم، وتعتبر طلب العلم فريضة على كل مسلم**، وتأخذ التربية بشمولها للجوانب العقلية والنفسية والجسدية في الإنسان، وتعمل على تعهد كل جانب من هذه الجوانب والنمو به في عدل وتوازن، وهي تعتبر الخير **أصيلًا في الإنسان**، ومن ثم فمن واجبها المحافظة على فطرته السوية وتنميتها على ذلك الخير حتى تتطبع به، وقمة الخير في الإنسان هي الخضوع بالعبودية لله – تعالى – وحده (بلا شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد) لأنها تجسيد لمعنى التكريم الذي كرمه به الله. فقال – عز من قائل: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: 70).

والتربية الإسلامية تعتبر حب الخير وحب الحق وحب الجمال من القيم الأصيلة في النفس البشرية، وأن من واجب التربية المحافظة على تلك القيم وتنميتها في عقل وقلب المتربي حتى تصبح جزءًا من تكوينه، واعتبار التربية **عملية مستمرة** مواكبة لرحلة الحياة من المهد إلى اللحد، بل تمتد بها إلى ما قبل المهد وذلك بالتقنين لحسن اختيار الوالدين في إطار من الشرعية التي وضعها الله، إعدادًا لمقدم الجنين الصالح، ثم للعلاقة العائلية المستقرة، وحقوق الفرد فيها: طفلًا، وشابًّا، ورجلًا، وكهلًا، وواجباته تجاه أهله ومجتمعه وقومه، وتجاه الإنسانية كلها انطلاقًا من الإيمان بوحدة الجنس البشري وبالأخوة الإنسانية على الرغم من فوارق اللون واللسان والمعتقد. وهذه من القضايا التي تهتم بها التربية الإسلامية؛ لأنها في أساسها **تربية إنسانية**، غير محدودة بحدود إقليمية أو عرقية ضيقة، ولذلك فهي تربية تتحقق فيها المساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم وألسنتهم ومعتقداتهم، وبين الذكر والأنثى، وهي **تأخذ في الحسبان تباين الأفراد** في قدراتهم وملكاتهم ومواهبهم واستعداداتهم، فتقوم على أساس من **التربية الفردية الحرة** غير المقيدة بأغلال النظم المادية الضيقة، ينهل منها الطالب بغير قيود مسبقة، ويتحرك فيها حركة أفقية ورأسية حسب ميوله وقدراته وبمشورة أستاذه، وحسب ظروف حياته وعمله، بل تيسر له مجالًا خارج نطاق المعاهد التربوية بصور شتى – في كل من المسجد، وما يعقد فيه من الدروس، والندوات، والمحاضرات، وعن طريق الإعلام (بمختلف أشكاله وصوره)، وباستخدام شبكات المعلومات، والبرامج التدريبية والتعليمية المختلفة – كما تدعو التربية الإسلامية إلى المشاركة الفعلية من جانب الطالب، لتعوده على التعلم الذاتي، وتجعله لا يعتمد على التلقين الحرفي المباشر وغير المباشر.

والتربية الإسلامية إذ تحسن اختيار المربين وتشترط فيهم شروطًا عالية، فإنها تهتم بهم اهتمامًا بالغًا وتعمل على أن توفيهم حقهم وقدرهم، فهم القدوة التي يقتدي بها طلابهم، والنموذج الذي يحتذونه في الاجتهاد الواعي للعمل الصالح في هذه الحياة، وذلك انطلاقًا من حقيقة أن العلم بدون عمل صالح هو علم ناقص.

ومن سمات **الشمول في التربية الإسلامية** شمول مصادر المعرفة، فهي لا تقصر ذلك على المعارف المكتسبة وتراث الإنسانية المتراكم فيها، بكل ما في ذلك من حسنات وسيئات، ولكنها تجعل بجانبه معيارًا ربانيًّا هو الوحي السماوي المنزل الذي اكتمل وحفظ بنفس لغة الوحي في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة

وذلك لأن الإنسان مأمور باستخدام حواسه وعقله في عملية من الكشف المستمر، وتحكيم الاستدلال بالبرهان المنطقي، ورفض التقليد الأعمى، والجمود على المفاهيم الخاطئة الموروثة.

والمعارف المكتسبة في التربية الإسلامية ليست معزولة عن الحكمة، ولا مجردة من الإيمان، فإذا كان العلم التجريبي وتطبيقاته في مجال التقنية علمًا بالمادة وصفاتها وقوانينها، ومحاولة لتسخيرها، وعلمًا بالكون وسننه، فإن الإيمان معرفة بالله خالق المادة، ومؤسس قوانينها، ومبدع الكون، وواضع نواميسه، وخالق الإنسان، ومستخلفه في الأرض، وواهبه تلك القوى التي تعينه على تسخير الكون وسننه من أجل القيام بواجبات الخلافة، وكلاهما علم لاغنى للإنسان عنه. وإذا كانت العلوم المكتسبة صحيحة فهي حتمًا تؤكد على قضية الإيمان بالله وتوحيده، ومن هنا تنطلق التربية الإسلامية من التصور الإسلامي الصحيح للإنسان والكون والحياة ولمعنى ألوهية الله، ومن ثم فهي تعمل على تنشئة الإنسان الصالح الذي يدرك حقيقة دوره في هذه الحياة فيعمرها بنجاح وفلاح وصلاح.

من كل ما سبق يتضح أن علاج أزمة التعليم المعاصر - بأبعادها المادية والمعنوية - هو في قيام التربية الإسلامية الشاملة واقعًا حيًّا بين الناس، ونموذجًا يقتدى به، ويهتدى بهديه، ولما كان ذلك غير محقق اليوم، باستثناء بعض البادرات الطيبة التي بدأت تنشط بصورة محدودة في أماكن متناثرة من العالم الإسلامي، فإني أقترح خطوطًا عريضة لما يجب أن تكون عليه التربية الإسلامية اليوم، وذلك في صورة عدد من التوصيات التي أسأل الله العلي القدير أن يهيئ لها آذانًا صاغية تستمع إليها، وتقتنع بها ثم تسعى إلى تحقيقها أمرًا واقعًا في حياة مسلمي العصر وأوجز ذلك فيما يلي:

أولًا: إنشاء مركز إسلامي عالمي للدراسات التربوية يكون من بين مهماته:

(1) استقطاب الطاقات الإسلامية المتخصصة، والتي تتميز بالقدرة على العطاء في مختلف مجالات التربية.

(2) العمل على بلورة النظرية الإسلامية للتربية، ووضع التفاصيل الدقيقة لنظام تربوي إسلامي يفي باحتياجات العصر، ووضع الأطر العامة لمناهج المراحل التعليمية المختلفة.

(3) تشجيع التأليف والترجمة والنشر في موضوعات هذه المناهج، وذلك ضمن خطة مرسومة تتضمن بالإضافة إلى المحتوى العلمي الرصين ثلاث قضايا أساسية تشمل:

(أ) التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة.

(ب) إبراز دور علماء المسلمين القدامى والمعاصرين في هذه المعارف.

(جـ) إبراز جوانب الإعجاز في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة – إن وجد – في هذه المعارف، أو ما فيها من إشارات إلى طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الخلق.

(4) القيام بدراسة دقيقة للآثار المكتوبة عن التربية ومؤسساتها ونظمها ومناهجها وأعلامها في الدولة الإسلامية، وأهم إضافات المسلمين في ذلك المجال.

(5) وضع خطة زمنية للقضاء على الأمية في العالم الإسلامي وإلزام الحكومات الإسلامية بها.

(6) العمل على تطوير أساليب التربية المعاصرة في إطار من التصور الإسلامي الشامل للإنسان والكون والحياة، ولمعنى ألوهية الله، والاستفادة بكل المعارف والوسائل التقنية الحديثة من أجل تحقيق ذلك، دون الإخلال بالدور الإنساني في العملية التربوية.

(7) عمل مسح شامل للتربية في العالم الإسلامي ودراسة مشاكلها الرئيسة، خاصة ما يتعلق بتعليم الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة، ووضع الحلول المناسبة لذلك.

(8) العمل بكل الوسائل الممكنة على تعريب التعليم في مختلف مراحله – من رياض الأطفال إلى المرحلة الجامعية – وهذا لا يتعارض مع تدريس لغة أجنبية أو أكثر من لغة.

(9) وضع نظام خاص لتعليم البنات يقوم على استقلاليته في مختلف مراحله، ويراعى فيه ما يناسب طبيعة الأنثى، وما يحفظ عليها فطرتها، ويعمل على نشر التعليم بين الإناث اللاتي يعانين من أعلى نسب الأمية في العالمين العربي والإسلامي لأن طلب العلم فريضة على المسلمين كافة ذكورًا وإناثًا.

(10) العمل على أسلمة جميع المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية، وجميع المؤسسات التعليمية التي تهدف إلى تغريب أبناء وبنات المسلمين بوسائلها المعلنة والخفية، والعمل على تصحيح أنشطتها المختلفة، ودعوة المسلمين إلى عدم إرسال أبنائهم إلى المدارس والمعاهد التعليمية المحلية غير المسلمة مهما كانت المغريات لذلك.

(11) تطوير تدريس الثقافة الإسلامية لتوضيح فضل الإسلام العظيم على غيره من الأديان، وفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب في دراسة منهجية لمقارنة الأديان، وإبراز سير عظماء الإسلام، ودور الحضارة الإسلامية في ازدهار المعارف الإنسانية المختلفة مع التركيز على جوانب الإعجاز في كل من كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ، وهي من دلائل نبوته، ووضع المؤلفات المناسبة لكل مستوى تعليمي في هذه المجالات بلغة العصر وأسلوبه.

(12) العمل على تيسير تدريس اللغة العربية للمسلمين من غير العرب وتطوير وسائل ذلك العلمية والتقنية.

(13) العمل على إصدار عدد من الدوريات الإسلامية للتربية.

(14) العمل على إصدار دائرة معارف إسلامية حديثة.

(15) العمل على إقامة نماذج لكل من المدارس والمعاهد التربوية على مختلف مستوياتها تجسد فلسفة التربية الإسلامية واقعًا حيًّا بين الناس وعمل مسابقات هندسية دولية لتصميم تلك المعاهد التربوية تصميمًا إسلاميًّا.

ثانيًا - تكوين اتحاد عالمي للتربويين الإسلاميين: له مقر دائم، وفروع في مختلف عواصم العالم الإسلامي، ويكون من مهامه:

(1) ربط المسلمين المهتمين بقضايا التربية في مختلف أنحاء العالم، وعمل حصر شامل لهم.

(2) تكوين لجان متخصصة في مختلف مجالات التربية تنبثق عن الاتحاد.

(3) تبني المنهجية الإسلامية في التربية والدعوة إليها، والعمل على تنفيذ استراتيجياتها، وفي مقدمة ذلك تنظيم حملات محو الأمية، والعمل على



إحياء رسالة المسجد، وعلى تصحيح مسار جميع المدارس والمعاهد والجامعات الأجنبية، ووقف كل أنشطة التنصير والإلحاد والشرك بالله، والتغريب عن حضارة الأمة الإسلامية، والدعوة إلى إقامة مؤسسات تربوية إسلامية شاملة، وإلى الفصل بين الجنسين في مراحل التعليم المختلفة، والدعوة إلى وقف إرسال الطلاب المسلمين للدراسة في بلاد غير إسلامية في سن مبكرة، وإلى إحياء نظام الوقف الإسلامي على التعليم.

(4) إصدار دورية شهرية أو ربع سنوية لقضايا التربية الإسلامية.

(5) يعقد الاتحاد مؤتمره بطريقة دورية ولتكن مرة كل سنتين.

(6) يخصص الاتحاد جوائز عينية ومعنوية لأفضل البحوث والمؤلفات التي تنشر في مجالات التربية الإسلامية.

(7) العمل على النهوض بدور كل من «الإسيسكو» أو المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ومقرها المغرب، «والأليسكو» وهي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومقرها في تونس. حتى يتكون مَهَامِّها الهيئة الإسلامية العالمية للتربية والثقافة والعلوم والتي يجب أن يكون من منها التنسيق بين دول العالم الإسلامي لتيسير تنفيذ استراتيجية التربية الإسلامية، وذلك من خلال الخبرات، والإمكانيات، والأشخاص، والتعاون الفكري والمادي، وليكن لهذه الهيئة مؤسسة بناء غير هادفة للربح، تقوم على تصميم وتنفيذ مباني المؤسسات التعليمية في دول العالم الإسلامي لتغنيه في ذلك عن تسلط بعض المؤسسات الغربية التي تقوم بدور خطير في العالم الإسلامي (خاصة في القارة الإفريقية) تحت ستار بناء المدارس بتكلفتها ومن أمثلتها مؤسسة «كير» الأمريكية.

الفصل الثاني

ضرورة المبادرة بمعالجة أسباب التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

ترجع أسباب التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر إلى نفس الأسباب التي أدت إلى تخلف المسلمين عامة في هذه الأيام. والتي تتلخص في **الهجمة الصليبية** على العالم الإسلامي في عدد من الحملات المتتابعة التي بدأت مع نهاية القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي (480 هـ/1096 م) واستمرت إلى اليوم، وتخللتها **غزوة المغول** التي جاءت في مطلع القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي (617 هـ/1220 م) واستمرت لأربعين سنة ميلادية حتى سنة (659 هـ/1260 م) وانتهت بإسلام المغول.

وتخلل الهجمة الصليبية على العالم الإسلامي إنهاء حكم المسلمين بالأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي (898 هـ/1492 م) بعد أن دام لأكثر من ثمانية قرون كاملة، وقد صحب ذلك العديد من المظالم التي تتنافى مع أبسط القواعد الإنسانية والأخلاقية.

ثم بدأت موجة من التخطيط الشيطاني من أجل تحقيق الاحتلال العسكري الغربي لمعظم أراضي الدول الإسلامية، وفي ظلها تم إقصاء الإسلام عن الحكم، فاحتلت فرنسا كلًّا من مصر (1798 م – 1805 م)، والجزائر (1830 م)، وتونس (1881 م)، وكلًّا من تمبكتو وتشاد (1894م)، والمغرب (1907م)، وكلًّا من سوريا ولبنان (1920 م). واحتلت بريطانيا كلًّا من عدن (1839 م)، وجزر الملايو (1867 م)، ومصر (1881 م)، وجزءًا من أرض الصومال (1884 م)، وكلًّا من العراق وفلسطين (1917 م)، بينما احتلت إيطاليا كلًّا من بقية أرض الصومال (1889 م)، وليبيا (1911 م).

وفي ظل هذا الاحتلال وعبر سلسلة من الحروب شبه المتواصلة والمؤامرات الحقيرة تم إضعاف دولة الخلافة العثمانية حتى تحقق إسقاطها قبل منتصف القرن

الرابع عشر الهجري (1343 هـ – 1924 م) ومن ثم تم تمزيق بلاد المسلمين إلى أكثر من 57 دولة ودويلة متفاوتة في المساحة، وتعداد السكان، وفي طبيعة الأرض وتنوع مصادر الرزق، وتم اقتسام تلك الدول والدويلات بين الكتلتين الغربية والشرقية، وإخضاعها لنفوذهما المباشر أو غير المباشر، كما تم التخطيط الشيطاني الدءوب لإخراج تلك الدول والدويلات من دائرة الإسلام إلى دوائر الدهرية الزائفة، وذلك تحت ستار من دعاوى التحديث والتطوير ومسايرة العصر. وقد أدى ذلك إلى تقمص كل من تلك الدول والدويلات الإسلامية أنماطًا غربية ومتعارضة من الحكم، متباينة في الفكر، والسياسة والاقتصاد، والتعليم، والإدارة والاجتماع، تأرجحت بين أقصى درجات الرأسمالية المستغلة، وأقصى درجات الشيوعية المذلة. كما تعرض بعضها للعديد من الانقلابات العسكرية والانقلابات المضادة التي أنهكت قواها، ودمرت اقتصادها، وحطمت معنويات أبنائها، وتركتها كيانات متنافرة، وإقليميات متناحرة، ومذهبيات متصارعة، وعصبيات متطاحنة فوق أرض متشابكة الحدود والمصالح، متعارضة النظم والفلسفات، ووسط عالم يتكتل على هيئة تجمعات بشرية كبيرة، وحدت نظمها الاقتصادية وسياساتها الخارجية، وخططها العسكرية، وتبادلت المعلومات والخبرات في مختلف المجالات حتى وصلت إلى التوحد الكامل، فحققت بذلك ما وفر لها أسباب التسلط على الدول الصغيرة؛ وما مكنها من فرض سيطرتها على تلك الدول، وبسط نفوذها وهيمنتها على الأرض.

وبعد مجاهدات استغرقت عشرات بل مئات من السنين، وحصدت ملايين الشهداء، واستنزفت ثروات بلاد المسلمين، بدأت تلك البلاد في التحرر الشكلي من الاحتلال العسكري مع وجود التبعية الكاملة للغرب أو للشرق. وكأن ذلك لم يُرضِ المسئولين عن الحكومات الغربية فلم تنقضِ سنوات معدودة على هذا الاستقلال الشكلي والمنقوص حتى تآمرت القوى العالمية من جديد من أجل إعادة احتلال العالم الإسلامي والعمل على مزيد من تفتيته، فجاء الغزو الأنجلو/ أمريكي الصهيوني/الصليبي وأحلافه بحججه المصطنعة الكاذبة الواهية ليعاود احتلال كل من أفغانستان والعراق، ويعمل على مزيد من تفتيتهما بإشعال كل وسائل التمزيق والفرقة من الخلافات الدينية والمذهبية والعرقية وغيرها، مستغلًا تمركزه في المنطقة من جديد لتهديد دول أخرى مجاورة من أمثال كل من سوريا وإيران وباكستان والمملكة العربية السعودية ومصر.

وعلى ذلك يمكن إيجاز الأسباب المباشرة للتخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر فيما يلي:

أولًا: الأسباب المادية لتخلف مسلمي اليوم علميًا وتقنيًا:

1 - **تمزق العالم الإسلامي المعاصر إلى أكثر من 62 دولة ودويلة**[1] بالإضافة إلى أقليات منتشرة في الدول غير الإسلامية، تفوق أعدادها مئات الملايين في بعض هذه الدول كما هو الحال في كل من الهند والصين، واتحاد الجمهوريات الروسية، مما أدى إلى تفتيت المقومات المادية للعالم الإسلامي، وإلى تشتيت الطاقات البشرية للمسلمين؛ في وقت أخذ العالم الاتجاه إلى التوحد في تكتلات بشرية وسياسية واقتصادية وعسكرية كبيرة، ولم يعد فيه وجود مستقل، أو إمكانية لمستقبلٍ لأية تجمعات بشرية يقل تعدادها عن ثلاثمائة مليون نسمة. وفي ظل هذه التكتّلات الكبيرة لم يعد هناك أي مجال للكيانات الصغيرة أن تكون لها أية بصمات على مجريات الأحداث العالمية، وحكم عليها بالبقاء تابعة ذليلة للتكتلات الكبيرة.

وقد أدى تفتيت العالم الإسلامي إلى إفقاره على الرغم من ثرواته البشرية والطبيعية الهائلة، فالغالبية العظمى من سكان الدول الإسلامية اليوم (باستثناء الدول

---

(1) هي – بحسب الترتيب الهجائي لأسمائها – كما يلي:
(1) أفغانستان، (2) الأردن، (3) البحرين، (4) بروناي، (5) الحبشة، (6) السودان، (7) الإمارات العربية المتحدة، (8) الجزائر، (9) إندونيسيا، (10) إريتريا، (11) أوجادين (أو الصومال الغربية)، (12) أوغندا، (13) إيران، (14)، باكستان، (15) بنجلاديش، (16) بنين (داهومي)، (17) بروناي، (18) بوركينا فاسو أو (فولتا العليا)، (19) تركيا، (20) تشاد، (21) تنزانيا، (22) توجو، (23) تونس، (24) الجابون، (25) جامبيا، (26) جزر القمر، (27) جزر المالديف، (28) جيبوتي، (29) ساحل العاج، (30) السعودية، (31) السنغال، (32) سيراليون، (33) سوريا، (34) الصومال، (35) العراق، (36) عمان، (37) غينيا كوناكري، (38) غينيا بيساو، (39) فلسطين المحتلة، (40) قطر، (41) الكاميرون، (42) الكويت، (43) لبنان، (44) ليبيا، (45) ماليزيا، (46) مالي، (47) مصر، (48) المغرب (مراكش)، (49) موريتانيا، (50) موزمبيق، (51) النيجر، (52) نيجيريا، (53) اليمن، بالإضافة إلى كل من (54) ألبانيا، (55) والبوسنة والهرسك، (56) وكوسوفا، والجمهوريات التي استقلت مؤخرًا عن الاتحاد السوفيتي السابق وتشمل: جمهوريات (57) أذربيجان، (58) أوزبكستان، (59) تركمانستان، (60) كازاخستان، (61) قرغيزستان، (62) طاجيكستان، وغيرها من الأراضي المحتلة من مثل (63) الشيشان، داغستان، تتارستان، بشكيرستان، بلاد القوقاز، أوسيتيا، وأبخازيا من الأراضي الإسلامية الباقية تحت الاحتلال الروسي، وكل من سبتة ومليلية وجزر ليلى من الأراضي المغربية الباقية تحت الاحتلال الإسباني، والغالبية الساحقة من سكانها هم من المسلمين.

النفطية) تعيش تحت الحد الأدنى للكفاف اللازم لصون كرامة الإنسان، وذلك بتباين واضح في متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي والذي يتراوح بين **0.2 دولار في اليوم للفرد (أي في حدود 73 دولارًا في السنة) في دولة إسلامية مثل تشاد، وأكثر من 65 دولارًافي اليوم للفرد (أي أكثر من 24.000 دولار في السنة) في كل من دولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة بروناي.**

ويرتفع متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي للدول الإسلامية في السنة إلى **980 دولارًا أمريكيًا** بسبب الارتفاع الكبير للدخول القومية في بعض هذه الدول، ولكن بدلًا من أن يكون هذا المتوسط هو الأمر السائد في الدول الإسلامية حيث يأخذ الأخ بيد أخيه، ويعين القوي الضعيف، ويعطي الغني الفقير، انقسم العالم الإسلامي إلى دول متخمة بالثراء إلى حدِّ البطر، وأخرى معدمة إلى حد الفاقة!! وبسبب ذلك فقد أهملت عمليات التنمية البشرية والمادية: أهمل التعليم، وبإهماله تخلف حاملو الشهادات وأصبحوا أشباه متعلمين، وتفشت الأمية بين أبناء وبنات الأمة البالغين، وساءت الأحوال الصحية والنفسية، كما أهملت التنمية الزراعية والصناعية والاجتماعية في غالبية الدول الإسلامية، وبإهمالها تقلص الاقتصاد، وزادت الديون، وغرقت الأمة في الربا، ولم يعد هناك مجال للأخذ بأسباب التقدم العلمي أو التقني، خاصة وأن الدول الإسلامية الكبرى تعدادًا يعوزها المال، وأن الدول الغنية – وهي القادرة ماديًا على ذلك – تعوزها الكفاءات العلمية والتقنية والطبية والتعليمية والإدارية، كما تعوزها العمالة الماهرة. ولسد حاجتها من هذه الكفاءات لجأت الدول الإسلامية النفطية – تحت ضغوط القوى العالمية – إلى غير الدول الإسلامية في أغلب الأحيان. **والواقع يؤكد على أن توطين التقنية لا يمكن أن يتم بأيد مستوردة، ولا بأفكار وتصورات وقيم غريبة، ولا بمهارات فنية وإدارية واقتصادية أجنبية،** مغايرةٍ مغايرةً كاملةً للمسلمين في اللغة والمعتقد والسلوك، والنظرة إلى الحياة، وعلى ذلك فإني أقصد بلفظة (الأجنبية) هنا غير الإسلامية، لا كما يطلقها دعاة العصبيات الإقليمية الضيقة، على غالبية أبناء الأمة الإسلامية انطلاقًا من أنانيتهم المفرطة، مع إدراكهم أنه لا وجود لهم بهذه الأعداد القليلة وسط عالم التكتلات السياسية والاقتصادية والعسكرية الكبيرة بغير إخوانهم في الدين.

ويحزنني أن الكثيرين من أصحاب القرار في العالم الإسلامي المعاصر يفضلون حثالات الغرب والشرق من غير المسلمين على الكفاءات الإسلامية المتميزة انطلاقًا

من مركبات النقص العديدة تجاه أصحاب العيون الزرق بصفة عامة، **على الرغم من أن الممارسة قد أثبتت أن الوافدين إلى العالم الإسلامي من خبراء الشمال والجنوب لا يخرج الكثيرون منهم عن كونهم عملاء للاستخبارات الأجنبية، أو للحملات التنصيرية المركزة على أبناء وبنات العالم الإسلامي تركيزًا شديدًا، أو من سقط المتاع الذين لم يستطيعوا أن يشقوا طرقهم في عوالمهم المتطورة حيث المنافسة على أعلى مستوى ممكن في غالبية الدول الصناعية فلجأ كل منهم إلى عالم يقدس الأجنبي مهما كانت إمكاناته الشخصية والعلمية والفنية.**

كما أثبتت الأيام أن أي مشروع نفذ بأيدٍ غير إسلامية هو فرصة ضُيِّعت على أبناء الإسلام، وضُيِّعت إلى الأبد، وكان من الأصلح للأمة أن تنفذ مشاريعها بأيدي أبنائها، ولو من قبيل التدريب وزرع الثقة بالنفس، فضلًا عن توافر الإخلاص والحرص على المصلحة العامة، والاحتفاظ بالأسرار وهي من الضروريات التي يفتقر إليها غالبية المنفذين من غير المسلمين، حتى لو كانوا أعلى كفاءة وأكثر خبرة.

وجميع المشاريع العملاقة وغيرها التي نفذت والتي تنفذ اليوم في غالبية الدول المسلمة بواسطة شركات أجنبية وبأيدي خبراء وفنيين أجانب هي فرص ضاعت على أبناء المسلمين من الخبراء والفنيين، وضاعت إلى الأبد، فضلًا عن أنها قد لا تتكرر، وقد لا تنفذ بالإخلاص والتجرد اللازمين، وقد تكلف أضعاف أضعاف تكاليفها الفعلية. وهذا هو أحد أسباب التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر.

وينقسم العالم الإسلامي اليوم من حيث نصيب الفرد من الدخل القومي إلى الشرائح التالية:

(أ) دول ذات دخول منخفضة: لا يتعدى نصيب الفرد فيها من الدخل القومي أربعمائة دولار في السنة: وتشمل كلًّا من أوجادين، إريتريا، الحبشة، أفغانستان، باكستان، بنجلاديش، بنين، بوركينا فاسو، تشاد، تنزانيا، توجو، جزر المالديف، جامبيا، غينيا كوناكري، غينيا بيساو، موريتانيا، مالي، النيجر، ساحل العاج، سيراليون، الصومال، السودان، أوغندا، وهي تمثل نصف عدد الدول الإسلامية تقريبًا وقرابة النصف من تعداد سكانها.

(ب) دول ذات دخـول متوسطـة: يتـراوح نصيب الفرد فيها من الدخـل القومي بين أربعمائة وستمائة دولار في السنة: وتشمل كلًّا من إندونيسيا، إيران، الأردن،

الجزائـر، الكاميـرون، جيبوتي، لبنان، مصر، الجابـون، العراق، المغرب، نيجيريـا، السنغـال، سوريـا، تونس، تركيـا، ماليزيـا، فلسطيـن المحتلة، الجمهورية العربية اليمنية، وجمهورية اليمن الشعبية.

(جـ) **دول ذات دخول مرتفعة: يتعدى نصيب الفرد فيها من الدخل القومي ستة آلاف دولار في السنة:** وتشمل كلًا من دولة الإمارات العربية المتحدة، البحرين، بروناي، عمان، قطر، الكويت، ليبيا، والمملكة العربية السعودية.

ويرجع السبب الرئيس لهذا التباين الكبير في متوسط دخول الدول الإسلامية إلى عامل التجزئة والتفتيت الذي تعرضت له الأمة الإسلامية إلى عدد من الكيانات المصطنعة التي رسمت حدودها الراهنة بواسطة القوى الاستعمارية العالمية وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندة، ويتولى إثمها اليوم ويحافظ على الاستمرار في تفتيتها كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأذنابها من دول الوحدة الأوروبية وذراعها المقاتل «حلف الأطلسي»، أو الجمهوريات الروسية ومن يدور في فلكها من أذناب، وذلك لكي تبقى الأمة الإسلامية على هذه الصورة من التشرذم الذي لا يمكن أيًا من دولها من القيام بذاته، أو من تشكيل وحدة اجتماعية/اقتصادية متكاملة أو شبه متكاملة مع إخوانه.

وإمعانًا في هذا التفتيت للعالم الإسلامي وظفت القوى الاستعمارية الدولية – ولا تزال – توظف كل مبررات الفرقة بين هذه الكيانات الممزقة، من خلافات حدودية، وسياسية، وقبلية، وعرقية، ودينية، ومذهبية، وطائفية، وفكرية، وغيرها؛ وذلك من أجل الإبقاء على فرقتها، وإشعال الحروب الباردة والساخنة بينها، واستعار العداوات الشخصية بين زعاماتها.

ولم تكن مؤامرة الحرب التي أشعلتها الولايات المتحدة الأمريكية بين كل من العراق وإيران إلا خطوة في هذا السبيل، ولم يكن إغراء الولايات المتحدة وسفيرتها في العراق «أڤريل جلاسبي» لصدام حسين بغزو الكويت إلا تمهيدًا لغزو الولايات المتحدة الأمريكية وأذنابها للمنطقة من أجل المزيد من استنزاف ثرواتها، والهيمنة عليها، والعمل على مزيد من التفتيت عزفًا على الخلافات التاريخية القديمة في المنطقة على اختلاف أشكالها.

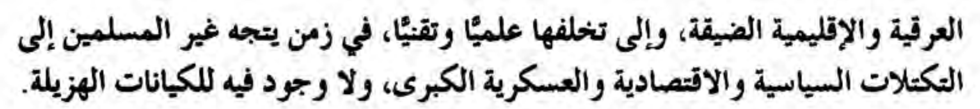
ولم تكن الإعلانات بالصفحة الكاملة في جميع وسائل الإعلام الغربية عن التخلف في أفغانستان إلا مقدمة لغزو أنجلو/أمريكي/صهيوني/صليبي حاقد لهذا البلد المسلم، مخالفين بذلك لجميع قرارات الأمم المتحدة وللأعراف الدولية ولأبسط القيم الأخلاقية والحقوق الإنسانية.

وبهدف الحيلولة دون قيام أدنى قدر من التعاون بين الأشقاء، ودون تحرك المال الإسلامي إلى الدول الإسلامية الفقيرة على شكل استثمارات تعين على تنشيط عملية التنمية فيها – أحدثت الدول الكبرى جوًّا من عدم الاستقرار السياسي، والفوضى الاقتصادية التي لا تشجع على تحرك أية أموال من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر، فلا تجد فوائض أموال الدول الإسلامية النفطية طريقها إلا إلى خزائن وبنوك الدول الكبرى، بينما الدول الإسلامية الفقيرة تئن تحت وطأة الديون، وتضطر إلى أن تدنس حياتها وحياة أبنائها بالربا الفاحش الذي يضاعف ديونها أضعافًا كثيرة على مر السنين، ويزيد من تبعيتها للدول الكبرى يومًا بعد يوم حتى ولو كان ذلك على حساب دينها وعقيدتها وأخلاقها وقيمها، وضد مصالحها ومصالح أبنائها.

وإنه لمن السخرية حقًّا أن الدول الكبرى تدعي أن فائض الأموال يستثمر اليوم في دول العالم الثالث على هيئة قروض حكومية، فكأنها تستعبد المسلمين بأموال المسلمين، وتغرق المقرض والمستقرض في أوحال الربا، وكان الأجدر بأموال المسلمين أن تتداول بينهم بغير وصاية أو ابتزاز من أعدائهم، أو اضطرار إلى الخروج على أوامر ربهم والخوض في دنس الربا، وهو الانحراف الذي توعد الله – تعالى – الواقع فيه بحرب من الله ورسوله.

وإنه لمن السخرية أيضًا أن تستثمر تريليونات الدولارات من أموال المسلمين في مضاربات غير إسلامية في أسواق المال الغربية بأساليب غير شرعية، ثم يأتي المحق الإلهي لتلك الأسواق بفجائية شديدة فتضيع أموال المسلمين هباءً منثورًا في طرفة عين دون أن تعرف الأسباب، ودون أن يعتبر أصحاب تلك الأموال التي ضاعت على المسلمين إلى الأبد.

من هذه العجالة يتضح لكل ذي بصيرة **كيف أن تمزيق الأمة الإسلامية إلى دول ودويلات كثيرة قد أدى إلى إضعافها اقتصاديًّا وسياسيًّا وحضاريًّا،وإلى تشتيت مقوماتها المادية والمعنوية، وإلى تفتيت طاقاتها البشرية، وإلى إذكاء نيران العصبيات**



العرقية والإقليمية الضيقة، وإلى تخلفها علميًا وتقنيًا، في زمن يتجه غير المسلمين إلى التكتلات السياسية والاقتصادية والعسكرية الكبرى، ولا وجود فيه للكيانات الهزيلة.

وإذا أراد المسلمون اليوم النهوض من كبوتهم فعليهم أن يعيدوا **إحياء معنيين أصوليين هامين في نفوسهم: أولهما شمول الإسلام، وثانيهما وحدة الأمة الإسلامية،** فإذا آمنت القيادة السياسية في عالمنا الإسلامي المعاصر بهذين الأساسين الشرعيين، ودعت إليهما، وعملت جاهدة على تحقيقهما بخطى وئيدة متزنة، وتخطيط بعيد النظرة عميق الرؤية، تبلور الأمل في إمكانية نهضة الأمة من كبوتها واجتياز فترة التخلف التي عاشتها، وفي مقدمة ذلك التخلف العلمي والتقني، والتخلف الاقتصادي والسياسي، الذي يمكن أن توظف كل الطاقات المادية والبشرية لاجتيازه وتخطيه إذا توحدت الأمة وتكاتفت إمكاناتها وطاقاتها.

2- تفشي الأمية بين نسبة كبيرة من المسلمين البالغين في هذا العصر:

تفشت الأمية بين المسلمين البالغين (أكبر من 15 سنة) في هذا العصر بصورة مزعجة تتراوح نسبتها بين 50% و80% (بمتوسط حوالي 58%)، بينما تقل نسبة الأمية عن 2% في دول الشمال، ولا تتعدى هذه النسبة 45% في المتوسط في دول العالم الثالث بصفة عامة. وهذا يعني بوضوح أن أعلى نسبة للأمية بين البالغين في عالم اليوم هي في الدول الإسلامية المعاصرة، وذلك على الرغم من أن القرآن الكريم نزلت أولى آياته أمرًا بالقراءة والكتابة، وتعظيمًا لأدواتهما، وفي ذلك يأمر ربنا - تبارك وتعالى - خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ومن بعده كل المؤمنين فيقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: 1 - 5).

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم يعظم العلم والعلماء في آيات كثيرة منه، وذلك من مثل قول ربنا - سبحانه وتعالى -:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: 9).

وعلى الرغم من تكريم الله - تعالى - لأولي العلم بقوله العزيز:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة: 11).

وعلى الرغم من أن رسول الله ﷺ كان يفدي الأسير من أسرى بدر بتعليمه القراءة والكتابة لعشرة من المسلمين.

وعلى الرغم من أن المسلمين كانوا قد نجحوا في إقامة أجهزة تربوية كاملة منذ بعثة المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - حتى لم يكد يطلع القرن الهجري الثاني إلا وكان ذلك الجهاز التربوي الإسلامي قد انتشر في جميع أجزاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف (والممتدة من بخارى وسمرقند شرقًا إلى الأندلس غربًا)، ابتداءً من الكتاتيب إلى كل من المدارس، والمساجد، وحلقات العلم ودوره، وبيوت الحكمة، والجامعات (من مثل الزيتونة والقرويين والأزهر الشريف) وقد كانت أول نماذج للجامعات، عرفتها البشرية.

ولقد بلغ من اهتمام المسلمين بالتربية والتعليم أنهم كانوا يوقفون الضياع والعقارات لصرف ريعها على أهل العلم وطلابه، وكانوا يعتبرون ذلك من الأعمال التعبدية، وهكذا أنفقت أوقاف المسلمين على العديد من المؤسسات التعليمية الإسلامية من أمثال جامعات الزيتونة، والقرويين، والأزهر الشريف، لقرابة ألف سنة أو يزيد.

وعلى الرغم من هذا التاريخ الإسلامي المجيد في محاربة الجهل والقضاء على الأمية بنوعيها: أمية القراءة والكتابة وأمية العقيدة، فإننا نجد أحفاد عظماء المسلمين الذين كانوا هداة مهتدين، ومستخلفين في الأرض ناجحين، نراهم اليوم يتراجعون عن دورهم القيادي في الحياة، ويتوارون عن مسئولياتهم الكبيرة في حمل آخر الرسالات السماوية وأتمها وأكملها إلى البشرية كافة، ويتهاوون في ظلمات الجهل وإهمال التعلم حتى يصل متوسط نسبة الأمية بينهم إلى هذا الحد المفزع المخيف.

وأمة هذا واقعها بالنسبة لأبسط متطلبات المعرفة الإنسانية، لا يمكن لها أن تحرز تقدمًا في أي مجال، ناهيك عن مجال العلوم والتقنية الذي يحتاج عقولًا مستنيرة، ونفوسًا صابرة، وحواسّ مستوعبة، وذاكرة حاضرة، وتدريبًا متواصلًا، وعملًا دءوبًا، وتضحيات كثيرة، من أجل تهيئة الكوادر القادرة على إحداث نهضة علمية وتقنية صحيحة.

وينقسم العالم الإسلامي المعاصر من حيث انتشار الأمية بين أبنائه البالغين إلى مجموعات ثلاث كما يلي:



(أ) **دول تزيد فيها نسبة الأمية على 80%**: وتشمل كلًّا من بوركينا فاسو، ومالي، وموريتانيا، وأفغانستان.

(ب) **دول تتراوح فيها نسبة الأمية بين 50% و80%**: وتشمل كلًّا من الجزائر، الكاميرون، مصر، ليبيا، المغرب، تونس، قطر، السعودية، بنجلاديش، إيران، باكستان، سوريا، واليمن.

(جـ) **دول تبلغ فيها نسبة الأمية أقل من 50%**: وتشمل كلًّا من البحرين، بروناي، إندونيسيا، الأردن، الكويت، لبنان، ماليزيا، جزر المالديف، تركيا، ودولة الإمارات العربية المتحدة.

ومن مؤشرات الخطر أن **نسبة طلاب المدارس** (بين عمر خمسة أعوام وتسعة عشر عامًا) **لا تتعدى** 37% من مجموع تعداد السكان في العالم الإسلامي المعاصر، بينما تتخطى هذه النسبة 75% **في دول الشمال، وتصل إلى 48% في دول العالم الثالث بصفة عامة**. ولا بد من تغيير هذا الواقع المحزن للعالم الإسلامي المعاصر، وبأسرع وقت ممكن قبل التفكير في تحقيق أي قدر من التقدم العلمي والتقني، فلا يمكن أن يتم ذلك في مجتمع تتفشى فيه الأمية؛ لأن عالم اليوم لا بد وأن يكون على حد أدنى من الثقافة والتدريب يمكنانه من تداول أجهزة التقنية الحديثة، فضلًا عن فهمها والعمل على تطويرها.

من هنا كان لزامًا على القيادات السياسية والفكرية في العالم الإسلامي المعاصر، أن يبادروا بوضع خطة زمنية محددة – ولتكن عشر سنوات – تكثف فيها الجهود من أجل القضاء على الأمية، قبل أو مع التفكير في وضع خطة للتقدم العلمي والتقني.

ومن هنا أيضًا أرى لزامًا على الأمة أن تطالب بحقها في الحرية وفي الكرامة الإنسانية، وأن تقف وقفة رجل واحد لتغيير نظم الحكم الشمولية الاستبدادية التي أذلت الشعوب، وكبلت الحريات، وملأت السجون والمعتقلات بأهل الرأي والعلم والفكر والصلاح، وفرضت على المسلمين نظمًا وضعية مخالفة كل المخالفة لشرع الله المنزل على خاتم أنبيائه ورسله؛ إرضاءً للضغوط الدولية، ومحافظة على كراسي الحكم. وقد آن للمسلمين أن يدركوا حقيقة أن الاستبداد السياسي في عالمنا الإسلامي المعاصر هو من صناعة ورسم أعداء الأمة وتخطيطهم الشيطاني

المعادي لها، وهو من أبرز أسباب تخلف الأمة في كل مجال، وفي مجال التقدم العلمي والتقني بصفة خاصة، (إن لم يكن أبرزها على الإطلاق). وإذا لم يعمل دعاة الإصلاح في الأمة على إقامة أوضاع حكم شرعية، وإيجاد تيار عام يرفض الظلم والاستعباد، كما يرفض الوصاية على الشعوب، فلا أمل في أي إصلاح أو تقدم علمي أو تقني منشود.

3 - إهمال دراسات العلوم والتقنية في العالم الإسلامي المعاصر:

في كثير من دول العالم الإسلامي المعاصر أهملت الدراسات العلمية والتقنية بصفة عامة؛ إما بسبب كثرة ما تحتاجه من تجهيزات ومختبرات وأجهزة ومعدات، وما وصلت إليه تكلفة ذلك في هذه الأيام من مبالغات، في ظل تفشي الفقر في غالبية الدول المسلمة؛ وإما بسبب انطلاق البحث العلمي عند غير المسلمين من منطلقات مادية بحتة تنكر أو تتجاهل كل ما وراء المادة، بينما الإيمان بالغيب يشكل لب العقيدة الإسلامية، أو للسببين معًا.

وبإهمال هذه الدراسات ندرت الخبرات العلمية والتقنية في العالم الإسلامي المعاصر، وبندرتها تخلفت أمتنا عن ركب التطور العلمي والتقني.

وتبلغ نسبة العلماء والتقنيين إلى مجموعة تعداد السكان في الدول الإسلامية رقمًا لا يذكر إذا قورن بنسبتهم في الدول الصناعية، إذ تتراوح بين **عشرين في المليون** (بنجلاديش) **ومائة في المليون في متوسط الدول النامية، ومائة وتسعين في المليون** (مصر)، **بينما تتراوح بين 4300 في المليون** (الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية)، و **8200 في المليون** (الكتلة الشرقية المكونة من كل من الاتحاد السوفيتي السابق ودول أوروبا الشرقية والصين).

ومعنى ذلك أن نسبة العلماء والتقنيين في الولايات المتحدة الأمريكية تصل إلى أكثر من عشرين ضعف ذلك في دولة إسلامية كبيرة مثل مصر، وهي من أغنى الدول الإسلامية وفرةً في عدد العلماء والتقنيين، يليها كل من تركيا وباكستان وإيران.

وفي الوقت الذي **تنفق فيه الدول الكبرى ما بين 2%، 4%** من إجمالي ناتجها القومي على عمليات توظيف البحث العلمي من أجل التنمية، فإننا نجد إنفاق الدول الإسلامية (في زمرة الدول النامية) **لا يتعدى 0.3%**، على ضخامة الدخول القومية في الدول الكبرى وضآلتها في الدول النامية. وعلى ذلك فإن **مجموع إنفاق الدول**

النامية لا يمثل أكثر من 1.6% من مجموع إنفاق دول العالم على عمليات البحث العلمي وتوظيفه في كل من تطوير العلوم والتقنية و عملية التنمية.

4- **قيام مختلف المؤسسات العلمية والتقنية في دول العالم الإسلامي المعاصر على أنماط مستوردة**، وهذه الأنماط الغربية المستوردة لا تنبع من عقيدة الأمة وتراثها، ولا من حاجات أفرادها ومجتمعاتها، مما أدى إلى غرابة هذه المؤسسات في بيئاتها، وغرابة خريجيها، كما أدى إلى العديد من الحواجز الاجتماعية التي حالت بين هذه المؤسسات وبين تحديد أهداف واضحة لها، ورسم خطط محددة لعملها، وحالت كذلك دون قيام خريجيها بواجباتهم كاملة في مجتمعاتهم. فعلى الرغم من وصول عدد الجامعات في دول العالم الإسلامي المعاصر إلى أكثر من **500 جامعة، بالإضافة إلى 1500 معهد علمي عالٍ، وحوالي 2000 مركز من مراكز البحوث**، فإن هذه جميعها مع هيئات تدريسها وخريجيها لم تتمكن بعد من تحقيق نهضة علمية وتقنية حقيقية تعين على جبر الهوة الكبيرة بيننا وبين الدول المتقدمة في ذلك المجال.

هذا وقد بلغ عدد الطلاب المسجلين في الجامعات والمعاهد العليا بدول العالم الإسلامي أكثر من عشرة ملايين طالب، أي بما يعادل 1500 طالب من كل مائة ألف مواطن تقريبًا، بينما تبلغ هذه النسبة حوالي ثلاثة أضعاف ذلك في الدول النامية، وعشرة أضعافه في الدول المتقدمة علميًا وتقنيًا. وهذه النسب قد تضاعفت اليوم أضعافًا كثيرة، ولكن لا يزال الفارق كبيرًا بيننا وبين الدول الصناعية.

5- **استمرار اعتماد المسلمين على جامعات الغرب أو الشرق في تكوين طاقاتهم العلمية المتخصصة**، وهذا مع ما فيه من إيجابيات إلا أنه أصبح مبررًا لعدم الاعتماد على الذات لأنه يتم دون محاولات جادة لتأسيس قواعد ذاتية راسخة للبحث العلمي وتطبيقاته في العالم الإسلامي. ومع ما يؤدي إليه ذلك من تقويض للقواعد المحلية التي لم تتمكن بعد من ترسيخ جذورها، فإنه يعرض شباب المسلمين إلى حملات التغريب التي نعاني منها بمرارة شديدة اليوم. وتكفي في ذلك الإشارة إلى غربة العديد من قيادات العالم الإسلامي المعاصر – خاصة المتحكمين منهم في العمليات السياسية والإعلامية والتربوية والعلمية والإنتاجية – ومدى انسلاخهم عن التزاماتهم الإسلامية. وتجدر الإشارة هنا

إلى أن ما تنفقه الدول الإسلامية على مبعوثيها في الخارج يكفي لإقامة أكبر الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث المتخصصة في بلادهم مما قد يعينهم على اللحاق بالركب، ويدفعهم إلى مصاف الدول المتقدمة علميًّا وتقنيًّا.

6- **انعدام التخطيط والتنسيق والتعاون بين مؤسسات البحث العلمي والصناعة، وبين مختلف المؤسسات العلمية والتقنية في العالم الإسلامي المعاصر:** وقد أدى ذلك إلى تفتيت الجهود، وتكرارها في خطوط قصيرة متوازية لا تستطيع الوصول إلى الهدف، في وقت ندرك أنه من عوامل تفوق دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية في النواحي العلمية والتقنية هو اتحادها، وتحركها كتجمع بشري كبير، فوق مساحة شاسعة من الأرض، بتخطيط وتنسيق وأهداف محددة، وندرك أيضًا أن دولًا مثل ألمانيا والصين واليابان والهند قد استطاعت أن تحقق قدرًا من النجاح في اللحاق بالركب بفضل الكثافة السكانية العالية التي تتحرك ضمن إطار واحد، في تنسيق وتعاون تامين، على حين نجد العالم الإسلامي المعاصر قد تفتت، وتباعد، وتناحر على الرغم من أصالة الوشائج وعمق الصلات بين أبنائه، وقد أدى هذا التناحر إلى ذبول مؤسساتنا العلمية والتقنية، وانقسامها بانقسام الدول التي تتبعها، إلى مؤسسات تملك شيئًا من القاعدة البشرية القادرة على مسايرة العصر علميًّا وتقنيًّا ولا تملك المال اللازم لذلك، وأخرى تملك ما يفيض عن حاجتها الفعلية من أموال، ولا تملك القوى البشرية القادرة على قيام نهضة علمية وتقنية حقيقية. ليس هذا فحسب، بل إن الجامعات ومراكز البحوث في البلد الواحد تفتقر إلى شيء من التنسيق والتعاون فيما بينها حيث تعمل كل جامعة ومركز علمي ككيان مستقل لا يدري شيئًا عما يفعل الآخرون مما يؤدي إلى شيء من التكرار المخل الذي يضيع الجهد والمال والوقت دون أدنى طائل. وتتضح أهمية التنسيق والتعاون في مجال التقنيات المتقدمة من مثل الأبحاث في مجال الحواسيب العملاقة، هندسة النظم، الهندسة الوراثية، التقنية الحيوية، دراسات الخلية الحية، الهندسة الطبية، أبحاث الليزر والميزر، التقنيات الدقيقة، الموصلات فائقة السرعة، بدائل الطاقة، الأبحاث النووية، التقنيات العسكرية المتطورة وأبحاث الفضاء والتي تحتاج إلى رءوس أموال طائلة، ولا داعي للتكرار فيها على الإطلاق، بل

إن من الواجب السعي إلى شيء من التكامل في كل من الطاقات البشرية والمادية في جميع الأبحاث العلمية والتقنية، وهذه الطاقات – مع ندرتها – هي أغلى من أن تهدر هنا وهناك.

7- **عدم وجود الحوافز المادية والمعنوية الكافية للمشتغلين بالبحث العلمي والتقني في مختلف دول العالم الإسلامي المعاصر:** فعلى الرغم من إنشاء عدد من الجوائز العلمية الكبرى في العالم الإسلامي مؤخرًا مثل جائزة الملك فيصل العالمية، وجوائز الدولة التشجيعية والتقديرية في عدد من الدول المسلمة، وجوائز رؤساء الدول من مثل جائزة رئيس جمهورية السودان التقديرية، وجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم؛ فإن الحوافز في العالمين العربي والإسلامي تظل قليلة بالنسبة للمشتغلين بالبحوث العلمية والتقنية، مما صرف الناس عن هذه التخصصات، وأدى إلى هجرة كثير من العلميين لمراكزهم، واتجاههم إلى النشاطات المالية والإدارية، وذلك لأن الحياة العلمية تحتاج إلى الكثير من المجاهدة والصبر والنزاهة والموضوعية، وليس كل الناس قادرين على ذلك، فإذا لم يُولَ العلماء ما يستحقون من التكريم انصرفوا عن العلم.

ومن المؤسف حقًّا أن الكثير من الحوافز التي خصصت للعلماء والتقنيين في عالمنا الإسلامي المعاصر قد شابها كثير من عدم الموضوعية والحيدة بما خرج بها عن غاياتها الصحيحة. وأغلب هذه الحوافز وأعلاها قيمة مادية قد وجه إما لغير المسلمين بجعلها جوائز عالمية، أي: غير مقصورة على العالم الإسلامي ومنظموها يعلمون تمام العلم تخلف بلادهم في هذه المجالات فيحصد الجوائز سنويًّا علماء من غير بلاد المسلمين، وفي بعض الحالات وجهت هذه الحوافز إلى وجهات محلية ضيقة تركز العصبيات الإقليمية الضيقة وتزيدها تركيزًا فتفقدها الغاية من إنشائها. ولو خصصت هذه الحوافز للعالم الإسلامي على اتساعه لكانت إحدى عوامل التوحيد بين أبنائه، وإحدى وسائل التشجيع على البحث العلمي والتقني في عالم يحتاج إلى ذلك أشد ما تكون الحاجة.

8- **عدم توافر وسائل البحث العلمي والتقني من الأجهزة والمواد والمعدات والقوى الفنية المساندة، والخدمات المكتبية والتوثيقية والمعلوماتية المتطورة في كثير من دول العالم الإسلامي المعاصر:** وقد أدى ذلك إلى

تخلف البحوث العلمية والتقنية في غالبية الدول الإسلامية المعاصرة على الرغم من وجود أعداد من العقول النابهة القادرة على العطاء، والتي لم يقف دون تحقيق الأهداف المرجوة منها إلا عدم توافر وسائل البحث العلمي. وقد شجع العجز في هذه الناحية على هجرة أعداد كبيرة من العلماء والفنيين إلى خارج حدود العالم الإسلامي. وهذا في حد ذاته يمثل استنزافًا لأهم طاقات المسلمين لأن هجرة العناصر البشرية المثقفة، والمدربة تدريبًا علميًّا وتقنيًّا عاليًا، وتسربها المستمر إلى الخارج كان من أسباب تخلف الأمة. والنزف المتواصل بهجرة العلماء المسلمين الذين أتموا دراساتهم العليا في أوطانهم إلى الدول الغنية أو بامتناع الذين ابتعثوا لإتمام دراساتهم العليا بالخارج عن العودة إلى أرض الوطن بعد قضاء فترة الدراسة أو التدريب بالخارج يشكل إهدارًا للكفاءات العقلية، وللخبرات العلمية والفنية العالية ولأصحاب المهارات الدقيقة الذين أنفقت المجتمعات النامية على المراحل الأولى من تعليمهم وتدريبهم من ميزانياتها الضئيلة، ثم فقدتهم في وقت هي أحوج ما تكون لعطائهم في عملية التنمية الشاملة لمجتمعاتهم.

وهذا النزيف من الكفاءات البشرية يشكل خطورة كبيرة على المجتمعات النامية بصفة عامة، وعلى المجتمعات الإسلامية منها بصفة خاصة في الحاضر والمستقبل. وتكفي في ذلك الإشارة إلى **ما نشرته جريدة «لوموند ديبلوماتيك» الفرنسية منذ عدة سنوات في مقال تذكر فيه أنه منذ بداية الستينيات وحتى منتصف السبعينيات من القرن الميلادي العشرين فقدت البلدان النامية قرابة الأربعمائة ألف متخصص رحلوا إلى ثلاث من الدول الصناعية الكبرى** (الولايات المتحدة، كندا، بريطانيا)، وهذا الرقم يمثل تحفظًا شديدًا في تقدير معدلات الهجرة إلى العالم الغربي لأن بعض البلدان الصناعية الكبرى مثل ألمانيا وفرنسا والدول الإسكندنافية وأستراليا ونيوزيلندة – وهي من أكبر الدول المستقبلة للعقول المهاجرة – لم تدرج في تلك الإحصائية، كما أن دولًا مثل إيطاليا وإسبانيا واليونان لم تذكر في تلك الإحصائية كذلك.

وتبلغ نسبة الكفاءات المهاجرة من دول العالم الثالث إلى مجموع العقول المهاجرة إلى الولايات المتحدة حوالي 70-80% حسب تقدير مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية، الذي أشار إلى أن 50-70% من خريجي كليات الطب في باكستان يهاجرون سنويًّا إلى العالم الغربي. ويقدر هذا التقرير **أن العقول المهاجرة من دول العالم الثالث**



إلى البلدان الثلاثة الكبرى المستفيدة من هجرة العقول (الولايات المتحدة، كندا، وبريطانيا) في الفترة بين عامي 1971، 1972م تمثل خسارة للدول النامية تساوي اثنين وأربعين مليارًا من الدولارات، كما أنها تمثل وفرًا للولايات المتحدة من الإنفاق على التعليم يقدر بحوالي 1.8 مليارًا من الدولارات. وهذه التقديرات القديمة قد تضاعفت اليوم أضعافًا كثيرة فقد كانت لي زيارة إلى كندا في صيف سنة 2004م، وأذهلني عدد الأساتذة والباحثين من مختلف دول العالم الإسلامي في مختلف التخصصات خاصة في الطب والهندسة والعلوم، وبقدر ما أسعدني ما وصلوا إليه من مراكز مرموقة أحزنني حاجة عالمنا الإسلامي الملحة إلى أمثالهم وأمثال تخصصاتهم النادرة.

ومع استمرار هجرة الكفاءات العلمية والتقنية من دول العالم الإسلامي فإن الفجوة التي تفصلنا (في زمرة الدول المتخلفة والنامية) عن الدول الصناعية تزداد اتساعًا وعمقًا في كل يوم، فتزيد الدول المتخلفة تخلفًا، وتجعل محاولات التنمية فيها أكثر صعوبة، وتزعزع معنويات العلماء والتقنيين العاملين بها، وتزيدهم شعورًا بالإحباط واليأس من إمكانية تحقيق اللحاق بالركب.

9 - اعتماد الجامعات والمعاهد الفنية ومراكز البحوث في كثير من دول العالم الإسلامي المعاصر على أعداد كبيرة من الأساتذة والفنيين الأجانب:
وبالإضافة إلى ما يؤدي إليه ذلك من أخطار تزايد أعداد العاطلين من المؤهلين المسلمين، والانعكاسات الاقتصادية والنفسية لذلك – فإن الأساتذة والفنيين الأجانب يفتقرون – في أغلب الأحيان – إلى الإخلاص المطلوب، والحماس اللازم، والقدرات الضرورية، خاصة وأن غالبيتهم يَأْتُون إلى الدول الإسلامية أساسًا لأغراض تجسسية، أو تنصيرية، أو سياسية. ومن أهداف هؤلاء تقييد عملية التقدم العلمي والتقني في العالم الإسلامي، والتحكم في مسارها لتبقى في أضيق النطق وأبسطها. هذا بالإضافة إلى أنهم يخططون بدهاء شديد من أجل تبديد ثروات المسلمين في مشاريع براقة ليس لها من المردود الحقيقي إلا ما هو لهم ولدولهم فقط، وذلك لأن الدول الصناعية الكبرى مصممة على فرض هيمنتها على كل من الدول النامية والمتخلفة – بصفة عامة – وعلى الدول الإسلامية – بصفة خاصة – مما يحول دون الأخذ بيد تلك الدول للحاق بركب التقدم العلمي والتقني.

10 - **عملية تمييز الأجانب على كل من المواطنين والوافدين من العرب والمسلمين في جامعات ومعاهد ومراكز بحوث بعض دول العالم الإسلامي المعاصر،** ويتم هذا التمييز على المستويين المادي والمعنوي بصورة فجة، وغير إنسانية، وغير إسلامية، مما يفقد المسلمين حماسهم للبحث العلمي والتقني، ويطفئ فيهم جذوة الشعور بالأخوة الإسلامية والمصير الواحد، ويملؤهم بالشعور بالظلم، والمظلوم لا يمكنه الإبداع أبدًا.

11 - **تسليم المراكز القيادية في معظم جامعات العالم الإسلامي ومعاهده ومراكز بحوثه إلى أقل الناس تأهلًا لحمل أمانة المسئولية والقيام بتبعاتها،** وذلك انطلاقًا من العصبيات العرقية أو المذهبية الضيقة، أو التكتلات الحزبية أو القبلية الجاهلة تحت الشعار الخاطئ الذي ينادي بالولاء قبل الكفاءة، والولاء في هذه ليس لله ورسوله ولا للوطن والأهل. ومن الثابت أن الأمر إذا وُسِّدَ إلى غير أهله فإن في ذلك تضييعًا للأمانة، ولا يمكن لأمة ضيعت الأمانة أن تحقق أي قدر من التقدم في أي مجال فضلًا عن مجال العلوم والتقنية.

12 - **اعتماد الدول الإسلامية على الاستيراد أساسًا من الدول الأخرى بدلًا من التكامل فيما بينها،** وقد أدى ذلك إلى خنق كثير من النشاطات الصناعية والزراعية في العالم الإسلامي، وإلى استنزاف أموال المسلمين، واستغلالهم وإرباك اقتصادياتهم، وابتزازهم، وفرض السيطرة عليهم من قبل الدول الكبرى وتكتلاتها الصناعية والزراعية والتجارية المختلفة. وتجدر في ذلك الإشارة إلى **أن حجم التبادل التجاري بين الدول الإسلامية لا يمثل أكثر من 1% من تجاراتها الدولية!! وأن هناك بضاعة خاصة وأسعارًا خاصة تفرض على واردات العالم الإسلامي بصفة عامة. وإذا علمنا أن ما تدفعه الدول الإسلامية سنويًّا في الاستيراد يكفي لإقامة أكبر الصناعات، ولدعم أضخم المشروعات الزراعية والإنتاجية التي يمكن أن تسد** حاجة المسلمين كافة، وتغنيهم عن تحكم التكتلات العالمية المستغلة فيهم؛ وإذا أدركنا ذلك علمنا مدى الخسارة الناتجة عن فتح أبوابنا للاستيراد بلا حدود، وعدم الاعتماد على إمكاناتنا الذاتية مهما كانت محدودة. وتكفي هنا الإشارة إلى المبالغ التي دفعت ولا تزال تدفع سنويًّا ثمنًا للأسلحة والأعتدة والأجهزة الحربية الأخرى، أو لاستيراد السيارات الفارهة والطائرات الفاخرة، أو لشراء الملابس

والأحذية والحقائب ذات الماركات العالمية، أو لمنتجات الزينة ووسائل الإعلام والترفيه المختلفة التي تدفع لها بلايين الدولارات سنويًّا في دولة واحدة من دول العالم الإسلامي.

ثانيًا: الأسباب المعنوية لتخلف مسلمي اليوم علميًّا وتقنيًّا:

ومن هذه الأسباب ما يلي:

1 - **غياب التطبيق الصحيح للإسلام** نظامًا كاملًا شاملًا للحياة: وقد أفقد هذا الغياب المجتمعات الإسلامية المعاصرة دورها القيادي الذي يفرض عليها ضرورة السبق في كل اتجاه نافع – وفي مقدمة ذلك مجال العلوم والتقنية – وأدى إلى تخلفها، وأضاف مزيدًا إلى تفتيتها وتشتيت إمكاناتها، بسبب اتباع كل دولة ودويلة منها لمذهبية خاصة بها. وقد تأرجحت هذه المذهبيات من الشيوعية القهرية المذلة إلى الرأسمالية المخادعة المستغلة، وما بين ذلك، كما أدى العديد من الانقلابات العسكرية والانقلابات المضادة إلى إنهاك قدرات الأمة، كما أدت الانتخابات المزورة، والديموقراطيات المشوهة الكاذبة، والحكومات الدكتاتورية المستبدة المستغلة التي لا تنكشف مخازيها ومفاسدها، وسرقاتها ونهبها لثروات البلاد، وقهرها وإذلالها للعباد إلا بعد سقوطها أو بعد اختلاف اللصوص فيما بينهم فيكشفون المستور من مخازيهم، أدى كل ذلك إلى المزيد من تقهقر المسلمين المعاصرين تقهقرًا مخلًّا بمجتمعاتهم عن مستوى العصر خاصة في مجال العلوم البحتة والتطبيقية.

2 - **غياب الفهم الصحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة عند الكثيرين ممن يملكون تسيير دفة الأمور اليوم في العالم الإسلامي:** والمسلم إذا فقد الفهم الصحيح لرسالته في هذه الحياة: عبدًا لله – تعالى – يعبده بما أمر، ومستخلفًا في هذه الأرض يجتهد قدر الطاقة من أجل عمارتها وإقامة شرع الله وعدله عليها، فإنه إما أن ينشغل بذاته فيعبدها من دون الله، وإما أن ينشغل بالدنيا فتستهلكه إلى أجله دون أن يحقق شيئًا لآخرته، وكلتا الحالتين خسران مبين للإنسان في الدنيا والآخرة.

3 - **غياب الشعور بالمعنى الحقيقي للأخوة الإسلامية وواجباتها:** وفي غيابه برزت مختلف النعرات العرقية والمذهبية، والاعتقادية والعصبيات القبلية

والإقليمية والسياسية الضيقة التي ساعدت على المزيد من تفتيت الأمة الإسلامية، وعلى تشتيت مختلف طاقاتها. ومن صور ذلك ما نراه اليوم من تناحر الأشقاء، وتنافرهم واقتتالهم، واستعدائهم للآخرين ضد إخوانهم، ودورانهم في أفلاك غيرهم. وليست الحرب الإيرانية/العراقية ببعيدة عن الأذهان، تلك الحرب التي استمرت لأكثر من ثماني سنوات، واستنزفت الأموال والطاقات، وأراقت الدماء، وأزهقت الأرواح، وأفنت آلاف المقاتلين الأشداء، والمدنيين الأبرياء، ودمرت اقتصاد بلدين مسلمين متجاورين تدميرًا كاملًا.

ومن صوره أيضًا إغراء العراق بغزو الكويت بتدبير من مخابرات الولايات المتحدة الأمريكية، هذا الغزو الذي دفع المسلم إلى الاستعانة بالكفار والمشركين على أخيه المسلم، وأعطى المبرر الكاذب للقوات الأمريكية وحلفائها إلى إعادة احتلال الكثير من الدول العربية، وإلى غزو دولتين مسلمتين هما أفغانستان والعراق بدعوى تحريرهما من حكمين أحدهما جائر والآخر وصف بأنه متخلف، والهدف الرئيس هو العودة إلى احتلال ديار المسلمين من جديد للحيلولة دون نهضتهم أو توحدهم، ولاستنزاف المزيد من ثرواتهم، وفي مقدمتها النفط والغاز، ولمحاربة الإسلام في عقر داره بكل الوسائل الممكنة وغير المشروعة.

ومن صور ذلك أيضًا ما نراه اليوم من اقتتال الإخوة في العراق وقتل المسلم لأخيه المسلم في كل يوم بالعشرات، بل بالمئات، وإغراق أرض الخلافة الإسلامية في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، وتفتيتها إلى كنتونات عرقية ومذهبية عديدة من أجل القضاء على دولة من أعرق الدول الإسلامية وأغناها، وأكثرها إمكانات مادية، وذلك من أجل تنفيذ المخطط الصهيوني/الصليبي الحاقد الذي يسعى لتفتيت العالمين العربي والإسلامي إلى عدد من الكنتونات الصغيرة التي يسهل التحكم فيها، وحتى تصبح القوة الغالبة الضاربة في المنطقة هي للكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين والذي غرسته القوى الاستعمارية في المنطقة من قبل أكثر من نصف قرن من أجل تنفيذ هذا المخطط الشيطاني انتقامًا من هزيمتهم في الحروب الصليبية.

ومن صور ذلك ترك المسلمين في قطاع غزة محاصرين أرضًا وجوًّا وبحرًا من قبل قوات العدو الصهيوني حتى يموتوا جوعًا وعطشًا ومرضًا، ثم تركهم يبادون بالأسلحة المحرمة دوليًّا لمدة ثلاثة أسابيع متواصلة في حرب شرسة غير متكافئة لمجرد تململهم من هذا الحصار الجائر، والمسلمون من حولهم يتفرجون بل



يتعاونون في إحكام حصار الأعداء لهم بإغلاق كل المعابر من حولهم، والحيلولة دون وصول الطعام أو الدواء أو المال والسلاح إليهم!!

ومن صور ذلك أيضًا أن **بعض الجامعات الغنية في العالم الإسلامي المعاصر تؤثر البذخ، والإسراف المخل على مد يد العون لأخواتها اللواتي يكافحن من أجل البقاء، بل قد تؤثر جامعات الغرب والشرق عليهن في ذلك**، وكثير من جامعات العالم الإسلامي من حواليهم تحتضر أو تكاد من أجل فتات ما يقدمونه للعالم الغربي من هبات ومعونات تقدر بمئات الملايين من الدولارات في كل عام.

4- **الصراع الشديد بين دعاة التغريب ودعاة التأصيل في العالم الإسلامي المعاصر:** وقد أفقد ذلك مراكز العلم ومعاهده وحدة الهدف والغاية والوسيلة، خاصة وقد كان هدف الاستعمار العسكري الذي تعرضت له غالبية الدول الإسلامية هو **إقصاء الإسلام عن جميع مراكز اتخاذ القرار، وتقديم الجهلة الوصوليين المتسلقين طلاب الدنيا على أهل الدين والعلم والوفاء لله وللوطن، مما مكن دعاة التغريب من الهيمنة على كل من سدة الحكم، ووسائل الإعلام، ومراكز اتخاذ القرار على مختلف مستوياته، وجعل محاربة كل صوت إسلامي مخلص وكبته ومطاردته في المجتمع المسلم أمرًا مشروعًا بحد قوانين الطوارئ وسيف البطش، وشريعة التسلط والاستبداد.**

وقد أدى ذلك إلى العديد من الانفصام في شخصية الأولاد والبنات الذين ينشأون وسط هذه المتناقضات الشديدة، فمنهم من يتربى على الجبن والخوف وضعف الشخصية والاضطراب في التفكير، ومنهم من ينشأ على العنف والرغبة في الانتقام وحب التغيير بالقوة، ومنهم من ينشأ على عدم الاكتراث بما حوله، ويأخذ بالسلبية، أو الميوعة والفوضى والدلال الذي يفسد من فطرتهم السوية، ويقتل مفاهيم الاستقامة عندهم. ومنهم من ينشأ بسوء فهم للدين، أو بتحرر من جميع ضوابطه وأوامره وهدايته؛ **مما انتهى بجيل الأمة المعاصر إلى جيل - في غالبيته - مضطرب التفكير، ضعيف الإرادة، متحلل الأخلاق، عاجز عن الإبداع في قطاع كبير منه. وليس انتشار العديد من المفاهيم المنحرفة كالبهائية، والقاديانية، وشهود يهوه، وعبدة الشيطان، وغيرها في بلد الأزهر الشريف إلا صورة مصغرة لواقع الأمة الحزين.**

5 - **الشعور الداخلي عند كثير من المسلمين المعاصرين (قيادة وأفرادا) بالانهزام والتخلف والضعف أمام التكتلات العالمية الكبرى؛** وقد أدى ذلك بغالبية أبناء الأمة الإسلامية إلى الشعور بالعجز عن الوصول إلى أي صورة من صور التقدم العلمي أو التقني أو الاقتصادي أو الإداري أو الإعلامي إلا بمساعدة هذه التكتلات العالمية، وعن طريق الاستجداء منها، وذلك على الرغم من وضوح مخططات هذه التكتلات لإبقاء دول العالم الثالث على ما هي عليه من فقر وتخلف وتشتت، وتشرذم، وانقسام حتى يسهل قيادها، ويهون استغلال ثرواتها بأبخس الأسعار، وبيع فائض إنتاج الدول الصناعية عليها بأفحش الأسعار وأعلى صور الربا على الديون، حتى ولو أدى ذلك إلى تضور أكثر من نصف سكان الأرض جوعًا، ومرضًا، وجهلًا، وفقرًا، وتخلفًا، وإلى معاناتهم أشد المعاناة من خداع الدول الغنية ومؤامراتها الشيطانية الماكرة.

6 - **وجود هوة سحيقة تفصل بين قلة من المثقفين وقطاع كبير من الأميين وأشباه المتعلمين من مسلمي اليوم؛** مما يؤدي إلى تثبيط للهمم، وإعاقة لعجلة التقدم، وتصدع في جسد الأمة، خاصة أن معظم هذه القلة المثقفة لا يرون أن من الواجب عليهم العمل على إخراج الأميين من أميتهم، والكثرة الأمية لا ترى للتقدم العلمي والتقني سبيلًا، وذلك لأن أيًّا منهم لم يفهم حقيقة رسالته في الحياة. وإذا أضفنا إلى ذلك ندرة القدوات الإصلاحية القادرة على إعادة بعث الأمة من جديد؛ تكاثرت الأسباب المؤدية إلى عدم استقرار عملية التقدم العلمي والتقني بين مسلمي اليوم.

7 - **غياب البيئة الصالحة للتقدم العلمي والتقني في ظل الاستبداد السياسي الذي يسود معظم دول العالم الإسلامي المعاصر؛** فالتقدم - بصفة عامة - والتقدم العلمي والتقني - بصفة خاصة - يحتاج إلى البيئة التي توفر للإنسان حريته، وتصون كرامته، وتحبب طلب العلم إليه، وتحثه على الاستزادة من المعرفة، وتكرم العلماء وتبجل رسالتهم، وتعمل على توفير أسباب العيش الكريم لهم، وتقاوم الجهل وتسعى جاهدة للقضاء عليه. ولكن في ظل الاستبداد السياسي الذي يسود غالبية الدول المسلمة المعاصرة فإنه لا يرقى إلى سدة الحكم إلا طلاب الدنيا، وأصحاب الشهوات الذين لا يعنيهم إلا متعهم الشخصية ومكاسبهم المادية، ولو كان ذلك على حساب تخلف أمته، وهوانها، وإذلالها على أقدام



القوى العالمية الكبرى، ولا يهمهم إلا المحافظة على كراسي السلطة وما يجنونه من ورائها من مكاسب مادية، ثم توريثها لأبنائهم من بعدهم، ولو ضحوا من أجل ذلك بالدين والأخلاق والقيم ومستقبل الأمة.

وفي ظل هذا الاستبداد السياسي تُزَوَّرُ الانتخابات سرًّا وعلانية، وتقلب نتائجها رأسًا على عقب بحد السلطة، وتشترى الأصوات بالمال، وتباع الضمائر بأبخس الأثمان، وتضيع الأخلاق والقيم. ونتيجة لذلك كله فإنه لا يصل إلى مقامات اتخاذ القرار إلا أقل الناس قدرة على القيام بمسئوليات ذلك.

وفي ظل الاستبداد السياسي يهاجر الأشراف من أبناء الأمة وأصحاب الكفاءات العلمية والتقنية المتميزة إلى خارج حدود بلادهم بالآلاف في كل عام، ويستمر نزف العقول يفيض في موازين غيرنا من الأمم حتى يغير الله من حال إلى حال آخر.

هذه الأسباب - مجتمعة أو متفرقة - كانت من وراء تخلف المسلمين المعاصرين علميًّا وتقنيًّا، ولقد استعرضتها هنا من قبيل تشخيص الداء بحثًا عن الدواء، لا من قبيل تثبيط الهمم وإطفاء الحماس، فالأمة الإسلامية على الرغم من ذلك كله لا تزال تملك من القدرات البشرية والمادية والدينية ما يؤهلها لقيادة الإنسانية وإنقاذها من الهاوية التي تتردى فيها اليوم، خاصة أن بيدها من نور القرآن الكريم، ومن هدي خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) ما يعينها على ذلك، خاصة وأن الدول الكبرى التي زادها التقدم العلمي والتقني ثراءً ورفاهية وقوة مادية، فإن اضمحلال الوازع الديني وجفاف منابعه زادها تحللًا، وتفسخًا، وانحطاطًا وتميعًا، مما جعل مجتمعاتها تتآكل من داخلها على الرغم من إطار التقدم العلمي والتقني الذي تعيش فيه. وليس أدل على ذلك من فساد المجتمعات في الدول التي تقدمت علميًّا وتقنيًّا فسادًا كبيرًا، فقد انسلخ أفرادها من ضوابط الدين، وزادت نوازع الشر فيهم زيادة مفزعة، ومالوا إلى العنف في تصرفاتهم، وغلبت الأنانية الفردية لديهم، وزاد حب الكسب المادي العاجل عندهم.

وإنه لمن التناقض البين أن يتم ذلك كله وسط انفجار حقيقي للمعرفة، وتوسع ملحوظ في عملية التعليم، وتقدم مادي مذهل يسير جنبًا إلى جنب مع زيادة مطردة في معدلات التحلل الأخلاقي، والعنف الفردي والجماعي، وحركات الرفض المختلفة، وانتشار الإدمان على المخدرات والخمور، وتفشي الأمراض المستعصية العديدة والناتجة من الخلل في السلوك، وحركات تسيب المرأة، وتفكك الأسرة، وزعامة

الأحداث، والدعوات المعلنة إلى الشذوذ الجنسي، وتشريع الحكومات الغربية له، والسماح بزواج الأمثال ومنحهم كل الحقوق المدنية المادية والاجتماعية للمواطنين العاديين، وإعطاء هؤلاء الشواذ حق التبني وسط هذه البيئة العفنة، وتربية اللقطاء والأيتام في ظلها، وما يمكن أن ينتج عن هذه المفاسد من أجيال، وما يؤدي إليه كل ذلك من الأمراض العضوية والنفسية والاجتماعية، التي تنتهي في كثير من الأحيان إلى فقدان العقل، أو القتل العمد أو الانتحار. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «... **لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...**»[1].

ففي أكتوبر 2005م وعلى سبيل المثال لا الحصر وافق البرلمان البريطاني بأغلبية 426 صوتًا ضد 49 على إباحة الشذوذ الجنسي، وعلى الاعتراف بكامل حقوق الشواذ في المجتمع البريطاني من زواج وتَبَنٍّ وحقوق الضمان الاجتماعي والعلاج الطبي، والحماية من أن يُعَيَّر هؤلاء الشواذ بهذا الانحطاط إلى ما دون مستوى الحيوان بأي شكل من الأشكال. وقد أيد مجلس اللوردات هذا القرار الشاذ في الشهر التالي بأغلبية 251 صوتًا ضد 136، وصدقت الملكة إليزابيث (الرئيسة العليا للكنيسة الأنجليكانية) على القانون المعروف باسم **«قانون الشراكة المدنية»** الذي بدأ العمل به في بريطانيا منذ 2005/12/5 م والذي يسمح بزواج الأمثال (الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة). وبمجرد صدور القانون بدأ المئات من الشواذ البريطانيين بالتوافد على مراكز تسجيل الشراكة المدنية ليحجزوا مواعيد لتسجيل زيجاتهم الشاذة المنافية للفطرة، ومن هؤلاء الشواذ من يحملون ألقابًا تسمى ألقابًا شرفية وهم محرومون من أبسط معاني الشرف. وتشير الإحصاءات الرسمية إلى أن عدد الشواذ في بريطانيا وحدها يتعدى 3.6 مليون شخص يشكلون 6% من مجموع تعداد السكان في هذا البلد الذي يدعي التحضر والتمدن.

وكانت أيرلندة الشمالية قد شرعت لهذا القانون الشاذ في (سنة 1982 م)، وتلتها الدانمرك (سنة 1989 م)، ثم كل من السويد والنرويج وأيسلندة (1996 م)، ثم هولندة (سنة 2001 م)، وبلجيكا (سنة 2002 م)، وكندا (في يونيو سنة 2005 م)، وإسبانيا بعد ذلك بشهر واحد (في يوليو سنة 2005م) التي أضافت إلى ذلك الفحش قانونية الاحتفال بالعرس والزفاف لهؤلاء الشواذ حتى في داخل الكنائس المسيحية.

---

(1) سنن ابن ماجه، حديث رقم 4019 – كتاب الفتن.



أما الولايات المتحدة الأمريكية ففيها خمس ولايات تصرح قانونًا بزواج الشواذ منذ سنة 2002م. ولا عجب أن ينحل الشباب في وسط هذه البيئات الفاسدة، أو يقبل على إدمان المخدرات وارتكاب الجرائم أو حتى على الانتحار. وقد سجل في بريطانيا وحدها في شهر نوفمبر سنة 2005م أن قرابة مليون مراهق قد قادهم اليأس والشعور بالبؤس إلى الانتحار، وضعف هذا العدد قد حاول الانتحار ولكنه فشل في تحقيقه. ومعدلات ذلك كله لم تصل بعد في أي بلد من البلاد النامية إلى ما وصلته في المجتمعات المتقدمة علميًّا وتقنيًّا واقتصاديًّا، على الرغم من فقر البلاد النامية في جميع مستلزمات الحياة، ووفرة الغذاء والكساء والخدمات الصحية والاجتماعية، والرعاية الحكومية للأفراد والجماعات في البلاد الصناعية، مما يؤكد على أن الإنسان ليس مادة فقط ولكن الجانب النفسي فيه لا يقل أهمية عن الجانب المادي، وإذا لم تراع المجتمعات الإنسانية الجانبين معًا فلا يمكن للإنسان أن يستقيم، ولا يمكن لمجتمعاته أن تنمو نموًّا متوازنًا. والمجتمعات المتقدمة علميًّا وتقنيًّا قد وفرت للأفراد فيها كل متطلباتهم المادية ولكنها أهملت جوانب الدين، بينما المجتمعات المسلمة قد تخلفت علميًّا وتقنيًّا ولكن بقي بين أيدي أبنائها من نور الهداية الربانية ما يصلح الإنسان بمختلف أبعاده، وما أحوج العالم اليوم إلى التكامل بين الدين والدنيا في معادلة واحدة.

مقومات التقدم العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

مما سبق يتضح أن مقومات أي تقدم إنساني هو الإنسان ذاته، ولما كان الإنسان اتزانًا دقيقًا بين مادة ونفس وجب أن يكون التقدم الإنساني شاملًا لهذين الجانبين فيه، وإلا أصبح تقدمًا أعرجَ إذا سار في اتجاه واحد دون الآخر.

ولما كان الجانب المادي في الإنسان خاضعًا للمنهج العلمي التجريبي - على حين أن النفس فيه هي نفخة الروح من أمر الله - كان الإنسان في حاجة إلى الوحي السماوي المنزل من الله - تعالى - حاجته إلى العلوم التجريبية وتطبيقاتها وإلى مختلف مجالات التقنية وحسن توظيف ذلك كله في خدمة قضية التنمية كي يستطيع

تدبير قوته وأقوات من يعول، ويتمكن من القيام برسالته في هذه الحياة على الوجه الذي يرتضيه الله.

والروح إذا تلبست بالبدن صارت نفسًا، وعلى أساس من فهم صاحب تلك النفس وسلوكه إما أن تبقى هذه النفس **نفسًا زكية، أو نفسًا مطمئنة، أو نفسًا لوامة،** أو أن تتحول إلى **نفس أمارة بالسوء.** ويتم هذا التحول بناءً على الالتزام بمنهج الله – تعالى – أو على قدر الخروج عنه.

ولما كان الإسلام – متكاملًا في رسالة سيدنا محمد ﷺ – هو آخر الرسالات السماوية وأتمها وأكملها، فقد أُنْزِل للناس كافة، ومن ثم تعهد الله – تعالى – بحفظ رسالته الخاتمة فحفظت على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية في نفس لغة وحيها (اللغة العربية)، وتعهد ربنا – تبارك وتعالى – بهذا الحفظ إلى ما شاء الله حتى وتكون هذه الرسالة الخاتمة شاهدة على الناس كافة إلى قيام الساعة، في حين ضُيِّعت الرسالات السابقة كلها، وكانت قد أنزلت كل رسالة منها إلى قوم محددين نظرًا لصعوبة المواصلات والاتصالات في تلك الأزمنة القديمة، وكانت كل رسالة من تلك الرسالات قد وكل حِفْظُها لأصحابها فلم يقوموا بذلك، ولذلك تعرضت كلها للضياع التام، وما بقي من ذكريات عن آحاد منها ظل ينقل شفاهًا من الآباء إلى الأبناء، ومن الأجداد إلى الأحفاد، وظل يتعرض للإضافة والحذف، وللتبديل والتغيير، وللتحريف والتزوير. وحين تقرر تدوين هذا التراث الشعبي تم ذلك بأقلام متفرقة، وفي أزمنة متباعدة، وفي أماكن متعددة، وبلغات غير لغات الوحي، وبأيدي أناس ليسوا برسل ولا أنبياء فزادوا ذلك التراث الشعبي تبديلًا وتحريفًا، وتغييرًا وتزويرًا. وحين تقرر جمع هذا التراث تم ذلك أيضًا بأيدي مجهولين، وبعد نزول الوحي بأصولها بالعديد من القرون فجاءت صورتها الراهنة أبعد ما تكون عن الأصول التي أوحيت بها، ومن هنا أصبحت عاجزة عن هداية أتباعها.

وانطلاقًا من ذلك فإن أول مقومات التقدم لأمة الإسلام – ومن وسائله التقدم العلمي والتقني – هو الإسلام ذاته. ولو أن المسئولين من المسلمين وعوا هذه الحقيقة حق وعيها ما وجدنا أنفسنا – نحن معشر المسلمين – فجأة، وعلى مدى فترة لا تتجاوز القرن من الزمن، فى مؤخرة الأمم علميًا وتقنيًا، بعد أن بقينا لقرون طويلة رواد التقدم العلمي والتقني والحضاري وحاملي اللواء في كل منحى من مناحي الحياة.



هذا من ناحية **التقدم المعنوي** ومقوماته، أما من ناحية **التقدم المادي** ودعائمه فإن الإسلام يقرر أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده؛ ولذلك فإنه يعتبر المحافظة عليها، وحسن استثمار ثرواتها، وصون بيئاتها فرضًا واجبًا على كل إنسان.

والإسلام فوق ذلك كله يعتبر الأخوة الإنسانية من حقائقه الرئيسة وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: 1).

وقال – عز من قائل –: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: 98).

ويقول المصطفى ﷺ: «**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»[1].

وعليه، فإن الإسلام العظيم يعتبر الأخوة الإنسانية من أسس الوجود في هذه الدنيا.. ولكن في ظل التكتلات العسكرية والسياسية والفكرية والعقائدية المعاصرة فإننا لا نجد مناصًا لنا من التحدث عن العالم الإسلامي ككتلة واحدة حباها الله – تعالى – بنصيب وافر من الثروات التي يمكن إيجازها فيما يلي:

أولًا - مقومات بشرية كبيرة:

يفوق تعداد المسلمين اليوم **ألفًا وخمسمائة مليون نسمة** تتوزع في أكثر من اثنتين وستين دولة ودويلة، بالإضافة إلى أعداد متباينة من الأقليات في جميع دول العالم يصل بعضها إلى عشرات الملايين كما هو الحال في كل من الهند والصين.

ويمثل هذا التعداد قرابة **ربع سكان الأرض**، ويضم ملايين العلماء والمهندسين والأطباء والمتخصصين في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية، كما يضم الملايين من الفنيين، وسائر الحرفيين والأدباء والمفكرين، والمقاتلين الأشداء. وعلى الرغم

(1) مسند أحمد – حديث رقم 23381.

من تفشي الأمية في قطاع كبير ممن هم بين ظهراني هؤلاء المثقفين، وعلى الرغم من ضآلة نسبة العلماء والتقنيين منهم إلى تعداد الأمة إذا قورنوا بأمثالهم في تجمعات بشرية أخرى، **فإن المسلمين يمثلون اليوم أكبر تجمع بشري على وجه الأرض تربطه عقيدة واحدة، وهي العقيدة التي يرتضيها ربنا - تبارك وتعالى - من عباده، ولا يرتضي منهم عقيدة سواها.**

ثانيًا - مساحات أرضية شاسعة:

تبلغ مساحة الدول المكونة للعالم الإسلامي المعاصر أكثر من أربعين مليونًا من الكيلومترات المربعة، ويمثل ذلك أكثر من ربع مساحة اليابسة (التي تقدر بـ 148.354.000 كيلومتر مربع)، ويزيد في قيمة تلك المساحة الشاسعة اتصالها مع بعضها، وتوسطها دول العالم، وتكاملها من ناحية المناخ والتضاريس وطبيعة الأرض، وتعدد الثروات الفطرية فيها، وتنوع مصادر المياه، وكثافة السكان، وعراقة الحضارة.

ثالثًا - إمكانات بحرية ونهرية واسعة:

يطل العالم الإسلامي على مسطحات مائية عديدة تخترقها أهم خطوط المواصلات البحرية في العالم، وله موانئ هامة على كل من المحيط الأطلسي والهندي والهادي، وعلى كل من البحر الأبيض، والأحمر، والأسود، وبحر قزوين، والخليج العربي، كما يتحكم في مداخل كل من المحيط الهندي والبحار الأحمر والأبيض والأسود، هذا بالإضافة إلى عدد من المسطحات والقنوات المائية الهامة التي تعتبر إسلامية بأكملها مثل البحر الأحمر، والخليج العربي، وبحر عمان، والبحر العربي، وبحر مرمرة، وقناة السويس، وكل من أنهار النيل ودجلة والفرات.

رابعًا: ثروات اقتصادية هائلة:

وهذه تشمل ثروات زراعية وحيوانية كبيرة، ومصادر للطاقة متعددة، وخامات تعدينية لم تقدر نهائيًا بعد، ومنشآت صناعية مختلفة. ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

1 - **الثروة الزراعية:** وتتمثل في أكثر من **أربعمائة مليون من الأفدنة المزروعة** في مناطق مناخية متباينة تعطي محاصيل متكاملة (وتشكل هذه **11% من مساحة الأرض المزروعة في العالم**)، هذا بالإضافة إلى 394 مليون هكتار من الغابات



(تشكل 9.7% من مساحات الغابات في العالم) هذا بالإضافة إلى مساحات شاسعة من الأرض الصالحة للزراعة والتي لم تزرع بعد في العديد من دول العالم الإسلامي المعاصر (من مثل مصر، السودان، سوريا، العراق، باكستان، بنجلاديش، إندونيسيا، ماليزيا وغيرها). ومن الواجب العمل على استزراع هذه المساحات الصالحة للزراعة في أقرب وقت ممكن ولو على مراحل متتالية، حتى يتمكن المسلمون من إنتاج ما يحتاجون من المواد الغذائية بدلًا من استجدائها من غيرهم تحت الكثير من القيود والضغوط والابتزاز والاستغلال، خاصة أن القائمين على الدول الزراعية الكبرى في العالم قد بدءوا يلوحون بالتهديد بالامتناع عن تزويد دول العالم الثالث وفي مقدمتها الدول الإسلامية بما دأبت على تزويدها به من المحاصيل الزراعية. وليس بالأمر الغائب عن الأذهان أن دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها يتحكمون اليوم في تزويد دول العالم الثالث بمحصول مهم مثل القمح، وتبقى سفنهم المحملة بهذا المحصول في المياه الدولية حول الدول المستوردة، لا تدخل مياهها الإقليمية إلا بعد الموافقة على سلسلة من الشروط السياسية المذلة، والابتزازات الاقتصادية المرهقة، هذا فضلًا عن أنها لا تبيع لدول العالم الثالث إلا مخزونًا قديمًا من القمح ظل مخزونًا عندهم لعدة سنوات، أصابه العفن وامتلأ بالسموم المسرطنة من أمثال السم المعروف باسم «أفلاتوكسين» وقد وجد بكميات كبيرة في كل من القمح والدقيق الأمريكي المصدر إلى العديد من الدول المسلمة من مثل مصر والأردن. وإذا اعترض معترض هددت بقطع الإمدادات، خاصة أن شبح المجاعات بدأ فعلًا يتهدد العالم بأسره مع التغيرات المناخية الناشئة عن إفساد الإنسان في الأرض، وبسبب البدء في تحويل العديد من المحاصيل الزراعية في الدول الصناعية إلى زيوت تحرق كوقود لإنتاج الطاقة.

ولا يخفى على ذلك أحد الحصار المفروض على الشعب الفلسطيني من كل من العصابات الصهيونية الغاصبة لأرضه والولايات المتحدة الأمريكية، ودول الوحدة الأوروبية ومن بعض الحكومات العربية حتى يركعوه لأوامرهم واستبدادهم وذلك بسبب اختياره حكومة إسلامية في أنزه انتخابات تمت في العالم الثالث بأسره وبواسطة الانتخاب الديموقراطي الذي يدعو الغرب إليه!!

وفي نجاح دولة مسلمة مثل المملكة العربية السعودية في الزراعة، وهي التي تقع في قلب الحزام الصحراوي، لدليل قاطع على إمكانية استزراع مساحات أكبر بكثير من المزروع حاليًا في دول العالم الإسلامي. فمن رحمة الله - تعالى - بعباده تغير المناخ مع الزمن، ومن صور ذلك أن صحاري الأرض لم تكن كذلك عبر تاريخها الطويل، بل هناك أدلة علمية عديدة تؤكد أن هذه الصحاري كانت مروجًا وأنهارًا طوال العصر الجليدي الأخير للأرض، والذي كان ممثلًا في منطقتنا بعصر شديد الأمطار (امتد من 1.8 مليون سنة مضت إلى عشرة آلاف سنة مضت) وفي الثلاثين إلى الأربعين ألف سنة الأخيرة تم تخزين كميات كبيرة من مياه الأمطار تلك في مخازن أرضية من الصخور العالية المسامية والنفاذية التي يكون ظاهرها جزءًا من سطح الأرض. وهذا المخزون المائي إذا استخدم بشيء من الحكمة يمكن أن يؤدي إلى تنمية زراعية هائلة. هذا بالإضافة إلى ضرورة الاهتمام بقضايا تقنية أخرى من مثل إقامة السدود، وتحلية مياه البحر، والمحافظة على أداء سنة صلاة الاستسقاء كلما دعت الحاجة إلى الماء.

2- **الثروة الحيوانية: تربى على أرض العالم الإسلامي ملايين الرءوس من الماشية (10.8% من مجموع عدد القطيع العالمي)، والأغنام (24%) والماعز (37%)، والإبل (76%) من مجموع ثروة العالم**، ويشتهر في ذلك كل من أفغانستان، إيران، تركيا، العراق، المغرب، السودان، الصومال، باكستان، الجزائر. وتقوم على هذه الثروة الحيوانية صناعات مختلفة من مثل منتجات الألبان، وغزل ونسج الصوف، والصناعات الجلدية وغيرها.

هذا، وتنتج الدول الإسلامية مجتمعة حوالي 6% من الإنتاج العالمي من الأسماك وغيرها من الحيوانات البحرية الصالحة لغذاء الإنسان، وهو رقم ضئيل جدًّا إذا قورن بتعداد المسلمين، وبالمساحات المائية الشاسعة التي تمتد بمحاذاة شواطئهم، وفي مياههم الإقليمية، والتي ينافسهم عليها العديد من قراصنة الدول الغربية بقوة السلاح كما هو الحال مع كل من إسبانيا والبرتغال واستنزافهما للثروة السمكية في المياه الإقليمية لكل من المملكة المغربية والجمهورية الموريتانية. ومن هنا تتضح ضرورة الاهتمام بالثروات المائية المختلفة وبتطوير تقنيات صناعة سفن وأدوات صيد الأسماك وغيرها من الحيوانات البحرية، وطرائق تجميدها وتعليبها وحفظها واستخلاص زيوتها ودهونها والاستفادة بفضلات ذلك كله.

3 - **مصادر الطاقة:** يملك العالم الإسلامي ما يتراوح بين 72% و77% من احتياطي النفط العالمي، وأكثر من 40% من الاحتياطي العالمي للغاز الطبيعي، بالإضافة إلى تقدير مبدئي للفحم الحجري يبلغ 1% من احتياطي العالم، بالإضافة إلى نسب متفاوتة من المواد المشعة لم تقدر تقديرًا نهائيًا بعد (مثل اليورانيوم والثوريوم، والمواد المساعدة على عمليات الانشطار أو الاندماج النووي)، إلى جانب العديد من مصادر الطاقة البديلة من مثل الطاقة الشمسية (كمصدر هام من مصادر الطاقة في مختلف دول العالم الإسلامي التي تتمتع بساعات طويلة من سطوع الشمس خلال أغلب أيام السنة) وكل من الطاقة المائية والهوائية وطاقة الحرارة الأرضية، وهي كلها من مصادر الطاقة الرخيصة والمتجددة والنظيفة لأنها ليس لها نواتج ملوثة للبيئة أو مهددة للبشرية.

4 - **الثروة التعدينية:** على الرغم من أن معظم أراضي العالم الإسلامي لم يتم مسحها بعد مسحًا علميًا مفصلًا باستخدام الوسائل التقنية الحديثة، فإن الدراسات المحدودة التي أجريت حتى الآن أثبتت وجود العديد من الخامات الاقتصادية منها **خامات المعادن الفلزية** من مثل **القصدير (52% من احتياطي العالم)، والكروم** (23%)، **والمنجنيز (9.2%)، والرصاص والزنك (6%)، والحديد** (5%)، **والنحاس (4%)، من الاحتياطي الثابت للعالم، هذا بالإضافة إلى خامات كل من الألومنيوم، والكوبالت، والنيكل، والأنتيمون، والذهب والفضة، والزئبق، والموليبدينوم، والتنجستن، والڤاناديوم، والكولومبيوم، والتنتالوم** (وهي موجودة بنسب متفاوتة يستغل بعضها اليوم استغلالًا اقتصاديًا وإن كانت لم تحدد احتياطياتها تحديدًا نهائيًا بعد).

وكذلك يوجد العديد من **خامات المعادن غير الفلزية** ومن أهمها **الفوسفات (45% من احتياطي العالم)، والأملاح التبخرية** (من مثل أملاح كل من الصوديوم، البوتاسيوم، الكالسيوم، الأسترونشيوم، المغنيسيوم، البورون، اليود، البرومين)، **وخامات المواد الحرارية** (من مثل الماجنيزايت، البوكسيت، الأسبستوس وغيرها)، **ومواد البناء**، والعديد من **المواد الكيميائية** الأخرى التي لها قيمة كبيرة في الصناعة من مثل **الكبريت، والكادميوم، وخامات المعادن المشعة** وفي مقدمتها عنصرا اليورانيوم والثوريوم اللذان يوجدا على هيئات متعددة من أهمها المصاحبة للفوسفات في خاماته (والذي يمكن أن يشكل احتياطيًا هامًا لهذين العنصرين المشعين؛ نظرًا

لضخامة احتياطي الفوسفات في دول العالم الإسلامي، وسهولة استخراج كل من اليورانيوم والثوريوم، والڤاناديوم، وعناصر الأرض النادرة كناتج ثانوي منه أثناء تصنيع أي نوع من السماد الزراعي المعروف باسم السوبر فوسفات أو تحضير أي من حمض الفوسفوريك أو الفوسفور، ومع هذا الخام الفوسفاتي آثار اقتصادية لعدد من العناصر الأخرى ذات القيمة الاقتصادية العالية).

وربما كان تأخر المسلمين في اكتشاف ثرواتهم التعدينية واستغلالها لحكمة كبيرة قدرها الله - سبحانه وتعالى - وذلك لأن العالم قد استنفد ثرواته من خامات المعادن (أو كاد)، نتيجة لعملية الاستنزاف المخلِّ التي تعرضت لها تلك الخامات خلال القرن الميلادي العشرين بصفة خاصة لدرجة أصبحت معها احتياجات العالم على مدى ربع القرن الحادي والعشرين أكثر من الاحتياطيات المؤكدة في أغلب الحالات، وهنا تبرز خامات العالم الإسلامي كاحتياطي مأمول، ولكنه احتياطي يحتاج إلى الكفاءات العلمية والتقنية القادرة على استخراجه وتصنيعه، وإلى الرجال الأشداء القادرين على حمايته من شره الدول الصناعية الكبرى، وتطلعها بنهم إليه. ويؤكد ذلك اجتياح القوات الأمريكية الغاشمة وحلفائها لأراضي كل من الخليج العربي وأفغانستان والعراق دون مبرر واحد سوى مطامع هؤلاء الغزاة في ثروات العالم الإسلامي إن كان ذلك يصلح مبررًا في عالم اليوم. هذا بالإضافة إلى محاولة الغرب الهيمنة على المسلمين، وإقصائهم عن دينهم، والعمل على إثارة الفتن العرقية والدينية والطائفية والمذهبية والاجتماعية بين أبنائهم من أجل تمزيق جسد المسلمين وفرقة كلمتهم وتنازعهم فيما بينهم.

خامسًا - مقومات تعليمية وتدريبية:

تضم دول العالم الإسلامي اليوم أكثر من 500 جامعة، 1500 معهد عالٍ من المعاهد المتخصصة، بالإضافة إلى ما يفوق الألف من مراكز البحوث وأكاديميات العلوم والتقنية، وخمسة عشر مركزًا ومؤسسة للطاقة الذرية والنظائر المشعة (يتركز منها خمسة في الباكستان، وثلاثة في تركيا، واثنان في مصر، ومركز واحد في كل من أفغانستان، وإيران، والعراق، والجزائر، وتونس). وإن كانت المؤامرات الصهيونية/الصليبية العالمية قد شجعت الكيان الغاصب لأرض فلسطين على قصف المفاعل النووي العراقي، وتتآمر اليوم من أجل تكرار الأمر بالنسبة إلى المفاعل النووي الإيراني في



سلسلة من الجرائم الدولية غير المبررة، والتي تتعدى كل القوانين والأعراف الدولية وكل القيم الأخلاقية والسلوكية. كذلك فرضت كل من الولايات المتحدة الأمريكية ودول الوحدة الأوروبية حظرًا كاملًا على جميع المسلمين حتى لا يمتلكوا سلاحًا من أسلحة الدمار الشامل ومنها الأسلحة النووية، بينما تكدسه الدول الصناعية الكبرى وربائبها وأذنابها مثل الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين بكميات تهدد الأرض كلها والحياة على سطحها بالدمار والفناء، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين يملك وحده أكثر من أربعمائة رأس نووي كما أعلن مؤخرًا، كما يملك مخزونًا غير معلوم من الأسلحة الكيميائية والحيوية المحرمة دوليًا.

هذه الثروات المتعددة في العالم الإسلامي تشكل الدعائم المادية لنهضة علمية وتقنية كبيرة، ولكنها اليوم مبعثرة، ولا بد لها من أن تجمع إذا أريد للأمة الإسلامية أن تلحق بالركب. وليس ذلك بالأمر المستبعد، خاصة أن أمامنا أمثلة كثيرة على نهضة الأمم بعد تدهورها، منها صحوة كل من ألمانيا الغربية واليابان بعد تدميرهما تدميرًا كاملًا إبان الحرب العالمية الثانية، وتقدم كل من الصين والهند وكوريا الجنوبية والشمالية في مجال العلوم والتقنية وقد كانت لها – إلى عهد قريب – أوضاع من التخلف تفوق أوضاعنا الراهنة سوءًا وتدهورًا.

ثم إن هذه النهضة العلمية والتقنية المأمولة إذا تحددت بالإطار المادي فقط فإنها لن تزيد عالمنا المضطرب إلا قوة مادية جديدة تضاف إلى حدة الصراع فيه. ومن هنا فإنها يجب أن تكون **نهضة علمية/تقنية/إسلامية شاملة في كل اتجاه.** نهضة الأمة الوسط التي تستشعر مسئولية القيادة، والتزامات الأخوة الإنسانية، وتبعات المصير الواحد. فالطاقات المسلمة الهائلة ممزقة اليوم تحت وطأة العديد من الأنظمة الوضعية المتباينة التي تكاد أن تسحقها، وتشل فاعلياتها، وكلها نظم مستوردة، مفروضة، غريبة على أمتنا، وعلى تراثها وأخلاقها وتقاليدها.

وقد آن الأوان لهذه الملايين المسلمة المتطلعة إلى نور الشريعة الربانية، ورحمة العدل الإلهي أن تعود إلى الإسلام من جديد حتى تتقلد دورها الرائد الذي وصفه الحق – تبارك وتعالى – بقوله: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ... ﴾ (آل عمران: 110). خاصة أن الناس في جميع أنحاء الأرض قد بدءوا يتلمسون طريقهم إلى الإسلام، وأخذوا

يقبلون عليه في مدٍّ لم تعرف له البشرية نظيرًا من قبل، بعد أن سئموا الحياة المادية الحيوانية الخاوية، الخالية من فهم الإنسان لذاته، ولحقيقة رسالته في هذه الحياة. ففي الفترة من 11 سبتمبر 2001م إلى اليوم أسلم في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها أكثر من مليون فرد، وفي المملكة المتحدة أسلم أكثر من مائة ألف شخص في نفس الفترة تقريبًا، بينما يسلم في ألمانيا حوالي ألف شخص سنويًا، وقد أسلم في شهر نوفمبر 2005م وحده أكثر من ألف شخص. والسبب الرئيس في ذلك هو أن قارعة سبتمبر قد نبهت الغربيين للقراءة عن الإسلام، وأن المعطيات الكلية للعلوم في هذا العصر قد تجمعت لتؤكد ضرورة الإيمان بالله، وصدق الرسالة المحمدية. وإذا أدرك المسلمون المعاصرون ذلك وجب عليهم أن يبادروا بجمع طاقاتهم المبعثرة في خطة محكمة هدفها إعادة بعث الأمة على أسس إسلامية سليمة تشمل الجوانب المادية والمعنوية للإنسان، وتنمو بها في توازن وإتقان، وتعمل على حماية منجزاتها من أمراض الحضارة مثل الركون إلى الترف والدعة، والمبالغة في البذخ وحب الاستعراض والمباهاة والتنافس في ماديات الحياة، كما تعمل على حماية تلك المنجزات من العدوان الخارجي سواء كان ذلك عسكريًا أو فكريًا أو اقتصاديًا أو اجتماعيًا أو بأي أسلوب آخر. والاجتهاد في هداية الإنسانية إلى نور الرسالة الربانية الخاتمة التي حُمِّل المسلمون أمانتها، وائتُمِنُوا على تبليغها، فإن مصيرهم، بل مصير أهل الأرض كافة، سيكون مظلمًا أليمًا إن ضيعت تلك الأمانة.

وهنا تحضرني كلمة **للأستاذ الدكتور ت. ب. إيرفنج - رحمه الله - (Prof. Dr. T.B. Irving) الأستاذ السابق بجامعة تنيسي (The University of Tennessee) الأمريكية والذي مَنَّ الله - تعالى - عليه بالإسلام في سن مبكرة وقام بإعداد واحدة من أحدث التراجم لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية وقد قابلته في سنة 1964م في جامعة كمبردج في مؤتمر عن اللغات الحديثة وتحدث فيه عن صعوبة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى، فدعوته إلى حضور مؤتمر للطلبة المسلمين في مدينة جلاسجو كنت أنا مدعوًّا إليه فقبل الدعوة مرحبًا وهناك وقف مخاطبًا تجمعًا للمسلمين في محاضرة متميزة عن حقيقة الإسلام وضرورة تحرك المسلمين بالدعوة إليه بلغات العصر قال فيها: «أيها المسلمون! إنكم لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الصناعية الكبرى علميًا، أو تقنيًا، أو اقتصاديًا، أو سياسيًا، أو عسكريًا، أو بأية وسيلة مادية أخرى ولكنكم تستطيعون أن تجبروا تلك الدول المتغطرسة بما حققته من إنجازات علمية وتقنية، وتفوق عسكري أن تجثو على ركبها أمامكم بالإسلام، أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور**

الذي تحملون، والذي تتعطش إليه النفوس في مختلف جنبات الأرض، تعلموا الإسلام وطبقوه، واحملوه لغيركم من البشر تنفتح أمامكم الدنيا، وَيدِنْ لكم كل ذي سلطان، أعطوني أربعين شابًّا ممن يفهمون هذا الدين فهمًا عميقًا، ويطبقونه على حياتهم تطبيقًا دقيقًا، ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر وأسلوبه وأنا أفتح بهم الأمريكتين».

فهل يمكن لقادة العالم الإسلامي ومفكريه وشبابه المثقف أن يعوا هذا الكلام ويقدروه حق قدره فيعملوا على إخراجه إلى حيز التنفيذ وبأسرع وقت ممكن؟ وهنا يبرز التساؤل عن وسائل ذلك وأساليبه.

الوسائل اللازمة لتحقيق نهضة علمية وتقنية في العالم الإسلامي المعاصر

تتعدد الوسائل التي يجب الأخذ بها من أجل تحقيق نهضة العالم الإسلامي المعاصر علميًّا وتقنيًّا، ويمكن تلخيص هذه الوسائل في النقاط التالية:

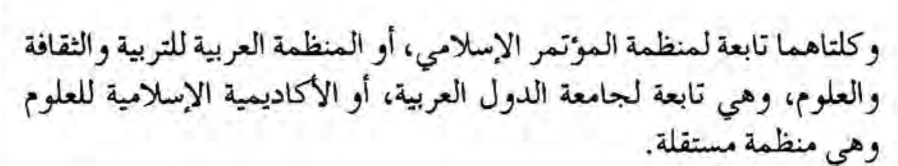
أولًا - الوسائل المادية:

(أ) المبادرة بالعمل على محو الأمية بين المسلمين في خطة محددة الأجل كما سبق وأن أشرنا؛ لأن الأمة الجاهلة لا يمكن أن يتحقق بها أي تقدم.

(ب) البدء في إعادة بناء النظم التعليمية على أسس إسلامية صحيحة وموائمة لاحتياجات مجتمعاتنا، مع الاهتمام بتنمية المهارات التقنية، والعمل على تربية القدوات القادرة على إحداث التغيير وزيادة الفعالية الاجتماعية للأفراد.

(جـ) إعادة النظر في مهمة الجامعات والمعاهد العليا في العالم الإسلامي المعاصر، والعمل على تطويرها كمًّا وكيفًا وربط ذلك بمتطلبات التنمية الشاملة.

(د) دعوة كل دولة من الدول المسلمة إلى تكوين أجهزة لتنظيم البحث العلمي وتخطيط برامجه، على أن تلتقي هذه الأجهزة المحلية في أجهزة إقليمية وتنتهي إلى جهاز إسلامي عالمي واحد من مثل المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، أو المؤسسة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا والتنمية،



وكلتاهما تابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وهي تابعة لجامعة الدول العربية، أو الأكاديمية الإسلامية للعلوم وهي منظمة مستقلة.

(هـ) العمل على أن يكون من بين مهام المؤسسات الإسلامية للعلوم والتقنية المحلية والإقليمية والعالمية ما يلي:

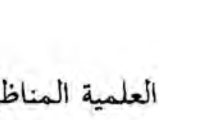
(1) الحصر الدقيق للكفاءات المسلمة في مختلف مجالات العلوم والتقنية.

(2) ربط المسلمين المشتغلين بالعلوم والتقنية في مختلف أنحاء العالم في اتحاد عالمي للعلماء والمهندسين المسلمين يضم عددًا من الجمعيات المتخصصة على مستوى العالم، والتي تضم بدورها الجمعيات المحلية والأفراد المنتمين إليها بحيث يصبح كل متخصص من المسلمين عضوًا في جمعية متخصصة إسلامية محلية، وجمعية إقليمية وجمعية ثالثة عالمية في تخصصه، وعضوًا في الاتحاد العالمي للعلماء والمهندسين المسلمين.

(3) وضع سياسة علمية وتقنية دقيقة ومستقرة وبعيدة المدى للعالم الإسلامي، والعمل على تنفيذها، وتكون هذه السياسة قائمة على المسح الشامل لكل إمكانات العالم الإسلامي البشرية والمادية، ولاحتياجاته الآنية والمستقبلية، وتكون في نفس الوقت قادرة على وضع سلم للأولويات في حدود زمنية ملزمة، وفي إطار القدرات المتاحة، وقادرة على تأسيس قواعد علمية وتقنية وإدارية متطورة، وعلى استيعاب المتغيرات الاجتماعية المصاحبة لكل ذلك، وعلى الخروج بحلول واقعية للتعجيل بالنهضة العلمية والتقنية الإسلامية من خلال الاستثمار الأمثل لكل الطاقات والقوى والمصادر المتاحة، وذلك في محاولة لتجاوز الفوارق الهائلة التي تحول بيننا وبين الوصول إلى المستوى العلمي والتقني للدول الصناعية الناهضة بهما.

(4) التنسيق بين مختلف المؤسسات العلمية والتقنية القائمة اليوم في العالم الإسلامي، على أن يتم ذلك في إطار من التكامل وعدم الازدواجية ما أمكن، حتى يتحقق قيام أجهزة إقليمية لتنظيم البحث العلمي وتخطيط برامجه، تنتهي إلى جهاز عالمي واحد.

(5) مراجعة خطط البحوث العلمية والتقنية الجارية حاليًا في العالم الإسلامي ووضع الأولويات لها بما يتفق واحتياجات المجتمعات المسلمة وروح رسالتها الإنسانية العالمية، والتخطيط لبرامج بحوث مشتركة بين الهيئات



العلمية المناظرة في مختلف الدول الإسلامية على أن تربط هذه البحوث بالصناعات القائمة، وتعمل على تطويرها باستمرار.

(6) تشجيع البحث العلمي والتقني بين المسلمين، وذلك بعقد المؤتمرات والندوات المتخصصة، ونشر الدوريات العامة والمتعمقة، والتشجيع على التأليف والترجمة والنشر، وتخصيص المنح والجوائز والمكافآت وغيرها من الحوافز، والتشجيع على تبادل الزيارات والخبرات والمعلومات بين مختلف المتخصصين من أبناء المسلمين.

(7) مناقشة مشكلات العالم الإسلامي، والعمل على إيجاد الحلول المناسبة لها، وفي مقدمتها بحث أسباب التخلف الصناعي والزراعي والاقتصادي والإداري والسياسي، وإهمال العديد من الثروات الطبيعية، والصناعات التحويلية والعسكرية الهامة، ومشاكل الماء، والتلوث البيئي وما يصاحبه من تحولات مناخية تنذر بالخطر. هذا بالإضافة إلى مشكلة هجرة المتخصصين والفنيين المسلمين إلى خارج العالم الإسلامي، والعمل على وقفها، واستعادة من له رغبة في العودة ممن هاجروا، والتخطيط لتكامل اقتصادي صحيح، والعمل على ترشيد التجارة البينية للدول المسلمة.

(8) التشجيع على إنشاء مراكز للبحوث العلمية والتقنية المتخصصة، ومراصد فلكية وأرضية متطورة، ومؤسسات للطاقة في دول العالم الإسلامي المعاصر في غير تكرار أو ازدواجية عشوائية. ويكون من مهام هذه المراكز استقطاب الطاقات المسلمة المحلية والمنتشرة في العالم على أساس من كفاءاتها العلمية، والتزامها بالإسلام، دون أن يكون لانتماءاتهم العرقية أو صلاتهم الشخصية دخل في الاختيار.

(9) العمل على إعادة كتابة العلوم البحتة والتطبيقية من منطلق إسلامي صحيح عن الإنسان والكون والحياة وعلاقة ذلك بالخالق العظيم وهو ما أطلقت عليه عنوان «**التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة**».

(10) وضع البرامج الزمنية المحددة لترجمة أمهات الكتب العلمية والتقنية المختلفة إلى اللغة العربية، وإلى غيرها من اللغات الرئيسة في العالم الإسلامي، مع التعليق على ما قد يرد فيها من أخطاء تتعارض مع قضية الإيمان، وذلك كمقدمة لاتخاذ القرار الضروري بجعل التعليم والبحث والنشر العلمي باللغة العربية أو باللغات المحلية في غير العالم العربي،

انطلاقًا من أن تأصيل العلم ونمو التفكير العلمي لدى أية أمة يتطلب استعمال لغتها قبل أية لغة أخرى.

(11) العمل على إصدار مؤلفات ودوريات وموسوعات علمية وتقنية إسلامية عامة ومتخصصة باللغة العربية وبغيرها من اللغات المحلية في العالم الإسلامي للمتخصصين ولكل من الشباب والأطفال.

(12) تشجيع عملية النشر العلمي والتقني في العالم الإسلامي وتطوير كل ما يلزم ذلك من عمليات الطباعة والتوزيع، وما يعتمد عليه من صناعات.

(13) الاهتمام بإعداد ورعاية الفنيين والمعاونين في شئون البحث العلمي بقطاعاته المختلفة، في مختلف بقاع العالم الإسلامي.

(14) التعاون في تأسيس مراكز إسلامية لصناعة الأجهزة العلمية والتقنية المتخصصة وصيانتها وتطويرها في مختلف أرجاء العالم الإسلامي حسب إمكانات كل منطقة، في شيء من التخطيط والتكامل المتدرج.

(15) التعاون في إنشاء مراكز للإعلام والتوثيق العلمي والتقني والصناعي، ومصارف للمعلومات ولخدمات تجهيز البيانات، ومكتبات إقليمية وعامة، ودوريات متخصصة، ونشرات بمستخلصات البحوث، ومرافق لعقد اللقاءات والمؤتمرات العلمية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي يكون من مهامها تعريف الأجهزة العلمية والتقنية والصناعية المحلية بالتطورات والمنجزات العالمية، ونشر المعرفة، على أن يتم التنسيق الدقيق بين المراكز المختلفة، وأن ينتهي ذلك في هيئة مركزية واحدة للعالم الإسلامي تغذي المراكز الإقليمية وتتلقى عنها وتقوم بالتخطيط لمختلف أنشطتها.

(16) التعاون في إنشاء مركز عام ومراكز إقليمية للملكية الصناعية ووثائق براءات الاختراع تقوم بتنسيق تشريعات الملكية الصناعية في العالم الإسلامي، وحماية حقوق المخترعين المسلمين، ودراسة الاتفاقيات الدولية بهذا الخصوص، وتبادل تلك الوثائق مع المراكز المشابهة في العالم.

(17) العمل على تطوير تدريس العلوم في مختلف المراحل ليساير التطورات العالمية من حيث المستوى، والوسائل، والكتب والطرائق، والمختبرات، وغيرها من وسائل الإيضاح مع التأكيد على ضرورة **التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة**.



(18) المبادرة بالعمل الجاد لتوحيد الأمة الإسلامية على مراحل منطقية عملية مدروسة، فلم يعد هناك مجال لمجموعة بشرية يقل تعدادها عن 300 مليون نسمة أن تعيش بغير تبعية اقتصادية للتكتلات الكبرى وما يتبع ذلك من رق ثقافي وسياسي وعسكريٍّ مذل.

ثانيًا - الوسائل المعنوية:

(1) العمل على إحياء المفهوم الصحيح للبحث العلمي والتقني في الإسلام، وبلورة النظرية الإسلامية للعلوم والتقنية، ووضع التفاصيل الدقيقة للدستور الأخلاقي الذي يفرضه الإسلام في هذين المجالين؛ وذلك لأن العلم لا يمكن أن يكون عملية مادية بحتة، خالية من القيم الايمانية والأخلاقية، وإلا أصبح وبالًا على أهله وعلى الإنسانية جمعاء.

(2) تعميق قيم البحث العلمي والتقني في نفوس المسلمين من الباحثين، والقائمين على الأجهزة الرسمية، ورجال الأعمال، ووضع الخطط اللازمة لتربية الجماهير المسلمة تربية علمية أصيلة تقوم على الإيمان بأن العلوم التجريبية هي قرآنية المنهج، وأن الأسلوب العلمي في التفكير ودوره في تطوير الحياة هو ضرورة إسلامية، ومن ثم فإنه يتوجب على المسلمين بذل كل ما يملكون في سبيل نهضة الأمة الإسلامية علميًا وتقنيًا، مرضاة لله وإعذارًا إليه؛ وذلك لأن القيام بالبحوث العلمية والتقنية في مختلف المجالات النافعة هو من فروض الكفاية التي تأثم الأمة كلها بتركها، وإهمالها أو التقصير فيها، وعليه فإنه يجب دعوة كل قادر إليها وتشجيعه عليها انطلاقًا من صميم الدعوة الإسلامية ذاتها.

(3) إبراز إضافات المسلمين للعلوم في مختلف العصور، وتحقيق تراثهم والعمل على نشره وتعليمه، ودراسة الشخصيات البارزة من علماء المسلمين قدامى ومعاصرين؛ لإعادة الثقة إلى نفوس شباب مسلمي اليوم ودفعهم إلى النهوض بمسئولياتهم.

(4) إحياء الشعور بالانتماء للأمة الواحدة بين المسلمين حتى يتهيئوا للوحدة الشاملة ويبدءوا بالعمل الجاد لها، ويقضوا على العصبيات الجاهلية المقيتة التي استخدمت في تفتيتهم وتشتيت إمكاناتهم.

(5) الدعوة إلى الالتزام الدقيق بالإسلام الصحيح على مستوى الأمة أفرادًا وجماعات، والعمل على تطبيق قيمه وأهدافه حتى يتقلص تأثير عمليات التغريب التي تعرضت لها الأمة الإسلامية طوال القرنين الماضيين بصفة خاصة، وحتى تتمكن القاعدة المسلمة العريضة في العالم من تحقيق حلمها بقيام الحكومة الإسلامية الراشدة، المنبثقة عن قناعة شعبية غالبة إن شاء الله – تعالى – تقضي على العصبيات الإقليمية الضيقة وتؤاخي بين المسلمين جميعًا وبين غيرهم من بني آدم.

(6) دعوة الناس كافة إلى الإسلام وفي مقدمتهم العلماء والمفكرون وأصحاب الرأي في الكتل العالمية الكبرى وهم الآن مهيئون لتقبل الإسلام بعد أن سئموا الحياة المادية، وعاشوا ويلاتها، وأخذوا يتطلعون بحرص بالغ إلى ما يمكن أن يخلصهم مما هم فيه من بلاء، وبعد أن تبلورت المعطيات الكلية للعلوم في تأكيد واضح على حقيقة الخلق، وحتمية الإيمان بالله، وضرورة الآخرة، وليس أدل على ذلك من ظاهرة المد الإسلامي المعاصر في كل أرجاء الأرض بين كبار العلماء والمثقفين، كما هي بين المظلومين والمستضعفين والمضطهدين من شعوب الأرض.

(7) إبراز الاستنتاجات الكلية للعلوم خاصة ما يؤكد منها حقيقة الخلق وابتدائه، وعظمة الكون ووحدة بنائه، وإبداع حركته وعظم اتساعه، وانضباط ظواهره وسننه وقوانينه، وحتمية نهايته وفنائه، وإمكانية الوحي السماوي، بل ضرورته، وحقيقة الموت والبعث والحساب، ولزوم الآخرة بما فيها من ثواب وعقاب، وأغلبها قضايا غيبية استطاع العلم أن يصل إلى أدلة منطقية عليها، وقد سبقه في ذلك كله وحي السماء.

(8) إبراز الإشارات العلمية في القرآن الكريم، وإثبات سبقها للعلوم البشرية بالمئات من السنين، وهي – على كثرتها، ودقة دلالاتها – وردت في سياق الدعوة إلى الإيمان بالله والدلالة عليه، لا في سياق عرض علمي مجرد؛ وذلك لأن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية، وليس كتاب علم خاص، وعلى الرغم من ذلك أصبحت هذه الإشارات العلمية سببًا في إقبال الكثيرين من العلماء المعاصرين على الإسلام واقتناعهم به، لإيمانهم بأن هذه الحقائق العلمية التي لم يتوصل الإنسان إليها إلا مؤخرًا – لم تكن بالقطع

متوافرة لبشر في حياة سيدنا محمد ﷺ أو قبل بعثته الشريفة، ولا لمئات من السنين من بعده، وهي في هذا الإطار دلالات واضحة على صدق دعوته، وحقيقة رسالته، وعلى تلقيها عن خالق الكون ومبدع الوجود الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11).

هذه عجالة لبعض وسائل التقدم العلمي والتقني المأمول للعالم الإسلامي المعاصر، وهي وسائل إن سهل تسطيرها على الورق فإن إخراجها إلى حيز الوجود يحتاج إلى جهود كبيرة يدعمها الإيمان العميق، والتنظيم الدقيق، والعمل الدءوب، والصبر على المكاره، والإيثار على النفس، والتضحية بالشهوات، وهو طريق شاق طويل ولكنه طريق الخلاص الوحيد في عالم أصبح السبق العلمي والتقني فيه هو معيار التقدم، وهو الوسيلة المادية لإسعاد البشرية أو إفنائها على حدٍّ سواء.

نسأل الله – تعالى – أن يقيض لهذه المقترحات عددًا من الآذان الصاغية، والعقول الواعية، والقلوب المؤمنة، والسواعد العاملة؛ حتى تتحقق صحوة المسلمين، وقيادتهم العالم من جديد لسعادة الدنيا والآخرة، وتتحقق بها نجاة العالم من الهاوية التي يتردى فيها اليوم، وما ذلك على الله بعزيز، والله الموفق والمستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل.



ضرورة المبادرة بإصلاح الإعلام في العالم الإسلامي المعاصر

(الإعلام) لغةً مصدر من الفعل (أعلم) من (العلم) الذي هو إدراك الشيء على حقيقته. والفعلان (أَعْلَمته) و(عَلَّمته) هما في الأصل واحد، إلا أن (الإعلام) اختص بما كان من إخبار سريع، و(التعليم) اختص بما يكون بتكرار وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم.

وانطلاقًا من هذا الأصل اللغوي فإن **(الإعلام)** يعرف بأنه هو إحاطة الغير علمًا بشيء ليدرك حقيقته، ومن هنا كان **الصدق** في الإعلام ركيزة من أهم ركائزه، وكانت **الدقة والأمانة في صدق التبليغ، والعلم والخبرة في التحليل** تمثل بقية الركائز اللازمة للإعلام الناجح. وعلى ذلك **فإن الإعلام يعرف بأنه هو فن تزويد الناس بالأخبار الصحيحة، والمعلومات السليمة، والحقائق الثابتة التي تعينهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرًا موضوعيًّا عن الحقيقة المجردة**، وهذا هو أهم ما يميز الإعلام الناجح عن غيره من أشكال الاتصال. وانطلاقًا من هذا التعريف فإن الإعلام يمثل وسيلة من أهم وسائل تشكيل مفاهيم الناس في مختلف الأعمار ومن مختلف مستويات التعليم والثقافة، لأنه نشاط إنساني للتواصل مع الآخرين عبر العديد من الوسائط المؤثرة مما يمكنه من تشكيل الرأي العام لمجتمع من المجتمعات. فلم يعد الإعلام مجرد وسيلة من وسائل نشر الأخبار أو الترفيه عن الناس، بل أصبح أحد العوامل المؤثرة في سلوكيات جميع أفراد المجتمع خاصة الناشئة منهم دون وعي لخطورة ذلك إن لم يكن الإعلام ملتزمًا بالضوابط الدينية والأخلاقية للمجتمع الذي ينشر فيه. وانطلاقًا من هذه الحقيقة حرص المستعمرون الذين ابتليت بهم غالبية بلاد المسلمين على تمكين عملائهم من السيطرة على وسائل الإعلام في تلك البلاد من أجل العمل على تغريب المسلمين، وزرع القابلية للاستعمار في قلوب قطاع كبير منهم حتى تسهل قيادتهم وتسخيرهم

لخدمة أهداف الاستعمار وأطماعه في استغلال بلاد المسلمين واستنزاف ثرواتها، وذلك بإعادة تشكيل قناعات، وتصورات، وأولويات المسلمين، وتحوير أخلاقهم، وسلوكياتهم، وولاءاتهم في هذا الاتجاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، حتى أصبح إعلامنا مسخًا غربيًّا محضًا، وأصبح مِعْولَ هدم لثوابت الأمة.

من هنا كان اهتمام المستعمرين بإنشاء غالبية المؤسسات الإعلامية في ديار المسلمين، وبمحاربة كل صوت إسلامي أصيل يحاول الدخول إلى ميدان من ميادين الإعلام باتهامه بالأصولية والرجعية والتطرف، أو بالوصولية، والفوضوية وحب الاستغلال، أو بالفتنة الطائفية، والإرهاب، أو بالتنطع والتشدد، أو بالسطحية والتفاهة التي يعزون إليها تخلف الأمة الإسلامية وتأخرها، إلى غير ذلك من التهم الباطلة ووسائل التشويه المتعمد، حتى تخلوا ساحة الإعلام لأعداء الأمة ولعملائهم فقط.

وقد ربى المستعمرون العديد من المدارس الإعلامية في ديار المسلمين من أجل ترديد أفكارهم وتصوراتهم الخاطئة، وأقنعوا الأجيال الناشئة من الإعلاميين المسلمين بأن هذا هو النهج الصحيح للإعلامي الذي يريد لنفسه النجاح، وأن أي خروج عنه هو خروج عن أصول المهنة، يستوجب الحرمان والطرد والحرب بلا هوادة. **وبذلك شاع بين قطاع كبير من الإعلاميين المسلمين كل أشكال العداء للإسلام: دينًا، وتاريخًا، وحضارة، ولغة، ونمط حياة، كما انتشرت كل العقائد الوضعية الفاسدة من الشيوعية القهرية** المذلة، والاشتراكية الفوضوية المدعية إلى الليبرالية الغربية المضيعة، والدهرية الكافرة، والرأسمالية الجشعة المستغلة، إلى الماسونية الصهيونية وأذرعها من أندية الروتاري والليونز، والإنرهويل، إلى الروحية الحديثة (Neo-spiritualism) وهي حركة مبتدعة هدامة، مبنية على الدجل والشعوذة، أو الوجودية الفوضوية (Existentialism)، إلى كل من البابية والبهائية المضللتين، إلى القاديانية المنحرفة الضالة الفاسدة، إلى النصيرية (أو العلوية) المبتدعة، إلى الدرزية الضالة المضلة وإلى غير ذلك من الملل والنحل الفاسدة والتي امتلأت بها الأرض وضاقت في زمن الفتن الذي نعيشه.

ونحن نعيش اليوم في زمن يحكمه الإعلام بمختلف وسائله المقروءة، والمسموعة، والمرئية، وبالتالي فإذا أراد المسلمون حفظ أبنائهم ومجتمعاتهم من الفساد والتغريب والضياع فعليهم المبادرة بإصلاح الإعلام على الأسس الإسلامية

الصحيحة، فنحن في أمس الحاجة اليوم إلى إرساء قواعد للإعلام تنطلق من كتاب الله وسنة رسوله، مستخدمة كل التقنيات النافعة في سبيل تحقيق ذلك على الوجه الأمثل، وموظفة كل المعارف التربوية الواعية والقادرة على النهوض بمجتمعاتنا، والتصدي لما بدأ يتغلغل فيها من انحرافات فكرية وعقدية وسلوكية، وينمي في أبنائنا وبناتنا كل قيم الإسلام النبيلة عن فهم ووعي واقتناع.

وقد أسس ربائب الاستعمار في العالمين العربي والإسلامي مدارس إعلامية على خطاهم، تربى فيها أجيال من الإعلاميين الذين حملوا أسماءً مسلمة ولكن أقلامهم وأفهامهم تلوثت بهذه الأفكار العدائية للإسلام وهديه ونبيه وتراثه الحضاري. وظل هؤلاء الإعلاميون المُغَرَّبون ينخرون في جسد أمة الإسلام بأقلامهم المسممة، وأفلامهم الساقطة، ومسلسلاتهم الهابطة المصرة على إشاعة كل صور الفاحشة بين المسلمين حتى أوصلوا الأمة إلى حالة الضياع الذي تعيش فيه منذ عدة عقود...!!

وللتدليل على ذلك نُشير إلى ما اعترف به الغربيون أنفسهم عن ظروف إنشاء إحدى المجلات الأمريكية الواسعة الانتشار والمعروفة باسم المجلة الجغرافية الوطنية (National Geographic Magazine)، وتأسيس دارين من أقدم دور الإعلام في العالم العربي وهما مؤسستا «الأهرام» و«الهلال» المصريتان، مما يؤكد أن تأسيس أية مؤسسة إعلامية في العالم لم يكن قطٍّ مجرد مصادفة...!!

وقد قامت معظم المؤسسات الإعلامية بأدوار من التغريب في الإعلام المصري، لم يستطع التخلص منها إلى اليوم على الرغم من النوايا الطيبة لأعداد من العاملين في تلك المؤسسات...!!

وتتكرر القصة في كل من الإذاعة، والتلفاز، والسينما، والمسرح، ودور النشر، وشبكة المعلومات الدولية المعروفة باسم (الشبكة العنكبوتية) وكتاب الوجه (Face Book)، وغيرها من وسائل الإعلام المعاصر الذي أصبح وسيلة من وسائل الاختراق وإشاعة التحلل والتفسخ والمباهاة بالمعاصي بين المسلمين بدعوى أنه إعلام الواقع.

وقد أصبح الإعلام المرئي هو أخطر وسائل الإعلام المعاصر على الإطلاق لملئه بالشهوات التي تستهوي الشباب، ولاستمرار بثه على مدار الساعة في كل أنحاء الأرض.



وقد توسع هذا الإعلام منذ العقود المتأخرة من القرن العشرين إلى اليوم توسعًا مذهلًا بتعدد الفضائيات، وشبكات المعلومات، إلى الهواتف الإخبارية الجوالة، إلى الصحافة الإلكترونية، إلى غير ذلك من وسائل الاتصال، وتقنيات المعلومات المتنامية بسرعات مذهلة على شكل طوفان إعلامي يغرق أهل الأرض بوسائل تضليله المبرمجة التي يسهل سقوط ملايين المتلقين فيها فريسة سهلة لتلك البرامج المضللة، على الرغم مما قد يكون فيها من النفع.

والحقيقة المعلنة أن إعلام اليوم – بصفة عامة – لا يتسم بأقل قدر من المصداقية والصراحة، أو الحيادية والبراءة، أو الموضوعية والحق، وإنما هدفه الرئيس هو تضليل جموع الناس تضليلًا بلغ قدرًا هائلًا من التخفي والتستر بكل إمكانات العصر المتراكمة، وتقنياته المذهلة، وفنونه المتطورة، تسترًا وراء صور مفعمة بالزينة من أجل خداع المتلقين، وتغيير أولوياتهم، والتحكم في وجهات نظرهم، والعبث بوعيهم حتى يزدان الباطل في عيونهم، ويقبح الحق إليهم وبذلك انتصرت الرذيلة على الفضيلة، وساد التغريب على الولاء والانتماء، وانحسر الحق وضاع، وطغى الباطل وشاع في أغلب وسائل الإعلام المعاصر...!!

وانتقلت كل هذه الأدواء إلى عالمنا الإسلامي الراهن، فتعرت النساء عريًا مخجلًا على شاشات كل من التلفاز والسينما، وعلى خشبات كل من المراقص والمسارح، وفي لقطات الڤيديو كليب المخجلة، وعلى صفحات الجرائد والمجلات، وفي مختلف وسائل التسجيل، ووقفن أو رقدن في أوضاع مخزية لا تليق، وتلفظن بألفاظ نابية فاحشة، وأتين من السلوكيات ما لا يجوز أبدًا أن يعلن على الناس، خاصة في وسائل الإعلام. وتشبه الذكور بالإناث، والإناث بالذكور في كثير من هذه الفضائح المعلنة، حتى أصبحت هذه السلوكيات المشينة أمرًا عاديًّا غير مستنكر، إن لم يكن سائدًا في أغلب وسائل الإعلام التي اهتمت بمثل هذه السلوكيات المبتذلة، وجرت وراء تفاصيل الجرائم والفضائح؛ وامتلأت ببرامج العنف وغيرها من البرامج المثيرة التي تملأ قلب الطفل بالخوف والفزع، والقلق والهلع، وتجعله يخلط بين الواقع والخيال فضلًا عن انشغاله عن الدراسة وتحصيل العلم، وتعرضه للأمراض والعلل، و كل ذلك قد ساعد على شيوع كل من الجريمة والفاحشة في مجتمعاتنا، والله – تعالى – يتهدد الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا بالعذاب الأليم في الدنيا

والآخرة وفي ذلك يقول - وقوله الحق -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: 19).

وفي زحام الحياة المعاصرة وتسارع وقع أحداثها قد ينشغل الوالدان عن أولادهما انشغالًا جزئيًا أو كليًا، ويتركانهم نهبًا لوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة حتى تجردهم من قيمهم الإسلامية، وتغرب أفهامهم وسلوكياتهم، إن لم تمس عباداتهم وعقائدهم، وهم أمل المستقبل وعدته. وليس مستبعدًا أن يطول ذلك التغريب عددًا من البالغين والكبار، وإن كان الخطر على الصغار أشد لأن ذاكراتهم الصافية لديها القابلية لتسجيل كل ما يشاهدونه ويسمعونه تسجيلًا قد يصعب بعد ذلك محوه أو تصحيحه، فيبقى في أذهانهم كأنه هو الصواب وهو الخطأ كل الخطأ. ومن هنا يتم تغريب شباب الأمة بالتدريج. وفي الإعلام المقروء تملك أصحاب الأقلام شطط جامح، وأصبحت الأقلام لا تبالي ماذا تكتب، ولا كيف تكتب، وتجاوزت فيما تكتب كل حدود الأدب، وقواعد اللياقة، وأمانة الكلمة، فانطلقت بأهواء جامحة لا يضبطها دين أو أخلاق، فلا يصدر عنها إلا كل قبيح مَمْحُوج، ولا تتحمس إلا إلى الفهم واختلاق العيوب، وقذف الأبرياء، واتهام الأطهار، وتشويه الصور بلا وجه حق، ولا أدنى دليل، ولا أية حجة، المهم أن تكتب وتملأ الصفحات بلا أدنى منطق أو أمانة أو اتزان!! وأصبح من الكتاب من عرف بأنهم مستأجرون بأبخس الأثمان للتشويه والسباب والقذف، واختلاق التهم بالباطل من أجل تشويه سمعة الأشراف.

كيف يمكن إصلاح إعلامنا؟

الإعلام هو أحد العلوم الاجتماعية الهامة، والعلوم الاجتماعية سادها في الغرب فوضى عارمة لانعدام مصادر التلقي الصحيحة عندهم، وانتقلت هذه الفوضى إلى عالمنا الإسلامي في ظل الاحتلال الغربي وتمكينه لأعوانه من كل مصادر الإعلام. وبدعوى الحرية تم تشويه صورة الإعلام في بلادنا المسلمة تشويهًا كبيرًا.

والحرية هي من المبادئ الرئيسة في التشريع الإسلامي، ولكن استخدام الحرية بغير ضوابط ربانية تنتهي بالإنسان إلى الفوضى كالتي تسود إعلام اليوم. ومن كرامة الإنسان في الإسلام أن يكون حرًا في التعبير عن آرائه وأفكاره ومشاكله، ومن هنا فإن حرية الرأي وحرية التعبير عنه هي من الحريات التي كفلها الإسلام لكل فرد في

مجتمعه، والتي تضمنتها حقوق الإنسان في جميع المواثيق الدولية. وفي ذلك يوجه ربنا – تبارك وتعالى – خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: 67)، ويقول ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (الحجر: 94).

ويلعن القرآن الكريم اليهود الذين أخفوا كلام الله عن الناس، وحرفوه، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ (البقرة: 159).

ويقول – سبحانه وتعالى –: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: 174).

ويوضح القرآن الكريم أهمية نشر الهداية الربانية بين الناس وعدم كتمانها أو نسيانها أو تحريفها فيقول: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ (آل عمران: 187).

وانطلاقًا من ذلك فإن الإسلام يقرر حرية الفكر والرأي و التعبير لكل فرد يعيش في كنفه، كما يقرر واجب الدعوة بما يعرفه صاحب الرأي – ما لم يكن شططًا – وإلا تحمل إثم كتمان العلم، كما يقرر له الحق في الحوار والمناقشة للآراء المطروحة بكل أسلوب لائق وصحيح ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«من سنَّ سنة حسنة فعُمِل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقُصُ من أجورهم شيئًا، ومن سنَّ سنة سيئة فعُمل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيئًا»**[1].

---

(1) سنن ابن ماجه – كتاب المقدمة – باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة.

والإعلام في جملته هو رأي، وفكر، وخبر، وتسلية، وترفيه، وتواصل بين الناس؛ وحرية الإعلام في ذلك كله مكفولة في الإسلام كما أضحت مكفولة بعد ذلك في كافة المواثيق الدولية. ولكن الحرية إذا مورست بغير ضوابط ربانية فإنها تنتهي بالإنسان إلى الفوضى المدمرة لإنسانيته كما سبق أن أشرنا. وقد وصل الإعلام في الحضارة المادية المعاصرة إلى قدر من التحلل والإسفاف الذي أثر تأثيرًا بالغًا على قيم المجتمع وأخلاقياته وسلوكه، ومن ذلك سيل الأفلام الهابطة، والمجلات الساقطة، والمواقع المنحرفة على شبكة المعلومات الدولية التي تدعو الشباب علنًا إلى الزنا، والخنا، والخيانة، والشذوذ، والانحراف عن الفطرة التي فطره الله عليها إلى ما هو دون سلوك الحيوان، مما يوجب تدخل السلطات المسئولة بما يكفل المحافظة على حرية الإعلام، مع المحافظة الكاملة على كرامة الإنسان وحقوق المتلقين له من كل ما يسيء إليهم وإلى المجتمع الذي يعيشون فيه وإلى أخلاقه وقيمه ومعتقده. وقد انتقلت أمراض الإعلام المادي الغربي إلى الإعلام في ديار المسلمين فوصل إلى درجة من الإباحية والفحش تنافي ديننا وأخلاقنا ومروءتنا. ولن ينصلح إعلام المسلمين إلا بأسلمته؛ بمعنى إلزام القائمين عليه والعاملين فيه روح الإسلام وضوابطه وأخلاقياته، وقيمه، حتى يصبح دعوة راشدة إلى دين الله الذي لا يرتضي من عباده دينًا سواه. وبذلك فقط يمكن تصحيح الواقع التعيس لإعلامنا المعاصر، وتحويله من وسيلة هدم وتدمير للأمة إلى وسيلة بناء لأبنائها وإعمار لها يضعها على طريق الصحوة الإسلامية المرجوة بإذن الله.

والإعلام الإسلامي بطبيعته هو إعلام هادف، له رسالة منضبطة بهدي الله – تعالى – وبسنة رسوله ﷺ فلا يقدم شيئًا يخالف أمرًا من أوامر الله، أو يعارض سنة من سنن خاتم أنبيائه ورسله في أي مجال من مجالاته الثقافية، أو التعليمية، أو التربوية، أو الترفيهية، بل يلتزم في كل نشاط من أنشطته بأصول الإسلام وقواعده وضوابطه الأخلاقية والسلوكية دون أن يحرمه ذلك من الاستفادة الممكنة بجميع الوسائل والتقنيات والأساليب الحديثة اللازمة لتحقيق النجاح فيه ما لم تخالف نصًّا شرعيًّا واضحًا أو أدبًا إسلاميًّا ملزمًا. ويستمر هذا الالتزام في جميع الأنشطة الإعلامية، سواء كان ذلك في نقل الأخبار بصدق وأمانة، أو في تحليلها بدقة وإتقان، أوفي معالجة مشاكل المجتمع بإخلاص وحسن توجيه ورعاية، أو في المحافظة على التراث وحسن نقده وتحليله وتقديمه إلى الأجيال الناشئة دروسًا وعبرًا يتعلمون

منها، ويستفيدون بها، ويتربون على ما جاء فيها من قيم وأخلاق وسلوكيات إسلامية نبيلة، في جو من الترفيه والإمتاع الفني الرفيع الذي يجمع المتلقين لهذا الإعلام الإسلامي الراقي على كلمة سواء توحد صفهم، وتجمع بينهم وترتقي بهم في معراج الله إلى أعلى مقامات التكريم التي كرم الله - تعالى - بها الإنسان الصالح الذي يعرف حقيقة رسالته في هذه الحياة الدنيا: عبدًا لله - تعالى - يعبده بما أمر، ومستخلفًا ناجحًا في الأرض يقوم على حسن عمارتها، وإقامة عدل الله وشرعه في ربوعها. وإنسان هذا وصفه ينبني به المجتمع الصالح الذي يحقق التواصل الناجح بين مختلف أفراده، كما يحقق أمر الله في الأرض، ويحقق الأخوة الإنسانية، وبذلك يحقق الإعلام رسالته الإخبارية والتوجيهية والتعليمية والتربوية، والتثقيفية والترفيهية بنجاح، ويصبح وسيلة نصح وتوجيه وإرشاد للحكام والمحكومين على حد سواء، وأسلوب توثيق للعلاقة بينهما على أساس من الطاعة والرعاية والعدل والإحسان وحسن القيام بمصالح الأمة الداخلية، وبعلاقاتها الخارجية.

وإن لم يتم ذلك فإن الإعلام سيبقى معول هدم في المجتمع، ومجال إفساد لشباب الأمة، ووسيلة سهلة بيد كل من أعدائها والحكام المستبدين في أرضها يوظفونها بدهاء وخبث للسيطرة على جماهير الشعوب، وتوجيهها إلى الخضوع الذليل للعدو الغادر أو للطغمة الحاكمة، دون أدنى مراعاة لصالح العباد أو البلاد، ويبقى هذا النمط من الإعلام وسيلة توجيه أو تجسس للقوى الخارجية المعادية، وخنجرًا مسمومًا في خاصرة الأمة الإسلامية.

وليس المقصود بالإعلام الإسلامي زيادة جانب التثقيف الديني فقط، لأن هذا التثقيف الديني له مراكزه في المجتمع المسلم، ولكن المقصود هو **أسلمة الإعلام بكل وسائله، وأساليبه ورجاله ونسائه ومحتواه**، وغرس الإيمان بمراقبة الله - تعالى - في نفوس القائمين عليه، وذلك لأن الإسلام نظام كامل شامل للحياة، ولو أن من أهداف الإعلام الإسلامي تعريف المتلقين له بحقيقة الإسلام وبأحوال المسلمين، إلا أنه يبقى إعلامًا مطالبًا بالقيام بجميع وظائفه في ضوء الإسلام، ذلك الدين الخاتم الذي حفظه ربنا - تبارك وتعالى - في نفس لغة وحيه على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد، في الوقت الذي ضاعت كل صور الوحي الأخرى وفقدت أصولها؛ ولذلك فإن الله - تعالى - لا يرتضي من عباده دينًا سوى الإسلام، وعلى الرغم من

ذلك فإن أعداء الله من كل لون وفكر ومعتقد حرصوا جميعًا على محاربة الإسلام، وخططوا طويلًا لتشويه صورته في أذهان الناس بكل الوسائل الشيطانية المتاحة لهم من الكذب، والتدليس، والتحريف، والتزوير، وإثارة الشبهات، موظفين أموالهم الطائلة وكل التقنيات والوسائل الحديثة من أجل تحقيق أهدافهم الرخيصة؛ وتكفي في ذلك الإشارة إلى شيطان من شياطين الأرض يدعى «**زكريا بطرس**» خرج من مصر بعدد من الفضائح المالية والأخلاقية والسلوكية، ثم باع نفسه لكل من المخابرات الأمريكية والإسرائيلية، وقام بتحريض الجالية المصرية المسيحية في الخارج على التمرد ومهاجمة الدولة المصرية، كما أقام له أعداء الإسلام قناة فضائية سماها كذبًا باسم «قناة الحياة»، وهي في الحقيقة قناة للموت. وظل هذا الشيطان ومجموعة من زبانيته الكذبة يبثون سلاسل من الفتن الكاذبة، والاستنتاجات الملفقة، والأخبار المزورة بطول ساعات الليل والنهار على مدى أكثر من خمس سنوات يتطاول فيها على شخص رسول الله ﷺ وعلى كل من أمهات المؤمنين وآل البيت والصحابة الكرام، وعلى جميع رموز الإسلام قديمًا وحديثًا، وعلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ببذاءة ووقاحة وجرأة على الحق لم يسبق لها مثيل. ولم يكتف هذا الشيطان المارق بذلك بل زاد بوضع بذاءاته وتدليسه على شبكة المعلومات الدولية في العديد من المواقع التي تتجرأ على دين الله، وعلى خاتم أنبيائه ورسله، وعلى الحق وأهله.

هذا بالإضافة إلى العديد من الإذاعات والقنوات الفضائية الأخرى والصحف والمجلات التي تصدر في داخل مصر من مثل «الكتيبة الطيبية» التي تدعي كذبًا أن جميع مسلمي مصرهم من سلالة الذين قدموا مع عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أثناء الفتح الإسلامي لمصر وأن عليهم أن يعودوا إلى جزيرة العرب من حيث قدم أجدادهم، وهي فرية واضحة الأهداف، وكراهية بادية للحق الوحيد الموجود بين أيدي الناس، ويرد عليهم القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى ﴿ **وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ (الأنعام: 4 - 5).

وبقوله - عز من قائل: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ**

كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (الأنعام: 25 – 26).

وبقوله – تعالى –: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف: 57).

وبقوله: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (النمل: 14)

والله – تعالى – يتهدد هؤلاء المتطاولين على الحق وأمثالهم بقوله العزيز: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: 36).

وفي المقابل فإننا نجد أن من أهداف الإعلام الإسلامي تقديم كل ما يؤدي إلى خير الإنسانية، وفي مقدمة ذلك إثبات حقيقة أن الإنسان مفطور على الإيمان بالله – تعالى – وأن التدين أمر فطري في كل نفس إنسانية، وأن الدين عند الله الإسلام، وأن الإسلام علمه ربنا – تبارك وتعالى – لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، ثم بعث به كل الأنبياء، ونزلت به كل رسالات السماء؛ ولذلك تعهد الله الخالق – سبحانه وتعالى – بحفظ رسالته الخاتمة تعهدًا مطلقًا فحفظت على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وستظل محفوظة بحفظ الله إلى ما شاء الله. من هنا كان التأكيد على العبودية الخالصة لله – تعالى – وحده، وتحقيق مراده من استخلاف الإنسان في الأرض ليبتليه أيؤمن بخالقه أم يكفر به، وكان إنزال الهداية الربانية إليه من أجل الارتقاء بالإنسان إلى مقامات التكريم التي رفعه إليها الله إذا التزم بهداية ربه؛ ولذلك قال – تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: 56 – 58).

وقال – تعالى – عن خلقه المكلف: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: 5).

وقال – سبحانه وتعالى – على لسان أنبيائه ورسله لأقوامهم: ﴿ ... يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ... ﴾ (الأعراف: 59، 65، 73، 85 – هود: 50، 61، 84).

وقال – عز من قائل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل: 36).

ويأمر ربنا – تبارك وتعالى – خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله العزيز:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (الأنعام: 162 – 164).

ويقول الحق – جل شأنه – على لسان هذا النبي الخاتم ﷺ:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: 108).

ويوجه ربنا – تبارك وتعالى – الخطاب إلى أمة الإسلام بقوله العزيز: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ... ﴾ (آل عمران: 104).

وبقوله – عز من قائل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (آل عمران: 110).

ويمايز ربنا – تبارك اسمه – بين العمل الصالح والعمل الخبيث فيقول: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى

ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: 24 – 26).

ويقول – وقوله الحق:

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ...﴾ (فاطر: 10).

ويقول ربنا – سبحانه –: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر: 1 – 3).

ويقول رسول الله ﷺ: **«اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»**[1].

ويقول: **«من دل على خير فله مثل أجر فاعله»**[2] وأكد هذا المعنى الكريم بقوله: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**[3].

وقال ﷺ: **«... لأن يُهدى بك رجلٌ واحدٌ خير لك من حمر النعم»**[4]؛ وقال: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[5].

وقال – صلوات الله وسلامه عليه –: **«ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»**[6].

وقال: **«إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مِنّي يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»**[7].

(1) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب من نوقش الحساب عُذِّب.
(2) صحيح مسلم كتاب الإمارة – باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله.
(3) صحيح مسلم – كتاب العلم – باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة.
(4) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب وعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة.
(5) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.
(6) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في الفحش والتفحش.
(7) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في معالي الأخلاق.

وقال ﷺ: **«كيف بكم إذا فسق فتيانكم وطغى نساؤكم؟ قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشد منه، كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر؟ قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟ قال: نعم، وأشد منه كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفًا والمعروف منكرًا»**[1].

وهذا حال إعلامنا اليوم الذي انعكس على أخلاق وسلوكيات أغلب الناس إلا من رحم الله، فأصبح إعلامًا ينقصه صدق النية، ومضاء العزيمة، وعلو الهمة، ورسوخ اليقين لأنه إعلام صاغه أعداء الأمة، ومكنوا منه طبقة من الإعلاميين تروج للأفكار المعادية، تزين الباطل وتدحض الحق، وتنشر الرذيلة، وتحارب الفضيلة، لأنهم تربوا على موائد الأعداء ونطقوا باسمهم وإن حملوا من الأسماء العربية ما يدينهم ويخزيهم عند ربهم!!

وواجب الإعلام الإسلامي أن يصحح من مسيرته حتى يصير الإسلام بشموله من صميم رسالته، على أن يقدم ذلك بالأسلوب العقلي، التحليلي، العلمي، والإيحائي الصحيح، وليس بالخطاب العاطفي، الوعظي، المباشر فقط. فالإنسان في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه يصل الدليل العلمي إلى قلبه وعقله بأسرع من أساليب التحريك العاطفي الوعظي التقليدي، كما يصل ذلك باستخدام التقنيات الإعلامية الإيحائية المتقدمة. بأسرع من الخطاب الشفهي المباشر الذي تعوده الناس.

وقد حذرنا رسول الله ﷺ - من الخلط وتداخل الأمور في زمن الفتن الذي نعيشه خاصة في مجال الإعلام، فعن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - أنه قال: **«كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله! إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا. قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»**[2].

---

(1) كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك - حديث رقم 1376.

(2) صحيح البخاري - كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام.



وصدق رسول الله ﷺ فها نحن اليوم نقرأ في مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية سخرية من دعاة الإسلام تصل إلى حد السب والقذف، والطعن والتشهير الذي يتجاوز كل حدود الأدب، وليس هذا من غير المسلمين فقط من عتاة الملاحدة والمشركين، بل من بعض الضالين من أبناء المسلمين الذين وصل الأمر بكاتب منهم يحمل اسما عربيًا مسلمًا أن يصل بكتاباته إلى حدود الكفر البواح، فيصف الدعاة إلى الله بأنهم هم سبب تأخر الأمة وسر تخلفها، وهم التافهون السطحيون، والإرهابيون المتطرفون، والمتشددون المتنطعون، والأصوليون والوصوليون، والفوضويون الفضوليون، وهم طلاب المال والحكم والسلطة.. وغير ذلك من التهم الباطلة التي تحاك ليل نهار من أجل فض الناس عن الدعاة إلى الله، وتزهيدهم فيما يدعون إليه.

وفيما يلي بعض مما ينشر من نصوص عديدة في صحفنا يكتبها أناس يتزيون بزينا، ويتسمون بأسمائنا، ويتكلمون بألسنتنا، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

فهذا كاتب كتب يقول: «الملتحون الجدد ضعاف الشخصية، إذا جلسوا في المجالس لا يتحدثون ولا يناقشون إنما ينظرون إليك كالمخدرين».

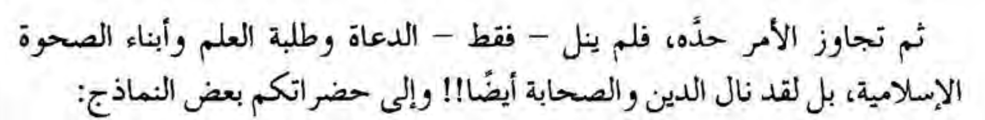
ويقول في نفس المقال: «بعض الملتحين تذكرك أشكالهم بالصحابة وبعضهم يذكرونك بكفار قريش»!![1].

وآخر يكتب عن الملتزمين يقول: «... ولكنهم في الحقيقة لا يعرفون شيئًا عن العالم لأن عقولهم محدودة الفهم حتى وإن كانوا مثقفين فثقافتهم محدودة»، ويضيف: «وخلت المساجد من الأحزاب الدينية في صلاة العصر والفجر؛ العصر لأنهم بعد أن يفترسوا الخراف ظهرًا يشربون اللبن وينامون حتى غروب الشمس، والفجر لأنهم يحيكون المؤامرات ليلًا ويسهرون حتى الصباح بعيدًا عن أعين رجال الأمن»[2].

والعجب ما كتبه بعضهم يقول: «أحذركم من الذي يواظب على الصلوات الخمس وهو يغتسل من جنابة الزنا في حمام المسجد»!![3].

---

(1) السياسة الكويتية: (5663).
(2) السياسة الكويتية: (5636).
(3) راجع كتابي «حقيقة التطرف الديني» و «خواطر على طريق الدعوة».



ثم تجاوز الأمر حدَّه، فلم ينل - فقط - الدعاة وطلبة العلم وأبناء الصحوة الإسلامية، بل لقد نال الدين والصحابة أيضًا!! وإلى حضراتكم بعض النماذج:

- «الدين واللغة والتقاليد ثلاثة أمراض اجتماعية»(1).
- «الفضيلة والكرامة تعترضان مسيرة النجاح»(2).
- «عادل إمام مثل أبي ذر الغفاري.. يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث يوم القيامة وحده»!!(3).
- «في حياتنا اهتمامات لا داعي لها ويمكن أن نلغيها كمعامل الأبحاث الذرية مثلًا؛ لأننا لن نستفيد منها شيئًا.. لكن سوف نستفيد كثيرًا لو أنشأنا مدرسة للرقص الشرقي تتخرج فيها راقصة مثقفة متعلمة لجذب السياح»(4).

وإذا انتقلنا من ذلك إلى الفحش الفاضح، والتحلل من كل فضيلة، والذي جاء في العديد من الكتب من مثل ما جاء في الكتاب المعنون «**وليمة لأعشاب البحر**»، أو المعنون «**عزف الربابة عن محمد والصحابة**» ومن مثل الأفلام الساقطة الكثيرة من مثل فيلم «**عمارة يعقوبيان**» ومن مثل الأدوار الاستخباراتية المشبوهة من مثل **دور البعثة الفرنسية في كلية الإعلام بجامعة القاهرة** - أدركنا مدى الانحطاط الذي وصل إليه إعلامنا.

وتكفي في ذلك الإشارة إلى **وجود أكثر من مائة ألف موقع خاص بإباحية الأطفال على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)** تحمل أكثر من مليون صورة لأطفال تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات واثنتي عشرة سنة في أوضاع تخدش حياء كل من عنده ذرة من حياء، وأن هذا المخزون الهادر لآدمية هؤلاء الأطفال يضاف إليه أكثر من مائتي صورة يوميًا، هذا عدا صور الكبار التي تنحط بهم سلوكياتهم إلى ما دون مستوى الحيوان.

وعندما كثرت هذه الدعاوى الباطلة، وطفح بها الكيل، أدركت الصحوة الإسلامية خطر ترك الإعلام في ديار المسلمين بأيدي أعداء الله، يشوهون صورة

---

(1) جريدة الرياض السعودية: (1532).

(2) مجلة الحسناء: (81).

(3) مجلة المصدر: (3507).

(4) المصدر السابق.

الإسلام، وينسبون إليه كذبًا وزورًا وبهتانًا كل أسباب التخلف في ديار المسلمين، والسبب الحقيقي لتخلف المسلمين كان في إدارة ظهور الإعلاميين للإسلام استجابة لأعداء الأمة الذين قاموا على تدريبهم وتمكينهم من مناصب الإعلام في ديار المسلمين..!!

وبدأ اهتمام الإسلاميين بالإعلام الذي تمكنوا مؤخرًا من انتزاع شيء من حقهم فيه انتزاعًا وسط العديد من المعوقات الداخلية والخارجية التي كان منها عشرات المؤامرات الدولية لإقصاء الإسلام عن كل مقام مؤثر، وكان منها العقبات القانونية في الحصول على التصاريح والتراخيص اللازمة للقيام بمثل هذا النشاط، وقد منعت هذه التصاريح والتراخيص عن الإسلاميين بالكامل في العديد من الدول المسلمة وغير المسلمة. وكان منها غياب القوانين المنظمة للأنشطة الإعلامية في بلاد أخرى، وكان من تلك المعوقات الرقابة الصارمة والجائرة على النشر الإسلامي التي تحذف ما تشاء، ولا تبقي إلا ما تشاء في وسائل الإعلام المطبوعة، وتحرق ما تشاء من المواد المدونة على الأشرطة المسموعة والمرئية، وتغلق ما تشاء من المواقع على شبكة المعلومات الدولية العنكبوتية في ظل الاستبداد السياسي الذي يحكم اليوم أغلب بلاد المسلمين.

كذلك ووجه الإعلام الإسلامي بالعديد من العقبات المالية، والبشرية، لفقر غالبية الدول المسلمة، وانشغال الأغنياء منهم بمتع الدنيا الفانية، والانغماس في صور من الترف المادي والبذخ المخل الذي شغلهم عن الدين وعن التفكير في الآخرة، وعن هموم الأمة، ومشاكلها الحقيقية وعن كم التحديات المفروضة عليها.

ومن التحديات التي واجهتها مجتمعاتنا المسلمة ندرة الإعلاميين المسلمين المؤهلين تأهيلًا علميًا وتقنيًا وفنيًا راقيًا في فنون الاتصال. وعليه فلا بد من تشجيع أعداد أكبر مما هو متوفر اليوم من أبناء المسلمين لدراسة الإعلام،كما يجب أن تربط مناهج الدراسة في كليات الإعلام في العالم الإسلامي بمصادر الدراسات الإسلامية، ويجب على أساتذة الإعلام المسلمين البدء في **عملية التأصيل الإسلامي لدراسات الإعلام** حتى يمكن تخريج أجيال من الإعلاميين الإسلاميين الفاقهين للإعلام كعلم وفن وللإسلام كدين.

وبالرغم من ذلك كله فقد تمكن الإعلام الإسلامي بواسطة المحاولات الفردية والجماعية من تحقيق عدد من النجاحات الملموسة في مجال الكتاب، وصحافة

المجلة، وفي مجال الأشرطة المسموعة والمرئية، وفي بعض البرامج التلفازية، وبعض المواقع وغرف الحوار على شبكة المعلومات الدولية، وإن كان الطريق لا يزال طويلًا في هذا المضمار.

أما الإعلام الحكومي فقد بقي في غالبية الدول المسلمة بعيدًا كل البعد عن عقيدة الأمة وعباداتها وأخلاقها ومعاملاتها مما ساعد على تفشي الرذائل والجرائم وعلى الانحطاط المستمر في الأخلاق والمعاملات حتى بين الطبقات التي نالت حظًا متقدمًا من التعليم وذلك من مثل تفشي إدمان المخدرات والخمور، وانتشار ظاهرتي الزواج العرفي، وزواج المتعة بين طلبة وطالبات الجامعات بنسب مخيفة تتهدد مستقبل الأمة، ومن مثل شيوع العديد من المعتقدات والسلوكيات المنحرفة كالبهائية والقاديانية وعبدة الشيطان وجماعات الملحدين العرب التي تدخل معتقداتهم الزائفة أتباعها في دائرة الكفر البواح بالله..!!

وكل ذلك الركام في الإعلام الحكومي لغالبية الدول المسلمة لا يبرر التسليم بفساده، واليأس من إصلاحه، أو الدعوة إلى مقاطعته والانعزال عنه، لأن الأصل في الإنسان الخير، والشر أمر طارئ عليه، وإذا تمكن الدعاة إلى الله من الوصول إلى الخير في قلوب الإعلاميين العاملين في العالم الإسلامي، وتطهيرها من أمراض الشرور التي أصابتها، أمكن وضع خبراتهم في طريقها الصحيح، خاصة أن الإعلام الإسلامي لا يزال يحبو في خطواته الأولى، ولا يزال مفتقرًا إلى الإعلاميين المسلمين المتفوقين في دراسة الإعلام، والفاقهين لدينهم والمواكبين لعصرهم حتى يستطيعوا التعامل مع كل من التقنيات الحديثة في فنون الاتصال، وإلى الحرفية المهنية في الإنتاج والتسويق. وعلى الرغم من ذلك فإن عددًا من مشاريع الإعلام الإسلامي قد أثبت جدارته وقدرته على الإصلاح برؤية شاملة للواقع الإعلامي المعاصر وخطورته على قيم وأخلاقيات وسلوكيات أمة الإسلام، وقد نجحت هذه المحاولات الجادة في إعطاء الدليل على قدرة الإعلام الإسلامي على انتشال المسلمين من كبوتهم، وعلى إيقاظهم من غفلتهم، وعلى مساعدتهم للحاق بركب الأمم المتقدمة تقنيًا في هذا المجال، ولإعادة دور الحضارة الإسلامية التائه إلى قيادة البشرية الضالة من جديد، وما ذلك على الله بعزيز.

ويتم ذلك في الإعلام الإسلامي بالتزام الدعوة إلى كل ما يصلح الناس في دنياهم وأخراهم، وبالتمسك بالحق والدفاع عنه، وبمحاربة الظلم ومجاهدة الظالمين،



وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في كل أمر من أمور الحياة، وبحمل مشاكل الأمة الإسلامية بكل شفافية وصدق، وبمساعدة المتلقين على فهم رسالة الإنسان في هذه الحياة: عبدًا لله – تعالى – يعبده بما أمر، ومستخلفًا ناجحًا في الأرض يعمرها ويقيم شرع الله وعدله فيها، ويدعو إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة. والإعلام الإسلامي يلتزم التزامًا دقيقًا باحترام كرامة الإنسان وحماية خصوصياته التي لا يجوز للإعلام الخوض فيها أو التشهير بها، كما يحرم المساس بأعراض الأفراد أو خدش حياء المتلقين للإعلام أو إشاعة الفاحشة بين الناس، وفي ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى –:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات: 11-12).

ويقول – عز من قائل –:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: 19).

وقد شاعت الفواحش في غالبية المجتمعات المعاصرة وكثرت المواقع الإباحية على شبكة المعلومات الدولية، وفي العديد من وسائل الإعلام، وزادت معدلات الجريمة بشكل مفزع في مختلف أماكن الأرض ففي صفحة واحدة من جريدة يومية عربية نقرأ مثل هذه الأخبار المفزعة: أب يقتل طفلتيه لخلاف مع زوجته، وزوجة تقطع جثة زوجها إربًا بعد كتم أنفاسه بالاشتراك مع أبنائهما الثلاثة، وجامعي يقتل طفلي خاله بتسديد عشرين طعنة لهما انتقامًا من والدهما الذي طرده من العمل، وطباخ يقتل سيدته مديرة الائتمان بأحد البنوك بالتعاون مع زوجته الخادمة في نفس البيت وذلك من أجل السرقة، وسائق يقتل مطلقته وخطيبها ووالديها وشقيقها دفعة واحدة انتقامًا من مطلقته على اعتزامها الزواج من غيره. هذا بالإضافة إلى العثور

على جثث مقتولين في مساكنهم أو في أماكن أعمالهم في سلسلة من معدلات ارتفاع الجريمة تثير الفزع في المجتمع المسلم، بالإضافة إلى إدمان المسكرات والمخدرات، وانتشار الخلافات الأسرية، وارتفاع معدلات الطلاق، وسيادة الابتذال في السلوك والكلام، وشيوع الزنا تحت مختلف المسميات، وانتشار زواج المتعة وغيره من صور الارتباط بين الجنسين دون توفر الشروط الإسلامية والإمكانات المعينة على ذلك، وانتشار ظاهرة أولاد الشوارع ومعها العديد من الجرائم التي يلعب الإعلام غير الملتزم الدور الرئيسي في شيوعها، **ويعترف عدد من علماء الاجتماع بأن الإعلام الفاسد يقف وراء كل سلوك خاطئ.** كما يقف وراء انتشار العقائد الفاسدة من أمثال البهائية، والقاديانية، وشهود يهوه، و عبدة الشيطان وغيرها من البدع القديمة والمستحدثة.

من هنا كانت ضرورة المبادرة بإصلاح الإعلام في العالم الإسلامي بوضعه في أطره الإسلامية الصحيحة (**التأصيل الإسلامي للإعلام**) حتى يستطيع القيام بدوره في إصلاح المجتمع، وخدمة أهداف الأمة الإسلامية. ويتم ذلك بأسلمة كليات وأقسام ومعاهد دراسات الإعلام، والتوسع في إقامة المؤسسات الإسلامية المختلفة من الصحافة إلى الإذاعة، والتلفاز، والسينما، والمواقع على شبكات المعلومات الدولية، والرسائل التليفونية حتى نطهر إعلامنا المعاصر من سلبياته الكثيرة، ونؤسس إعلامًا يكون مثلًا يحتذى لغيرنا من الأمم إن شاء الله، وما ذلك على الله بعزيز.

ضرورة المبادرة بالإصلاح الاقتصادي في المجتمعات المسلمة المعاصرة

في مخطط حربه على الإسلام والمسلمين فرض الاستعمار الغربي التعامل بالربا على جميع المجتمعات المسلمة في العالم، والربا حد من حدود الله لا يجوز للمسلم الوقوع فيه أبدًا. فقد حرَّم الله – تعالى – الربا في جميع شرائعه السماوية، وذلك لأن ممارسة الربا هي من أبشع صور الظلم الذي حرَّمه ربنا – تبارك وتعالى – فقال في الحديث القدسي: «**إني حرمت على نفسي الظلم وعلى عبادي ألا فلا تظالموا..**»[1] ولكن الشيطان الذي أخرج أبوينا آدم وحواء – عليهما السلام – من الجنة، وأخرج الناس من التوحيد إلى الشرك بعد أن عاشوا عشرة قرون كاملة على التوحيد الخالص لله تعالى (من زمن أبينا آدم إلى زمن نبي الله نوح – على نبينا وعليهما من الله السلام –) ولا يزال الشيطان يغري الناس بالخروج على دين الله بعد مجاهدة مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، وبعد تنزل ثلاثمائة وبضع عشرة رسالة سماوية. ففي مجال التعاملات المالية سعت شياطين الجن والإنس جاهدة ولا تزال تسعى لإخراج الناس من طاعة ربهم في تحريم التعامل بالربا إلى الإغراق فيه حتى الآذان مما أدى إلى خراب الدنيا، كما هو واضح في العديد من المحن الاقتصادية التي منها الأزمة المالية العالمية الراهنة والتي كان من أبرز أسبابها التعامل بالربا في كل شيء.

ومن المعروف تاريخيًا أن الربا كان محرمًا في جميع الشرائع السماوية، ثم أصبح منتشرًا في تعاملات كل من الدولتين الرومانية والإغريقية، ولكن لا بد وأنه قد عرف قبل ذلك، لأن القرآن الكريم يؤكد أن اليهود قد تعاملوا بالربا وأشاعوه بين الناس على الرغم من أن الله – تعالى – قد نهاهم عنه، وحرمه عليهم تحريمًا مطلقًا لا لبس فيه.

(1) مسند أحمد برواية أبي ذر – حديث رقم 21314.

وفي كل من العهدين القديم والجديد لا تزال هناك إشارات عديدة إلى تحريم الربا، وقد أجمعت المجامع الكنسية على تحريمه تحريمًا قاطعًا، ثم عادت إلى السماح به.

وفي العصور الجاهلية أقنع اليهود أهل الجزيرة العربية بالتعامل معهم ومع بعضهم البعض بالربا الذي كان محرمًا في دعوة كل من نبي الله إبراهيم وولده إسماعيل – على نبينا وعليهما من الله السلام – وغرق عرب الجاهلية في وحل الربا حتى منَّ الله تعالى على البشرية ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين – الذي أنزل الله تعالى إليه تحريم الربا تحريمًا قاطعًا، فحرمه، وشدَّدَ في تحريمه بجعل التعامل به من السبع الموبقات المهلكات، أي من الكبائر التي تدخل الواقع في أي منها نار جهنم. ولذلك حذر رسول الله ﷺ من مجرد تطلع الإنسان إلى أي جزاء مادي فوق ما يستحق، في أي مجال من مجالات التعامل بين الناس من مثل تقديم الهدية أو الهبة آملًا في أن ترد بأكثر منها. والتوجيه القرآني في ذلك بدأ برسول الله ﷺ في خطاب موجه إلى شخصه الكريم في مطلع سورة «المدثر»، وهي من أوائل ما نزل من كتاب الله حيث نقرأ قول الحق تبارك وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (المدثر: 1 – 6).

ومن معاني قوله – تعالى –: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ الأمر من الله سبحانه وتعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله ولجميع المؤمنين برسالته ألا يعطي الواحد منهم إلى غيره عطاءً يستكثره، وألا يعطي عطية يلتمس من ورائها ما هو أفضل منها، حتى يكون العطاء خالصًا لله – تعالى – خاليًا عن انتظار العوض تعففًا وأدبًا وحسن خلق مع الله – سبحانه تعالى – ومع عباده، وإلا أدخل المرء نفسه في دائرة الربا. ولذلك يروى عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «**من شفع لأحد شفاعة، فأهدى له هدية، فقبلها، فقد أتى بابًا عظيمًا من الربا**»[1].

وعنه – صلوات الله وسلامه عليه – أنه قال: «**غُبْنُ المستَرسِلِ حرام**»[2]، والمسترسل هو الرجل البسيط الساذج القادم من البادية أو الريف إلى المدينة ثم

(1) مسند أحمد – حديث رقم 22152.

(2) رواه ابن الهيثمي في مجمع الزوائد – كتاب البيوع – باب في الغبن في البيع.

يدخل إلى السوق فيها دون أدنى معرفة به، ولا بأسعار محتوياته، ولا بأساليب التعامل فيه فيعتبره المحتالون لقمة سائغة للابتزاز.

ثم أخذت آيات القرآن الكريم تتنزل بتحريم الربا بمنهجية تربوية فريدة، تستأصل الرذائل التي غرسها شياطين الجن والإنس في أعراف الضالين من بني آدم، والتي توارثتها الأجيال المتعاقبة عبر أحقاب متطاولة من الصراع بين الحق الذي أنزله الله – تعالى – والباطل الذي وسوست به شياطين الجن والإنس.

ونزلت آيات تحريم الربا في تدرج تربوي، منطقي، سديد، وعلى مراحل متصاعدة حتى يصل القرآن الكريم بالإنسان ومجتمعه إلى الغاية المنشودة بأقصر طريق ممكن وأسلمه. فقد تناول كتاب الله تحريم الربا في أربعة مواضع منه، **كان أولها** نزولًا قوله – تعالى – ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ (الروم: 39).

وهذه الآية الكريمة توجيه غير مباشر للناس، إيقاظًا لقلوبهم وعقولهم وضمائرهم وتنبيهًا إلى الفارق الكبير بين اليد العليا واليد السفلى في تعاملات الناس، وبين العطاء بالرضا أو بالمن والأذى، وبين الأخذ بالحلال والأخذ بالحرام، وبين ما يرضى به الله – تعالى – وما لا يرضيه من تصرفات عباده وسلوكياتهم.

وقد جاء ذلك كله بصيغة بيانيّة معجزة في إيجازها، وفي دلالاتها الأخلاقية والسلوكية انطلاقًا من حقيقة أن المرابي لا يزيد ماله، وإن تراءت للأعين زيادته وذلك لأن البركة تنتزع منه، بينما الذي ينفق من ماله ابتغاء مرضاة الله فإن الله – تعالى – يبارك له في ماله ووقته، وفي صحته وعمره، وفي أهله وولده ويرد عليه المال أضعافًا مضاعفة ولذلك قال – عز من قائل: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾.

أما **الموضع الثاني** من كتاب الله الذي يحرم التعامل بالربا فجاء درسًا للاعتبار من سيرة اليهود الذين حرّم الله – سبحانه وتعالى – عليهم الربا فغرقوا فيه إلى آذانهم، وأكلوا أموال الناس بالباطل فعاقبهم الله – تعالى – بذنوبهم وفي ذلك يقول – وقوله الحق: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء: 160 – 161).



وفي **الموضع الثالث** جاء الأمر بتحريم التعامل بالربا، وبالنهي الصريح عن الوقوع فيه وذلك بقول ربنا – تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران: 130).

وقد ظن البعض من ظاهر هذه الآية الكريمة أن المحرَّم هو فقط الربا الذي يبلغ أضعافًا مضاعفة، وهذا خطأ كبير لأن ظاهر الآية الكريمة يقتضي بيان الواقع وتشنيعه والنهي عن الربا الذي كان شائعًا بين عرب الجاهلية، وقد كان أضعافًا مضاعفة، وفيه اللوم لهم على ذلك، ولتحقير الربا وتحريم التعامل به قليلًا كان أو كثيرًا، ومثل هذا الوصف لا يعتبر قيدًا في المنع بحيث يجيز الربا ما لم يكن أضعافًا مضاعفة كما ظن بعض الناس لأن ذلك من سوء الفهم لدلالة الآية الكريمة.

وفي **الموضع الرابع** جاءت الآيات رادعة صادعة في تحريم الربا وذلك بقول الحق – تبارك وتعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾
(البقرة: 275 – 281).

وكانت هذه الآيات التي خُتِمَ بها تحريم الربا، هي التي ختم بها التشريع القرآني كله على ما صح عن ابن عباس – رضي الله عنهما – تأكيدًا على شناعة الوقوع في هذا الحد من حدود الله – سبحانه وتعالى – وفي ذلك قال المصطفى ﷺ: **«إن الحلال**

بيِّن وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام.. كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]، وفي الحديث القدسي يقول ربنا – تبارك وتعالى: **«ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يوفه أجره»**[2].

وأحاديث رسول الله ﷺ في تحريم الربا كثيرة نختار منها ما يلي:

- **«إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قلٍّ»**[3].
- **«لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهديه وكاتبه، هم فيه سواء»**[4].
- **«وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه»**[5].
- **«إن رجالًا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة»**[6].
- **«أربعة حقٌّ على الله ألا يدخلهم الجنة، ولا يذيقهم نعيمها مدمن الخمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حق، والعاق لوالديه»**[7].
- **«الراشي والمرتشي في النار»**[8].
- **«لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليلزمنكم الله مذلةً في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله، وترجعوا على ما كنتم عليه»**[9].
- **«مَطْلُ الغني ظلم»**[10] (أي تسويفه في سداد ما عليه).

---

(1) صحيح مسلم – كتاب المساقاة – باب أخذ الحلال وترك الشبهات.
(2) كنز العمال – حديث رقم 43793.
(3) كنز العمال – حديث رقم 9786.
(4) كنز العمال – حديث رقم 9767.
(5) انظر السلسلة الصحيحة للألباني حديث رقم 1433.
(6) كنز العمال – حديث رقم 16757.
(7) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري – ج2، ص37.
(8) مجمع الزوائد لابن الهيثمي – كتاب الأحكام – باب في الرشا.
(9) مسند أحمد – حديث رقم 5007.
(10) صحيح البخاري – كتاب الحوالة – باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة.



- **«من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»**[1]
- **«اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا يا رسول الله: وما هن؟، قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»**[2].
- **«الجالب مرزوق والمحتكر ملعون»**[3].
- **«من احتكر طعامًا أربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى وبرئ الله تعالى منه...»**[4].
- **«... ومن غشنا فليس منا»**[5].
- **«... ومن نبت لحمه على السحت فالنار أولى به»**[6].

والسحت هو كل ما خبث من المكاسب وحُرِّم، وهو الربا.

- **«ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال؛ أمن حلال أم من حرام»**[7].
- **«من دخل في شيء من أسعار المسلمين، ليُغْلِيَهُ عليهم، فإن حقًّا على الله، تبارك وتعالى، أن يقعده بِعُظْمٍ من النار يوم القيامة»**[8].
- وفي حجة الوداع وقف رسول الله ﷺ ببطن وادي عرفة يخطب الناس فقال: **«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث؛ كان مُستَرْضِعًا**

(1) صحيح البخاري – كتاب المظالم – باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض

(2) صحيح البخاري – كتاب الوصايا – باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾.

(3) سنن ابن ماجه – باب الحكرة والجلب، السنن الكبرى للبيهقي.

(4) مسند أحمد – مسند عبدالله بن عمر – حديث رقم 4648.

(5) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب قول النبي ﷺ «من غشنا فليس منا».

(6) رواه ابن الهيثمي في مجمع الزوائد – كتاب البيوع – باب في ثمن القَيْنة.

(7) صحيح البخاري – كتاب البيوع – باب قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

(8) مسند أحمد، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط.

في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا؛ ربا عباس ابن عبدالمطلب، فإنه موضوع كله...»[1].

وبذلك اكتمل تحريم التعامل بالربا أخذًا وعطاءً، بكل أشكاله وصوره وذلك بأمر الله – تعالى – وأمر رسوله ﷺ، ولم يعد هناك مجال للاجتهاد في هذا الأمر إلا في حالات الضرورة القصوى التي تقدر بقدرها، ولا يكفي في هذه الحالة أن يكون المرء عالمًا بأصول دينه، وبقواعد شريعته، بل يجب أن يكون له من الورع والتقوى ما يحجزه عن التسرع في تطبيق الرخصة أو التوسع في ذلك بغير ضرورة، كما يجب ألا يلجأ إلى الترخص إلا بعد استنفاد كل الحلول المشروعة، فإنه إن فعل ذلك عسى الله – تعالى – أن يفتح له بابًا يغنيه عن الترخص بالوقوع في الحرام كما هي سنة الله في أهل العزائم من عباده المؤمنين الذين قال فيهم: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: 2 – 3).

- ويحذر المصطفى ﷺ من الترخص في أكل الربا بغير ضرورة في أزمنة شيوعه بين الناس فقال: **«يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا، فيأكل ناس أو الناس كلهم فمن يأكل منهم ناله من غباره»**[2].

- وفي رواية أخرى: **«ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكله أصابه من بخاره»**[2].

وقد تحقق إخبار رسول الله ﷺ وجاء هذا الزمان، ففي أواخر القرن السادس عشر الميلادي (**1593م**) سمحت أوروبا المسيحية بالتعامل بالربا في استثمار أموال القاصرين بإذن من القاضي. ثم تجرأ بعض الملوك ورؤساء الكنيسة على انتهاك التحريم السائد على التعامل بالربا ففتحوا هذا الباب الحرام بالتدريج، وكان من هؤلاء **لويس الرابع عشر** الذي اقترض بالربا ليسدد ثمن دانكرك في سنة **1662 م**، وتبعه في ذلك **البابا «بي التاسع»** الذي تعامل بالربا في سنة **1860 م**.

---

(1) صحيح مسلم – كتاب الحج – باب حجة النبي ﷺ.

(2)، (2) سنن البيهقي الكبرى – كتاب البيوع – باب ما جاء من التشديد في تحريم الربا.

أما الذين فتحوا باب التعامل بالربا على مصراعيه في أوروبا فقد كانوا حماة الثورة الفرنسية (وهي ثورة يهودية الجذور والدوافع)، فبتاريخ (1789/10/12 م) قررت الجمعية العمومية في فرنسا أنه يجوز لكل من أراد أن يتعامل بالربا في حدود خاصة يعينها القانون، ومن ثم انتشر التعامل بالربا في كل الدول الأوروبية انتشار النار في الهشيم، في ظل الحضارة المادية السائدة، والرغبات الجشعة في التملك، وحب جمع الأموال بأية وسيلة ممكنة وبأنانية وفردية مفرطة.

وبعد أن تعرضت غالبية أراضي المسلمين للغزو الأجنبي (الغربي أو الشرقي)، تم فرض التعامل بالربا على اقتصاديات المسلمين بسلطة المستعمرين، فلم يكد ينتصف القرن التاسع عشر الميلادي إلا وقد سرت عدوى التعامل بالربا إلى غالبية بلاد المسلمين الذين بدأوا في التعامل به اقتراضًا فقط دون إقراض، ثم اتسع الأمر بعد ذلك ليشمل كلًّا من الإقراض والاقتراض، مع بقائه محظورًا حسب القانون. ثم دخل الإذن به في دائرة التشريع تحت ضغط من السلطات المحتلة، وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت غالبية الشعوب المسلمة رافضة لفكرة البنوك الربوية رفضًا كاملًا.

ولكن هذا الرفض للوقوع في حد من حدود الله (هو الربا) أخذ يضمحل في أوائل القرن العشرين؛ نتيجة لاستمرار ضغوط المستعمرين وضغوط المتغربين من أبناء المسلمين الذين مكنهم الاستعمار من مراكز اتخاذ القرار في غالبية بلاد المسلمين. ففي مصر – على سبيل المثال – حدث في أوائل القرن العشرين أن امتنعت المصارف الأجنبية التي أسستها القوى الاستعمارية على أرض مصر عن إقراض المصريين، مما دفعهم إلى إنشاء بنوك مصرية تتعامل بالربا (إقراضًا واقتراضًا) مخالفين بذلك أوامر الله – تعالى – وأوامر رسوله ﷺ، وأثار هذا الأمر جدلًا طويلًا في مختلف الأوساط الدينية والفكرية ووسائل الإعلام المصرية والعربية والإسلامية. ففي سنة 1903 م ألفت الحكومة المصرية لجنة من علماء الأزهر لدراسة موقف الشرع من الحوافز التي يدفعها صندوق توفير البريد للمودعين فيه وتمت الموافقة عليها للأسف الشديد في غفلة من حسن الفهم. وفي شهر ربيع الأول سنة 1326 هـ/ 1912 م عقد العديد من المؤتمرات لمناقشة فوائد البنوك، وألقيت سلسلة من المحاضرات والمناظرات والمناقشات، انتهت برفض الفكرة لمخالفاتها الشرعية، مع ارتفاع عدد قليل من الأصوات بقبولها بناءً على الدعوى الباطلة بأن الربا المحظور شرعًا هو الذي يصل

إلى الأضعاف المضاعفة حتى يبلغ مساواة رأس المال أو يزيد عليه، وهو فهم خاطئ للنص القرآني الوارد في الآية (130) من سورة «آل عمران» كما أسلفنا.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ انتشار البنوك الربوية في مصر وفي غيرها من بلاد المسلمين، وشاع التعامل بالربا حتى ألفه الناس، ولم يجدوا في ذلك غضاضة، وانبرى المدافعون عن فكرة البنوك الربوية في محاولة يائسة لمحو وصمة الربا عن تعاملاتها من أجل تشجيع المزيد من الناس على الوقوع في أوحاله..!!

ومع انتشار البنوك الربوية في مختلف بلاد المسلمين - تحت وطأة الاحتلال العسكري أو الاقتصادي أو الفكري رغم أنف الأغلبية الغالبة من أبناء المسلمين - بدأ الناس يألفون الوقوع في هذه المعصية الكبيرة بالتدريج، وبدأت تلك البنوك الربوية في القيام بدور التحكم في اقتصاد البلاد وفي الدخول إلى غالبية دور المسلمين حتى عم البلاء، ولم يبق أحد من الناس إلا أكل الربا، ومن لم يأكله منهم أصابه غباره أو أصابه بخاره كما أخبر رسول الله ﷺ. وتعاملت الدول كما تعامل الأفراد بالربا، فانتزعت البركة، وعم الغلاء، وانتشر البلاء، وتراكمت الديون، وشاع القحط، وتعددت النوازل والكوارث في كل مكان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتكفي هنا الإشارة إلى ما جَرَّته فوائد البنوك على العديد من المؤسسات والشركات والأفراد من إفلاس، وما جَرَّته فوائد الديون من كوارث على جميع الدول المسلمة ومن ضمنها مصر، ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي عجزت الخزانة المصرية عن دفع الديون المتراكمة عليها (والتي تضاعفت بالربا أضعافًا كثيرة) وكان ذلك سببًا تذرعت به بريطانيا في احتلالها لأرض مصر العربية المسلمة، ذلك الاحتلال الذي أذل العباد، ودمر البلاد، وتسبب في العديد من الكوارث التي ما زالت مصر والمصريون يعانون منها إلى اليوم، بل يعاني منها كل من العالمين العربي والإسلامي.

وما أشبه الليلة بالبارحة، وقد تراكمت الديون على الخزانة المصرية، وعلى غيرها من خزانات الدول المسلمة وضاعفها الربا الفاحش أضعافًا كثيرة حتى عجزت الميزانية عن دفع فوائد الديون، واضطررنا إلى مد الأيدي إلى الأمريكان وإلى غيرهم طلبًا للمعونات بشروط وقيود، وإملاءات في شئوننا الداخلية والخارجية، أفقدتنا الكثير الكثير، وتسببت لنا في العديد من الخسائر المادية والمعنوية، ولا تزال.

وفي التسعينيات من القرن العشرين صدرت الفتوى من دار الإفتاء المصرية بشرعية عوائد شهادات استثمار البنك الأهلي المصري. وفي 2002/11/28 م (الموافق 1423/9/23 هـ) أصدر مجمع البحوث الإسلامية فتواه بشأن شرعيةالعوائد (الفوائد) التي تؤديها البنوك إلى المدخرين لديها، وذلك بدعوى أن هؤلاء المدخرين يقدمون أموالهم إلى البنك ليكون وكيلًا عنهم في استثمارها في معاملاته المشروعة.

ونتيجة للوقوع في هذا الحد من حدود الله انتزعت البركة، وعم البلاء، واستَعَرَ الغلاء وتعددت الكوارث والنكبات، واشتدت الأزمات والمحن، وانتشر الفقر، وحل القحط، وساد الجشع والاستغلال والتحايل على الكسب، واشتدت الصراعات بين الناس، وتحللت الأخلاق، وضاعت القيم، وعم الفساد، وتعددت صور الكسب الحرام، وتفنن شياطين الإنس في فرضها واقعًا على المجتمع، ونسي الناس أن الرزق مقسوم أزلًا، فتحايلوا عليه بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وتحقق قول الحق – تبارك اسمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ (إبراهيم: 28)، وقوله – سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (طه: 124).

وقوله سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: 41).

وقوله – تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: 96).

ويؤكد رسول الله ﷺ أن الرزق مقسوم سلفًا، ولا يحتاج الإنسان في طلب الرزق إلى شيء من التحايل أبدًا ولذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه: «**إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله**»[1] وفي رواية: «**لو أن ابن آدم يهرب من رزقه كما يهرب من الموت لأدركه رزقه كما يدركه الموت**»[2].

ولم تتوقف آثار الربا على ديار المسلمين وحدهم، فقد مر العالم في الثلاثينيات من القرن العشرين (1929–1933م) بأزمة اقتصادية طاحنة تعرف باسم «أزمة الكساد

(1)، (2) كشف الخفا للعجلوني – حديث رقم 705.

العظيم» كادت تقضي على مقومات الاقتصاد فيه. وقد تلا ذلك أعداد من الهزات المالية والاقتصادية المتلاحقة، من مثل أزمة تساقط البنوك التجارية في الولايات المتحدة الأمريكية (1985–1992م)، والأزمة المالية للأسهم الأمريكية سنة 1987م، **والأزمة المالية الحادة التي أصابت المكسيك سنة 1995م، وأزمة النمور الآسيوية سنة 1997م التي أصابت كل دول الآسيان (وهي سنغافورة، وتايوان، وكوريا الجنوبية، وهونج كونج، وتايلاند، وماليزيا، وإندونيسيا)، والأزمة المالية الروسية سنة 1998م، والأزمة الاقتصادية في الأرجنتين سنة 2001م**. وخلال هذه الأزمات حذر صندوق النقد الدولي من تدخل الحكومات لمواجهة هذه الاختلالات المالية والاقتصادية، وفرض إملاءاته الخاصة على تلك الدول مما عمق الانعكاسات الخطيرة للأزمة المالية فيها. والدولة الوحيدة التي رفضت تعليمات صندوق النقد الدولي كانت **ماليزيا** التي خرجت من الأزمة بأعجوبة بفضل التزامها بالتوجيهات المالية الإسلامية، بينما بقيت غالبية دول جنوب شرقي آسيا غارقة في بحار الأزمة المالية إلى اليوم، ومن أمثلتها إندونيسيا. وأزمة فقاعة الإنترنت سنة 2002م، ويقدر علماء الإحصاء أن الأزمات الاقتصادية التي مر بها النظام الرأسمالي في النصف الأخير من القرن العشرين تجاوزت المائة أزمة.

وتجددت الأزمة في مطلع القرن الحادي والعشرين (2001–2009م) بتداعيات خطيرة للانهيار المالي الكبير في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي تردد صداه في مختلف دول العالم، وكان من أسبابه الرهن العقاري، وفوضى السوق المالي الأمريكي القائم على الربا الفاحش، والخلل الواضح في سياسة الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه العالم الإسلامي والدخول في حروب غير مبررة أنهكت ميزانياتهم المالية العملاقة. وللأزمة أسباب عديدة ومتشابكة إلى الحد الذي يصعب فيه التمييز بين أسبابها والنتائج المترتبة عليها، إلا أن التعامل بالربا، والخلل في أداء مؤسسات التمويل الغربية خاصة في مجال التمويل العقاري، والفساد المنتشر في المؤسسات الاقتصادية الغربية وعلى رأسها المؤسسات الأمريكية (البنوك، شركات التأمين، أسواق الأوراق المالية، وغيرها) خاصة فيما يتعلق بالتقويم المالي للشركات، واعتماد ميزانياتها. وقد تفجرت أزمة الرهن العقاري في مطلع سنة 2007م ثم تلتها أزمة البورصات في أغسطس من نفس السنة، مما أجبر العديد

من البنوك الأمريكية على تخفيض أسعار أسهمها، وأجبر بنك الاحتياطي الفيدرالي على تخفيض معدل الفائدة بشكل كبير، **حتى تصاعدت الدعوات من الغرب العلماني الدهري (اللاديني) إلى ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال الاقتصادي نظرًا لثبوت خطورة التعامل بالربا**. فقد دعت كبريات الصحف الاقتصادية الأوروبية إلى **أن الحل الأمثل للتخلص من براثن النظام الرأسمالي (القائم أساسًا على التعامل بالربا إقراضًا واقتراضًا، والذي يقف وراء الكارثة الاقتصادية التي تخيم على العالم اليوم) يكمن في تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال الاقتصادي، حيث يحرم الإسلام التعامل بالربا أخذًا وعطاءً تحريمًا جازمًا**.

ففي افتتاحية المجلة الاقتصادية الفرنسية الشهيرة التي تحمل اسم «التحديات» (Challenges) العدد الصادر بتاريخ 2008/9/11م كتب رئيس تحريرها **فانسان بوفيس (Vincent Beau Fils)** تحت عنوان **«البابا أو القرآن»** مقالًا أثار موجة عارمة من الجدل وردود الفعل في الأوساط الاقتصادية، فقد تساءل الكاتب في مقاله هذا عن مدى الالتزام الأخلاقي في النظام الاقتصادي الرأسمالي، وعن دور المسيحية كدين، والكاثوليكية كمذهب في تكريس هذا الأسلوب غير الأخلاقي في التعاملات الاقتصادية. وتساءل الكاتب أيضًا عن تساهل الكنيسة الكاثوليكية بالذات في تبرير فوائد البنوك الربوية، مؤكدًا أن هذا التصرف الاقتصادي السيئ أدى بالبشرية إلى الهاوية. وبأسلوب ساخر يقترب من التهكم عن موقف الكنيسة من هذه القضية، وجه هذا الكاتب الخطاب إلى البابا الحالي للفاتيكان (البابا بنيديكت السادس عشر) قائلًا له: **أظن أننا في هذه الأزمة بحاجة أكثر إلى قراءة القرآن بدلًا من الإنجيل لفهم حقيقة ما يحدث بنا وبمصارفنا واقتصادنا، لأنه لو حاول القائمون على مصارفنا احترام ما ورد في القرآن من تعاليم وأحكام وطبقوها، ما حل بنا ما حل من كوارث وأزمات، وما وصل بنا الحال إلى هذا الوضع المزري؛ لأن النقود لا تلد نقودًا**.

وبنفس الأسلوب طالب **رولاند لاسكين (Roland Laskine)** رئيس تحرير جريدة المال الفرنسية (Le Journal des Finances) في افتتاحية الأسبوع المؤرخ (2008/9/25م) **بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية في المجال المالي والاقتصادي لوضع حد لهذه الأزمة التي تهز أسواق العالم من جراء التلاعب بقواعد التعامل والإفراط في المضاربات الوهمية غير المشروعة**.

وفي مقاله الذي جاء بعنوان: «**هل تأهلت وول ستريت(Wall Street) لاعتناق مبادئ الشريعة الإسلامية؟**» عرض «لاسكين» للمخاطر التي تحدق اليوم بالرأسمالية كنظام اقتصادي، وطالب بضرورة الإسراع بالبحث عن خيارات بديلة لإنقاذ الوضع الاقتصادي العالمي المنهار، وفي ذلك قدم الكاتب سلسلة من المقترحات المثيرة كان في مقدمتها **ضرورة تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية رغم تعارضها مع التقاليد والمعتقدات الدينية السائدة في الغرب**.

وبالمثل قامت **الهيئة الفرنسية العليا للرقابة المالية** (وهي أعلى هيئة رسمية تعنى بمراقبة نشاط البنوك في فرنسا) **بإصدار قرار يقضي بمنع تداول الصفقات الوهمية والبيوع الرمزية التي تسود في النظام الرأسمالي، واشترطت التقابض في أجل محدد بثلاثة أيام لا أكثر من إبرام العقد، وهو ما يتطابق مع أحكام الفقه الإسلامي، كما أصدرت نفس الهيئة قرارًا آخر يسمح للمؤسسات والأفراد بالتعامل في الأسواق المالية الفرنسية بنظام الصكوك الإسلامية، وهي صكوك مرتبطة بأصول ضامنة بطرق متنوعة تتلاءم مع مقتضيات الشريعة الإسلامية**.

كذلك صدر أخيرًا كتاب لباحثة إيطالية باسم «لوريتا نابوليوني» بعنوان «**اقتصاد ابن آوى» أشارت فيه الكاتبة إلى أهمية نظام التمويل الإسلامي ودوره في إنقاذ الاقتصاد الغربي المنهار**، واعتبرت أن الوضع الطارئ الذي يعيشه عالم اليوم في مجال الاقتصاد ناتج عن الفساد المستشري، والمضاربات الصورية التي تتحكم في السوق، والتي أدت إلى مضاعفة الآثار الاقتصادية إلى ما هو أسوأ مما حدث في أزمة سنة 1929م. وأضافت هذه الكاتبة **أن التوازن في الأسواق المالية يمكن التوصل إليه بفضل تطبيق نظام التمويل الإسلامي، الذي اعتبرته النظام الأكثر ديناميكية وعدلًا بين مختلف النظم المالية المتداولة في العالم، مؤكدة أن المصارف الإسلامية يمكن أن تكون البديل المناسب للبنوك الغربية**، فمع انهيار بورصات العالم في هذه الأيام، ومع تفاقم أزمة القروض في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن النظام المصرفي التقليدي (أي القائم على أساس من النظام الربوي) بدأ يظهر تصدعًا كبيرًا، وأصبح محتاجًا إلى حلول جذرية عميقة من أبرزها الأخذ بنظام الاقتصاد الإسلامي.

كذلك كتب العديد من الكتاب العرب عن دور اليهود في الأزمة المالية العالمية الراهنة، وهم دعاة التعامل بالربا عبر التاريخ، ومن ذلك **إعلان إفلاس اثني عشر بنكًا**

أمريكيًا خلال فترة قصيرة، كان منها رابع أكبر بنك أمريكي وهو بنك «**ليمان براذرز**» الذي حول إلى الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين أربعمائة مليار دولار، ثم أعلن إفلاسه قبل تفاقم الأزمة المالية العالمية بشهور قليلة، وكان هذا البنك هو أول البنوك الأمريكية التي أعلنت إفلاسها، وهو البنك الذي أنشأته سنة 1850م في الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من اليهود الأوروبيين المهاجرين إلى أمريكا. والاتهامات الموجهة إلى مديري هذا البنك اليهودي لا تقتصر على تلاعبهم بحسابات العملاء، بل تمتد لتشمل سرقة أموال المودعين ونقلها سرًا إلى أراضي فلسطين المحتلة بواسطة شراذم اليهود العاملين فيه.

وليس هذا الأمر مستغربًا على سلوك اليهود الذين قاموا من قبل بعملية نهب منظم لموارد الاقتصاد الوطني الألماني وتهريبه إلى خارج ألمانيا عن طريق سيطرتهم على النظام المصرفي الألماني وتحكمهم في أسواق المال الألمانية إبان الحربين العالميتين الأولى والثانية، مما دفع كلًا من الحاكمين الألمانيَّين **بسمارك** ومن بعده **هتلر** إلى مطاردة اليهود والانتقام منهم لإضرارهم البليغ بالاقتصاد الألماني في زمن الحرب وقبله وبعده.

وقد شملت الأزمة المالية العالمية الراهنة إعلان سلسلة طويلة من البنوك ومؤسسات المال الأمريكية والأوروبية إفلاسها وقد بلغ عدد البنوك المفلسة في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها أكثر من أربعمائة بنك كان من أشهرها ما يلي:

1 – بنك ليمان براذرز (Lehmann Brothers Bank).

2 – بنك واشنطن المشترك (Washington Mutual Bank) الذي اشتراه بنك مورجان لإنقاذه من الإفلاس.

3 – مجموعة ميري لينش المالية (Merry Lynch Financial Group) التي تم إنقاذها بإدماجها مع البنك الأمريكي (Bank of America).

4 – مؤسسة التأمين الأمريكية إي آي ج (AIG Insurance Group) التي وقفت على حافة الإفلاس لولا تدخل الحكومة.

5 – تأميم أهم شركتين أمريكيتين للرهن العقاري.

كذلك تم إعلان إفلاس العديد من البنوك وشركات التأمين الأوروبية مثل شركة التأمين البلجيكية/الهولندية «فوربس»، وبنك برادفورد وبينجلي البريطاني الذي تم

تأميمه، وبنك (إتش بي أو إس) الذي اشتراه بنك لويدز لتنجيته من الإفلاس. ومع توالي إفلاس البنوك وشركات التأمين توالى تدهور الأسعار في كل بورصات العالم إلى اليوم.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية كتب العديد من أساتذة المال والاقتصاد عن الأزمة المالية العالمية الراهنة منتقدين السياسة المالية الأمريكية في إطلاق العنان للسوق المالية دون رقابة حقيقية من الحكومة، كما انتقدوا تأميم المصارف والشركات المالية المنهارة بأموال دافعي الضرائب، فكأنها (أي الحكومة الأمريكية) تؤمن حفنة من الأغنياء المستغلين بأموال الأغلبية من الفقراء ومحدودي الدخل، وهو تعبير صريح عن أكذوبة الديموقراطية الغربية التي تستغل الشعوب لمصلحة قلة من الرأسماليين الفاسدين.

فقد ضخت الحكومة الأمريكية سبعمائة مليار دولار لشراء الرهون الهالكة، ولإنقاذ البنوك والمؤسسات المالية من إعلان إفلاسها، ولحماية الاقتصاد الأمريكي من الانهيار، في محاولة يائسة لحل الأزمة المالية الراهنة، كما دفعت مائتين وخمسين مليار دولار لشراء أسهم البنوك والمؤسسات المالية المنهارة دون جدوى. وقد علل المسئولون الماليون الأمريكيون أنهم اضطروا للتدخل المباشر والسريع لمواجهة الزلزال المالي الذي هز الاقتصاد الأمريكي مهددًا بأخطار غير مسبوقة، متخلين بذلك عن مبدأ (**الاقتصاد الحر**) الذي حاولوا فرضه بالقوة على جميع دول العالم، مستخدمين في ذلك كل أساليب الضغط السياسي والمالي، والتهديد بعدد من العقوبات في ظل هيمنة المحافظين الجدد على المؤسسات المالية الدولية واعتمادهم على قوى العولمة الرأسمالية الشرسة التي حاولت فرض اقتصاد السوق على العالم كله بالقوة.

كذلك ضخت الوحدة الأوروبية مبلغًا تجاوز تريليوني دولار لحل أزمتها المالية دون جدوى، فقد أعلن الكثير من البنوك والمؤسسات المالية والشركات الصناعية الأوروبية إفلاسها في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة.

ومن الكتاب الأمريكيين الذين انتقدوا الفوضى الرأسمالية في الولايات المتحدة الكاتب الياباني المتأمرك فرانسيس فوكوياما (Francis Fokoyama) الذي انتقد فشل الحكومة الأمريكية في تنظيم ورقابة القطاع المالي بدعوى تبنِّيها دورًا صغيرًا في الحياة الاقتصادية، ودعوتها لدول العالم من أجل إلغاء دور الدولة ودور القطاع

العام في الاقتصاد، والعمل على خصخصة مختلف الأصول التي تملكها الدول بما في ذلك جميع مصادر الثروات الطبيعية والمؤسسات الخدمية وإفساح المجال للقطاع الخاص المحلي والدولي على حد سواء لامتلاك هذه الأصول بحجة أنه الأقدر على تطوير الاقتصاد. وقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية فرض هذه السياسة الخرقاء على مختلف دول العالم، على الرغم من الخراب الذي ألحقته عمليات الخصخصة؛ حيث مورس في تنفيذها أبشع أساليب الفساد من النهب والسرقة والرشوة إلى خراب الذمم وتضييع ثروات الشعوب التي زادت معدلات البطالة والفقر فيها، في حين تضاعفت ثروات بعض الأغنياء بشكل خيالي. **وتحت شعارات مزيفة عديدة من مثل شعار اقتصاد السوق قويت شوكة الليبرالية الجديدة على مستوى العالم، ودعت إلى تدويل حرية انتقال رءوس الأموال دون رقابة وطنية، وتوفير كل الآليات التي تسمح بذلك من أجل تنفيذ مخططات سياسية غربية محددة في مختلف دول العالم، وفي دول العالم الثالث بصفة خاصة.**

من أوجه الإعجاز التشريعي في تحريم الربا

أولا: التأكيد على قيمة المال في الإسلام:

يشير العديد من آيات القرآن الكريم إلى قيمة المال في الإسلام بوصفه الوسيلة الرئيسة في تقييم كل من جهود الناس وأقدار ممتلكاتهم، ومن هنا كان لا بد من بقاء قيمة المال ثابتة حتى يصلح وسيلة للقياس، فلا يزيد المال إلا بإنتاجية حقيقية، ولا ينقص إلا بخسارة فعلية؛ لأن المال لا يلد مالًا، والنقود لا تلد نقودًا إلا إذا اختلط ذلك بالجهد الإنساني المشروع من أجل عمارة الأرض والسعي على مصالح الناس.

ومن هنا فلا يمكن اتخاذ المال سلعة بذاته تباع من أجل تحقيق شيء من المكاسب المادية، أو تعار بزيادة مقابل الأجل؛ لأن ذلك يؤدي إلى كساد المجتمعات، وبطالة أفرادها، وفسادها فسادًا كبيرًا. فالمال هو من العوامل الأساسية المؤثرة في انتعاش الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية واستقرارها في أي مجتمع من المجتمعات، وفي فتح مجالات العمل لإعمار الأرض، وفي نجاح الأمم ماديًا ومعنويًا، وفي تقدمها العلمي والتقني، وفي تقديم كافة الخدمات لأبنائها من التعليم إلى الرعاية الصحية

والاجتماعية، إلى مختلف الأنشطة العمرانية والأمنية والدفاعية. من هنا وضع الإسلام للمال من الضوابط في كسبه وإنفاقه ما يصون قيمته، كما حرم اتخاذه هدفًا مقصودًا لذاته يطلب بأية وسيلة ممكنة، سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة كما هو الحال اليوم، وسواء أضرت تلك الممارسات بالمصلحة العامة أم لم تضر. ووضع الإسلام لكسب المال من الضوابط ما صان قيمته، كما وضع لإنفاقه من الضوابط ما صان صاحبه؛ لأن الإسلام لا يقبل إنفاق المال لمجرد تحقيق الأهواء والشهوات والمتع المادية المجردة من كل غاية نبيلة، أما المتع الحلال فهي مباحة بنص القرآن الكريم الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 32 - 33).

وعلى ذلك فإن جمع المال في الإسلام يجب أن يكون منزهًا عن كل كسب حرام من مثل الربا الذي يشمل - بالإضافة إلى مدلوله المادي في التعاملات المالية - كلًا من الرشوة، والاحتكار، والغش، والاكتناز، والنجش (أي التلاعب بالأسعار)، وأكل مال اليتيم بغير حق، وأكل المال العام أو الخاص (أموال الناس) بالباطل عن طريق التحايل، أو التزوير، أو استغلال النفوذ، أو الخداع، أو السمسرة، أو تطفيف الكيل والميزان، أو كثرة الحلف بالباطل، وغير ذلك من الأساليب الضارة بالمجتمع أفرادًا وجماعات وأممًا، والمتلاعبة بقيمه وأخلاقياته. ومن ذلك أيضًا الغيبة والنميمة، والظلم بمختلف أشكاله وصوره، وكل هذه السلوكيات الخاطئة مما حرمه الإسلام ووضعه رسول الله ﷺ في دائرة الربا بمعناه الواسع، ومن هنا أمر بتحري الحلال في كل شيء فقال - صلوات الله وسلامه عليه -: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهة فمن ترك ما شبّه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان**»[1].

كذلك يقرر الإسلام أن المال الذي يكتسب بالحلال هو أشرف من أن ينفق في غير طاعة الله الذي أعطاه، أو أن يقتصر على الانصراف الكلي إلى متع الحياة الدنيا

(1) صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما مشتبهات.

وزينتها، علمًا بأن الاستمتاع بالطيبات من الرزق في حدود المباح شرعًا هو من حق صاحب المال، ما لم يصاحب بالإسراف المخل والبذخ الزائد عن الحد؛ لأن الاستمتاع بالطيبات من الرزق فيه صحة للبدن، وعفة للنفس، وتقوية للإنسان على حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض في نور من هداية الله ورعايته، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[1].

وانطلاقًا من ذلك كله فإن الإسلام يعتبر المال مال الله – سبحانه وتعالى – ويعتبر أصحاب المال مستخلفين فيه، ومن ثم فإن الإسلام يأمر بطلب المال بالطرق المشروعة، ويحرم أكله بالباطل، ويحض على الإنفاق منه حسب الطاقة على ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والسائلين من أصحاب العاهات، والعجزة، واللقطاء، والأرامل، والأحداث الضائعين، والمنكوبين والمكروبين من الخلق أجمعين.

كذلك **حرم الإسلام كنز المال، حتى لا تأكله الصدقة (الزكاة)**، وحذر من البخل وأمر بتوزيع الإرث، وأقر المساءلة عن أصل المال، كما أقر العدالة في توزيع الثروات، وأمن المرافق العامة، وحرّم تحديد الأسعار في الأحوال العادية، وعدد طرق الإنفاق في سبيل الله وحضّ عليها، ومنها **الزكوات** (زكاة المال، زكاة الزروع، زكاة الفطر)، ومنها **الصدقات، والنذور، والكفارات، والأضاحي**، ومنها **الوقف الذري** (أي: للذرية)، **والخيري** (أي: لأهل الحاجة)، **والوصية، والعارية، والهدية، والهبة، وإغاثة المحتاجين والجوعى** خاصة في أحوال الأزمات، ودعا إلى تأسيس الجمعيات الخيرية القائمة على مختلف الأنشطة النافعة. كذلك حبب رسول الله ﷺ في إنظار المعسر، وفي التجاوز عن غير القادر، فقال: «**من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينظر معسرًا، أو ليضع عنه**»[2].

ففي نظام الاقتصاد الإسلامي لا بد من أن يدور المال دورته باستمرار حتى يستفيد بالنماء الحلال، ويفيد في إنتاج ما يصلح المجتمع أفرادًا وجماعات، ومن هنا كان النهي عن اكتناز الأموال.

---

(1) فتح الباري – كتاب المغازي – باب غزوة ذات السلاسل.

(2) سنن البيهقي – كتاب البيوع – باب ما جاء في إنظار المعسر والتجوز عن المعسر.



ثانيًا: التأكيد على حرمة الربا:

(الربا) في اللغة هو مطلق الزيادة والنمو، و**(الربا) في التعاملات المالية** هو من البيوع الفاسدة المنهي عنها نهيًا مغلظًا في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، وهو في اصطلاح الفقهاء **الزيادة على أصل المال من غير تبايع، أو هو فضل مال لا يقابله عوض في معاوضة مال بمال، أو هو زيادة أحد البدلين المتجانسين من غير أن يقابل هذه الزيادة عوض**، وينقسم الربا إلى قسمين رئيسيين هما:

1 – **ربا النسيئة (ربا الأجل)**: وهو قرض مؤجل مقابل زيادة مشروطة، أو هو زيادة الدين في مقابل الأجل، أي هو الربا الذي تكون فيه الزيادة المذكورة في مقابل تأخير الدفع (الأجل)؛ لأن لفظة (النسيئة) معناها التأخير، وهو كبيرة من الكبائر، وهو ربا الجاهلية، وهو الربا السائد اليوم في غالبية المعاملات المالية والبنكية.

2 – **ربا الفضل** (**أو ربا الزيادة في التجارة أو البيوع**): وهو الذي تكون الزيادة فيه مجردة عن التأخير، **فيتم في شراء وبيع السلع يدًا بيد في غير تكافؤ كامل وعادل**، وهو حرام في المذاهب الأربعة لما عساه أن يوجد من مختلف صور التحايل والتلبيس التي قد تلحق الغبن بالناس والإضرار بمصالحهم. وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والتمر بالتمر والبر بالبر، والشعير بالشعير، والملح بالملح، مثلًا بمثل، يدًا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد**»[1].

ويقول – صلوات الله وسلامه عليه:

«**لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلًا بمثل، ولا تشفوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلًا بمثل، ولا تشفوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائبًا بناجز**»[2].

وجاء في صحيح البخاري كذلك عن كل من أبي سعيد الخدري وأبي هريرة (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ استعمل رجلًا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب (وهو الطيب المنقى من الرديء والحشف) فقال له رسول الله ﷺ: «أكل تمر خيبر هكذا؟». قال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين

---

(1) سنن الدارقطني – كتاب البيوع – حديث رقم 82.

(2) صحيح البخاري – كتاب البيوع – باب بيع الفضة بالفضة، ومعنى لا تشفوا: لا تزيدوا.



بالثلاثة. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تفعل، بع الجمع (أي التمر المخلوط جيده برديئه) بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا**»[1].

وعنه ﷺ أنه قال: «**لا تبيعوا الدينار بالدينارين ولا الدرهم بالدرهمين؛ إني أخاف عليكم الرماء** (أي الربا)»[2].

وعلى ذلك فإن زيادة أحد العوضين على الآخر الذي هو من جنسه لا تجوز؛ لأنها زيادة لا يقابلها عوض، وهي من الربا المحرم تحريمًا باتًّا، قليلُه وكثيرُه سواء، وهذا عام في جميع الأحوال سواء كانت المبادلة فيها من قبيل الصرف (كما في الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة) أم كانت من قبيل المقايضة، وهي مبادلة السلعة بسلعة من نوعها (كمبادلة التمر بالتمر)، وعلى ذلك فإن حرمة ربا الفضل لا خلاف عليها بين معظم العلماء من الصحابة الكرام وتابعيهم إلى وقتنا الحاضر، وإن التبست الأمور على بعض الكتاب في القديم والحديث استنادًا إلى رواية أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «**الربا في النسيئة**»[3]. والحديث ليس فيه إلغاء لـ «**ربا الفضل**»، ولكن فيه تحذير من خطورة «**ربا النسيئة**»، وتعظيم لحجم خطيئة الواقع فيه، **فربا النسيئة** حرام كله، لا فرق في ذلك بين عائد ثابت، وعائد محدد بنسبة مئوية من قيمة أصل القرض، ولا بين مبلغ مقطوع يدفع مقدمًا أو عند حلول الأجل، أو خدمة مشروطة لا يتم القرض إلا بها. والربا محرم مثل بقية المحرمات التي حرمها الله – تعالى – وذلك بقوله – تعالى –: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: 275).

والأصل في الأحكام الشرعية أن ينفذها المؤمن بالله طاعة لربه سواء فهم الحكمة منها أو لم يفهمها، فالأصل في الأحكام الشرعية أنها تبنى على العلة لا على الحكمة؛

---

(1) صحيح البخاري – كتاب البيوع – باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، والجنيب بوزن عظيم هو الذي أخرج منه رديئه.

(2) مجمع الزوائد – كتاب البيوع – باب بيع الطعام بالطعام.

(3) كنز العمال – حديث رقم 9817، وانظر سنن البيهقي الكبرى – كتاب البيوع – باب من قال الربا في النسيئة.

لأن العلة هي الأمر الإلهي الظاهر المنضبط الذي يكون علامة واضحة على الحكم الشرعي، بخلاف الحكمة التي قد يراها نفر من المؤمنين ولا يراها غالبيتهم، والتي قد تختلف أفهام الناس في تحديدها، فلا يمكن أن تكون جامعة مانعة تستوعب كل الصور والحالات في جميع الأزمنة والأماكن، كما هو الحال في الحكم الشرعي. وإن فهمت الحكمة من التشريع الإلهي التزم به المؤمن التزامًا أدق، واستمتع بالتزامه هذا استمتاعًا أشمل مما لو كان غير فاهم للحكمة منه، وكان أجره على هذا الالتزام الدقيق بأوامر الله – تعالى – أوفى وأجزل إن شاء الله.

ونحن نفهم من حكمة تحريم الربا أن المال يجب ألا يزيد إلا بإنتاجية حقيقية، ولا ينقص إلا بخسارة فعلية حتى تبقى قيمته ثابتة فيصلح وسيلة لقياس جهود الناس ولتقييم ممتلكاتهم، فالمال لا يلد مالًا بذاته، ولا يأكل بعضه بعضًا، وإنما ينمو بالعمل وبذل الجهد، ويتناقص بخسارة حقيقية.

والإسلام لا يحرم الناس من امتلاك المال وإنمائه، ولكن يطالبهم بضرورة طلبه وإنمائه بالحلال لا بالحرام، وبالحق لا بالباطل، وذلك لأن طلب المال بالباطل يؤدي إلى خراب الدنيا والمال ما دام يؤخذ بحقه، وينفق في حله فهو مال حلال، وإن خرج عن ذلك فهو مال حرام.

وسوء استخدام المال بطرق غير مشروعة قد تَجَسَّدَ في الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة التي نتجت عن المبالغة في التعامل بالربا، وفي رفع شعار اقتصاد السوق الحر باعتبار هذا السوق قادرًا وحده على إعادة التوازن للاقتصاد وتعديل مساراته، ولكن هذا الانفلات وتلك الفوضى قد أديا إلى بيع كل دولار أمريكي وكل بيت وكل سلعة في المجتمع الأمريكي لأكثر من (36) عميلًا في المتوسط، كما أدت هذه الفوضى المالية إلى ازدياد أحجام المكنوز العالمي غير المستخدم من الأموال الموظفة في المعاملات الربوية والمضاربات الصورية إلى أكثر من (90%) وإلى تناقص المستخدم منها في كل من عمليات الإنتاج والخدمات إلى أقل من (10%)، وكان هذا من أبرز أسباب الأزمة المالية العالمية الراهنة.

وينمو المال في الإسلام نموًا حلالًا بكل عمل نافع مشروع يقوم به صاحب المال بنفسه، أو بمشاركة غيره في تعاون مشروع بين رأس المال والكفاءات البشرية من أجل صالح كل من الطرفين وصالح المجتمع الذي يعيشان فيه بالمشاركة

أو المضاربة أو المرابحة. **والمشاركة** في الاقتصاد الإسلامي تقتضي أن يتحمل الطرفان نتيجة الاستثمار، فإن تحقق من هذا الاستثمار ربح بتوفيق من الله تقاسماه بينهما بنسبة رأسمال كل منهما، وإن تحققت خسارة تحملاها بنسبة رأس المال. وفي **المضاربة** يكون أحد الطرفين هو رب المال، والطرف الآخر هو المضارب، ويقتسم الربح بينهما على ما اتفقا عليه من نسبة لكل منهما (قل أو كثر)، وإن أصاب العمل خسارة (بقدر الله) خسر رب المال شيئًا من ماله، وخسر المضارب جهده ووقته. أما **المرابحة** فتقوم أساسًا على بيع السَّلَم أي بيع الأجل أو البيع بالتقسيط الذي أباحه رسول الله ﷺ. وهذا هو العدل القائم على أن الغرم بالغنم، وأن الخراج بالضمان، بينما وظيفة البنوك الربوية الحالية هي الاتجار في الديون والقروض أو ما يسمى باسم (الائتمان)، والتعامل في الأوراق المالية والسندات بربا لا يرضاه الله – تعالى – ولا يرضاه رسوله ﷺ ولا تقبله مكارم الأخلاق.

وهذا الاتجار في الديون والقروض هو الذي أغرق الولايات المتحدة الأمريكية وبقية دول العالم في الأزمة المالية والاقتصادية الطاحنة التي تتهدد أهل الأرض اليوم بالخراب، والتي ثبت أن أسبابها تكمن في طبيعة النظام الرأسمالي الذي أثبت فشله وأعلن عن نهاية سيطرة الرأسمالية كنظام اقتصادي كان يدير أموال وأنشطة العالم الاقتصادية بعقلية المقامر الذي لا هم له إلا جمع المال بأية وسيلة ممكنة، بغض النظر عن الشرعية الدينية أو الأخلاقية لتلك الوسلية.

وبالإضافة إلى المصلحة الاقتصادية البحتة من تحريم الربا، فإن للإسلام ضوابط أخلاقية وسلوكية من هذا التحريم، وذلك من أجل إقامة المجتمع المسلم على أساس من التعاون والتراحم بين الناس، لا على أساس من استغلال الغني للفقير، والقوي للضعيف كما هو الحال في المجتمعات الربوية، ومن ذلك يتضح الجانب الإنساني في تحريم الربا، كما تتضح جوانبه الاقتصادية الهامة، وفي ذلك من الدروس ما فيه للأفراد وللمجتمعات من تربية دينية قوامها مخافة الله – تعالى – إلى الأخذ بمكارم الأخلاق وبأفضل الأساليب الاقتصادية في تنمية الأموال وضبط التعامل فيها، ولذلك ربط الله – تعالى – النهي عن الربا بالإيمان، فقال – عز من قائل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ (البقرة: 278).

وتهدد ربنا – تبارك وتعالى – الواقعين في الربا بحرب من الله ورسوله قائلًا: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 279).

وختم هذه الآيات بتذكير بيوم الحساب والجزاء قائلًا: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 281).

ومن المعلوم أن ودائع البنوك الربوية ليست ودائع بالمفهوم الشرعي، فالوديعة في الشرع الإسلامي لها مفهومها، ولها أحكامها المقررة، **ومنها أن يد المودَع لديه (أي الذي تحفظ عنده الوديعة) هي يد أمانة، وليست يد ضمان؛ لأنه غير مسئول عن هلاك هذا المال بالتلف أو السرقة أو غير ذلك، إلا إذا خان هو الأمانة، أو تعدى على الوديعة، أو قصر في حفظها**. والأمر الوحيد في البنوك الربوية الذي ينطبق عليه مدلول الوديعة الشرعية هي الخزائن المؤجرة التي يضع فيها مستأجرها ما يشاء من مال أو نفائس أو وثائق، ويتحمل هو مسئوليتها. كذلك لا يمكن تكييف دور البنك الربوي بدور المضارب، وتكييف دور المودع فيه بدور رب المال؛ لأن عقد المضاربة يقتضي اشتراك الطرفين في كل من الربح والخسارة، وهذا ما لا يحدث في البنوك الربوية، وعلى ذلك فإن الفائدة على جميع أنواع القروض هي من الربا المحرم شرعًا، لا فرق في ذلك بين قرض استهلاكي وقرض إنتاجي، ولا بين فائدة قليلة أو كثيرة، والوزر في ذلك يقع على كل من كانت له صلة بإتمام عملية الربا (آكله، وموكله، وكاتبه، وشاهديه).

لذلك حرم الإسلام العظيم التعامل بالربا بكل أنواعه، وأشكاله، وألوانه، وصوره، ومقاديره، ومبرراته، إلا في حالة واحدة وهي الوشوك على الهلاك جوعًا والتي فسرها رسول الله ﷺ بقوله: «أن يجيء الصبوح والغبوق ولا تجد ما تأكله». وهذه حالة نادرة الوجود؛ وذلك لأن مثل هذا الاضطرار إلى الوقوع في وحل الربا تجبره وتنقذ من الوقوع فيه أبواب كثيرة منها الزكوات والصدقات وأعمال البر الكثيرة، ولذلك قال – تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: 276).

ويقول – عز من قائل – مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة: 103 – 104).

ويأمر الإسلام العظيم بالإنفاق حسب الطاقة في عشرات الآيات القرآنية الكريمة، ويمتدح المنفقين في سبيل الله حتى لا يكون في المجتمع المسلم من يمر عليه الصباح والمساء دون أن يجد ما يأكله، فيضطر إلى اللجوء للربا، فمن يحتاج إلى المال ليأكل فعلاجه الصدقة وليس الاقتراض بالربا.

كذلك يواجه الإسلام العظيم سد حاجات الناس المادية بحضهم على العمل، فقال – تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ (البقرة: 275) ويدخل في دلالة البيع هنا أوجه الاستثمار الإسلامي من المشاركة والمضاربة والمرابحة، فمن يحتاج المال ليتاجر به فعلاجه أبواب الاستثمار الإسلامي الثلاثة هذه وما يتفرع عنها من معاملات، وليس الاقتراض بالربا.

من هنا قرر الإسلام العظيم تحريم كل أنواع الربا وأشكاله وصوره حماية للقطاع الغالب من الأمة وهم أصحاب الدخول المحدودة من العمال، والموظفين، والمحالين إلى التقاعد، والأرامل والأيتام، وأصحاب الاحتياجات الخاصة؛ وذلك لأن الربا هو السبب في الاستعار المستمر في الأسعار الذي يكتوي بناره هؤلاء جميعًا. ولما كان كل من الإقراض والاقتراض بالربا محرمًا فإن الضرورات تبيح المحظورات، ولكن ما أبيح بالضرورة يقدر بقدرها حتى لا يصبح المباح بالضرورة أصلًا يقاس عليه وقاعدة متبعة؛ لأن الإباحة للأمر المحرم في حالات الضرورة هو استثناء مؤقت يزول بزوال تلك الضرورة، والتي منها أن تغلق أبواب الحلال كلها بعد طَرقِها أمام المضطر فردًا كان أو حكومة، وألا يجد هذا المضطر أيّة بدائل شرعية تسد حاجته وتخرجه من حد الضرورة، فإن وُجِدَ أيٌّ من هذه البدائل فلا يجوز له اللجوء للحرام بأي حال من الأحوال، إلا أن تتحقق الضرورة بالفعل، ولا يكون ادعاؤها مجرد محاولة للاستفادة بالحرام الصراح.

وما أشبه الليلة بالبارحة، وقد تراكمت الديون على الخزانة المصرية، وضاعفها الربا الفاحش أضعافًا كثيرة، وفتحت البورصة المصرية أبوابها للطامعين والمتسلقين

المتآمرين من كل جنس ولون، وعادت خفافيش الظلام إلى انتزاع العديد من كبريات الشركات ومؤسسات الخدمات تحت مظلة الخصخصة!!

ولكن من رحمة الله - تعالى - بنا أن أبقى لنا طائفة من المؤمنين الرافضين للتعامل بالربا، والذين ظلوا يدافعون عن النظم الاقتصادية الإسلامية حتى شاء الله أن تقوم أعداد من المؤسسات المالية الإسلامية، فاقت المئات في مختلف أنحاء العالم، وأثبتت نجاحها على الرغم من الحرب الضارية التي شُنَّت عليها من المتغربين من أبناء المسلمين قبل المعادين من غير المسلمين.

ويتم نجاح هذه المؤسسات المالية والاقتصادية الإسلامية في وقت انهيار النظم الشيوعية والاشتراكية من جهة، وبدء انهيار النظم الرأسمالية من جهة أخرى، والتي كان بُعدُها عن دين الله وعن الالتزام بمكارم الأخلاق التي يدعو إليها، وتبنيها للنظم الربوية سببًا في أزمة مالية عالمية تكاد تأكل الأخضر واليابس من على وجه الأرض. فمن الملاحظ أنه في ظل معاناة غالبية دول العالم من العجز في ميزانياتها العامة بسبب التعامل بالربا، فإن فوائض الأموال العالمية تتركز في صناديق البنوك الربوية الكبرى والشركات المالية عابرة الحدود والقارات. ويقدر المختصون بأسواق المال أن التداولات المالية اليومية لمختلف الأنشطة الاقتصادية هي في حدود تريليون دولار، بينما تدور مئات التريليونات الأخرى في المضاربات الصورية على الأسهم والسندات وعلى أسعار السلع الضرورية مما أدى إلى ارتفاعات حادة في أسعارها وإلى زيادة معدلات التضخم في وقت تباطؤ الإنتاج مما فرض حالة من الكساد على اقتصاديات العالم بأسره.

كل ذلك يشرح ومضة الإعجاز التشريعي في تحريم الربا، والذي يجسده قول ربنا - تبارك وتعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: 276).

وقد تحقق منطوق هذه الآية الكريمة في عنف الأزمة المالية الحالية التي تعتصر العالم بأسره، وذلك بشكل واضح لكل ذي بصيرة.

ثالثًا: التأكيد على أن الإصرار على التعامل بالربا دون توبة صادقة قد يخرج صاحب الربا من ملة الإسلام:

ويستدل على ذلك من ختم هذه الآية الكريمة بقول الحق - تبارك وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي كل فائق الكفر، شديد الإثم. وفي ذلك تغليظ

لجريمة الوقوع في الربا وتأكيد على أنه من فعل الذين بالغوا في الكفر، وتجاوزوا الحد في الإثم.

ويؤكد لنا التاريخ أن الربا كان محرمًا في جميع الشرائع السماوية التي انحرف عنها أتباعها فأباحوه، وجاء الإسلام العظيم ليؤكد حرمته تأكيدًا جازمًا بجعله من أكبر الكبائر إذا استحله صاحبه، ولم يتب عنه قبل وفاته، وذلك بنص القرآن الكريم الذي يقول لنا ربنا تبارك وتعالى فيه: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: 275). لذلك جعل رسول الله ﷺ الربا أحد السبع الموبقات المهلكات فقال: **«اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»**(1).

وبقي التعامل بالربا من الجرائم المستترة لليهود حتى تمت إباحته في الغرب في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي، ثم تبنته الثورة الفرنسية وجعلته من مبادئ الدولة الرسمية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي (1789 م)، ومن ثم انتشر التعامل بالربا في العالم كله انتشار النار في الهشيم حتى أصبح القاعدة الأساسية للتعاملات المالية والتجارية والصناعية والزراعية في زمن عولمة الاقتصاد الذي نعيشه، والذي يحاول النظام الرأسمالي الفاسد فرض وجوده على مختلف دول العالم تحت مظلة كل من «صندوق النقد الدولي» والبنك الدولي وغيرها من المنظمات الأممية.

رابعًا: الأزمة المالية العالمية الراهنة تؤكد ومضة الإعجاز التشريعي في قول ربنا - تبارك اسمه -: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾:

من الثابت تاريخًا أن أي خروج على منهج الله – تعالى – ينتهي بصاحبه إلى الدمار التام في الدنيا قبل الآخرة، ولذلك قال الحق – تبارك اسمه: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: 276).

---

(1) متفق عليه.

وقد انهارت النظم اليسارية (الشيوعية والاشتراكية) بنهاية القرن العشرين لثبات فشلها بعد أن حمَّلت الإنسانية ثمنًا باهظًا من القهروالاستبداد، والدمار والخراب، وحين بات فشلها ظاهرًا للعيان تم سقوطها بالكامل.

وقد ظن كثير من البسطاء أن في سقوط اليسار إثباتًا لنجاح النظم اليمينية الرأسمالية، وهي نظم وضعية فاسدة، لا تقل فسادًا عن النظم اليسارية لمخالفتها شرع الله. وبقيت النظم الرأسمالية تتعثر المرة تلو المرة، وتحاول ستر عوارها حتى فضحتها الأزمة المالية الراهنة وكشفت فسادها بأيدي أبنائها الذين أعادوا إلى الأذهان روعة نظام الاقتصاد الإسلامي وضرورة العودة إليه.

خامسا: الإعجاز التشريعي في قوله - تعالى -: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

بعد أن قرر الله – تعالى – أنه **«يمحق الربا»**؛ أي يفنيه ويُذْهِبُ بركته بالكامل، كما رأينا في العديد من الأزمات المالية السابقة، ونرى في الأزمة المالية العالمية الراهنة، وكما نلاحظ في جميع المجتمعات التي تتعامل بالربا، وما تعانيه من مختلف ضروب الشقاء والتعاسة، والقلق النفسي، والاضطراب الاجتماعي، والجشع، والأنانية، والمقامرة، ومحاولة الحصول على المكاسب المادية بأية وسيلة ممكنة، لذلك أكد ربنا – سبحانه وتعالى – أنه يمحق الربا وفي المقابل أكد – تعالى – أنه يبارك في الصدقات؛ أي في المال الذي تدفع زكاته، والذي يتصدق منه تطوعًا، فينميه الله، ويوفق صاحبه في كل اتجاه يقصده. ويتحقق ذلك في كل مجتمع يقوم على التكافل والتعاون بين أفراده فتسوده روح المحبة والمودة والسماحة والرضا والطمأنينة، وتنتزع منه كل مشاعر الحسد والضغائن والكراهية وتمنى زوال النعم، ويسوده التطلع باستمرار إلى فضل الله وثوابه، وإلى عونه وبركته وإخلافه، فيبارك الله – تعالى – في هذا المجتمع الصالح القائم على كفالة الغني للفقير (بدفع حق الله في المال)، وعلى حمد الفقير لله (الذي شرَّع الصدقات)، ثم للأغنياء في مجتمعه (الذين أطاعوا الله – تعالى – فيه وفي أمثاله من المحتاجين). وهذه البركة ليست مقصورة على الجانب المادي الذي تعهد الله – تعالى – بأنه يخلفه أضعافًا كثيرة، وإنما يمتد إلى نواح أخرى عديدة قد تكون أكثر أهمية وإلحاحًا في حياة الناس، فيمتد إرباء الصدقات (أي نمو المال المزكى) إلى المحافظة على الصحة والعافية، والشعور بالرضا والأمن، والمباركة في الذرية، والتوفيق في جميع الأعمال، والطمأنينة في

القلب، والراحة في البال، والإحساس بمعية الله – تعالى – في كل وقت، وما أروعه من إحساس.

وشتان ما بين المجتمعين: مجتمع الأنانية والمقامرة والجشع، والتحايل على الرزق، ومجتمع الأخوة الإنسانية والمحبة والتراحم بين الناس واليقين بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين. وقد لخص القرآن الكريم الموقفين في قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: 276).

وواقع العالم عبر تاريخ البشرية الطويل، والأزمة المالية الطاحنة التي تجتاح عالم اليوم، الذي حاد عن منهج الله – تعالى – فَشَرَّعَ للربا في دساتيره، وغرق إلى آذانه في أوحاله لأكثر من قرنين كاملين من الزمان، كل ذلك يبرز خطورة الخروج على أوامر الله في كل منحى من مناحي الحياة، ويلجم كل متطاول على نظام الاقتصاد الإسلامي بلجام من حديد، **ويبرز ومضة الإعجاز التشريعي في تحريم التعامل بالربا بمختلف أشكاله وصوره القديمة والمستحدثة.**

فنصيحتي لأمة الإسلام أن تلتزم بأوامر ربها في تحريم الربا، وأن تسعى جاهدة إلى التطهر من أرجاسه وأنجاسه ومصائبه، وأن تدرك كيف أقدم كثير من الدول غير المسلمة على تأسيس عدد من البنوك غير الربوية والتي يطلقون عليها أسماء مثل «**بنوك بلا فوائد**»، بل سمح الكثير من هذه الدول بإقامة بنوك إسلامية كاملة أو أفرع للمعاملات الإسلامية حيث إن دولة مثل بريطانيا أسس بها منذ سنة 2004م أكثر من 23 بنكًا يقدم الخدمات المصرفية الإسلامية، كما أعلنت الحكومة البريطانية عزمها على إصدار صكوك إسلامية لتمويل موازنة الدولة، ودعت الحكومات الإسلامية للاكتتاب في تلك الصكوك من أجل المشاركة في حل الأزمة المالية العالمية الراهنة، وإن كان في ذلك من التحايل على المسلمين ما فيه!!

ولعل تحريم الربا في المعاملات الإسلامية يكون حافزًا للمسلمين من أجل إنشاء **سوق إسلامية مشتركة** تؤسس للتعاون الاقتصادي بين المسلمين، وتعين على استثمار مدخرات الأغنياء منهم في ديار الإسلام، بدلًا من وضعها في البنوك الربوية التي تصب في النهاية في خزائن أعداء الإسلام. فقد أشهرت مؤخرًا أعداد من البنوك الربوية العالمية إفلاسها بسبب الأزمة المالية الراهنة، فأضاعت تلك البنوك المفلسة على المسلمين – حكومات، وهيئات، ومؤسسات، وشركات، وأفرادًا – أكثر من تريليون دولار أمريكي، وهذا هو الرقم المعلن، وما خفي كان أعظم، ولو بقيت

هذه الثروات الطائلة في العالم الإسلامي لعمرته، وهذا يجعل إثم المودعين في تلك البنوك الربوية العالمية إثمًا مضاعفًا؛ أولًا لمخالفة شرع الله في التعامل بالربا، وثانيًا لضياع أموال المسلمين هدرًا إلى أيدي أعداء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والتجربة الإنسانية تؤكد فشل كل من النظامين الوضعيين (الرأسمالي والاشتراكي) في تحقيق هدفي العدالة والكفاءة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وذلك لتركيزهما على مادية الحياة، وعلى محاولة التلبية القصوى للحاجات المادية عند الأفراد في الحياة، وعلى حتمية صراع الطبقات، وعلى الدعوى الباطلة بأن البقاء للأقوى، وكل ذلك من شعارات الحضارة المادية المعاصرة. لذلك فقد كان في تبني الحكومات في العالم الإسلامي لأي من هذين النظامين الوضعيين مخالفة لأوامر الله ولتوجيهات خاتم أنبيائه ورسله، وخروج واضح على نصوص الشريعة الإسلامية ومقاصدها.

وإن كانت الوفرة المادية في الدول غير المسلمة قد سترت عيوب هذين النظامين لفترة من الزمن قبل انهيارهما بالكامل، فإن تطبيقهما في بلاد المسلمين قد زادها فقرًا، وتخلفًا، وانهيارًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا، وزاد الأفراد فيها أنانية وتذمرًا واحتجاجًا واستياءً. وإذا لم تسارع الحكومات في العالم الإسلامي إلى تحقيق **التأصيل الإسلامي للاقتصاد** - الذي بحت أصوات الإسلاميين بالمناداة به، وتصاعدت أصوات أعداد من الاقتصاديين الغربيين بالانتصار له كحل وحيد للأزمة الاقتصادية والمالية الراهنة التي تتهدد العالم كله بالخراب - فإن التخلف الاقتصادي والأزمات المالية سوف تزداد حدة وتهدد العالم كله بالدمار.

فنظام الاقتصاد الإسلامي هو المخرج الوحيد من كل المحن التي يمر بها عالم اليوم لأنه نظام قائم على أساس من الكفاءة والعدل، وعلى مراعاة حقوق الأخوة الإنسانية، وعلى تربية النشء التربية الصحيحة التي تكون الإنسان الصالح الفاهم لحقيقة رسالته في هذه الحياة: عبدًا لله، يعبده - سبحانه وتعالى - بما أمر، ومستخلفًا في الأرض مطالبًا بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله فيها لفترة محددة من الزمن هي عمره، وهو محاسب بعد ذلك على كل ما عمله أثناء وجوده على الأرض لنفسه ولأهله ولمجتمعه وللإنسانية جمعاء، ولا يمكن لهذا الهدف أن يتحقق إلا بإصلاح

المجتمعات المسلمة إصلاحًا كاملًا في مجالات التربية والتعليم، والنهوض العلمي والتقني، وفي مجالات الإدارة والاجتماع، والسياسة والاقتصاد، والصناعة والزراعة والخدمات العامة على أسس إسلامية صحيحة ملتزمة بمقاصد الشريعة الإسلامية، وآخذة بأحدث ما حقق العصر من وسائل وتقنيات وأساليب.

والإنسان الصالح الفاهم لرسالته في الحياة الدنيا، هو وحده القادر على تحقيق هذا الإصلاح لأنه هو الذي يمكن أن ينبني به المجتمع الصالح المقتصد في طلباته من هذه الحياة بغير تقتير ولا إسراف، انطلاقًا من اليقين بأن موارد الأرض هي أمانة عنده، فتتقلص لديه كل الطلبات غير الضرورية، وبتقلصها تتقلص كل مصادر الظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وكل صور الاستغلال، ومظاهر الفساد وعدم الاستقرار، فواضح أن هناك علاقة وطيدة بين الإنسان والنظام الاقتصادي الذي يعيش في ظله، فإن صلح الإنسان صلح الاقتصاد، وإن فسد فسدت كل حياته. ولذلك فإن فشل كل النظم الاقتصادية الوضعية في العالم مرده إلى التركيز على اقتصاديات السوق فقط دون تربية صحيحة للإنسان الداخل إلى هذا السوق، وقد حول ذلك أهل العصر إلى كيانات مادية أنانية، لا رسالة لها إلا جمع المال بأية وسيلة ممكنة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة، في أنانية فردية محضة تزيد من طلبات الأفراد بلا حدود، وتؤجج التنازع عليها بعنف، فيقود ذلك إلى سوء توزيع الموارد، وإلى انتشار المظالم الفردية والجماعية، وتزايد الأزمات النفسية، وإلى ارتفاع معدلات الإدمان والانتحار والجريمة، وتفكك الأسرة، وتحلل المجتمع من القيم الإنسانية النبيلة.

كذلك فإن للنظام النقدي والمصرفي القائم على التعامل بالربا تأثيرًا سلبيًّا مدمرًا على الاقتصاد الحديث، لذلك يجب إصلاح هذا النظام بالدعوة إلى تحريم التعامل بالربا، وإلى ضرورة الاقتصاد وعدم الإسراف في كل شيء، والتقليل من حب التفاخر والتظاهر والتنافس إلى حد الإفراط المخل والسفه في الإنفاق، وضرورة الدعوة إلى الحد من سيطرة رأس المال وهيمنته على المجتمعات اقتصاديًّا، وسياسيًّا، وإعلاميًّا، للتخلص من أضرار ذلك الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية البليغة.

من هنا حرَّم ربنا - تبارك وتعالى - التعامل بالربا، ووضعت الشريعة الإسلامية للاقتصاد ضوابط واستراتيجيات تنطلق من مقاصدها، وتطرح الحلول العملية والعادلة لحل كل المشاكل الاقتصادية في العالم.

وإذا كان كبار الاقتصاديين الغربيين ينادون بأعلى أصواتهم اليوم بضرورة تطبيق الضوابط الإسلامية للخروج من الأزمة الاقتصادية العالمية الطاحنة التي تجتاح عالم اليوم، مع اعترافهم بالخلافات العقدية والسلوكية بينهم وبين المسلمين، فهل يمكن لهذه الأصوات المحايدة أن تحرك في القيادات السياسية والاقتصادية في العالمين العربي والإسلامي الرغبة في التغيير من هذه النظم الوضعية الفاشلة التي فرضت علينا بالقوة القهرية للدول الاستعمارية إلى النظام الإلهي الذي أنزله ربنا – تبارك وتعالى – من قبل ألف وأربعمائة سنة: نظامًا كاملًا شاملًا لمختلف جوانب الحياة؟ خاصة وقد ثبت لكل ذي بصيرة أن نظام الاقتصادي الإسلامي يحقق للإنسانية الأخوة والعدل، والكفاية للحاجات في ظل الإيمان بالإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي خلق الإنسان واستخلفه على الأرض لفترة زمنية محددة هي أجل كل فرد من بني آدم، وجعل له من بعد ذلك الموت، ثم البعث والحشر والحساب والجزاء بالخلود إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا، وأمرهم الله – تعالى – بالالتزام بمنهجه، وإلا شقوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة، وفي ذلك يقول – وقوله الحق:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: 24)

وقال – وهو تعالى أصدق القائلين:

﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ (الرعد: 11)

فهل آن للمسئولين عن نظم الاقتصاد والمال والحكم في العالم الإسلامي الراهن أن يستجيبوا لأوامر الله – تعالى – ولأوامر رسوله ﷺ فيضعوا الخطط اللازمة للتطهر من الربا وأرجاسه وأوحاله، والعودة إلى النظام الاقتصادي الإسلامي حتى يبدلنا الله – تعالى – غنى بعد فقر،و بركة بعد قحط، وعزًّا بعد ذل، وحتى يغير حالنا الراهن إلى أحسن حال؟ أرجو أن يقيض الله – تعالى – لهذا النداء من مجيب، والله هو الموفق والمستعان والهادي إلى سواء السبيل.

ضرورة المبادرة بالإصلاح الإداري في العالم الإسلامي المعاصر

لقد انعكس تغريب الأمة الإسلامية عن دينها في فشل نظمها التربوية، وفي تخلفها العلمي والتقني، وفي فساد إعلامها، وتدهور اقتصادها، واستبداد نظمها السياسية، وتجسد ذلك كله في فشل أطرها الإدارية.

فالإدارات العامة والخاصة في العالم الإسلامي المعاصر تشكو كلها من هدر للمال والوقت، ومن ضعف في الإنتاج والربح، ومن تضييع للأمانة، وتفشٍّ للرشوة والمحسوبية، وانتشار للاختلاسات المالية، وغير ذلك من الفضائح الإدارية التي تصاعد الحاجة إلى التخلص منها عبر خطة إسلامية للإصلاح الإداري تتوافق ودين الأمة، وثقافتها وعاداتها الاجتماعية وتقاليدها.

والحل لا يكمن في تبني أساليب الإدارة الغربية – على الرغم من نجاحها في بلادها – لأنها إدارة مادية بحتة، نبتت وترعرعت وسط حضارة مادية صرفة، وإن كانت قد بدأت في التعرف على عدد من القيم الإسلامية بالتجربة والخطأ، تمامًا كما حدث أن تعرف الغرب على حكمة تحريم الربا في الإسلام من خلال الأزمة المالية الطاحنة التي تجتاح عالم اليوم، فبدأ العديد من الاقتصاديين الغربيين بالإلحاح في المطالبة بتطبيق القيم المالية والاقتصادية الإسلامية في المجتمعات الغربية مع اعترافهم بالفوارق العقدية والسلوكية بينهم وبين المسلمين.

وكان الانبهار بنظم الإدارة الغربية دافعًا العديد من المؤسسات والشركات والإدارات في عالمنا الإسلامي المعاصر إلى محاكاتها، مما أبرز ازدواجية كاملة في سلوك المنفذين لها، والسبب في ذلك أن هذه الأنظمة المستوردة هي في جملتها أنظمة غريبة عن قيمنا الإسلامية، على الرغم مما فيها من إيجابيات تنظيمية، وذلك جعلها محبطة للعمل الإداري وفعالياته في المجتمعات المسلمة بصفة عامة، للفارق



الكبير بين نجاح فكر مادي بحت يطبق في مجتمع لا يؤمن إلا بماديات الحياة، وفشل هذا الفكر المادي البحت في المجتمعات المؤمنة بعدد من القيم الإنسانية.

ولذلك تكمن المشاكل الإدارية المطبقة حاليًا في المجتمع المسلم بغربتها عن الإسلام غربة كاملة في المعاملات والأخلاق والسلوك والقيم. كما تكمن في جهل غالبية الإداريين من أبناء المسلمين بطبيعة الإدارة الإسلامية، لدراستهم الإدارة على المنهج الغربي، والناس أعداء ما جهلوا. كذلك تكمن المشكلة في رفض عدد من الإداريين المسلمين لنظم الإدارة الغربية بكل أشكالها وصورها رفضًا كاملًا دون الاستفادة بأي من إيجابياتها المادية البحتة، علمًا بأن الإسلام يحضنا على الاستفادة بكل خير في أي علم من العلوم والمعارف لأن (**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها**)[1].

والحل يكمن في محاولة الاستفادة بكل النجاحات المحققة في الإدارة في كل من الحضارات السابقة – خاصة الحضارة الإسلامية – وفي عالم اليوم، مع التأصيل الإسلامي لها انطلاقًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والاستفادة بالثابت من إنجازات الحضارة الإسلامية الرائدة التي حملت لواء المعرفة في كل مناحي الحياة لأكثر من عشرة قرون كاملة – في مد وجزر – وقد شكل تراثها الثمين ذلك المحْضِنَ الحقيقي الذي انبثقت منه الحضارة المادية المعاصرة. وعلى ذلك فإن **التأصيل الإسلامي للأفكار الإدارية المعاصرة** هو الذي يشكل منهج الإدارة الإسلامية، الذي بتطبيقه يمكن إصلاح الفساد الإداري المتفشي في عالم اليوم، وتحقيق النجاح الإداري لكل من المدير والمُدَار، والوصول إلى مستوى مقبول من الرضا الوظيفي الذي تحتاجه مجتمعاتنا المعاصرة من أجل النهوض بها ماديًا ومعنويًا وتلك هي مهمة التنمية الإدارية في المجتمعات الإنسانية بصفة عامة.

ولن يتحقق الإصلاح الإداري في بلاد المسلمين إلا بعد التأصيل الإسلامي لكل مناشط الحياة في تلك الديار، ومن ذلك الإصلاحات التربوية والتعليمية، وفي حقول البحوث العلمية والتقنية، وفي المجالات الإعلامية والاقتصادية والسياسية والبيئية، نظرًا لتداخل كل هذه العوامل في **العملية الإدارية التي تشمل تحديد الأهداف، مع الفهم الدقيق لها، والقناعة التامة بها، ثم التخطيط، والتنظيم، والقيادة، والرقابة الإدارية.**

---

(1) سنن ابن ماجه – كتاب الزهد – باب الحكمة.

وهذا التأصيل يجب أن يتم على أساس من مقاصد الشريعة الإسلامية وسعيًا إلى تحقيقها أمرًا واقعًا في حياة الناس مما يمكن أن يشكل نموذجًا تطبيقيًا للمدرسة الإدارية الإسلامية التي تتميز عن غيرها من المدارس الإدارية في الجوانب الدينية والأخلاقية والسلوكية، وذلك لاحتوائها على دعوة غير مباشرة إلى دين الله الحق، وإثبات عملي لحاجة البشرية كلها إليه لعجزها عن الإتيان بشيء من مثل التنظيمات الإلهية للخلق. ويؤكد ذلك أن الغرب المادي بدأ في التوجه إلى الإدارة بالقيم لمعالجة الفساد الإداري المستشري في عالم اليوم، والذي عجزت عن معالجته جميع المدارس الإدارية المختلفة على مستوى العالم؛ لأن علاجه يتركز في مراقبة الله - تعالى - وبالإيمان بالأخوة الإنسانية، وبتساوي الناس جميعًا في الحقوق والواجبات العامة، وبضرورة العمل على إحياء الضمير الإنساني الذي عجزت كل النظم المادية عن الوصول إلى شيء منه.

ومن أهداف الإدارة الإسلامية الاهتمام بالآخرة قبل الاهتمام بالحياة المادية للناس، وذلك **بالاجتهاد في العمل من أجل تعظيم الإنتاج، والاهتمام بإتقان الخدمة، وبالحرص على النفع العام**، مع أهمية ذلك وضرورته، واعتباره من ركائز الإدارة الإسلامية، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**خير الناس أنفعهم للناس**»[1]، ويقول: «**الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**»[2]. ولذلك اهتم الإسلام دومًا بالدنيا والآخرة في معادلة واحدة، جسدها القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى - موجهًا الخطاب إلى قارون: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: 77).

وعلى الرغم من ذلك فقد حذر رسول الله ﷺ من استغراق الدنيا للمسلم بالكامل فقال: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»[3].

---

(1) الجامع الصغير للسيوطي - حديث رقم 4044.

(2) مسند أبي يعلى، والبحر الزخار مسند البزار.

(3) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في صفة أواني الحوض.

وعلى ذلك فإن من الأهداف البعيدة للإدارة الإسلامية **ترسيخ الوعي بمراقبة الله - تعالى** - القائل: ﴿ ... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد: 4). والتذكير دومًا بحتمية الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وجزاء بالخلود، إما في الجنة وإما في النار. وهذه القضية من أعظم وسائل إحياء الضمير في الإنسان، وإشغاله بمراقبة الله في السر والعلن، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة: 232).

وفي التشجيع على العمل يقول المصطفى ﷺ: **«ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»**[1].

وهذا المعنى هو من أعظم الحوافز على المبادرة بالعمل والحرص على إتقانه.

وينطلق مفهوم **الحوافز في الإدارة الإسلامية** من منطلق أن الإنسان مخلوق مكرم لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: 70) له رسالة محددة وهي عبادة الله - تعالى - بما أمر لقول الحق - تبارك اسمه -: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: 56)، وهو مكلف من الله - تعالى - بعمارة الأرض لقول الله - تعالى -: ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ (البقرة: 30)، وعلى ذلك فالحوافز في الإسلام لها بعدان: بعد مادي، وبعد معنوي، والبعدان يحييهما في ضمير المسلم الترغيب والترهيب والتوازن بينهما كما يتضح في قول ربنا - تبارك وتعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَآءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم: 39 - 41).

والإصلاح في الإدارة الإسلامية يكون بتوفير **القدوات الحسنة** التي تبعث في نفوس من حولها الدافع لتقليدها، ومحاولة الوصول إلى ما وصلت إليه تلك القدوات من ارتقاء في عيون الناس، بما وهبها الله من طاقات إبداعية تتوق كل نفس سوية للوصول إليها. وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى:

(1) صحيح البخاري - كتاب الحرث والمزارعة - باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه.

- ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (فاطر: 32).
- ويقول رسول الله ﷺ: **«إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسطُ الوجه»**[1]
- ويقول: **«من لا يشكر الناس لا يشكر الله»**[2].

ويقول – صلوات ربي وسلامه عليه – في شأن المرءوسين: **«على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**[3].

وتتلخص الإدارة الإسلامية في حسن استخدام كل الإمكانات المتاحة لتحقيق الأهداف المرجوة على أفضل وجه ممكن، ثم الرضا بكل النتائج المحققة ما دام لم يأت التقصير من جانب القائمين على العملية الإدارية: رؤساء ومرءوسين.

والتخطيط في الإدارة الإسلامية يجب أن يتم حسب الظروف الزمانية والمكانية، وبقدر الإمكانات المتاحة ماديًا ومعنويًا، ومهما بدت تلك الإمكانات قليلة فلابد من استشراف المستقبل بشيء من التفاؤل والثقة في توفيق الله، إذا خلصت النوايا له – سبحانه وتعالى – وتجردت عن الأهواء والرغبات الشخصية والمكاسب الذاتية.

والرقابة في الإدارة الإسلامية لها عدة أبعاد، منها: رقابة الفرد على نفسه (الرقابة الذاتية) انطلاقًا من ضميره الحي، **ومراقبة الخالق – سبحانه وتعالى –** له انطلاقًا من التسليم بمراقبة الله – تعالى – لجميع خلقه، **ورقابة المسئول الإداري** على مرءوسيه والتي هي جزء من مسئوليته أمام الله وأمام من هم فوقه في الهرم الإداري. **والرقابة الذاتية** مردُّها إلى وصف الله – تعالى – للمؤمنين بقوله العزيز: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون: 8، المعارج: 32). **ومراقبة الخالق** – سبحانه وتعالى – تأتي

---

(1) مجمع الزوائد لابن الهيثمي – كتاب الأدب – باب ما جاء في حسن الخلق.

(2) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك.

(3) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.



من وصف رسول الله ﷺ للاحسان (وهو أعلى مراتب التدين في الإسلام). بقوله الشريف: «.. **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

أما الرقابة الإدارية فمردها إلى قول الله – تعالى – في وصف مجتمع المؤمنين: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 71).

وقوله – تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: 104).

ومن وسائل **الرقابة الإدارية** في الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي يلخص في كلمة **النصيحة**، لقول رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[2]. وقال ﷺ: «**والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر.. أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض**»[3].

والنصيحة تشكل محطة رقابية هامة قبل وقوع الخطأ، ويجب على من يؤديها أن يحسن أداءها حتى لا يجرح شعور المتلقي لها، كما يجب على من توجه إليه النصيحة أن يتقبلها بقبول حسن، وكلاهما يؤدي فعلًا رقابيًا وعملًا تعبديًا في آن واحد. وعلى ذلك فإن الرقابة الإدارية في الإسلام لها القدرة على المواءمة بين كل من المكان والزمان، وعلى التوافق مع مختلف أفراد المجتمع، على تباين أعمارهم وثقافاتهم واتجاهاتهم.

ويرتبط التخطيط في الإدارة الإسلامية بضرورة الاستفادة بجميع التجارب المتاحة في القديم والحديث، فعلى المسلم أن يستفيد بتجارب السابقين، وواقع الحاضرين، وآمال المستقبليين في كل تخطيط إداري يقوم به، كما يوظف **التشاور** مع الآخرين فيما تم الوصول إليه من تصورات في قضية من القضايا، فإذا وصل إلى إجماع في

(1) صحيح البخاري – كتاب الايمان – باب (سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام و....)
(2) صحيح البخاري – كتاب الايمان – باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة لله ولرسوله.
(3) الدر المنثور للسيوطي ج2 ص300.

الرأي توكل على الله وقام بالتنفيذ في حدود مقاصد الشريعة الإسلامية، وهو متفائل بالتوفيق من الله.

أما عن **التنظيم الإداري** في كل من الشكل والمضمون فيعكسه في عقل المسلم كل من دقة التنظيم في بناء الكون من أصغر وحداته (وهي الذرة) إلى أكبرها (وهي المجرة) وإلى الكون كله، ودقة تنظيم الخالق - سبحانه وتعالى - لجميع الخلق غير المكلف من الجمادات، والنباتات، والحيوانات، وكذلك تنظيم الشرع الإلهي لحياة الناس أفرادًا، وأسرًا، وجماعات، وما وهبه الله - تعالى - لكل فرد من قدرات عقلية وحسية تعينه على تحقيق قدر من التنظيم الإداري في حياته.

وعلى ذلك **فإن التنظيم الإداري في الإسلام هو توافق مع الفطرة** التي أودعها الله - تعالى - في التنظيم الدقيق لبناء الكون كله، وفي كل وحدة من وحداته، وفي كل حركة من حركاته العديدة وفي جميع الكائنات غير المكلفة، وفيه تطابق كذلك مع مقاصد الشريعة الإسلامية وأهدافها. وانطلاقًا من ذلك كانت مرونة التنظيم الإداري في الإسلام مع اختلاف كل من الزمان والمكان، واختلاف إمكانات المجتمعات الإنسانية ضيقًا وسعة، ومع تعدد اجتهادات المجتهدين في مجال الإدارة الإسلامية، وذلك لأن الإسلام يجعل من اختيار العاملين في أية إدارة من الإدارات مسئولية كبيرة يحاسب رب العالمين المسئولين عليها وهي أمانة ثقيلة يخشاها كل عاقل حصيف. وتأكيدًا لهذه المسئولية يحذر رسول الله ﷺ من التهاون في أدائها، فيقول: «**من ولّي ذا قرابة محاباة وهو يجد خيرًا منه لم يجد رائحة الجنة**»(1).

وعلى ذلك فإن الإسلام يتطلب في المرءوسين شروطًا عديدة منها **القوة، والأمانة، والكفاءة، والطاعة لرؤسائه في غير معصية**، كما يتطلب في الرؤساء شروطًا أشد من **شروط الإسلام في حملة المسئولية**:

المسئولية في الإسلام أمانة كبيرة، ولتأدية هذه الأمانة شروط عديدة منها ما يلي:

1 - **العلم والخبرة**؛ انطلاقًا من قول الله تعالى على لسان عبده ونبيه يوسف - عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: 55).

(1) كنزل العمال - حديث رقم 14752.



وقوله تعالى:

- ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: 9).

- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (المجادلة: 11).

2 - **استشعار المسئولية**؛ لقول ربنا – تبارك وتعالى:

- ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: 93).

وقوله – تعالى:

- ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: 13، 14).

وقوله – عز من قائل –:

- ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (النجم: 39 – 41).

وقوله – تعالى –:

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: 38).

- ولقول رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[1]. وقوله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع...**»[2]. وقوله ﷺ: «**استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها**».[3]

3 - **الأمانة**، لقول الله – تعالى –:

---

(1) متفق عليه.

(2) رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

(3) ذكر في كشف الخفاء – ج1.

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (النساء: 58).
- ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ (المؤمنون: 8، المعارج: 32).
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (الأنفال: 27).
- عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**»، قال: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال: «**إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[1].
- وقال ﷺ: «**الخازن الأمين الذي يؤدي ما أُمر به طيبةً نفسه أحد المتصدقين**»[2].

4 - **القوة والشجاعة والقدرة على اتخاذ القرار**؛ لقول الله – تعالى –:

- ﴿ ... إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ (القصص: 26).
- ولقول رسول الله ﷺ: «**المؤمن القويُّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير،احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**»[3].
- عن أبي ذر – رضي الله تعالى عنه – أنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «**يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**»[4].

5 - **الإخلاص والتجرد وتقوى الله - سبحانه وتعالى** - انطلاقًا من قوله – تعالى:

- ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ (النازعات: 40، 41).

---

(1) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب رفع الأمانة.
(2) صحيح البخاري – كتاب الإجارة – باب استئجار الرجل الصالح.
(3) صحيح مسلم – كتاب القدر – باب في الأمر بالقوة وترك العجز.
(4) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب كراهة الإمارة بغير ضرورة.

• وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ (الإسراء: 57).

• ومن قول رسول الله ﷺ عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك**»[1].

• وقوله ﷺ: «**اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[2].

• وقوله ﷺ: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا هو همّ المعاد، كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديتها هلك**»[3].

6- **التواضع**؛ لأن الإنسان به حب لقيادة الآخرين، والتمادي في هذا الحب قد يدخل على النفس العديد من الآفات التي منها الكبر والغرور، وقد حرّمهما ربنا، وأمر بالتواضع انطلاقًا من قوله – تبارك وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ (الفرقان: 63).

• وقوله لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الشعراء: 215).

• وانطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه**»[4].

• ومن قوله ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله**»[5].

• وقوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر....**»[6].

---

(1) صحيح البخاري كتاب الإيمان – باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام و...

(2) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في معاشرة الناس.

(3) كنز العمال – حديث رقم 6178.

(4) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب استحباب العفو والتواضع.

(5) مسند أحمد – حديث رقم 164.

(6) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب تحريم الكبر وبيانه.

- وقوله ﷺ: «**المهلكات ثلاث: إعجاب المرء بنفسه، وشح مطاع وهوى متبع**»(1).

7- **الحلم والصبر**؛ لقول الله – تعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ (فصلت: 35).

- ولقول رسول الله ﷺ لأحد الصحابة الكرام: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»(2).

8- **لين الجانب والعفو عند المقدرة**؛ انطلاقًا من قول الله – تعالى – مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: 159).

- ومن قوله – تعالى: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: 13).
- ومن قول رسول الله ﷺ: «**من يحرم الرفق يُحرم الخير**»(3).
- وقوله: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**»(4).
- وقوله ﷺ: «**إن الله عزوجل رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»(5).

9- **سلامة الصدر، وتحاشي سوء الظن وعدم الاستماع إلى الوشايات أو الحكم بالهوى**؛ وذلك انطلاقًا من قوله – تعالى:

- ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات: 6).

---

(1) كنز العمال – حديث رقم 315.
(2) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ... وانظر سنن البيهقي الكبرى كتاب آداب القاضي – باب التثبت في الحكم.
(3) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل الرفق.
(4) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل الرفق.
(5) مسند أحمد – حديث رقم 16746.

• ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الحجرات: 12).

• ومن قوله – تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: 10).

10 - **القدرة على القيادة والتوجيه بالشورى، والعدل، واحترام حرية الرأي وحرية التفكير عند الآخرين، وتقبلهم على اختلاف أفكارهم؛** وذلك انطلاقًا من قول ربنا – تبارك وتعالى:

• ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى: 38).

• ومن قوله – سبحانه وتعالى – لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ (آل عمران: 159).

• ومن قوله – تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾ (النحل: 90).

11 - **الصدق؛** لقوله – تعالى: ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ (الأحزاب: 8).

• وقوله – سبحانه: ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الأحزاب: 24).

• وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة: 119).

• وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات: 15).

ولقول رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا؛ وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[1].

12 - **الأخذ بمبدأ الشورى وتحاشي الانفراد بالرأي والاستبداد به؛** وذلك انطلاقًا من قوله – تعالى:

- ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى: 38).

وانطلاقًا من أمره إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله العزيز:

- ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: 159).

13 - **الرحمة بالمرءوسين؛** وذلك انطلاقًا من وصف القرآن الكريم لرسول الله ﷺ بقول ربنا – تبارك وتعالى – عنه:

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: 107)،

ومن قوله – تعالى – عن الصحابة الكرام:

- ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ (الفتح: 29).

ومن قوله – تعالى – لخاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

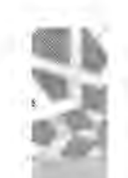
- ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: 199).

ومن قول رسول الله ﷺ داعيًا ربه: «**من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**»[2].

---

(1) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

(2) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب فضيلة الإمام العادل.



وقوله – صلوات ربي وسلامه عليه –: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة إمام جائر**»(1).

وقوله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء**»(2).

14 - **القدرة على حسن اختيار المرءوسين**؛ انطلاقًا من قول القرآن الكريم عن نبي الله موسى – عليه السلام – على لسان ابنة نبي الله شعيب – عليه السلام –: ﴿... إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: 26).

15 - **العدل بين المرءوسين**؛ انطلاقًا من قوله – تعالى –: ﴿... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (النساء: 58).

16 - **احترام الوقت والعمل على حسن الاستفادة به**؛ وذلك انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»(3).

- ومن قوله ﷺ: «**بادروا بالأعمال سبعًا؛ هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال؛ فشر غائب ينتظر، أو الساعة؛ فالساعة؛ أدهى وأمر**»(4).
- ومن قوله ﷺ: «**لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال: عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وأين أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه**»(5).

وبالإضافة إلى هذه الصفات حدد الإسلام في الرؤساء كذلك من الصفات الحميدة كلًّا من تقوى الله ومخافته، والاستقامة على دينه، والثقة بالنفس، والموضوعية

---

(1) رواه الطبراني.

(2) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في الرحمة.

(3) كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك – الحديث الثاني.

(4) سنن الترمذي كتاب الزهد – باب ما جاء في المبادرة بالعمل.

(5) ذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله باب ما جاء في مساءلة الله عزوجل العلماء يوم القيامة عما عملوا فيما علموا.

والتجرد عن الهوى، والقناعة، والبعد عن الجشع، والذكاء، والحكمة، والإيمان بالأخوة الإنسانية رغم الفوارق الاجتماعية، والمالية، والإدارية، وتملُّك القدرة على القيادة الواعية الحكيمة العادلة الرشيدة.

ولا يختلف اثنان على ضرورة المبادرة بالإصلاح الإداري في عالمنا الإسلامي المعاصر الذي اهترأت الإدارة فيه وفسدت فسادًا عظيمًا وذلك لغياب التربية الإسلامية الصحيحة، ولتفشي الأمية بنوعيها بين غالبية الناس: أمية العقيدة، وأمية القراءة والكتابة، وانبهار أعداد من المتعلمين من أبناء المسلمين بنمط الحضارة الغربية، ومحاولة تقليده تقليدًا أعمى، والحضارة تستزرع في أرضها ولا تستورد من عند غيرها، علمًا بأن الحكمة هي ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، وعلى ذلك فإن التغيير العاجل في إداراتنا كلها مطلوب؛ تحقيقًا لقول الحق - تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

فأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يحقق لأمتنا الإسلامية القيادة الراشدة القادرة على الإصلاح الإداري فيها؛ لأنه إذا صلح الراعي صلحت الرعية. اللهم آمين.

ضرورة المبادرة بالإصلاح السياسي في العالم الإسلامي المعاصر

ترزح غالبية الشعوب المسلمة اليوم تحت أنماط متباينة من الحكم القهري، الجبري المستبد، وغالبية هذه الأنماط إما موروثة بعد إسقاط دولة الخلافة العثمانية في مطلع القرن العشرين، وإما ناتجة عن عدد من الانقلابات العسكرية، والانقلابات المضادة المخطط لها من قبل القوى العالمية المعادية للإسلام.

وكل من نظامي الحكم الموروث، والانقلابي اتخذ نهجًا سلطويًّا، مستعبدًا، مذلًّا للشعوب، مما أعجزها عن توفير لقمة العيش لأبنائها، فتخلفوا علميًّا وتقنيًّا، وتعليميًّا، وصناعيًّا، وزراعيًّا، وإعلاميًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا، وسياسيًّا، وفي كل منحى من مناحي الحياة، وهزموا عسكريًّا من قبل حثالة من حثالات الأمم، ونفاية من نفايات الشعوب، وغابوا عن عصرهم غيابًا كليًّا، أو جزئيًّا، فازدادت الفجوة الفاصلة بينهم وبين الدول الصناعية اتساعًا وعمقًا مع الزمن، حتى أصبحوا على هامش الحياة.

وقد حاولت هذه النظم الاستبدادية الحاكمة في غالبية ديار المسلمين اليوم تجميل وجوهها القبيحة بإجراء عدد من الانتخابات المزورة، والمجالس النيابية والتشريعية الصورية التي ملئت بالوصوليين، والانتهازيين، والمستغلين، والمتسلقين من طلاب الدنيا (إلا من رحم ربك) كي تستعين هذه النظم الجبرية بهم على المزيد من استعباد وقمع الشعوب باسم القانون ومؤسساته الصورية، وتستعين بهم كذلك على المزيد من الإغراق في المفاسد الدنيوية التي لا طائل من ورائها، والتي غاصوا فيها إلى آذانهم. ومن أجل تحقيق ذلك سعت الحكومات بجميع مؤسساتها التشريعية والقمعية إلى إقصاء كل مخلص قادر على الإصلاح عن كل مقامات اتخاذ القرار حتى تخلو الساحة لهم بالكامل.

وأمثال هؤلاء الحكام الذين اغتصبوا الحكم من شعوبهم اغتصابًا، أو اختلسوه اختلاسًا، لا يمكن أن يتحقق بهم أي تقدم، أو أن تتحقق بهم وحدة المسلمين، وهي طوق النجاة للأمة في زمن التكتلات البشرية الذي نعيشه؛ وذلك لأن أنانيتهم الفردية القاتلة تدفعهم إلى التمسك بكراسي الحكم حتى يدركهم الموت، أو يطيح بهم انقلاب عسكري يبدل ظالمًا بأظلم منه، أو فاسدًا بأفسد منه؛ وذلك لأنه لا رصيد لأي منهم عند أمته، وكل دعم يلقاه للبقاء على كرسي الحكم قادم من خارج حدوده، مما يوقعه فريسة سهلة للقوى العالمية الكبرى التي تخطط بدهاء شديد لابتزازه وابتزاز شعبه، ونهب ثروات أرضه، وهو عاجز كل العجز عن الدفاع عن مصالح شعبه، أو عن قضايا أمته، أو عن القيام بمسئولياته على الوجه السليم؛ لأن هم الواحد منهم يبقى معلقًا بحماية كرسي الحكم المهتز من تحته، وبالتحايل على توريثه لمن بعده من ولده أو صحبه.

وأمثال هؤلاء الحكام – الذين فَرَضُوا أنفسهم على شعوبهم، أو فُرِضُوا عليها – لو قرأوا قول رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: **«من ولي عشرة جيء به يوم القيامة يده مغلولة إلى عنقه، إما أن يبسطها العدل وإما أن يوبقه الجور»**[1]. لو قرءوا هذا القول الشريف ما حَمَّلُوا أنفسهم ولا حَمَّلُوا ذراريهم من بعدهم هذه المسئولية الكبيرة أمام الناس وأمام الله.

وهؤلاء الحكام الذين عادوا الإسلام وآذوا المسلمين وحاربوهم إرضاء لأعداء الأمة – لو عرفوا حقيقة هذا الدين ما حاربوه، ولا حاربوا الداعين إلى تحكيمه في عباد الله والذين يدعون إليه بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة والمنطق السوي.

ولو عرفوا لمسئولية الحكم قدرها ما طغوا على حقوق العباد، وما صادروا الحريات العامة والخاصة، وما ملئوا السجون والمعتقلات بالأبرياء، وما احتكروا السلطة احتكارًا مخلًا، وما زوروا الانتخابات، ولا قربوا المحاسيب، ولا سمحوا بانتشار الفساد بين العباد حتى أصبحوا عاجزين عن القيام بأي إصلاح، أو تحقيق أي أمل لشعوبهم أو لأمتهم بعد أن أفقدوا شعوبهم مقومات الحياة الحرة الكريمة، كما أفقدوهم جميع الوسائل والشروط اللازمة للتمكين في الأرض، ثم يموتون بعد ذلك ولم يخرجوا من دنياهم إلا بغضب ربهم، ولعنات شعوبهم إلى يوم الدين.

ومن هنا تأتي ضرورة المبادرة بالإصلاح السياسي في المجتمع المسلم، والذي

(1) كتاب الضعفاء الكبير للعقيلي – ترجمة عمرو بن واقد.

بدونه لن يتم أي إصلاح تعليمي، أو علمي، أو إعلامي، أو اقتصادي، أو بيئي، أو اجتماعي، أو في أي منحى آخر من مناحي الحياة.

وكثير من المفكرين في مجال الإصلاح السياسي للمجتمعات المسلمة المعاصرة يرون الحل في **الرجوع إلى النموذج الذي بناه المصطفى ﷺ في المدينة المنورة** وتبعه فيه خلفاؤه الراشدون من بعده، فأرسوا به المبادئ والأسس لنظام الحكم الإسلامي.

ويرى البعض الآخر من السياسيين المعاصرين أن **الخلافة** هي صورة لكيان سياسي لم يعد مناسبًا للعصر؛ لمركزية السلطة في شخص الخليفة (أو الإمام) الذي تنبثق عنه كل السلطات، والذي يرفع قرارُه الخلاف بين المسلمين، ويعتبر رأيه ملزمًا شرعًا، كما يعتبر كل من القضاة والأجهزة التنفيذية في أرض الخلافة نوابًا عنه، وعلى ذلك فإن منصب الخلافة (أو الإمامة) ليس مؤسسة، وإنما هو شخص واحد يدبر مصالح المسلمين في أمور الدنيا والدين. **والإمامة العظمى (أو الكبرى) في دولة الخلافة الإسلامية هي فقط في أهل الحل والعقد من المسلمين،** أما كل من عوام المسلمين وأهل الذمة فيمن هم بينهم فلا حق لهم فيها، وإن كان لهم الحق في أنواع الولايات الأخرى، سوى ما يدخل في دائرتي القضاء والتشريع لأن كلًّا منهما لا يجوز أن يتولاه إلا الفقيه المسلم، حتى لا تكون هناك ولاية لجاهل على المسلمين، ولا ولاية ملية لغير المسلم على المسلم، تطلق يده ظلمًا في المسلمين.

هذا بالإضافة إلى **أن أرض الخلافة قابلة للتمدد باتساع نفوذها، والرعية هي كل من يدخل في هذا الإطار، ومن ثم ينادي هؤلاء الساسة المعترضون على نظام الحكم الإسلامي بضرورة الفصل بين مفهومي الخلافة الإسلامية والدولة الحديثة؛ وذلك لأن الدولة الحديثة وظيفتها سياسية بحتة، في إطار جغرافي محدد، وموقفها حيادي من الدين، بينما الخلافة الإسلامية لا يمكن الفصل فيها بين الدين والدولة.** والأمر السائد اليوم في الغالبية الساحقة من نظم الحكم قائم على مبدأ الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية في مقابل شمولية نظام الخلافة. والحكومة في الدولة الحديثة يفترض فيها أنها من اختيار الشعب، ولذلك لا بد من إجراء الانتخاب من الشعب لشغل وظائف مؤسسة الرئاسة في الدولة، وذلك في مقابل مفهوم «البيعة» الإسلامية في اختيار الخليفة.

ويضيف المنادون بضرورة الفصل بين نظامي الخلافة والدولة الحديثة حجة أخرى لضرورة هذا الفصل، وهي **أن نظام الخلافة هو نظام مثالي يصعب تطبيقه في الزمن الراهن**، ولذلك لم يستمر لأكثر من ثلاثين سنة، وأنه منذ إسقاط دولة الخلافة العثمانية لم يتمكن الإسلاميون من بناء نظام سياسي إسلامي ناجح حتى اليوم.

وينسى هؤلاء المعارضون لنظام الحكم الإسلامي أن الإسلام كما تكامل في بعثة الرسول الخاتم ﷺ هو الصورة الخاتمة من الهداية الربانية للخلق أجمعين، من أخذ بها نجا في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنها هلك في الدنيا والآخرة، وهم ينسون كذلك أن تطبيق نظام الحكم الإسلامي لفترة ثلاثين سنة هو أنموذج للناس من أخذ به نجح، ومن أعرض عنه فشل، وأن في غالبية الناس شيئًا من الجهل، وأن الشيطان للإنسان بالمرصاد دومًا في محاولة لإخراجه عن منهج الله، دون يأس من ذلك.

وينسى هؤلاء المنكرون لإمكانية تطبيق الحكم الإسلامي فشل جميع نظم الحكم الموضوعة في تحقيق العدل الذي يرتضيه الله من عباده ، كما ينسون ما فعله الاستعمار في التمكين لمن يجهلون الإسلام من مقامات اتخاذ القرار في غالبية الدولة المسلمة والذين قاموا بدور كبير في تغريب الأمة وإبعادها عن أصولها الإسلامية حتى يستصعب الناس إمكانية العودة إلى تلك الأصول. فإذا قال بعض المتغربين إن الإسلام لم يأت بنظام سياسي محدد، ولم يتعرض لتفصيلاته، وإنما أتى فقط بمبادئ عامة في السياسة من مثل **الشورى، والعدالة، والحرية، والمساواة بين الناس**، فإننا نقول لهم إن المسلم انطلاقًا من الإيمان بوحدانية الله – تعالى – فإنه يؤمن بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء وبين الناس جميعًا، كما يؤمن بوحدة التراث الإنساني. وانطلاقًا من هذا الإيمان قام المسلمون منذ القرن الأول الهجري بالأخذ من منجزات كل الحضارات الإنسانية السابقة عليهم، والمزامنة لهم، بعد غربلتها بمعايير الإسلام وقيمه، ثم إثرائها بعدد من الإضافات الأصيلة التي شكلت منطلق الحضارة المعاصرة بكل أبعادها (ما عدا مفاصلتها مع الدين). فالمسلم لا يرى حرجًا في الأخذ بكل نظام مفيد، على ألا يتعارض مع الأصول الإسلامية الثابتة، خاصة أن الأنظمة السياسية لا بد أن تكون دائمة التطور بحسب الزمان والمكان، وبحسب نمو الخبرات والتجارب البشرية، وعلى ذلك فلا يمتنع في الإسلام أن بعض الخطوات التنفيذية اللازمة لتحقيق حكم شرعي ثابت تترك مطلقة لاجتهاد المسلمين جيلًا بعد جيل، وأمة بعد أمة؛ وذلك لأن الطرق التنفيذية

هي وسائل لتحقيق الغايات، وليست غايات في ذاتها. وهذا لا يتنافى مع كون النظام السياسي في الإسلام نظامًا محددًا وليس مجرد مبادئ عامة، يشترك فيها مع غيره من نظم الحكم، فالحقيقة الراسخة أن **السياسة جزء لا يتجزأ من الإسلام الذي أوجد نظامًا سياسيًّا محددًا، له قواعده، وضوابطه، وتفصيلاته التي جاءت في نصوص الكتاب والسنة، والتي يمكن إيجازها في النقاط التالية:**

أولًا: أن نظام الحكم في الإسلام هو الخلافة (أو الولاية أو إمارة المؤمنين):

والخلافة تعبير قرآني منطلق من قول ربنا – تبارك وتعالى – للملائكة: ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ (البقرة: 30).

ومن قوله تعالى – لعبده ونبيه داود عليه السلام –: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ (ص: 26).

ومن قوله – سبحانه وتعالى – على لسان عبده ونبيه موسى – عليه السلام –: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: 142).

وهذه الآيات القرآنية الكريمة قطعية الدلالة على أن المراد بتعبير **الخليفة هو الحاكم الذي يحكم بين الناس بما أراه الله**. وقد صنف علماء المسلمين شروط من يتولى الخلافة، وكيفية توليته، والواجبات المنوطة به، وحقوقه على أمته، وحقوق أمته عليه، ومدة بقائه في منصبه، وموجبات عزله، وكيفية تحقيق ذلك، وصفات من يوليه ومن يعزله، ومقاصد الخلافة والغاية منها، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم في دولة الخلافة الإسلامية، وحدود الطاعة، إلى غير ذلك من الأمور التي تقع من علوم السياسة في الصميم.

ثانيًا: أن الدين والدولة أمران متلازمان في الإسلام:

وأقوال رسول الله ﷺ التي تؤكد الارتباط الوثيق بين الدين والدولة، وبأن الحكم لا يمكن له أن يستقيم إذا انفصل عن الدين هي أقوال عديدة نختار منها ما يلي:



- **«والإسلام والسلطان أخوان توأم، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه؛ فالإسلام أس والسلطان حارس، وما لا أس له منهدم، وما لا حارس له ضائع»**(1).
- **«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون»**. قالوا: فما تأمرنا؟ **قال: فوا (أوفوا) ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»**(2).
- **«.. وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ....»**(3).
- **«كلكم راع ومسئول عن رعيته، والإمام راع ومسئول عن رعيته..»**(4).
- **«إن الإمام جُنَّة، يُقاتل»**(5).
- **«يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده»**(6).
- وفي حديث حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – أنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: **نعم**. قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: **نعم، وفيه دَخنٌ**. قلت: وما دخنه؟ **قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**. قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: **نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. فقال: **هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**. قلت: فبما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال ﷺ: **تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: **فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»**(7).

---

(1) فضيلة العادلية لأبي نعيم الأصبهاني، باب: الإسلام والسلطان أخوان، وكذلك في «كنز العمال»، الجزء 6، رقم الحديث 14613.

(2) انظر الحديث في صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء – باب ما ذكر عن نبي إسرائيل.

(3) سنن الترمذي – كتاب العلم – باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع.

(4) صحيح البخاري – كتاب الوصايا – باب تأويل قوله تعالى ﴿من بعد وصية يوصى بها أودين﴾.

(5) كنز العمال – حديث رقم 14612.

(6) كنز العمال – حديث رقم 38660.

(7) صحيح البخاري – كتاب المناقب – باب علامات النبوة في الإسلام.

- **«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها،ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عضوضًا...»**[1].
- **«خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله الملك من يشاء» أو «ملكه من يشاء»** [2].

وفي ذلك تأكيد على وجوب تمكين الجماعةالمؤمنة، القائمة على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله، من الحكم في المجتمع المسلم لإقامة شرع الله في الأرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الحكم إذا ترك لغيرهم انتشر الفساد في الأرض، وفي ذلك يقول ربنا – وقوله الحق –:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ (ص: 28).

وسبب هذا الوجوب لتمكين أهل العلم والتقوى والورع من سدة الحكم هو أن الإيمان والعمل الصالح شرطان لازمان لمن يتولى مسئولية الحكم بين المسلمين حتى يتمكن من استبانة الحق والعدل فيما يحكم، وأن يكون لديه من الإيمان بالله ما يرده إلى الصواب إذا أخطأ في الحكم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«ألا إن رحى الإيمان دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث يدور، ألا وإن السلطان والكتاب سيفترقان، ألا فلا تفارقوا الكتاب. ألا إنه سيكون عليكم أمراء، إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم. قالوا: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى، حملوا على الخشب، ونشروا بالمناشير، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله»**[3].

ثالثًا: كانت «وثيقة المدينة» أول تأسيس شرعي للدولة المسلمة التي أقامها رسول الله ﷺ في يثرب:

وكانت هذه الوثيقة وسيلة تنظيم لساكني المدينة من المسلمين وغير المسلمين، فأرست قواعد المجتمع المتكامل على أساس من المساواة في الحقوق والواجبات،

(1) كنز العمال – حديث رقم 15114.
(2) سنن أبي داود – كتاب السنة – باب في الخلفاء.
(3) ابن حجر العسقلاني حديث رقم 4408، ورواه أبو نعيم في معرفة الصحابة رقم 6369.



والعدل بين الناس، في ظل المواطنة الصالحة: تكاملًا، وتعاونًا، وتناصرًا في سماحة لم تعرفها أفضل الدساتير الوضعية المعاصرة، مع المحافظة الكاملة على هوية المجتمع الإسلامية، وحمايتها من التحلل أو الذوبان في غيرها من معتقدات سكان المدينة آنذاك من اليهود والكفار والمشركين؛ فقد كان أول عمل لرسول الله ﷺ عندما استقر في «يثرب» هو وضع دستور يحكم أهلها، وكتب تلك الوثيقة – التي تعتبر أهم الوثائق الدستورية في تاريخ البشرية – من أجل قيام جماعة وتكوين دولة، وهي وثيقة تتسم بالجدية، والموضوعية، والسياسة، والكياسة بما أكدت عليه من **ضرورة توثيق الروابط بين سكان المدينة من المسلمين وغيرهم، تأكيدًا على حقيقة الأخوة الإنسانية، والمساواة بين الناس، وعلى حرية التدين، وحتمية التعاون بين المواطنين من أصحاب المعتقدات المختلفة.**

وبهذه الوثيقة بدأ رسول الله ﷺ في بناء دولة الإسلام في المدينة – والتي ما لبثت أن شملت نصف الأرض بعد أقل من قرن من الزمان – كما بدأ في بناء إنسان هذه الدولة على أسس إسلامية واضحة، وقد تم ذلك في زمن قياسي، خاصة أنه قد تم وسط بيئة بدوية متخلفة، تمزقها العصبيات العرقية والقبلية والدينية، ولا دراية لها بشيء من هذا التنظيم.

وبعد أن كان دور الرسالة في مكة المكرمة تركيز العقيدة، والدعوة إلى الالتزام بمكارم الأخلاق، جاء دور التشريع في المدينة، وتنظيم كل من العبادات والمعاملات، والدعوة إلى الجهاد في سبيل الله.

وكان من التشريعات الرئيسة التي وضعها رسول الله ﷺ في وثيقة المدينة **مسئولية الحاكم، ووحدة الأمة واحترام إرادتها** كما توضحه البنود التالية:

(1) **التأكيد على صلة الأمة – أفرادًا وجماعات – بربها،** باتخاذ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة المصدر الأساسي للتشريع، وبهما مجموعة القواعد الأساسية التي تحدد شكل الدولة، ونظام الحكم فيها، ومدى سلطاتها ومسئولياتها إزاء الأفراد والجماعات، وهو ما يعرف اليوم باسم الدستور الذي يضبط القواعد، وينظم الحقوق، ويحكم العلاقات بين الناس حكامًا ومحكومين.

(2) التأكيد على **الأخوة الإسلامية** بتأكيد الصلة بين كل من المهاجرين والأنصار تمهيدًا لبناء أمة الإسلام الواحدة.

(3) التأكيد على **الأخوة الإنسانية** بتأكيد الصلة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب المعتقدات الأخرى، **وإقرار التسوية في المواطنة وحقوقها وواجباتها بين المسلمين وغير المسلمين (المواطنة المشتركة في الدولة الإسلامية).**

(4) **إقامة الدولة على قاعدة من الشورى** انطلاقًا من أمر الله – تعالى – إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بقوله العزيز: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ...﴾ (آل عمران: 159).

(5) **الاهتمام بالتكافل الاجتماعي** وبناء الإنسان في المجتمع الإسلامي.

(6) التعاون على **أمن المجتمع** وطبع نفسية المسلم على حب الجهاد في سبيل الله.

(7) **الاهتمام بالدعوة الإسلامية** بين غير المسلمين بناءً على سيادة الشريعة الإسلامية، وحاكمية الكتاب والسنة.

(8) إخراج الأفراد من أطر العصبيات العرقية، والقبلية، والطبقية الضيقة إلى الرحاب الواسعة للدولة **والأمة الإسلامية المتكافلة والمتضامنة على الحق، وعلى نصرة المظلوم، وحمل الدين عن المدين** حتى يرفع عن كاهله.

(9) **إبراز ذاتية الفرد، ومسئوليته الاجتماعية**، بعد أن كانت ذائبة في كيان القبيلة؛ وكان شرفه لها، وجرائمه وأوزاره محسوبة عليها، وتبعاته مطلوبة منها، فجاءت «صحيفة المدينة» **لتجعل فروض العين الفردية مسئولية الفرد، وفروض الكفاية الاجتماعية مسئولية الأمة**، فلا يأثم امرؤ بإثم غيره، ولا جار بإثم جاره، فالجار كالنفس غير مضار ولا آثم بإثم جاره.

(10) **المساواة القانونية بين جميع أفراد المجتمع**، فذمة الله واحدة، والمؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم.

(11) **الالتزام بمكارم الأخلاق**، وإقرار كل الفضائل التي كانت قد بقيت في المجتمعات الجاهلية من بقايا الحق القديم، والتي لا تتعارض مع روح الشريعة الإسلامية.

(12) **الالتزام بمبدأ الدفاع المشترك** الذي يقتضي المحافظة على أمن المجتمع وسلامته، وجعل ذلك مسئولية كل من الحاكمين والمحكومين فيه، على اختلاف معتقداتهم.



(13) **الإيمان بحرية المواطن في اختيار الدين الذي يريد أن يدين به نفسه لله، ما لم** تستخدم هذه المخالفة الدينية في الإضرار بالمجتمع المسلم.

(14) **إقرار ضرورة الاحتكام إلى الكتاب والسنة** في كل أمر من أمور المجتمع، على أن يرضى بذلك كل أفراد المجتمع مهما اختلفت معتقداتهم.

(15) **الإيمان بضرورة نصب إمام للمجتمع المسلم**، يرعى مصالحه المشروعة التي تحقق فلاحهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة. ومن صفات هذا الإمام **العلم، والورع، والحكمة، وتقوى الله، شعوره بحجم المسئولية الملقاة على عاتقه، واجتهاده في السهر على مصالح أمته والتزامه الرحمة بهم، والشفقة عليهم، وتحقيقه للعدالة بينهم دون أدنى تفريق، وحرصه على تنمية المال العام** وحراسته، **والاقتصاد فيه، والعفة عنه. ومن واجباته صيانة الأمن، وإنفاذ القانون، ونشر العلم، وإعداد القوى اللازمة للدفاع عن الأرض وعن الأمة**، ورعاية المصالح العامة، والمحافظة على مقاصد الشريعة والعمل على تحقيقها أمرًا واقعًا في حياة الناس، وله على الأمة الولاء والطاعة، والمساعدة بالنفس والمال.

وكانت وثيقة المدينة أول تعاقد سياسي رسمي مدون أسس للدولة في الإسلام أركانها وقواعدها ومنهج سيرها. وفي ذلك قال محمد بن إسحاق فيما أورده ابن كثير في تاريخه (3 – 224): «كتب **رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وَادَعَ فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم**».

أما المبادئ المميزة والخطوط العريضة التي رسمتها هذه الوثيقة فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1 - **مبدأ المواطنة المشتركة في الدولة الإسلامية**، وفي ذلك يقول ﷺ إنها بين:

- المؤمنين والمسلمين من قريش (أي المهاجرين)، ويثرب (أي الأنصار)، ومن تبعهم ولحق بهم (أي من عامة الناس) وجاهد معهم (بالدفاع عن الإسلام والمسلمين).
- وأن من تبعنا من يهود له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

بهذه النصوص الواضحة الصريحة تبلورت لأول مرة في التاريخ **فكرة المواطنة**

بمعناها الحضاري، على أساس المساواة والتعاون المشترك، من غير تمييز بين المواطنين على أساس من العرق، أو اللون، أو الدين، أو الطبقة الاجتماعية.

2 - **مبدأ التكافل الاجتماعي** الذي تقول الصحيفة فيه:

- وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.
- وأن بينهم (أي المسلمين وغير المسلمين) النصح والنصيحة والبر دون الإثم.
- وأن الجار (مسلمًا كان أو غير مسلم) كالنفس غير مضار ولا آثم.
- وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا (أي مثقلًا بالديون كثير العيال) بينهم دون أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.
- وأن المؤمنين يبيء (أي يساوي) بعضهم بعضًا بما نال دماءهم في سبيل الله.
- وأن النصر للمظلوم.

3 - **مبدأ المحافظة على أمن الدولة والمجتمع** الذي تقول الصحيفة فيه:

- وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه.
- وأن ذمة الله واحدة، وأن المؤمنين يجير عليهم أدناهم.
- وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم.
- وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يئويه، وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.
- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

4 - **مبدأ المساواة والتسيير الذاتي للمجتمع**، الذي يقول الرسول ﷺ فيه:

- وأن المؤمنين يبيء (أي يساوي) بعضهم بعضًا.
- المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يُفْدُون عانيهم بالمعروف والقسط، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين (ثم ذكر كل بطن من

بطون الأنصار وأهل كل دار من أمثال: بني ساعدة، وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النبيت).

5- **مبدأ الدفاع المشترك بين جميع المتساكنين**، وتقول الصحيفة فيه:

- وأن بينهم (أي سكان المدينة مسلمين وغير مسلمين) النصر على من دهم يثرب.
- وأن بينهم (أي مسلمين وغير مسلمين) النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

6- **مبدأ حرية الاختيار وتقرير المصير للمخالفين**، وتقول الصحيفة فيه:

- وأن من تبعنا من يهود لهم النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.
- وأنه من خرج آمنٌ، ومن قعد آمنٌ بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم.

7- **مبدأ سيادة الشريعة وحاكمية الكتاب والسنة**، وتقول الصحيفة فيه:

- وأن ما كان من أهل الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده – مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ.
- وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ.

هذه بعض أركان البناء الشرعي للدولة كما وردت في صحيفة المدينة، ثم توالت بعدها حركة التشييد عملًا ميدانيًا وقدوة نبوية ووحيًا يتنزل.

رابعًا: كانت خطب رسول الله في حجة الوداع تتميمًا لدستور الدولة:

ففي ختام حياته الشريفة أرسى رسول الله ﷺ دستور دولة الإسلام بقول ربنا – تبارك وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: 3)، وأقام آخر أعمدة تدبير الشأن العام للأمة في خطبته الغراء بجبل الرحمة يوم عرفات في حجة الوداع (السنة العاشرة للهجرة)، محذرًا المسلمين من إهدار هذه الفرصة والمناسبة قائلًا: «... **فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم**»[1].

(1) كنز العمال – حديث رقم 12624.

وكانت معظم توجيهات الرسول الأكرم ﷺ في هذه الخطبة متعلقة بتدبير الأمر العام للأمة، تتميمًا وتذكيرًا وبلورة لما ورد في الصحيفة التأسيسية الأولى (وثيقة المدينة)، مما يمكن إيجازه فيما يلي:

1 - **وحدة أعضاء المجتمع المسلم ومساواتهم** بقوله ﷺ في خطبته:

- **«أيها الناس، إن الرب رب واحد والأب أب واحد، وليست العربية تأخذكم من أب ولا أم، وإنما هي لسان فمن تكلّم بالعربية فهو عربي»**(1).
- إن الله – تعالى – يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات: 13)، فليس لعربي على عجمي فضل ولا لعجمي على عربي فضل ولا لأسود على أبيض فضل ولا لأبيض على أسود فضل إلا بالتقوى.
- **«يا معشر قريش، لا تجيئوني بالدنيا تحملونها على أعناقكم ويجيء الناس بالآخرة، فإني لا أغني عنكم من الله شيئًا»**(2).

2 - **تكريس العدل ونبذ الظلم/وجاء ذلك في أقواله ﷺ التالية:**

- **«اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة»**(3).
- **«لا يحل لامرئ من مال أخيه إلا بطيب نفس منه»**(4).
- **«لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»**(5).
- **«اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله»**(6).

---

(1) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر – ترجمة رقم 2905 وانظر مسند الربيع بن حبيب ج2 ص8.
(2) المعجم الكبير للطبراني ج18 ص13.
(3) البداية والنهاية لابن كثير ج5 ص201، وانظر الدر المنثور للسيوطي ج3.
(4) كنز العمال حديث رقم 30345.
(5) سنن الترمذي – كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ – باب ما جاء: لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض – حديث رقم 2119.
(6) صحيح مسلم – كتاب الحج – باب حجة النبي ﷺ.



- **«فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه»**[1].
- **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»**[2].
- **«وأحدثكم من المهاجر.. من هجر السيئات، والمؤمن حرام على المؤمن كحرمة هذا اليوم، لحمه عليه حرام أن يأكله بالغيبة يغتابه، وعرضه عليه حرام أن يخرقه، ووجهه عليه حرام أن يلطمه، ودمه عليه حرام أن يسفكه، وماله عليه حرام أن يظلمه، وأذاه عليه حرام أن يدفعه دفعًا»**[3].
- **«وحرام عليه أن يدفعه دفعة تعنته»**[4].
- **«ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها»**[5].
- **«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»**[6].

ولقد كان تأسيس الدولة الإسلامية مثالًا نادرًا في تأسيس النظام السياسي للمجتمع، فقد وضع رسول الله ﷺ لبنات لقيم ومبادئ ونظم لم تستطع أعرق النظم الدستورية المعاصرة الوصول إليها، وذلك بتقريره حدود الدولة وأصناف ساكنيها، وصفات المواطنة الصالحة فيها، وتفصيله الدقيق للحقوق والواجبات الفردية والجماعية، وإشاراته لآلية اتخاذ القرارات الجماعية بالشورى، وبناء الأجهزة الخدمية التنفيذية.

- ويمكن تلخيص المبادئ العامة المستفادة من خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فيما يلي:

---

(1) مسند أحمد – حديث رقم 20573.
(2) سنن البيهقي الكبرى – كتاب الشهادات – جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز.
(3) المعجم الكبير للطبراني برقم 3366.
(4) المعجم الكبير للطبراني برقم 3366.
(5) الدر المنثور ج3 ص235.
(6) صحيح مسلم – كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ.

(1) **ضرورة الإيمان بالله - تعالى** - ربًّا واحدًا أحدًا، فردًا صمدًا، (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد)، وضرورة تنزيهه - تعالى - عن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله.

(2) **التصديق بملائكة الله، وكتبه، ورسله**، وبخاتمهم أجمعين، وبالقرآن الكريم، وبأقوال وأفعال الرسول الخاتم ﷺ.

(3) **التسليم بوحدة رسالة السماء، وبالأخوة بين الأنبياء** الذين دعوا جميعًا إلى الإسلام العظيم القائم على أساس من التوحيد الخالص لله أي عبادة الله - تعالى - وحده (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد).

(4) **التسليم بوحدة الجنس البشري، وبضرورة المساواة بين الناس جميعًا في الحقوق والواجبات**، والمفاضلة بينهم على أساس من تقوى الله، ومن فهم الإنسان لحقيقة رسالته في الحياة الدنيا: عبدًا لله مطالبًا بعبادة ربه بما أمر، وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتها، وإقامة شرع الله وعدله فيها.

(5) **الإيمان بالأخوة الإسلامية، وبالأمة الإسلامية** وضرورة حمايتها والدفاع عن مصالحها، والإيمان كذلك بضرورة الانقياد للحق وأهله، ومحاربة الباطل وجنده.

(6) **اليقين في أن الله - تعالى - فضل بعض الرسل، والأنبياء والأفراد على بعض، كما فضل بعض الأزمنة والأماكن على بعض**، فجعل مكة المكرمة أشرف بقاع الأرض، وجعل الأيام العشرة الأولى من ذي الحجة أشرف أيام السنة، وجعل يوم عرفة أشرفها على الإطلاق، ومن هنا كان شرف أداء الحج والعمرة، وتحريم دخول الكفار والمشركين إلى الحرم المكي.

(7) **التسليم بأن الدين عند الله الإسلام**، ومن ثم التسليم بفضل الإسلام على غيره من المعتقدات، وبضرورة الالتزام بتعاليمه، والبراءة من جميع الممارسات الجاهلية في القديم والحديث، وتحديد مصادر تلقي المسلم - في أمر الدين - بكتاب الله وسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ.

(8) التصديق بأن الدين قد اكتمل، وأن نعمة الله على العباد قد تمت في حجة الوداع، وأن الأصل في الشريعة الإسلامية التيسير والحرص على المصالح المرسلة.

(9) **الإيمان بحرمة دماء وأموال وأعراض الناس، وبضرورة المحافظة عليها،** والاقتصاص لها، وضرورة سداد الديون ورد المظالم فيها قبل مغادرة هذه الحياة الدنيا.

(10) **اليقين بحتمية الموت، والبعث والحشر، والحساب والجزاء،** وبالخلود في الحياة القادمة، إما في الجنة أبدًا وإما في النار أبدًا.

(11) **التسليم بأن الشيطان للإنسان عدوٌّ مبين،** يتربص للإيقاع به في المعاصي حتى يضاعف من سوء عمله وذلك من خلال الإغواء باقتراف الخطايا والذنوب – صغيرها وكبيرها.

(12) **التصديق بأن الحاكم المسلم مؤتمن من قبل المسلمين على تحقيق شرع الله أمرًا واقعًا في حياة الناس،** فإن قام بذلك فله كل السمع والطاعة، وإن لم يقم بذلك فلا حق له في السمع أو الطاعة.

(13) **الإيمان بضرورة تحريم الربا تحريمًا قطعيًّا، والنهي عن دعاوى العصبية، والقبلية والعنصرية نهيًا قاطعًا،** وبضرورة تقوى الله في النساء، ومعرفة كل من الزوجين لحقوقه وواجباته التي شرعها له الله، وبضرورة التأسي برسول الله ﷺ وأخذ المناسك عنه، والتبليغ بما جاء به، ومعرفة فضل الدعاء والابتهال إلى الله – تعالى – وضرورة العمل على جمع كلمة المسلمين، ومنع الاقتتال بينهم.

- كذلك يمكن إيجاز الخطوات التنفيذية المستفادة من خطب رسول الله ﷺ أثناء «حجة الوداع» في النقاط التالية:

(1) ضرورة العمل على **تطهير المجتمعات المسلمة من جميع علائق الجاهلية** القديمة والحديثة في كل أمر من أمور الحياة.

(2) العمل على **تطبيق شرع الله** في المجتمعات المسلمة، والتعاون مع جميع المسلمين من أجل هذا الهدف النبيل، على مراحل متأنية، وتربية الأفراد على حب الله ورسوله، وحب الإسلام، وحب العمل على تطبيقه أمرًا واقعًا في حياة الناس أفرادًا ومجتمعات.

(3) **العمل على التأصيل الإسلامي لجميع المعارف المكتسبة،** والممارسات والسلوكيات العامة والخاصة، انطلاقًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مع

شرح مثالب الأفكار الوافدة، والمعتقدات والعادات والتقاليد الجاهلية قديمها وحديثها، خاصة أن الجاهلية المعاصرة قد أصبحت أشد فجرًا وظلمة من الجاهليات القديمة.

(4) وجوب السمع والطاعة للحاكم إذا كان يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإذا مال عنهما فلا سمع ولا طاعة.

(5) الدعوة إلى دين الله بالكلمة الطيبة، والحجة البالغة، والحكمة والموعظة الحسنة، والحرص على تعليم الناس بالقدوة المناسبة، وبمباشرة كل من الداعي والمعلم لعمله - مباشرة مخلصة، تأسيًا بما فعله رسول الله ﷺ في تعليم أمته أثناء حجة الوداع، مستخدمًا كل الوسائل التربوية اللازمة من التكرار، وجلب الانتباه، وتحميل الحاضر مسئولية تبليغ الغائب، وغير ذلك.

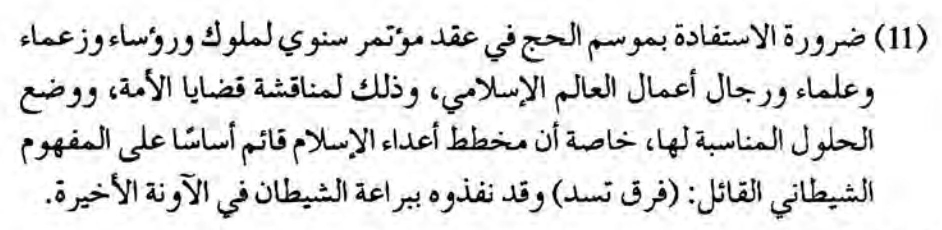
(6) العمل على إنصاف المرأة - وهي النصف الأرق في المجتمع الإنساني - وقد ظلمت كثيرًا في غيبة شرع الله، ثم رد لها الإسلام كل حقوقها، وحافظ على كرامتها وإنسانيتها، وإن كانت الحضارة المادية المعاصرة قد أهدرت كرامتها واستعبدتها من جديد بدعوى المساواة الكاملة بينها وبين الرجل، وبإطلاق الحريات لها بلا حدود، وهذا من أبشع صور الظلم لها.

(7) ضرورة مساندة الضعيف حتى يتمكن من الوقوف على قدميه، ومع المظلوم حتى يسترد حقه مهما كلف ذلك من تضحيات.

(8) الحرص على تربية المجتمع تربية إسلامية صحيحة، والدعوة إلى المحافظة على دماء وأموال وأعراض الناس، وأداء الأمانات، وإشهاد الله - تعالى - على كل عقد، والجمع بين العدل والرحمة في كل أمر، مع التحذير من الوقوع في معاصي الله (من الذنوب والخطايا والآثام، ما ظهر منها وما بطن).

(9) الدعوة إلى مراقبة الله - سبحانه وتعالى - في كل عمل يقوم به الإنسان، لأن الإحساس بهذه المعية هو خير ضابط للسلوك الإنساني.

(10) الدعوة إلى المحافظة على التاريخ الهجري والشهور القمرية بعد أن ردها رسول الله ﷺ في حجة الوداع إلى أصولها كما كانت يوم خلق الله السموات والأرض؛ لأنها أدق علميًا من جميع التقاويم الأخرى.



(11) ضرورة الاستفادة بموسم الحج في عقد مؤتمر سنوي لملوك ورؤساء وزعماء وعلماء ورجال أعمال العالم الإسلامي، وذلك لمناقشة قضايا الأمة، ووضع الحلول المناسبة لها، خاصة أن مخطط أعداء الإسلام قائم أساسًا على المفهوم الشيطاني القائل: (فرق تسد) وقد نفذوه ببراعة الشيطان في الآونة الأخيرة.

خامسًا: أن الحكم في الإسلام يقوم على أساس من الشورى الملزمة من قبل أهل الحل والعقد، وذلك انطلاقًا من أمر الله – تعالى – وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الشورى في الإسلام قاعدة راسخة من قواعد الحكم، وواجب شرعي، كلف الله – تعالى – به خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، ومن ثم كلف به كل مسئول في مجال مسئوليته.

سادسًا: إقرار أن الحاكمية لله - تعالى - وحده:

فمن معاني النطق بكلمة التوحيد **(لا إله إلا الله)** الإعلان الصريح بأنه لاسلطان في هذا الوجود لغير الله – تعالى – الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ؛ قوله الحق:

- ﴿ ... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ (الأنعام: 57).

ويقول:

- ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (الشورى: 10).

ويقول – على لسان عبده ونبيه يوسف بن يعقوب، على نبينا وعليهما من الله السلام –:

- ﴿ ... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: 40).

سابعًا: التأكيد على أن رسول الله ﷺ مبلغ عن الله - تعالى - وأن كل ولي لأمر المسلمين لا بد أن يكون مبلغًا عن الله وعن رسوله:

وفي ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى:

- ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (النساء: 80).

- ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ (آل عمران: 132).

- ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ (النساء: 65).

- ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾ (الأحزاب: 36).

- ﴿ ... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ .... ﴾ (الحشر: 7).

وانطلاقًا من ذلك وجب أن يكون ولي أمر المسلمين رجلًا، مسلمًا، بالغًا، عاقلًا، فقيهًا، عدلًا، مبلغًا عن الله - سبحانه وتعالى - وعن رسوله ﷺ، ومدافعًا عن دين الإسلام بكل ما يملك، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

(1) قول ربنا - تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (النساء: 59).

(2) قول رسول الله ﷺ:

- **«لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»**(1).

ثامنًا: وجوب نصب الإمام أو الخليفة أو أمير المؤمنين، الذي ينوب عن رسول الله ﷺ في رعاية المسلمين وفي تحقيق فلاحهم في الدنيا والآخرة؛ وذلك عن طريق بيعة أهل الحل والعقد من أبناء الأمة، وذلك انطلاقًا من قوله ﷺ: **«... ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»**(2).

---

(1) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر.

(2) سنن البيهقي الكبرى - كتاب قتال أهل النبي - باب الترغيب في لزوم الجماعة.



تاسعًا: وجوب العمل على تحقيق وحدة أمة الإسلام والمحافظة عليها:

حيث يقرر ربنا – تبارك وتعالى – أن الإسلام يعلو فوق جميع الفوارق التي يمكن أن تفصل الناس عن بعضهم البعض من مثل فوارق العرق، واللغة، والمستويات الاجتماعية، وتباعد الديار، فكل من يؤمن بالله الواحد الأحد الفرد الصمد وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر هو جزء من أمة الإسلام التي يصفها ربنا – تبارك وتعالى – بقوله العزيز:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 92).

عاشرًا: من أصول الإسلام أن طالب الإمارة لا يولاها وذلك انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ:

«إنا لا نولي هذا من سأله، ولا من حرص عليه»(1).

حادي عشر: إن طاعة ولي الأمر واجبة ما لم يخرج على أوامر الله وأوامر رسوله:

حدد نظام الحكم الإسلامي حقوق الحاكم على الرعية، ومنها السمع والطاعة في غير معصية، والنصرة في غير مظلمة، وذلك انطلاقًا من قول رسول الله ﷺ: **«ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا»**(2).

وقوله: **«اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل حبشي كأن رأسه زبيبة»**(3).

وقال ﷺ: **«السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**(4).

ثاني عشر: إثبات أن المرجعية العليا في الحكم هي لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ، وليست للحاكم، ولا للأغلبية النيابية أو الشعبية، وذلك

---

(1) صحيح البخاري – كتاب الأحكام – باب ما يكره من الحرص على الإمارة، وانظر صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها.

(2) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب وجود طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.

(3) صحيح البخاري – كتاب الأذان – باب إمامة العبد والمولى.

(4) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب السمع والطاعة للإمام.

انطلاقًا من قوله – تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء: 59).

ثالث عشر: أن البيعة بين الأمة والحاكم بيعة موقوتة:

إن الحكم عبارة عن عقد اجتماعي بين الأمة والحاكم لرعاية مصالحها، وأن البيعة بين الأمة والحاكم بيعة موقوتة، وإن كانت ولاية الحاكم المُبَايَع (الخليفة أو الإمام أو أمير المؤمنين) غير مقيدة بمدة زمنية ما دام صالحًا للقيام بمهمته، ولا يملك أحد إخراجه عن ولايته إلا بأسباب تقررها الشريعة الإسلامية، وذلك لقوله ﷺ:

«.. وأن لا تنازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»[1].

وقوله: «من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ...»[2].

ولكن إذا دعت الحاجة إلى تحديد فترة ولاية الحاكم المبَايع فلا حرج من تحقيق ذلك من قبل أهل الحل والعقد.

رابع عشر: تحديد حقوق أهل الذمة:

يدعي منتقدو الحكومة الإسلامية أنها قائمة على أساس من الفرز الديني، بسبب تقسيم المواطنين إلى مسلمين وغير مسلمين، بينما تقسمهم الدولة القومية الحديثة إلى أغلبية وأقلية. وفي ظل دولة الخلافة الإسلامية فإن جماعة المسلمين هم أهل السلطان، وإن جاز لهم استخدام غير المسلمين في غير مناصب القيادة ومراكز الحل والعقد، مع إعطائهم كافة الضمانات لحقوقهم الأخرى. والحكومة الإسلامية تجد نفسها مضطرة – باعتبار التزامها بالإسلام – إلى أن تميز بين المسلمين وغير المسلمين، محددة الحقوق التي يمكن أن تخولها غير المسلمين، والتي لا تستطيع أن تخولهم إياها، وبالمثل فإن الدولة القومية لا تعتمد لقيادتها إلا على الغالبية العرقية من أبنائها، دون تصريح واضح بذلك. وإن تم تقليد أحد من أفراد الأقليات العرقية أو الدينية أحدَ المناصب الرئيسة فإنما يتم ذلك من قبيل النفاق الاجتماعي والرياء

(1) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية.
(2) سنن البيهقي الكبرى – كتاب قتال أهل البغي – باب الترغيب في لزوم الجماعة.



والتكلف الذي لا يعطي مثل هذا الفرد أية سلطات حقيقية. وبالرغم من ذلك فإن الحكومات القومية تتشدق بمساواتها بين الناس، وتجعل لهم على الورق حقوقًا متكافئة، وإن لم يتحقق من ذلك شيء على أرض الواقع. ونماذج مثل هذا النفاق الاجتماعي أكثر من أن تحصى في مختلف دول العالم الراهنة والممتدة من الولايات المتحدة الأمريكية غربًا إلى الصين شرقًا، ومن كل من كندا وروسيا شمالًا إلى كل من جنوب إفريقيا وأستراليا جنوبًا، حيث تعرضت الأقليات العرقية والدينية والمذهبية للذوبان في الأغلبية بالقوة، أو للإبادة بالقتل والسجن والتشريد، أو العيش عيش المنبوذين وسط الأغلبية الحاكمة.

وفي الوقت الذي تعيش فيه الأقليات في المجتمعات القومية تحت رحمة الأغلبية دون أية ضمانات حقيقية – نجد الإسلام يمنح الذميين جميع الحقوق التي قررها لهم الله – تعالى – والتي لا يستطيع أحد أن يسلبهم إياها، أو أن ينتقص منها شيئًا، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ :

- **«ألا من ظلم معاهَدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»**.[1] وقد فَصَّلَ الإسلام حقوق أهل الذمة في ظل الحكومة الإسلامية تفصيلًا لا يتسع المقام لعرضه[2].

وبناءً على ما تقدم فإن الأحكام التفصيلية التي يحتاج إليها النظام السياسي في كل وقت قد بينها كل من القرآن والسنة، وطبقها الخلفاء الراشدون تطبيقًا عمليًا على أرض الواقع، ولا يوجد في الإسلام ما يمنع من التطوير المستمر للإجراءات التنفيذية التي تحقق هذه الأحكام في ضوء ما جاءت به الشريعة الإسلامية من تفصيل. وكل تطوير أو تحسين يمكن الحكم عليه بطرق الاستنباط المعروفة في علم أصول الفقه، خاصة إذا علمنا أن الرسول الخاتم ﷺ مرسل للخلق أجمعين، وأن رسالته الخاتمة صالحة لكل زمان ومكان، وشاملة لكل ما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم.

والتجربة الإنسانية بالحكم بغير ما أنزل الله – سبحانه وتعالى – قد أثبتت فشلها على تعدد صورها، وأشكالها، ومبادئها، ومنطلقاتها، وهيئات تطبيقها، وذلك طوال تاريخ الإنسان على الأرض، ولذلك قال ربنا – تبارك وتعالى:

---

(1) أبو داود: كتاب الجهاد.

(2) أبو الأعلى المودودي: «حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية»، دار الفكر – بيروت – لبنان.

- ﴿ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (المائدة: 44).
- ﴿ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ (المائدة: 45).
- ﴿ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ (المائدة: 47).
- ﴿ ... وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (الرعد: 41).
- ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور: 51 – 52).
- ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: 104).

وعلى الرغم من وضوح الأسس التي وضعها رسول الله ﷺ لقيام الدولة الإسلامية، والتي تبناها من بعده الخلفاء الراشدون، والتي بقيت نموذجًا لكل من يريد أن يحكم بما أنزل الله – تعالى – إلا أن حرص القوى العالمية على إقصاء الإسلام كليًا عن سدة الحكم قد حال دون أن يحكم المسلمون بشرع الله. وللأسف الشديد كان في تعاون المتغربين من أبناء المسلمين مع تلك القوى المعادية، (إما عن جهل كامل بأصول الدين الإسلامي، وإما عن انبهار تام بالدنيا وبهرجاتها، وبمناصب السلطة وإغراءاتها) ما حرم المسلمين من حقهم في الحكم بما شرع الله. وبإحكام خيوط تلك المؤامرة، فإن كل مقاليد الحكم في غالبية بلاد المسلمين بقيت بأيدي الكوادر المتغربة من الدهريين، والحداثيين، واليساريين، واليمينيين المتطرفين الذين أطبقوا على مراكز السلطة في العالم الإسلامي، وفرضوا أنفسهم أوصياء على الشعوب بغير حق، ومن أجل تبرير ذلك قاموا بتزوير الانتخابات، وفرضوا القوانين الاستثنائية، وأذلوا الشعوب، وكتموا كل صوت للحق، وأقصوا كل قادر على الإصلاح، واضطهدوا كل منادٍ بتطبيق الإسلام، وحولوا النظم الجمهورية إلى ملكيات مقنعة ليورثوا الحكم للأبناء والخلصاء من بعدهم. ولذلك فشلت كل هذه النماذج السياسية المصطنعة في الارتقاء بشعوبها إلى مستوى العصر، بل



تراجعت عما كانت قد حققته تلك الشعوب في الماضي القريب تراجعًا مخجلًا في كل شيء، فتخلفت علميًّا وتقنيًّا، وتراجعت تربويًّا وإعلاميًّا، وانحسرت اقتصاديًّا وسياسيًّا، وهزمت عسكريًّا أمام حثالة من حثالات الأمم، ونفاية من نفايات الشعوب احتلت أرض فلسطين بمؤامرة دولية حقيرة، وبقيت رغم أنوف حكام المنطقة جميعًا نتيجة لهزيمتهم العسكرية أمامها، وكان من أسباب ذلك كله التنكر لأوامر الله – تعالى – وللنموذج الذي أقامه رسول الله ﷺ وطبقه خلفاؤه الراشدون من بعده. وقد أدى هذا الخروج على منهج الله إلى ترك سدة الحكم مطمعًا للمغامرين المتسلطين البعيدين عن الفهم الصحيح للدين، أو تسليمه لوارثيهم بمختلف صور التحايل واللف والدوران، المقترن بالقهر والقمع والاستبداد، وذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكن أن يطبق الإسلام حاكم فاقد للشرعية وجاهل بأصول الدين.

وعندما يقف المنادون بتطبيق شرع الله في وجه هؤلاء الطواغيت لا يلقوْن منهم إلا الظلم والاعتقال، والسجن، والتعذيب، والمطاردة في الرزق، والتشريد والقتل؛ لأن هؤلاء الطواغيت لا يشغل بالَهم إلا المحافظةُ على كرسي الحكم بأي ثمن، والتحايل على توريثه بكل وسيلة،أما نهضة أممهم، وكرامة شعوبهم، وقضاياهم الكبرى، فلا تشغل حيزًا معقولًا من أفكارهم.

وجماهير الشعوب المسلمة في الدول الفقيرة شغلت بالجري وراء لقمة العيش فلم تعد قادرة على الأمر بمعروف أو النهي عن منكر، وتحللت مجتمعاتها إلى درجة تنذر بالخطر. أما الدول الثرية فإن جماهير المسلمين فيها – في غالبيتهم – شغلت بالتنافس في أمور الدنيا الفانية، وبالترف الزائد عن الحد، وبالبذخ المخل الذي أسقط لنا من قبل عروشًا تربَّع عليها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها لقرون طويلة حين حملوا رسالة الإسلام بشيء من الفهم الصحيح، والالتزام الدقيق، ثم انشغلت ذراريهم بمتع الدنيا وزخارفها فسقطوا من فوق عروشهم التي تهاوت من تحتهم، وعرضوا شعوبهم لمراحل من الاضطهاد والإذلال سجلها التاريخ بدماء المسلمين على أرض كل من العراق وفلسطين وبقية بلاد الشام والأندلس وفي العديد غيرها من بقاع الأرض.

والأمل اليوم معقود على إيقاظ المسلمين من غفلتهم حتى يفهم كل فرد منهم حقيقة رسالته في هذه الحياة: عَبْدًا لله – تعالى – يعبده – سبحانه – بما أمر، ومستخلفًا في الأرض، مطالبًا بعمارتها وبإقامة شرع الله وعدله فيها، ومن ذلك

إصلاح كل من الحكم والنظام السياسي، وأول الطريق إلى تحقيق هذا الإصلاح هو تغيير الأنظمة الجبرية الاستبدادية التي تحكم غالبية ديار المسلمين في هذه الأيام، والتي استباحت كلًّا من الحريات العامة والخاصة، كما استباحت حقوق الإنسان استباحة كاملة، واحتكرت السلطة بأيدي عصابات من المغامرين الطامحين الذين أطبقوا على صدور المجتمعات المسلمة، وفرضوا أنفسهم أوصياء عليها بالقوة، وبمعاونة القوى العالمية الكبرى والتنسيق معها، وتسلطوا على شعوبهم كما لم تستطع القوى الاستعمارية المحتلة أن تتسلط من قبل.

ولما كان نظام الحكم هو أول ما انتُقِضَ من عرى الإسلام، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فإن أول طريق الإصلاح هو العودة بنظم الحكم إلى الإسلام من جديد من أجل إعادة تطبيق دين الله في كل أمر من أمور الحياة، بعد أن تم اختصار هذا الدين في دائرة العبادات فقط، وبعد المفاصلة بين العبادات والسلوك مفاصلة كادت أن تقضي على الأهداف المقصودة من العبادة وهي تزكية النفس، ومراقبة الله – تعالى – في السر والعلن. وأولى درجات هذا الطريق الإصلاحي هي التأصيل الإسلامي لجميع المعارف المكتسبة، والنظم المطبقة في الحياة، وأولها نظام الحكم على أن يتم ذلك عبر مراحل مدروسة ومتدرجة تؤكد شرعيته، وتحمي الحقوق العامة وتحفظ حقوق الإنسان الخاصة، وقد كرمه الله – تعالى – وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا. كذلك يجب التأكيد على قاعدة أن طالب الولاية لا يولى، حتى يتطهر الحكم من كل صنوف الانتهازيين والوصوليين والمستغلين، ولابد من البدء بهذا الإصلاح السياسي **على الرغم من محاربة غالبية نظم الحكم القائمة في ديار المسلمين اليوم – لفكرة أسلمة نظم الحكم.**

وقد يكمن الحل لهذا المشكل العصيب في التوجه إلى الأجيال الناشئة بالتربية الإسلامية الصحيحة التي تبني جيلًا مسلمًا يعيد لهذه الأمة مجدها من جديد، والتوجه إلى المؤسسات التربوية، والعلمية والتقنية، والإعلامية، والاقتصادية، والاجتماعية والسياسية من أجل إعادة إصلاحها على أسس إسلامية، لعل الله – تعالى – أن يقيض لدعاة الإصلاح آذانًا صاغية في كل مؤسسة من هذه المؤسسات حتى تستيقظ الإرادات الحاكمة إلى أهمية دعوات الإصلاح لأن الأصل في الإنسان هو الخير، والشر من الحالات الطارئة عليه، والنفس الإنسانية مغرمة بالنجاح، فإذا رأى المسئولون نجاح المؤسسات الإسلامية فلعل ذلك يقنعهم بالتغيير إلى منهج الله



الخالق، وهذا المنهج الرباني هو عدل كله، ورحمة كله، وحكمة كله، ومقصود الشرع هو حفظ الضرورات الخمس لكل فرد في المجتمع: **الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال**، فكل ما يضمن حفظ هذه الأصول الخمسة هو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول هو مفسدة، ودفع كل مفسدة هو مصلحة. والشريعة الإسلامية قائمة على حفظ مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، وكل خروج على شريعة الله هو خروج عن الحكمة إلى الضلال، وعن العدل إلى الظلم، وعن الرحمة إلى الجور، وعن المصالح إلى المفاسد، وتاريخ البشرية الطويل حافل بالأدلة على صدق ذلك، وقد بشرنا رسول الله ﷺ بمقام الذين يصلحون ما أفسد الناس فقال: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**»، قالوا: يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال: «**الذين يصلحون ما أفسد الناس**».[1]

كما بشرنا ﷺ بأن النصر لدين الله فقال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض؛ وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها (أو قال من بين أقطارها)، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا**».[2]

---

(1) صحيح مسلم – حديث رقم 208، وسنن الترمذي – حديث رقم 2630.

(2) عن ثوبان رضي الله عنه، في صحيح مسلم رقم (5144).

ضرورة المبادرة بالإصلاح الاجتماعي في العالم الإسلامي المعاصر

الإنسان مخلوق اجتماعي مدني بالطبع، ولذلك لا يستطيع الحياة وحده، ومن هنا كانت ضرورة قيام المجتمعات الإنسانية، وضرورة وجود عدد من الضوابط التي تحكمها، والتي يقوم توافق المجتمع عليها، وذلك من أجل تيسير التعايش بين الأفراد، وتنظيم علاقاتهم ببعضهم البعض في داخل الأسرة الواحدة، وفي داخل المجتمع الواحد، ومع غيره من المجتمعات.

وقد عاشت المجتمعات الإنسانية الأولى عشرة قرون كاملة من عمر الإنسان على الأرض بالضوابط الدينية التي علمها ربنا – تبارك وتعالى – لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، والتي لخصها في قوله العزيز: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ... ﴾ (البقرة: 31).

وظلت المجتمعات الإنسانية بعد ذلك تتراوح بين الثبات على الحق والخروج عن الهداية الربانية، وبين العيش بالضوابط الشرعية أو بعدد من النظم الوضعية والأعراف الاجتماعية التي اختلط فيها الحق بالباطل، وبين دعاوى المساواة بين الناس والتمييز الجائر بينهم، غير أنه كلما غلب الباطل وأهله أرسل الله – تعالى – نبيًّا من أنبيائه يرد الناس إلى الحق إذا كان لا يزال باقيًا بين أيديهم مع انصراف غالبية الناس عنه. ولكن إذا كانت الهداية الربانية قد فقدت بالكامل أرسل الله – سبحانه وتعالى – رسولًا برسالة جديدة، من نفس المصدر الذي تلقى منه نبي الله آدم – عليه السلام – ليرد الناس إلى هداية ربهم، وفي ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل: 36).



ويقول عز من قائل: ﴿ ... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: 24).

وظل الصراع بين الحق والباطل يتعاور البشرية، فتعود تارة إلى الحق، وترتد تارة في أحضان الباطل حتى تغرق في وحله إلى الآذان، وهكذا كان الحال قبل بعثة الرسول الخاتم ﷺ حين كانت البشرية قد قطعت صلتها بوحي السماء، وعاشت بعدد من الأعراف الموضوعة التي ملأت الأرض ظلمًا وجورًا وظلامًا...!

فالمجتمع العربي كان قد فقد الصلة بدعوة نبي الله إبراهيم وولده النبي إسماعيل – عليهما السلام – وعاش في قبائل متناحرة، تقتلها العصبيات الضيقة، تعبد الأصنام والأوثان من دون الله، وتشرك به شركًا فاحشًا، وتسيء الجوار، وتستحل المحارم، وتسفك الدماء، لا تحل حلالًا ولا تحرم حرامًا، وتفشى بينهم الجهل، وسادت بينهم المظالم خاصة للأنثى التي كرهوها، فوأدوها صغيرة، وحرموها الميراث كبيرة، وعددوا الزواج بها بلا حدود، وورَّثوها للأبناء من بعد الآباء، كما شاعت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، والأرجاس، وانتشر الزنا، وكثرت صاحبات الرايات الحمراء، ولعب الشيطان بعقول الناس واستخف أحلامهم، وسلط عليهم القوى الكبرى في زمانهم من الفرس والروم والأحباش فاستذلوهم واستعبدوهم.

وكذلك **المجتمع اليهودي** الذي كان قد فقد الصلة بتوراة موسى – عليه السلام – فابتدع في الدين، وأشرك برب العالمين، وتحول إلى مجتمع مغلق، فاسد، خبيث، فاجر، جشع، مراب، مستعل في الأرض بالباطل، مدع بأن اليهود هم شعب الله المختار وأبناؤه وأحباؤه، وأن غيرهم من البشر (الأغيار أو الجويم) مجرد حيوانات خلقت على هيئة الآدميين حتى يكونوا لائقين لخدمة اليهود، ومن هنا فإن دماءهم وأعراضهم، وممتلكاتهم، هي حلال لكل يهودي. وانطلاقًا من هذه القناعة الفاسدة ملأ المجتمع اليهودي الأرض فسادًا وإفسادًا وصدًّا عن سبيل الله.

أما **المجتمع الفارسي** فكانت مبادئ **الصابئة والدهرية والمجوسية** قد سادت فيه، ثم ابتدعت مبادئ كل من **الزرادشتية والمانوية** في القرن الميلادي الثالث، **والمزدكية** في القرن الميلادي الخامس، وكلها مبادئ وضعية فاسدة دعت إلى عبادة النار، وإلى تحلل الأخلاق وفساد السلوك، أو إلى العصبية الفارسية العرقية البغيضة.

والمجتمع الروماني كانت تسيطر عليه الروح العسكرية الاستعمارية البغيضة، وكان قد فقد الصلة كلية بتعاليم المسيح – عليه السلام – فابتدع في الدين وعاش

بنظم قهرية جبرية، يسود فيه القوي الضعيف، وتتمايز الأعراق في مختلف المجتمعات إلى طبقات الرومان (وهم السادة الذين لهم كل الحقوق)، وغير الرومان (وهم العبيد الذين لا حقوق لهم)، وحتى في أوساط الرومان كانت هناك طبقات الرجال الذين لهم الهيمنة على كل شيء، وطبقات النساء اللائي لا يملكن من أمرهن شيئًا، بل يملكهن الرجال، ويملكون ما يملكن. وفي ظل هذه المفاهيم الوضعية سادت المظالم، وانهارت الأخلاق، وكثرت المبالغات في فرض الضرائب الباهظة من الحكام على المحكومين لدفع تكاليف المغامرات العسكرية التي كان قياصرة روما يقومون بها.

وأما **المجتمع الهندي** فقد سادت فيه **الهندوكية والبوذية، والوثنيات المختلفة** فعبدوا الأوثان والأصنام ومختلف أنواع الحيوان، كما سادت الطبقية في أبشع صورها إلى طبقات الكهنة، ثم المحاربين، ثم الزراع والتجار، ثم الخدم الذين لا حقوق لهم، بل يعتبرون أنجاسًا لا يمسون.

والمجتمع الصيني كان قد انتشرت فيه أعداد من الديانات الوضعية من أمثال **البوذية، الكونفوشية، والطاوية**، وكلها وثنيات تتظاهر بإصلاح الجانب النفسي، ولكنها قادت أتباعها إلى التحلل الأخلاقي والقيمي، والفقر المادي، وإلى العديد من المواقف السلبية التي أدت إلى تخلف مجتمعاتها في كل من النواحي المادية، والاعتقادية والعبادية إلى درجة كبيرة، وانعكس ذلك على ضياع العدالة في تلك المجتمعات بشكل واضح.

ثم شاءت إرادة الله – تعالى – إنقاذ البشرية من هذا الضياع، وردها إلى الهداية الربانية من جديد فبعث الرسول الخاتم – عليه الصلاة والسلام – إلى الناس كافة قائلًا له: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (سبأ: 28).

ومؤكدًا على ذلك بقوله – تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: 107).

وفي ظل هذه الفوضى التي كانت قد ضربت أطنابها في مختلف جنبات الأرض، بُعث الرسول الخاتم ﷺ بالرسالة الخاتمة التي تعهد ربنا – تبارك وتعالى – بحفظها

فحفظت على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، في نفس لغة وحيها (اللغة العربية)، وتعهد الله – سبحانه وتعالى – بهذا الحفظ تعهدًا مطلقًا إلى أن تثبت البشرية عدم استحقاقها للهداية الربانية؛ فسوف يرفعها الله – تعالى – عنها، حتى لا تقوم الساعة إلا على لكع ابن لكع.

وجاء الرسول الخاتم ﷺ بدعوة الناس إلى الإسلام الذي حمله جميع الأنبياء والمرسلين من قبله، مؤكدًا على حقيقة الإنسان بكونه عبدًا لله – تعالى –، خلقه ربنا – تبارك وتعالى – بيديه، ونفخ فيه من روحه، وعلمه من علمه، وكرمه من جوده، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلًا، واستخلفه في الأرض وطالبه بعبادة ربه وخالقه ورازقه بما أنزل، وأجّل كل واحد من بني آدم إلى أجله، وأجّل الجميع ليوم البعث (وفيه الحشر والحساب والجزاء)، ومنّاهم بالخلود في الجنة أبدًا، وحذرهم من الخلود في النار أبدًا، وجعل من ذلك تلخيصًا لرحلة الإنسان في هذه الحياة الدنيا.

وحينما استقر الأمر برسول الله ﷺ في المدينة وضع لها دستورًا تعلمت منه البشرية كيفية وضع الدساتير الحديثة، ففي هذا الدستور تحدد **مفهوم الأمة** الذي نقل العرب من العصبية القبلية الضيقة إلى الأممية الرحبة الواسعة، ولم تكن أمة المسلمين كأية أمة من الأمم، بل كانت أمة وسطًا، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بدين الله: من عقيدة، وعبادة، وأخلاق، ومعاملات، ولا تعرف الاحتكام لغير شرع الله، ولذلك وصفهم الحق – سبحانه وتعالى – بقوله العزيز: ﴿ **إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ** ﴾ (الأنبياء: 92).

وقال – وقوله الحق –: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ** ﴾ (البقرة: 143).

وقال – عز من قائل – فيهم: ﴿ **كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ** ... ﴾ (آل عمران: 110).

وهذا التميز الذي حدده ربنا – تبارك وتعالى – لم يشكل حاجزًا بين المسلمين وغيرهم في الأمة الإسلامية الواحدة، ما دام غير المسلمين فيها قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، ومحافظين على التزامات المواطنة في دولة الإسلام بصدق وأمانة.

كذلك جعلت «**صحيفة المدينة**» المرجعية في كل أمر من الأمور لله – تعالى – ولرسوله ﷺ **تحقيقًا لمبدأ أن الحاكمية لله على الأمة**، وتكريسًا لمعنى أن عبودية العباد هي لله – سبحانه وتعالى – وحده، فيكرم الإنسان الذي يرتفع بإنسانيته على الخضوع لغير خالقه، ويحقق بذلك معنى توحيد الله القائل على لسان عبده ونبيه يوسف – عليه السلام –: ﴿... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 40).

وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى – مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: 105).

وعلى هذه الأسس أخذت دولة الإسلام في المدينة المنورة تتسع حتى شملت كل جزيرة العرب، ثم ظلت تتسع باتساع فتوحات المسلمين، وبقبول شعوب البلاد المفتوحة للإسلام باختيارها، حتى امتد هذا الدين من بلاد الصين شرقًا إلى بلاد الأندلس غربًا في أقل من قرن واحد من الزمان. ولولا تصدي أهل الباطل من شياطين الإنس والجن لأهل الحق لاتسعت دائرة أمة الإسلام لتشمل الأرض كلها باستجابة غالبية أهل الأرض لدين الله الذي علمه لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، وأنزله على مائة وأربعة وعشرين ألف نبي من أنبيائه الذين اصطفى منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا، ثم أتمه وختمه وحفظه في القرآن الكريم وفي سنة خاتم المرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين – وعلى الرغم من مقاومة أهل الباطل لدين الله فقد أصبح الإسلام رسالة عالمية للناس كافة، وليس رسالة محلية لطائفة محدودة من البشر.

وجاء في صحيفة المدينة من البنود والمبادئ والقواعد ما يحقق العدالة والمساواة بين الناس على اختلاف أعراقهم، ومذاهبهم، ومعتقداتهم، ولغاتهم، ولهجاتهم، وألوان بشراتهم، ومستوياتهم الاجتماعية، وذلك انطلاقًا من قول الحق – تبارك وتعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13).



وانطلاقًا كذلك من قول رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلّغت؟**».(1)

وقوله ﷺ: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**»(2).

وليس المقصود بالمساواة هنا مطلق المساواة في كل أمور الحياة دون مراعاة للتباين بين الناس في المواهب والقدرات، ولكنها مساواة في الحقوق والواجبات مع أخذ المواهب والقدرات في الحسبان، وإلا كانت المساواة المطلقة ظلمًا بائنًا.

وعلى ذلك فقد اشتملت **صحيفة المدينة** على الأسس التي تقوم عليها دولة الإسلام، وظل القرآن يتنزل بالتشريعات الإسلامية عشر سنوات بالمدينة، تم خلالها وضع القواعد الأساسية للحكم ولحقوق الناس حكامًا ومحكومين، وللعلاقات الإنسانية بتفاصيلها على مستوى كل من الأسرة والمجتمع والأمة والعالم من حولها، وتفصيل كل ما في ذلك من الحلال والحرام. وبقيت سنة رسول الله ﷺ شارحة لما يتنزل من كلام الله – تعالى – بالقول والفعل، وبذلك اكتملت الخطوط العريضة لقيام الدولة الإسلامية بمختلف مكوناتها من المسلمين وغير المسلمين كما سبق وأن أسلفنا.

وكانت صحيفة المدينة نقلة نوعية في حياة العرب الذين عاشوا قبل بعثة الرسول الخاتم ﷺ في قبائل متناحرة تقتلها العصبيات القبلية الضيقة التي مزقتهم شر ممزق، وأضعفت من مواقفهم أمام تحديات الإمبراطوريات المحيطة بهم من الفرس، والروم، والأحباش الذين استذلوهم في كثير من الأحيان.

وقد احتوت صحيفة المدينة من القيم الإنسانية، والمعاني الحضارية ما لم يعرفه العرب من قبل، لأنها كانت قيمًا ونظمًا، وتشريعات من وحي الله – تعالى – وليست من صناعة البشر. وإن كانت كل حكمة تصدر عن الإنسان وتتوافق مع تشريع الرحمن، فالمسلمون أحق بها، وأولى الناس بالمحافظة عليها وتطبيقها.

---

(1) مسند أحمد – حديث رقم 23381.

(2) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في العصبية.

وفي ظل شريعة الله نمت الجماعة المسلمة حتى حققت أعظم حضارة في تاريخ البشرية، لأنها كانت الحضارة الوحيدة – فيما وصلنا خبره من الحضارات البائدة – التي جمعت بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، وارتقت بالإنسان بشقيه: الرجل والمرأة إلى مقامات التكريم التي أوجبها الله – تعالى – لكل منهما. وبقي المسلمون خير أمة أخرجت للناس كلما التزموا بشرع الله وعظموه في مجتمعاتهم، ولكن كلما تنكروا لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ وتركوهما وراء ظهورهم جهلًا أو تجاهلًا فقدوا هذه الخيرية كليًا أو جزئيًا.

من مميزات المجتمع الإسلامي

يختلف المجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات البشرية بأنه

1 – **مجتمع رباني يتميز بربانيته؛** لأنه مجتمع قائم على الخضوع بالعبادة والطاعة لله – تعالى – وحده (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد)، وانطلاقًا من ذلك فإنه يقوم على تحكيم شرع الله القائل: ﴿... إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: 40).

ولأنه مجتمع انبثق من العقيدة الإسلامية، وهي العقيدة الدينية الوحيدة التي بقيت أصول وحيها محفوظة بين أيدي الناس على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وهي قائمة على أساس من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره فإن هذه العقيدة الإسلامية تشكل أساس العلاقة بين أفراد المجتمع المسلم، داعية إلى الأخوة بينهم وبين الناس جميعًا، وهي أخوة منبثقة من الإيمان بالإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وبوحدة رسالة السماء وبالأخوة بين الأنبياء وبين جميع بني آدم، وفي ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: 21).

ويقول – عز من قائل –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء: 136).



ويقول – وقوله الحق –: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (البقرة: 285).

والمجتمع الإسلامي قائم على عبادةالله – تعالى – وحده، وللإيمان الصادق نور يقذفه الله – تعالى – في قلب العبد المؤمن، وهو نور يتجدد بمداومة العبادة وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ في الحث على إقامة الصلاة: **«أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»**[1].

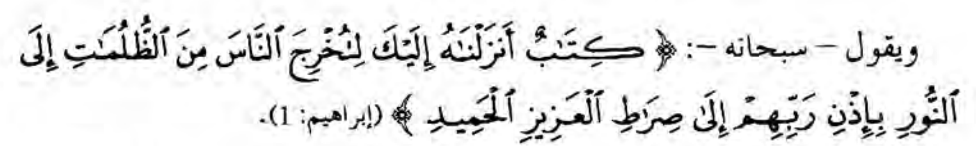
ويؤكد ربنا – جل جلاله – على ضرورة التلازم بين العبادة والسلوك، ويحذر من خطر المفاصلة بينهما فيقول: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: 177).

وفي الحث على الإيمان بالله يقول المصطفى ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»**[2].

2 – والمجتمع الإسلامي بالإضافة إلى كونه مجتمعًا ربانيًا فهو **مجتمع إنساني** يتميز بإنسانيته لأنه **قائم على تكريم الإنسان، واحترام كل من آدميته وحريته**، وفي تكريم الإنسان يقول ربنا – تبارك اسمه –: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ (الإسراء: 70).

---

(1) صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا.
(2) صحيح البخاري – كتاب الإكراه – باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر.


ويقول – سبحانه –: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: 1).

وفي احترام حرية الإنسان، ومنها حرية الاعتقاد يقول ربنا – سبحانه وتعالى –: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 256).

ويقول: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف: 29).

ويقول: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ (التكوير: 28).

ويقول: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون: 6).

ومن ذلك حرية التفكير، والتعبير، وحرية إبداء الرأي، ونفي كل الأوهام والخرافات والأساطير، وتحرير العقل من قيود كل ذلك، وذم التقليد الأعمى بغير التدبر وإعمال العقل. ومن ذلك أيضًا الحق في حفظ النفس، والعقل، والدين، والمال، والنسل (العرض)، وحرية التملك والعمل، والحق في السكن، والأمن، وتوفير احتياجات الطعام والشراب والكساء، والحق في التعليم والتداوي وغير ذلك من ضرورات الحياة.

وانطلاقًا من كونه مجتمعًا إنسانيًا فإن المجتمع الإسلامي **قائم كذلك على اللين، والرحمة، والعفو، كما هو قائم على الشورى، ورفض الاستعباد والاستبداد** بأي شكل من الأشكال، والقرآن الكريم يأمر خاتم المرسلين ﷺ بذلك فيقول له رب العالمين – سبحانه وتعالى – ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران: 159).



3 – والمجتمع الإسلامي هو **مجتمع سلمي** يقوم على البر والتقوى لقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (المائدة: 2).

وهذا المجتمع يقوم كذلك على **السمع والطاعة لولي الأمر** المبايع من أهل الحل والعقد بيعة صحيحة، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء: 59).

ويقول المصطفى ﷺ:

- **«اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمِل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»**[1].
- **«السمع والطاعة حقٌّ ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**[2].

4 – والمجتمع الإسلامي هو أساسًا **مجتمع أخلاقي** قائم على مساواة الدين بحسن الخلق وعلى اعتبار العبادات من وسائل الارتقاء بأخلاق الإنسان وبفهمه لحقيقة رسالته في هذه الحياة وذلك انطلاقًا من أقوال رسول الله ﷺ العديدة التي منها:

- **«اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**[3].
- **«ألا لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»**[4].
- **«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»**[5].

---

(1) صحيح البخاري – كتاب الأذان – باب إمامة العبد والمولى.
(2) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب السمع والطاعة للإمام.
(3) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في معاشرة الناس.
(4) الدر المنثور للسيوطي ج1 ص42، وانظر مجمع الزوائد حديث رقم 341.
(5) سنن البيهقي الكبرى – كتاب الشهادات – باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها.

- **«حسن الخلق خلق الله الأعظم»**[1].
- **«... أكثر ما يلج به الإنسان الجنة تقوى الله عز وجل وحسن الخلق»**[2].
- **«... لا دين لمن لا أمانة له»**[3].
- **«إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقًا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون»**[4].

ومن حسن الخلق **تنزيه المال عن المكاسب المحرمة** كالربا، والاحتكار، والغش، وأكل أموال الناس بالباطل سواء كانت أموالًا خاصة أو عامة، وتحريم كل سلوك يلحق الضرر بالناس أفرادًا أو جماعات، ويسيء إلى المجتمع الإسلامي وإلى القيم العليا التي يدعو إليها.

5 – ومن هنا كان المجتمع الإسلامي هو **مجتمع الأخوة في الله**، والأخوة تقتضي المساواة والعدل، وأن يكون ميزان التفاضل بين الناس هو تقوى الله والعمل الصالح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»**[5].

علمًا بأن الدين في الإسلام هو نظام كامل شامل يتناول كل مناشط الحياة، وأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما مرجعية كل مسلم في التعرف على أحكام دينه، وأن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وأن الخلاف الفقهي في الفروع لا ينبغي أن يكون سببًا للتفرق في الدين. خاصة المسائل التي لا ينبني عليها عمل، وأن محبة رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه والتابعين من الصالحين هي من أصول الدين، ومن القربات إلى الله – سبحانه وتعالى –، وأن الإسلام يحرر العقل، ويعظم العلم، ويوقر العلماء.

6 – والمجتمع الإسلامي هو **مجتمع التكافل والتراحم بين الناس** ومن التراحم الأخذ بالرفق في التعامل مع الغير، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: **«إن الرفق**

---

(1) مجمع الزوائد – كتاب الأدب – باب ما جاء في حسن الخلق.

(2) مسند أحمد – حديث رقم 9072.

(3) مصنف عبد الرزاق – حديث رقم 20192.

(4) مسند أحمد – حديث رقم 17661.

(5) الدر المنثور للسيوطي ج6 ص99.



لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[1]، وقال: **«من يحرم الرفق يحرم الخير»**[2]، وقال: **«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»**[3].

ويقصد بذلك التكافل بشقيه: المادي والمعنوي، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، ويتحقق ذلك بتضامن أبناء المجتمع الواحد فيما بينهم على اتخاذ المواقف الإيجابية اللازمة لحماية ذلك المجتمع من مخاطر الفقر، والجهل والمرض، والعجز، ولرعاية كل من الأيتام، والأرامل، والشيوخ، وأصحاب الاحتياجات الخاصة، ولنصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، كما يتضامنون في اتخاذ المواقف اللازمة لمنع كل من الربا، والاحتكار، والفساد والاستغلال، ولمحاربة غير ذلك من الجرائم والمخالفات الشرعية بمختلف صورها وأشكالها بدافع من الإيمان بالله، وبمسئولية الجماعة عن أفرادها، وبمسئولية الفرد عن جماعته، فيكون الفرد في كفالة الجماعة، وتقوم الجماعة وتقوى بمؤازرة أفرادها لها.

7 - **ومجتمع التكافل الإسلامي هو مجتمع يسعى لتربية الفرد** من أجل إحياء ضميره، وبناء شخصيته، وإلزامه بمسئوليته تجاه مجتمعه حتى يعيش الجميع فيه آمنين مطمئنين على دينهم، ودمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، وأمنهم، وذراريهم، وسلامتهم من كل سوء. والمسلمون في كل زمان ومكان طبقوا فيهما شرع الله تعاونوا، وتكافلوا، وتساندوا، وأجمعوا كلمتهم على محاربة الأمية بشقيها: أمية القراءة والكتابة وأمية العقيدة، وعلى تربية النشء تربية إسلامية صحيحة وهذا هو النمط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي الذي يصفه القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 71).

فالولاية معقودة بين جميع المؤمنين، وإن تناءت بهم صلة الرحم، وتباعدت الأمكنة والأزمنة، يجمعهم الإيمان بالإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، كما يجمعهم

(1) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل الرفق.
(2) السابق، نفس الموضع.
(3) سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في رحمة الصبيان.

كتاب الله الخالق – سبحانه وتعالى – وسنة رسوله ﷺ، ويجمعهم التوجه إلى القبلة الواحدة في مكة المكرمة، ويجمعهم التاريخ الواحد، والمصالح المشتركة العديدة، والتحدي القائم، والآمال المستقبلية الواحدة، كما تجمعهم لغة القرآن الكريم.

ويؤكد ربنا – تبارك وتعالى – على هذا المعنى النبيل بقوله العزيز –: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: 10).

كما يؤكد ربنا – جلت قدرته – أن أولى الناس بهذا التكافل هم الأهل فيقول: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: 75).

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

- **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[1].
- **«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[2].
- **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه»**[3].
- **«مَن نَفَّس عن مُؤمنٍ كُربةً من كُرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعسرٍ يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة ...»**[4].
- **«المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»**[5].

---

(1) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.
(2) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في رحمة المسلمين.
(3) صحيح البخاري – كتاب المظالم – باب نصر المظلوم.
(4) صحيح مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.
(5) كنز العمال – حديث رقم 760.

- **«المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم ويرد على أقصاهم»**[1].
- **«... وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا (ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرات) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»**[2].

ومن حقوق الأفراد في المجتمع المسلم حمايتهم من الأخطار الداخلية والخارجية، والمحافظة على سلامتهم، وأمنهم، وحرماتهم، وممتلكاتهم، ومقدساتهم، والقيام بكل الإجراءات اللازمة لتحقيق ذلك.

والتكافل الاجتماعي في الإسلام يكاد أن يحتوي التشريع الإسلامي كله، وذلك لأن الغاية من هذا التكافل هو إصلاح أحوال الناس: أفرادًا وجماعات، وهذا الإصلاح لا يمكن أن يتم بمعزل عن فهم الإنسان لحقيقة رسالته في الحياة الدنيا: عبدًا لله يعبده بما أمر، ومستخلفًا ناجحًا في الأرض مطالبًا بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله فيها. وهذا التكافل مقصود ببعديه المادي والمعنوي، كما سبق وأن ألمحنا.

أولًا: التكافل المادي في المجتمع المسلم:

يقصد **بالتكافل المادي** مد يد العون والمساعدة إلى المحتاجين في المجتمع من الفقراء والمساكين، ومن الأيتام والأرامل والمقعدين، والمسارعة إلى حماية الضعيف ونصرة المظلوم، وإيواء ابن السبيل، وإلى إغاثة الملهوفين، وتفريج كرب المكروبين، وتأمين الخائفين، والمساهمة الفاعلة في أنشطة الخير في المجتمع حتى لا يبقى فيه محتاج، وحتى يتوافر لكل فرد من أفراده الحد الأدنى من ضرورات المعيشة والرعاية، كي لا يندفع إلى الجريمة أو إلى الفساد، أو إليهما معًا، ومن هنا جعل ربنا - تبارك وتعالى - **الزكاة** ركنًا من أركان الإسلام الخمس، وحبب في **الصدقات** ورغب في إعطائها وفي ذلك يقول - وقوله الفصل - ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 60).

---

(1) سنن ابن ماجه - كتاب الديات - باب المسلمون تتكافأ دماؤهم.

(2) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم ظلم المسلم.

ومن الصدقات زكاة الفطر، والكفارات، والنذور، والهبات، والوصايا، والأوقاف، ومنها الإحسان والبر، وصلات الرحم، وغير ذلك، وفي التشجيع على ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: 177).

وقال – عز من قائل –: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (النساء: 36 – 39).

وقال – تعالى –: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الحشر: 7).

وقال – وقوله الحق –: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (المعارج: 24 – 25).

ويقول المصطفى ﷺ: «**ليس في المال حق سوى الزكاة**»(1).

(1) سنن ابن ماجه – كتاب الزكاة – باب ما أُدِّي زكاته فليس بكنز.



ويقول: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له**»[1].

والإسلام بتشريعاته العادلة عالج مشاكل الفقر، والجهل، والمرض، والبطالة، بوسائل إيجابية متكاملة حتى وصل الأمر بالرجل يخرج بزكاة ماله فلا يجد من يأخذها منه.

وعلى الرغم من وضوح مسئولية كل فرد مسلم عن نفسه وعمن يعول، إلا أن الحكمة الإلهية جعلت بعض أفراد المجتمع يحتاج إلى البعض الآخر ابتلاءً لإسلام المسلمين ولإيمان المؤمنين، ورحمة بالمحتاجين، **فجعل النفقة إلزامية على رب كل أسرة**، فالزوج مسئول عن كل من الزوجة والأبناء وعن من يعولهم من ذوي قرباه من مثل الأمهات والآباء، والجدات والأجداد ماداموا في حاجة إلى المساعدة، وما دام هو قادرًا على ذلك. وتمتد هذه المسئولية لتشمل القرابة كلها، مهما كانت درجة بعدها، بل قد تمتد لتسع كل محتاج في المجتمع وفي ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى –: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: 233).

ويقول – سبحانه تعالى –: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: 134).

ويقول – وقوله الحق –: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان: 8، 9).

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع..**»[2].

---

(1) سنن الترمذي – كتاب الأحكام – باب في الوقف.

(2) السلسلة الصحيحة للألباني – حديث رقم 1636.

ويقول: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**»(1).

ويؤكد القرآن الكريم على ضرورة الإنفاق في سبيل الله - تعالى - ويشجع عليه وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى: ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (البقرة: 261، 262).

وقوله - عز من قائل -: ﴿ **إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾

(البقرة: 270 - 274).

وبقوله - جل شأنه -: ﴿ **لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ** ﴾ (آل عمران: 92).

وقوله - تعالى -: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (آل عمران: 180).

---

(1) سنن أبي داود - كتاب الزكاة - باب في صلة الرحم.



وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ (النساء: 37).

وقوله – وقوله الحق –: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ (محمد: 38).

ومما يشجع المسلم على الإنفاق في سبيل الله ما نزل في **تحريم كنز الأموال** وذلك من مثل قول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ (التوبة: 34، 35).

وانطلاقًا من ذلك فرض **نظام الإرث في الإسلام** الذي يشرك عددًا كبيرًا من أقرباء الميت في التركة مما يؤدي إلى توزيعها، بينما يحصر ذلك في غالبية النظم الوضعية في عدد قليل من الورثة قد يتحدد في بعض الأحيان بفرد واحد، أو قد يوصي بالتركة كاملة إلى غير الأقرباء، أو إلى جهة لا خير فيها، ولذلك حرص الإسلام العظيم على تفصيل قانون الميراث وعلى حرمان الوارث من الوصية حتى لا يظفر بنصيبين من تركة واحدة.

كذلك حرص الإسلام على جمع المال من مصادره الصحيحة حتى يبقى منزهًا عن المكاسب المحرمة من مثل الربا، والاحتكار، والغش، وأكل مال اليتيم، وأكل أموال الناس بالباطل، سواء كان المال خاصًا أم عامًّا، ولذلك قال ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»[1]، وقال: «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**»[2].

(1) سنن ابن ماجه – كتاب التجارات – باب النهي عن الغش.

(2) سنن البيهقي الكبرى – كتاب الإجارة – باب لا تجوز الإجارة حتى تكون معلومة وتكون الأجرة معلومة.

وقال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار... ورجل آتاه الله مالاً فهو يهلكه في الحق ...**»(1).

فالمجتمع الذي يقوم على التعاون والتكافل بين أفراده هو مجتمع يقوم على أساس من الأخوة، والمحبة والإيثار، فيصبح مجتمعًا متين التماسك، حصينًا ضد معاول هدم الهدامين، وإرجاف المرجفين الذين كثروا في زمن الفتن الذي نعيشه بشكل مفزع للغاية.

ومن وصايا رسول الله ﷺ لرجل سأله عن عمل يدخله الجنة قال: «... **فأطعم الجائع، واسق الظمآن**، قال: فإن لم أستطع؟ قال: **مُرْ بالمعروف، وانه عن المنكر**، قال: فمن لم يطق ذلك؟ قال: **فكف لسانك إلا من خير**»(2).

ومن أقواله – صلوات الله وسلامه عليه –:

- «**ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»(3).
- «**أطعموا الجائع، وفكوا العاني، وعودوا المريض**»(4).
- «... **وأيما أهل عرصة (أي ساحة بين الدور) أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله**»(5).
- «..... **خير الجيران عند الله خيرهم لجاره**»(6).

وأخرج كل من الإمامين مسلم وأبي داود أن رسول الله ﷺ كان في حال سفر وشدة فقال «**من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له..**» وأضاف راوي الحديث أن رسول الله ﷺ ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل(7).

---

(1) صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن – باب اغتباط صاحب القرآن.

(2) سنن البيهقي الكبرى – كتاب العتق – باب فضل إعتاق النسمة وفك الرقبة.

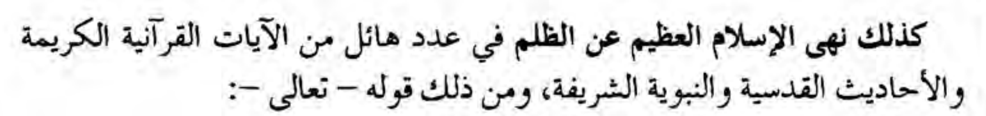
(3) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب استحباب العفو والتواضع.

(4) مسند أحمد – حديث رقم 19409.

(5) مسند أبي يعلى الموصلي – حديث رقم 5746.

(6) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في حق الجوار.

(7) صحيح مسلم – كتاب اللقطة – باب استحباب المؤاساة بفضول المال.



كذلك نهى الإسلام العظيم عن الظلم في عدد هائل من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث القدسية والنبوية الشريفة، ومن ذلك قوله – تعالى –:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: 10).
- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: 152).
- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 231).
- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (إبراهيم: 42).
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: 1).

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ:

- **«من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»**[1].

---

(1) مسند أحمد – حديث رقم 24385.

- **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**[1]

ويأمر الإسلام بالسماحة في التعامل بين الناس فقال المصطفى ﷺ: **«رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»**[2].

كذلك يأمر الإسلام بالإحسان في التقاضي فقال ﷺ: **«إن خيركم أو (من خيركم) أحاسنكم قضاء»**[3].

ومن واجبات المجتمع المسلم رعاية مصالح كل فرد فيه، والمحافظة عليه ومن ذلك العمل على حفظ أمنه، ودينه، ونفسه، وماله، وعقله، وعرضه، وهي من الضرورات التي بدونها لا تستقيم حياة الإنسان.

ولذلك قال ﷺ: **«لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»**[4].

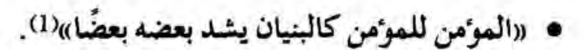
ثانيًا: التكافل المعنوي في المجتمع المسلم:

يشتمل التكافل المعنوي على المحبة بين أفراد المجتمع في الله ولله، وقد عظمها الإسلام بأقوال رسول الله ﷺ التي منها:

- **«لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا،و لا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**[5].
- **«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»**[6].
- **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[7].

---

(1) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم الظلم.
(2) صحيح البخاري – كتاب البيوع – باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع.
(3) سنن ابن ماجه – كتاب الصدقات – باب حسن القضاء.
(4) سنن الترمذي – كتاب الديات – باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن.
(5) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.
(6) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب في فضل الحب في الله.
(7) صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه.



- **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[1].**

- **«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا،وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[2].**

ويشمل التكافل المعنوي في المجتمع كلًّا من **التناصح والمشاركة الوجدانية** بين أفراده (في الأفراح والأتراح والملمات)، **والتواضع، ولين الجانب، والتعاون على فعل الخيرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** بأسلوب بعيد عن التشهير أو الإساءة، **وترك المراء والجدال، ونبذ كل من التحاسد والتباغض، والزهو بالنفس والعجب بالذات،** والتأكيد على ضرورة **التواصي بالحق والتواصي بالصبر،** وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

- **«لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسَّسوا ولا تحسَّسوا ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[3].**

- **«الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[4].**

8 – **والمجتمع الإسلامي هو مجتمع الجد والاجتهاد في العمل** حتى يقوم كل فرد بواجب الاستخلاف في الأرض على الوجه الذي يرتضيه الله – تعالى – لأن الأصل في الإسلام أن كل مسلم مطالب بالعمل لسد حاجته وحاجات من يعول بنفسه، وذلك انطلاقًا من الأمر القرآني الذي يقول الله – تعالى – فيه: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: 10).

وذلك لأن الإسلام يدعو إلى العمل، ويكرم العمال، ويعتبر من أحلِّ المكاسب وأفضل الأعمال كسب الرجل من عمل يده عملاً شريفًا، وفي ذلك يقول

---

(1) صحيح البخاري – كتاب المظالم – باب نصر المظلوم.

(2) صحيح البخاري – كتاب الشركة – باب هل يقرع في القسمة؟.

(3) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها.

(4) صحيح البخاري – كتاب الإيمان – باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة.

المصطفى ﷺ «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده**»(1).

وقال: «**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خيرله من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه**»(2).

9 - وهو **مجتمع المحافظة على حرمات الآخرين وحقوقهم**، ومن المحافظة على حقوق الإنسان عدم الاجتراء على حرمة السكن الخاص به، فلا يجوز لأحد دخول مسكن الآخر إلا بإذنه ورضاه، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (النور: 27 - 28).

ويقول المصطفى ﷺ: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع**»(3).

ويحرم الإسلام العظيم سوء الظن بأي من الأفراد أو الجماعات، **كما يحرم التجسس على البيوت وتتبع عورات الناس، أو اغتيابهم**، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات: 12)..

ومن المحافظة على حقوق الناس جميعًا حرم الإسلام العظيم التعامل بالربا أخذًا أو عطاءً، فقال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: 276).

---

(1) صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب كسب الرجل وعمله بيده.
(2) صحيح البخاري - كتاب المساقاة - باب بيع الحطب والكلأ.
(3) صحيح البخاري - كتاب الاستئذان - باب التسليم والاستئذان ثلاثًا.



وقال ﷺ «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: **الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المُحصنات المؤمنات الغافلات**»[1].

كما نهى الإسلام عن كل ممارسة تعين على الربا ومن ذلك الغش فقال ﷺ: «**من غش فليس منا**»[2]، كما نهى عن الاحتكار، والإسراف في أي شيء فقال: «**لا يحتكر إلا خاطئ**»[3]. وقال: «**مطل الغني ظلم**»[4].

وكان ﷺ إذا أتاه فيء (أي غنيمة تؤخذ صلحًا من الأعداء) قسمه من يومه، فأعطى الآهل (أي المتزوج) حظين، وأعطى العزب (أي غير المتزوج) حظًا واحدًا»[5].

10 – والمجتمع المسلم هو **مجتمع العدل والمساواة بين الناس**، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: 90).

ويقول – عز من قائل –: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: 8).

ويقول – وهو أصدق القائلين –: ﴿... وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: 152).

---

(1) صحيح البخاري – كتاب الوصايا – باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

(2) سنن الترمذي – كتاب البيوع – باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع.

(3) سنن الترمذي – كتاب البيوع – باب ما جاء في الاحتكار.

(4) صحيح البخاري – كتاب الحوالة – باب ما الحوالة، وهل يرجع في الحوالة.

(5) الأموال لأبي عبيد، كتاب مخارج الفيء ومواضعه التي يصرف إليها ويجعل فيها – باب الفرض للنساء والمماليك من الفيء.

وقال ﷺ: **«من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»**[1]. وقال: **«يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»**[2].

وحتى في حالات الحرب – التي لا ضوابط فيها عند غير المسلمين – يوصي رسول الله ﷺ بالعديد من الضوابط الأخلاقية النبيلة، فكان يودع جيوشه المنطلقة لمقاتلة الكفار بقوله الشريف: **«انطلقوا باسم الله، وعلى بركة الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين»**. وفي ذلك أيضًا كان يقول: **«سيروا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تنفروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا»**.

11 – وهو فوق ذلك **مجتمع الأخوة الإنسانية الواسعة** فكما حدد الإسلام حقوق المسلم على أخيه المسلم، حدد حقوق الذمي من أهل الكتاب على مواطنه المسلم فقال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الممتحنة: 8 – 9).

وقال رسول الله ﷺ: **«ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»**[3].

والإسلام العظيم يأبى أن يتواجد في ظله إنسان محروم من الطعام، أو الشراب، أو الكساء، أو المأوى، أو العلاج (مسلمًا كان أو ذميًا)، فإن دفع الضرر عنه واجب ديني، وفي ذلك يروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس، فقال له: ما أنصفناك

(1) صحيح البخاري – كتاب المظالم – باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض.
(2) صحيح البخاري – كتاب الحدود – باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان.
(3) سنن أبي داود – كتاب الخراج والإمارة والفيء – باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات.



إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك، ثم ضيعناك في كبرك، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

12 - والمجتمع الإسلامي فوق ذلك كله هو **مجتمع عالمي** لا يقوم على أي من مشاعر العنصرية أو القومية، لأنه مجتمع يؤمن بالأخوة الإنسانية المنطلقة من قوله تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: 1).

ومن قوله - عز من قال -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13).

ومن هذا المنطق يؤكد القرآن الكريم أن رسول الله ﷺ قد بعث للناس جميعًا وذلك بأمر ربنا - تبارك وتعالى - له بقوله العزيز -: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: 158).

وقول ربنا - تبارك وتعالى - عنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: 28).

واقــع مسلمـي اليــوم

إن كانت هذه هي بعض ضوابط المجتمع المسلم، فإن مجتمعات المسلمين اليوم بدأت - وللأسف الشديد - بالخروج عليها، ونقض عراها عروة عروة، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم من ضياع، وتحلل، وتخلف، وهزيمة، وهوان!! مما يدعو إلى ضرورة المبادرة بإصلاح اجتماعي عاجل يعيد لأمة الإسلام التزامها الديني، ودورها الرائد على مستوى العالم من جديد. وبداية الإصلاح تكون في حسن التشخيص لأسباب التفكك الاجتماعي والتحلل الديني الذي تعاني منه أمتنا في هذه الأيام والذي يمكن إيجازه في النقاط التالية:

1 – إغراق قيادات الأمة السياسية والاقتصادية في **الترف المخل**، والله – تعالى – يحذر من الإغراق فيه فيقول –: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء: 16).

ورسولنا ﷺ حذرنا من ذلك بقوله الشريف: «**إذا اقترب الزمان كثر لبس الطيالسة** (وهي الثياب النفيسة المزخرفة) **وكثرت التجارة، وكثر المال، وعظم رب المال، وكثرت الفاحشة، وكانت إمرة الصبيان، وكثر النساء، وجار السلطان، وطفف في المكيال والميزان، يربي الرجل جرو كلب خير له من أن يربي ولدًا، ولا يوقر كبير، ولا يرحم صغير، ويكثر أولاد الزنا...**»(1).

2 – **ومع الإغراق في الترف المخل توقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعم الفساد، وكثرت الفتن** التي حذر القرآن الكريم من الوقوع فيهما وذلك بقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود: 116 – 117).

وفي النهي عن الوقوع في الفتن يقول ربنا – سبحانه وتعالى –: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال: 25).

ويقول: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح: 23).

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(2).

---

(1) رواه الطبراني في الأوسط.

(2) المرجع السابق.

وقال ﷺ: **«إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء»**. فقيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: **«إذا كان المغنم دولًا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه، وبر صديقه وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمور، ولبس الحرير، واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا ومسخًا»**[1].

3 - ومع غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انتشرت الفتن، وَعَمَّ الفساد، **وكثرت الخلافات والمنازعات وتفرقت كلمة الأمة، وانفرط عقدها**، والقرآن الكريم يحذرنا من ذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: 46).

4 - ومع فرقة كلمة المسلمين وانفراط عقدهم طمع في بلادهم الكفار والمشركون، فاحتلوا غالبية أراضي المسلمين، وأقصوا الإسلام عن مقامات اتخاذ القرار، وفرضوا على بلاد المسلمين نمطًا متغربًا من الحكام الذين أطفَئوا روح الجهاد في قلوب شعوبهم، وعمدوا إلى تغريبهم عن دينهم أيما تغريب، **حتى لم يبق من الإسلام إلا اسمه، وبعض قوانين الأحوال الشخصية التي تتجدد المناورات لإلغائها من آن إلى آخر**، مما شجع أعداء الإسلام على المزيد من تغريبنا، والطمع في ثروات بلادنا، ومحاولة إخراج أبناء وبنات أمتنا عن دين الإسلام، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من ذلك فقال: **«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها** (قال راوي الحديث: قلنا: يا رسول الله أمِن قلة بنا يومئذ؟) **قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون كغثاء السيل، ينزع الله المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن»** قلنا: وما الوهن؟ **قال: «حب الحياة وكراهية الموت»**[2].

---

(1) سنن الترمذي - كتاب الفتن - حديث رقم 2136.

(2) مسند أحمد - حديث رقم 22296 - وانظر سنن أبي داود - كتاب الملاحم - باب في تداعي الأمم على الإسلام.

5 – ومع هيمنة الدهريين على زمام الحكم في غالبية ديار المسلمين، ومع دعم أعداء الأمة لهم تم **تغريب المسلمين عن دينهم**، فغربت العقيدة، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وتمت المفاصلة بين العبادة والسلوك عند الذين ظلوا يمارسون بعض جوانب العبادة، فأساء ذلك إلى الدين إساءة بالغة، وانتشر سوء الفهم وسوء التطبيق في أغلب مناشط الحياة. فحكمت البلاد بنظم وضعية قهرية، جبرية، ظالمة أشاعت الفساد في البلاد وبين العباد، وأعانت على المزيد من تغريب الأمة، فتغرب التعليم، وتغرب الإعلام، وتخلف البحث العلمي والتقني، وغرق الاقتصاد في أوحال الربا، وتخلفت أساليب الإدارة وفسدت فسادًا عظيمًا، وانحلت المجتمعات انحلالًا مدمرًا، وأترفت الجيوش ترفًا مفسدًا، ونسي غالبية المسلمين كتاب الله وسنة رسوله، وتركوهما وراء ظهورهم، وأهملوا لغة قرآنهم، وكثرت رطانتهم بلغات غير عربية، وانتشرت اللافتات على غالبية المحلات بتلك اللغات الأجنبية، كما انتشرت الاحتفالات بالمناسبات غير الإسلامية، واختلفت التحيات حتى أصبحت غير إسلامية، وتغربت الأزياء والعادات، ونسي التاريخ الهجري، وكثرت معاهد وكليات وجامعات التعليم الأجنبي الذي يعمل بمنهجية شيطانية على تدمير نفسية أبناء الأمة وبلبلة أفكارهم، وجعل كل مثلهم العليا من النماذج غير المسلمة حتى تغرب الكثيرون من أبناء المسلمين وأعرضوا عن ذكر الله، وكثرت المواقع على شبكة المعلومات الدولية وعلى القنوات الفضائية التي تعلن إلحادها وتطاولها على الإسلام: دينًا، وكتابًا، ونبيًّا، وسنة، وحضارة إنسانية، والتنزيل يحذر من ذلك بقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: 124).

ورسول الله ﷺ يحذرنا من الغربة عن الإسلام وتعاليمه وآدابه ونصوصه ولغته قائلًا: «**لتتبعن سنن الذين من قبلكم، شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا في جُحر ضب لا تبعتموهم**» قلنا: يا رسول الله، آليهود والنصارى؟ **قال**: «**فمن؟**»[1].

(1) صحيح مسلم – كتاب العلم – باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

والحكم بغير ما أنزل الله – تعالى – لا يخدم إلا الطبقة الحاكمة التي تسن من القوانين وتضع من النظم ما يحمي مصالحها فقط، ويبقي كراسي الحكم من تحتها، ويعينها على توريثها للأبناء والأحفاد من بعدهم إلا أن ينقلب عليها الجيش، أو يقبض عزرائيل أرواحها.

وفي كل الحالات تبقى نظمًا ظالمة، تكتم أنفاس شعوبها وتحرمهم إمكانية النطق بكلمة الحق، والرسول ﷺ يحذرنا من هذا الموقف بقوله الشريف: **«إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه»**[1].

ويقول ﷺ: **«لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا»**[2].

6 – ومع تغريب الأمة، وتعطيل شرع الله فيها، وشيوع الفساد في مجتمعاتها **عطلت فريضة الجهاد** فهزمت الأمة على أيدي حثالة من حثالات الأمم، ونفاية من نفايات الشعوب، غرست في قلب العالم العربي/الإسلامي بمؤامرة دولية حقيرة، وأذاقت شعوبه الوبال تلو الوبال على مدى يكاد يقترب من قرن من الزمان، وبلغت وحشية الصهاينة وفجرهم مداه في الحرب الأخيرة على قطاع غزة الذي حاصروه برًا وبحرًا وجوًا لمدة ثلاث سنوات حتى يقتلوا مليونًا ونصف المليون من المدنيين جوعًا و عطشًا، ومرضًا بسبب النقص الهائل في الطعام، والشراب، والدواء، والوقود والكهرباء، أو يركعوهم على ركبهم أمام تجبر هؤلاء اللصوص، ويجبروهم على الاعتراف بالحق اليهودي في أرض فلسطين التي سرقوها بمؤامرة دولية، ولما لم يفلح الحصار والتجويع شنوا عليهم أبشع حرب في تاريخ البشرية استمرت لأكثر من ثلاثة أسابيع من الغارات الجوية، والبحرية، والأرضية المتواصلة ليل نهار بكل أنواع الأسلحة المحرمة دوليًا حتى دمروا كل شيء، وأحرقوا الأخضر واليابس، والجيوش العربية تتفرج!! وهي عاجزة كل العجز عن القيام بأي دور!! والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يحذران من قبل أربعة عشر قرنًا من ترك الجهاد وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿قَـٰتِلُوهُمْ

---

(1) سنن الترمذي – كتاب الفتن – باب ما جاء في نزول العذاب.

(2) سنن أبي داود – كتاب الملاحم – باب الأمر والنهي.

﴿... يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: 14).

ويقول – عز من قال –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: 38 – 39).

ويقول الرسول ﷺ: **«لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة ليلزمنكم الله مذلة في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه»**[1].

ويقول – عليه الصلاة والسلام –: **«الغزو غزوان: فأما من ابتغى وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك، واجتنب الفساد، فإن نومه ونبهه أجر كله...»**.[2]

7 – ومع كل ما سبق من إغراق قادة وأثرياء الأمة الإسلامية في الترف المخل، وتوقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في معظم بلاد المسلمين، وتفرق كلمة الأمة وانفراط لعقدها، وشيوع الخلافات بين قادتها وأبنائها، وانتشار الفتن في مختلف ربوعها، واحتلال عسكري لأغلب بلادها من قبل أعداء تمكنوا من إقصاء الإسلام بالكامل عن مقامات اتخاذ القرار في غالبية حكوماتها، حتى تم تغريب الأمة بجملتها، فتركت الجهاد، وأصابها الوهن، وفاصلت بين العبادة والسلوك، وحكمت بغير ما أنزل الله، فانتشرت فيها الموبقات بمختلف أشكالها، وشاع في المجتمعات المسلمة الفساد!!

﴿.... وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ (البقرة: 205).

ومن شواهد ذلك **ضياع كل من الدين والأمانة**، والرسول ﷺ يقول: **«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»**[3]، ومن شواهده أيضًا أن الأمور قد وسدت إلى غير أهلها، وتفشى خراب الذمم، فانتشر الربا، والغش، وتطفيف الكيل

(1) مسند أحمد – حديث رقم 5007.

(2) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، في سنن أبي داود، حديث رقم 2154.

(3) مسند أحمد – حديث رقم 12505.

والميزان، وابتليت المجتمعات بالرشاوي والمحسوبيات، وبشيوع الإدمان على مختلف أشكال المسكرات والمخدرات، والتبغ، وبارتفاع معدلات الجريمة، وتفكك الأسرة، واستحلال الحرام، وانحطاط السلوكيات الخاصة والعامة، وانتشار الأمراض والأوبئة التي لم تكن معروفة من قبل، ونسيان الموت وما بعده. ومن قبل ألف وأربعمائة سنة يحذرنا رسول الله ﷺ من ذلك بقوله الشريف: «**يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، لم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**»(1).

وقال ﷺ: «**إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله عز وجل بأهل الأرض بأسه**» فقيل له: أنهلك وفينا أهل طاعة الله؟ قال: «**نعم، ثم تصيرون إلى رحمة الله**».(2)

وقال – عليه الصلاة والسلام –: «**إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة**».(3)

ومن هنا وجبت ضرورة المبادرة بالتغيير لقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ... ﴾ (الرعد: 11).

خطوط عريضة للإصلاح الاجتماعي في ديار المسلمين

تقوم عملية الإصلاح الاجتماعي في ديار المسلمين على أساس من تبني جميع عمليات الإصلاح التي جاءت الإشارة إليها في الفصول السابقة من هذا الكتاب ومنها: **الإصلاح التربوي، والتعليمي، والعلمي، والإعلامي، والاقتصادي، والبيئي،**

(1) سنن ابن ماجه – كتاب الفتن – باب العقوبات.
(2) أخرجه الحميدي في مسنده.
(3) مسند أحمد – ورواه الطبراني في المعجم الكبير.

والسياسي، وذلك لأن هدف الإصلاح الاجتماعي هو الإنسان بجميع أبعاده المادية والمعنوية، وفي كل حالاته الفردية والجماعية.

ويهدف الإصلاح الاجتماعي في ديار المسلمين إلى إعادة رد هذه المجتمعات إلى قيمها الإسلامية الأصيلة، بعد أن أخذت عمليات التغريب في تضييعها قيمة بعد قيمة، في ظل الحضارة المادية الغالبة. ومن هذه القيم التي ضاعت **قيمة التراحم بين المسلمين**، التي وصفها ربنا - تبارك وتعالى - مادحًا جيل المصطفى ﷺ بقوله العزيز: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ (الفتح: 29).

ومن القيم الإسلامية الأصيلة التي ضاعت في أغلب مجتمعات اليوم **قيمة التكافل الاجتماعي** الذي يجب أن يتربى عليه المسلم منذ نعومة أظفاره انطلاقًا من ركائز دينه التي تكون شخصيته المسلمة، وتحيي كلًا من قلبه وعقله وضميره الإنساني حتى يستقيم سلوكه الاجتماعي مع فطرته التي فطره عليها خالقه، ومع أسرته التي ربته والتي هو مسئول عن تربيتها والتي في عنقه حقوق لها وواجبات يجب أن تؤدى إليها، وبذلك يستقيم سلوكه معها ومع مجتمعه، في تكافل خالص لوجه الله - تعالى - يجني ثماره طيبة في الدنيا قبل الآخرة.

وهذا التكافل يشمل تنظيم الفرد المسلم لمعاملاته على مختلف المستويات، وفي كافة المجالات المادية والمعنوية من أجل إصلاح أحوال المجتمع الذي يعيش فيه، حتى يطمئن كل فرد من أفراده على دينه، ونفسه، وأمنه، وماله، وعقله، وعرضه، ونسله، انطلاقًا من الإيمان الكامل بالأخوة الإنسانية، وبالمسئولية الفردية والجماعية عن صون المجتمع بمختلف أفراده وطبقاته، وعن صون كل من الوافدين إليه والمغتربين عنه، وحبًا في المسارعة بعمل الخير، والإكثار من الإحسان إلى الغير، والبر به، طلبًا لمرضاة الله - سبحانه وتعالى -، ووفاء بمسئولية الاستخلاف في الأرض، وحفظًا لكرامة الإنسان التي قررها له الله - سبحانه وتعالى - ويمكن أن يتحقق ذلك بتبني المنهجية التالية:

أولًا: العمل على إصلاح الفرد الذي تبنى منه الأسرة، وينبني منه المجتمع، ويتم ذلك ببناء عقيدته الصحيحة، وتطهير قلبه، وإحياء ضميره، وتكوين شخصيته، وضبط سلوكه الفردي والاجتماعي وتيسير سبل الحياة له وذلك على النحو التالي:



1 – **تربية الأبناء منذ مراحل الإدراك الأولى على الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر**، وعلى أداء العبادات المفروضة وفي مقدمتها الصلاة التي هي عماد الدين، وفريضة رب العالمين، وهي إعلان خضوع العبد خضوعًا كاملًا لخالقه، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ **حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ** ﴾ (البقرة: 238).

ويقول: ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ** ﴾ (البينة: 5).

2 – **وبالتربية الإسلامية الصحيحة يمكن استيعاب الشاب، وتثقيفه علميًّا، وفكريًّا، وإسلاميًّا، وإنسانيًّا، والنهوض به بدنيًّا وعقليًّا** حتى يصبح صحيح العقيدة، مستقيم الخلق، قوي البنية، مستنير الفكر، سليم العقل، مصان العرض، ومحفوظ الكرامة. كذلك يمكن اكتشاف مواهبه والعمل على تنميتها، واكتشاف نقائصه والعمل على معالجتها حتى يتمكن من التخلص منها، وتطوير البرامج اللازمة لتحقيق ذلك، والقيام بتوجيهه وحسن رعايته، والعمل على بناء شخصيته، وتطهير قلبه ومعاونته على تنمية دوره في المجتمع، وعلى مساهمته في برامج التنمية الشاملة له. ورسولنا ﷺ يقول: «**ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1].

3 – **ويعين على إصلاح الفرد في المجتمع المسلم مع حسن التربية والتعليم، التشجيع على ممارسة العبادة في جماعة**. وفي مقدمة ذلك إقام الصلاة وأداء الزكاة، والصوم، والحج لمن استطاع إليه سبيلًا، والمحافظة على مدارسة القرآن الكريم، والمداومة على ذكر الله – سبحانه وتعالى – والتشجيع على التفوق في التعليم وكسب المعارف والمهارات، والتطلع إلى النبوغ وإتقان الأعمال، وحب التميز.

والفرد المسلم ينمو بقدراته كلما ساعده المجتمع على محو الأمية بشقيها: أمية القراءة والكتابة، وأمية العقيدة، وكلما أعانه على ذلك بإحياء دور كل من الكتاتيب، ورسالة المسجد، وأعمال الأوقاف الإسلامية، وإصلاح كل من التعليم والإعلام والاقتصاد ونظم الحكم.

---

(1) متفق عليه.

ثانيًا: ضرورة الاهتمام بالأسرة المسلمة: لأنها هي أساس المجتمع، فإذا صلحت صلح المجتمع، ولذلك فصل القرآن الكريم كما فصلت السنة النبوية المطهرة حقوق وواجبات كل فرد من أفراد الأسرة، كما حض هذان المصدران من مصادر التشريع الإسلامي على:

1 - **حسن اختيار كل من الزوجين لرفيق حياته**، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[1].

ويقول: «**تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم**»[2].

ويقول: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[3].

ويقول: «**لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن (أي: يهلكهن)، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة خَرْماء سوداء ذات دين أفضل**»[4].

وأكد القرآن الكريم ضرورة أن يؤسس البيت المسلم على المودة والرحمة فقال - تعالى -: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: 21).

2 - **ضرورة وضع التشريعات الإسلامية اللازمة لحماية الأسرة**، وتأكيد أن الإسلام يساوي بين الزوجين في الحقوق والواجبات، مع مراعاة الخصوصيات الفطرية والوظيفية لكل منهما، والتي هيأ الله تعالى كلًا من الزوج والزوجة لها، في تكامل لا تضاد ولا تعارض فيه، ووزع مسئولية الأسرة بينهما في تواصل تحكمه المودة والرحمة، وتحترم فيه أواصر الرحم بين جميع أفراد الأسرة.

3 - **وضع الأسس الإسلامية التي يقوم عليها بناء الأسرة** ومنها حسن اختيار الزوجين على أساس من الدين، ثم حسن الترابط، والتكافل، والحب،

(1) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح - باب الأكفاء.
(2) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح - باب الأكفاء.
(3) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب الأكفاء في الدين.
(4) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح - باب تزويج ذوات الدين.



والتراحم، وحسن التنظيم والإدارة، والالتزام الديني: (عقيدة، وعبادة، وأخلاقًا، ومعاملات) حتى تبني الأسرة بناءً إيمانيًا صحيحًا، وحتى لا تصبح معاييرها معايير مادية بحتة. وفي ذلك يقول ربنا – سبحانه وتعالى –: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: 1 – 3).

ويقول – عز من قائل –: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الأنفال: 2 – 3).

4 – **علاج قضية المرأة** علاجًا يجمع بين النهوض بها تربية وثقافة وفكرًا، والمحافظة عليها كأنثى وفق تعاليم الإسلام وحدوده، حتى تنشأ الفتاة المسلمة على فهم صحيح لحقيقة رسالتها في هذه الحياة، فتتربى على القيم التي أرادها الله – تعالى – لها من **الحياء والعفاف والطهر** الذي يصونه كل من **الالتزام بالحجاب** والبعد عن مخالطة الرجال في غير ضرورة، وعن المبالغات الفجة في التزين والتعطر وإبداء الزينة عند الخروج من البيت، وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى – في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: 59).

ويقول – عز من قائل –: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ

لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: 30 – 31).

ويعين على تحقيق ذلك التشجيع على الزواج المبكر، والدعوة إلى تيسير إجراءاته، والإعانة عليه.

ولو التزم كل مسلم ومسلمة بهذه الأوامر الربانية الصريحة لاختفت من المجتمعات المسلمة أسباب الإثارة الجنسية، والفتنة المحرمة، وجرائم الزنا، وخطف الإناث بهدف الاعتداء على أعراضهن، أو تعريضهن لما يخدش حياءهن، ولما انتهى كثير من الزيجات بالفشل في السنوات الأولى من عمرها، ولتجنبت مجتمعاتنا العديد من المآسي الإنسانية التي تملأ جوانبها اليوم، ولانتشرت فيها الفضيلة، والرضا، والطمأنينية التي يزرعها شرع الله – تعالى – في النفوس والقلوب.

ولو التزم المسلمون بهذه الضوابط الشرعية في بناء الأسرة – وأمثالها عديد في الكتاب والسنة – لتجنبت المجتمعات المسلمة كثيرًا من مآسي الطلاق، وكثرة القضايا والمظالم التي تصاحب فرقة الزوجين وتؤدي إلى ضياع الصغار أو تشردهم نتيجة لانهدام الأسرة.

ثالثًا: ضرورة الاهتمام بتربية الأبناء: وتنشئتهم في بيئة صالحة، وهذا من الأمور التي حض عليها الإسلام، ومن ذلك قول ربنا – تبارك اسمه –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: 6).

ويمتدح القرآن الكريم تعويد النشء من الصغر على عبادة الله وطاعته والمداومة على ذكره، وفي ذلك يقول: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النور: 36 – 38).

ويؤكد المصطفى ﷺ على فضل الصلاة فيقول: «**إن أول ما يحاسب به العبد المسلم يوم القيامة الصلاة المكتوبة، فإن أتمها وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع؟ فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك**»(1).

وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «**علموا أنفسكم الخير**»(2).

كما اهتم الإسلام بحسن تسمية الأبناء، وأمر بالعدل والمساواة بينهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**»(3) وأضاف قوله: «**كلكم راع وكلكم مسئول، فالإمام راع وهو مسئول، والرجل راع على أهله وهو مسئول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول**»(4).

رابعًا: التأكيد على ضرورة بر الوالدين وصلة ذوي الأرحام: للوالدين في الإسلام مكانة عالية، فقد جعل الله – تعالى – برهما في المقام التالي لتوحيده فقال – عز من قائل –: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ (الإسراء: 23 – 24).

وجعل رسول الله ﷺ بر الوالدين في مقام أعلى من الجهاد في سبيل الله، فعندما سأله عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أي العمل أفضل؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**الصلاة على ميقاتها**» قال: ثم أي؟ **قال** «**ثم بر الوالدين**» **قال** ثم أي؟ **قال:** «**الجهاد في سبيل الله**»(5).

وعندما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله من أحق بحسن

---

(1) سنن ابن ماجه – كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها – باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة.
(2) مصنف عبد الرزاق – كتاب الصلاة – باب الصلاة من الليل.
(3) سنن أبي داود – كتاب الزكاة – باب في صلة الرحم.
(4) صحيح البخاري – كتاب النكاح – باب ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.
(5) صحيح البخاري – كتاب الجهاد والسير – باب فضل الجهاد والسير.

صحابتي؟ **قال: «أمك»** قال: ثم من؟ **قال: «أمك»**، قال: ثم من؟ **قال: «أمك»**، قال: ثم من؟ **قال: «ثم أبوك»»**[1].

وأوصى رسول الله ﷺ بود أصدقاء الوالد بعد وفاته، معتبرًا ذلك من تمام الإحسان إليه فقال: **«إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه»**[2].

وفي المقابل حذر رسول الله ﷺ من عقوق الوالدين فقال: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثًا الإشراك بالله وعقوق الوالدين ...»**[3].

وقال ﷺ: **«إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات»**[4].

كذلك أوصى الإسلام العظيم ببر ذوي الأرحام؛ فعن كليب بن منفعة عن جده أنه أتى النبي ﷺ: فقال: يا رسول الله من أبر؟ **قال «أمك وأباك، وأختك وأخاك، ومولاك الذي يلي ذاك، حق واجب، ورحم موصولة»**[5].

وقال ﷺ: **«الخالة بمنزلة الأم»**[6].

وقال لرجل سأله عن عمل يدخله الجنة: **«تعبد الله لا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم...»**[7].

ولو وعى المسلمون هذه الأوامر الإسلامية لانصلح حال الفرد، وانصلحت الأسرة، وصلح المجتمع الذي يعاني اليوم من كثرة الأسر المتهدمة، والذراري الضائعة، وصلات الرحم المقطوعة، والمظالم الشائعة بين الأقارب وبين غيرهم، كما تعاني مجتمعاتنا المعاصرة من العديد من الأمراض الاجتماعية والنفسية والعضوية المتعددة التي تفشت وانتشرت كانتشار النار في الهشيم بسبب البعد عن أوامر الله – تعالى – وعن سنة رسوله ﷺ.

---

(1) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب من أحق الناس بحسن الصحبة.

(2) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما.

(3) صحيح مسلم – كتاب الايمان – باب بيان الكبائر وأكبرها.

(4) صحيح البخاري – كتاب الاستقراض – باب ما ينهى عن إضاعة المال وقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾

(5) سنن أبي داود – كتاب الأدب – باب في بر الوالدين.

(6) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في بر الخالة.

(7) صحيح البخاري – كتاب الأدب – باب فضل صلة الرحم.

خامسًا: ضرورة المحافظة على القيم الإسلامية للمجتمع، وذلك بتحقيق الإسلام أمرًا واقعًا فيه، مع صحيح العلم، وحسن الفهم، وسلامة التطبيق، كما يتم ذلك برعاية كل الأنشطة التي تعين المجتمع على الارتقاء بسلوك كل فرد فيه إلى مقامات التكريم التي كرمه بها الله - سبحانه وتعالى - وذلك بتحريم كل نشاط يصرفه عن عبادة الله - تعالى - وعن المداومة على ذكره وتسبيحه وحمده، وعن التواصي على إشاعة الخير بين الناس، وعن الالتزام بالآداب العامة، وبمكارم الأخلاق، وعن إحياء قيم المودة والتراحم بين أفراد المجتمع، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (المؤمنون: 1 - 11).

والمجتمع الإسلامي ينمو ويزدهر بتحقيق التكافل المادي والمعنوي بين أفراده، وذلك برعاية القادرين لغير القادرين فيه من أمثال الأيتام والأرامل، والعجزة، وأصحاب الاحتياجات الخاصة لأن هؤلاء وأمثالهم إذا لم يجدوا الرعاية الكافية من القادرين في مجتمعاتهم فإنهم سوف يتضورون جوعًا في الشوارع يفسدون ويفسدون، ويصبح كل فرد منهم نواة سهلة للجريمة، ولتحلل الأخلاق والسلوك الذي يهدم المجتمع ويشيع فيه الفوضى. وجرائم أبناء وبنات الشوارع أصبحت تزكم الأنوف في هذه الأيام. لذلك جاءت النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة مقررة فرضية الزكاة وأنصبتها، والأموال التي تجب فيها، وشروط وجوبها، ومواعيد إخراجها، والوجوه التي تصرف فيها، كما حضت على مختلف أنواع الصدقات، والكفارات، والنذور، وأمرت بالوفاء بها لتصرف في رعاية المحتاجين من أبناء المجتمعات المسلمة، ولذلك قال - تعالى -: ﴿ ... فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج: 78).

وقال – عز من قال –: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (التوبة: 60).

وقال – سبحانه وتعالى –: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ (التوبة: 103 – 105).

ولذلك أيضًا كان مما قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن: «.... **فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم**»(1).

وقال ﷺ: «**أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاءً فعلينا قضاؤه، ومن ترك مالًا فلورثته**»(2).

ويجب أن يحرص المؤمنون على **التأصيل الإسلامي للسلوكيات في البيوت، والمنتديات، والأسواق، وفي دواوين الدولة ومجتمعاتها،** والعمل على تطهيرها مما تعرضت له من عادات خاطئة. كما يجب الحرص على تعزيز أدوار المؤسسات الاجتماعية القائمة على أسس إسلامية صحيحة، مع الأخذ بكل الوسائل الحضارية المتاحة، وتأكيد وحدة الأمة فكرًا وفهمًا وتطبيقًا، والقضاء على وسائل الفرقة بين **أبنائها، ومحاربة كل السلوكيات المخالفة لأوامر الله – تعالى – ولسنة رسوله ﷺ، وإزالة كل المؤسسات العاملة على تخريب الأمة، واقتلاعها من جذورها الإسلامية، ومن لغة قرآنها (اللغة العربية) مثل نوادي الروتاري، والليونز، والإنرهويل، والحركات الماسونية الأخرى، والدعاوى المنحرفة مثل البهائية، والقاديانية، وشهود يهوه، وعبدة الشيطان، وغير ذلك من دعاوى الشرك والإلحاد المتعددة، والتي بدأت في التسرب إلى**

(1) صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب وجوب الزكاة.
(2) صحيح البخاري – كتاب الفرائض – باب قول النبي ﷺ من ترك مالًا.



المجتمعات المسلمة تحت العديد من دعاوى العولمة وحقوق الإنسان وحرية الاعتقاد.

وفي مواجهة ذلك يدعو رسول الله ﷺ إلى وحدة صف المسلمين حتى يستطيعوا مجابهة مؤامرات أعدائهم فيقول: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن وُلّي عليكم عبدٌ حبشيٌّ، فإنه من يعش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ**»(1).

ويقول: «**لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»(2).

ولذلك أيضًا نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة والنميمة، وقال في الغيبة إنها «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»(3).

وقال في النميمة: «**لا يدخل الجنة نمام**»(4).

وقال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: 45).

سادسًا: ضرورة العمل على محاربة كل صور الفساد المتسربة إلى المجتمعات المسلمة الحالية وذلك مثل انتشار الرشوة، والمحسوبية، واستغلال النفوذ، واستحلال المال العام، والاختلاس، والسرقات، والغش التجاري والصناعي، والتحايل على الرزق بطرق غير مشروعة. ومن صور ذلك انتشار مراكز بيع الخمور، وتهريب المخدرات، ونوادي القمار، والنوادي الليلية، وذيوع الإعلام الهابط، مما أدى إلى انتشار الألفاظ البذيئة والسلوكيات الوضيعة. وللتحذير من ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء**»(5).

(1) سنن الترمذي – كتاب العلم – باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع.
(2) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم الظن والتجسس.
(3) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم الغيبة.
(4) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان غلظ تحريم النميمة.
(5) سنن الترمذي – كتاب البر والصلة – باب ما جاء في اللعنة.

وقد أدى التساهل مع انتشار الفساد في مجتمعاتنا المعاصرة إلى ارتفاع نسبة المدمنين على كل من الخمر والميسر والمخدرات والتدخين بين شباب وشابات الأمة المتعلمين، وانتشار شواطئ التعري، وكثرة الدعوات الظاهرة والمستترة إلى التبرج والخلاعة، وإظهار مفاتن النساء على الملأ، والدعوة إلى الشذوذ وانحراف الغرائز عن فطرتها، وتفشي ظاهرة الزواج المدني أو العرفي أو زواج المتعة دون علم أولياء الأمور بين طالبات وطلبة الجامعات وفي مختلف المجتمعات المسلمة، وارتفاع معدلات كل من الطلاق والجريمة والتدخين، والإدمان على كل من الكحوليات والمخدرات مما أصبح يشكل تهديدًا حقيقيًا لأمن تلك المجتمعات.

وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن في مصر وحدها اليوم أكثر من (13) مليون مدخن، منهم نصف مليون دون سن الخامسة عشرة، (75) ألفًا تحت سن العاشرة، ويقدر حجم الإنفاق القومي على التدخين في مصر وحدها بأكثر من خمسة مليارات جنيه مصري سنويًا.

كما تكفي الإشارة إلى تفشي الإدمان على المخدرات بين الشباب – ومنهم طلاب وطالبات الجامعات وغيرهم من المتعلمين – وذلك بنسب مزعجة، وانتشار فوضى الزواج العرفي، وزواج المتعة بين طلبة وطالبات الجامعات دون علم أولياء الأمور، وهم دون سن تحمل تبعات ذلك من مسئوليات، وما ينتج عنه من مشاكل وتبعات في سن مبكرة، علمًا بأن الزواج بدون ولي مخالفة لأوامر رسول الله ﷺ القائل: «**لا نكاح إلا بولي**»[1]. وبسبب هذه الفوضى ارتفعت معدلات الطلاق اليوم بشكل مذهل لتصل في مصر (بلد الأزهر الشريف) إلى تسجيل حالة طلاق كل ست دقائق خلال السنة الأولى من الزواج، ولا مخرج من هذه المحن إلا بالعودة إلى دين الله وشرعه الحنيف لأن الإيمان بالله – تعالى – هو الذي يحرر النفوس من ربقة الشهوات، وسعارها، ومن أخطار الوقوع في الخطايا وعدم القدرة على تحمل تبعاتها، ثم الندم ساعة لا ينفع الندم، ولا تفيد الدموع ولا الحسرات.

ولذلك قال الله – تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: 153).

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك – كتاب النكاح – باب وأما حديث حجاج بن محمد.



وقال – عز من قائل: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه: 123 – 127).

وقد نهى الإسلام العظيم عن كل هذه المفاسد وأشباهها، من أمثال مختلف صور الكسب الحرام، واستغلال النفوذ، والمحسوبية والواسطة، وفي ذلك لعن رسول الله ﷺ كلًّا من الراشي والمرتشي، وقال صلوات ربي وسلامه عليه: «**من استعمل عاملًا من المسلمين وهو يعلم أن فيهم أولى بذلك منه وأعلم بكتاب الله وسنة نبيه فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين**»[1] ، وقال: «**من استعمل فاجرًا وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله**»[2].

ويمكن مقاومة ذلك الفساد كله بالاهتمام بالتربية الإسلامية، التي تُوَعِّي الشباب من مخاطر مثل هذه النزوات والنزغات الشيطانية، كما تمكن مقاومته بتواصي مختلف أفراد وطبقات المجتمع بضرورة الالتزام بالقيم الإسلامية والتنبيه عليها، والدعوة إليها باستمرار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتمكن مقاومته وبتشديد العقوبة على كل من يقترف مثل هذه الجرائم، والعمل على تطبيق حدود الله فيها، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: 33).

ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 90).

ويقول رسول الله ﷺ: «**إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله**»[3].

---

(1) السنن الكبرى للبيهقي ج10.
(2) ورد ذكره في كنز العمال برقم 14306.
(3) أخرجه الحاكم في المستدرك – كتاب البيوع – والطبراني في معجمه.

ويقول – عليه الصلاة والسلام –: «**إن بين يدي الساعة: تسليم الخاصة، وفشو التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق**».[1]

ويقول – صلوات ربي وسلامه عليه –: «**لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْجُ**، قالوا: وما الهَرْج يا رسول الله؟ قال: **القتل**».[2]

وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْج، وهو القتل القتل وحتى يكثر فيكم المال فيفيض**».[3]

ويقول رسول الله ﷺ: «**أقيموا حدود الله في القريب والبعيد، ولا تأخذكم في الله لومة لائم**»[4].

وعلى الرغم من ذلك فإنه بالالتزام الديني يسهل على المسلم الانتصار على شهوات نفسه، وبهذا الاستعلاء بالإيمان بالله على النفس يمكن له النجاح في تقرير القيم والضوابط السليمة لمجتمعه، ومعاونة ذلك المجتمع على الاستعلاء على كل الصغائر المدمرة للمجتمعات الإنسانية، والتي انتشرت في زماننا انتشار النار في الهشيم.

سابعًا: العمل على مداومة التثقيف الديني لجميع أفراد المجتمع، وذلك بتنبيه كل أفراد المجتمع على ضرورة التمسك بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ، وعلى مدارسة كل من السيرة النبوية المطهرة وتاريخ السلف الصالح، والفقه ومقارنة الأديان، وتدريبهم على الالتزام بآداب الإسلام ومنها الصدق في القول، والإخلاص في العمل، وحب التميز، والوفاء بالعهد والكلمة والوعد، وأن يكون الفرد منهم شجاعًا في الحق، وجريئًا في سرعة الرجوع إليه، وفي الاعتراف بالخطأ إذا وقع فيه، والإنصاف من النفس، وتملكها عند الغضب، وأن يكون حييًا، وقورًا، متواضعًا، عادلًا، منصفًا، خدومًا، مبادرًا بفعل الخيرات، قادرًا على أن يتحمل مسئولية نفسه ومن يعول، وذلك بالانخراط في عمل من الأعمال المنتجة النافعة لمجتمعه انطلاقًا من قوله – تعالى – ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك – كتاب الفتن والملاحم.
(2) مسند أحمد – مسند أبي هريرة – حديث رقم 7176.
(3) صحيح البخاري – كتاب الجمعة – باب ما قيل في الزلازل.
(4) سنن ابن ماجه – كتاب الحدود – باب إقامة الحدود.

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: 105).

وكل فرد في المجتمع المسلم مطالب بالعمل الجاد المفيد المنتج لنفسه ولمجتمعه في جميع الحالات إلا إذا عجز عن القيام بذلك. والإسلام يؤكد على حق كل فرد من أفراد المجتمع في حياة حرة كريمة، له فيها على مجتمعه توفير الأمن، والتعليم، والرعاية الصحية والاجتماعية، والعناية بشئون النظافة العامة، وبسلامة البيئة، وحق العمل والكسب الحلال، وحق التملك والاستثمار. وعلى ذلك فإن المجتمع المسلم مسئول عن كل من مشاكل الفقر والمرض، والتخلف العلمي والتقني، والتراجع الحضاري الذي ساد غالبية أراضي المسلمين اليوم، وذلك انطلاقًا من حقيقة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومن ضرورة تميز المسلم الحامل لآخر الرسالات السماوية وأتمها وأكملها. ولذلك فإن على كل فرد في هذا المجتمع بذل جهد الطاقة من أجل معاونة مجتمعه على تحقيق نهضة في جميع أنشطة الحياة تليق بجلال الإسلام، وبكرامة المسلمين. ويتم ذلك أيضًا بالتضامن حكامًا ومحكومين من أجل القيام برعاية كل قاصر عن رعاية نفسه في المجتمع من الأيتام، والأرامل، والعجزة، وذوي الاحتياجات الخاصة، والعمل على محاربة أسباب الغلاء من ربا المرابين، وجشع المحتكرين، ووقوع المستثمرين في وحل الربا بمختلف أشكاله وصوره أخذًا وعطاء، وقد نهى الله - تعالى - عنه نهيًا قاطعًا؛ وذلك لأن العدل الاجتماعي لا يمكن تحقيقه وسط هذه المظالم، ولأن الإسلام يحرّم كل موارد الكسب الخبيث، ويؤكد على حرمة المال، ويحترم الملكيات الخاصة، ويشجع على البذل والعطاء في سبيل الله وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**[1].

وقال: **«إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه»**[2].

وقال ربنا - تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ﴾ (النساء: 59).

(1) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب استحباب العفو والتواضع.
(2) كتاب دلائل النبوة لأبي نعيم ج1 ص 99 (خاتمة الجزء الأول)

ثامنًا: ضرورة إحياء مفهوم الأمة الإسلامية الواحدة من جديد: لأن المسلمين لم يُسْتذَلُّوا إلا بعد إسقاط دولة الخلافة الإسلامية، وبعد تمزيق أمتهم إلى أكثر من اثنتين وستين دولة ودويلة، بالإضافة إلى العديد من الأقليات التي تقدر أحيانًا بعشرات الملايين بين غالبية غير مسلمة كما هو الحال في كل من الهند والصين.

ومع إسقاط دولة الخلافة الإسلامية، وتشتيت الأمة ضاعت مرجعيتها الإسلامية، فأهمل الدين، وهجرت اللغة العربية، وأشعل الأعداء بين أبناء الأمة الواحدة من العصبيات الجاهلية: العرقية، والمذهبية، والطائفية، والقبلية، والفروق الطبقية والاجتماعية ما زادها تفرقًا وتمزقًا. ولن تستعيد أمة الإسلام عافيتها إلا برجوعها إلى دينها الحنيف في عودة صادقة واعية تمحو كل هذه الدعاوى العصبية التي نهانا عنها رسولنا الكريم ﷺ بأقواله وأفعاله، ومن ذلك قوله الشريف: «**ليس منا من دعا إلى عصبية**»[1]، وقوله: «**دعوها فإنها منتنة**»[2].

وقد سمَّانا ربنا - تبارك وتعالى - بالأمة الوسط فقال - عز من قائل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ (البقرة: 143).

وعلينا إعادة إحياء مفهوم الأمة الإسلامية الواحدة من جديد حتى يتم علاج أمراض التعصب المقيت التي انتشرت بين أفراد الأمة المسلمة اليوم بشكل مفزع، وأدت إلى مزيد من التمزق والتشرذم بين أبناء الوطن الواحد من أوطان المسلمين، كما هو حادث اليوم في كل من العراق، والصومال، والسودان، وفي غيرها من بلاد المسلمين.

تاسعًا: ضرورة إحياء روح الجهاد في الأمة من جديد: فلا يمكن للأمة المسلمة أن تحيا حياة كريمة، وأن تقوم بدورها في التبليغ عن الله - سبحانه وتعالى - وعن رسوله ﷺ دون رفع راية الجهاد في مواجهة التحديات العديدة التي تواجهها، ولا يجوز أن يثنينا عن ذلك أي من المعايير الدنيوية لأن الله - تعالى - قد تعهد بنصر المؤمنين فقال - عز من قائل:

(1) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في العصبية.
(2) سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن - باب (ومن سورة المنافقين).



- ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: 47).
- ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: 24).
- ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج: 78).
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الصف: 10 – 13).

والرسول – صلوات الله وسلامه عليه – يقول: «**... ولا تزال طائفة من هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون**»(1).

ويقول ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»(2).

ويقول – صلوات الله وسلامه عليه –: «**من جهز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا في سبيل الله بخير فقد غزا**»(3).

وقد بشرنا رسول الله ﷺ بنصر من الله لدينه وأوليائه بعد هذا الانحسار الطويل

(1) مسند أحمد، من حديث ثوبان رضي الله عنه، رقم الحديث 21361.
(2) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا.
(3) صحيح البخاري – كتاب الجهاد – باب فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير.

لأمة الإسلام فقال: **«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون مُلكًا عاضًا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»**[1].

(1) رواه ابن الهيثمي في مجمع الزوائد - كتاب الخلافة - باب كيف بدأت الإمامة.



الباب الثالث

خاتمة
ونظرة إلى المستقبل

في هذه الرسالة الموجهة إلى أمة الإسلام أوجزنا عددًا من الضرورات اللازمة لتحقيق إنسانية الإنسان، ومنها حاجته إلى التعرف على الكون وعلى ذاته، ومنها حاجته إلى الإيمان بخالقه وبالدين الذي أنزله هذا الخالق العظيم وهو **الإسلام** الذي لا يرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده دينًا سواه. وأكدنا حاجة الإنسانية كلها إلى التعرف على هذا الدين الحنيف وعلى الحضارة التي أقامها، وعلى دعوته للمحافظة على الإنسان وبيئته، كما أكدنا حاجة الإنسانية إلى التعرف على التفسير الإسلامي وعلى إسهام علماء المسلمين الأوائل فى تأسيس قواعد البحث العلمى وتطبيقاته التى انطلقت منها النهضة العلمية والتقنية المعاصرة، ثم عرضنا للمحنة الراهنة التي يمر بها المسلمون، واقترحنا الحلول المناسبة للخروج منها ووصلنا في ذلك إلى النقاط التالية:

أولاً: ذكرنا أن الدين هو بيان من الله - سبحانه - للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط عجز الإنسان عجزًا كاملًا عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها، وذلك من مثل قضايا **العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات.**

وهذه القضايا التي تشكل الركائز الأساسية للدين هي إما من أمور الغيب المطلق التي لا سبيل للإنسان في الوصول إلى أي منها إلا عن طريق وحي السماء (وذلك كقضية العقيدة)، أو هي من الأوامر الإلهية المطلقة (كقضية العبادة)، أو هي من ضوابط السلوك (كقضايا الأخلاق والمعاملات)، والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان



عن وضع الضوابط الصحيحة لنفسه في أي من هذه الركائز الأربع، ومن هنا كانت **ضرورة الدين**، وضرورة **أن يكون الدين وحيًا سماويًا خالصًا** دون أدنى قدر من المداخلات البشرية.

وهذا الدين السماوي علَّمه ربنا - تبارك وتعالى - لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه حين عرَّفه من هو، ومن خالقه، وما هي رسالته في الأرض، وكيف يمكن له تحقيق هذه الرسالة على الوجه الذي يرضي خالقه، وما هو مصيره بعد هذه الحياة.

وهذه الأسئلة الكلية تتردد في نفس كل إنسان، قلت ثقافته أو زادت، وإذا لم يجد الإجابات الشافية عليها لا يمكن له أن يحيا حياة سوية على هذه الأرض، ولا أن يحقق رسالته في هذه الحياة، لذلك كلف الله تعالى أبانا، آدم عليه السلام تعليم زوجه وبنيه ركائز هذه الهداية الربانية، وأفهمهم حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة: عبدًا لله يعبده بما أمر، ومستخلفًا في الأرض مكلفًا بعمارتها وإقامة شرع الله - تبارك وتعالى - وعدله فيها. وكلما عاشت البشرية بهذه الهداية الربانية سعدت وأسعدت. ولكن لما كان الإنسان معرضًا لنزغات الشيطان، ومبتلى بالنسيان، فإن المجتمعات الإنسانية ظلت تتردد بين نور الهداية الربانية وظلام الجاهلية عبر تاريخها الطويل. وكان الناس كلما انحرفوا عن وحي السماء مع بقائه بين أيديهم أرسل الله - تبارك وتعالى - أنبياءه ليردوهم إلى نور الهداية الربانية. ولكن إذا كانت رسالة السماء قد ضاعت أو تعرضت لقدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية أتباعها؛ أرسل الله - تبارك وتعالى - نبيًا رسولًا بنفس الرسالة ومن نفس المصدر ليرد الناس إلى الهداية الربانية من جديد.

وقد استغرقت عملية الهداية الربانية للخلق المكلفين مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، اصطفى الله - تعالى - منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا، كان خاتمهم أجمعين: النبي والرسول الخاتم، سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ. ولما كانت رسالته هي الرسالة الخاتمة، بمعنى أن ليس من بعده نبي ولا رسول؛ فقد تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظها فحفظت في نفس لغة وحيها - اللغة العربية - وحفظت حفظًا كاملًا على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية. وقد تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظها حفظًا مطلقًا حتى تبقى شاهدة على جميع الناس إلى أن يشاء الله، فقال - عز من قائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

وعلى ذلك فإن القرآن الكريم يمثل الصورة النهائية للهداية الربانية للناس كافة، وهي الهداية الربانية الوحيدة المحفوظة بين أيدي الناس اليوم، وقد حفظها الله – تعالى – في نفس لغة الوحي – اللغة العربية – وحفظها على مدى يزيد على الأربعة عشر قرنًا دون أن يضاف إليها حرف واحد، أو أن ينقص منها حرف واحد، وهو أمر معجز، لم تتمتع به صورة من صور الوحي السابقة أبدًا، وقد ترك، حفظ جميع أصول الوحى السابقة لأصحابها فضيعوها. ولكن لما كان سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، كان حفظ رسالته من بعده تحقيقًا للعدل الإلهي الذي عبر عنه ربنا – جل وعلا – بقوله العزيز: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: 15).

ويؤكد ربنا –تبارك وتعالى– على حقيقة وحدة رسالة السماء بقوله– وقوله الحق: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران: 19).

وأكد سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في مقام آخر من نفس السورة الكريمة فقال – عز من قائل –: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (آل عمران: 85).

ثانيًا: **أشرنا إلى أن دين الإسلام يتعايش مع الآخر** انطلاقًا من إيمان المسلم بوحدانية الخالق سبحانه وتعالى، ومن ثم **فإنه يؤمن بوحدة رسالة السماء وبأخوة العقيدة بين الأنبياء، وأخوة الدم بين جميع بني آدم**، وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: 285).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: 1).

ويفسر المصطفى ﷺ ذلك بقوله الشريف: «**إن الله - عز وجل - خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحَزْن، وبين ذلك**»(1).

كذلك **يؤمن المسلم بكرامة الإنسان** التي أكدها القرآن الكريم بقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: 70).

ومن سمات هذا التكريم للإنسان **حرية الإرادة، وحرية الاختيار** التي على أساس منها سوف يكون جزاؤه في الآخرة على إحسانه أو إساءته. وحرية الإرادة الممنوحة للإنسان وصفها ربنا - جلت قدرته - بقوله العزيز: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 72).

وعلى ذلك فإن الدين في الإسلام اختيار فردي قائم على القناعتين القلبية والعقلية الكاملتين دون أدنى إكراه أو إجبار؛ لأن فرض الدين على الناس بالقوة يحولهم إلى منافقين، والله - تعالى - يكره النفاق ويبغض المنافقين، وفي ذلك يقول عز من قائل: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 256).

ويقول ربنا - تبارك وتعالى - آمرًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يخاطب عبدة الأصنام والأوثان بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 1 - 6).

وانطلاقًا من كل ذلك تعايش المسلمون مع غيرهم من أصحاب المعتقدات الأخرى عبر الزمن دون أدنى قدر من الإكراه أو الإجبار وذلك انطلاقًا من إيمانهم بالله - تعالى - وبالأخوة الإنسانية، ومن يقينهم بحرية الإنسان في اختيار الدين الذي يدين به نفسه لله، وبأن هذه الحرية هي جزء من إرادة الإنسان التي منحه إياها الله بناء على اختيار الإنسان ذاته، وبالتالي لا يجوز سلبها منه أبدًا.

---

(1) سنن أبي داود - كتاب السنة - باب في القدر.

وهذا الموقف لا يتعارض مع الإحساس بأن من حقوق الأخوة الإنسانية دعوة الآخرين إلى دين الله الحق بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي، وبالحكمة والموعظة الحسنة، كما أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - دون أدنى إكراه أو إجبار أو مساومة، ودون أدنى قدر من استغلال الظروف القاهرة من الفقر أو الجهل أو المرض أو الكوارث والحروب، أو استغلال غيرها من ظروف الحاجة بصفة عامة، وذلك انطلاقًا من قول ربنا - تبارك وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: 125).

وانطلاقًا من قول سيدنا محمد ﷺ: **«فوالله لأن يهدي الله بِكَ رَجُلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النَّعم»**[1].

وعلى ذلك فإن المسلم يتعايش مع غير المسلم، انطلاقًا من إيمانه بحق الآخر في اختيار معتقده، ولا يرى تعارضًا مع ذلك في أن يعرض عليه دينه في غير إكراه ولا إجبار، هداية له، وحرصًا عليه. ويتم ذلك انطلاقًا من استشعار المسلم بحقيقة الأخوة الإنسانية التي تجمع البشر في أسرة واحدة ينتهي نسبها إلى أبوينا: آدم وحواء - عليهما من الله السلام. ويناقش المسلم مع غيره قضية الدين بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأن المناقشة العلمية المنهجية الصحيحة للدين أصبحت ضرورة من ضرورات تعارف الناس في عالم قد تحول إلى قرية كبيرة تلتقي فيها مختلف الأعراق والمعتقدات، وتتفاعل فيها مختلف الحضارات في تفاعل إيجابي من أجل صالح البشرية، وإلا فإن الصدام سيكون أمرًا حتميًّا.

ثالثًا: عرَّفنا العلوم لغة بأنها مجموع ما علمه الإنسان من معارف وأخبار تجمعت له عبر الزمن، مرتبة حسب ما تتعلق به من أمور، ويشمل ذلك كلًّا من **المعارف الموهوبة والمكتسبة، والمعارف المكتسبة** تشمل كل ما جمعه الإنسان عبر العصور من تجاربه في هذه الحياة، ومن استقرائه لسنن الله في الكون، ومحاكاته لما أوجد الله - تعالى - من خلق، بينما تشمل **المعارف الموهوبة** هداية الله - سبحانه وتعالى - التي علمها لأبينا آدم - عليه السلام - لحظة خلقه، والتي ورثها لأهله وذريته ولعشرة أجيال من بعده، ثم أنزلها الله -تعالى-

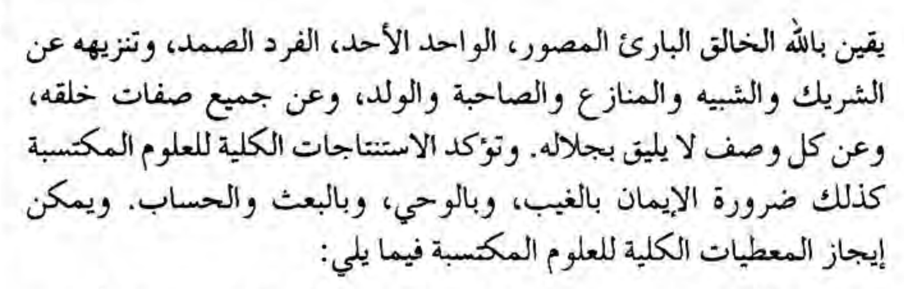
(1) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب فضل من أسلم على يديه رجل.



على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأكملها وأتمها في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، كما تشمل المعرفة الإنسانية أيضًا ميراث البشرية من هذه المصادر جميعها عبر التاريخ. وعلى الرغم من ذلك فقد ساد بين الناس قصر لفظة (العلم) على العلوم البحتة والتطبيقية القائمة على الملاحظة والاستنتاج، أو على التجربة والملاحظة والاستنتاج، المطبقة على الكون ومكوناته وظواهره، والمتعلقة بمختلف صور المادة والطاقة والجمادات والأحياء فيه.

و(**العلم**) بهذا التحديد بدأ مع الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده على هذه الأرض ثم تزايد بالتدريج في عمليات من المد والجزر، ولكنه نما في الحضارة الإسلامية نموًّا متوازنًا جمع بين الدنيا والآخرة في معادلة واحدة، كما جمع بين وحي السماء والعلوم المكتسبة في تكامل وانسجام. تامين، ثم انتقل هذا العلم الإسلامي بمنهجه التجريبي إلى الغرب عبر دولة الإسلام في الأندلس، وعبر الاحتكاك مع المسلمين في كل من صقلية وجنوب إيطاليا وشمال إفريقيا وبلاد الشام خاصة خلال الحروب الصليبية، ولكن في الوقت الذي انتقل فيه المنهج العلمي الإسلامي إلى الغرب كانت الكنيسة مهيمنة على الحياة فيه هيمنة كاملة، فرضت خلالها سفر التكوين على معاهد العلم، وعندما اصطدمت نتائج المنهج التجريبي مع تفسيرات الكنيسة بدأ الصراع بين العلماء والكنيسة، وحسم في النهاية لصالح العلوم المكتسبة، فبدأت تلك العلوم من منطلقات مادية بحتة منكرة كل ما هو غير مدرك أو محسوس بما في ذلك الدين؛ فانطلقت كل المعارف المكتسبة في الغرب من منطلقات معادية للدين، منكرة للغيب، دائرة في حدود المادة وحدها، ومنكرة لكل ما هو فوق ذلك. ولكن المعطيات الكلية للعلوم المكتسبة بدأت في العقود المتأخرة من القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين في تأييد كل ما جاءت به الهداية الربانية التي تكاملت في بعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ.

رابعًا: أكدنا أن الدين الإسلامي ثابت مع كل التطورات العلمية المعاصرة: فقد بلغت المعارف بالكون المادي في هذه الأيام مستوى لم تبلغه البشرية من قبل، وأصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف مؤكدة كل ما جاء به الدين الإسلامي من إيمان بحقيقة الخلق وبحتمية الآخرة، ومن



يقين بالله الخالق البارئ المصور، الواحد الأحد، الفرد الصمد، وتنزيهه عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله. وتؤكد الاستنتاجات الكلية للعلوم المكتسبة كذلك ضرورة الإيمان بالغيب، وبالوحي، وبالبعث والحساب. ويمكن إيجاز المعطيات الكلية للعلوم المكتسبة فيما يلي:

1 - إن هذا الكون الذي نحيا فيه كون محدود، ولكنه كون متناهٍ في أبعاده، مذهل في دقة بنائه وانتظام حركاته وإحكام ترابطه، مما يشهد لخالقه بالألوهية والربوبية، وبطلاقة القدرة وبديع الصنعة وإحكام الخلق.

2 - إن هذا الكون مبني على زوجية واضحة من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان، وعلى نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته مما يشهد لخالقه بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

3 - إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا تستطيع العلوم المكتسبة إدراكها وإن أمكنها قياس معدلات هذا التوسع.

4 - إن هذا الكون على قدمه مستحدث مخلوق، كانت له بداية في الماضي السحيق تقدر بحوالي 13.7 بليون سنة مضت، وكل مستحدث عارض، لا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية تؤكدها كل الظواهر الكونية من حولنا، وإن عجز الإنسان عن تحديد وقتها.

5 - إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته، كذلك لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض الصدفة لأن العشوائية أو الصدفة لا يمكن لها أن تنتج كونًا بهذا الاتساع ودقة البناء والانتظام في الحركة.

6 - إن الخلية الحية التي لا يكاد قطرها يزيد على 0.03 من المليمتر تبلغ من تعقيد البناء وكفاءة الأداء ما لم يبلغه أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان، بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من تحقيق ذلك بعد؛ فقد أعطاها الله تعالى القدرة على إنتاج مائتي ألف نوع من البروتين تعجز أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان عن إنتاجها، ومن ثم فلا يمكن لها أن تكون قد وجدت بمحض المصادفة.

7 – إن الشيفرة الوراثية التي تشغل حيزًا أقل من واحد من نصف المليون من المليمتر المكعب في داخل نواة الخلية الحية يصل طولها إذا فردت إلى قرابة المترين، وتحتوي على 18.6 بليون من الجزيئات الكيميائية المعقدة البناء، والتي تترتب ترتبًا محكمًا لو اختل وضع ذرة واحدة منه فإما أن يشوه هذا المخلوق أو لا يكون. وإذا عرفنا أن جسد الفرد الواحد منا يتكون من مائة تريليون خلية في المتوسط، وأن بنواة كل خلية مترين من جزيئات الشيفرة الوراثية؛ اتضح أن بجسد كل منا تريليونات الكيلومترات من هذه الجزيئات مضروبة في 18.6 بليون قاعدة كيميائية، وهو رقم يزيد في طوله عشرات المرات على المسافة بين الأرض والشمس والمقدرة بحوالي 150 مليون كيلومتر، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل جمع هذه التريليونات من الجزيئات الكيميائية الفائقة التعقيد والدقة في الترتيب بمحض الصدفة.

8 – إذا علمنا أن الخلية الحية بهذا التعقيد في البناء والكفاءة في الأداء، فإنه يستحيل تخيل أية إمكانية لإيجادها بمحض الصدفة، وبالتالي إيجاد أكثر من خمسة ملايين نوع من أنواع الحياة الموجودة والبائدة بمحض الصدفة، وأن يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد بمحض الصدفة كذلك.

9 – إن لبنات بناء أجساد الكائنات الحية، وهي الجزيئات البروتينية، على قدر فائق الدقة من الانتظام في الترابط، والتعقيد في البناء، والكفاءة في الأداء وهذا ينفي أي احتمال للعشوائية أو الصدفة، وكذلك لبنات بناء الجزيئات البروتينية وهي الأحماض الأمينية التي لا يمكن لعاقل أن يتخيل تكونها أو ترتيبها، أو ترابطها مع بعضها البعض بروابط محددة بمحض الصدفة.

هذه المعطيات – وهي قليل من كثير – تفضي إلى الحقائق المنطقية التالية:

(1) إذا كان الكون الحادث لا يمكن له أن يوجد نفسه بنفسه، أو أن يكون قد وجد بمحض الصدفة؛ فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة ما يفوق جميع قدرات خلقه، ولا بد لهذا الخالق العظيم من الصفات ما يغاير صفات المخلوقين جميعًا، فلا يحده أي من المكان أو الزمان، ولا تشكله قوالب المادة والطاقة؛ لأنه خالق ذلك وموجده، والمخلوق لا يحد خالقه أبدًا؛ ولذلك وصف ربنا تبارك وتعالى ذاته العلية بقوله العزيز:

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

(الأنعام: 103).

وبقوله سبحانه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: 11).

(2) هذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بكل ما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء، وفي ذلك يقول وقوله الحق: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: 104).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم: 48).

ويقول جل شأنه: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس: 82).

(3) إن الكون كما سبق وأن أشرنا مبني في زوجية كاملة من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان، مما يشير إلى وحدانية الخالق العظيم، وإلى تفرده بهذه الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، والإيمان بوحدانية الخالق – سبحانه وتعالى – هي رسالة السماء التي أنزلت إلى آلاف الأنبياء، وبعث بها مئات المرسلين والتي تكاملت في بعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ ثم بقيت طوق النجاة الوحيد للبشرية التائهة الحائرة في هذه الأيام، وفي ذلك كتب المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ/**محمد فريد وجدي** رحمه الله في خاتمة كتابه المعنون «**المستقبل للإسلام**» ما نصه:

«إن كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي هي تقرب إلى ديننا الفطري حتى ينتهي الأمر إلى الإقرار الإجماعي بأنه الدين الحق».

ثم يضيف: «نعم، إن العالم بفضل تجرده من الموروثات والتقاليد، وإمعانه في النقد والتمحيص يتماشى على غير قصد منه نحو الإسلام، بخطوات متزنة ثابتة، لا توجد قوة في الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية».

وقد بدأت بوادر هذا التحول الفكري تظهر جلية اليوم في مختلف بلاد العالم بإقبال أعداد كبيرة من مختلف التخصصات على الإسلام من أمثال **الطبيب الفرنسي**

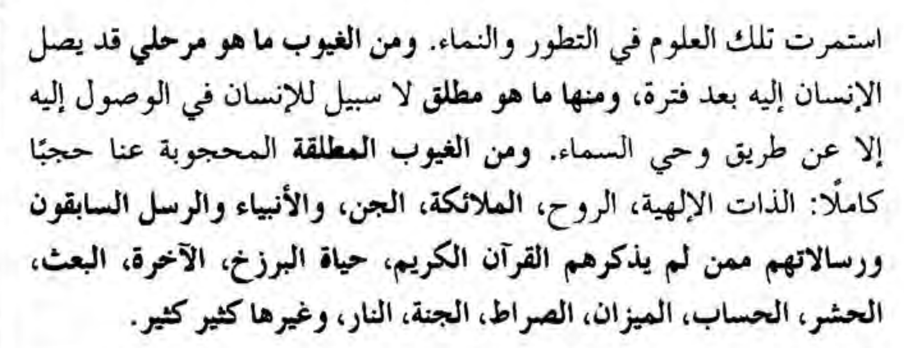


موريس بوكاي – الذي يسجل في كتابه المعنون «**التوراة والإنجيل والقرآن والعلم**» ما ترجمته: «لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية ولم أكن أعتقد قط أنه بإمكاني اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص ورد منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا».

وعلى ذلك فإن التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة من جهة، وفهم الإشارات الكونية في كتاب الله وفي أقوال خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من جهة أخرى، بمنهجية إسلامية وعلمية دقيقة وبتوظيف الحقائق العلمية المتاحة – سوف يؤكدان لكل ذي بصيرة حقيقة الوحي بالقرآن الكريم، وصدق نبوة خاتم المرسلين ﷺ الذي ختمت ببعثته النبوات وبرسالته كل الرسالات السماوية التي امتدت من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى بعثته الشريفة عبر سلسلة طويلة من أنبياء الله ورسله عليهم أجمعين من الله السلام. **وسوف يثبت الإعجاز العلمي أن القرآن الكريم بما يحويه من حقائق علمية لم تدركها العلوم المكتسبة إلا بعد أكثر من ألف وثلاثمائة سنة؛ هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وتعهد بهذا الحفظ إلى ما شاء الله تعالى، ليبقى القرآن الكريم شاهدًا على جميع الخلق بأنه كلام الخالق، وشاهدًا للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، وبأنه ﷺ كان موصولًا بالوحي ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض.**

ووحدانية الله – سبحانه وتعالى – تتضح جلية في وحدة البناء الكوني من الذرة إلى المجرة إلى بناء الكون كله، ومن الخلية الحية المفردة إلى الإنسان، كما تتضح في تآصل العناصر وردها كلها إلى أصل واحد هو غاز الأيدروجين (أبسط العناصر بناء وأقلها كتلة)، وفي تواصل كل من مختلف صور الطاقة، وتواصل كل من المادة والطاقة، وكل من المكان والزمان؛ وكل ذلك تواصل في تزاوج يشير إلى وحدانية الخالق سبحانه وتعالى، وإلى تفرده بتلك الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه واستعلائه بمقام الألوهية الذي لا يشاركه فيه أحد ولا ينازعه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

(4) إن العلوم الكونية المكتسبة – في تعاملها مع المدرك المحسوس – توصلت إلى حقيقة الغيب، وإلى أن بالكون غيوبًا كثيرة لا يستطيع الإنسان الوصول إليها بجهده وحواسه وقدرات عقله، ولولا الجري وراء المجهول ما



استمرت تلك العلوم في التطور والنماء. **ومن الغيوب ما هو مرحلي قد يصل** الإنسان إليه بعد فترة، **ومنها ما هو مطلق** لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا عن طريق وحي السماء. **ومن الغيوب المطلقة** المحجوبة عنا حجبًا كاملًا: الذات الإلهية، الروح، **الملائكة، الجن، والأنبياء والرسل السابقون ورسالاتهم ممن لم يذكرهم القرآن الكريم، حياة البرزخ، الآخرة، البعث، الحشر، الحساب، الميزان، الصراط، الجنة، النار، وغيرها كثير كثير.**

(5) تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سرًّا لا نعرف كنهه لأننا نعرف المكونات المادية للخلية الحية معرفة كاملة، ومع ذلك لم يستطع العلماء بناء خلية حية واحدة، وأقصى ما أنتجته العلوم المكتسبة هو صناعة المورث (الجين)، وهو مركب كيميائي ميت لا ينشط إلا في داخل الخلية الحية، مما يؤكد **أن الحياة من الأسرار التي يعرف الإنسان ظواهرها ولا يعرف كنهها.**

(6) إن إمعان النظر في الكون يؤكد حاجته بكل ما فيه ومن فيه إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده، ولولا هذه الرعاية الإلهية ما كان الكون ولا كان من فيه من الكائنات.

(7) **إن العلوم المكتسبة إذ تقرر أن الكون والإنسان في شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها – وعلى غير قصد منها – تؤكد حقيقة الآخرة بل حتميتها،** والموت يتراءى في مختلف جنبات الكون حاصدًا الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هيئاتها في كل وقت.

هذه بعض المعطيات الكلية للعلوم المكتسبة، وهي في جملتها تتطابق مع عقيدة الإسلام نصًّا وروحًا.

خامسًا: وفي الفصول السابقة ناقشنا كذلك عددًا من الضرورات اللازمة لتحقيق إنسانية الإنسان، وذكرنا أن منها **حاجة الإنسان إلى التعرف على الكون وعلى ذاته، وإلى ضرورة الإيمان بالله – تعالى – والتأكيد على حاجته الفطرية إلى الدين، وحاجة الإنسانية جمعاء إلى الإسلام العظيم،** وهو دين الله الذي علمه لأبينا آدم لحظة خلقه، وأنزله على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، ثم أتمه وأكمله وحفظه في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

ثم تطرقنا إلى **حاجة الإنسانية إلى التعرف على حضارة الإسلام**، وإلى حاجة الإنسان إلى **المحافظة على بيئة الأرض**، وإلى التسليم بحتمية الصراع بين الحق والباطل إلى آخر يوم في هذه الحياة الدنيا كما يتضح من تاريخ الصراع بين المسلمين وغيرهم، وحاجة الإنسانية إلى التعرف على **رؤية المسلمين للتاريخ**، وحاجة المسلمين إلى استعادة القراءة لتاريخهم حتى يستعدوا لمواجهة الباطل وأهله، ويتمكنوا من الخروج من المأزق الحضاري الذي وضعوا فيه اليوم. وللخروج من هذا المأزق شروط تبدأ **بالمبادرة بإصلاح كل من التربية والتعليم، والبحث العلمي والتقني، وإلى إصلاح كل من الإعلام، والاقتصاد، والإدارة، والسياسة، والعلاقات الاجتماعية**، مع الإسراع في **الأخذ بأسباب التقدم العلمي والتقني** حتى نتمكن من اللحاق بالعصر، على الرغم من التآمر المحيط بنا من كل جانب والذي كان من أواخر سلاسله فاجعة «أيلول أمريكا الأسود» في **الحادي عشر من سبتمبر سنة 2001م**.

وكانت هذه هي **فاجعة القرن الحادي والعشرين** التي جسدت حلقة من سلاسل التآمر الصهيوني/الصليبي الدولي على الإسلام والمسلمين، حاكتها المخابرات المركزية الأمريكية بالتعاون مع جهاز «الموساد» الذي يشكل الذراع الاستخباري اللعين للكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين.

وكان لهذه المؤامرة الأمريكية/الإسرائيلية أهداف عديدة منها محاصرة المد الإسلامي في العالم - بصفة عامة - وفي العالم الغربي - بصفة خاصة - والذي لم يكن في الإمكان محاصرته في ظل ما يتشدق به الغرب من شعارات الحرية، والديموقراطية، وحقوق الإنسان، وكان لا بد للغرب الديموقراطي الحر من فرض قوانين الطوارئ التي كان يعيبها على دول العالم الثالث ليحكم حصاره على المد الإسلامي تحت شعار مزيف أطلقوا عليه اسم «**محاربة الإرهاب**»، وهم أصل الإرهاب ودعاته وحماته عبر التاريخ وعلى مستوى العالم كله.

وكان من أهداف هذه المؤامرة إعطاء الضوء الأخضر للكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين **من أجل إنهاء القضية الفلسطينية** العالقة منذ قرابة القرن من الزمان وذلك بتركيع الفلسطينيين وإجبارهم على التسليم بحق للصهاينة في أرض فلسطين وفي المسجد الأقصى، وإعطائهم الحق في طرد أصحاب الأرض الأصليين من أرضهم وممتلكاتهم وتسليمها للكيان الصهيوني الغريب والمشكل من حثالات

الأمم ونفايات الشعوب؛ والرضوخ لمخططه الشيطاني الرهيب بأن يقيم له دولة يهودية على أراض عربية مسلمة منذ آلاف السنين، لا حق لليهود فيها لا دينًا، ولا عرقًا، ولا تاريخًا، ولا لغة، ولا قانونًا، ولا بأي مبرر من المبررات، وإلا فعلى الصهاينة أن يحاصروا الفلسطينيين حتى الموت، وأن يمنعوا عنهم كل أسباب الحياة، وأن يحصدوا من أرواح أبنائهم العشرات في كل يوم، وأن يجرفوا أراضيهم الزراعية، ويهدموا بيوتهم ومدارسهم ومستشفياتهم ومعاهدهم، ومساجدهم، وكنائسهم، وأن يملئوا السجون والمعتقلات بالآلاف من أبنائهم وبناتهم، وأن يستخدموا المعتقلين الفلسطينيين كحيوانات تجارب يجري عليهم الأمصال والأدوية ومسببات الأمراض الجديدة، وأن يستخدموا أعضاءهم البدنية قطع غيار لأجساد اليهود، وكل ذلك في محاولة لإفنائهم أو تهجيرهم بالكامل حتى تخلص أرض فلسطين كاملة للصهاينة أعداء البشرية.

وكل ذلك يحدث تحت مرأى ومسمع من العالم ومنظماته الدولية دون أدنى استنكار أو تدخل. وقد تجسدت وحشية هذا الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين في حربه الأخيرة على مليون ونصف المليون مدني في قطاع غزة؛ تلك الحرب التي استخدمت فيها كل أنواع الأسلحة المحرمة دوليًا لمدى زاد على ثلاثة أسابيع متواصلة بقي فيها هؤلاء المدنيون يُمْطَرُون بتلك الأسلحة المدمرة من الأرض والجو والبحر دون توقف وبهمجية وقسوة لم تعهد لهما البشرية نظيرًا من قبل.

وكان من أهداف فاجعة «**أيلول أمريكا الأسود**» كذلك إعطاء المبررات الصورية الكاذبة للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها لغزو دولتين عضوين في الأمم المتحدة هما كل من أفغانستان والعراق،مخالفين بذلك كل القوانين والأعراف الدولية، وكل القيم والسلوكيات الإنسانية. والسبب الخفي وراء ذلك هو معاودة احتلال أراضي المسلمين، وإثارة الفتن العرقية، والمذهبية، والطائفية، والفكرية، والدينية بين أبنائها، والقضاء على الصحوة الإسلامية في أرجائها، وتحقيق المزيد من تفتيتها إلى كيانات صغيرة يسهل التحكم فيها، والسيطرة عليها، واستلاب إرادتها، ونهب ثرواتها، والعمل على تغريب أبنائها، حتى تبقى الهيمنة في المنطقة للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، وللذنب الصهيوني لهذا التكتل الغربي الذي زرع في قلب المنطقة العربية كخلية سرطانية تعيث في المنطقة عربدة وفسادًا رغم



أنف أبنائها. وذلك الكيد كله ينفذ بليل انتقامًا لهزيمة الغرب في الحروب الصليبية، وإمعانًا في إذلال المنطقة بأسرها، والحيلولة دون توحدها ورجوعها إلى الإسلام من جديد، وفي المقابل ترك الساحة الإسلامية في القارة الآسيوية نهبًا لعدد من الدول الوثنية المنتشرة بالمنطقة كالهند والصين والكوريتين واليابان.

كذلك قدمنا بأن الصراع بين الحق والباطل هو سنة من سنن الحياة الدنيا، وأن على المسلمين أن يدركوا ذلك حتى يكونوا دومًا على أهبة الاستعداد لمواجهة الباطل وأهله ومؤامراته وخططه؛ وذلك لأن الحق لا ينتصر لمجرد كونه حقًّا – وإلا لانتفى الهدف من وجودنا في هذه الحياة الدنيا – فالحق ينتصر بمجاهدة من يؤمنون به إيمانًا صادقًا، فيندفعون للدفاع عنه بالكلمة الطيبة، والحجة البالغة، والمنطق السوي، كما يدافعون عنه بالنفس والنفيس حتى يُحَقِّقُوا قيامه في الأرض أمرًا واقعًا في حياتهم وفي حياة الناس؛ لذلك جاءت الإشارة إلى الحق في القرآن الكريم في (227) موضعًا منها قوله – تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 33).

ويقول مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ (البقرة: 119).
- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (البقرة: 252).
- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء: 105).
- ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ...﴾ (المائدة: 48).
- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

وعلى ذلك فإن الحق الوحيد الموجود بين أيدي الناس اليوم في أمر الدين هو الإسلام العظيم ذلك الدين القيم الذي علمه ربنا – تبارك وتعالى – لأبينا آدم – عليه السلام – لحظة خلقه، ثم أوحى به إلى مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، وجدده في ثلاثمائة وبضع عشرة رسالة سماوية حتى أتمه وأكمله في الرسالة الخاتمة التي بعث بها النبي والرسول الخاتم ﷺ، ولذلك تعهد بحفظها فحفظت حفظًا كاملًا في نفس لغة وحيها (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية وإلى أن يشاء الله – تعالى – تحقيقًا للوعد الذي قطعه ربنا – تبارك وتعالى – على ذاته العلية فقال – عز من قائل:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

ودين الله كما تكامل في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ باقٍ بمشيئة الله – تعالى – لا يخشى على أصوله من ضياع،أو تحريف، أو تبديل أو تغيير كما حدث مع كل الرسالات السماوية السابقة التي وُكِّلَ حفظها لأصحابها فضيعوها، واشتروا بأصولها ثمنًا قليلًا، فضلوا وأضلوا، وأفسدوا في الأرض إفسادًا كبيرًا.

ومع إيماننا بحرية التدين، وبأن أصلًا من أصول الإسلام العظيم أنه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: 256).

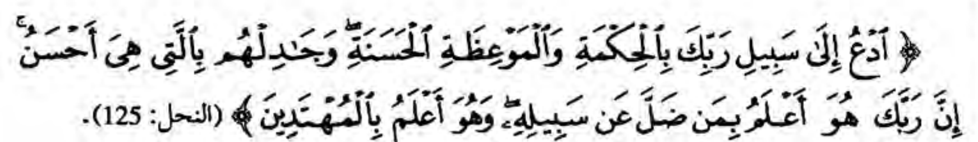
وأن لكل إنسان أن يدين نفسه لله – تعالى – بما يشاء: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون: 6).

إلا أنه انطلاقًا من الإيمان بحقيقة الأخوة الإنسانية التي لخصها القرآن الكريم بقول الحق – تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء: 1).

وأكد عليها المصطفى ﷺ بقوله الشريف: **«كلكم لآدم، وآدم من تراب»**.

وإيماننا بهذه الأخوة الإنسانية يُحتِّم علينا أن نقدم ما عندنا من كنوز الإسلام العظيم إلى غيرنا من الناس،أفرادًا وجماعات؛ بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي؛ انطلاقًا من أمر ربنا تبارك وتعالى بقوله:



﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (النحل: 125).

والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة تحضنا حضًّا على دعوة الناس كافة إلى الإسلام العظيم؛ لما في ذلك من نجاة في الدنيا والآخرة لنا ولهم.

ومن صميم الواقع نرى أن الإسلام – في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، والحق الأبلج الذي يدعو إليه – ما عُرِضَ على عاقل باللغة التي يفهمها ورفضه أبدًا. والدليل على ذلك تلك القطاعات الكبيرة من مختلف الأجناس والأعراق واللغات والأعمار التي تتسارع في الإقبال على الإسلام حتى بدأت أجهزة الاستخبارات الغربية والشرقية تحذر من أن الإسلام هو أسرع الأديان انتشارًا في عالم اليوم. ومن هنا كانت مؤامرة 2001/9/11م التي خططت لها القوى الصهيونية/الصليبية العالمية بدهاء وخبث شديدين، والتي أعقبها تضييق غير مشروع على جميع المراكز والمدارس والمساجد الإسلامية في العالمين الغربي والشرقي، وأتبع ذلك باعتقال الآلاف من أبناء المسلمين دون تحقيق أو محاكمة إلى يومنا هذا. كما أتبع بمصادرة أموال العديد من البنوك والمراكز المالية والجمعيات الخيرية الإسلامية، وباجتياح أراضي كل من العراق وأفغانستان – وهما دولتان عضوان في الأمم المتحدة – والمجتاحون المعتدون يتجاوزون بذلك قرارات كل من مجلس الأمن والأمم المتحدة وجميع القوانين والأعراف الدولية، والقيم الأخلاقية، وحقوق الإنسان. وقد ظهر وجه الحضارة المادية الكالح في التجاوزات غير الإنسانية وغير الأخلاقية التي حدثت في اجتياح المدن وفي داخل السجون العراقية والأفغانية مثل اجتياح مدينة الفلوجة البطلة، وفي سجون جوانتانامو، و«أبو غريب» و«البصرة» بالعراق، وسجون «باجرام» في أفغانستان والتي أثبتت زيف كل شعارات الحضارة الغربية، وأكدت خلوها من كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، وأظهرت وحشية المقاتل الغربي الجبان المحتمي وراء أحدث التقنيات العسكرية التقليدية وغير التقليدية، وفي استخدامه للعديد من الأسلحة المحرمة دوليًا، وفي قتله للأطباء والممرضين والمرضى في المستشفيات العراقية والأفغانية والفلسطينية، وفي ترويعه للآمنين من المدنيين واجتياحه لمساكنهم في مختلف ساعات الليل والنهار، وفي حصار المدن وقطع إمدادات الماء والكهرباء عنها، ومنع وصول إمدادات الطعام والدواء إليها، وفي ترك الجرحى ينزفون حتى الموت، وترك الجثث في الشوارع وتحت أنقاض البيوت حتى تنهشها الضواري

والحيوانات الضالة، ثم يتبجحون بالقول بأنهم جاءوا لتحقيق شعاراتهم الزائفة من الديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان، وهم قد أغرقوا كل أرض احتلوها في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، وقضوا في العراق وحدها على تراث حضاري من أغلى ما تملك الإنسانية في تاريخها الطويل.

وفي ظل هذه الفوضى التي أحدثها الاجتياح الأنجلو/أمريكي وأعوانه لكل من العراق وأفغانستان، وما تسبب فيه من الخراب والدمار والتعديات السافرة على جميع القوانين والشرائع والأعراف الدولية التي تحمي حقوق الإنسان، كما تحمي حقوق وسيادة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، وتؤكد على حق الأمم في تقرير المصير؛ أعطى التحالف الغربي الشرير ربيبته إسرائيل - وهي ركازة الكفر والفساد على وجه الأرض - الضوءَ الأخضر لسرقة المزيد من الأراضي الفلسطينية، وقتل المزيد من أبناء الشعب الفلسطيني الأعزل الذي ابتلاه الغرب بهذه الحثالة من حثالات الأمم، وهذه النفاية من نفايات الشعوب؛ انطلاقًا من فرية افتروها على الله - تعالى - بأنه قد وهب لأسلافهم السابقين أرض فلسطين، فخططوا، وتآمروا، ومكروا من أجل زرع هذا الكيان الغريب في قلب المنطقة العربية؛ انتقامًا من هزيمة جيوشهم الصليبية المعتدية من قبل مئات السنين. وبناءً على هذا الدعم الغربي انطلق الصهاينة المحتلون لأرض فلسطين يغرقون هذه الأرض المباركة في بحار من الدماء والأشلاء والخراب والدمار، يقتلون الأطفال والنساء والشيوخ والشبان بالعشرات في كل يوم؛ ويعتقلون الآلاف من الرجال والنساء ويعرضونهم للعذاب الوحشي حتى الموت، ويهدمون المساكن والمساجد والمدارس والمستشفيات، والكليات والجامعات، ويجرفون الأراضي الزراعية، وينشرون الأشجار المثمرة، ويدمرون البنية الأساسية في كل فلسطين المحتلة على مرأى ومسمع من «العالم الحر!!» الذي يبرر لهم ذلك بحق الدفاع عن النفس، وبدعوى محاربة الإرهاب، وهي اللافتة التي رفعها الغرب كمبرر كاذب لتجاوزاتهم غير الإنسانية وغير الأخلاقية لجميع القوانين والأعراف الدولية.

والعالم كله يعلم أن الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين العربية المسلمة ليس له مبرر واحد سوى محاولة الانتقام من هزيمة الغزاة الصليبيين السابقين على هذه الأرض من قبل مئات السنين، ومحاولة إعادة احتلال القوى الغربية الغاشمة لأراضي العالمين العربي والإسلامي من جديد.

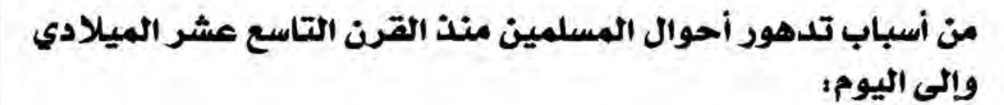


من هنا كان الخطر الداهم في القرن الحادي والعشرين على المسلمين وليس على الإسلام؛ لأن الإسلام هو دين الله، وقد تعهد بحفظه، أما المسلمون فقد وكلوا إلى أعمالهم: فإن صلحت نجوا ونَجَّوا العالم معهم، وإن فسدت قضي عليهم قضاءً مبرمًا، خاصة وأن جميع أسباب الغلبة المادية قد تركزت في أيدي أعدائهم من أهل الكفر والشرك والضلال والفساد. وقد حال هؤلاء الأعداء دون وصول شيء من أسباب الغلبة المادية إلى أيدي المسلمين الذين لم يبق في أيديهم غير سلاح الدعوة إلى دين الله على بصيرة باللغة التي يفهمها أهل عصرنا وهي لغة العلم.

أما عن الإسلام العظيم فإن العالم كله بدأ يتعرف عليه، ويأخذ طريقه إليه بعد أن مَلَّ الحياة المادية الجافة، والأديان المحرفة، والمذاهب الموضوعة، وبدأ يجد ضالته في الإسلام العظيم الذي لا يرتضي ربنا – تبارك وتعالى – من عباده دينًا سواه. وقد خرجت علينا وسائل الإعلام الغربية بإقبال الملايين من الغربيين على القراءة عن هذا الدين واقتناع أعداد كبيرة منهم به وبصدقه وفضله على غيره من المعتقدات، ومن هذه الوسائل الإعلامية جريدة «الجارديان» البريطانية التي أوردت أن عدد الذين أسلموا في بريطانيا وحدها في الفترة من 2001/9/11م إلى 2004/6/1م قد تجاوز سبعة وسبعين ألفًا من الرجال والنساء الذين تعرفوا على الإسلام العظيم من خلال القراءة، وأن عددًا من هؤلاء هم من كبار رجال الفكر والرأي في البلد، ومن أبناء الأسر النبيلة والعريقة، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿... وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ (محمد: 38).

فالخوف إذًا ليس على الإسلام، ولكن الخوف كل الخوف على المسلمين في القرن الحادي والعشرين، وقد استهل بمؤامرة صهيونية/صليبية حاقدة هدفها إعادة احتلال الغرب لبلاد المسلمين، والعمل على إثارة النعرات العصبية الإقليمية الضيقة من عرقية، ودينية، ومذهبية، وطائفية، وفكرية منحرفة؛ وذلك من أجل مزيد من التفتيت للمسلمين، ومزيد من الهيمنة عليهم، وفرض القيم الغربية الهابطة عليهم.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل مسلمو اليوم واعون لحجم المؤامرة التي فرضت عليهم؟ وهل هم متجهون إلى صحوة يستردون بها مكانتهم الحقيقية ودورهم الرائد في هذه الحياة بعد طول رقاد؟ وللإجابة عن ذلك لا بد من استعراض أسباب تدهور هذه الأمة الوسط خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، واقتراح وسائل العلاج لوقف هذا التدهور، وطرح مشاريع الإصلاح اللازمة لإعادة بعث هذه الأمة الوسط من جديد.



من أسباب تدهور أحوال المسلمين منذ القرن التاسع عشر الميلادي وإلى اليوم:

1- **التآمر الصهيوني الصليبي ضد المسلمين:** فقد كانت الفتوحات الإسلامية السريعة والمتعاقبة، والانتصارات العسكرية الرائعة التي حققها المسلمون على مدى اثني عشر قرنًا من الزمان – سببًا في تكتل كل قوى الشر في العالم ضدهم، وبدأت ملامح هذا التكتل الشيطاني تبرز في الحروب الصليبية التي أدت إلى احتلال بيت المقدس في سنة 493 هـ/1099 م، واستمرت هذه الحملات في كر وفر على مدى ما يقرب من أربعة قرون كاملة من الزمان (490 هـ إلى 848 هـ الموافق 1095 م إلى 1444 م)، وبقيت لها ذيول عديدة إلى وقتنا الراهن.

وكانت هزيمة أوروبا الغربية في الحروب الصليبية، وطرد قواتها الغازية من أرض فلسطين – كابوسًا خيم على العقلية الصهيونية/الصليبية في العالم، ولا يزال يحكم كل تصرفاتها إلى يومنا الراهن، وظل أي رمز إسلامي يظهر في الأفق يعيد إلى هذه الأذهان الغربية ذكرى الانتصارات الإسلامية، ويدفع بالغربيين إلى العمل الفوري ضد المسلمين خوفًا من إمكانية قيام أية صحوة إسلامية أو أية وحدة أو تعاون بين المسلمين أو تحقيق أية صورة من صور التقدم مهما كان بطيئًا أو بسيطًا في أي منحى من مناحي الحياة.

وفي خلال ذلك حدثت هجمة المغول على بلاد المسلمين بدءًا ببلاد خوارزم وبخارى وسمرقند (سنة 617 هـ/1220 م)، حتى تم إسقاط بغداد وتدميرها تدميرًا كاملًا (في سنة 656 هـ/1258 م) وذلك بتحريض من الغرب، ثم شاءت إرادة الله – تعالى – أن يدخل المغول في دين الله أفواجًا بعد هزيمتهم في موقعة عين جالوت (659 هـ/1260 م). كما شاءت إرادة الله – تعالى – أن تقوم دولة الخلافة الإسلامية العثمانية في نفس الوقت (657 هـ/1258 م). لذلك كانت الوحشية الغربية في إخراج المسلمين من الأندلس بعد أكثر من ثمانية قرون كاملة من العمران الذي استمر من سنة 92 هـ إلى سنة 898 هـ (711 إلى 1492 م) والذي علم أوروبا كلها ما لم تكن تعلم، ونقلها من عصور الظلام إلى عصر النهضة. وحين سقطت آخر معاقل المسلمين في غرناطة سنة 898 هـ/1492 م؛ كانت الصراعات المريرة مع دولة الخلافة العثمانية في سلسلة من الحروب المتواصلة على مدى سبعة قرون كاملة من بدايات القرن



الرابع عشر الميلادي (1301 م/سنة 700 هـ) حتى تم إسقاطها في الربع الأول من القرن العشرين (في سنة 1924 م/1343 هـ)، وكان ذلك استجابة لنداء دعوة الواجب المشترك التي أطلقت في أوروبا سنة 1662 م (1073 هـ) وألزمت جميع المسيحيين في العالم بالعمل ضد ما أسموه باسم عدو الكنيسة ممثلًا في المسلمين والخلافة الإسلامية.

وقد آن الأوان لإقناع الغرب بأن الإسلام لا يعادي الكنيسة، ولا يعادي أي معتقد آخر؛ انطلاقًا من إيمان المسلم بالأخوة الإنسانية، وبأن الله – تعالى – قد كرم الإنسان بأن جعله مخلوقًا ذا إرادة حرة، يختار بها الدين الذي يرتضيه عقله وقلبه دون أدنى إكراه أو غواية؛ انطلاقًا من قول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ (البقرة: 256)، وقوله – تعالى – على لسان خاتم أنبيائه ورسله ﷺ مخاطبًا كفار قريش: ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾(الكافرون: 6).

وبعد إنهاك دولة الخلافة الإسلامية بالحروب وبالمؤامرات الخارجية وبالفتن الداخلية، تمكن الغرب من تقطيع أوصال تلك الدولة بالاحتلال العسكري من قبل إسقاط دولة الخلافة، وبلغ هذا التآمر الغربي مداه بعد إسقاط الخلافة العثمانية.

وبعد فقدان المسلمين لرمز وحدتهم والمدافع الأول عن قضاياهم، أصبحوا كالأيتام على مائدة اللئام، فتم افتراسهم تجمعًا وراء الآخر بعد تمزيقهم إلى أكثر من اثنين وستين دولة ودويلة متباينة في مساحاتها، وتعداد سكانها، ونظم حكمها، وإمكاناتها البشرية والمادية. وأشعل الغرب الخلافات العرقية والمذهبية والفكرية بين أبنائها وحكامها من أجل الحيلولة دون إمكانية توحدها. ولم يكن حال هؤلاء المتشرذمين بأفضل من أحوال العديد من الأقليات المسلمة التي يصل تعداد بعضها إلى عشرات الملايين وسط بحار من الكفار والمشركين.

وتم بالفعل الاحتلال العسكري لغالبية الدول المسلمة، وفي ظل هذا الاحتلال الصهيوني/الصليبي الحاقد تم العمل الدءوب على تغريب أبناء المسلمين في ديارهم بأساليب شيطانية متعددة؛ **بدأت باستبدال الشريعة الإسلامية بالدساتير الوضعية، وبإقصاء الإسلاميين كليًّا عن جميع مقامات اتخاذ القرار من أجل الحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وبإغراق اقتصاد الأمة في أوحال التعامل بالربا أخذًا وعطاءً، وإقصاء سنة رسوله ﷺ عن حياة الناس، خاصة سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل**

على حصر الدين في أضيق العبادات، والدعوة إلى إنكار الجهاد في سبيل الله، وإلى الفصل بين العبادة والسلوك، وإلى تجاهل قضية الولاء والبراء، وإلى محاكاة الحياة الغربية بفرض قيمها الهابطة الداعية إلى إشاعة الفواحش بين الناس بدعوى إطلاق الحريات الشخصية، وإلى تدمير مؤسسة الأسرة والتأكيد على حرية انفلات المرأة، وزعامة الأحداث، والخروج على أوامر الله في كل شيء، والتخطيط الشيطاني من أجل تصفية مؤسسات التعليم الإسلامي من مثل مراكز تحفيظ القرآن الكريم، والمعاهد الدينية، والكليات والجامعات الإسلامية، وتصفية القضاء الشرعي الإسلامي، وإنهاء وجود الأوقاف الإسلامية.

ولا تزال المجتمعات الإسلامية في غالبيتها الساحقة تعاني من هذا التخطيط الشيطاني حتى بعد خروج المستعمر اللعين، نظرًا لما خلف وراءه من الفرق المبتدعة، والكيانات المتغربة التي أشعل بينها وبين الإسلاميين من الخلافات والصراعات، ما استهلك الكثير من جهد الأمة، واستمر تطبيق المخططات الشيطانية الغربية في ديار المسلمين بواسطة ما غرس من المدارس والجامعات والكنائس التنصيرية، والمراكز السرية والمعلنة للعديد من المنظمات الصهيونية/الصليبية من مثل **نوادي الروتاري، والليونز، والإنرهويل**، وغيرها من مراكز الحركة الماسونية العالمية. وبواسطة ما أسس الاستعمار وأعوانه من العديد من النزعات المذهبية، والقومية، والعرقية، وما أشاع من الخرافات والأساطير والبدع، ومن مظاهر الشرك بالله تعالى، وما أسس من دعاوى الاستخفاف بالشرائع الدينية بواسطة الحركات الإلحادية المتسترة بمختلف الأقنعة الزائفة، والأسماء البراقة الخادعة، والحركات الداعية إلى الرجوع إلى الأصول الحضارية أو العرقية القديمة مما كان قبل الإسلام من عقائد وثنية فاسدة.

وكانت كل هذه الجهود الشيطانية من أجل صرف المسلمين عن دينهم، والتخطيط من أجل إغراء أغنياء المسلمين بالمبالغة في حياة البذخ، والترف، والإسراف المخل، والمغالاة في التظاهر والتسابق، والبطر وكفر النعم، والإغراق في الفسق والفجور، وفي الخروج على أوامر الله، والإكثار من المعاصي، والدعوة إلى الانغماس في ماديات الحياة، ونسيان رسالة الإنسان فيها، والإغراء بسيادة الأنانية الفردية، واختفاء الروح الجماعية، وإهمال العمل الاجتماعي حتى يبقى

ساحة للقوى الاستعمارية المعادية التي تشتري ولاء الأفراد من خلاله، وإخراج معظم الأنشطة الحياتية ومنها العمل السياسي عن مفهوم الإسلام، حتى يتسنى للحكام أن يفعلوا بأممهم ما يشاءون دون أدنى رقابة من شعوبهم، مما أدى إلى ضعف الوعي السياسي والاجتماعي والأخلاقي والسلوكي عند غالبية المسلمين المعاصرين.

ومن أجل تحييد هذا المخطط الشيطاني المتكتل اليوم ضد الإسلام والمسلمين، لا بد من إفهام القائمين على سدة الحكم في ديار المسلمين حقيقةَ هذا المخطط، وتأكيد أن الفتوحات الإسلامية عبر التاريخ كانت من أجل التبليغ برسالة الله الخاتمة دون أدنى قدر من الإكراه، وهذا الهدف يمكن تحقيقه اليوم عبر مختلف وسائل الإعلام، فلا حاجة للمسلمين اليوم إلى غزو أراضي غيرهم، خاصة أن المسلمين لم يكن لهم في يوم من الأيام أية أطماع استعمارية تخرب الديار، وتسفك الدماء، وتهتك الأعراض، وتنهب الثروات، وتدمر الأخلاق والذمم والسلوكيات، وتشيع الفواحش بين الناس كما فعل الاستعمار الصهيوني/الصليبي في القديم والحديث، ولا يزال الكفر سادرًا في جرائمه على أراضٍ إسلامية عديدة منها فلسطين، العراق، أفغانستان، كشمير، أراكان، الشيشان، البلقان، الصومال، وجنوب وغربي السودان، وفي أكثر من مكان آخر في غير هذه البلدان.

2 - غياب القيادة الإسلامية الراشدة المنبثقة عن إرادة شعبية واعية:

فجميع الدول المسلمة المعاصرة تحكمها أنماط متباينة من الحكم الموروث أو نواتج الانقلابات العسكرية والانقلابات المضادة، وبالتالي فإن شعوبها تحكم في معظمها بدكتاتوريات مستبدة،ليست لها أرصدة شعبية. والحاكم الذي لا رصيد له عند شعبه يسعى لطلب الدعم الخارجي، وإذا سعى لذلك وقع في حبائل الشيطان، وأصبح أسيرًا لمن يدعمه من القوى الكبرى في العالم. وفي نفس الوقت لا يستطيع مثل هذا الحاكم إلا أن يركز همه كله على كرسي الحكم، وينسى في غمرة ذلك مصالح شعبه وأمته، ومن أوائلها السعي لتوحيد المسلمين من جديد ولو على مراحل طويلة، حتى نجد لنا مكانًا في عالم التكتلات الذي نعيشه، والذي يصفه علماء الاجتماع بأنه لم يعد فيه مجال لتجمعات بشرية أقل من ثلاثمائة إلى أربعمائة مليون نسمة أن تكون لها بصمة على مجريات الأحداث العالمية، وأن على أي تجمع بشري أقل من ذلك أن يحيا تابعًا للقوى الكبرى التي تتحكم في عالم اليوم.

وأمثال هؤلاء الحكام - الذين لا ينبثقون عن إرادة حقيقية من شعوبهم - لا يمكن أن يتم بهم إصلاح، ولا أن تتحقق بهم آمال أو طموحات كبيرة، ولا أن يحققوا شيئًا من مسئولياتهم أمام الله وأمام الناس، وبذلك فإنهم إن لم يبادروا بالتوبة إلى الله وبالتصالح مع شعوبهم، فقد حكموا على أنفسهم بخسران الدنيا والآخرة؛ لأنهم يحكمون شعوبهم بالقهر والاستبداد، وبتزوير نتائج الانتخابات، وبتقريب كل من يعينهم على هذه المفاسد، ويصرون على إبعاد كل صالح عن مقامات السلطة، فيفقدون بذلك شروط القيادة الإسلامية المسئولة، ويضيعون على شعوبهم كل وسائل التمكين في الأرض، فتنهار أممهم، وتتحول شعوبهم إلى قطيع من العبيد الأذلاء، أو المنافقين المتملِّقين الأرقاء، ومثل هذه الشعوب الضعيفة لم يعد لها في زمن القوة المادية الذي نعيشه أي مكان. ومثل هؤلاء الحكام تقتلهم الأنانية الفردية في التمسك بكراسي الحكم، فلا يمكن أن تتحقق بهم وحدة المسلمين، وهي طوق النجاة للأمة في حاضرها ومستقبلها.

3 - **إثارة الفتن والحروب الطائفية وقد برعت مخابرات الغرب في العبث ببلادنا بهذه الفتن التي زرعوها في كل شبر من أراضي المسلمين** وذلك مثل ما حدث في كل من لبنان والعراق والسودان، وبين العراق وكل من إيران والسعودية، وبين الأردن والكويت، وفي الصومال، وفي جنوب وغربي السودان، وبين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة، وبين السعودية وكل من قطر والإمارات العربية المتحدة واليمن، وبين سوريا وتركيا، وفي كل من البلقان، والقوقاز وأراكان، وجنوب الفلبين، وفي كل من شرقي تيمور، وإقليم آتشيه الإندونيسيين، والعمل على فصل كل من سنغافورة وبروناي عن ماليزيا، وغير ذلك كثير.

4 - **غياب مبدأ الشورى في النظم الحاكمة:** فغالبية النظم الحاكمة في الدول الإسلامية المعاصرة هي نظم استبدادية سلطوية لا تحتكم إلى مبدأ الشورى، وهم يعلمون أو لا يعلمون أنه تعظيمًا لأمر الشورى وتنويهًا بمنزلتها وأهميتها سمى ربنا - تبارك وتعالى - إحدى سور القرآن الكريم باسم «الشورى»، وأمر خاتم أنبيائه ورسله ﷺ أن يشاور أصحابه في كل أمر يعرض له، وهو - صلوات الله وسلامه عليه - الموصول بالوحي، والمعلم من قبل رب العالمين،وذلك كي يكون قدوة لغيره من مسئولي المسلمين، وفي ذلك يقول له ربنا - وقوله الحق -:



- ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: 159).
- وامتدح ربنا – تبارك اسمه – عباده المؤمنين بقوله العزيز: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى: 38).

ووقوع صفة (المشورة) بين المؤمنين ضمن صفات تعد من الأركان الأساسية في الدين، يدل على جلال موقعها، وعلى أمر الله – تعالى – بها. ولذلك قال أبو هريرة – رضي الله عنه –: «**ما رأيت أحدًا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ**»[1].

والمشورة بالنسبة للحكام، والرؤساء، والأمراء، ولكل من هو في مقام المسئولية لها حكم الوجوب، واعتبرها عدد من فقهاء المسلمين من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، وهي بالنسبة للأفراد والعائلات لها حكم الندب لا الوجوب؛ وعلى ذلك فكل أمر مشترك بين جماعة هو شورى بينهم من أجل استخراج الرأي الصواب والتدبير السديد، خاصة في مجالات مثل الأمور السياسية، والأحكام الفقهية والقضائية، وفي الأمور الخلافية التي لا نص فيها والتي تستلزم الخروج من الأهواء والمؤثرات الذاتية، وتمنع الاستبداد والطغيان الذي ترزح تحته غالبية الشعوب المسلمة في هذه الأيام، والتي تحتاج إلى إشاعة شيء من الحرية حتى تنهض الأمة من كبوتها الراهنة، **وذلك لأن الله – تعالى – قد جعل الشورى خلقًا أساسيًّا في شخصية المسلم وسلوكه، وقاعدة لازمة في تدبير المصالح المشتركة بين الناس خاصة في شئونهم العامة،** ولذلك وضع لأهل الشورى مواصفاتهم الخاصة بهم. **وتتباين الآراء: هل الشورى معلمة أو ملزمة؟ ويميل غالبية العلماء إلى جعلها ملزمة في القضايا العامة للأمة.**

5- **ركون الشعوب إلى الاستكانة والضعف حتى وصلت إلى العجز عن المطالبة بأبسط الحقوق المشروعة:** والمطالبة بالحقوق شكل من أشكال مراقبة الأمة على أعمال الحكام. والحاكم الذي لا يراقبه شعبه تطغيه السلطة المطلقة إلى شيء من الاستبداد والتفرد بالرأي إن لم يكن إلى شيء من الفساد والمظالم واستغلال السلطة إلى أبعد الحدود.

(1) سنن الترمذي – كتاب الجهاد – باب ما جاء في المشورة.

6- **استسلام الشعوب للحكم بغير ما شرع الله،** على الرغم من علم غالبية المسلمين بالخطورة الشرعية للحكم بغير ما أنزل الله، فقد رضخت لأعداد من الدساتير الوضعية التي تسمح بالعديد من المخالفات الشرعية التي تصل إلى حد الكبائر؛ من مثل إباحة كل من **الربا، والزنا، وشرب الخمر ونوادي الليل، وموائد القمار، والإعلام الفاضح، والعري الكاشف عن العورات** وغيرها. وقد توقفت المجتمعات المسلمة - في غالبيتها - عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توقفًا تامًّا، والرسول (صلوات الله وسلامه عليه) يقول: **«كلا! والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطُرُنَّهُ على الحق أطرًا، ولتقصُرُنَّهُ على الحق قصرًا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضًا ثم لَيَلعننَّكم كما لعنهم»**[1].

7- **بعثرة إمكانات الأمة بتفتيتها،**

أدى تمزيق أمة الإسلام إلى أكثر من (62) دولة ودويلة إلى بعثرة إمكانات الأمة، وبالتالي أدى إلى تخلفها علميًّا وتقنيًّا، وإلى انحسارها سياسيًّا، وإعلاميًّا، وتربويًّا، وإلى هزيمتها عسكريًّا، كما قسمها إلى تجمعات بشرية صغيرة لديها فائض من الأموال الوفيرة، وتجمعات كبيرة تحتاج إلى رءوس الأموال للاستثمار في عمليات الإنتاج، وللأسف الشديد فاضت ثروات المسلمين إلى بنوك أوروبا وأمريكا، حيث خسرت أكثر من تريليون دولار في الأزمة المالية العالمية الأخيرة وحدها، وحرمت منها بلاد المسلمين. والثراء الزائد عن الحد أدى بالعديد من التجمعات المسلمة إلى الإسراف المخل في مظاهر الحياة الزائلة، والمغالاة في الترف، والاغترار بالثروة واستخدامها في غير ما يرضي الله - تعالى -، مما وصل بالعديد من أثرياء المسلمين إلى البطر وكفر النعمة، والاستعلاء والكبر، والظلم، وغمط الحق، والإغراق في المعاصي، وكلها من مسببات ضعف الأمم ومن مبررات زوال النعم.

8- **غياب المرجعية الدينية العليا المستقلة عن السلطة الحاكمة؛** وبغياب مثل هذه المرجعية المنتخبة من قبل هيئات كبار العلماء والتي تلقى الاحترام والقبول من مجموع الشعوب: فقدت الأمة وحدتها الدينية، وتفرقت إلى العديد من الجماعات والهيئات والفرق، وفي ظل ذلك أُهْمِل الاجتهاد، وتمت محاولات عديدة للقضاء على المؤسسات الإسلامية الهامة من مثل **الأزهر الشريف، والقضاء الشرعي، والأوقاف الإسلامية،** وصدر العديد من الفتاوى الخاطئة، وكثرت

---

(1) سنن أبي داود - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي.



الاجتهادات من غير المؤهلين، وتضاربت الآراء، وتعارضت الرؤى بين المسلمين وتفرقت كلمتهم، مخالفين بذلك أمر نبيهم الذي نهى عن اختلاف أمته فقال ﷺ: «**لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»(1).

وفي رواية أخرى: «**إنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**»(2).

وقال ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ... ﴾ (آل عمران: 103).

والمقصود بالاختلاف المنهي عنه هو الاختلاف المذموم الذي يؤدي إلى تفرق المسلمين، وتشتت إمكاناتهم، أما الاختلاف في الرأي فلا يفسد للود قضية.

9- **فقدان معظم المسلمين اليوم للفقه الديني الصحيح ومن أسسه الالتزام بفريضة الولاء والبراء:** مخالفين في ذلك أوامر الله – تعالى – وأوامر خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وفي ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى –:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران: 28).

ويقول – سبحانه تعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (المائدة: 51).

ويقول رسول الله ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله عز وجل**»(3).

وكثير من مسلمي اليوم ينضم للعديد من الأندية والمراكز المشبوهة بروابطها مع الصهيونية العالمية من مثل نوادي الروتاري، والليونز، والإنرهويل، والبنائين الأحرار (الماسونية الدولية) وغيرها، وقد يكون بعض هؤلاء من رواد المساجد المحافظين

(1) صحيح البخاري – كتاب الخصومات – باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود.
(2) مسند أحمد – حديث رقم 3981، وانظر كنز العمال حديث رقم 971.
(3) صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني – حديث رقم 2539.

على العبادات. وهذه المفاصلة بين العبادة وحسن الفهم، وبين العبادة والسلوك، أضحت من أخطر الأمور في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، خاصة أن الأعداء يستغلون مثل هذه المراكز المشبوهة لسحب البساط من تحت أقدام الجمعيات الخيرية الإسلامية، ويستغلون واجهة العمل الخيري للتجسس على أمة الإسلام، ولبث سمومهم الثقافية والفكرية في المجتمعات المسلمة.

10 - **تقليص جرعات العلوم الشرعية في مختلف مراحل التعليم بشكل مخل،** وتحجيم دور المساجد في أداء الصلوات الخمس فقط، وفقدان التوعية الدينية الصحيحة في مختلف وسائل الإعلام، وتشجيع بعضها على الاستخفاف بتوجيهات الشريعة، والاستهانة بأوامر الدين، وفتح بعضها أبوابه لدعوات التغريب والغزو الفكري مما أدى إلى خلو أغلب المجتمعات في بلاد المسلمين المعاصرين من الآداب الإسلامية العامة، ومن الالتزام بأوامر الله، كما أدى ذلك إلى ترك الشباب دون التحصين اللازم أمام فتن العصر ومغرياته، فسقطت أعداد منهم فريسة سهلة للأعداء، وعمت المفاصلة بين العبادة والسلوك أغلب الأفراد، وهي من وسائل هدم المجتمعات..

11 - **تفشي الأمية في العالمين العربي والإسلامي وتدهور التعليم بصفة عامة، والتعليم الديني بصفة خاصة**، وقد أدى ذلك إلى انصراف قطاع كبير من الناس عن الدين، لعجز القائمين عليه عن تطويره لمسايرة قضايا العصر، واكتفائهم بالانكباب على القديم من الكتابات، والتهاون في منح الدرجات العلمية والإجازات التي أصبحت هدف الطالب من التعليم، وليس تحصيل العلم بذاته، وأصبح هدف المعلم المال، وليست الرسالة التي وضعته على خطى الأنبياء، ففقد كل من الأستاذ والطالب دوره في نشر العلم وكسبه.

12 - **محاربة كل الدعوات الإسلامية الراشدة** الملتزمة بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ والملتزمة بمنهج الوسطية والاعتدال، والزج بالدعاة من أفرادها إلى غياهب السجون وتعريضهم للتعذيب الوحشي وامتهان الكرامة، والإذلال المتعمد، والحكم على بعضهم بالإعدام شنقًا دون أدنى جريمة، مما يفزع الأمة في مجموعها من محاولة الالتزام بدين الله، ويدفعها إلى مجالات التغريب والانتماء إلى الأعداء إلا من رحم ربك.



13 - **زرع الكيان الصهيوني الغريب في قلب العالم العربي**: وقد تم ذلك بمؤامرة دولية حاكها الغرب بقيادة كل من بريطانيا وفرنسا، ثم تولت إثمها الولايات المتحدة الأمريكية، وتم ذلك دون أدنى حق ديني أو تاريخي أو عرقي أو لغوي أو قانوني. وقام الغرب بدعم هذا الكيان الغريب عن المنطقة غربة كاملة بالمال والسلاح التقليدي وغير التقليدي، وبالدفاع عن جرائمه غير الإنسانية وغير الأخلاقية أمام جميع المحافل الدولية، وبتمكينه من القضاء التدريجي على الشعب الفلسطيني الأعزل الذي يسقط منه في كل يوم العشرات من الشهداء، ويغرقه في بحر من الدماء والأشلاء والخراب والدمار. ويبقى هذا الكيان الصهيوني مصدرًا لاستنزاف أرواح وأموال وطاقات أبناء المنطقة حتى يربكها ويحول دون نموها وتطورها، ويبقى وسيلة ضغط في يد الأعداء، وموطئ قدم لهم للانطلاق منه من أجل تأديب كل من يعتبرونه خارجًا على أوامرهم، كما يبقى مصدرًا من مصادر التدمير لأبناء وبنات المنطقة بما يصدره إليهم من مفاسد فكرية وسلوكية من مثل دعاوى «عبدة الشيطان» وحركات «الشذوذ الجنسي»، ودعوات إدمان الخمور والمخدرات ، وغيرها من المفاسد التي تؤدي إلى نشر أمراض نقص المناعة وغيرها.

14 - **عزل مصر عن الأمة العربية بتوقيعها اتفاقية كامب ديفيد المشئومة.**

فبمؤامرة صهيونية/صليبية خبيثة تم استدراج رئيس مصر السابق أنور السادات إلى توقيع اتفاقية كامب ديفيد (أو معسكر داود) مع المجرم طريد العدالة «مناحم بيجين» في 1978/9/17م، وتحت إشراف الرئيس الأمريكي الصليبي السابق چيمي كارتر. ويقع هذا المعسكر الذي تم اختيار اسمه بخبث شديد في ولاية ميريلاند القريبة من العاصمة الأمريكية واشنطن، وذلك لما في اسمه من دلالة تاريخية محددة.

ونتج عن هذه الاتفاقية المشئومة اعتراف أكبر دولة عربية بالكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين، دون أدنى اعتراف من هذ الغاصب المحتل لأرض غيره بأي حق للشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

وبهذه المغامرة الساداتية التي لم يتم فيها استشارة الشعب المصري بمجلسيه (الشعب والشورى) ولا مجلس وزرائه ولا باستفتاء شعبي، والتي استقال بسببها

ثلاثة من وزراء الخارجية المصريين تم إفشال اتفاقية الدفاع العربي المشترك السابق توقيعها في 2 رمضان 1369 هـ/ 1950/6/17 م، وتم تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية لمدة عشر سنوات (من 1979 م إلى 1989 م).

وبتاريخ 1979/3/26 م وقع كل من محمد أنور السادات ومجرم الحرب، طريد العدالة «مناحم بيچين» ما سمي باسم «معاهدة السلام المصرية/الإسرائيلية» التي خرج منها الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين بمكاسب لم يكن ليحلم بها أبدًا، وعلى رأسها اعتراف أكبر دولة عربية بهذا الكيان الغريب عن المنطقة غربة كاملة، والذي لا حق له بالوجود فيها لا دينًا، ولا عرقًا، ولا لغة، ولا تاريخًا، ولا قانونًا، ولا بأي مبرر من المبررات. وهو كيان مفسد غرسته السياسة البريطانية/ الفرنسية في المنطقة بمؤامرة دولية دنيئة تولى إثمها بعد ذلك كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي من أجل الحيلولة دون أي توحد لدول المنطقة أو لأي تعاون حقيقي بين حكوماتها، ومن أجل إثارة الفتن والقلاقل التي تمكن الغرب من استنزاف ثروات المنطقة بالكامل وإشاعة عمليات التغريب فيها.

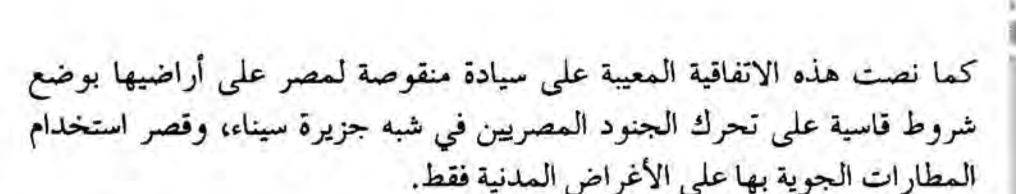
ونصت هذه الاتفاقية المشئومة على إنهاء حالة الحرب بين مصر والكيان الصهيوني، وعلى إقامة علاقات ودية بينهما في مخالفة واضحة لأوامر الله – تعالى – العديدة التي منها ما يلي:

(1) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ (المائدة: 13)

(2) ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة: 78، 79)

(3) ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ (المائدة: 82)

كذلك نصت هذه الاتفاقية – المؤامرة – على انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلية من سيناء التي احتلتها عام 1967م وقامت بسرقة جميع المنشآت التي كانت قائمة على أراضيها بما في ذلك النفط ومنشآته، والتعدين ومؤسساته، وخطوط المواصلات والآثار ومجموعات التراث ووسائل المواصلات وغيرها،



كما نصت هذه الاتفاقية المعيبة على سيادة منقوصة لمصر على أراضيها بوضع شروط قاسية على تحرك الجنود المصريين في شبه جزيرة سيناء، وقصر استخدام المطارات الجوية بها على الأغراض المدنية فقط.

كما نصت الاتفاقية على ضمان عبور سفن العدو الإسرائيلي عبر كل من قناة السويس وخليج العقبة ومضايق تيران باعتبارها ممرات مائية دولية.

وذرًّا للرماد في العيون أشارت الاتفاقية إلى البدء بمفاوضات لإنشاء منطقة حكم ذاتي للفلسطينيين في ما بقي من الأراضي الفلسطينية في كل من الضفة الشرقية وقطاع غزة وهو الوعد الذي انقضى عليه أكثر من ثلاثين سنة ولم ينفذ بعد، ولن ينفذ لأن الصهاينة الذين اغتصبوا هذه الأرض سرقة لن يسلموا بشبر منها إلا بالقتال، وهذه هي طبيعة عقلية اللصوص في كل زمان ومكان.

هذه هي البنود المعلنة من الاتفاقية، ولكن هناك العديد من البنود السرية التي لم يعلن عنها بعد، والتي يستشف أن منها عدم محاكمة مجرمي الحرب الإسرائيليين الذين داسوا عشرات الأسرى المصريين بالدبابات أحياءً، واستخدموا العديد من الأسلحة المحرمة دوليًّا ضد المدنيين، ومنها تنازل مصر عن ميناء أم الرشراش المصري للكيان الصهيوني الذي حول اسمه إلى ميناء إيلات، وتنازل مصر أيضًا عن حقوقها المالية لنفطها وثرواتها المعدنية التي استنزفتها القوات الإسرائيلية المحتلة لمدة ست سنوات متواصلة وما سرقوه من أجهزة ومعدات تقدر قيمتها بمئات المليارات من الدولارات، وامتناع الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين عن التوقيع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية، والتعهدات المصرية بتزويد هؤلاء الأعداء بالنفط والغاز المصري بأسعار دون تكلفة استخراجها، وبتزويدهم بحصة من ماء النيل، وما خفي كان أعظم!!

وقد شجعت هذه الاتفاقية المشئومة الكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين على المزيد من سرقة الأراضي الفلسطينية وإقامة عشرات الآلاف من المستوطنات غير الشرعية عليها، كما شجعتها على إحاطة مدينة القدس بسياج من المساكن والمنشآت والمعابد اليهودية تمهيدًا لهدم المسجد الأقصى.

كما شجعت هذه الاتفاقية التآمرية العديد من الدول العربية والمسلمة على الاعتراف سرًّا أو جهرًا بالكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين، وتبادل

العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية معه، والرسول ﷺ يقول: «**إذا ديس شبر من أرض المسلمين فالجهاد فريضة...**».

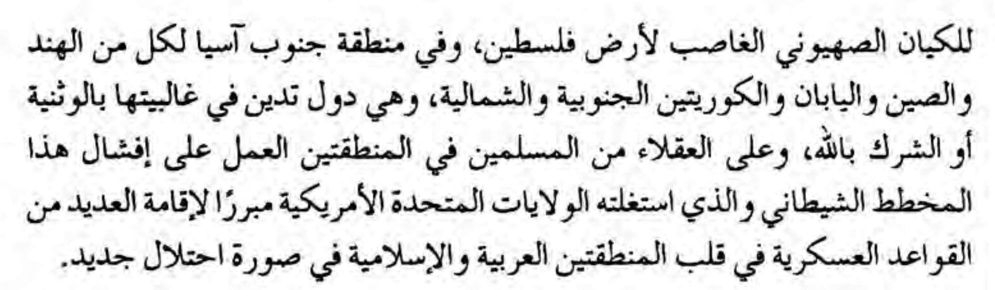
ولن تقوم للعرب قائمة حتى يعوا دلالة هذا الحديث الشريف، فيجمعوا كلمتهم ويوحدوا صفهم، ويخططوا لخوض المعركة الفاصلة بيننا وبين اليهود والتي قال عنها رسول ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**»[1].

وبديهي أن ذلك لن يتحقق حتى **تلغى اتفاقية الذل والعار التي خدع بها اليهود والنصارى رئيس جمهورية مصر محمد أنور السادات وأوقعوه بها في عدد من المخالفات الشرعية الجسيمة، ومزقوا بها وحدة الأمة، وأنهوا بها اتفاقية الدفاع العربي المشترك ومزقوا جامعة الدول العربية** ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: 21).

15 - **الاحتلال الغربي الجديد للمنطقتين العربية والإسلامية** بغزو القوات الأنجلو/أمريكية وحلفائها لكل من العراق وأفغانستان – وهما دولتان عضوان في هيئة الأمم المتحدة – متجاوزين بذلك قرارات كل من تلك الهيئة ومجلس الأمن الدولي، ومخترقين كلَّ القوانين والأعراف والاتفاقات الدولية، ومستخدمين العديد من الأسلحة المحرمة ضد المدنيين، وكان في ذلك كله، بالإضافة إلى سلوكيات القوات الغازية، ضد الأسرى والمعتقلين، ما يصم هذه الحملة الصهيونية/الصليبية الجديدة بأبشع ما يمكن أن توصف به من نعوت لخلوها من كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية.

وهذه الحملة الاستعمارية الجديدة والمزودة بأعتى وسائل التسليح من الأسلحة التقليدية وغير التقليدية وأسلحة الدمار الشامل تخطط لمزيد من تمزيق المنطقتين العربية والإسلامية إلى أعداد كبيرة من الكيانات الصغيرة على أساس من الخلافات العرقية والدينية، والمذهبية، والطائفية والفكرية حتى تبقى الهيمنة في المنطقة العربية

(1) صحيح مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.



للكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين، وفي منطقة جنوب آسيا لكل من الهند والصين واليابان والكوريتين الجنوبية والشمالية، وهي دول تدين في غالبيتها بالوثنية أو الشرك بالله، وعلى العقلاء من المسلمين في المنطقتين العمل على إفشال هذا المخطط الشيطاني والذي استغلته الولايات المتحدة الأمريكية مبررًا لإقامة العديد من القواعد العسكرية في قلب المنطقتين العربية والإسلامية في صورة احتلال جديد.

16 - **تعطيل اتفاقيات الدفاع المشترك بين الدول العربية وبعضها البعض، وبينها وبين الدول الإسلامية، وكانت اتفاقية الدفاع العربي المشترك قد سبق توقيعها في الثاني من رمضان سنة 1369هـ (الموافق 1950/6/17 م) وأعطت للعرب شيئًا من الهيبة التي ضاعت بالكامل بتعطيل تلك الاتفاقية.**

17 - **الدعوة الشيطانية إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية** من أجل عزل المسلمين عن دينهم وتراثهم كما حدث في تركيا من قبل، ونشر نسخ محرفة عن القرآن تحت مسمى «**الفرقان الحق**» الذي تقوم كل من المخابرات الأمريكية والإسرائيلية بتوزيعه في الدول العربية وبوضعه على شبكة المعلومات الدولية إرباكًا للمسلمين، وصدًّا عن دين الله لكل من يريد التعرف عليه.

من عوامل بعث الأمة

(1) الإيمان بحتمية **إعادة توحيد الدول المسلمة في دولة واحدة** دستورها القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ مع الاستفادة بكل إيجابيات العصر في سبيل تحقيق ذلك، والعمل على أن تتم هذه الوحدة على مراحل مدروسة بروية وأناة مستفيدين بتجربة الوحدة الأوروبية.

(2) إذا توحدت الأمة المسلمة توافر لها من الإمكانات المادية والبشرية ما سوف يمكنها من **تحقيق نهضة تعليمية وعلمية وتقنية واقتصادية واجتماعية** توصلها إلى مصاف العصر إن لم تسبقه في زمن قياسي لا يتجاوز عقدين من الزمن.

(3) وفي مقدمات العمل لتوحيد الأمة **تكثيف الدعوة الإسلامية** في الداخل والخارج؛ لأن وسيلتنا في كسر الطوق الحديدي الذي فرضته السياسة الصهيونية/الصليبية علينا هي كسب قواعد من المسلمين في كل أنحاء العالم

وذلك بحسن عرض الإسلام على الناس جميعًا بلغة العصر التي يفهمونها وهي لغة العلم. وما أحْسِنَ عرض الإسلام العظيم على عاقل في زماننا باللغة التي يفهمها ورفضه أبدًا. وفي خلال هذه الدعوة لا بد من التركيز على إيمان المسلم بالأخوة الإنسانية، وبوحدة الرسالة السماوية، وبجميع أنبياء الله ورسله، دون أدنى تفريق، وإيمانه كذلك بحرية اختيار الدين بإرادة كاملة دون أدنى إكراه، والتأكيد على أن هدف الفتوحات الإسلامية كلها كان التبليغ بالرسالة السماوية الخاتمة وليس الغزو والاستعمار وفرض الدين بحد السيف كما يشاع، لأن هذا هو الذي فعلته كل القوات الغربية الغازية، وتوظيف كافة وسائل الإعلام المعاصرة في التعريف بدين الله الذي لا يرتضي ربنا -تبارك وتعالى- من عباده دينًا سواه.

(4) ومن أجل إنجاح الدعوة الإسلامية لا بد من إقناع جميع حكام الدول الإسلامية بأن الدعوة إلى دين الله هي **طوق النجاة** لنا وللعالم الذي يتردى نحو نهاية لا يعلمها إلا الله - تعالى - وهذه الدعوة الإسلامية هي السلاح الوحيد الذي بقي بين أيدي مسلمي اليوم للدفاع به عن دينهم، ومقدساتهم، ودمائهم، وأعراضهم، وأراضيهم، وثرواتهم، وقضاياهم، وباقي حقوقهم. وانطلاقًا من ذلك لا يجوز أن يفرط في واجب الدعوة إلى دين الله مسلم عاقل أبدًا، وكلما بادرنا بذلك نجحنا في إفشال المخطط الشيطاني الرهيب الذي يعده لنا غلاة الحركة الصهيونية/الصليبية الحاكمة في الغرب والذي قد يمتد إلى محاولة هدم كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس أو احتلالها بالقوة وحرمان المسلمين من الوصول إليها لا قدر الله.

(5) ومن أجل إقناع حكام العالم الإسلامي الحاليين بضرورة العمل على وحدة المسلمين، وعلى الاجتهاد في الدعوة إلى الإسلام العظيم لا بد من التأكيد لهم أنه لا مطمع للدعاة إلى الله في كراسي حكمهم، ولكن المطلوب الوحيد منهم هو **توبة صادقة إلى الله - تعالى - عن كل ما كان يرتكبه الفرد منهم من المعاصي والمحرمات**، لأن كثرة الذنوب تحبط الأعمال. ولا بد من دراستهم المتعمقة للإسلام حتى يفهموه ويقتنعوا به ويبدءوا في تطبيقه في تدرج منطقي مقبول حتى يتمكنوا من إقامة شرع الله كل في سلطانه، وحتى يصبح



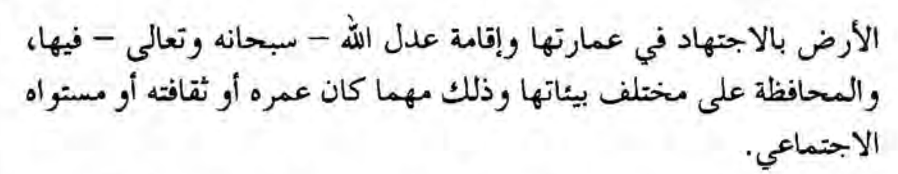
كل واحد منهم قدوة لشعبه، وبذلك يسهل العمل على توحيد المسلمين على أساس من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأن المسلمين أعراق مختلفة لم يجمعهم في القديم إلا الإسلام، ولن يجمعهم في الحاضر والمستقبل أمر غيره.

(6) وإذا تعذرت هداية الحكام الحاليين فلا بد للشعوب المسلمة من الاجتهاد في **التمكين للإسلام** والإسلاميين من سدة الحكم بالتدريج وبطرق مشروعة وبالعمل المدروس على أسلمة التعليم، والإعلام والاقتصاد والسياسة والبحث العلمي والتقني، وأسلمة بقية أنشطة الحياة في الدولة مع حسن اختيار الذين يقومون بذلك؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه؛ أملًا في توفيق الله –تعالى– لعدد من القيادات الربانية في الوصول إلى مناصب اتخاذ القرار.

(7) الدعوة إلى **تكوين مرجعية دينية واحدة للعالم الإسلامي** من العلماء والفقهاء الربانيين الذين يختارون لعلمهم وورعهم بغض النظر عن جنسياتهم، وإعطائهم الاستقلالية الكاملة عن السلطة الحاكمة في الدولة ماليًا وإداريًا وذلك بإحياء سنة الوقف وسنة توقير أهل العلم، وتشجيعهم على الاجتهاد في إيجاد حلول شرعية لمشكلات العصر ومستجداته، وتكوين مجلس أعلى للإفتاء لا يخرج إلى الناس إلا برأي موحد حتى لا يفتنوا كما هو واقع الآن، والسعي لإعادة إحياء التعليم الشرعي بجميع مراحله، وبكل مؤسساته، والعمل على تطويره بما يلائم العصر دون المساس بالأصالة.

(8) إحياء سنة **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** في المجتمعات المسلمة المعاصرة بصورة ملائمة للعصر، ومحاربة كل صور الفساد الموجودة حاليًا بحزم وعدل، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وإلى محاربة الخرافات والأساطير والبدع ومزالق الشرك الخفي، ومقاومة محاولات الاستخفاف بالدين أو الاستهانة بأوامر رب العالمين – سبحانه وتعالى – أو بأوامر رسوله ﷺ، ومقاومة كل محاولات الغزو الفكري ومخططات التغريب وذلك بإحياء الأمر بالولاء والبراء.

(9) التأكيد على **ضرورة فهم الإنسان لحقيقة رسالته في هذه الحياة عبدًا لله** – تعالى – يعبده بما أمر، كما يعبده بحسن القيام بواجبات الاستخلاف في



الأرض بالاجتهاد في عمارتها وإقامة عدل الله – سبحانه وتعالى – فيها، والمحافظة على مختلف بيئاتها وذلك مهما كان عمره أو ثقافته أو مستواه الاجتماعي.

(10) **تطهير المجتمعات المسلمة من إمكانات الدس الأجنبي** عن طريق التعليم أو التطبيب أو المساعدات الخارجية والنوادي الاجتماعية، وذلك بالتدريج، ومراقبة هذه المؤسسات الأجنبية بدقة بالغة، والعمل على دعوة العاملين فيها للإسلام بدلًا من تركهم يفسدون معتقدات أبناء الأمة، حتى يتم التخلص من هذا الوجود الأجنبي بالكامل.

(11) العمل على **إلغاء كل صور المراكز والأندية المشبوهة** من مثل الحركات **الماسونية العالمية** وأذرعها المنتشرة كالأخطبوط في ديار المسلمين كافة من مثل **نوادي الروتاري والليونز والإنرهويل** وأمثالها، وكذلك محاربة كل الدعاوى المشبوهة من مثل دعاوى البهائية، والقاديانية، وشهود يهوه، وكل الدعاوى الإلحادية والمشركة.

(12) السعي الحثيث **لتوحيد جماعات المسلمين**، وإزالة الخلافات القائمة بينها، ولو على مراحل متدرجة، حفاظًا على سلامة ووحدة العمل الجماعي المنظم، ومحاربة لدعاوي تفرقة الأمة وتمزيقها، ولدعاوى العصبية التي نهانا عنها رسولنا ﷺ، سواء كانت حركية أو مذهبية أو طائفية، أو دينية، أو عرقية أو طبقية، والتي جاء الاحتلال الأنجلو/أمريكي لإثارتها من جديد.

(13) الإصرار على **تطهير جميع أراضي المسلمين من المحتلين الغاصبين**، وعلى إحياء فريضة الجهاد بدءًا بأراضي فلسطين والعراق وأفغانستان، والعمل على إفهام العالم أن الجهاد فريضة إسلامية لرد الظلم والظالمين عن الناس كافة؛ مسلمين وغير مسلمين، وأنه ليس مقدمة للاستعمار والاستعباد، واستنزاف الثروات ونهبها كما فعل ولا يزال يفعل الطغاة من غير المسلمين.

والجهاد كما يكون بالنفس والمال يكون بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة والمنطق السوي، كما يكون بالتوعية المستمرة للناس أفرادًا وجماعات، وبالإصرار على الحق والتمسك به وعدم التفريط فيه مهما طال الزمن.

(14) **العمل الدءوب على حمل قضايا الأمة الإسلامية** والدفاع عنها، وذلك من مثل تفنيد المزاعم الصهيونية المختلقة بدعوى بحق لهم في أرض فلسطين، ومزاعم الولايات المتحدة وحلفائها في دعوى حق لهم باجتياح كل من العراق وأفغانستان، أو بدعوى الجمهوريات الروسية بحق لها في احتلال أراضي كل من الشيشان، وداغستان، وتتارستان، وبشكيرستان، والقوقاز، وأوسيتيا، وأبخازيا وغيرها من الأراضي الإسلامية في آسيا الوسطى، أو بدعوى الهند في احتلال أراضي كشمير، وغير ذلك من تعديات على بلاد المسلمين.

(15) **العمل على عودة المال الإسلامي إلى ديار المسلمين**، والدعوة إلى حسن استثماره والمحافظة عليه وتنميته، وتوجيه الأمة إلى مقاومة الإغراق في الإسراف المخل، والترف المهلك، والانغماس في ملذات الحياة الدنيا حتى لو كانت حلالًا، فوصية رسول الله ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1]، وقال – عليه الصلاة والسلام – حينما مر بخيمة مزدانة في المدينة قولته الشهيرة: «**اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**»[2].

(16) الدعوة إلى **تطبيق الشورى** الإسلامية انطلاقًا من قول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

(الشورى: 37 – 38).

وانطلاقًا من الأمر الإلهي إلى رسول الله ﷺ الذي يقول له فيه ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ ...وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: 159). والشورى قاعدة راسخة في الإسلام، وواجب شرعي كلف الله – تعالى – به رسوله، ومن ثم كان تكليف كل مسئول في مجال مسئوليته.

(17) **وضع الخطط اللازمة للتعريف بحقيقة الإسلام وذلك** بعقد الدورات لمختلف مستويات الأمة خاصة لأفراد السلك الدبلوماسي المسلمين الذين يحتكون

---

(1) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب قول النبي ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل.
(2) صحيح البخاري – كتاب الرقاق – باب ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة.

بغير المسلمين، وعن طريق مختلف وسائل الإعلام من مثل كل من الفضائيات وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) وعن طريق الكوادر الغربية والشرقية التي مَنَّ الله - تعالى - عليها بالإسلام وهي الآن بمئات الآلاف في العديد من دول العالم؛ والعمل على تنشيط المراكز الإسلامية والمعاهد الثقافية فيها، والدعوة إلى عقد سلاسل من المحاضرات والحوارات والمناظرات عن الإسلام في المدن الهامة من العالم، وعلى نشر سلاسل من الكتب والنشرات التي تعرف بالإسلام خاصة ما كتب منها بأيدي الذين أسلموا من أبناء الأمم الأخرى.

هذه بعض النقاط المقترحة لإعادة بعث الأمة الإسلامية من جديد حتى تتمكن من استرداد مكانتها الرائدة والهادية لغيرها من الأمم، أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن تجد من المسئولين على مختلف المستويات آذانًا صاغية، وقلوبًا واعية، وعزائم صادقة حتى نرى دولة الإسلام شامخة من جديد، وما ذلك على الله بعزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة ببعض المراجع المختارة

أولًا: المراجع العربية:

1 – ابن أبي أصيبعة، موفق الدين:

«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» – منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965 م.

2 – ابن الأكفاني، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري (749 هـ/1348 م):

«نخب الذخائر في أحوال الجواهر»: تحقيق أنستاس ماري الكرملي، عالم الكتب – بيروت (1358 هـ/1، 1939 م).

3 – ابن جلجل، سليمان:

«طبقات الأطباء الحكماء» – منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية: القاهرة، 1955 م.

4 –ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي (ت: 367 هـ):

«المسالك والممالك – طبعة دي جويه – ليدن (1907م).

5– ابن خلدون، عبد الرحمن:

«مقدمة ابن خلدون» تحقيق علي عبد الواحد وافي – منشورات المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1957 م.

6 – ابن خلكان، شمس الدين أحمد:

«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» تحقيق إحسان عباس – منشورات دار صادر، بيروت، 1968 م.

7– ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي (ت 458 هـ/1066 م):

«المخصص»: السفر العاشر؛ المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر – بيروت، (1385 هـ/1965 م).

8 – ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي (ت 428 هـ/1037 م):

«الشفاء»: الطبيعيات، الفن الخامس/المعادن والآثار العلوية، تحقيق كل من عبد الحليم منتصر، سعيد زايد، وعبد الله إسماعيل، مراجعة وتقديم إبراهيم بيومي مذكور (الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1385 هـ/1965 م).



9 – **ابن صاعد الأندلسي، القاضي أبو القاسم:**

كتاب طبقات الأمم تحقيق لويس شيخو، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1912 م.

10 – **ابن النديم: «الفهرست» – منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، 1978 م.**

11 – **ابن الهيثم، الحسن (ت 1040 م):**

«كتاب المناظر» مراجعة وتقديم عبدالحميد صبره، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – قسم التراث العربي – الكويت 1983 م.

12 – **أحمد، رمضان أحمد:**

الرحلة والرحالة المسلمون – منشورات دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة.

13 – **أحمد، نفيس (1398 هـ/ 1978م):**

«الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي» ترجمة فتحي عثمان – منشورات دار القلم، الكويت، 1398 هـ/ 1978 م.

14 – **إخوان الصفا (القرن الرابع الهجري):**

«رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا» – تحقيق مولانا أحمد بن عبد الله، الهند، مطبعة نخبة الأخبار (1305 هـ/1887 م).

– مع تقديم لطه حسين، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (1347 هـ/1928 م)

– تحقيق عمر الدسوقي، القاهرة (1366 هـ/1947 م)، دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة.

– إعادة نشر بواسطة دار صادر، بيروت (1376 هـ/1957 م).

15 – **الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (493 – 560هـ):**

«نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، باريس، 1826، 1840 م.

16 –**الإصطخري:**

كتاب المسالك والممالك – طبعة دي جويه– ليدن (1927م).

17 – **الأهواني، أحمد فؤاد (1968 م):**

«التربية في الإسلام»، دار المعارف – القاهرة.

18 - **البابا، محمد زهير** (1974 م):

«تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة» - منشورات مطبعة «طبرية»، دمشق، 1974 م.

19 - **براون، إدوار** (1964 م):

«الطب العربي» ترجمة داود سليمان علي، منشورات مطبعة العاني، بغداد، 1964م.

20 - **البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز**:

معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقر، القاهرة، 1945م.

21 - **البوطي، محمد سعيد رمضان** (1961 م):

«تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث»؛ المكتبة الأموية - دمشق.

22 - **بوير، كارل** (1968 م):

«تاريخ الرياضيات» - منشورات شركة جون وايلي وأولاده، نيويورك، 1968 م.

23 - **البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد** (ت 443 هـ/1051 م):

«الجماهر في معرفة الجواهر»؛ تحقيق سالم الكرنكي (فرتس كرنكي) 1355 هـ/1936 م، جمعية دار المعارف العثمانية - حيدر آباد - الدكن، عالم الكتب (بيروت).

24 - ______________:

«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»؛ تحقيق الدكتور أحمد الساداتي، سلسلة تراث الإنسانية، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة (1385 هـ/1965 م)، منشورات مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية -حيدر أباد- الدكن - الهند (1378هـ/1958م).

25 - ______________:

«تحقيق نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي) أنقرة - تركيا 1387هـ/1958 م.

26 - ______________:

«القانون المسعودي» - منشورات مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، (1375 هـ/ 1955م).

27 – **تاتون، رني** (1965 م):

«تاريخ العلوم من القديم إلى 1450 ميلادية» – منشورات شركة الكتب الأساسية، نيويورك، 1965 م.

28 – **التلمساني، أحمد بن محمد المقري:**

«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (تحقيق إحسان عباس) دار صادر – بيروت 1988 م.

29 – **التيفاشي، أحمد بن يوسف** (ت 651 هـ/1253 م):

«كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار»، تحقيق وشرح محمد يوسف حسن، ومحمود بسيوني خفاجي، مطبوعات مركز تحقيق التراث – الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، (1397 هـ/1977 م).

30 – **تيلر، ف.** ش (1949 م):

«الخيمياء الأساس لعلم الكيمياء» – منشورات هنري شومان، نيويورك، 1949 م.

31 – **الجمالي، محمد فاضل** (1967 م):

«تربية الإنسان الجديد»؛ الشركة التونسية للتوزيع، تونس.

32 – **جوردن، بنجمن لي** (1956 م):

«الطب العربي في القرون الوسطى» – مجلة ولاية ميتشجان للجمعية الطبية، 1956 م.

33 – **حاجي خليفة:**

«كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» – منشورات مكتبة المثنى، بغداد (استخدم الأوفست لطبعة إستانبول 1941 م).

34 – **الحاسب، عطارد بن محمد** (ت 206 هـ/821 م):

«منافع الأحجار» تحقيق عماد عبد السلام رءوف، مركز التراث العربي، جامعة بغداد، (1407 هـ/1987 م).

35 – **الحديدي، علي رمضان** (1399 هـ/1979 م):

«دراسات العرب الهامة في علوم الأرض ومبادئ الجيوكيمياء في القرون الخمسة الهجرية الأولى» رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر (كلية العلوم – قسم الجيولوجيا).

36 – **حسن، علي إبراهيم (1397 هـ/1977 م):**

«التاريخ الإسلامي العام» مكتبة النهضة المصرية.

37 – **حسين، محمد محمد (1967)**:

«حصوننا مهددة من داخلها»؛ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت.

38 – **حمادة، عبد المنعم** (1973 م):

«من رواد الفلسفة الإسلامية» – منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1973 م.

39 – **الحموي، ياقوت**:

«معجم الأدباء» – منشورات دار إحياء التراث، بيروت.

40 – ________________:

«معجم البلدان» تحقيق وستنفلد – ليبزج (1866 – 1873م).

41 – **حميدة، عبد الرحمن** (1969 م):

«أعلام الجغرافيين العرب» ومقتطفات من آثارهم – منشورات دار الفكر، دمشق، 1969 م.

42 – **الخربوطلي، علي حسن** (1968 م):

«المسعودي» – منشورات دار المعارف، القاهرة، 1968 م.

43 – **الخوارزمي، محمد بن موسى** (ت 840 م):

«كتاب الجبر والمقابلة» مراجعة وتقديم: علي مصطفى مشرفة ومحمد موسى أحمد – الجامعة المصرية – القاهرة – 1939 م.

44 – **خليل، عماد الدين** (1407 هـ/1983 م):

«في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل» المكتب الإسلامي – بيروت.

45 – **خودابخش، صلاح الدين** (1976 م):

«حضارة الإسلام» – منشورات دار الثقافة، بيروت، 1981 م.

46 – **دراز، محمد عبدالله** (1948 هـ، 1974 م):

«دستور الأخلاق في القرآن» – دار البحوث العلمية – الكويت.

47 – **الدفاع، علي بن عبد الله** (1979 م):

«الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي» – منشورات شركة جون وايلي وأولاده، نيويورك، 1979 م.

48 – **الدمرداش، أحمد سعيد (1980 م):**
«أبو الريحان البيروني» – منشورات دار المعارف، القاهرة، 1980 م.
49 – **الدوميلي (1962 م):**
«العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي» ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى – منشورات دار القلم، القاهرة، 1962 م.
50 – **دي بور، ت. ج. (1981 م):**
«تاريخ الفلسفة في الإسلام» ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة – منشورات دار النهضة العربية، القاهرة، 1981 م.
51 – **ديسلر، جاك:**
«الحضارة العربية» ترجمة غنيم عبدون – منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.
52 – **راضي، علي محمد:**
«عصر الإسلام الذهبي (المأمون العباسي)» – منشورات الدار القومية للطباعة والنشر (فرع الساحل)، القاهرة.
53 – **الراوي، منعم مفلح (1397 هـ/1977م):**
«الموجز في تاريخ الجيولوجيا عند العرب»؛ أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب (1205 ربيع الثاني 1396 هـ/ 5–1967/4/12 م)، الجزء الأول، ص 187 – 209.
54 – ________________:
«المعادن والآثار العلوية لابن سينا وعلاقتها بأسس الجيولوجيا الحديثة»؛ أبحاث الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب (8–15 جمادى الثانية 1399 هـ/ 5–1979/4/12 م).
55 – **الرفاعي، أنور (1973 أ):**
«الإسلام في حضارته ونظمه» – منشورات دار الفكر، دمشق، 1973 م.
56 – ________________ (1973 ب):
«تاريخ العلوم في الإسلام» – منشورات دار الفكر، دمشق، 1973 م.
57 – **الزركلي، خير الدين (1969 م):**
«الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)»، بيروت 1969 م.

58 – **زمامة، عبد القادر** (1384 هـ/1964 م):

«أبو العباس التيفاشي (580 – 651 هـ/1184 – 1257 م)؛ وكتابه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار» مجلة المجمع العلمي العربي، الجزء الأول، المجلد 39، ص12–71، دمشق.

59 – **الزمخشري، الإمام أبو القاسم** (ت 978 هـ/1143 م):

«الجبال والأمكنة والمياه» – لندن (1272 هـ/1855 م)، تحقيق محمد صادق آل بحر، بغداد (1391 هـ/1938 م)، المطبعة الحيدرية بالنجف، تحقيق إبراهيم السامرائي، (بغداد 1391 هـ/1971 م)، نشر مطبعة السعدون.

60 – **سارتون، جورج** (1957 - 1979 م):

«المدخل إلى تاريخ العلومي» – منشورات شركة روبرت كريجر للنشر، نيويورك 1957م، ترجمة إبراهيم الفيومي، دار المعارف – القاهرة (1957م).

61 – **سزكين، فؤاد** (1979 م):

«محاضرات في تاريخ العلوم» – منشورات لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، الرياض، 1979 م.

62 – **السكري، علي علي** (1393 هـ/1973 م):

«العرب وعلوم الأرض» سلسلة الكتب الجغرافية رقم 17، منشأة المعارف بالإسكندرية (ج . م . ع).

63 – ______________ (1397 هـ/1977 م، 1398 هـ/1978 م):

«علوم الأرض في رسائل إخوان الصفا»، الشباب وعلوم المستقبل، العددان الثاني والثامن (القاهرة).

64 – ______________ (1399 هـ/1979 م):

«رسائل إخوان الصفا: نظرات علمية»، سلسلة كتابك، الكتاب رقم 21، دار المعارف (القاهرة – ج . م . ع).

65 – **سيديو، لويس إميلي** (1969 م):

«تاريخ العرب العام» – منشورات عيسى البابي الحلبي وشركاه، بيروت 1969 م.

66 – **الشحات، علي أحمد** (1388 هـ/1968 م):

«أبو الريحان البيروني – حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية» دار المعارف بمصر – القاهرة (ج . م . ع).

67 – **الشطي، أحمد شوكت (1976 م):**
«تاريخ الطب وآدابه وأعلامه» – منشورات مطبعة طوبين، دمشق، 1967 م.

68 – **الشكري، جابر (1979 م):**
«الكيمياء عند العرب» – منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1979 م.

69 – **الشكعة، مصطفى (1975 م):**
«معالم الحضارة الإسلامية» – منشورات دار العلم للملايين، بيروت، 1975.

70 – **صابر، منتصر، وقنواتي:**
«موجز تاريخ الصيدلة» – منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة.

71 – **الصادق، الإمام جعفر بن محمد:**
«توحيد المفصل»؛ تحقيق كاظم باقر المظفر (بغداد 1385 هـ/1955 م).

72 – **الطائي، أحمد (1981 م):**
«أعلام العرب في الكيمياء» – منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1981 م.

73 – **طوقان، قدري حافظ (1967 م):**
«العلوم عند العرب والمسلمين» – منشورات وزارة التربية والتعليم.

74 – ______________ (1968 م):
«التراث العربي العلمي في الرياضيات والفلك» – منشورات دار الشروق، بيروت.

75 – **الطويل، توفيق (1968 م):**
«العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي ودراسات علمية أخرى» – منشورات دار النهضة العربية القاهرة، 1968 م.

76 – **عبد الوهاب، حسن حسني (1785 هـ/1969 م):**
«ورقات» مطبعة المنار، تونس (في جزأين).

77 – ______________ (1348 هـ/1928 م):
«آداب المعلمين» (ممادون محمد بن سحنون عن أبيه)، تونس.

78 – **عثمان، عبد الكريم (1971 م):**
«معالم الثقافة الإسلامية» – منشورات مؤسسة الأنوار، الرياض، 1971 م.

79 – **العراقي، محمد عاطف** (1969 م):

«الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا» – منشورات دار المعارف، القاهرة، 1969 م.

80 – **عنان، محمد عبد الله** (1382 هـ/1962 م):

«مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام»؛ مكتبة الخانجي، القاهرة.

81 – **عنايت، راجي** (1978 م):

«الفارابي» – منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1978 م.

82 – ———————— (1979 م):

«الشريف الإدريسي» – منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979 م.

83 – **عودة، عبدالقادر** (1404هـ/1984 م):

«التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي» مؤسسة الرسالة – ببيروت (الطبعة الخامسة)

84 – **عيسى، أحمد البيك**:

«تاريخ النبات عند العرب» – منشورات جامعة فؤاد الأول، القاهرة، 1994 م.

85 – **الغنيم، عبد الله يوسف** (1397 هـ/1976 م):

«أشكال سطح الأرض في شبه الجزيرة العربية في المصادر العربية القديمة»، رسالة دكتوراه – جامعة القاهرة.

86 – **فراج، عز الدين** (1978 م):

«فضل علماء العرب والمسلمين على الحضارة الأوروبية» – منشورات دار الفكر العربي، القاهرة، 1978 م.

87 – **فروخ، عمر** (1969 م):

«عبقرية العرب في العلوم والفلسفة»، بيروت، 1969 م.

88 – **فروخ، عمر** (1970 م):

«تاريخ الفكر العربي» – منشورات دار العلم للملايين، بيروت، 1972 م.

89 – ————————:

«تاريخ العلوم عند العرب» – منشورات دار العلم للملايين، بيروت، 1970 م.



90 – **الفضلي، إبراهيم جواد، وغسان محمد السبتي (1404 هـ/1984 م):**

«المنقول والمدلول في الأفكار والمعارف الجيولوجية عند العرب» مجلد أعمال المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب – جامعة حلب (15 – 1982/4/16) ص 257 – 283، جامعة حلب، سوريا.

91 – **فور، إدجار، ومن معه (1394 هـ/1974 م):**

«تعلم لتكون»؛ ترجمة حنفي بن عيسى، اليونسكو؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

92 – **القرطبي، الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري (ت 462 هـ/1070 م):**

«جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله»، تصحيح وطبع إدارة الطباعة المنيرية (1398 هـ/1978 م) نشر دار الكتب العلمية، (بيروت – لبنان).

93 – **القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الكوفي (ت 682 هـ/1283 م):**

«أثر البلاد وأخبار العباد» – منشورات دار صادر، بيروت.

94 – ________________:

«عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» – تحقيق فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1973 هـ.

95 – **قطب، محمد (1394 هـ/1974 م):**

«منهج التربية الإسلامية»؛ دار الشرق – بيروت.

96 – **القفطي، جمال الدين:**

«تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء)» – منشورات مكتبة المثنى، بغداد.

97 – **قنواتي، جورج شحاتة (1959 م):**

«تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط» – منشورات دار المعارف، القاهرة، 1959 م.

98 – **كحالة، عمر رضا (1957م) :**

«معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية)» – منشورات مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، 1957 م.

99 – **كحالة، عمر رضا** (1972 أ):

«التاريخ والجغرافيا في العصور الوسطى» – منشورات المطبعة التعاونية، دمشق، 1392 هـ/1972 م.

100 – ______________ (1972 ب):

«العلوم البحتة في العصور الإسلامية» – منشورات مطبعة الترقي، دمشق، 1972 م.

101 – ______________ (1972 جـ):

«العلوم العملية في العصور الإسلامية» – منشورات المطبعة التعاونية، دمشق، 1972 م.

102 – **كراتشكوفسكي، أغناطيوس** (1957 م):

«تاريخ الأدب الجغرافي العربي» ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم – منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر (جامعة الدول العربية)، القاهرة، 1957 م.

103 – **كشك، محمد جلال** (1389 هـ/1969 م):

«طريق المسلمين إلى الثورة الصناعية»؛ دار الإرشاد، بيروت، مكتبة الأمل – الكويت 1979 م.

104 – **الكناني، بدر الدين بن جماعة** (ت 733 هـ):

«اقرأ باسم ربك الذي خلق (تذكرة للسامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد – الدكن (1353 هـ/1933 م).

105 – **لاند، رام** (1977 م):

«الإسلام والعرب» ترجمة منير البعلبكي – منشورات دار العلم للملايين، بيروت، 1977 م.

106 – **لوبون، جوستاف** (1979 م):

«حضارة العرب» (ترجمة عادل زعيتر) – منشورات دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979 م.

107 – **لوكمان، جورج** (1959 م):

«قصة الكيمياء» – منشورات المكتبة الفلسفية، نيويورك، 1959 م.

108 – **ماجد، عبد المنعم** (1391 هـ/1973 م):

«تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى»، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة.



109 – **متز، آدم** (1341 هـ/1922 م):

«الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام» (في مجلدين)؛ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، نشر دار الكتاب العربي – بيروت.

110 – **مرحبًا، عبد الرحمن** (1970 م):

«الموجز في تاريخ العلوم عند العرب» – منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1970 م.

111 – ________________ (1983 م):

«من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية» – منشورات عويدات، بيروت، 1983 م.

112 – **المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي** (ت 346 هـ/957 م):

«مروج الذهب ومعادن الجوهر» تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1958 م.

113 – **موراني حميد، وعبد الحليم منتصر** (1974 م):

«قراءات في تاريخ العلوم عند العرب» – منشورات مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر (جامعة الموصل)، الموصل، 1974 م.

114 – **مورجان، مايكل هاميلتون** (2008 م):

«تاريخ ضائع» (التراث الخالد لعلماء الإسلام ومفكريه وفنانيه) شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة.

115 – **ميلبي، ألدو** (1357 هـ/1938 م):

«العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي»؛ ترجمة عبد الحليم النجار، ومحمد يوسف موسى، نشر دار القلم بالقاهرة، (1381 هـ/1963 م).

116 – **نجاتي، محمد عثمان** (1421 هـ/2001 م):

«القرآن وعلم النفس – دار الشروق – مصر – الطبعة السابعة.

117 – ________________ (1421 هـ/2000 م):

«الحديث النبوي وعلم النفس» دار الشروق – مصر – الطبعة الرابعة.

118 – **النجار، زغلول راغب محمد (1389 هـ/1969 م):**

«محاولات الإنسان لتقدير عمر الأرض»، كتاب الموسم الثقافي لجامعة الكويت، (1388/1389 هـ)، (1968 – 1969م) ص 465 – 506.

119 – ______________ (1400 هـ/1980 م):

«أزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية – نظرة إسلامية»، مكتبة الفلاح – الكويت، مكتبة وهبة – القاهرة 1427 هـ/2006 م.

120 – (1409 هـ/1988 م):

قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر:

«كتاب الأمة»، الدوحة/قطر؛ مكتبة وهبة – القاهرة 1427 هـ/2006 م.

121 – ______________ (1426 هـ/2005 م):

موسوعة «من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم»، دار المعرفة – بيروت، لبنان (خمسة أجزاء): السماء، الأرض، الحيوان، خلق الإنسان، الإنسان من الميلاد إلى البعث.

122 – ______________ (1424 هـ/2003 م):

«الإسلام والغرب في كتابات الغربيين».

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة.

123 – ______________ (1427 هـ/2006 م):

«علوم الأرض في الحضارة الإسلامية»؛ الدار المصرية اللبنانية – القاهرة.

124 – ______________ (1428 هـ/2007 م):

«تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم»؛ مكتبة الشروق الدولية – القاهرة (أربعة أجزاء).

125 – ______________ (1429 هـ/2008 م):

«آيات النبات في القرآن الكريم»، مكتبة الشروق الدولية – القاهرة.

126 – ______________ **(تحت الطبع):**

«الإعجاز الإنبائي في القرآن الكريم».

127 – ______________ **(تحت الطبع):**

«الإعجاز التاريخي في القرآن الكريم».

128 – ــــــــــــــــ (تحت الطبع):

«الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم».

129 – **النجار، زغلول راغب محمد، علي عبد الله الدفاع (1409 هـ/1988 م):**

«إسهام علماء المسلمين الأوائل في تطور علوم الأرض»، مكتب التربية العربي لدول الخليج.

130 – **الندوي، أبو الحسن علي الحسني (1950 م):**

«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؛ المركز العالمي للكتاب الإسلامي – الكويت.

131 – **نيللينو، كارلو (1911 م):**

«علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى» – منشورات مطبعة روما، (1911 م).

132 – **نوفل، عبد الرازق (1973 م):**

«المسلمون والعلم الحديث» – منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، 1973 م.

133 – **الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب المشهور بابن الحائك (ت 334 هـ/946 م):**

«الجوهرتين العتيقتين المانعتين من الصفراء والبيضاء»؛ تحقيق وترجمة كريستوفر تول – جامعة أبسالا بالسويد (1388 هـ/1968 م).

134 – ــــــــــــــــ:

«صفة جزيرة العرب»؛ تحقيق محمد الأكوع، بيروت، (1394 هـ/1974 م).

135 – **هونكة، سيجريد (1384 هـ / 1964م):**

«شمس الله تسطع على الغرب» ترجمة فاروق بيضون، المكتب التجاري– بيروت.

136 – **وجدي، محمد فريد (1389 هـ/1969 م):**

«الإسلام دين الهداية والإصلاح (تحليل دقيق لمبادئ الدين الإسلامي)»، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة.



137 – ــــــــــــــــــــ (1390 هـ/1970 م):

«المستقبل للإسلام»؛ دار الكتاب العربي – بيروت.

138 – **الورد، عبد الأمير محمد، إبراهيم جواد الفضلي** (1397 هـ/1977 م):

«الأصول العربية لعلم الأراضة (الجيولوجيا)»، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب (5 – 12 ربيع الثاني 1396، 5 – 1976/4/12 م).

139 – **اليازجي، كمال** (1979 م):

«معالم الفكر العربي» – منشورات دار العلم للملايين، بيروت، 1979 م.

140 – **ياسين، خليل** (1980 م):

«العلوم الطبيعية عند العرب» – منشورات جامعة بغداد، بغداد، 1980 م.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

1 - Adams, F. D. (1938, 1954):
"Birth and Development of the Geological Sciences":
Dover Publishers, Inc., N.Y., Constable & Co. Ltd., London.

2 - Arnold, T.W. (1965): "The Preaching of Islam", Constable, Westminister, London.

3 - Briffault, Robert (1930): "The Making of Humanity"' Mc Millan, New York.

4 - Bucaille, Maurice (1976): The Bible, the Qur'an and Science' Paris, Seghars.

5 - Carra de Vaux, B. Baron (1921): "Penseurs de I' Islam: Les Géographes, Les Sciences Mathematiques et Naturelles, vols, 1 - 5; Geuthner, Paris. (1931): Astronomy and Mathematics, in Legacy of Islam, Ed. Sir Thomas Arnold & A. Guillaume, Oxford Univ Press, Oxford.

6 - Coulton, GG. (1938): "Inquisirion and liberty", Heinmann, London.

7 - Dampier. W.C. (1966): "A History of Sciences" Cambridge University Press, Cambridge.

8 - Draper, John W. (1910): "A History of Intellectual Development of Europe"; London.

9 - Durant, William James (1935 et seq): "The Story of Civilization".

10 - Edwards, W. N. (1931, 1967):
"The Early History of Palaeontology";
Trustees of British Museum (Natural History),
London, Publication No. 658.

11 - Escholt, M. P. (1657): "Geologia Norvigica", Christiania, (Oslo), Norway.

12 - Faul, H, & Faul, C. C. (1983): "It began with a stone: A History of geology from the stone age to plate tectonics"; John Wiley & Sons., Inc.

13 - Fuller, Graham E. & Ian O. Lesser (1995): "A Sense of Siege: The Geopolitics of Islam and te West"; Westview Press (Boulder; San Francisco; Oxford).

14 - Geikie, A (1897, 1905): "The Founders of Geology"; Mac Millan & Co. Ltd., London.

15 - Gingerich, Owen (1986): "Islamic Astronomy" Scientific American, vol. 254 (April, 1986).

16 - Granebaum, G. E. (1955): "Unity and Variety in Muslim Civilization; Chicago University Press, Chicago, U.S.A.

17 - Haskins, C.H. (1927): "Studies in the History of Medieval Science" Zvols., Harvard University Press, Cambridge, Mass., U.S.A.

18 - Hayes, J.R. (ed.) (1978) "The Genius of Arab Civilization, Source of Renaissance"; MIT Press, Cambridge, Mass.

19 - Helaine, Selin (1997): Encyclopedia of the History of Science, Technology and Medicine in Non - Western Cultures"; Dordrechl; Kluwer Academic Publishers.

20 - "Hill, Donald R. (1993): "Islamic Science and Engineering"; Edinburgh University Press.
King. David (2005): "In Synchrony with the Heavens, Studies in Astronomical Timekeeping and Instrumentation in Midieval Islamic Civilization, heiden, Brill.

21 - Holmyard, J.E. (1931):
"The Makers of Chemistry"; Oxford, Clarenden Press.

22 - Holmyard, J.E. and Mandeville, D. C, (1927):
"Avicennae de Congelationeet Conglutinatione Lapidum";
Libearie Orientaliste, Daul Geuthner, Paris.

23 - Lyell, Charles (1830-1850): "Principles of Geology"; John Murray, London.

24 - Mason, S.F. (1962):
"A History of Scienec"; Collier Books, New York.

25 - El-Naggar, Z.R. (2008): "Science Education within the Context of the Great Islamic Heritage"; Shorouk International Bookshop, Cairo, Egypt.

26 - Mullet, Clement (1868): Essai sur la Mineralogie Arabe; Journ. Asiatique, serie VI, no. II, pp. 5-81,109-253 et 502 - 522.

27 - Said, R. (1950): Geology in the Tenth Century Arabic Literature, Am. J. of Science, v. 148.

28 - Sarton, George (1931, 1950): "Introduction to the History of Science"; vols. 1 - 6; Carnegie Institution of Washington Publication, (1931); reprinted. The Williams Bwikins Co. Baltimore 1950.

29 - ________________ (1956): "The History of Science and the New Humanism"; Washington, U.S.A.

30 - Turner, Howard R. (1995): "Science in Medieval Islam"; University of Texas Press, Austin, Texas, U.S.A.

31 - Watt, W. Montgomery (1965): "Islamic Spain", Edinburgh.

32 - Wells, H.G. (1961): "The Outline of History"; Cassell, London.

33 - White, A.D. (1986): "History of the warfare of science with theology in Christendom; Appleton, New York (2 vols.).

34 - Zittel. K. A. von. (1899, 1962):

"History of Geology and Paleontology"; Munich and Leipzig, 1899; 1962.



الفهرس



دار نهضة مصر
للنشر

رسالتي إلى الأمة

هذا الكتاب يقدم إلى أمة الإسلام خلاصة تجربة استمرت لأكثر من نصف قرن بين ربوع العالمين الشرقي والغربي، وقد تغرب كل منهما عن الدين فشقيا وأشقيا أهل الأرض جميعًا..!! وقد تم ذلك بمؤامرة دولية، أدت إلى تمزيق العالم الإسلامي إلى أكثر من ستين دولة ودويلة؛ مما بعثر قدراته البشرية والمادية، وأدى إلى تخلفه بعد أن حمل لواء الحضارة في كل منحى من مناحي الحياة لأكثر من عشرة قرون كاملة.

وفي ظل هذا التمزق تم تغريب المسلمين عن دينهم، وسادت العالم حضارة مادية محضة، أخذت بأسباب التقدم العلمي والتقني من محاضن الحضارة الإسلامية، ولكنها تنكرت للدين، مما أدى إلى فقد الإنسان المعاصر لحقيقة رسالته في هذه الحياة: عبدًا لله، مُطالبًا بعبادة خالقه بما أمر، وبحسن القيام بواجب الاستخلاف في الأرض؛ بعمارتها، والمحافظة على مختلف البيئات فيها، وإقامة شرع الله وعدله في أرجائها؛ استعدادًا للموت، ولحساب القبر، ثم للبعث، والحشر، والحساب، والجزاء، ثم الخلود إما في الجنة أبدًا، وإما في النار أبدًا.

وبفقدان الإنسان لحقيقة رسالته في الحياة الدنيا أقبل عليها بشراهة وأنانية وطمع مطلق، في محاولة للهيمنة على الأرض، وإشاعة المظالم والمفاسد فيها، دون أية ضوابط أخلاقية أو دينية؛ فخسر الدنيا والآخرة.

ومن هنا جاءت هذه الرسالة لتنبه المسلمين إلى خطر الاستسلام لهذا المخطط الدولي الشيطاني، وإلى ضرورة الخروج من مأزقهم بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولملمة الشمل من جديد، من أجل مواجهة التحديات المحيطة بهم، ومن أخطرها بقاء أسباب الغلبة المادية بأيدي أهل الكفر والشرك والضلال؛ مما يؤدي إلى مزيد من إذلال أهل الأرض، والمبالغة في إفساد الحياة من حواليهم؛ و ملئها بمختلف صنوف التحلل والتسيب والانحراف عن منهج الله. (فهل وصلت الرسالة؟) اللهم قد بلغت...!!

د. زغلول النجار



www.nahdetmisr.com

